

شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : محمود درويش

سكرتير التحرير : الياس خوري

تموز (يوليو) / آب (أغسطس) ١٩٧٧

٦٨ / ٦٩

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية .

جميع الآراء الواردة تعبر عن وجهات نظر كاتبها ولا تعكس بالضرورة آراء
منظمة التحرير الفلسطينية ولا المحررين ولا المستشارين ولا الناشرين .

العنوان : بنايصة الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني
(متفرع من السادات) ، رأس بيروت ، بيروت - لبنان ،
ص.ب ١٦٩١ ، تلفون : التحرير ٣٥١٢٦١ ، التوزيع ٢٢٦٥٨٥ ،
برقيا مرابحات ، بيروت .

مدير التوزيع : غازي دانيال

سعر هذا العدد : ٧ ل.ل في لبنان ، ٨ ل.س في سوريا ، ٩ ل.ل في الكويت والعراق
١٦ درهما في دولة الامارات العربية ، ٩ ل.ل في سائر الاقطار العربية
٧٠٠ درهم في ج.ع.ل

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٥٠ ل.ل في لبنان وسوريا ، ٦٠ ل.ل في سائر الاقطار
العربية ، ٨٠ ل.ل في اوروبا وافريقيا ، ١٠٠ ل.ل في امريكا واستراليا وآسيا ؛

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٥٠ ل.ل في جميع الدول غير العربية .

الغلاف بريشة
منى السعودي

المحتويات

الصفحة ٤	الى اين ؟ ، محمود درويش *
٦	الصراع العربي الاسرائيلي من حول اميركا ، لطفي الخولي
١٥	جدل اتفاق القاهرة ، بلال الحسن
٢٢	اليمن الصهيوني : نشأة وسياسة ، وعقيدة ، صبري جريس *
٢٨	حوار مع محمود عباس (ابو مازن) ، حلول كثيرة للمسألة اليهودية ، ولا حل للمشكلة الصهيونية *
٩٣	(شهادات) وداعا ... اسرائيل *
١٠٧	المطالبة بالبوليس الدولي في لبنان ، المراحل والمواقف ، د * محمد المجذوب *
١٤٦	الاحتمال الاخير (قصة) ، الياس خوري *
١٧٢	اسبوع قصائد ، محمود درويش *
١٨٧	الفلسطينيون في الضفة الشرقية ، مؤشرات عديدة ، عصام سخيني *
٢١٠	التركيب الاقتصادي لشرق الاردن * مقدمات التطور المشوه (١٩٥٠/٢١) القطاعات الاقتصادية الحديثة / القسم الرابع / ، هاني حوراني *
٢٦٣	افريقيا ٧٧ * معادلات الصراع ومفارقاته ، سمير كرم *

نختصر الصيف ، فنقدم عددين في عدد واحد ، لتوفير مساحة من التامل في مسيرة « شؤون فلسطينية » . ونقدم دعوة حارة الى الاصدقاء والقراء للمشاركة في ابداء الرأي والملاحظة ، لكي يكون صدورنا في اول الخريف تلبية لمتطلبات المتجديد .

ننظر قليلا الى الوراء ، فنرى قدرة الكلمة على اليزوغ في اشد الايام ظلمة ، وفي اكثر الظروف قسوة . نحمل الكلمات ونمشي بين القذائف والعرق بحثا عن مطبعة وعن ورق وعن حبر . ونصر نصر على الا نتأخر عن موعدنا مع القارئ .

-
- الصفحة ٢٩ دور البحرية العربية في البحر الاحمر (٢) ، محمود عزمي .
- ٣٠٧ تقارير : ١ - النازحون ، توفيق فياض . ٢ - الجامعة الفلسطينية الشعبية ، ابراهيم ابو ناب . ٣ - الدفاع الجوي الاسرائيلي بعد حرب تشرين ، محمد علي قاسم . ٤ - الطائرة الاميركية (ف - ١٦) ، الرائد الطيار حسين عويضة .
- ٣٤٤ مراجعات : موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية : رؤية نقدية ، محمد احمد رمضان . للغيار ، لشمدين ، لادوار القريسة ، وادوار الممالك ، سميح سمارة . اولاد اسرائيل ، عباس مراد .
- ٣٥٨ شهريات : ١ - المقاومة الفلسطينية ، ب . ح . ٢٠ - المناطق المحتلة ، عبد الحفيظ محارب . ٣٠ - اسراييليات : ١ - الاسباب الرئيسية لسقوط حزب العمل ، حنة شاهين . ب - انزلاق في الموقف الاميركي تجاه التسوية ، حمدان بدر .
- ٣٩٢ رسائل : ١ - رسالة واشنطن ، نبيل حاتم . ٢ - رسالة باريس ، ليلي شهيد . ٣ - رسالة صوفيا .
- ٤٠٤ جدول بالعمليات العسكرية لقوات الثورة الفلسطينية ، مروان حميد .

إلى أين ؟

إلى أين ؟

بعدما قيل لواشنطن ما قيل ، وبعدما قال الرئيس الأميركي المؤمن ما قال ، انتهت مرحلة من مراحل الانتظار العربي التقليدي • فإلى أين ؟ • إن كل شيء يحتاج إلى إعادة نظر ، وإلى انقلاب في الرؤية ، وإلى مبادرة عربية حاسمة تجعل الموقف العربي موضوع انتظار الآخرين •

إن ربحاً ما قد توقفت فجأة • وكان ضربة من السراب قد أعادت الصحوة إلى السائرين في العراق • ومن دون تغيير جديد ، ومن دون مقدمات ضرورية ، ينقلب انتظار السلام البطيء والحتمي إلى مواجهة حرب سريعة وحتمية ، أبرز ما في دلالتها من مفارقات هو أن اليد التي تلوح بها هي اليد الإسرائيلية •

ويعرف العرب ، الآن ، أن الولايات المتحدة لا تملك ، ولا تريد أن تملك ، بناء متكامل من شروط التسوية التي ترضي الحد الأدنى من مفهوم العرب للسلام • وتدعي الإدارة الأميركية الجديدة ، أمام زائريها ، بأنها ما زالت تقرأ في كتاب البدايات ، وتنتظر قراءة الصفحة الإسرائيلية الجديدة • وقد تلاها زعيم « ليكود » منذ أيام ، ولا جديد • لا جديد إلا دفع لحظة انصراف إلى انفجار جديد •

ويعرف الفلسطينيون أن لهم وطناً ، وأن « وعد كارتر » لا يخدعهم • فهم ليسوا في حاجة إلى وطن ، وإنما هم في حاجة إلى وطنهم • وأن « وعد بلفور » الذي يوقظه هذا القناعي كان إعلان الحرب على الوطن الفلسطيني • إن العمل الفلسطيني لا يبحث عن وطن ما فوق أرض الآخرين ، بل يقاتل لبناء استقلال الوطن الفلسطيني على الأرض الفلسطينية •

ويعرف الإسرائيليون أنهم يؤسسون حياتهم على الوطن الفلسطيني • إنهم يعرفون تاريخهم • فلن يختاروا ، من تلقاء أنفسهم ، أن يعترفوا بالوجود الفلسطيني - النقي ، ولن يحلوا بأيديهم هذه المؤسسة الحربية

الا اذا ارغموا على الإدراك أن لا مفر .. ومن يرغمهم على ذلك ؟ ان
الإجابة جالسة في بيوت العرب ، في ثورتهم وفي ثروتهم ، وفي مدى وعيهم
لكنز الوقت .

وتعرف واشنطن أن العرب يعرفون أن احترامها الشكلي لاستقلالية
الإرادة الإسرائيلية ، وضيق امكانيات الضغط على اسرائيل ، هو احتيال
على الوقت وعلى العقل وعلى النفط ، فان عدم رفع خمسة بالمائة من سعر
النفط يوفر لاميركا قوة اقتصادية تشتري بها ، او تباع ، اسرائيل الكبرى .
ولكن ، هل يعرف بعض المسؤولين العرب أن اندفاعه نحو الاستيلاء على
الدور الاسرائيلي في بعض مناطق العالم لا يدفع اميركا الى الاستغناء عن
خدمات اسرائيل ، ولا يدفعها الى المقاضلة ، بل يجعلها أكثر انصرافا الى
أمانها بسبب تعدد الاصدقاء ؟

ان تفريط هذا البعض بمصادر قوة الضغط على واشنطن يعني واشنطن
من الضغط على قل أيبب . وأن « بيع موسكو بواشنطن » هو شكل من
اشكال الانتحار السياسي ، حتى بالنسبة الى عشاق واشنطن ، لأنه يفقدهم
حرص واشنطن على ضمان هذه العلاقة .

الى أين .. الى أين ؟ اننا مقبلون على فترة انفراج في التوتر السلمي !!
الذي ساد زمن الصراع العربي - الاسرائيلي طيلة عام . فالذين لا يرون
مصالح التسوية الا في البيت الأبيض ، يجب الا ينسوا ان مصالح اميركا في
أيديهم .

ان كل شيء يحتاج الى اعادة نظر ، وإلى انقلاب في الرؤية ، وإلى
مبادرة عربية حاسمة .

ومرة أخرى نصرخ : القدرة على خوض الحرب هي القدرة ذاتها على
فرض السلام .

محمود درويش

الصّراع العَرَبِيّ الاسرائيليّ .. من حَوْل أميركا

لطيفيّة الخوليّ

صحيح ان حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، وهي الحرب الرابعة في تاريخ الصراع العربيّ الاسرائيليّ ، كانت اول فعل هجوميّ من جانب العرب ضد اسرائيل واحتلالها للأرض العربيّة .

صحيح ، ايضاً ، ان حرب اكتوبر سجلت ، لأول مرة ، انتصارات عسكرية تكتيكية لصالح العرب ، كان لها آثارها السياسية والاقتصادية السلبية على اسرائيل ، داخليا وخارجيا .

صحيح ، كذلك ، ان حرب اكتوبر قد كشفت للعالم وللعرب انفسهم ، مدى ما اصبح هؤلاء الذين هزموا ثلاث مرات في اقل من ربع قرن ، يملكونه - في مواجهتهم لاسرائيل - من طاقات واسلحة ذات وزن استراتيجي . تكتسب قاعليتها - اساساً - من تزاوج القدرة القتالية المتطورة للجندي العربي والثائر الفلسطيني مع ضغط البترول العربي بفوائضه المالية المؤثرة في السوق الدولية للطاقة والنقد معا .

كُل هذا صحيح .. لكنه يظل محصوراً بوجه واحد من وجهي « المعركة السياسية الجديدة » المتداولة اليوم في المنطقة . والتي صكّتها نيران حرب اكتوبر وما تداعى عنها من احداث محلية ودولية .

على الوجه الآخر من العملة ، ثمة مجموعة اخرى من السمات الواقعية التي يجب ان لا نخفل قراءتها، والا اصبحت حساباتنا وتحليلاتنا بنوع من «الحول السياسي»

بمعنى انه اذا كان صحيحا ان حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، هي اول فعل هجومي عربي ، فان هذا الفعل لم يتمكن من ان يواصل تقدمه الى النقاط التي كان يستهدفها في خطته المحدودة في سيناء والجولان . وكان السبب الرئيسي في الشلل الذي مني به هذا الفعل ، هو تدخل الولايات المتحدة الامريكية بالنجدة العسكرية الكثيفة الى ميدان القتال في الايام الاخيرة من الحرب . وذلك على نحو اقرب الى المشاركة المباشرة منه الى مجرد الدعم التقليدي بالسلاح . الامر الذي اختار معه الرئيس المصري انور السادات ايقاف اطلاق النار ، وتجميد حركة الفعل الهجومي . وقد برر السادات موقفه حينذاك ، الذي يختلف عن موقف سابق له رفض فيه قبول نصيحة الاتحاد السوفييتي بعد النجاح في عبور قناة السويس واجتياح خط بارليف وقبيل ساعات من قيام الاسرائيليين بالتسلل الى غرب القناة خلال ما عرف باسم « ثغرة المدفوسوار » ، بأنه اذا كان في مقدوره ان يقاتل اسرائيل الا انه لا يستطيع ان يحارب امريكا بعد ان نزلت الى ميدان القتال .

وصحيح ، ايضا ، ان الانتصارات العربية التكتيكية في حرب اكتوبر قد افرخت آثارا سلبية على اسرائيل ، الا انها - في نفس الوقت - كشفت عن قصور القدرة العربية عن استيعاب هذه الانتصارات والتحكم في توجيه مسارها من ناحية ، وسرعة الاستفادة من آثارها السلبية على اسرائيل ، من ناحية اخرى ، بشكل جماعي ورشيد . الامر الذي زلزل الى حد بعيد أسس البناء الجنيني للتضامن العربي الذي قام خلال الحرب ، بدل ان يدعمه ويطوره . وفجر ، بالاضافة الى التواجد الامريكي الجديد في المنطقة - وهو موضوع بحثنا في هذا المقال - عديدا من التناقضات التي كانت تحتل مراتب فرعية او جانبية . وذلك على نحو حاد ، بلغ درجة الحرب الاهلية في موقع استراتيجي خاص من الجبهة العربية ، هو لبنان . ومع عمق واتساع حركة الاحداث ، اخذت هذه التناقضات تصعد - عمليا - لتحل محل التناقض الرئيسي « العربي - الاسرائيلي » ، في حين هبط هو بدوره الى الدرجة الثانية من الاهتمام الفعلي .

وكانت سياسة الخطوة خطوة الامريكية التي قادها « هنري كيسنجر » وزير خارجية امريكا السابق ، بعد اندحار بلاده في فيتنام وجنوب شرقي اسيا ، والتي عقدت تحت لوائها اتفاقيتين للفصل بين القوات في سيناء وثالثة في الجولان ، هي شرارة تفجير الغمام التناقضات العربية الثانوية على حساب

التناقض الرئيسي .

ذلك ان هذه السياسة ، تحت ضغط ظروف اول فعل هجومي عربي لم يكتمل بدت فيه « امريك الوقاق الدولي » - لاول مرة - بوجه نصف عابس ونصف باسم ، يثير - لدى القوى الحاكمة والمسيطره في المنطقة مشاعر متناقضة من الحيرة والخوف والامل ، طرحت نفسها كبديل موضوعي اسهل واكثر امانا من سياسة المواجهة العربية العسكرية البترولية ضد اسرائيل . وبقدر ما كانت سياسة المواجهة العسكرية البترولية تجمع القوى العربية وتبني منها وحدة عمل على الرغم من كل الاختلافات والتناقضات . بقدر ما تباينت المواقف العربية وتصادمت من حول التعامل مع سياسة الخطوة خطوة واثارها ، حتى في محيط من تفاعل معها ايجابيا .

بيد ان الشيء البارز هنا هو ان الولايات المتحدة تمكنت بهذه السياسة من ان تظهر على مسرح الصراع العربي الاسرائيلي في دور جديد مغاير لدورها التقليدي . دور « الوسيط » لا دور « المتحاز لاسرائيل » . واخذت تدعم قوة التصديق بهذا الدور لدى جانبي الصراع ، بقدر محسوب من التفهم للموقف العربي بعد حرب اكتوبر ، ويقدر محسوب من الاختلاف مع الموقف الاسرائيلي بعد زلزال اكتوبر .

وصحيح ، كذلك ، ان حرب اكتوبر ، قد جعلت العرب يكتشفون ما في حوزتهم من طاقات واسلحة ذات وزن استراتيجي ، اثبتت فاعليتها النسبية خلال ايام القتال ، الا ان هذا الوزن الاستراتيجي يتوقف ، وجودا وعدما ، على استمرار او عدم استمرار التزاوج بين هذه الطاقات والاسلحة فسي التخطيط والحركة . وليس بمجرد التواجد المنعزل لاي منها بعيدا عن الاخرى سواء في حالة السكنون ام في حالة الاستخدام المنفرد لكل منها . كما انه يتوقف على مدى ما يتوافر لدى اسرائيل من قوة عسكرية متعاضمة ذات اسلحة حديثة للغاية ، تقدم تعويضا استراتيجيا مقابلا للطاقات والاسلحة العربية ، شرط ان تظل القوة العسكرية الاستراتيجية الجديدة رهن السيطرة شبه الكاملة من طرف الولايات المتحدة عن طريق التحكم في الامداد بقطع الغيار والخبراء بل وبعض نوعيات الاسلحة مثل القنابل الارتجاجية .



تحت ضغط ظروف واقع ما بعد حرب اكتوبر وعدم توافر خطط تكتيكية محسومة وجاهزة لدى امريكا للوصول الى اهدافها الاستراتيجية في الحفاظ على مصالحها البترولية حتى اواخر القرن على الاقل ، وتعويض فقدانها

لتواجدها المهيمن في آسيا بتواجد جديد ومكثف في منطقة التماس الاستراتيجي بين افريقيا واوروبا واسيا والمشجونة بمخاض الثروة والثورة معا ، راحت امريكا تنتقل ، ارتجاليا ولكن بتقدم حثيث ، من دور الانحياز السافر المطلق لاسرائيل الى دور الوسيط بين عرب ما بعد اكتوبر ١٩٧٣ وبين اسرائيل .

بيد ان دور الوسيط ، غير مريح وغير مأمون العواقب بالنسبة لصراع تشابكت فيه عوامل قومية ودولية متعددة واتخذ ابعادا جديدة تتصل بمستقبل الطاقة البترولية عصب الاقتصاد الامريكي والغربي عموما . وذلك الى ان تكتشف طاقة بديلة مع نهاية القرن عند احسن الفروض . وبالتالي فان انفجار الصراع مرة اخرى بجميع احواله وكوارثه ، يظل امرا واردا باستمرار على الرغم من دور الوسيط ، طالما ظل اطراف الصراع يملكون التحكم في الوقت والحرية في المبادرة خاصة وان امريكا تعاني ، داخليا وعالميا ، انهاكا من نوعية جديدة في تاريخها . وذلك بسبب تراكم ازمات الطاقة والبطالة وآثار هزيمة فيتنام وفضيحة ووترجيت والقيود النسبية لحالة الوفاق الدولي المفروضة على الحركة الامريكية العنيفة المباشرة .

من هنا كان لا مفر امام امريكا ، بعد ان وصلت الى اقصى جهد لدورها كوسيط بعقد اتفاقيات الفصل بين القوات في سيناء والجولان ، ان تنتقل - وايضا ارتجاليا وتحت ضغط الاحداث - الى دور « الحكم » بين اطراف الصراع .

غير انه لا سبيل الى ذلك ، اذا ما ظل التحكم في الوقت والحرية في المبادرة بأيدي اطراف الصراع انفسهم .

واذن فان اضطلاعها بدور الحكم يتوقف على نجاحها في سرقة الوقت والمبادرة من كل اطراف الصراع في الشرق الاوسط ، لصالحها .

كيف ؟

انطلقت امريكا ، على نطاق واسع وبتكتيكات مختلفة واحيانا متناقضة ، تتناسب وتتكيف مع الخصائص المميزة لكل جهة في المنطقة تتعامل معها بمعزل عن الجهات الاخرى ، تمارس لعبة التمايزات والتوازنات بين اطراف الصراع بعضهم وبعض وداخل كل طرف على حدة . وذلك بهدف اول هو ان يصبح معه الشرق الاوسط ملعبها دون منازع قوي محلي او دولي . ويغدو قانون اللعبة بين الاطراف هو قانونها : ويهدف ثان هو اختبار ضمن القسوى لتحالفاتها في الواقع الجديد ، واسلم الطرق لحركتها المؤمنة لصالحها حتى نهاية القرن .

بلعبة التمايزات والتوازنات ، احدثت امريكا « انقلاب القصر » غير المتوقع في كتلة المعراخ الحاكمة في اسرائيل حين دفعت ، بعد حرب اكتوبر ، الى قمة حزب العمل والى رئاسة الحكومة « اسحاق رابين » سفير اسرائيل السابق في واشنطن . وكان يعتبر - وقتذاك - اقرب رجال المؤسسة العسكرية الاسرائيلية الى البيت الابيض والبنجاجون ووزارة الخارجية .

وهذا التمايز قابله في نفس الوقت ، اجراء مجموعة من عمليات التوازن بين كتلة المعراخ وبين كتلة الليكود المعارضة وذلك بتشجيع عدد له وزنه من جنرالات المؤسسة العسكرية للانضمام الى هذه الاخيرة ، او الانسلاخ عن حزب العمل وتكوين تنظيمات مستقلة كالحركة الديمقراطية من اجل التغيير (داش) التي تزعمها الجنرال يادين . وواكب هذا خلق توازن آخر ، داخل حزب العمل ، بين رابين وبين شمعون بيريز رفيق موشي دايان وخليفته في وزارة الدفاع . وهذا التوازن الاخير رافقه في نفس الوقت تمايز لصالح بيريز على حساب ديان . والاثنان رفيقا درب واحدة قاده استانهما « بن جوريون » في رحلته الصهيونية الطويلة والمعقدة من حزب العمل الى حزب راقي الى حزب العمل من جديد . واذ انسحب ديان الى الظل راحت بعض القوى الامريكية الخاصة تنسج معه علاقات على اسس جديدة تجعل منه نوعا من الاحتياطي الكامن ، يستدعى عند اللزوم .

بهذه اللعبة من التمايزات والتوازنات الدائبة والمتعددة الخطوات فسي جميع الاتجاهات داخل اسرائيل ، بعد حرب اكتوبر ، تمكنت الولايات المتحدة من ان تعصف بوحداتها السياسية وتفتت من تحالفاتها الذاتية والموضوعية التقليدية . وتفصح المجال بالتالي لاثارة حالة من الصراعات الاسرائيلية - الاسرائيلية ، تطغى خلالها ، فعليا ، التناقضات الثانوية في الواقع الاسرائيلي العنصري المتميز ، من اجتماعية وسياسية ، على التناقض الاساسي بين هذا الواقع وبين الواقع العربي . واتاح لها ، ما حصلت عليه من نتائج هذه اللعبة ، ان تسرق الوقت والمبادرة من ايدي الاسرائيليين لصالحها هي . وان تربط كل القوى المتصارعة في اسرائيل بخيوط امريكية تشدها او ترخيها حسب مقتضيات الامن الامريكي والمصلحة الامريكية اولا واخيرا .



في الجانب العربي انطلقت امريكا ، ايضا ، تمارس لعبة التمايزات والتوازنات باصرار ودون كلل وزكزت جهودها في الاساس - وبذكاء مكيفيللي - على اجراء تمايزات ذات صور مختلفة ، على المستوى

الموضوعي ، بين مصر وبين سوريا ، دولتي المواجهة الرئيسيتين ، وبين كل من دولتي المواجهة وبين الثورة الفلسطينية . وامتد التمايز ليحفر عميقا بين الدول العربية البترولية وبين الدول العربية اللابترولية أو النصف بترولية . وواكب هذه التمايزات انواع جديدة متعددة من التوازنات داخل كل بلد عربي (السعودية من خلال مقتل الملك فيصل ، لبنان من خلال الحرب الاهلية الخ) وعلى مستوى الوطن العربي كله .

وكان طبيعيا بالتالي ان تتعثر في الواقع الفعلي حركة وحدة العمل العربي التاريخية ، التي قامت لاياام محدودة ، على اساس الدفاع عن المصالح القومية المشتركة لكل من جبهة قوى المواجهة القتالية وجبهة قوى المواجهة البترولية ازاء اسرائيل وأمريكا ودول اوربا الغربية (الاستيطان العنصري والاستعمار القديم والاستعمار الجديد) .

وتمكنت امريكا بذلك ان تسرق الوقت والمبادرة من ايدي العرب لصالحها هي . وان تربط القوى المتصارعة بخيوط امريكية تشدها او ترخيها حسب مقتضيات الامن الامريكي والمصلحة الامريكية اولا واخيرا .

واندفعت قوى المواجهة القتالية ، التي تقوم اساسا على نظم ذات طبيعة وسطية اجتماعيا وسياسيا ، وتحت ضغوط لعبة التمايزات والتوازنات ، الى انتهاج خط عدم جدوى استخدام القوة المسلحة لحل الصراع العربي الاسرائيلي . وبالتالي اصبح ما يسمى العمل على تحقيق حل سلمي ، بديلا للعمل العسكري القتالي وليس امتدادا له بوسائل اخرى .

والتزمت قوى المواجهة البترولية ، التي تقوم اساسا على نظم قلقة على مستقبل ومصير ثروتها ، بانتهاج خط عدم جدوى استخدام البترول سلاحا في المعركة القتالية او السياسية من اجل الوصول الى حل للصراع العربي الاسرائيلي . وانحسر الامر الى الاقتصار على رفع اسعار البترول ، وذلك الى الحد الذي يزيد من الوزن الاقتصادي والسياسي لدول البترول على اتجاه الحركة في المساحة العربية . ويحافظ في نفس الوقت على المصالح الامريكية البترولية بما يقوي من قبضة واشنطن من جديد على غرب اوربا واليابان ، ويحد من نزوعها الى الاستقلال النسبي الذي بلغ اوجيه فسي الستينات .

وتحول البترول العربي من سلاح في المعركة الى منبع لمساعدات مالية محدودة لدول المواجهة . وذلك بالقدر الذي يجعلها تملك الحد الادنى من القدرة على مواجهة اعبائها في مواجهة المشاكل والازمات الاقتصادية والاجتماعية المتتعبة . بعضها - من ناحية - ضد تيارات التغيير الثورية

التي تموج بها المنطقة على نحو متضارب وغير موحد الاتجاه • ويقدم - من ناحية أخرى - بديلا مقبولاً من النظم العربية لمساعدات الاتحاد السوفيتي والبلدان الاشتراكية ، حيث أخذت الابواب توصلد في وجهها •



هكذا بالدخول الجديد المزدوج للولايات المتحدة من التافذتين الاسرائيلية والعربية في وقت واحد ، وبلعبة التمايزات والتوازنات التي اجادتها ، صار لها وجود مؤثر كحكم شبه منفرد في منطقة من اهم المناطق الاستراتيجية في عالمنا المعاصر واطورها على الاطلاق • ومع هذا الوضع الجديد والتميز ، تحقق لها تراكم خاص من المصالح القائمة والمحتملة في المنطقة • يتخطى الفعل وردود الفعل التقليدية للصراع الاسرائيلي ذاته • ويؤرقها بالتالي المحافظة عليه وتأمينه في مواجهة كل من اسرائيل والعرب معا من ناحية • وصراعها مع الاتحاد السوفيتي في اطار العلاقات الدولية الجديدة القائمة على سياسة الوفاق من ناحية أخرى • وضمان سيطرتها على دول غرب اوربا واليابان من ناحية ثالثة •

وقد عبر الرئيس جيمي كارتر اخيرا ، عند عرض مشروعه للطاقة في مايو ١٩٧٧ . وبعد ان تأكد من خلال الاتصالات التي اجراها مع زعماء المنطقة عن حجم ونوعية هذه المصالح القائمة والمحتملة لامريكا في المنطقة بدقة في اربع نقاط :

- **النقطة الاولى** ، تقرر ان موارد الطاقة اصبحت مسألة تدخل في صميم الامن القومي لشعب الولايات المتحدة ولشعوب العالم الغربي •
- **النقطة الثانية** ، تعين ضرورة ايجاد مخزون يكفي احتياجات امريكا لستة اشهر حتى تستطيع مواجهة اي طارئ •
- **النقطة الثالثة** ، تحدد ان على دول الاوبك (غالبيتها واهمها انتاجا في منطقة الشرق الاوسط) ان تزيد انتاجها الى درجة تتراوح ما بين ٤٧ و ٥١ مليون برميل . مع العمل على ضبط حدود الاسعار •
- **النقطة الرابعة** ، تكشف ان الولايات المتحدة تستورد في الوقت الراهن نصف احتياجاتها من البترول • وان ربع ما تستورده ، اليوم ، من البترول مصدره السعودية وحدها • وانه مع حلول عام ١٩٨٠ سوف تغدو السعودية - ايضا وحدها - المصدر لنصف جميع احتياجات الولايات المتحدة من البترول •

وكان تقرير وكالة المخابرات الامريكية في الطاقة ، الذي قدم للرئيس كارتر قبل اعلانه لمشروعه ، اكثر صراحة في تعبيره عن خطورة المصالح الامريكية البترولية ، القائمة والمحتملة في المنطقة . وذلك عندما اثبت ان ما دفعته الولايات المتحدة ثمنها لمستوردياتها من البترول قد ارتفع من ٢٧ بليون دولار عام ١٩٧٠ الى ٣٦ بليون دولار عام ١٩٧٦ . وسوف يصل الى ٤٥ بليون دولار عام ١٩٧٧ .

وان المقدّر لعام ١٩٨٥ ، بمعايير الوقت الراهن ، سوف يقفز الى ٥٥٠ بليون دولار .

ويعلق تقرير الوكالة على هذا « الرقم الاخير » بأنه يشكل فاتورة حساب لا تملك الولايات المتحدة ، تحت اي ظرف من الظروف ، الوفاء بقيمتها .

والترجمة البسيطة لكل هذا يعني ان الوجود الامريكي الراسخ والمؤثر في المنطقة يجب ان يستمر تحت اي ثمن ، في الاستحواذ على هذه « المدجاجة التي تبيض ذهبها اسود » . وان الضمان السياسي لهذا النوع من الاستحواذ في عصر الوفاق الدولي ، الذي يجمع بين التعايش وبين الصراع ، هو التواجد « كحكم » مطلوب ومرغوب من جميع اطراف النزاع العربي الاسرائيلي .

بتعبير آخر ان يحل التنافس بين كل من الجانب الاسرائيلي والجانب العربي على الحصول على صداقة امريكا وتفهمها وتبنيها لموقفه وجانبه اكثر من الجانب الآخر ، وذلك محل قيام كل من الجانبين بإدارته للصراع مستقلا في مواجهة الآخر وحلفائه ، لتحقيق ارادته .

وبهذا يتوفر المناخ المواتي لامريكا لحل مشاكلها التي تؤرقها وضمنان مصالحتها في المنطقة دون ان يتهددها انفجار الصراع العربي الاسرائيلي .

بمعنى ان امريكا « الحكم » لا يعنىها اليوم في حقيقة الامر الوصول الى حل للصراع العربي الاسرائيلي ، او على الاقل حل سريع ، بدليل ان كارتر حدد لذلك مسافة زمنية لا تقل عن ثماني سنوات ، وانما ما يعنىها بالدرجة الاولى هو كسب الوقت اللازم لحماية مصالحها القائمة والمحتملة من خلال الاستمرار في لعبة التمايزات والتوازنات الى الحد الذي يصبح معه الوضع في المنطقة مأمونا الى اقصى درجة بالنسبة لها ، ويشل قدرة وحرية كل طرف من اطراف الصراع ، عربيًا كان ام اسرائيليا ، على المبادرة المنفردة بعيثدا عن امريكا او في تناقض معها .

وبعد ٠٠ ان هذا المقال استهدف غاية واحدة هي تحليل طبيعة التحرك والتواجد الامريكى المعاصر في المنطقة ومن حول الصراع العربى الاسرائيلى .
اما ماذا يصطدم به من مشاكل اسرائيلية وعربية ودولية ؟ وما هو نصيبه من النجاح او الفشل ؟ وكيف يتسنى لنا كحركة تحرر عربية مقاومته والامسك بقوة واقتدار من جديد بدفة ادارة الصراع للصالح شعبونا وثورتنا الفلسطينية ؟ فهذه كلها اسئلة مجال مناقشتها ومحاولة الاجابة عليها في مقالات قادمة .

جدل اتفاق القاهرة

بدر الحسنة

يحتل اتفاق القاهرة حالياً ، حيزاً كبيراً في الحياة السياسية اللبنانية ، وتعلن مختلف القوى السياسية حياله مواقف شبه يومية • ويكاد يقفز الى السطح انطباع بأن الحل الأمني في لبنان مؤجل كله الى أن يتم الاتفاق حول تنفيذه • ويساعد على بروز انطباع كهذا أن اللجنة العربية الرباعية المكونة من مصر والسعودية والكويت وسوريا ، والتي أسندت إليها مهمة تنفيذ الاتفاق قد أنهت عملها في ٢٦ أيار الماضي دون أن تصل الى نتيجة • وأدى انتهاء عمل اللجنة الرباعية بهذا الشكل الى أحداث تغيير بارز في سياسات الحكومة اللبنانية ، فهي بعد أن كانت تضع لاشهر عديدة موضوع الأمن في رأس جدول أعمالها ، عادت لتطرح موضوع الاصلاح السياسي قبل الأمن ، والاصلاح السياسي كمدخل لتحقيق الأمن المفقود •

وهناك في الأوساط السياسية اللبنانية ، بل والعربية أحياناً ، من يحمل المقاومة الفلسطينية مسؤولية هذا الفشل • وبالنسبة للمواطن العادي ، فإن ما أعلن من خلاف حول تنفيذ اتفاق القاهرة ، يتعلق بنقطة جاءت في التفسير اللبناني للاتفاق رفضتها المقاومة ، وهي النقطة التي تطالب بأن يقتصر عدد رجال الميليشيا في المخيمات على ٧ بالالف من عدد السكان •

ولكن موقف المقاومة الفلسطينية وملاحظاتها وتحفظاتها ، ليس سوى بند واحد من بنود البحث الدائر حول اتفاق القاهرة ، وتقف الى جانبه مواقف أخرى عديدة ، متباينة ومتناقضة ، بحيث لا يكون من الموضوعية على الاطلاق أن

تحمّل المقاومة الفلسطينية مسؤولية التعثر القائم حول التنفيذ الكلي للاتفاق .
 وحتى تتضح هذه النقطة فسنقوم باستعراض سريع لمواقف القوى التي تتعامل
 مع اتفاق القاهرة سلبا او ايجابا .

١ - المقاومة الفلسطينية :

صحيح ان المقاومة تتحفظ حول تنفيذ اتفاق القاهرة ، ولكنها تتحفظ حول
 تنفيذ جزئي فقط ، وذلك بعد ان قامت بتنفيذ جزء كبير منه في مدى فترة زمنية
 وجيزة . فمُنذ دخول قوات الردع الى لبنان قامت المقاومة بالانسحاب من
 مواقع الجبل ، وبانهاء المظاهر المسلحة ، وبتسليم جزء من سلاحها الثقيل لقوات
 الردع ، وتسليم المرافق الحيوية التي كانت تسيطر عليها (البريد - البنك المركزي)
 الى السلطة ، وبتسفير كافة القوات النظامية الفلسطينية والعربية . وعلى ضوء
 هذه الجردة بقي أمام تنفيذ اتفاق القاهرة امران بارزان : الوضع في المخيمات
 الفلسطينية ، والوضع في الجنوب .

بالنسبة للمخيمات الفلسطينية ، فان اتفاق القاهرة يعطي للمقاومة
 الفلسطينية ثلاث قضايا :

١ - تشكيل لجان محلية تشرف على المخيم (وتكون بمثابة بلديات) .

٢ - تشكيل الكفاح المسلح الفلسطيني ليشرف على الامن (ويكون بمثابة
 شرطة) .

٣ - يتولى الكفاح المسلح تنظيم تواجد السلاح داخل المخيم . والمقصود بذلك
 سلاح الميليشيا .

وقد جاء التفسير اللبناني للاتفاق خاليا من أي اعتراض حول النقطة الاولى،
 وطلب بالنسبة للنقطة الثانية ان يكون تشكيل الكفاح المسلح بنسبة ٣ بالالف من
 عدد السكان ووافقت المقاومة على هذه النقطة ، وطلب بالنسبة للنقطة الثالثة
 ان يكون سلاح الميليشيا بنسبة ٤ بالالف من عدد السكان ، وهو ما رفضته
 وما زالت ترفضه ، وذلك لان اتفاق القاهرة نفسه لا ينص على ذلك ، ولان
 الاصرار على هذا الطلب ينطوي على اهداف قد تصل الى حد تجريد المقاومة
 من سلاحها ، وأخيرا ، وهذا هو الالم ، فان هذه المطالبة بتقليص السلاح في
 المخيم واقتصراره على أسلحة فردية خفيفة ومحدودة ، يترك المخيمات عرضة
 للاعتداءات الاسرائيلية دون توفير ادنى حد من الحماية لها ، خاصة وأن
 الجيش اللبناني لم يتكون بعد بحيث يستطيع الحاكم اللبناني ان يقول بأن
 الجيش سيتولى مهمة الحماية المطلوبة ، كجزء من عملية الحماية للارض
 اللبنانية ككل .

وتقف في خلفية هذه التحفظات الفلسطينية أربع معارك مع السلطة اللبنانية أو مع قوى متحالفة معها : معركة نيسان ١٩٦٩ ، ومعركة تشرين من العام نفسه والتي انتهت بتوقيع اتفاق القاهرة ، ومعركة ايسار ١٩٧٢ مع الجيش اللبناني ، ثم معركة نيسان ١٩٧٥ التي استمرت عاما ونصف العام ولا زالت ذبوله قائمة حتى الان .

اما بالنسبة لتطبيق الاتفاق في الجنوب ، فتسجل المقاومة الفلسطينية من حيث المبدأ انها مستعدة للتنفيذ فور ان يتم تشكيل الجيش اللبناني ، باعتبار ان التنفيذ هناك ، وبحسب اتفاق القاهرة ، مرتبط بوجود جيش يتم الاتفاق على التنفيذ معه .

وهكذا نلاحظ ان للمقاومة الفلسطينية تحفظاتها على تنفيذ الاتفاق ، ولكنها تحفظات جزئية من جهة ، ومستندة الى بنود اتفاق القاهرة من جهة اخرى ، بحيث يكون تحميلها مسؤولية تعطيل تنفيذ الاتفاق خروجاً عن الموضوعية . ومع ذلك فان ضرورة الموقف لا تتوضح بكل ابعادها الا بعد استعراض مواقف القوى الاخرى وتحديد موقعها من تنفيذ الاتفاق .

٢ - « الجبهة اللبنانية »

اعلنت الجبهة اللبنانية مؤخرًا ، وفي بيان رسمي ، انها تعتبر اتفاق القاهرة لاغيا ، لان محاولات تطبيقه كلها قد فشلت . وهذا الموقف للجبهة اللبنانية ليس موقفا سياسيا مفاجئا ، انه حصيلة لمواقف مبدئية وسياسية قديمة ومعلنة رسمية على لسان أركانها ، وهي مواقف تقول بصراحة انها ضد اتفاق القاهرة ، وضد الوجود الشعبي الفلسطيني الكثيف في لبنان ، وتحرض السلطة اللبنانية باستمرار على الغاء الاتفاق ، وعلى الاتفاق مع الحكومات العربية على اعادة توزيع الفلسطينيين في البلاد العربية ، بحيث لا يبقى منهم في لبنان الا ما يتناسب مع عدد سكانه ومع رقعته الجغرافية ، ومع امكانياته المالية . بل ان « الجبهة اللبنانية » تنتقل في عرض حججها ضد الفلسطينيين الى موقع الاتهام للعرب ، فتقول أنهم يقبلون للبنان ما يرفضونه لانفسهم ، فهم يتركون لبنان يتحمل وحده عبء العمل الفدائي ضد اسرائيل ونتائجه ، ولا يعطون الفدائيين في بلدانهم الحقوق التي يوافقون على اعطائهم اياها في لبنان .

ومن المؤكد ان المقاومة الفلسطينية لا تستطيع ان تعزل نفسها ، وهي تحاور السلطة اللبنانية على تنفيذ الاتفاق ، عن هذا الموقف الذي تمثله « الجبهة اللبنانية » ، وذلك لان الجبهة جعلت من نفسها منذ توقف القتال في لبنان ورقة ضغط على السلطة اللبنانية ، وعامل ابتزاز لها من أجل دفعها للالتزام بمواقفها . ومع أن السلطة اللبنانية لم ترضخ لهذا الابتزاز الا انها لم تستطع ان تبقى بعيدة عن التأثير بها بحكم الوزن الذي تمثله « الجبهة اللبنانية » في الحياة

السياسية .

وتعرف المقاومة الفلسطينية ان جزءا اساسيا من عملية الابتزاز الذي تمارسه الجبهة مع السلطة تحت عنوان اتفاق القاهرة ، لا يتعلق باتفاق القاهرة نفسه . بل بالازمة اللبنانية نفسها ، وبأسلوب حلها . فالجبهة تريد من السلطة اللبنانية أن يكون برنامج الاصلاح الذي تسعى الى وضعه مطابقا لمواقفها ولتصوراتها . وهي تستغل موضوع الامن بشكل عام ، وموضوع اتفاق القاهرة بشكل خاص . من أجل الوصول الى غايتها هذه . وبديهي ان السلطة تعرف هذا الهدف تماما ، وتعرف حقيقة النوايا من وراء مواقف الجبهة المعلنة . ولذلك بادرت بعد تعثر الاتفاق على نسبة الـ ٧ بالالف ، الى فتح ملف الاصلاح ، مشيعة ان الاتفاق على الاصلاح سيسهل حل المسألة الامنية .

ويشكل موقف « الجبهة اللبنانية » في جنوب لبنان ، وجها اخر لعملية الابتزاز السياسي ، أكثر حدة وخطورة . فاذا كانت السلطة اللبنانية برئاسة الرئيس الياس سركيس ، تمثل المظهر الاول من مظاهر القوة التي ترفض التسليم بمطالب « الجبهة اللبنانية » كاملة ، فان قوات الردع العربية ، والقوات السورية منها بشكل خاص ، تمثل مظهر القوة الثاني . وكما تعرضت السلطة اللبنانية لمحاولات الابتزاز من خلال مواقف الجبهة السياسية المتطرفة ، فان قوات الردع تعرضت للابتزاز من خلال مواقف الجبهة في جنوب لبنان ، وذلك باصرارها على استمرار حالة القتال في الجنوب ، وباصرارها كذلك على التعاون والتنسيق مع اسرائيل لجهة الاسناد العسكري والمدفعي الذي يمكنها من الحركة ، مع ما يمثله ذلك من هيمنة عسكرية اسرائيلية على منطقة الجنوب ، وما يؤدي اليه من تهديد لامن سوريا وقواتها المسلحة .

وقد وجهت ضربة لهذه السياسة في مطلع نيسان الماضي بالتنسيق بين المقاومة وسوريا ، ولكن المحاولات نفسها تتجدد الان حاملة في داخلها نفس المخاوف وأكثر ، ودافعة الصحافة السورية الى التحذير اليومي من مخاطر ما يجري في الجنوب .

وفي كلا المحاولتين ، السياسية ضد السلطة اللبنانية ، والعسكرية ضد المقاومة وسوريا في الجنوب ، تسعى « الجبهة اللبنانية » الى ابقاء الازمة اللبنانية مفتوحة وميدانا للمساومة . الهدوء الداخلي مقابل تسليم السلطة اللبنانية ببرنامج الاصلاح كما تراه « الجبهة اللبنانية » ، والهدوء في الجنوب مقابل تسليم سوريا بهذا البرنامج ، ومن ضمنه الغاء الوجود الفلسطيني المسلح في لبنان .

وهذه الوقائع كافية لتبرز ان ما تمثله « الجبهة اللبنانية » من عقبة امام

تنفيذ اتفاق القاهرة ، يفوق بكثير البنود الجزئية التي تعترض عليها المقاومة الفلسطينية . واذا كان اعتراض المقاومة يبقى مشكلة عالقة بينها وبين السلطة اللبنانية ، فان اعتراضات « الجبهة اللبنانية » ومطامحها تبقى الازمة اللبنانية كلها مفتوحة وعرضة للاحتتمالات الخطرة ، وهو ما يهدد المصالحة العربية اضافة الى المصالح اللبنانية . ولا يجوز في أي تقييم موضوعي ان نتذكر القليل وان ننسى الكثير ، خاصة حين تصل المواقف الى حد الاستعانة باسرائيل وتسهيل السبل امامها لتهديد أمن المقاومة الفلسطينية وتهديد الامن العربي برمته .

٣ - اللجنة الرباعية :

أتاحت الفرصة أمام اللجنة الرباعية ، بحكم طبيعة تكوينها ، ان تكون على صلة وثيقة بكافة اطراف الازمة اللبنانية ، وان تقول وان تسمع اكثر بكثير مما أتيج لغيرها . وهي بحكم تجربتها هذه ، استطاعت دون شك ، ان تعرف خلفيات المواقف بوضوح . ويبدو ان هذه المعرفة كانت سبباً اساسياً من الاسباب التي أدت الى عدم تمكنها من تنفيذ مهمتها . فيما ان المطلوب منها كان التعامل مع « نصوص » اتفاق القاهرة ، والسعي للوصول الى صيغة تنفيذية لهذه النصوص دون الدخول في الجانب السياسي من الازمة الذي يتعدى صلاحياتها ، وبما انها ادركت اثر الجانب السياسي من الازمة في تعقيد الوصول الى حل متفق عليه لقضية « النصوص » ، فقد وجدت نفسها في النهاية عاجزة عن البت والانجاز ، وسرت شائعات كثيرة عن خلافات داخل اللجنة ، بعضها يؤيد ، كما قيل ، التفسير اللبناني للاتفاق ، وبعضها يرفضه . ولكن الامر في اعتقادنا أبعد من ذلك ، فأمام تضارب النوايا السياسية ، وعدم قدرة اللجنة على الخوض في الجانب السياسي ، ارتأى بعض اعضاء اللجنة (الكويت) ضرورة التقييد بحرفية مهمتها ، أي تنفيذ اتفاق القاهرة كما هو موضوع ودون أي تفسير له من قبلها أو من قبل سواها ، وعدم الموافقة الا على ما يتفق عليه الطرفان اللبناني والفلسطيني .

وامام مخطط « الجبهة اللبنانية » الذي يسعى لابتزاز الحكم وابتزاز أمن سوريا بتوتير الوضع في الجنوب ، من أجل قرض برنامجها للإصلاح ، ارتأى اعضاء اخرون في اللجنة (سوريا) ان تنفيذ اتفاق القاهرة يجب ان يبدأ من الجنوب وليس من بيروت . وبهذا اصبحت قضية تنفيذ اتفاق القاهرة مسألة عربية اضافة الى انها مسألة لبنانية متنازع عليها .

ومؤخراً . . . حاولت سوريا ان تتقدم خطوة اخرى في محاولة ايجاد حل للتنفيذ ، فاقترحت كحل وسط ، ان يجري رفع نسبة افراد الميليشيا في المخيمات

الى ٩ بالالف ، وان يوافق الطرفان على ان تتولى هي مسؤولية حماية المخيمات .
ويبدو ان البت بهذا الاقتراح سيبقى مؤجلا الى ان يتم اللقاء المنتظر بين
الرئيسين الياس سركيس وحافظ الاسد ، ولا بد ان يتطرق البت الى تساؤل
المقاومة الفلسطينية ردا على الاقتراح ، وماذا بعد خروج قوات الردع من
لبنان ؟

ولا بد هنا من الاشارة الى بعض التحليلات الخاطئة التي برزت في الصحف
اللبنانية ، والتي مالت الى القول بأن المسؤولين العرب باتوا ميالين للطلب من
الحكومة اللبنانية ان توقف الجدل الدائر حول تنفيذ اتفاق القاهرة انتظارا لما
سيجد على صعيد حل ازمة الشرق الاوسط ، باعتبار ان هؤلاء المسؤولين لا
يرغبون باضعاف الموقف الفلسطيني داخل الحادثات المنتظرة . ويخفي هذا
التحليل في طياته الاعتقاد بأن تنفيذ اتفاق القاهرة يضعف الفلسطينيين في
لبنان ، وان الفلسطينيين يرفضون تنفيذه تحاشيا لهذا الضعف . ولكن هذه
التحليلات مغرضة الى اقصى حد . فالمقاومة الفلسطينية ثبتت مبدئيا وعلنيا
التزامها واستعدادها لتطبيق الاتفاق ، ومارست ذلك عمليا على اكثر من
صعيد ، وتوقفت فقط عند ما تعتقد انه خروج على الاتفاق ، او تفسيرات غير
مضمونة بالنسبة للمستقبل . كذلك فان المقاومة الفلسطينية لا ترى في تطبيق
اتفاق القاهرة اضعافا لها ، لانها لا تطلب من لبنان اكثر من اتفاق القاهرة ،
واكثر من استمرار الاعتراف بشرعية وجودها ، وشرعية حقها في الانطلاق
من الارض اللبنانية للعمل داخل اسرائيل ، وهي مطالب لا يمكن فصلها عن
حقيقة مواقف القوى اللبنانية المتنازعة ، او عن العوامل الاسرائيلية والدولية
الضاغطة ، والتي تسعى للوصول الى اهداف تتناقض مع مصالح المقاومة
ومصالح لبنان والامن العربي .

والان ... ما الذي تكشف عنه خارطة المواقف هذه ؟

ببساطة نقول : ان كل تصوير للمشكلة على انها مشكلة نصوص ، وخلاف
حول الصياغات ، هو تصوير جزئي وسطحي . ان المسألة في جوهرها مسألة
سياسية متعددة المستويات .

مسألة سياسية لبنانية : اذ لا زالت الازمة بالرغم من توقف القتال مفتوحة
ولم يخلق ملفها بعد ، ويحاول كل طرف من الاطراف المتنازعة فيها ان يصل
الى فرض تصوره للاصلاح وللبنان المستقبلي ، وهو هنا يلج على الموضوع
الفلسطيني ، من حيث النوع او من حيث الدرجة ، بحسب تصوره لهذا الاصلاح ،
وهل للفلسطينيين دور فيه ؟ بكلمات اخرى ، يدور الصراع في جانب من جوانبه
حول لبنان المستقبلي ودوره العربي وهل له مكان في الصراع العربي -

الاسرائيلي؟ وتتفرع عن ذلك مسائل كثيرة أبرزها : كيف نبني جيش المستقبل ، وما هو مدى التزامنا بالفلسطينيين وبالقذائيين ؟

وهي أيضا مسألة سياسية عربية : إذ هذه الاسئلة المطروحة في لبنان ، تهم العرب من زاوية طبيعية الاجوبة المنتظرة ، ومن زاوية استمرار التوتر او امكان الوصول الى الهدوء ، باعتبار ان استمرار التوتر يعني ، بصورة او بأخرى ، تريت كثير من القوى الدولية في البت النهائي بموقفها من ازمة الشرق الاوسط، بانتظار موازين القوى التي ستسفر عنها الازمة اللبنانية .

وهي أيضا مسألة دولية : تحاول فيها الولايات المتحدة من جهة واسرائيل من جهة أخرى ان تصل إلى صورة للتوازنات تسهل عليها انجاز التسوية السياسية لازمة الشرق الاوسط حسب المفهوم الذي ترتأيه ، اي بعيدا عن الفلسطينيين ووجودهم ، وبعيدا عن موضوع دولتهم .

وتتألف هذه المواقف وتتصارع ، بحيث يكون من الاجحاف الشديد القول بأن ازمة اتفاق القاهرة في لبنان هي ازمة فلسطينية ، او ان الوصول الى حل نهائي بشأنها مرتبط فقط بموافقة فلسطينية على هذا البند او ذلك من التفسيرات المطروحة للاتفاق .

لقد بدأت الازمة اللبنانية كبيرة على ارض صغيرة . وهي لا زالت كبيرة رغم ان النقاش الدائر يبدو صغيرا في تفاصيله .

الييمين الصهيوني نشأة وسياسة وعقيدة

صبري جريست

مع فوز كتل « ليكود » بأكثر عدد من الاصوات في الانتخابات للكنيست التاسع ، التي جرت يوم ١٧ أيار (مايو) ١٩٧٧ ، مما يمكنه من تشكيل حكومة إسرائيلية ائتلافية برئاسة زعيمه ، الارهابي المعروف مناحيم بيغن ، يكون اليمين الصهيوني قد استلم مقاليد الحكم في اسرائيل لأول مرة منذ قيامها . ويمكن هذا النجاح في الانتخابات ليكود من المطالبة ايضا ، بان يكون رئيس الادارة الصهيونية (وهو أعلى منصب في المنظمة الصهيونية العالمية ، ومنذ ابعاد الدكتور ناحوم غولدمان عن منصب المنظمة الصهيونية العالمية ، سنة ١٩٦٨ ، ترك ذلك المنصب شاغرا) واحدا من اعضائه ، وذلك بناء على اتفاق واسبقيات خاصة بذلك تقرها المنظمات الصهيونية المختلفة . وأن تم ذلك ، وهو غير مستبعد ، يكون اليمين الصهيوني قد استطاع كذلك السيطرة على المنظمة الصهيونية العالمية ، وذلك لأول مرة في تاريخها ايضا .

يأتي انتصار اليمين الصهيوني هذا بعد معارك عديدة ، مريسة وقاسية ، للسيطرة على المنظمة الصهيونية واسرائيل ، خاضها خلال ما يزيد على نصف قرن من الزمن ، وفشل فيها دائما - الا هذه المرة - والواضح ان وصول ليكود الى السلطة يضع الفلسطينيين والعرب ، وغيرهم ، في مواجهة مرحلة جديدة من السياسة الاسرائيلية لا عهد لهم بها في السابق - صحيح ان ليكود لا يختلف كثيرا ، في نهاية الامر ، في منطلقاته ومواقفه عن الجناح العمالي الصهيوني ، الذي حكم اسرائيل منذ اقامتها وحتى خسارته في الانتخابات الاخيرة ،

خصوصا فيما يتعلق بالسياسة الاسرائيلية الخارجية والمواقف الاستراتيجية الصهيونية - فمن هذه الناحية بالذات تكاد الخلافات بين العسكريين تقتصر على الاسلوب او « اللهجة » ، دون المضمون . ولكن صحيح ايضا ، من ناحية ثانية ، ان هناك فروقا واضحة في الاسلوب والمنهج ، وخصوصا بالنسبة للقضايا الداخلية ، بين هذين التيارين الصهيونيين الرئيسيين . تتبعها انعكاساتها على الصعيد الخارجي . وعلى كل حال ، ومهما يكن من امر هذه الفروق ، فمن الواضح ان صعود اليمين الصهيوني ، المتطرف والمتشدد قلبا وقالبا ، التي الحكم في اسرائيل ، يطرح اسئلة مهمة وعديدة . ولعل ابرزها هو مدى تأثير التغيير في نظام الحكم الاسرائيلي على السياسة الدولية للكيان الصهيوني ، ثم انعكاساته على مساعي التسوية السلمية لازمة الشرق الاوسط من ناحية ، ومستقبل الصراع العربي - الاسرائيلي من ناحية ثانية . وكذلك مدى ارتباط هذا بالوضع الداخلي للمجتمع الصهيوني وتأثيرها عليه . وهذا كله يطرح ، بالطبع ، السؤال الاكبر والاهم : ما مدى تأثير ذلك على مستقبل اسرائيل ، سلبا او ايجابا ؟

ان الاجابة على هذه الاسئلة ، كما هو مفهوم ، ليست سهلة كطرحها ، وذلك لاسباب عدة ، لعل اهمها هو ان اليمين الصهيوني لم يجد نفسه يوما ما ، منذ نشوئه ، في وضع شبيه بوضعه الحالي ، اي على قمة الحكم - اذ كان ، دائما وايدا ، في المعارضة . والمواقف في المعارضة ، كما تدلنا التجارب ، شيء ، بينما الانتقال الى مرحلة صنع قرارات الحكم لا يعني بالضرورة الشيء نفسه . ومن هذه الناحية بالذات ، ليست لدينا « اسبقيات » لتصرف يميني صهيوني ، على صعيد اتخاذ قرارات بحكم موقع المسؤولية في الماضي ، تمكنا من العودة اليها ، في محاولة لاستشفاف مواقف المستقبل . كما ان اليمين الصهيوني ، بحكم انزوائه في عالم المعارضة لفترة طويلة ، قد اعفى نفسه من اتخاذ مواقف محددة ، في حالات عدة في السابق ، وهذا مما يصعب ايضا القيام بأية محاولة لاستطلاع اسس سياسته في المستقبل . غير ان اليمين على الرغم من ذلك ، قام من ناحية ثانية ، خلال نشاطه الطويل كمعارضة ، بتقديم اسس ومبادئ نظرية لكافة المشاكل التي جابهها الكيان الصهيوني في فلسطين ، او اسرائيل منذ اقامتها - وليس لنا ، اذن ، الا العودة الى تاريخه ، منذ نشوئه ، لمحاولة استطلاع اسس سياسته المستقبلية .

الجد الاكبر : الدكتور ماكس نورداو

لم يظهر اليمين الصهيوني ، او يتبلور ، حديثا . فتاريخه قديم ويعود الى منتصف العشرينات على الاقل ، اي الى ما يزيد على نصف قرن من الزمن . أما جذوره الفكرية فأنها اكثر قدما ، وتكاد تواكب المنظمة الصهيونية العالمية منذ تأسيسها سنة ١٨٩٧ . ولعل اول يميني صهيوني ، ان لم يكن كذلك من

حيث نشاطه الفعلي ، فعلى الأقل من حيث تأثيره على تفكير اليمينيين الصهيونيين ، فيما بعد ، هو الدكتور ماكس نورداو .

كان نورداو من أوائل المفكرين اليهود ، الذين تعرف اليهم الدكتور تيودور هرتسل ، مؤسس المنظمة الصهيونية العالمية ، في بداية طريقه في العمل الصهيوني ، وذلك بعد نشر كتابه « دولة اليهود » ، سنة ١٨٩٦ ، وقبل عقد المؤتمر الصهيوني الاول ، الذي اعلن فيه عن تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية ، سنة ١٨٩٧ . وفي اول لقاء مع نورداو ، شعر هرتسل ان « كل واحد منهما يقتبس الكلام من قم الاخر » ، وذلك بعد ان اتفقا ان « اللاسامية فقط هي التي جعلت منهما يهودا » (١) . وبعد هذا اللقاء ، كتب هرتسل في يومياته ان « نورداو سيسير معي في النار والماء » (٢) - ولم يخب امله . ونورداو ، مثل هرتسل ، يهودي من اصل هنغاري ، وبصفته ابن حاخام يهودي ، « كان قد تعرف على اليهودية في صباه ، ولكنه نسيها مع كبره » (٣) ، عندما ترك بلده واتجه الى باريس ، حيث مارس مهنة الطب . الا ان نورداو لم يكتف بهذه المهنة ، اذ اتجه ايضا الى الكتابة . وعندما تعرف اليه هرتسل كان كاتباً مرموقاً ، ترجمت كتبه الى لغات اوروبية عدة ، ولهذا كان وقوفه الى جانب هرتسل ، في بداية طريقه ، مهما للغاية ، وساعد على نشر الفكرة الصهيونية ، وتجميلها في اعين الاجانب ، وكسب المؤيدين لها . وقد ثابر نورداو على تأييده لهرتسل ، واصبح بمثابة ساعده الايمن ومن اكبر مناصريه - وكذلك من ابرز المنظرين الصهيونيين ، خلال عهد هرتسل وبعده .

لم تستطع الصهيونية تحقيق اية انجازات عملية تذكر ، خلال عهد هرتسل ، رغم الجهود المضنية التي بذلها في هذا الصدد . الا ان اقامة المنظمة الصهيونية العالمية ، على الأقل ، من قبل هرتسل وصحبه لم تكن حدثاً عابراً ، اذ اسفر ذلك عن توحيد « الحركة » الصهيونية - التي كانت حتى ذلك الوقت عبارة عن جمعيات او نواد او اشخاص ، منتشرين في هذا البلد او ذاك ، في معظم دول اوربا الشرقية والغربية - في اطار محدد وواضح المعالم . وما ان تم ذلك ، حتى اعاد الصهيونيون تنظيم انفسهم وشكلوا ، داخل المنظمة ، الاحزاب والتنظيمات السياسية على اختلاف انواعها ، بما يتلاءم مع وجهات النظر او الانتماءات الطبقية لكل مجموعة منهم . ولم تكن رئاسة المنظمة الصهيونية تنظر بعين الرضى الى مثل هذه التطورات ، اذ كان من المفروض ، بحسب رأيها ، ان تبقى المنظمة وحدة متماسكة ، ذات طابع معتدل ، مقبول لدى حكام ذلك العصر بأجمعهم ، تسعى فقط الى حل المسألة اليهودية بواسطة اقامة دولة يهودية ، ولا وجود لاحزاب او تيارات سياسية داخلها . وبعد تحقيق هذا الهدف فقط ، يمكن التصرف من خلال الاحساس « بالامن والرخاء »

واقامة الاحزاب السياسية او غيرها * غير انه على الرغم من هذا الموقف المبدئي ، سارعت رئاسة المنظمة الصهيونية الى ادخال التغييرات الضرورية على تركيب الاجهزة الصهيونية المختلفة ، لكي تفسح المجال لتلك الاحزاب للعمل ككتل مستقلة ، وفق مواقفها ، من ناحية ، والابقاء عليها ضمن اطار المنظمة من ناحية ثانية * ولم تكتف الاحزاب والكتل الصهيونية ، بالطبع ، بذلك وانما راحت تتصارع مع بعضها البعض من جهة ، وتنتقد هرتسل ورئاسة المنظمة من جهة اخرى * اما هرتسل نفسه فلم يكن ، بحكم منصبه كرئيس للمنظمة ، قبي وضع يسمح له بالانخراط في « المهاترات » الحزبية والرد عليها ، فتولى نورداو القيام بالمهمة * وفي غمرة نشاطه هذا ، راح يطلق النظريات الصهيونية المختلفة ، الواحدة تلو الاخرى *

كان محور الخلاف الرئيسي داخل الحركة الصهيونية مرتكزا ، خلال عهد هرتسل ، على نظريتين رئيسيتين في النشاط الصهيوني ، عرفت اولاهما باسم « الصهيونية السياسية » والثانية باسم « الصهيونية العملية » * وخالصة الخلاف بين وجهات نظر اصحاب هاتين النظريتين هو ان « السياسيين » كانوا ينادون بضرورة حصول الحركة الصهيونية ، اولا وقبل اي شيء اخر ، على ضمانات سياسية واعتراف علني ، من قبل دولة او مجموعة من الدول المعنية ، بسيادة المنظمة الصهيونية على فلسطين وجوارها (او ، بشكل ادق ، « ارض - اسرائيل ») وحققها في اقامة دولة لليهود فيها * وبعد ذلك فقط ، تبدأ عملية نقل اليهود من بلدانهم ، باشراف وحماية تلك الدولة او مجموعة الدول ، ونوطينهم في « ارض - اسرائيل » * اما المعارضون ، « العمليون » ، فكانوا يطالبون بتشجيع الاستيطان الفعلي في فلسطين ، مهما كانت الظروف ، ثم المسعي في الوقت نفسه للحصول على الضمانات والاعتراف الدولي * وكانت « الحرب » محتدمة بين الطرفين ، وزاد من اشتعالها ان الصهيونية لم تستطع انذاك تحقيق اية انجازات سياسية فعلية تذكر ، بحيث لم تجد اية فئة صهيونية ما يشغلها الا الانهماك في ابتداع النظريات لتدعيم وجهة نظرها وتجميلها * وكانت حركة « هواة صهيون » او « احباء صهيون » (وهو الاسم الذي يطلق على المجموعات الصهيونية التي هاجرت من روسيا وبولونيا ورومانيا ، خلال السنوات ١٨٨١ - ١٩٠٤ ، الى فلسطين واقامت المستوطنات الصهيونية الاولى في البلد) هي التعبير الملموس عن التيار الصهيوني « العملي » * غير ان هذا النشاط « العملي » في مجال الاستيطان الصهيوني كان ، مع ظهور هرتسل ، قد وصل إلى أقصى ما يمكنه الوصول اليه * فقد نصبت رؤوس الاموال الخاصة التي اعتمد عليها اولئك المستوطنون ، في اولى مراحل نشاطهم ، بحيث اضطروا الى الاستنجاد بالبارون روتشيلد ، اليهودي الفرنسي ، لدعمهم من ناحية ، وازدادت حدة القيود التي فرضتها السلطات العثمانية على نشاطهم

الاستيطاني في فلسطين من ناحية اخرى . ولم يمر الا عقد على حركة الاستيطان هذه حتى بدا كأنها تقترب من نهاية طريق مسدود .

لم يغب هذا الوضع عن بال هرتسل ، ولم يحظ باعجابه ، عندما انطلق لوضع نظرياته الصهيونية . ولذلك اعلن في كتابه « دولة اليهود » انه « لا يعتبر المسألة اليهودية قضية اجتماعية او دينية ، رغم أنها تلبس هذا الطابع او ذاك ، من حين الى اخر . انها مسألة قومية ، ولكي نحلها ينبغي ان نجعلها قضية سياسية عالمية ، بحاجة الى حل في مجلس يمثل الشعوب المتعدنة » (٤) . وليس هناك من حل الا اقامة الدولة اليهودية ، « ولدينا بالطبع القوة لبناء دولة - ودولة مثالية ، ولدينا كل الادوات ... الضرورية لذلك » (٥) . وتقام تلك الدولة بعد ان « تمنح لنا السيادة على منطقة ما على وجه الارض ، تكون كافية لمتطلبات شعبنا المشروعة . وسنقوم بتدبير ما تبقى بانفسنا » (٦) . وكان هرتسل ، خلال نشاطه في خدمة الصهيونية ، قد بذل فعلا جهودا كبيرة للحصول على « السيادة على منطقة ما على وجه الارض » - ولكن دون نتيجة .

جوبهت اراء هرتسل الصهيونية « السياسية » هذه بمعارضة من قبل دوائر صهيونية عدة ، الا ان ذلك لم يثنه عن عزمه ولم يحمله على تغيير مواقفه ، النظرية او العملية . ففي خطاب الافتتاح امام المؤتمر الصهيونسي الاول (١٨٩٧) ، اعلن هرتسل انه « لا يمكن ان نتبع الطرق السرية والوساطات الخفية غير المباشرة [كطريقة لاقامة الدولة اليهودية] ، بل المفاوضات الحرة الخاضعة للمراقبة الدائمة والعاقلة من قبل الرأي العام . ولن تحقق الصهيونية اهدافها الا بالبحث العلني مع الدوائر السياسية المعنية . . . لقد وصل الاستيطان [اليهودي في فلسطين] ، حتى الان ، الى اقصى ما يمكن الوصول اليه ، وفقا لطبيعته . . . ولكن هذا ليس حلا للمسألة اليهودية ، ولا يمكن ان يكون حلا بشكله الحالي » (٧) . وفي مناسبة اخرى ، كتب هرتسل لنورداو : « انني اعارض التسلسل [اليهودي الى فلسطين] ، لانه عديم الفائدة ، يخضع لرحمة او غضب اي باشا ، ويبقى دائما عرضة لفرض القيود عليه » (٨) . وفي خطابه الافتتاحي امام المؤتمر الصهيوني الخامس (١٩٠١) ايضا ، شن هرتسل هجوما عنيفا على « هوة صهيون » والصهيونيين « العمليين » ، معلنا « ان موقفنا من الصهيونيين القدامى يشبه موقف اولئك الذين يدخلون تعديلات حديثة على ماكينة قديمة ، غير قابلة للاستعمال . الاحترام كله للماكينة القديمة ، ولكن مكانها في المتحف . لقد فشل الاستيطان القائم على الصدقات ، اما الاستيطان القومي فسينجح » (٩) .

اما نورداو فقد كان اعنف من هرتسل ، في هجومه على الصهيونيين « العمليين » وهوة صهيون : « انني احتج بعنف وبكل قوة - هكذا كتب في

أحدى مقالاته - ضد اية محاولة لربط الصهيونية مع المستوطنات [اليهودية] القائمة في ارض - اسرائيل ، واعتبارهما شؤنا متعلقة ببعضها بعضا . . . ان الصهيونية لا تتحمل اية مسؤولية تجاه المستوطنات في ارض - اسرائيل . فاذا كبرت هذه المستوطنات وازدهرت - لن يسجل هذا لصالحها ، واذا اندثرت - لن يكون خطأها . . . ان مستوطنات معدودة في ارض - اسرائيل لن تنقذ الشعب اليهودي ، لن تحسن احواله ، وليس لها اي تأثير على مصيره » (١٠) . ثم ان طريقة هواة صهيون والصهيونيين « العمليين » في حل المسألة اليهودية ، بواسطة اقامة مستوطنات يهودية تدريجيا في فلسطين ، ليست الا كطريقة ذلك الذي يريد « ضخ ماء المحيط بواسطة سطل » (١١) ، وهؤلاء ، بحسب رأي نوردوا ، يسعون الى حل مشاكل اعداد صغيرة من اليهود في مستوطنات معدودة ، بينما تسعى الصهيونية الى حل المسألة اليهودية بأسرها . وفي مرحلة متأخرة ، وصف نوردوا حركة هواة صهيون « بانها لم تكن الا عنوانا لكتاب صفحاته بيضاء » وكانت الصهيونية السياسية هي التي كتبت الكتاب لهذا العنوان الفارغ » (١٢) .

ولم يتوقف نوردوا في انتقاداته لمعارضيه هرتسل عند هذا الحد ، اذ لم تسلم التيارات الصهيونية الاخرى ايضا من سهامه . فقد هاجم ، مثلا ، نظرية « الصهيونية الرومانية » التي اطلقها احاد همام (وخلصتها ان هدف الصهيونية ينبغي ان يكون اقامة « مركز روحاني » يهودي في فلسطين ، للحفاظ على « روح الامة اليهودية » وتراثها ، وان لم يؤد ذلك ، بالضرورة ، الى اقامة دولة يهودية) ، رغم انها حظيت بتأييد معين ، لان هذه الفكرة « التي لا طعم لها » ، حتى وان نجحت في اقامة « مركز روحاني » يهودي في فلسطين ، لن تحل مشاكل اليهود في المهاجر (١٣) . كذلك عارض نوردوا الصهيونيين المتدينين ، موضحا « ان الصهيونية الجديدة ، المسماة صهيونية سياسية ، تختلف عن القديمة ، المتدينة . . . برفضها كل الغيبيات ، وعدم تماثلها [معها] . . . ولا تتوقع العودة الى صهيون بطريق الاعجوبة ، وانما تريد ان تعد لذلك بجهودها الخاصة » (١٤) . وانتقد نوردوا « الصهيونيين الاشتراكيين » ايضا ، لان الاشتراكية « تحققت في الصهيونية نفسها . . . واين يمكننا ان نجد ، لدى شعوب اخرى ، شيئا مشابها - ولو لماما ، لتلك العدالة الاجتماعية التي تنبعث من تعاليم موسى ؟ » (١٥) . كذلك حذر نوردوا اليهود من خيبة الامل في الاشتراكية ، عندما تتحقق ، كما خاب املمهم من حركات الاصلاح الدينية او حركات التحرر السياسية بين شعوب أوروبا (١٦) . اما « صهيونيو صهيون » ، الذين كانوا قد هددوا بالانشقاق عن المنظمة الصهيونية العالمية ، عندما اقر المؤتمر الصهيوني السادس (١٩٠٣) دراسة مشروع اقامة دولة يهودية في اوغندا ، وليس فلسطين ، فلم يكونوا ، بالنسبة لنوردوا ، الا « طبعة جديدة ، ولكن

غير منقحة ، من هواة صهيون « (١٧) . كما سخر نوردواو من الكتلة الديمقراطية ، وهي حركة اصلاحية نشأت خلال عهد هرتسل ، كنوع من رد الفعل على نشاطه ، وهاجم ابرز زعمائها ، الدكتور حايم وايزمان ، الذي لم يكن ، بالنسبة لنوردواو ، الا واحدا من اتباع حركة هواة صهيون في قرارة نفسه ، وغولاء ليسوا الا « صهيونيين هواة » .

وكان الدرس الاول الذي تلقنه اليمينيون الصهيونيون من تعاليم نوردواو هذه ، عندما قرروا تبنيها ، التشدد والتطرف ، ثم الاصرار على الحصول على كل شيء او لا شيء ، وانتقاد كل من يختلف معهم في الرأي ، دون هواده ، حتى وان ادى ذلك الى خسارة كل الخلفاء المتوقعين .

العمال ٠٠٠ ووايزمان ٠٠٠ ونوردواو

لم تحظ اراء نوردواو التي اشرنا اليها ، على كل حال ، بأعجاب الكثيرين من الصهيونيين ولا بانتشار واسع بين الفئات الصهيونية المتصارعة مع بعضها البعض ، رغم اختلاف وجهات نظرها . وقد تم ذلك ، الى حد ما ، بفضل التغييرات التي طرأت على سياسة المنظمة الصهيونية آنذاك . فبعد وفاة هرتسل ، سنة ١٩٠٤ ، صعد الصهيونيون « العمليون » هجومهم على « السياسيين » ومحاصرتهم لهم ، ولم تمر الا اقل من عشر سنوات ، حتى استطاعوا ، في المؤتمر الصهيوني الحادي عشر (١٩١٣) ، السيطرة على المنظمة الصهيونية العالمية وكافة مؤسساتها (١٨) . وقد « انتقم » « العمليون » من نوردواو بعد انتصارهم ، فوجد نفسه خارج دائرة النشاط الصهيوني الفعال .

غير ان هذا التغيير في قيادة المنظمة الصهيونية لم يكن بحد ذاته السبب الوحيد في ابعاد الصهيونيين « السياسيين » واحترانهم ، اذ ساهمت في ذلك ايضا الظروف الموضوعية والتطورات التاريخية التي كان لها تأثيرها على النشاط الصهيوني العالمي آنذاك . ففي السنة نفسها التي توفي فيها هرتسل (١٩٠٤) ، بدأت موجة جديدة من الهجرة الصهيونية ، عرفت فيما بعد باسم الهجرة الثانية ، من روسيا وبولونيا الى فلسطين ، استمرت حتى نشوب الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ ، ودخل خلالها الى البلد نحو ٤٠ الف مهاجر ، عادت اكثريتهم ونزحت عنه فيما بعد ، لاسباب مختلفة (١٩) . وكانت اكثرية اولئك المهاجرين من ابناء الطبقة العاملة اليهودية ، التي تكونت في روسيا ، منذ راحت تسير على طريق التطور الصناعي ، خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر . وقد اصرا اولئك المهاجرون العمال على اعتبار انفسهم « صهيونيين اشتراكيين » ، وكانت اكثريتهم متأثرة فعلا ، بشكل او باخر ، بالباديء الاشتراكية التي كانت تنتشر تدريجيا في روسيا القيصرية آنذاك (٢٠) . ولذلك

اتجهوا ، مع وصولهم الى فلسطين ، الى اقامة ما سموه « المجتمع الصهيوني العمالي » في البلد . وفي غمرة نشاطهم هذا ، اقام اولئك العمال فرعا لحزبهم « بوغالي تسيون » (عمال صهيون) - الذي كان قد نشأ في روسيا اصلا - في فلسطين (٢١) ، وانشأوا المؤسسات التنظيمية والتعاونية (٢٢) ، وحتى « العسكرية » (هاشومير) (٢٣) ، على اختلاف انواعها . كما رفع اولئك العمال ، في محاولة لتبرير وجودهم في فلسطين من جهة والرد على صعوبات استيعابهم في البلد ومناقسة العمال العرب لهم من جهة ثانية ، شعار « العمل العبري » ، ودعوا الى « احتلال العمل » و « احتلال الارض » من ايدي العرب (٢٤) ، باعتبار ان ذلك ضروري لاقامة الكيان الصهيوني المستقل في فلسطين ، اذ ان الارض ستكون في النهاية « ملكا لمن يفلحها » . وكان ابناء الهجرة الثانية هم الذين ارسوا الاسس للمستوطنات الجماعية اليهودية في فلسطين ، من صنف الكيبوتس (٢٥) ، على اختلاف اشكاله ، الذي تحول فيما بعد الى رأس حربة الاستيطان الصهيوني في فلسطين خلال ايام الانتداب ، ولا يزال يقوم بدوره هذا ، الى حد ما ، حتى اليوم . اما المؤسسات الاخرى ، التي اقامتها الهجرة الثانية ، فقد نمت وكبرت وتشعبت ، مع مرور الزمن ، واصبحت بمثابة ركائز للكيان الصهيوني في فلسطين ، وساهمت بشكل فعال في اقامة اسرائيل .

وعلى كل حال ، ومهما كانت اهمية مؤسسات الهجرة الثانية ، فمن الواضح ان مجرد اقامتها ، في الظروف التي تم فيها ذلك ، قدمت للقادة والمنظرين الصهيونيين درسا سياسيا مهما ، لم يكن باستطاعتهم نسيانه . لقد اقيمت تلك المؤسسات في ظل الحكم العثماني لفلسطين ، الذي لم يكن مغروفا بنزاهته او ديمقراطيته او حسن ادارته - بل لعل العكس هو الصحيح - وذلك بواسطة اتباع الطرق غير المباشرة واساليب الرشوة والتهديد والترغيب والضغط الخفية دون المطالبة بضمائن سياسية علنية ، وفقا لتعاليم الصهيونيين « السياسيين » ، او الاعلان عن المواقف والاهداف النهائية على رؤوس الاشهاد . وكانت العبرة التي استنتجتها الصهيونيون من ذلك هي ان الواقعية والمرونة من جهة والاعتماد على النفس من جهة اخرى ، ليست بالسبل التي يجوز التغاضي عنها لتحقيق اهداف الصهيونية . ولم يساعد ذلك ، بالطبع ، على انتشار الافكار « اليمينية » المتصلبة ، المتجانسة مع منطلقات التيار الصهيوني « السياسي » ، او ازدياد عدد المؤمنين بها ، اذ ثبت بالوقائع الملموسة ان نظرية الصهيونية « العملية » اكثر ملائمة للواقع .

واذا كانت هذه هي العبر التي استنتجها الصهيونيون من نشاطهم في فلسطين ، خلال السنوات العشر التي سبقت الحرب العالمية الاولى ، فقد جاءت

الحرب لتزيدها رسوخا ، وتدفع بانصار الخط الصهيوني البرغماتي الى قيادة المنظمة الصهيونية والنشاط الصهيوني باسره . فقد قدمت الحرب ، خصوصا بعد ان خاضتها تركيا الى جانب المانيا ، مناسبة فريدة من نوعها لدول الحلفاء لبسط نفوذها على المشرق العربي الخاضع آنذاك للحكم العثماني . ولتحقيق هذه الاهداف ، وحيث ان التنافس على الفوز بأكبر حصة من الغنائم كان قويا بين دول الحلفاء ، دخلت بريطانيا في حلف مع الصهيونيين ، تعهد أولئك بموجبه ببذل كل ما لديهم من نفوذ لدى دول الحلفاء وغيرها لتأمين السيطرة البريطانية على فلسطين ، مع انتهاء الحرب ، لقاء تعهد بريطانيا بتسهيل اقامة « وطن قومي يهودي » في البلد . وهذا ما تم فعلا ، ووجد تعبيراً عنه في وعد بلفور لسنة ١٩١٧ .

لعب الدكتور حاييم وايزمان دورا بارزا في استصدار وعد بلفور وبصورة مضمونه ، مما عزز بدوره من مكانته داخل الحركة الصهيونية وجعل منه زعيمها الاكبر . وقد جاء وعد بلفور ، الى حد ما ، بمثابة انتصار لنظرية الصهيونيين « السياسيين » وتجسيدها لها ، من حيث تبني دولة كبرى لمطالب الصهيونيين في فلسطين والتزامها بمساعدتهم على تحقيق اهدافهم . غير ان وايزمان لم يفهم نجاحه على هذا الشكل ، ولم يكن اساسا من مؤيدي هرتسل او اتباعه ، ولا من المؤمنين بأساليب « السياسيين » المتزمتين . وكان وايزمان قد تعرف على هرتسل في المؤتمر الصهيوني الثاني (١٨٩٨) ، الا انه لم يعجب به ، لان « صهيونيته بدت كنوع من الضدقة » (٢٦) ، ولان « [كتاب] دولة اليهود لم يحتو على فكرة واحدة جديدة بالنسبة لنا » (٢٧) . ثم « ان الصهيونية بالنسبة لي [اي وايزمان] كانت شيئا عضويا ، ينبغي ان ينمو مثل شجرة ويجب مراقبتها وربها والاعتناء بها ، اذا اريد لها ان تثمر . ولم اكن اعتقد ان الامور يمكن ان تتم على عجل » (٢٨) . وكانت هذه النظرة اساس ما عرف باسم « الصهيونية المركبة » (٢٩) (من التيارات الصهيونية المختلفة : السياسي والعملية والروحاني والمتدين وغيرها) ، التي اطلقت على اسلوب وايزمان في العمل الصهيوني ، والتي اصبحت منذ ذلك الوقت شعارا لكثيرية الصهيونيين . وقد دفعت هذه النظرة وايزمان الى انتهاج سياسة براغماتية للغاية ، اساسها تجنب اتخاذ مواقف صدامية مع بريطانيا ، والاعتماد على « نبل » السياسة البريطانية و « شهامتهم » (ومصالحة بلادهم في استمرار السيطرة على فلسطين ، واستعمال الصهيونيين وسيلة لذلك) . كما نجمت هذه السياسة ، من ناحية ثانية ، عن احساس وايزمان بضعف الحركة الصهيونية آنذاك وضرورة اعتمادها على بريطانيا والتنسيق معها ، لتحقيق اهدافها . وانطلاقا من هذا الموقف ، تراجع وايزمان اكثر من مرة عن طلباته امام البريطانيين . فثناء المفاوضات حول نص وعد بلفور ، مثلا ، طالب الصهيونيون بريطانيا بالتعهد

بتحويل فلسطين بأكملها الى وطن قومي لليهود ، ولكن البريطانيين اوضحوا انهم لا يقبلون ، لاسباب مختلفة ، الا باقامة وطن في فلسطين . فوافق وايزمان وصحبه ، واثناء المرحلة الاخيرة من المفاوضات حول صياغة صك الانتداب على فلسطين ، وبعد ان رسمت سياسة بريطانية جديدة للمنطقة ، اعلن البريطانيون انهم سيفصلون شرق الاردن عن المنطقة المخصصة لاقامة الوطن القومي اليهودي ، وحصرها في فلسطين غربي نهر الاردن فقط - فوافق الصهيونيون ووايزمان ايضا ، بعد « ان اوضح لنا ان اقرار صك الانتداب متعلق بذلك » . كذلك وافق الصهيونيون على التفسير البريطاني لمضمون صك الانتداب ، كما جاء في الكتاب الابيض لسنة ١٩٢٢ الذي نص ، من بين ما نص عليه . على ضرورة اخضاع الهجرة اليهودية الى فلسطين لمقدرة البلد الاقتصادية على استيعاب المهاجرين الجدد . وكانت المعارضة العربية واحدا من الاسباب الرئيسية التي دفعت البريطانيين يومئذ على ادخال تلك التغييرات على سياستهم . ولم تحظ « التنازلات » ، التي قدمتها المنظمة الصهيونية بزعامة وايزمان للبريطانيين ، برضى الصهيونيين « السياسييين » ، فعاد نوردوا العجوز الى نشر انتقاداته واطلاق نظريات جديدة ، وركز هذه المرة على العرب ومقاومتهم للصهيونية . وكانت نظريات نوردوا الجديدة هذه اوفر حظا في الانتشار ، بين دوائر صهيونية مختلفة ، من سابقاتها واصبحت احدى ركائز الفكر اليميني الصهيوني ، وتسلكت مع مرور الوقت الى عقائد اكثر من فئة صهيونية .

تطرق نوردوا الى الحديث عن موقفه من العرب ، لأول مرة ، في المؤتمر الصهيوني السابع (١٩٠٥) ، فأشار الى ان الحركة القومية العربية ، التي نشطت وقتئذ ، قد تلجأ الى وسائل تمس بسلطة تركيا على فلسطين وعلى البلدان المجاورة لها . وقد يدفع ذلك تركيا ، مع الدول الأوروبية ، الى التفتيش عن عامل معين ، يكفل لها الهدوء في المنطقة ، فتضطر بالتالي ، ربما بعهد تنسيق مع الدول الأوروبية ، الى الاستتجاد بالحركة الصهيونية ، والسماح باستيطان يهود في فلسطين ، يعملون على المحافظة على سيطرة السلطان التركي على البلد . وحث نوردوا زعماء الحركة الصهيونية على بذل كل ما في وسعهم للافادة من هذا الوضع ، حتى لا يقال في المستقبل « ان اللحظة الكبيرة وجدت جيلا صغيرا » (٣٠) . وبعد هذا الخطاب ، سكت نوردوا عن « المسألة العربية » لمدة ١٣ سنة اخرى ، الى ان صدر وعد بلفور (١٩١٧) ، واحتلت بريطانيا فلسطين ، وفرض الانتداب البريطاني على البلد (١٩٢٠) ، وما رافق هذه التطورات من مقاومة عربية لها ، فراح يعرض آراءه حول انسب الطرق التي ينبغي على الصهيونية اتباعها لتأمين مصالحها من جهة ، وينتقد الزعامة الصهيونية من جهة اخرى .

شملت انتقادات نوردوا للسياسة الصهيونية ، بقيادة وايزمان ، معظم خطوطها الرئيسية ، فدما - عامة - الى اتباع سياسة متصلبة تجاه البريطانيين والعرب ، وان لم تكن المنظمة الصهيونية قادرة موضوعيا على اتباع مثل تلك السياسة حينئذ . وخلافا للموقف الذي اتخذته القيادة الصهيونية ، مثلا ، عندما وافقت على « سلخ » ارض - اسرائيل الشرقية « (اي شرق الاردن) عن المنطقة المخصصة لاقامة الوطن القومي اليهودي ، طالب نوردوا « بالاعتراف يارض - اسرائيل كوحدة جغرافية ، غير قابلة للتقسيم ، في حدودها التاريخية . وينبغي معارضة كل محاولة لاقتطاع اجزاء منها ، من الشمال والجنوب ، بشدة » (٣١) . وينطبق الشيء نفسه على « ارض - اسرائيل الشرقية » ، لان « الاراضي الواقعة شرقي نهر الاردن اهم من الواقعة الى الغرب منه . انها غير مأهولة اليوم ، وهي تتسع لاستيعاب ملايين من اليهود ، يمكن ان نفترض انهم سيعودون الى ارض - اسرائيل . وهذه الاراضي هي اليوم في يد الحكومة ، وعلينا ان نصر بشدة على طلب تسليمها لنا » (٣٢) . وطالب نوردوا بتخصيص منطقة حوران في سوريا للاغراض نفسها ، اذ انها اليوم بلاد جرداء مقفرة ، تسكنها مجموعات صغيرة من البدو ، لم تحاول يوما القيام بأي عمل حضاري . . . » (٣٣) . وفي مقال بعنوان « نحن والعرب » ، اعلن نوردوا ايضا « ان الحاجة الاولية والاكثر الحاجبا بالنسبة لنا الان ، هي نقل ملكية الاراضي [في فلسطين] لايدينا قدر الامكان . اننا لا نريد ان نعيش في ارض - اسرائيل تحت الظروف السكانية التي فرضت علينا في المهجر . . . ينبغي ان لا يخاف العرب ! . . . لن نسبب ضررا لاي شخص . سندافع بايمان عن حقوق الملكية . ولكن من الواضح اننا سنشتري كل الاراضي العربية التي ستعرض للبيع في السوق الحرة . . . وسنستولي فقط على اراضي الحكومة التركية ، التي زالت سيادتها عن ارض - اسرائيل ، اذ سنكون نحن ، من هذه الناحية ، ورثتها قانونيا » (٣٤) .

وامتلاك الاراضي في فلسطين ، من قبل اليهود - بحسب رأي نوردوا - ليس الا احد الاسس لضمان السيطرة الصهيونية على البلد ، اذ ان هناك ايضا اساسا اخر ، ينبغي بموجبه تحويل اليهود الى اكثرية في فلسطين ، وباسرع وقت ممكن . « فكما انه من الضروري ان تكون لدينا حقوق ملكية على مساحات واسعة من الاراضي ، كافية للاستجابة لطلباتنا ، فمن الضرورة المطلقة ان نكون ايضا اكثرية السكان في البلد ، لكي نحول ارض - اسرائيل الى وطن قومي لشعبنا » (٣٥) . « وما دمنا اقلية صغيرة ، دون امل ، في ارض - اسرائيل ، لن يكون البلد يهوديا ، بل عربيا » . وكل ما يتوقعه اليهود ، في مثل هذه الحالة ، هو ما يمن به عليهم الزعماء العرب ، « فيتحملوننا بادب في البلد ، ويسمحون لنا بالمحافظة على ديننا ، وافتتاح مدارس ، نستطيع تدريس التلمود فيها ، وحتى انهم سيسمحون لنا بالعمل . . . شرط ان نخضع لقوانين البلد ،

ونتحدث باللغة العربية ، ونكون مخلصين دون تردد لسادتنا العرب « (٣٦) . وكان نوردواو قد طالب ، باصرار ، بتقوية الهجرة اليهودية الى فلسطين ، وهاجم بعنف الزعماء الصهيونيين الذين لم يستجيبوا لنداءاته : « منذ تسعة اشهر - هكذا كتب سنة ١٩٢٠ - اطلقت ، للمرة الاولى ، هذا الشعار « هجرة [يهودية] واسعة ، ودون اي تأخير لارض - اسرائيل ٠٠٠ ولكن [بسبب ذلك] اثيرت ضدي في اوروبا بأسرها ، كمجموعة كلاب مسعورة ، عصابة الصحافة الصهيونية الرسمية ، التي نبحت علي وحاولت ان تنهشني في قدمي » (٣٧) . وهذه الهجرة الواسعة هي « الطريق الوحيدة للقضاء على الخطر العربي ، بعد ان نتحول الى اكثرية في وطننا التاريخي . اننا ملزمون بادخال نصف مليون مستوطن يهودي الى هناك ، بسرعة ٠٠ انني لا اخشى ان استعمل التعبير : لنرم الى البلد [فلسطين] نصف مليون يهودي » (٣٨) . وعندما يتم ذلك ، « نكون قد تغلبنا بنجاح على الموانع المتوقعة ، مع بداية تجديد حياتنا القومية . ولن يستطيع السكان العرب ان يشتكوا بأن اقلية يهودية تضطهدهم » (٣٩) . والواضح ان هذه الآراء كانت معارضة تماما للسياسة الصهيونية الرسمية ، التي وافقت على تحديد عدد المهاجرين اليهود الى فلسطين ، بالاتفاق مع السلطات البريطانية .

ولا يتوقع نوردواو ، على كل حال ، ان يرحب العرب الفلسطينيون بدخول المهاجرين اليهود الى فلسطين ، ولذلك يدعو الى اتخاذ مواقف متصلبة منهم : « لا نستطيع ان نشتكى او ان نتذمر ، اذا لم يكن العرب راضين ، لاول وهلة ، عن استيطاننا في البلد ، الذي يعتبرونه بلدهم منذ اجيال . هكذا يتصرف عديمو الثقافة والسذج ، الذين يخافون المجهول دائما . وهذا سيكون ايضا مرقف عرب ارض - اسرائيل تجاهنا » (٤٠) . اما من الناحية الاقتصادية « فاننا واثقون مسبقا ، باننا سنصل الى اتفاق ناجح مع جيراننا العرب . واذا التزموا بحدود الحقوق القائمة ، ليس هناك ما نخشاه من اي خلاف معهم . ولن نصل حتى الى سوء تفاهم ، الا اذا اتخذوا موقفا عدائيا محمدا سلفا ، ووقعوا تحت تأثير دس المحرضين اللاساميين ، بشكل يدفعنا الى الدفاع عن انفسنا » (٤١) « واذا حاولوا مقاومتنا بالقوة ، سيتضح لهم بسرعة ، ان قوتنا لا تقل عن قوتهم » (٤٢) .

ومع تصاعد مقاومة العرب الفلسطينيين ، سياسيا وعسكريا ، للمشاريع البريطانية الهادفة الى اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، تصلبت مواقف نوردواو ايضا ، فدعا الى مجابهة المقاومة العربية - والمغرب بأسرهم - بالشدة : « ان الصعوبة الكبرى ، التي تواجهها الصهيونية ، هي في كون البلد الذي تريد استيطانه ، بعيدا جدا عن ان يكون خاليا من السكان ، الذين يبدو انهم غير مشتاقين ابدًا لمستوطنين جدد » (٤٣) ، بل يقاومونهم . وعلى رأس هذه المقاومة

« تقف حفنة من المسيحيين السوريين ، التي استطاعت ان تشد الى جانبها بعض دعاة العروبة ، الذين اضعفوا على انفسهم شيئا من المدنية الاوروبية . وبعض المسلمين من القوميين المتعصبين ، الذين يقومون بكل ما في وسعهم لاثارة شعور الكراهية تجاه الصهيونية والهجرة اليهودية الى ارض - اسرائيل » . ويثير اولئك ، لتحقيق هذا الهدف ، « مشاعر الفلاحين الجهلة والمساكين ، بحلم مسكر عن امبراطورية عربية كبيرة ، في اسيا وافريقيا الشمالية ، تضم سوريا وفلسطين والعراق والجزيرة العربية ومصر ، وبدون شك ، ليبيا وتونس والجزائر ومراكش ايضا » . وليس لدى الصهيونيين ، على كل حال ، سبب وجيه لمعارضة تحقيق هذه الاماني ، « ما دامت محصورة خارج فلسطين » . واما في فلسطين ، فينبغي معارضة هذه المشاريع . « وهناك فقط وسيلة واحدة ووحيدة وهي : اننا ملزمون بأن نصل بكل الطرق ، وباقصى سرعة ، الى مساواة عددية مع الفلاحين في ارض - اسرائيل ، وحتى - اذا امكن - زيادة عددها على عددهم ، مهما كان الفارق صغيرا ، حتى نستطيع المباشرة في عملنا » . وعند ذلك فقط « نستطيع اقامة علاقات جيدة مع جيراننا العرب ، والمحافظة على الهدوء والنظام العام في [فلسطين] ، ومساعدة مهاجريننا للوصول الى الاستقلال الاقتصادي ، وتهيئة البلد لمصيره الجديد ، كوطن قومي لليهود ، ودولة يهودية مستقلة في المستقبل » (٤٤) .

ويؤكد نوردواو ايضا « ان الصعوبات التي تواجهنا في علاقاتنا مع السكان العرب في ارض - اسرائيل ، ليست اكبر الصعوبات ولا اسوأها ، بالنسبة للمسألة العربية بأسرها » . ان اكبر اعدائنا هم القوميون دعاة العروبة ، خارج ارض - اسرائيل ، وخصوصا في سوريا ومصر . ان ادعاءهم هو انه لا يوجد عامة ، بلد يعرف باسم فلسطين . التي هي جزء لا يتجزأ من سوريا : وسيرى المستوطنون الصهيونيون ، على جلدتهم ، الثمن الذي سيدفعونه ، يوما ما ، بسبب استهانتهم الوقحة بمشاعر الامة العربية العظيمة . ولكن ينبغي ان لا يخيفنا هذا التهديد المكشوف » (٤٥) . و « اعتقد انه من واجبنا ان تثبت للعرب ان مشاريع الوحدة العربية ليست الا وهما . . . والدول الاوروبية . . . ستضطر ان تدرس المسألة ، اذا كانت مصالح كل واحدة منها متطابقة مع تطلعات دعاة العروبة » (٤٦) .

ويضيف نوردواو ، في مقال كتبه سنة ١٩٢٠ ، موضحا موقفه من المعارضة العربية للصهيونية ، مستخفا بقوة العرب على التصدي بشكل فعال للمخططات الصهيونية ، ومشجعا الصهيونيين ، في الوقت نفسه ، على المضي قدما في تنفيذ مشاريعهم - وهو الموقف الذي تبنته دوائر صهيونية عدة ، وسيطر على تفكير القادة الصهيونيين لمدة طويلة ، استطاعوا خلالها تنفيذ جانب لا بأس به من

خطتهم : « لحسن حفظنا ، لا يزال تعبير « الامة العربية » - حتى الان ، على الاقل - كلمة فارغة • انه غير موجود ، الا في عقول الصحفيين السوريين - المسيحيين المتبجحين ، وعقول بعض تلامذتهم وشركائهم من المسلمين • هناك حقا عرب ، ولكن لا توجد امة عربية ، بمفهوم المدنية الاوروبية لتعبير الامة • ولا وحدة بين جماهيرها • ان بدويا في شمال افريقيا بعيد كل البعد عن مواطن في بغداد ، كبعده الهندي الاحمر في ••• الولايات المتحدة عن رجل الاعمال في وول ستريت او السياسي في مجلس النواب الاميركي • ان القرابة بين فلاح من مصر او تاجر من مسقط او بدوي من العراق وبين بائع من اليمن او حرفي في بيروت ، اقل من القرابة بين مزارع ارز ايطالي في لومباردي ومربي ابقار فرنسي في نورماندي • وحتى الان لم تسيطر فكرة القومية والاستعمار على عقولهم • ويستطيع بعض المثقفين الاقراء منهم فقط ، الذين اندمجوا في اوربا ، استيعاب افكار سياسية • والعلاقة بين ملايين السكان محصورة في اللغة والدين ، وليس في التطلع نحو دولة مستقلة قوية ، تضم مساحات واسعة من اسيا وافريقيا ، ولا تستطيع تحمل تدخل اجنبي داخل حدودها • ان الخلافات الداخلية ، المستمرة منذ مئات السنين تمزقهم • والقبائل المختلفة تناصب بعضها بعضا العداء ، والمنافسة التقليدية القائمة بينها اقوى ، الى حد بعيد ، من شعورها بالتضامن » •

واخيرا : « في المستوى الحالي من التطور القائم في مقدمة اسيا ، لا يزال من المبكر بالنسبة لنا ان نرتعد خوفا من خطر دولة عربية مجاورة معادية لنا • ان هذه الدولة غير قائمة حتى الان ، والى ان تقوم - هذا اذا قامت في يوم من الايام - سيكون لدينا متسع من الوقت للأثمة انفسنا مع الاوضاع الجديدة » (٤٧) •

ولكن على الرغم من هذه المواقف المعارضة ، لم يقم نورداو بأي نشاط تنظيمي لجمع المؤيدين من حوله - وان بقيت اصدااء ارائه هذه تتردد من حين الى اخر ، منذ ذلك الوقت ، بين فئات صهيونية مختلفة ، لم تكن كلها بالضرورة يمينية النظرة : كما ان السياسة الصهيونية الرسمية انتهجت ، على العموم ، اسلوبا معاكسا لنصائح نورداو • فبعد ان تبلورت السياسة البريطانية في فلسطين ، واقرت نصوص صك الانتداب البريطاني على البلد ، التي « فسرت » رسميا في الكتاب الابيض لسنة ١٩٢٢ ، عمد وايزمان الى تشكيل ادارة صهيونية تستطيع العمل ضمن حدود تلك السياسة • وفي مساعيه هذه اقام تحالفا من العمال ومؤيديه بين دوائر الصهيونيين العموميين • ولم يكن وايزمان من المؤمنين بالاشتراكية ولكنه قدر ان الجناح العمالي الصهيوني هو القوة الوحيدة التي تستطيع بناء الوطن القومي في فلسطين ، ولذلك قرر عقد حلف معهم وتبني

مطالبهم (٤٨) مقابل تأييدهم لزعامتة * اما الصهيونيون العموميون فكانوا عبارة عن « حزب » ذي اتجاهات ليبرالية ، او يمينية معتدلة (٤٩) - وكان وايزمان نفسه من المحسوبين عليهم - يضم اكثرية الصهيونيين في مطلع العشرينات ، وان كانت معظم قواهم مركزة خارج فلسطين * وفي مرحلة لاحقة . انضم الى ذلك التحالف المتدينون من اتباع المزراحي * وقد قاد هذا الائتلاف الثلاثي الحركة الصهيونية واشرف على نشاطها ، خلال فترة الانتداب البريطاني على فلسطين (١٩١٨ - ١٩٤٨) ، داخل البلد وخارجه ، وحكم اسرائيل لفترة طويلة بعد قيامها ، وذلك على الرغم من الهزات التي كانت تصيبه من حين الى اخر من جهة ، وتغيير نسب القوى بين الفئات المتحالفة ، لصالح العمال تدريجيا ، من جهة اخرى * وكان الاسلوب السياسي الذي اتبعه هذا التحالف . معالجة الشؤون الصهيونية المختلفة ، الداخلية والخارجية ، براغماتيا واضحا .

اما التغيير التدريجي في نسب القوى لصالح العمال ، داخل هذا التحالف الصهيوني ، فقد جاء نتيجة للسياسة التي انتهجها الجناح العمالي للحفاظ على مصالحه ورعايتها * فالعمال لم يكونوا راضين ، في قرارة نفوسهم ، عن تلك القيادة الصهيونية « البورجوازية » وراوا ان من واجبهم العمل على استبدالها ، في نهاية المطاف ، بقيادة اخرى « عمالية » تسعى الى اقامة « مجتمع العدل العبري » في فلسطين * وعلى طريق السعي نحو تحقيق هدفهم هذا ، عاد العمال الى اتباع الاسلوب الذي اعتمده اساسا لنشاطهم في فلسطين ، قبل نشوب الحرب العالمية الاولى ، وذلك بتوسيع المؤسسات التابعة لهم وتدعيمها من ناحية ، واقامة المؤسسات الجديدة ، في ضوء ضرورات الاوضاع المستجدة من ناحية ثانية * ففي سنة ١٩١٩ ، اتحد حزب الهجرة الثانية الرئيسي ، بوغالي تسيون ، مع مجموعة من غير الحزبيين واقاموا حزبا جديدا ، سموه « احدوت هعفوداه » (وحدة العمل) (٥٠) - وهو غير الحزب الذي عرف فيما بعد بهذا الاسم * وقد اتحد احدوت هعفوداه ، سنة ١٩٣٠ ، مع حزب آخر من احزاب الهجرة الثانية ، « هابوعيل هاتسعير » (العامل الشاب) ، واقاما « حزب عمال ارض - اسرائيل » (مباي) الذي عاد واتحد بدوره ، سنة ١٩٦٨ ، مع مجموعتين كانتا قد انشقتا عنه سنتي ١٩٤٤ و ١٩٦٥ (احدوت هعفوداه ورافاي) ، فاقاموا حزب العمل الاسرائيلي * ومنذ تأسيس هذا الحزب بطبعته الاولى ، سنة ١٩٠٥ ، احتل مركز الحزب القائد داخل الكيان الصهيوني في فلسطين ايام الانتداب ، ثم الحزب الحاكم في اسرائيل بعد اقامتها ، اي انه بقي بمثابة الحزب الصهيوني الاول لمدة ٧٢ سنة متواصلة - الى ان هزم في الانتخابات الاخيرة * .

وبالاضافة الى حزب احدوت هعفوداه ، اسس الجناح العمالي ايضا ، سنة

١٩٢٠ ، الهستدروت ، النقابة العامة للعمال اليهود * ولم يعتبر العمال الهستدروت نقابة عمال فحسب ، بل رأوا فيها أيضا أداة لاقامة مجتمع العمل الذي كانوا يطمون به ، ولهذا اوكلوا اليها ، بعد وقت قصير من تأسيسها ، مهام اخرى شبيهة بتلك التي تفرضها الدولة على نفسها ، خصوصا في مجال النمو الاقتصادي * ولذلك تحولت الهستدروت ، بالاضافة الى كونها نقابة عمال ، الى مؤسسة اقتصادية ضخمة للغاية ايضا ، تملك المزارع والمصانع ووسائل الانتاج المختلفة (٥١) * ومع مرور الوقت اصبحت الهستدروت بمثابة « قلعة » للجناح العمالي ، فجعل منها قاعدة لمهاجمة الصهيونيين « البورجوازيين » والاستيلاء على السلطة من ايديهم * وتجدر الاشارة هنا الى ان مهام الهستدروت ، بحسب مفهوم مؤسسيتها ، كانت واسعة ومتشعبة لدرجة اوكلت اليها معها مسؤولية الاشراف على كتائب الدفاع ، الهاغاناه ، التي اسست في مطلع العشرينات (٥٢) *

كذلك سعى العمال حديثا الى تنظيم صفوفهم وزيادة عددهم ، وحملوا المنظمة الصهيونية وسلطات الانتداب على تفضيل المهاجرين العمال الى فلسطين على غيرهم * وسرعان ما اثمرت كل تلك الجهود ، واسفرت عن زيادة ملحوظة في قوة الجناح العمالي * فخلال العشرينات فقط ، ارتفعت نسبة ممثلي العمال ، مثلا ، من ٨٪ من عدد المندوبين في المؤتمر الصهيوني الثاني عشر (١٩٢١) ، الى ٢٦٪ في المؤتمر السادس عشر (١٩٢٩) ، بينما انخفضت ، خلال الفترة نفسها ، نسبة مندوبي الصهيونيين العموميين من ٧٣٪ الى ٤٧٪ والمزراحي من ١٩٪ الى ١٦٪ (٥٣) *

« المعلم » فلاديمير جابوتينسكي

لم تحظ سياسة المنظمة الصهيونية التي اشرنا اليها ، ولا نشاط الجناح العمالي الصهيوني ، باعجاب مجموعة من الزعماء الصهيونيين ومؤيديهم ، في فلسطين وخارجها ، نظرا « للتنازلات » التي قدمتها للبريطانيين من جهة وتفضيل العمال على غيرهم من جهة اخرى * وكان من أبرز افراد هذه المجموعة فلاديمير جابوتينسكي ، الذي شغل حتى ذلك الوقت مناصب صهيونية مختلفة * وكان جابوتينسكي قد انتخب عضوا في اللجنة التنفيذية الصهيونية سنة ١٩٢١ ، الا انه استقال منها في مطلع سنة ١٩٢٣ ، احتجاجا على قرار موافقتها على الكتاب الابيض لسنة ١٩٢٢ ، رغم انه اشترك في الجلسة نفسها التي اتخذ فيها ذلك القرار ، وكان من بين مؤيديه ، وذلك بعد ان شعر - على حد تعبير احدهم - ان من واجبه تحمل المسؤولية مع زملائه (٥٤) * ومسح استقالته ، اعلن جابوتينسكي انه قرر « اعتزال » السياسة والانصراف الى الكتابة ، غير انه لم يتمكن من الابقاء على هذا الوضع طويلا ، اذ جذبت كتاباته

عددا من الصهيونيين الناقمين ، مثله ، على السياسة الصهيونية بزعامسة وايزمان ، وسرعان ما وجد نفسه - والى حد ما رغما عنه - يتزعم دوائر المعارضة الصهيونية المتصلبة . وقد بقي جابوتينسكي في موقع زعيم المعارضة الصهيونية منذ ذلك الوقت وحتى وفاته سنة ١٩٤٠ ، اي ما يقارب من ١٧ سنة، وهي الفترة التي ارسى خلالها الاسس الفكرية والتنظيمية لليمين الصهيوني - واصبح زعيمة دون منازع . وكان جابوتينسكي من المعجبين بهرتسل ونورداو ، فتلقف نظريات الاخير وشذبهها وهذبها ، بما يجعلها ملائمة للاوضاع التي سادت في فلسطين ايام الانتداب ، وجعل منها ركائز فكرية لنظريات اليمين الصهيوني، بعد ان اضاف اليها من جعبته .

يختلف جابوتينسكي عن الزعماء الصهيونيين الذين عاصروه في دعوته - مثل نورداو (وهرتسل) - الى اتباع الاسلوب « السياسي » ، بدلا من « العملي » ، في النشاط الصهيوني كوسيلة لتحقيق اهداف الصهيونية . وانطلاقا من هذا الموقف ، عارض جابوتينسكي السياسة « العملي » التي اتبعها وايزمان وحلفاؤه ودعا ، بدلا من ذلك ، الى السير على خطى هرتسل ونورداو ، معتبرا نفسه بمثابة مكمل لهما . « من المناسب ان نميز بوضوح - هكذا كتب مرة - بين اسلوبي حركة البعث اليهودية : السياسي والعملي . ان الاسلوب السياسي هو الاكثر اهمية . انه الارث الازلي الذي تركه لنا هرتسل . وتنص تعاليمه على انه من اجل انشاء دولة يهودية في فلسطين ، علينا قبل كل شيء ان نحصل على المصادقة الرسمية على ذلك من قبل الدوائر الحاكمة [في فلسطين] - وعندئذ فقط يمكن ان يكون الاستيطان حقيقيا ، اي استيطان يؤدي الى اكثرية يهودية وحكومة يهودية » (٥٥) . ولذلك لا يعلق جابوتينسكي اهمية كبرى على نمو الكيان الصهيوني في فلسطين ، حتى اذا اسفر ذلك عن تاسيس عشرات المستوطنات ، واقامة المؤسسات الصهيونية على اختلاف انواعها ، الا ضمن المدى الذي يمكن ان يؤدي فيه ذلك النمو الى تحقيق الهدف السياسي ، اي اعتراف عالمي بضرورة تحويل فلسطين وشرق الاردن الى دولة يهودية ، تعمل على تهجير معظم يهود العالم اليها واستيعابهم فيها . والواضح ان هذا الموقف كان معارضا للسياسة الصهيونية الرسمية ، المتبعة آنذاك .

كذلك كان جابوتينسكي على خلاف عميق مع الجناح العمالي الصهيوني ، فعارض الاعتماد على النظريات الصهيونية ذات الصبغة الاشتراكية كأساس لبناء الوطن القومي اليهودي في فلسطين من الناحية الاجتماعية . ولم يكن الرجل من المؤمنين بالاشتراكية اساسا ، لاعتقاده انها غير ملائمة لتحقيق الهدف الصهيوني ، وهاجمها مع المؤمنين بها بعنف - واحيانا بسخرية - في اكثر من مناسبة : « يا عمال العالم ، اتحدوا ! . . . انني انظر باحتقار الى هذا الشعار

الداعي الى وحدة الجزء بدلا من وحدة المجموع ... انني لا اؤمن بمحاسن النظام الاشتراكي ، اي بفكرة تأمين وسائل الانتاج . وانني متأكد ان هذا النظام لو نشأ وتحكم في احدى الدول او في العالم كله ، فسيتكشف كنظام سيء للغاية ، واسوأ حتى من النظام الاجتماعي الحالي » (٥٦) . اما السبب فهو انه « لا » تحرير « (الاقواس في الاصل) دون حرية الفكر والكلام والتنظيم ، والحرية لكل شخص لان يختار مهنته ومكان سكنه » (٥٧) ، كما « ان الليبراليات لم تسر ابدا ، ولا تستطيع ان تسير على رأس التطور الفكري للمجتمع الانساني ، ولن تقوم بذلك لوقت طويل ... وكانت اخر من انضم الى الاشتراكية » (٥٨) . والواضح ان اراء جابوتينسكي هذه ، التي عمل انصاره على ترويجها على اوسع نطاق ممكن ، اثارت حفيظة العمال الصهيونيين ، لما فيها من طعن بأسس نظرياتهم ، وكانت واحدا من الاسباب الرئيسية التي عمقت الهوة بين اليمينيين والفئات العمالية ، على اختلاف وجهات نظرها ، وشطرت الكيان الصهيوني في فلسطين - عقائديا على الاقل - الى شطرين متخاصمين . وقد شن العمال حريا مضادة شعواء ضد جابوتينسكي ، فاتهموه تارة بأنه «فاشي» و «عسكري» وطورا بأنه «يميني» و «بورجوازي» . ولم يحفل جابوتينسكي بهذه الاوصاف ، بل امعن في تحديه للعمال واستفزازهم ، فوصف نفسه مرة بأنه « بورجوازي ابن بورجوازي » والذي كان بورجوازيا ، وانا بورجوازي بنعمة ربي ... ولا ارى ضرورة للتنازل عن هذا الشرف » (٥٩) .

ومعارضة جابوتينسكي لمنطلقات الجناح العمالي الصهيوني الطبقية لا تقتصر على الناحية العقائدية فقط ، بل تتعداها الى الناحية العملية ايضا . « ان النظرة الطبقية ليست الا دجلا في ظروف المشروع الصهيوني » (٦٠) . ولا يمكن التوفيق بينها وبين الصهيونية . فمهمة الصهيونية هي العمل على توطين عدد كاف من اليهود ، خلال وقت معين وعلى مساحة معينة ، ليصبحوا اكثرية مقررمة فيها ... الاستيطان الصهيوني معناه استيطان يؤدي الى خلق اكثرية يهودية [في فلسطين وشرق الاردن] ولذلك فهو ، قبل كل شيء ، استيطان سريع : ليس استعمارا عاديا ، ولكنه استعمار فريد من نوعه ، استعمار شاذ » (٦١) . ولإجل تثبيت دعائم هذا الاستعمار « الفريد من نوعه » ، فان جابوتينسكي « يشجب بقوة ، خلال مرحلة بناء الدولة اليهودية ، وما دامت تلك المرحلة مستمرة ، النظرة القائلة انه بالنسبة للصهيونية هناك قيمة او اهمية لاية نظرة طبقية ، بروليتارية كانت أم برجوازية » (٦٢) . فخلال هذه المرحلة « الراسمالي بالنسبة لنا ليس راسماليا والعامل ليس عاملا . كلاهما جزء من مواد البناء اللازمة لاقامة الدولة ... وكلاهما يخضع لهذه الفكرة » (٦٣) ، ولذلك لا يجوز « السماح بالتناقضات الطبقية ، بل ينبغي العمل على تسويتها » (٦٤) . وانطلاقا من هذا الموقف ، دعا جابوتينسكي الى مقاومة

الاضرابات التي يقوم بها العمال اليهود لتحسين ظروف عملهم ، لانها تضعف الاقتصاد اليهودي في فلسطين وتقلل من قدرته على استيعاب المهاجرين الجدد - كما طعن في ادعاء الهستدروت بتمثيل الطبقة العاملة، وطالبها بقصر نشاطها على النواحي المهنية فقط . وفي مرحلة لاحقة ، اعلن جابوتينسكي عن معارضته المبدئية لحق العمال في اللجوء الى الاضراب كوسيلة لتحسين ظروف عملهم او لحل خلافاتهم مع ارباب العمال . وطالب ، بدلا من ذلك ، باللجوء الى التحكيم الالزامي .

وكان جابوتينسكي (واتباعه) على خلاف عميق - تكتيكا على الاقل - مع الجناح العمالي والقيادة الصهيونية الرسمية ، بالنسبة للموقف من العرب ، نظرا لتشديده الدائم على ضرورة الاعلان عن اهداف الصهيونية النهائية التوسعية ، حتى وان ادى الى استفزاز العرب وتصلب مواقفهم ، في الوقت الذي كان الآخرون ينتهجون فيه الحيطة والحذر ، ويفضلون الامتناع عن افتعال المشاكل وخلق الصعوبات التي لا مبرر لها ، قبل اوانها على الاقل . وكان جابوتينسكي واضحا للغاية في موقفه هذا - بل لعل هذا الموقف كان من اكثر مواقفه وضوحا - فاعلن عن معارضته لحصر النشاط الصهيوني ضمن سياسة اقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، اذ لم تكن تلك السياسة الا بمثابة « صهيونية صغيرة » (٦٥) ، مصيرها الابقاء على اليهود اقلية في فلسطين ، وهذا « شكل جديد من المهجر » (٦٦) . اما « الصهيونية الكبيرة » ، الحقيقية ، فتهدف الى اقامة دولة يهودية في « ارض - اسرائيل التاريخية » ، وعلى ضفتي الاردن ، فلسطين وشرق الاردن ، وذلك بعد ان يصبح اليهود اكثرية في تلك المناطق . وقد درج الصهيونيون اليمينيون على التشديد كثيرا على « حقوق » اليهود في شرق الاردن ، وكتب جابوتينسكي في احد اشعاره بيتا يقول : « ضفتان للاردن : هذه لنا - وهذه ايضا » ، واصبح هذا البيت شعارا اكثر من منظمة صهيونية يمينية .

اما كيفية اقامة تلك الدولة اليهودية ، فنتلخص في ترحيل مئات الالاف من مختلف انحاء العالم ، واسكانهم في فلسطين وشرق الاردن ، بحيث يصبحون اكثرية سكانية هناك ، وعندها يعلن رسميا عن اقامة الدولة اليهودية ، التي تتولى نقل بقية اليهود في العالم اليها . وخلال مرحلة الاستيلاء على فلسطين وشرق الاردن وخلق الاكثرية السكانية اليهودية فيهما ، يعارض جابوتينسكي احداث اي تغيير في حكم البلدين ، وخصوصا اقامة نظام ديموقراطي فيهما - رغم انه لم يكف يوما عن وصف نفسه بأنه ليبرالي ومنتحرر وديمقراطي ومعاد للدكتاتورية . والسبب في ذلك هو « ان اسس الديمقراطية خلقت للدول التي تحترق على كل سكانها ، وحتى يحدث هذا وتتحكم الاكثرية [اليهودية] في

ارض - اسرائيل وينتقل كل « سكانها » (الاقواس في الاصل ، ويقصد الكاتب بذلك يهود العالم الذين يعتبرهم « سكانا في ارض - اسرائيل » ، ورغم وجودهم في دول مختلفة) ليستوطنوا فيها ، لا يجوز اقامة اي برلمان يعيق الهجرة اليهودية [الى فلسطين] « (٦٧) » .

واساس موقف جابوتينسكي هذا هو اعتقاده الراسخ بانه لا يمكن حل المسألة اليهودية دون اقامة دولة يهودية في فلسطين وشرق الاردن ، تستوعب معظم اليهود في العالم ، ان لم يكن كلهم - ومهما نجم عن ذلك من ضرر قد يلحق بالسكان العرب في هذين القطرين ، لانه لا يجوز « ان تترك المشكلة اليهودية دون حل بسبب مليون عربي [كانوا يقطنون يومئذ في فلسطين وشرق الاردن] » (٦٨) . ثم ان العرب يستطيعون التنازل عن فلسطين وشرق الاردن ، وتكفيهم الاراضي الاخرى الشاسعة التي يقطنونها ، خصوصا وان عدد سكانها قليل للغاية بالنسبة لمساحتها . ولا يرى جابوتينسكي اية ضرورة لاختفاء آراءه هذه عن العرب ، بل يطالب « بأن تقال لهم الحقيقة ٠٠٠ ان ارض - اسرائيل لنا » ، ومساحتها كافية قطعاً لاستيعاب « مليون من العرب ومليون آخر من ابنائهم ٠٠٠ وبضعة ملايين من اليهود » (٦٩) . اما بالنسبة للعرب « فاذا لم يقرروا بأنفسهم ، انه من الأفضل لهم ان يتركوا البلد بمحض ارادتهم - فلا ضرورة لان يهاجروا » ، ولكن « اذا اتضح انهم ٠٠٠ يفضلون الهجرة ، فمن المسموح للبحث في امكانية كهذه دون اي شعور بالحزن » (٧٠) . اما بالنسبة لمن يقرر منهم البقاء ، فينبغي منحهم حقوق اقلية قومية في الدولة اليهودية عند اقامتها .

والواضح ان مثل هذه المواقف لا تساعد على تخفيف المعارضة العربية للمشروع الصهيوني في فلسطين ، ولا تسهل الوصول الى اتفاق مع العرب . ولكن جابوتينسكي لم يكن يهتم كثيرا بذلك لاقتناعه بعدم امكانية تحقيقه : « لا يمكننا ان نحلم باتفاق حر بيننا وبين عرب ارض - اسرائيل ، لا الان ولا في المستقبل القريب ٠٠٠ لا يوجد اي امل - مهما كان ضعيفا - للحصول على موافقة عرب ارض - اسرائيل لتحويل « فلسطين » (الاقواس في الاصل) لبلد ذي اكثرية يهودية » (٧١) . كما انه « لا يوجد ولو مثل واحد ، على الاقل ، لاستيطان بلد بموافقة ابنائه الاصليين ٠٠٠ ان [هؤلاء] - ولا فرق في ذلك اذا كانوا متمدنين او همجيين - حاربوا دائما بعناد المستوطنين الجدد ٠٠٠ ما دام هناك بريق من الامل بالتخلص من الاستيطان الغريب . هكذا تصرف عرب ارض - اسرائيل وهكذا سيتصرفون ، ما دام الامل يراودهم بمنع تحويل « فلسطين » (الاقواس في الاصل) الى ارض - اسرائيل » (٧٢) .

وسخر جابوتينسكي ايضا من الآراء التي كانت تطرحها بعض الفئات

الصهيونية ، الداعية الى تجاهل عرب فلسطين والعمل ، بدلا من ذلك ، على الوصول الى اتفاق مع العرب في البلدان المجاورة ، فيعلن عن معارضته لهذه المواقف ، مقلدا من اهميتها * « وحتى لو كان شيء كهذا ممكنا ، فانه لن يغير الحالة من اسناسها : في ارض - اسرائيل ذاتها لن يحدث اي تغيير في نفسية العرب بالنسبة لنا * . وحتى لو كان بالامكان (وأنا اشك جدا في هذا) اقناع العرب [خارج فلسطين] ، بأن ارض - اسرائيل بالنسبة لهم ليست الا منطقة حدود صغيرة وعديمة الاهمية ، فبالنسبة للعرب الفلسطينيين تبقى فلسطين ، لا كمنطقة حدود وانما وطنهم ، ومركز كيانهم القومي المستقل واساسه * . لذلك كان من الضروري ، في هذه الحالة ايضا ، ادارة اعمال الاستيطان [اليهودي] بدون موافقة العرب الفلسطينيين ، اي تماما في نفس الظروف التي تتم بها حاليا « (٧٣) * . ثم انه حتى لو كان الوصول الى اتفاق مع العرب غير الفلسطينيين ممكنا ، « فلكي يوافق اولئك على منحنا ثمنا غالبا كهذا (التنازل عن المحافظة على صيغة البلد العربية ، الموجودة تماما في مركز « اتحادهم » - الاقواس في الاصل - في المستقبل) ، علينا ان نقدم لهم ثمنا كبيرا ، يكون مساويا لتبرعهم * . وهناك نوعان من هذا الثمن : اما المال أو التأييد السياسي ، او الاثنان معا * ونحن لا نستطيع ان نقدم لهم لا هذا ولا ذاك « (٧٤) * .

والنتيجة ؟ - « النتيجة : ليس باستطاعتنا ان نقدم اي « ثمن » ، لا للعرب في [فلسطين] او خارجها * . ولذلك يمكن بناء الكيان الصهيوني في فلسطين فقط « بحماية قوة غير متعلقة بالسكان المحليين ، وراء جدار حديدي لا قوة لهم على اقتحامه * . وهذا هو جوهر سياستنا في المشكلة العربية * . وليس هذا هو جوهرها فقط وانما هي مرتكزة عليه عمليا * . ان معنى [وعد بلفور والانتداب] بالنسبة لنا هو ان قوة غير محلية الفت على نفسها تعهدا بخلق ظروف ادارة وامن في البلد ، يمكن معها منع السكان المحليين من القيام بأية محاولة لعرقلة نشاطنا ، اذا راودتهم انفسهم بالقيام بمحاولة لازعاجنا * . وكلنا * . بدون استثناء ، نطالب هذه القوة الخارجية بتنفيذ التزامها بصرامة وشدة * . ومن هذه الناحية ، لا يوجد اي فرق بين « العسكريين » [اي اتباع جابوتينسكي] منا وبين « النباتيين » [الذين يؤيدون الجناح العمالي الصهيوني والقيادة الصهيونية الرسمية] * الفرق ان الاوائل يريدون جدارا حديديا مكونا من حراب يهودية ، والآخرون يريدون حرابا بريطانية * . « (٧٥) * .

وخلاصة القول « ان الجدار الحديدي هو الطريق الوحيد الذي سيؤدي الى اتفاق [مع العرب] ، وهذا يعني انشاء قوة [يهودية في فلسطين] لا يستطيع ضغط العرب التأثير عليها بأي صورة من الصور * . وبلغة اخرى ، نبذ كل محاولة للوصول الى اتفاق مع العرب حتى تقام الدولة اليهودية في

« ارض - اسرائيل التاريخية » باكملها ، حيث يحمل العرب عندئذ على الاعتراف بها على اساس الامر الواقع .

وباختتام هذا العرض لآراء جابوتينسكي (ونوردوا) ، تختتم ايضا الاسس العقائدية للفكر الصهيوني اليميني ، اذ لم يحظ اليمين الصهيوني ، بعد وفاة جابوتينسكي ، بأي زعيم مرموق يستحق الذكر ، يضيف الى تلك الاسس او يغير فيها . واقتصرت « التغييرات » الوحيدة التي ادخلت عليها منذ وضعها ، على اعادة صياغتها ، من حين الى آخر ، من قبل مجموعات او شخصيات معينة ، او « تلميحتها » لتصبح ملائمة لروح المرحلة التي تستخدم فيها .

من الواضح ان آراء اليمين ، التي اشرنا اليها ، والمواقف المترتبة عليها لم تكن متجانسة ابدا مع السياسة التي انتهجها تحالف العمال والصهيونيين العموميين والمزراحي بقيادة وايزمان ، سرعان ما عمقت الخلافات بين المعسكرين . وكانت نقطة الخلاف الاولى والرئيسية اتهام جابوتينسكي للقيادة الصهيونية ، بزعمه وايزمان ، بسبب موافقتها على الكتاب الابيض لسنة ١٩٢٢ ، بـ « تزيف » مفهوم الصهيونية و « الخنوع » لبريطانيا ، مما ساعدها على « التملص » من التزاماتها بموجب صك الانتداب ، فسلخت « ارض - اسرائيل الشرقية » عن منطقة الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، لتقام فيها امانة شرق الاردن . وقد اتسع هذا الخلاف وتشعب ، تدريجيا ، وشطر المستوطنين الصهيونيين في فلسطين ، خلال فترة الانتداب ، الى شطرين متخاصمين ، بعد ان سيطر على حياتهم السياسية وطبعها بطابعه (٧٦) . اما النقطة الثانية فكانت اتهام اليمينيين للقيادة الصهيونية بـ « اضطهادهم » خاصة ، والتمييز ضد الطبقة المتوسطة اليهودية عامة ، وذلك بعدم تشجيع هجرتها الى فلسطين او العمل على حل مشاكلها الاقتصادية ، وتخصيص معظم الموارد المالية الصهيونية لصلحة العمال ومشاريعهم .

غير انه على الرغم من ذلك ، لا بد من الاشارة الى ان الخلاف في وجهات النظر بين جابوتينسكي ووايزمان - على صعيد السياسة الخارجية على الاقل - لم يكن جذريا ابدا ، اذ انه لم يتعد النواحي التكتيكية . فقد كان كل من جابوتينسكي ووايزمان ، اولاً ، على قناعة تامة بان الحركة الصهيونية ، في مساعيها الهادفة الى اقامة دولة يهودية في فلسطين ، بحاجة الى دولة استعمارية كبرى تلتقي مصالحها بمصالح الصهيونية ، لتتبنى هذه المصالح وتساعد على تحقيقها . كما كان الرجلان متفقين ، ثانياً ، على ان هذه الدولة هي بريطانيا بالذات وليس غيرها (وذلك على الرغم من ان جابوتينسكي لم يتردد ، خلال الثلاثينات ، في بذل محاولات عدة لإقامة علاقات مع دول اخرى ، فيما بدا كأنه اتجه لاجاد « بديل » لبريطانيا) .

ولكن الخلاف نشب حول الطرق التي ينبغي اتباعها لتحقيق هذا الهدف . فقد كان وايزمان ، كما اشرنا ، من انصار الخط الدبلوماسي البرغماتي . فدعا الى الاعتماد على حسن نية بريطانيا وساستها لمساعدة الصهيونية على اقامة الوطن القومي في فلسطين (وكان عندما يخيب ظنه في بريطانيا - وقد حدث ذلك اكثر من مرة - يلجأ الى تقديم استقالته او يهدد بها) . اما جابوتينسكي فقد دعا الى توجيه الضغوط على بريطانيا في المجال الدولي ، وفي داخل فلسطين ايضا - « التحدث بلغة منطقية ، ولكن بصوت عال وباصبع غليظة » (٧٧) - لحملها على تبني كل طلبات الصهيونية ولم يكن لديه مانع ، عند الضرورة ، من الصدام مع البريطانيين . وبسبب مواقفه هذه ، حظي جابوتينسكي بعداء البريطانيين له ، الذين لم يستطيعوا « فهمه » ، فمنعوه سنة ١٩٣٠ من دخول فلسطين ، حيث اضطر الى قيادة اتباعه فيها من الخارج ، حتى وفاته سنة ١٩٤٠ - مما ساهم في تقوية العداء الذي كان مستحكما بين المعسكرين الصهيونيين . وبقي هذا العداء والخلاف في وجهات النظر ، قائما حتى بعد وفاة جابوتينسكي (ووايزمان) ، عندما تبني مناحيم بيغن ، احد ابرز تلامذة جابوتينسكي ، نظريات معلمه ، بينما حل بن - غوريون ، تدريجيا ، مكان وايزمان . ولا تزال اصداء ذلك الخلاف في وجهات النظر بين الجناح العمالي واليمين الصهيوني ، حول انسب الطرق لتحقيق اهداف الصهيونية ، تسمع في اسرائيل ، نظريا وعمليا ، من حين الى آخر ، حتى اليوم .

صعود اليمين . . . وسقوطه

في الوقت الذي كان جابوتينسكي يروج فيه للآراء التي اشرنا اليها، نشط مؤيدوه - باشرافه - في تنظيم دوائر المعارضة الصهيونية المختلفة . ولم تمض الا نحو سنتين ونصف السنة على استقالة جابوتينسكي من عضوية اللجنة التنفيذية الصهيونية حتى عقد المعارضون ، سنة ١٩٢٥ ، مؤتمرا في باريس وقرروا اقامة تنظيم صهيوني جديد خاص بهم ، سمي « منظمة الصهايونيين الاصلاحيين » (Revisionists) (٧٨) . واختار « الاصلاحيون » هذا الاسم للتأكيد على موقفهم الداعي الى ضرورة مراجعة السياسة الصهيونية واصلاحها ، واعلنوا في « دستورهم » ان « هدف الصهيونية هو تحويل ارض - اسرائيل (بما في ذلك شرق الاردن) - التأكيد في الاصل - الى كومبولث يهودي . . . ذي حكم محلي . . . واكثرية [سكانية] يهودية ثابتة » (٧٩) .

ومع مرور الوقت ، راحت ايضا حركات صهيونية اخرى تقترب من الصهايونيين الاصلاحيين وتتحالف معهم . وكانت اولى هذه الحركات « منظمة يوسف ترومبلدور للشباب العبري » (بيتار) ، التي كانت قد أسست في نهاية سنة

١٩٢٣ (٨٠) ، في ريغا ، عاصمة لاتفيا الواقعة على بحر البلطيق . وكانت بيتار منظمة الشباب الصهيونية الوحيدة ، من بين منظمات عديدة من هذا الطراز ، التي اتخذت مواقف مبدئية غير متجانسة مع المنطلقات الفكرية للمنظمات العمالية . وقد اقتربت تدريجيا من الاصلاحيين وتبنت معظم اهدافهم (٨١) ، وان اصرت على الاحتفاظ بـ « استقلالها » داخل معسكر اليمين ، واصبحت مع مرور الوقت التنظيم الرئيسي الذي يزود ذلك المعسكر بالكوادر التي يحتاج اليها . وفي سنة ١٩٢٥ وقع خلاف حول طريقة توزيع الاراضي في احدى المستوطنات الصهيونية ، ادى الى انشقاق العمال المعارضين لسيطرة « اليسار » على الهستدروت ، واقامة « منظمة » عمالية جديدة ، داخل الهستدروت ، سميت « منظمة الصهيونيين الكادحين » . وقد اعلن « الكادحون » عن معارضتهم لنظرية « صراع الطبقات [التي تبنتها الاكثرية في الهستدروت] باعتبارها اداة لتحقيق مهام الصهيونية القومية والاجتماعية . . . لان الصهيونية حركة فوق - طبقية ، تستطيع تنفيذ مهامها فقط بواسطة النضال والعمل المشترك لكل فئات شعبنا الاجتماعية » (٨٢) . وقد اتحد « الكادحون » ، سنة ١٩٢٨ ، مع مجموعة من العمال التابعين لبيتار ، عرفت باسم « منوراه » واقاموا ، داخل الهستدروت ، « كتلة العمل الاصلاحية » (٨٣) (التي انشقت عن الهستدروت ، في منتصف الثلاثينات واقامت « منظمة العمال القومية ») .

وفي سنة ١٩٢٩ ، اسس الاصلاحيون مؤسسة مالية في لندن ، سموها « كيرن (صندوق) تل حاي » لتمويل نشاطهم ، وذلك بعد ان سيطر العمال على الكيرن كاييمت وكيرن هايسود .

وكان قد وقع ، في مطلع الثلاثينات ، انشقاق في منظمة الهاغاناه العسكرية ، نتيجة لمحاولات اعادة بنائها ، اثر الفشل الذي منيت به خلال اضطرابات ١٩٢٩ وعجزها عن التصدي للعرب . وقد تطور هذا الخلاف تدريجيا وادى الى اقامة منظمة عسكرية جديدة ، سميت « الهاغاناه ب » ثم « الهاغاناه القومية » ، واقتربت تدريجيا من اليمينيين ، ثم غيرت اسمها الى « المنظمة العسكرية القومية » (اتسل ، وتعرف ايضا باسم الارغون) ، واعلنت عن تبعيتها لهم (٨٤) .

شكل الصهيونيين اليمينيين ، رغم تعدد تنظيماتهم ، اقلية داخل المنظمة الصهيونية العالمية ، ان بلغ معدل نسبة تمثيلهم في المؤتمرات الصهيونية الخمسة (الرابع عشر ، ١٩٢٥ - الثامن عشر ، ١٩٣٣) التي اشتركوا فيها ، نحو ٩٪ فقط من مجموع المندوبين في تلك المؤتمرات (٨٥) ، بينما كانت هذه النسبة اقل من ذلك بكثير في المؤسسات الصهيونية الاخرى . ولكن على الرغم من ذلك انتهجوا سياسة معارضة متصلبة ، متجانسة مع مبادئهم ، تجاه الجناح العنالي خاصة والقيادة الصهيونية (وبريطانيا) عامة . فقد انهمكوا ، على الصعيد الداخلي ،

في مقارعة العمال على كل صعيد وفي كل مجال . اما على الصعيد الخارجي ، فقد نشطوا ، حتى اواخر العشرينات ، في بث الدعاية المعادية للسياسة البريطانية في فلسطين ، في اي مكان استطاعوا الوصول اليه . وفي الوقت نفسه ، حاولوا منع تشكيل الوكالة اليهودية ، سنة ١٩٢٩ ، بموجب الاسس التي عرضها وايزمان (اي بضم يهود غير صهيونيين الى مجلس ادارتها) ، ولكن دون جدوى .

ومع مطلع الثلاثينات صعد الاصلاحيون معارضتهم ، محاولين فرض سياستهم على المنظمة الصهيونية . وكانت الانتخابات للمؤتمر الصهيوني السابع عشر (١٩٣١) قد اسفرت عن فوز الاصلاحيين بـ ٥٢ (من بين ٢٥٤) مقعدا ، اي نحو ٢١٪ من مجموع المقاعد ، وهي اعلى نسبة حصل اليمين عليها (٨٦) . واستنادا الى ذلك ، ومن خلال محاولة التعاون مع فئات اخرى ، حاول الاصلاحيون حمل المؤتمر على الاعلان ان هدف الصهيونية النهائي هو اقامة دولة يهودية قسي فلسطين - الا ان المحاولة فشلت ، مما دفعهم الى المزيد من التشدد ، فاعلنوا انهم سيسعون ، بعد زيادة اعداد مؤيديهم ، الى « احتلال » المؤتمر الصهيوني المقبل . اما على الصعيد الداخلي ، فقد انتقل الاصلاحيون من مرحلة مقارعة العمال الى استقراؤهم ، مما دفع الجناح العمالي الى تصليب مواقفه وشن حملة مضادة شعواء على اليمين . وكانت احدى الوسائل المحببة الى قلوب اليمينيين ، « لمحاربة » الهستدروت والعمال ، السعي الى افشال الاضرابات التي كان اولئك يعلنون عنها عندما تشتد خلافاتهم مع ارباب العمل « البورجوازيين » ، وذلك بإرسال مجموعات من العمال المؤيدين لليمين الى اماكن الاضرابات لعرض خدماتهم على اصحاب العمل ، الذين كثيرا ما كانوا يستعينون بهم ، مما يؤدي الى فشل الاضراب . وكثيرا ما كان ينجم عن ذلك نشوب الشجار والصدام ، ثم تدخل السلطات واعتقال العمال المضربين عن العمل ، لمحاولتهم منع منافسيهم اليمينيين من استئناف العمل بالقوة (٨٧) . ولم تستطع الهستدروت ، بالطبع ، السكوت على ممارسات اليمين هذه ، التي تمس بأحدى اسلحتها المهمة ولا بد من اللجوء اليها ، من حين الى اخر ، لتحسين اوضاع العمال في صراعهم مع ارباب العمل - فوجهت لليمين ضربة مؤلمة ، تمثلت في اسقاط حمايتها ، كنفقاية عمال ، عن العمال اليمينيين وتركهم لشأنهم ، عندما كانوا هم يواجهون مشكلة ، ثم امتنعت عن ايجاد العمل لهم وتوقفت مكاتب الاستخدام التابعة لها عن الاهتمام بشؤونهم . والواضح ان هذه الاجراءات كانت صارمة للغاية ، واثارت ردود فعل عنيفة من قبل اليمين .

وخلال سنة ١٩٣٣ ، وصل الصراع بين معسكري اليمين والعمال الصهيونيين الى اشده ، خصوصا بعد ان كتب جابوتينسكي مقالا في اواخر سنة ١٩٣٢ ، اعلن فيه عن وجود « رغبة » لدى مؤيديه لـ « تحطيم » الهستدروت (٨٨) ، مما دق

ناقوس الخطر لدى العمال ودفعهم الى شن صراع لا هوادة فيه مع اليمينيين ، حتى وان ادى ذلك الى « القضاء » عليهم . وقد كان هذا الصراع المتجدد من ناحية ثانية ، عبارة عن استئناف المناقشة بين المعسكرين للسيطرة على المنظمة الصهيونية العالمية . ولم يتوانى العمال كثيرا في اتخاذ الاجراءات المضادة الفعالة ، اذ اوعزوا الى رئاسة الوكالة اليهودية بالامتناع عن اصدار شهادات هجرة لفلسطين لاجراء منظمة بيتار في اوروبا ، فمنعوا بذلك اليمين من تعزيز قوته داخل فلسطين بواسطة استقدام المهاجرين الجدد . وقد كان هذا الحظر مؤلما وفعالا لدرجة اضطر معها اليمين الى تنظيم عمليات هجرة غير شرعية الى فلسطين ، ولكن دون فائدة كبيرة (وبعد صدور الكتاب الابيض لسنة ١٩٣٩ ، الذي فرض قيودا على الهجرة اليهودية الى فلسطين ، لجأت القيادة الصهيونية نفسها ، على كل حال ، الى اتباع هذه الوسيلة) .

كذلك لاحظ العمال ان قوة الصهيونيين الاصلاحيين الرئيسية تتركز بين يهود بولونيا ، التي كانت تضم ، خلال فترة ما بين الحربين العالميتين ، الاولى والثانية ، نحو ثلث عدد الصهيونيين المسجلين في العالم باسره . وقد ارتأى العمسال مهاجمة الاصلاحيين في عقر دارهم ، فارسلوا سكرتير الهستدروت بن - غوريون ، سنة ١٩٣٣ ، للقيام بحملة دعائية واسعة بين يهود بولونيا ، كان من نتيجتها انخفاض نسبة اليمين من ٢١٪ ، من مجموع المندوبين ، في المؤتمر الصهيوني السابع عشر (١٩٣١) الى ١٤٪ في المؤتمر الثامن عشر (١٩٣٣) بينما ارتفعت نسبة ممثلي العمال ، خلال الفترة نفسها ، من ٢٦٪ الى ٤٤٪ . وقد مكّنهم ذلك من تعزيز قوتهم ، بشكل ملحوظ ، في الادارة الصهيونية التي شكلها المؤتمر الثامن عشر .

وكان قد وقع ، قبيل انعقاد المؤتمر الصهيوني الثامن عشر ، حادث اغتيال في فلسطين ، اثار مشاعر الصهيونيين بشكل لا مثيل له وعمق الفجوة بين اليمين والعمال لدرجة اصبح من الصعب معها التوفيق بينها . ففي حزيران (يونيو) ١٩٣٣ ، اطلق مجهولان النار على الدكتور حاييم ارلوزوروف ، رئيس الدائرة السياسية في الوكالة اليهودية ، بينما كان يتنزه ليلا على شاطئ تل ابيب مع زوجته ، فأردياه قتيلا . وعلى الاثر ، اعتقلت الشرطة يهوديان من تل ابيب واتهمتهما بتنفيذ جريمة الاغتيال ، وكان واحدا منهما ، ابا احييمير ، وجها يمينيا معروفا . واتضح ، بعد التحقيق مع المتهمين ، انهما ينتميان الى خلية شبه فاشية ، سميت « عصابة الاشداء » ، كانت تعمل داخل صفوف اليمين الصهيوني في فلسطين . ومنذ القاء القبض على المتهمين وحتى قبل ان تبدأ محاكمتها ، سارع العمال الى اتهام اليمين باغتيال ارلوزوروف (الذي كان عضوا في حزب ميهاي) ، بينما راح جابوتينسكي يدافع عنهما علنا ، منكر ان لهما علاقة بحادث الاغتيال -

وقد قضت المحاكم ، على كل حال ، ببراءة المتهمين لعدم توافر الأدلة ، ولم يعرف ابدا من اغتيال ارلوزوروف (٨٩) . ولكن ذلك لم يمنع العمال من القاء التهمة على اليمين ، موضحين أن الدافع لذلك كان عدم رضى الاصلاحيين عن المفاوضات التي اجراها ارلوزوروف مع المانيا النازية وعقد اتفاقية (هعقراه) معهم ، تعهدوا بموجبها بالسماح لليهود الالمان بالهجرة الى فلسطين وتحويل اموالهم ، على شكل بضائع المانية ، اليها . وكان النازيون معنيون بهذه الاتفاقية للتخلص من اليهود الالمان بهدوء من ناحية ، ولكسر طوق المقاطعة اليهودية لبضائعهم ، على الصعيد العالمي ، من ناحية ثانية . اما الصهيونيون فقد تمكنوا ، بواسطة تلك الاتفاقية ، من تهجير عشرات الالاف من اليهود الالمان ، المثقفين والمدرسين جيدا على مختلف المهن الى فلسطين من جهة ، بينما شحنوا الى البلد ماكينات وبضائع ، قدرت قيمتها ببضعة ملايين من الليرات الاسترلينية ، وساعدتهم على ارساء أسس صناعتهم هناك ، من جهة ثانية (٩٠) .

وعلى كل حال، ومهما يكن من شأن تلك الاتفاقية واعتراضات اليمين على ابرامها، فقد جعل العمال من اغتيال ارلوزوروف قميص عثمان في صراعهم مع الاصلاحيين، فضيقوا الخناق عليهم في المؤتمر الصهيوني الثامن عشر ، لدرجة اضطر معها جابوتينسكي الى تمزيق بطاقة عضويته علنا والانسحاب مع مؤيديه ، من المؤتمر . ويرى بعض مؤرخي الصهيونية أن مضاعفات اغتيال ارلوزوروف مهدت الطريق ، أكثر من اي حادث اخر امام العمال ، للسيطرة على المنظمة الصهيونية العالمية - ولا تزال اصداء هذا الاغتيال تسمع ، من فترة الى اخرى ، بين الصهيونيين منذ ذلك الوقت ، بينما ساهم ذلك ، من ناحية ثانية ، في منع وقوع أحداث مماثلة في المستقبل ، ان لم تسجل منذ ذلك الوقت حادثة اغتيال سياسي تذكر داخل الكيان الصهيوني .

وخلال سنة ١٩٣٤ ، حاول بعضهم العمل على اصلاح ذات البين بين اليمين والعمال ، فجرت مفاوضات بين جابوتينسكي وبن - غوريون ، توصل الاثنان في نهايتها الى اتفاق يقضي بانتهاء الصراع الدائر بين المعسكرين الصهيونيين (٩١) . وقد نصت إحدى بنود الاتفاق على ضرورة اجراء استفتاء عام بين اعضاء الهستدروت ، للمصادقة عليه ، الا ان اغلبية الذين اشتركوا في الاستفتاء رفضت ذلك - فعادت الحال الى سابق عهدها .

ومع انعقاد المؤتمر الصهيوني التاسع عشر ، في اواخر آب (اغسطس) واول ايلول (سبتمبر) ١٩٣٥ ، اعلن الاصلاحيون انشقاقهم عن المنظمة الصهيونية العالمية وامتنعوا عن حضور المؤتمر - فانتخب بن - غوريون رئيسا للوكالة اليهودية ، وجاء ذلك ايذانا ببدء السيطرة الفعلية للجناح العمالي الصهيوني على الحركة الصهيونية .

اما الاصلاحيون فقد عقبوا في الشهر نفسه الذي اختتمت فيه اعمال المؤتمر الصهيوني التاسع عشر - ايلول (سبتمبر) ١٩٣٣ - مؤتمرا لهم ، في فينا ، اعلنوا فيه اقامة منظمة خاصة بهم ، سموها « المنظمة الصهيونية الجديدة » . واعلنت هذه المنظمة في برنامجها « ان هدف الصهيونية هو انقاذ اليهود من المهجر بواسطة تحويل ارض - اسرائيل ، على ضفتي الاردن ، التي دولة يهودية ذات اكثرية يهودية ، وارجاع كل اليهود الذين يفتشون عن ملجأ امين اليها » (٩٢) . وقد جاء هذا الانشقاق ، عمليا ، بمثابة تعبير عن سقوط اليمين الصهيوني ، اذ ان المنظمة الصهيونية الجديدة عادت - بخفي حنين - وانضمت في نهاية الامر الى المنظمة الام ، سنة ١٩٤٦ ، عند انعقاد المؤتمر الصهيوني الثاني والعشرون . ولكن حتى ذلك الوقت ، كان العمال - من خلال وقوفهم على رأس المنظمة الصهيونية ومواقبتهم للاحداث المهمة التي وقعت خلال الثورة العربية الكبرى في فلسطين (١٩٣٦ - ١٩٣٩) - ثم الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) - قد وسعوا نفوذهم وسيطرتهم على الحركة الصهيونية ، في مختلف انحاء العالم ، لدرجة لم يستطع اليمين معها من تحطيم تلك السيطرة ، ولو جزئيا . الا بعد مرور ٣١ سنة على رجوعه الى المعسكر الصهيوني ، وان جاء ذلك تعبيرا عن « غياب » قيادة العمال ، لا نتيجة لـ « شطارة » الزعماء اليمينيين .

الدروس الاولى في الارهاب

لم تمر الا بضعة اشهر على انشقاق اليمين الصهيوني عن المنظمة الصهيونية العالمية واقامة تنظيمه الخاص به ، « المنظمة الصهيونية الجديدة » ، في ايلول (سبتمبر) ١٩٣٥ ، حتى نشبت الثورة العربية الكبرى في فلسطين ، فسي نيسان (ابريل) ١٩٣٦ . وقد استمرت هذه الثورة ، وان كانت حدة نشاطها تخف تارة وتقوى طورا ، لمدة تزيد على ٣ سنوات ، وانتهت رسميا على الاقل خلال النصف الثاني من سنة ١٩٣٩ ، قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية .

خلقت ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ في فلسطين ، منذ نشوبها ، مشاكل عديدة للصهيونيين ، لم تكن في حساباتهم . فقد كان واضحا ، اولا ، منذ بدايتها ، انها تختلف عن الاضطرابات التي عهدها فلسطين حتى ذلك الوقت ، كذلك التي وقعت خلال السنوات ١٩٢٠ و ١٩٢١ و ١٩٢٩ و ١٩٣٣ - ان كان ذلك من حيث الطلبات والشعارات التي رفعتها ، او من حيث اساليب المقاومة التي اتبعتها . فمنذ انطلاقة الثورة ، اعلن الزعماء الفلسطينيون ان هدفها هو اقامة نظام حكم ديموقراطي في فلسطين يستجيب لرغبات الاكثرية العربية ، ثم ايقاف

الهجرة اليهودية الى البلد ومنع بيع الاراضي العربية لليهود . اما على صعيد التكتيك ، ثانيا ، فلم يقصر الثوار الفلسطينيون هجماتهم على اليهود فقط ، كما كان يحدث عادة خلال الاضطرابات السابقة ، وانما وسعوها لتشمل البريطانيين ومنشاتهم ، المدنية والعسكرية ، في كافة انحاء فلسطين ايضا . كما ان الثورة نشبت ، ثالثا ، في ظل ظروف دولية حرجية ، لم تكن مشجعة لاستمرار التحالف الصهيوني - البريطاني ضد العرب ، خصوصا في ضوء تصاعد قوة المانيا النازية واتجاهها الى كسب الحلفاء لها ، في أوروبا وخارجها ، مما اضطر بريطانيا الى ابداء تفهم أكبر ، على الاقل ، لطلبات العرب في فلسطين وجوارها ، لمنعهم من السقوط في احضان المانيا النازية وحليفاتها ، في نهاية الامر .

اثارت الثورة العربية الكبرى في فلسطين « غضب » الصهيونيين اليمينيين ، بعد ان اثبتت « صحة منطلقاتهم » ودفعتهم الى شن حملة دعاية شعواء ، في فلسطين وخارجها ، ضد البريطانيين والقيادة الصهيونية الرسمية (الخاضعة لسيطرة الجناح العمالي) باعتبارهم « المسؤولين » عن نشوب الثورة ، نظرا لسياسة « المهادنة » و « التنازلات » التي اتبعتها القيادة الصهيونية تجاه البريطانيين من ناحية ، واصرار اولئك على اتخاذ مواقف « متلونة » تهدف الى الحفاظ على « التوازن » بين العرب واليهود من ناحية ثانية . ولذلك دعا اليمينيون الى اتخاذ مواقف « صلبة » ، حتى وان ادى ذلك الى صدام مع العرب والبريطانيين سوية - الا ان احدا لم يأبه لهم ، خصوصا بعد ان وضعوا انفسهم خارج المعسكر الصهيوني « المنظم » ، بانشقاقهم عن المنظمة الصهيونية العالمية من جهة ، ونظرا لضعف امكاناتهم وصغر حجمهم ، ماديا وبشريا ، من جهة ثانية .

غير انه ، بالاضافة الى ذلك ، كانت هناك ايضا اسباب اخرى دفعت القيادة الصهيونية الى رفض « نصائح » اليمينيين . فقد كان واضحا لتلك القيادة ان اتساع نطاق الثورة الفلسطينية وشموليتها من جهة ، والظروف الدولية التي ساءت آنذاك من جهة ثانية ، لا تسمح للصهيونيين باتبع سياسة صدام شاملة مع البريطانيين ، ولا حتى مع العرب الفلسطينيين بأسرهم ، خشية ان يجدوا انفسهم ، في نهاية الامر ، لوحدهم ، مما قد يجبر عليهم عواقب وخيمة . كذلك لاحظ المسؤولون الصهيونيون ان الثورة ، بمجرد نشوبها ، سببت لهم اضرارا بالغة ، تمثلت في عرقلة نمو الكيان الصهيوني في فلسطين . فخلال السنوات الخمس التي سبقت نشوب الثورة (١٩٣١ - ١٩٣٥) ، ونتيجة لضمود النازية في المانيا اساسا واشتداد ضغوطها على اليهود ، ازدادت الهجرة اليهودية الى فلسطين بشكل لم يسبق له مثيل ،

واسفرت عن مضاعفة عدد السكان اليهود في البلد فوصل الى نحو ٤٠٠ الف نسمة في منتصف الثلاثينات . كذلك احضر اولئك المهاجرون معهم السي فلسطين خيرة ورؤوس اموال (نتيجة لاتفاقية الـ « هعفراه » بين النازيين والصهيونيين) لا بأس بها ، وراحوا يرسون في البلد اسس « صناعة » حديثة ، بعد ان كانت القاعدة الاقتصادية الصهيونية في فلسطين مقتصرة آنذاك على القطاع الزراعي (٩٣) . لذلك لم تكن القيادة الصهيونية المعنية بـ « سحق » الثورة في فلسطين - ولم تكن لديها ايضا القدرة على ذلك - والتسبب في اضرار اقتصادية بالغة ، قد يعم ضررها الجميع بقدر ما كانت مهتمة بانتهاء « الاضطرابات » والحفاظ على « الامن والاستقرار » ، لتتمكن من المسير قدما في بناء الوطن القومي اليهودي .

انطلاقا من هذه الاوضاع والاعتبارات ، انتهجت القيادة الصهيونية في فلسطين - كعادتها - سياسة براغماتية واضحة ، هدفها الابقاء على التحالف الصهيوني مع البريطانيين والتمتع بحمايتهم من جهة ، ومعارضتهم ، قدر الامكان واذا لم يكن بد من ذلك ، عندما يتجهون الى اتباع سياسة تمس بالمصالح الصهيونية الحيوية من جهة ثانية . فعلى الصعيد الامني ، مثلا ، دعت منظمة الهاغاناه ، الخاضعة للقيادة العمالية ، اتباعها الى الالتزام بما سمته سياسة « ضبط النفس » (٩٤) ، اي الامتناع عن اللجوء الى الاستفزاز في تعاملهم مع العرب ، وعدم شن هجمات عليهم في كل مكان او محاولة ايقاع الاذى بهم في كل مناسبة ، ردا على هجوماتهم على اليهود ومنشأتهم ، بل الاتجاه الى « معاقبة » المسؤولين العرب عن تلك الهجمات وقصر « العمليات الانتقامية » على الحالات او الاماكن النحساسة ، من خلال محاولة التنسيق ، قدر الامكان ، مع السلطة البريطانية المسؤولة اولا واخيرا عن حفظ الامن ، والتي لا ينبغي ان يسمح لها بالتملص من تحمل هذه المسؤولية . وقد احرزت القيادة الصهيونية ، من خلال التزامها بسياسة « ضبط النفس » هذه ، مكاسب لا بأس بها على المدى الطويل . فمع اتساع نطاق الثورة العربية وتصاعد نشاطها ، ليشمل اليهود والبريطانيين معا ، وجد اولئك انفسهم مضطرين الى التنسيق ، ثم الى التعاون فيما بينهم ، خصوصا في المجالين الامني والعسكري . فقد اضطرت السلطات البريطانية ، خلال مراحل الثورة الاولى ، الى تجنيد اعداد من اليهود ، ليعملوا كقوى اضافية للشرطة او غفراء (نرطريم) لحراسة المنشآت المختلفة في فلسطين ، التي كانت تتعرض لهجمات الثوار . ثم اتسع نطاق التجنيد هذا ، عندما اقامت السلطات قوة جديدة سميتها « شرطة المستوطنات اليهودية » للدفاع عن المستوطنات النائية . وقد شكلت هذه القوة من اليهود وزودت بمختلف الاسلحة الخفيفة . ولم تكن اعداد اولئك المجندين اليهود ، على كل حال ، كبيرة للغاية ، كما سرح

بعضهم مع نهاية الاضطرابات ، واعيد تنظيمهم ، من حين الى آخر • ولكنهم ، من ناحية ثانية ، كانوا الجهة اليهودية الوحيدة التي سمح لها بحمل الاسلحة شرعيا ، واستعمالها بحرية نسبيا في مختلف انحاء فلسطين ، وبصفتهم هذه قدموا للهاغاناه خدمات لا بأس بها ، فقد استغلت المنظمة وجود تلك الاسلحة في ايدي اليهود لتدريب اعضائها على استعمال السلاح ، وتوسيع نطاق عمليات التدريب ، دون صعوبات كبيرة (٩٥) •

ولم يتوقف التنسيق العسكري بين الصهيونيين والبريطانيين خلال ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ ، على كل حال ، عند هذا الحد ، ولم يكن تجنيد اليهود وتدريبهم على استعمال الاسلحة ، في اطار المحافظة على المنشآت الحيوية ، المكسب الوحيد الذي جناه الصهيونيون مسسن وراء ذلك فمع تصاعد نشاط الثوار الفلسطينيين وقيامهم بعمليات هجوم ليلية على المنشآت الحيوية ، وخصوصا محاولات تفجير خط النفط ، الذي كان يمر في شمال فلسطين وينقل النفط من العراق الى ميناء جيفا ، ليشحن من هناك الى بريطانيا ، رأى البريطانيون انه لا بد من ايقاف تلك الهجمات الليلية • وفي محاولات القيام بذلك ، اتبعوا الاسلوب نفسه الذي اعتمده الثوار الفلسطينيون ، فقاموا بتشكيل مجموعات يهودية مسلحة ، اطلق عليها اسم « كتائب الليل الخاصة » ، وتولى ضابط بريطاني يدعى اورد وينغيت قيادتها • وقد درجت هذه الكتائب على شن الهجمات الليلية على اماكن تجمع الثوار الفلسطينيين او نصب الكمائن لهم ومحاولة الاشتباك معهم في الاماكن النائية القريبة من قواعدهم الخلفية وارياكهم • ولم تنشط هذه الكتائب ، على كل حال ، الا خلال فترة قصيرة نسبيا ، ولكن تجربتها كانت كبيرة الفائدة بالنسبة للفكر والتكتيك العسكري الصهيوني ، من حيث تشجيعها للصهيونيين في فلسطين على « الخروج الى ما وراء السور » واتباع الهجوم كوسيلة للدفاع ، وذلك بتحسين مستوطناتهم من ناحية ونقل الحرب الى البحر العربي الواسع الذي يحيط بهم ، حيث تكون المبادرة عامة لهم ، من ناحية ثانية (٩٦) • ولم ينس الصهيونيون ، منذ ذلك الوقت ، هذا الدرس ابدا ، اذ نقلت هذه التجربة ، بعد حل كتائب الليل الخاصة ، الى كتائب البلماح - ومنهسا الى السى الجيش الاسرائيلي •

اما في المجالات الاخرى ، فان سياسة « ضبط النفس » التي اتبعتها القيادة الصهيونية لم تسفر عن مكاسب ملموسة ، كتلك التي كانت من نصيبها على الصعيد الامني ، بل ادت احيانا الى الفشل او الى صدام مع البريطانيين • فقد فشل الصهيونيون ، مثلا ، في اقناع البريطانيين بتحويل مسؤولية تشغيل بعض المرافق الحيوية ، كالموانئ ، اليهم اثر تصعيد العرب لاضرابهم عن العمل • كذلك فشل الصهيونيون في محاولاتهم الى الاستغناء عن المنتجات

الزراعية العربية • كما دخل الصهيونيون في صراع سياسي واسع مع البريطانيين ، عندما اتجه اولئك الى تقديم المشاريع لتقسيم فلسطين واقامة دولتين ، عربية ويهودية ، فيها وبذلوا كل ما في وسعهم لافشالها • وقد فشلت تلك المشاريع ، في نهاية الامر ، لاسباب مختلفة ، ولكن ذلك لم يتم ، على كل حال ، الا بعد ان استغل الصهيونيون الاوضاع التي طرحت فيها تلك المشاريع وحققوا بعض المكاسب • فقد لاحظت القيادة الصهيونية، مثلاً، ان حدود مشاريع التقسيم ، التي قدمها البريطانيون ، رسمت بشكل تضم معه اكبر عدد من المستوطنات اليهودية القائمة في فلسطين آنذاك ، ولذلك سارعت الى اقامة مستوطنات جديدة عدة في اماكن مختلفة من البلد ، لم تظاها قسدم الاستيطاني الصهيوني حتى ذلك الوقت ، كالجليل الغربي ومنطقة بيسان ، في محاولة لافشال مشاريع التقسيم تلك من ناحية او تحسين وضع اليهود وزيادة مساحة الحصة ، التي قد تمنح لهم ان نفذت تلك المشاريع ، من ناحية ثانية • وقد اقيمت خلال السنوات ١٩٣٧ - ١٩٣٩ ، ضمن ما سمي مستوطنات « السور والبرج » نحو ٥٠ مستوطنة جديدة (٩٧) • ولعبت هذه المستوطنات ، خلال حرب ١٩٤٨ ، دورا لا يأس به في خدمة المخططات الصهيونية التوسعية ، اذ اصبحت بمثابة قواعد انطلاق للسيطرة على المناطق العربية الصرفة المجاورة لها •

من الواضح ان النشاط الصهيوني في فلسطين ، خلال ثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ ، كان خاضعا للقيادة العمالية وحلفائها ، وهي التي كانت ، اساسا ، تشرف على القوى الصهيونية المختلفة التي تستطيع تنفيذ سياسة ما ، في حال اقرارها ، ولهذا بدا دور اليمين الصهيوني في التأثير على تلك الاحداث ، او انتهاج سياسة خاصة به ، ضعيفا وشاحبا للغاية • غير ان اليمين لم يعدم وسيلة لاثبات وجوده على الاقل فاختر ، من بين كل مجالات النشاط المهمة والحيوية ، مجال « الدفاع » فقط وقرر « ازالة عار » سياسة « ضبط النفس » التي اتبعتها الهاغاناه ، فلم يجد لديه الا اللجوء الى الازهباب السفار العشوائيين ضد العرب ، بصفقتهم عزيا • وفي اطار تنفيذ هذه السياسة ، راحت منظمة اتسل تشن الهجومات على العرب ، في اي مكان تستطيع الوصول اليه ، واضعة نصب عينها هدفا واحدا فقط : ايقاع اكبر عدد من الخسائر البشرية بالعرب ، مهما كانت صفتهم او مواقعهم او انتماءاتهم • كذلك لجأت المنظمة ، لتنفيذ سياستها هذه ، الى اتباع وسائل لم تعدها فلسطين حتى ذلك الوقت ، رغم الاضطرابات الكثيرة التي كانت تنشب من حين الى اخر بين العرب واليهود ، مثل تفجير السيارات المفخومة في الاسواق العمومية العربية ، والقاء القنابل على تجمعات العرب او مهاجمة نواديهم ومقاهيهم بالرشاشات او قتل عابري السبيل العرب هنا وهناك » على

الهوية « (٩٨) » صحيح ان عدد القتلى العرب او حجم الخسائر المادية التي لحقت بهم ، من جراء نشاط اتسل ، لم تكن ضخمة للغاية ، بالمقارنة مع ما أصابهم نتيجة لسياسة القمع التي انتهجها البريطانيون ، بالاشتراك مع الهاغاناه ، ولكن « الاسلوب » الارهابي السافر الذي اتبعته اتسل كان متميزا للغاية . وقد اتضح فيما بعد ان هذا الاسلوب لم يكن ، في نهاية الامر ، الا بمثابة « بروفة » اولية - اذ عادت اتسل الى انتهاج سياسة اكثر ارهابا ، خلال صراعها المتجدد مع البريطانيين ، عند نهاية الحرب العالمية الثانية ، وسرعان ما اصابت العدوى الهاغاناه ، التي استعملت هذه الاساليب على نطاق واسع ، خلال حرب ١٩٤٨ .

انشقاق اليمين وظهور متاحيم بيغن

انتهت الثورة العربية الكبرى في فلسطين سنة ١٩٣٩ ، بعد ان كانت السلطات البريطانية قد اصدرت ، في ١٧ ايار (مايو) من السنة نفسها « كتابا ابيض » ، اوضحت فيه اسس سياستها الفلسطينية في المستقبل . وقد تعهدت بريطانيا ، بموجب ذلك الكتاب ، من بين ما تعهدت به ، بانشاء دولة فلسطينية مستقلة خلال ١٠ سنوات ، يشترك العرب واليهود في حكمها ، معتبرة انها نفذت الالتزام الذي فرضته على نفسها باقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، مع وصول عدد هؤلاء في البلد الى نحو ٤٥٠ الف نسمة ، اي ما يساوي ثلث السكان تقريبا . كذلك حدد الكتاب الابيض عدد المهاجرين اليهود الذين سيسمح لهم بالدخول الى فلسطين ، وفرض القيود على بيع الاراضي العربية لليهود .

جاء الكتاب الابيض لسنة ١٩٣٩ ، التي كانت الحكومة البريطانية قد اصدرته ، اساسا ، في محاولة لانهاء الثورة العربية وكسب هدوء العرب وعطفهم . في فلسطين وجوارها ، في ظل التهديد النازي الداهم ، قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية ، بمثابة ناقوس الخطر ، الذي ايقظ الصهيونية ، ودفعها الى شد الاحزمة والاعتماد على النفس واعادة النظر في موقفها من بريطانيا (٩٩) . فقد اعتبرت الزعامة الصهيونية التعليمات التي احتوى عليها الكتاب الابيض ضربة مؤلمة للاسس الرئيسية التي تقوم عليها الصهيونية ، ونهاية للتحالف الصهيوني - البريطاني الذي بدأ ، على الاقل ، مع صدور وعد بلفور سنة ١٩١٧ ، نتيجتها القضاء على الخطم الصهيونية لاقامة دولة يهودية في فلسطين - ولذلك ينبغي مقاومتها والعمل على تغييرها ، او التحايل عليها والاستمرار في بناء الكيان الصهيوني . وكان ايضا من بين النتائج الرئيسية التي ترتبت على صدور الكتاب الابيض ، على الصعيد

السياسي ، تقوية الاتجاه الصهيوني المؤيد لقيام دولة يهودية في فلسطين ، دون الاعتماد بشكل رئيسي على بريطانيا او حتى ، ان كانت هناك حاجة لذلك ، من خلال الصراع معها . كما ادى ذلك الى ازدياد نفوذ الفئة المؤيدة لهذا الاتجاه ، بزعامة بن - غوريون . وقد ظهرت هذه السياسة الصهيونية بوضوح في مقررات مؤتمر بلتيمور (١٩٤٢) - الذي كان ، من ناحية ثانية ، بمثابة اشارة واضحة الى انتقال النشاط الصهيوني الى اميركا واتجاهه الى استغلال نفوذ اليهود فيها ، بعد ان ضاع معظم يهود اوربا في الدوامة النازية - ومقررات المؤتمر الصهيوني الثاني والعشرين (١٩٤٦) .

اما على الصعيد العملي ، فقد كانت الخطوة الاولى التي ترتبت على صدور الكتاب الابيض ، اتخاذ ادارة الوكالة اليهودية قرارا ، في حزيران (يونيو) ١٩٢٩ - اي بعد مرور اقل من شهر على صدور ذلك الكتاب - يقضي باعداد الهاغاناه «ليس لاغراض الدفاع فقط، وانما كنواة للجيش اليهودي» (١٠٠) ، وكلف بن - غوريون باعادة تنظيمها . وكانت هذه الخطوة بمثابة تدشين فترة استمرت ٢٥ سنة ، اشرف بن - غوريون خلالها على كافة الشؤون العسكرية الصهيونية . ففي سنة ١٩٤٦ ، كلف برئاسة « دائسرة الدفاع » التابعة للوكالة اليهودية ، ومع اقامة اسرائيل اصبح اول وزير دفاع (ورئيس حكومة) فيها ، واحتفظ بمنصبه هذين ، عدا فترة قصيرة ، حتى استقالته سنة ١٩٦٣ . وقد كان لتعيين بن - غوريون في هذه المناصب ، كما سنرى ، تأثيره السلبي على اليمين الصهيوني ونشاطه عامة ، اذ لم يكن الرجل من « المعجبين » بالصهيونيين الاصلاحيين ولا بأساليبيهم ، ابدا - وظهر موقفه هذا بوضوح في اكثر من مناسبة .

ومع اتخاذ قرار تحويل الهاغاناه الى « نواة للجيش اليهودي » ، اتجهت القيادة الصهيونية الى توسيع قاعدة المنظمة الشعبية واقامة « رئاسة اركان » لها ، تشكلت من ممثلين عن حزب مباي ، زعيم الجناح العمالي الصهيوني من جهة ، و « المدنيين » (الفئات اليمينية المعتدلة - فيما بعد حزب « التقدميين » ثم « الاحرار المستقلين ») ومنظمة مزراحي المدينة (فيما بعد « الحزب الديني القومي ») من جهة اخرى . وقد تم الاتفاق على ان تشكل « رئاسة الاركان » على اساس التساوي ، عدديا ، بين الطرفين ، وذلك على الرغم من ان قوة الجناح العمالي ، عدة وعددا ، كانت تفوق باضعاف قوة الطرف الآخر . اما السبب الذي دفع العمال الى الموافقة على ذلك ، فقد كان كامنا في نية الجناح العمالي عزل المنظمة العسكرية الاخرى ، اتسل ، ومؤيديها اليمينيين - وقد نجح في ذلك . فقد بقي ذلك الاتفاق ، الذي اسفر عن اقامة هاغاناه متماسكة ، والتعاون بموجبه قائمين حتى سنة ١٩٤٨ ، رغم

التعديلات التي ادخلت عليه من حين الى آخر (١٠١) . بل ان الاتفاق بقي ساري المفعول ، وان تم ذلك على شكل آخر ، حتى بعد اقامة اسرائيل ، اذ ان معظم حكوماتها شكلت من قبل تلك القوى التي ساهمت في تقوية الهاغاناه واعادة تنظيمها ، بطبعتها الاخيرة .

. بعد تشكيل « رئاسة اركان » الهاغاناه ، دار البحث في المنظمة حول « الاجراءات » التي ينبغي اتخاذها ضد السلطات البريطانية في فلسطين ، ردا على سياسة الكتاب الابيض . غير انه قبل الانتهاء من تلك المداولات ، نشبت الحرب العالمية الثانية ، في ايلول (سبتمبر) ١٩٣٩ ، مما دفع الصهيونيين الى تعديل سياستهم ، فأطلق بن - غوريون واحدا من شعاراته المعروفة : « سنحارب الكتاب الابيض كأنه لا يوجد هتلر ، وسنحارب هتلر كأنه لا يوجد كتاب ابيض » . غير انه سرعان ما اتضح ان هذا الشعار لم يكن الا نوعا من الديماغوغية ، التي لا اساس لها ، اذ ان الصهيونيين لم يحاربوا ، في نهاية الامر ، لا هتلر ولا الكتاب الابيض ، بل حصروا نشاطهم عمليا في التفتيش عن انساب الطرقات الملائمة لدعم « الجهود الحربية » البريطاني ، وبالشكل الذي يخدم مصالحهم ويدعم قوتهم اولا . ولذلك امتازت سنوات الحرب العالمية الثانية بمحاولات دائمة ، تبذل من قبل الطرفين ، البريطاني والصهيوني ، لتعزيز التعاون فيما بينهما . وكان هذا التعاون يشتد ويسفر عن نتائج ملموسة ، عادة ، عندما يسوء وضع بريطانيا او حلفائها خلال الحرب ، او عندما ينشأ وضع خاص يحتم الاستناد على خدمات الصهيونيين ، ثم ينجو بعد ذلك عندما يميل الميزان العسكري لصالح الحلفاء . وبواسطة اتباع هذه السياسة ، احرز الصهيونيون ، خلال سني الحرب العالمية الثانية ، مكاسب لا بأس بها ، في مجالين على الاقل : العسكري والاقتصادي .

فعلى الصعيد العسكري ، دعا الصهيونيون - حال نشوب الحرب - الى اقامة جيش يهودي ، من بين اليهود في فلسطين ، للقتال الى جانب بريطانيا ضد النازية ، وهو مطلب مماثل لذلك الذي تقدمت به الصهيونية خلال الحرب العالمية الاولى . ولم يتحقق ذلك ، لاسباب مختلفة ، الا خلال المرحلة الاخيرة من الحرب ، عندما اقيمت في اواخر سنة ١٩٤٤ « الفرقة اليهودية » (والتي سرحت ، على كل حال ، بعد نحو سنتين من انشائها) . غير ان التعاون العسكري بين الصهيونيين وبريطانيا كان قد بدأ قبل ذلك بأربع سنوات ، في منتصف سنة ١٩٤٠ ، بعد ان دخلت ايطاليا الحرب الى جانب المانيا وشعرت بريطانيا بالخطر على وجودها في البحر المتوسط والشرق العربي ، فعرضت على الصهيونيين حث اليهود على التطوع في الجيش البريطاني . واعتبرت القيادة الصهيونية ذلك العرض بمثابة « مناسبة لتدريب الآلاف من شبابنا على نفقة

الامبراطورية البريطانية « (١٠٢) ، فلجأت الى تنظيم عمليات التطوع ، موعزة للكثيرين من اعضاء الهاغاناه بالقيام بذلك . وقد ثبت فيما بعد ان هذا الاتجاه كان واحدا من الخطوات المهمة للغاية ، التي اقدمت عليها الصهيونية خلال الحرب ، اذ اتضح بعد انتهاء القتال وتسريح الجيوش ان نحو ٢٦٦٠٠ يهودي في فلسطين ، كانوا قد خدموا في الجيش البريطاني ، بمختلف اسلحته ، خلال الحرب . يضاف الى ذلك نحو ٨٠٠ شخص تجندوا للفرقة اليهودية رأسا و ٦٠٠٠ من الغفراء (نوطريم) كانوا يعملون في فلسطين (١٠٣) . وبعبارة اخرى ، تم خلال الحرب تدريب ما يقارب من ٣٠ الف يهودي في فلسطين على استعمال السلاح ، بكافة انواعه ، بفضل تعاون الصهيونيين مع بريطانيا . وكانت تلك القوى البشرية خير نواة للجيش الاسرائيلي ، الذي اقيم بعد نحو سنتين من تسريح الدفقات الاخيرة من اولئك المجندين .

ولم يكن تدريب ذلك العدد من الجنود والضباط المكسب الوحيد ، على الصعيد العسكري ، الذي حققته الهاغاناه والقيادة العمالية خلال الحرب ، اذ ان البريطانيين كانوا ايضا القوة الرئيسية التي ساعدت على تشكيل كتائب البلماح ، قوى الهاغاناه الضاربة ، بعد ان ساهموا في تمويل اقامتها (١٠٤) لتعمل ضد الالمان ، اذا احتلوا فلسطين . ولم يستمر التمويل البريطاني للبلماح طويلا ، على كل حال ، ولكن مع ايقافه وجدت حركات الكيوتسات طريقة ناجعة لتقديم الاموال اللازمة لذلك . (خصوصا بعد ان رفض جناح « المدنيين » في قيادة الهاغاناه تمويل اقامة قوى ضاربة) ، فأعلنت عن تبنيها لوحدات البلماح (١٠٥) ، ودعتها لاقامة معسكراتها في المستوطنات الزراعية المختلفة ، حيث يخصص نصف وقت المجندين لمساعدة ابناء المستوطنة في الاعمال الزراعية ، والنصف الاخر للتدريب . وكان هذا الترتيب اساسا لوحدات الناحال التي اقامها الجيش الاسرائيلي فيما بعد . وبسبب قلة الموارد المالية ، اتبع البلماح ايضا طريقة العمل من خلال الاحتفاظ بقوات احتياط ، وذلك بتسريح المجندين الذين يتم تدريبهم والاحتفاظ بهم كاحتياط ، ليجاد مكان لتدريب المجندين الجدد . وهذه الطريقة ايضا أصبحت من الاسس التي اتبعتها الجيش الاسرائيلي عند انشائه . وتجدر الاشارة الى ان البلماح لعب ادوارا مهمة للغاية ، خلال الاربعينات ، في خدمة القيادة العمالية ، داخليا وخارجيا .

اما على الصعيد الاقتصادي ، فقد لجأ الصهيونيون الى دعم « الجهود الحربي » البريطاني ، بواسطة تزويد القوات البريطانية في فلسطين بمعظم حاجاتها من الغذاء والخدمات (بما في ذلك بعض الخدمات التقنية) ، ثم

بعض المنتجات الصناعية والحربية * وقد ساهم ذلك ، في نهاية الامر ، في تقوية الاقتصاد الصهيوني في فلسطين بشكل ملحوظ (١٠٦) *

في الوقت الذي اختارت القيادة الصهيونية العمالية فيه المسار الذي اشرنا اليه ، واحرزت المكاسب التي ذكرناها ، كانت اوضاع اليمين الصهيوني اصعب - واسوأ * ففي اواخر شباط (فبراير) ١٩٢٩ ، نجحت الشرطة البريطانية في فلسطين في اعتقال قائد اتسل ، دافيد رازيئيل وادعتسه السجن ، وشدت في الوقت نفسه مطاردتها لباقي اعضاء القيادة * وفي آخر (اغسطس) من السنة نفسها ، وفيما كان اولئك مجتمعين للبحث في شؤون منظماتهم ، تمكنت الشرطة من اعتقالهم جميعا - وذلك قبل ساعات من نشوب الحرب العالمية الثانية (١٠٧) *

ولم يمر وقت طويل على نشوب الحرب ، حتى تمكنت السلطات البريطانية من « اقناع » اعضاء قيادة اتسل المعتقلين بتغيير سياسة منظماتهم ، فأعلنت المنظمة عن « هدنة » في نشاطها الارهابي ، وذلك « لكي لا تعيق النشاط الحربي ضد المانيا * فتساعد بذلك بشكل ما اكبر اعداء الشعب اليهودي في العالم - النازية الالمانية » (١٠٨) * واستمرارا لذلك اطلقت السلطات البريطانية سراح بعض المعتقلين من اعضاء القيادة ، رغم انها استمرت في شن حملة اعتقالات واسعة ضد اعضاء المنظمة ، على اختلاف درجاتهم ، فتمكنت من اعتقال العشرات منهم ، واضعفت اتسل بشكل ملحوظ * ولم تحظ هذه المواقف ، وخصوصا اعلان « الهدنة » مع بريطانيا برضى بعض المسؤولين في اتسل واتباعهم ، فراحوا يستعدون للانشقاق عن المنظمة * غير ان قيادة اتسل لم تبد اهتماما كبيرا ببوادر الانشقاق تلك ، واستمرت في محاولاتها للتعاون مع البريطانيين ، فعقد قائد المنظمة ، رازيئيل ، اتفاقا معهم تعهد بموجبه بالسفر الى العراق ، مع بعض اتباعه ، للقيام بمهام تخريبية لصالحهم - وذلك بعد نشوب ثورة رشيد عالي الكيلاني هناك - كان من اهمها نسف خزانات النفط المكرر في مشارف بغداد ، التي كانت تزود الطائرات الالمانية بالوقود * كذلك تم التفاهم بين الطرفين على ان يسمح لاعضاء اتسل بالعمل ضد الحاج امين الحسيني ، الذي كان موجودا آنذاك في العراق ، وذلك بخطفه او ، اذا تعذر ذلك ، قتله (١٠٩) * الا ان اعضاء اتسل لم يتمكنوا ، بعد وصولهم الى العراق ، من تنفيذ اي من المهام التي اوكلت اليهم ، اذ قتل رازيئيل خلال احدى غارات الطائرات الالمانية ، واضطر الآخرون الى العودة لفلسطين ، حيث عين يعقوب مريدور قائدا لاتسل * ولم يتمكن القائد الجديد من السيطرة على المنظمة بشكل فعال ، بينما ثابرت السلطات البريطانية على مطاردة اعضائها - وفي اثناء ذلك توفي ايضا جابوتينسكي ، في آب (اغسطس) ١٩٤٠ - فادى ذلك الى تفكك اتسل وانسحاب العديدين منها ،

• وضعف شأنها بشكل ملحوظ .

أما المعارضون للمواقف التي اتخذتها اتسل - وللسياسة الدوغماتية التي اتبعتها اليمينيون وجابوتنسكي عامة - فقد أعلنوا انشقاقهم عن المنظمة ، في حزيران (يونيو) ١٩٤٠ ، وأسسوا منظمة جديدة خاصة بهم ، سموها « المحاربون من أجل حرية إسرائيل » (ليحي) - وتعرف أيضا باسم « جماعة شتيرن » ، بسبب اسم قائدها ، دافيد شتيرن • ومع تأسيسها ، أعلنت ليحي عن مبادئها على شكل « أسس لبعث » اليهود • وجاء في تلك « الاسس » ان « اليهود هم شعب مختار » ووطنهم هو « أرض - إسرائيل بحدودها المنصوص عنها في التوراة » • من نهر مصر حتى النهر الكبير نهر الفرات • • • ، وجقوقهم في ذلك الوطن « مطلقة » ، اذ انها لم تنته ولا يمكن ان تنتهي الى الابد • • اما اهداف المنظمة فهي « تجديد السيادة اليهودية على الوطن المحرر » واقامة مملكة اسرائيل الثالثة وجمع شتات اليهود بأسرهم فيها ، وذلك بعد ان يتم « حل مشكلة [السكان] الاجانب بواسطة تبادل السكان » (١١٠) (وقد انتخب مؤخرا يتسحاق شامير ، وهو واحد من الثلاثي الذي قاد ليحي بعد مقتل مؤسسها ، رئيسا للكنيست) •

اتبعت ليحي ، منذ تأسيسها ، سياسة اريابية معلنة تجاه البريطانيين في فلسطين - ويقال ان بعض قادتها حاولوا ايضا اقامة علاقات مع دول المحور ، خصوصا ايطاليا - فحصرت نشاطها ، عامة ، في نسف مكاتبهم ومنشاتهم من ناحية ، وقتل جنودهم باطلاق النار عليهم ، في الشوارع من ناحية ثانية • ولم يستطع البريطانيون السكوت طويلا على هذا النشاط ، خصوصا وانهم اشتد في احلك الازمات التي مروا فيها خلال الحرب العالمية الثانية ، فشدوا مطاردتهم لها • ولم تمر الا بضعة اشهر على الاعلان عن قيام المنظمة ، حتى استطاع البريطانيون اعتقال معظم نشيطيها ، ثم تمكنوا ، سنة ١٩٤٢ ، من قتل قائدها ، دافيد شتيرن • ومع حلول سنة ١٩٤٣ ، كانت المنظمة قد تفككت وخف نشاطها بشكل ملحوظ ، فوجدت نفسها في وضع لم يكن احسن كثيرا من وضع زميلتها - منافستها ، منظمة اتسل •

وفي هذه الظروف الحرجة بالنسبة لليمينيين في فلسطين - اي بعد ان خف نشاطهم وكادت منظماتهم تضمحل - ظهر مناحيم بيغن • وكان بيغن ، الذي ولد سنة ١٩١٢ وتخرج من كلية الحقوق في جامعة وارسو ، قد قضى معظم وقته - قبل قدومه الى فلسطين - في خدمة منظمة الشبيبة بيتار ، التابعة للصهيونيين الاصلاحيين ، في بولونيا ودول اوروبية اخرى • وبسبب نشاطه هذا ، اعتقلته السلطات البولونية عشية نشوب الحرب العالمية الثانية ، ثم نفاه الروس ، بعد ان دخلوا بولونيا ، الى سيبيريا - ولم ينس بيغن هذه التجربة ، منذ ذلك

الوقت ، ووضعها في كتاب بعنوان « ليال بيضاء » . غير انه لم يبق فسي المنفى السيبيري طويلا ، ففي سنة ١٩٤٢ ، عندما اقيم جيش بولوني بقيادة الجنرال اندروز ، للمقاتل الى جانب الحلفاء ، التحق به ووصل الى فلسطين . وفي السنة التالية سرح من الجيش وعين ، في اول كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٣ ، قائدا عاما لاتسل .

لا تبدو على مناحيم بيغن ، من حيث نشاطه ومواقفه ، حتى تعيينه قائدا لاتسل ، اية بوادر تشير الى ان شخصا مثله « يستحق » مثل هذا المنصب ، اذ لم يكن الرجل من كبار زعماء الصهيونيين الاصلاحيين ولا مفكرهم ، ويبدو ان اختياره كان باعتباره « احسن » المرشحين الثواقيرين . وعلى كل حال ، ومهما كانت الاعتبارات التي حدث بزعماء اتسل الى تعيين بيغن قائدا لمنظمتهم ، لم يكن الاختيار سيئا ، اذ لم تمض الا فترة قصيرة على تعيينه حتى استطاع اعادة تنظيم القوات اليمينية ، وتخليصها من الخمول والانفلاش اللذين سيطرا عليها .

لم يمض الا نحو شهرين على تعيين بيغن قائدا لاتسل ، حتى اعلنت المنظمة في اول شباط (فبراير) ١٩٤٤ ، « الثورة » ضد البريطانيين ، وطالبت « بان تسلم السلطة في ارض - اسرائيل حالا الى حكومة يهودية مؤقتة » ، تعمل على اقامة « جيش عبري قومي » ، وتسعى لتهجير يهود اوروبا الى فلسطين ، وتقترح عقد حلف « على اساس ميثاق الاطلنطي ومن خلال الاعتراف بالمصالح المتبادلة مع ٠٠٠ بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الاميركية وفرنسا » وغيرها من الدول التي تعترف بالسيادة اليهودية على فلسطين (١١١) . كذلك طالبت اتسل الحكومة اليهودية المؤقتة بمنح الاماكن المقدسة للمسلمين والمسيحيين ، في فلسطين ، وضعا اقليمية خاصا - Extra - Terri - torial Status والسكان العرب « مساواة كاملة في الحقوق » . وبالإضافة الى ذلك طالبت المنظمة اليهود بالامتناع عن دفع الضرائب للسلطات البريطانية والقيام بالمظاهرات ضدهم وعدم الانصياع لاوامرهم (١١٢) .

وعلى سبيل المقارنة ، تجدر الاشارة هنا الى ان ممثلي التيار الصهيوني الرئيسي ، العامل تحت لواء الصهيونية الرسمية ، كانوا قد اتخذوا في مؤتمر بلتيمور ، المنعقد في نيويورك خلال ايار (مايو) ١٩٤٢ ، قرارات دعوا فيها الى اقامة كومنولث يهودي في فلسطين ، بعد انتهاء الحرب العالمية ، وتحويل صلاحيات الحكم الى الوكالة اليهودية (١١٣) .

وبعد مرور نحو اسبوعين على اعلان « الثورة » ، استأنفت اتسل نشاطها العسكري ضد البريطانيين في فلسطين ، وركزت عملياتها ضد منشآت السلطة على اختلاف انواعها ، ابتداء من محطات الشرطة ومراكز المخابرات

البريطانية ، مروراً بمكاتب الهجرة وضرائب الدخل . وانتهاءً بنسف سبيلك الحديد وقطع خطوط التليفون (١١٤) . ولم يمر وقت طويل . حتى تبعتها ليحي ، محاولة مجاراتها .

فل بن - غوريون . . .

في الوقت الذي قررت فيه منظمتا اتسل وليحي انتهاج سياسة عدائية تجاه البريطانيين في فلسطين ، ودخلتا في نزاع مسلح معهم ، لم ينته الامع خروج البريطانيين من فلسطين سنة ١٩٤٨ ، كانت الهاغاناه (ومعها البلاح) ، الجناح الصهيوني العسكري « الرسمي » ، الخاضع لاشرف الوكالة اليهودية ، تستعد أيضاً للسير على الطريق نفسها ، ولكن من خلال اعتباراتها الخاصة بها . فمع دخول الحرب العالمية الثانية مرحلتها الاخيرة الحاسمة ، سنة ١٩٤٤ ، وبعد ان اتضح ان انتصار الحلفاء على المانيا النازية ليس الامسالة وقت ، وصل الصهيوينيون بكافة فئاتهم الى قناعة مفادها ان عملية اعادة « تنظيم » العالم ورسم خرائطه الجديدة ، بعد الحرب ، يجب ان تسفر عن اقامة دولة يهودية في فلسطين ، واذا لم يتم ذلك خلال تلك المرحلة ، فان مثل هذه الدولة قد لا تقوم ابداً . ولذلك راح كل جناح منهم يسعى الى تحقيق ذلك الهدف ، بطرقه الخاصة ، ويلانم نفسه للمتغيرات الجديدة المتوقعة .

ومع بداية هذه المرحلة ، بدأت ايضاً حقبة جديدة من العلاقات بين المنظمات الصهيونية المختلفة ، خصوصاً بين العمال وحلفائهم من جهة واليمين الصهيوني من جهة اخرى ، لم تنته الامع اقامة اسرائيل سنة ١٩٤٨ ثم اجراء الانتخابات للكنيست (البرلمان) الاول سنة ١٩٤٩ . وأسفرت تلك الحقبة عن وضع صيغ جديدة ، معقدة ، للتعامل بين تلك الفئات المختلفة ، نظراً للاعتبارات التي وضعتها كل واحدة منها نصب عينها . فقد اعتبرت ، مثلاً ، القيادة الصهيونية ، المثلة في ادارة المنظمة الصهيونية العالمية والوكالة اليهودية ، نفسها - منذ بداية تلك المرحلة - الجهة الرئيسية « المسؤولة » عن اقامة الدولة اليهودية ، والمهيئة لحكمها بعد انشائها ، وذلك بفضل سيطرتها على معظم الاجهزة الصهيونية في فلسطين ، وتمتعها بتأييد اكثرية الصهيوينيون داخل البلد وخارجه . ولكن بعض الفئات اليمينية ، على الاقل ، كانت ايضاً تعتبر نفسها مؤهلة لانشاء تلك الدولة وحكمها ، فشكل ذلك بالطبع واحداً من الاسباب الرئيسية للاحتكاك والتناحر بين المعسكرين الصهيونيين . غير انه ، من ناحية ثانية ، كان الجميع على قناعة ان اقامة تلك الدولة لن تتم باتباع الطرق السلمية البحتة فقط في التعامل مع بريطانيا ، وانه لا بد احياناً من

اللجوء الى استعمال القوة ، مما شكل عاملا لتشجيع التعاون بين الطرفين . ولكن حتى في هذا المجال ، لم يكن الاتفاق كاملا ، اذ ان الهاغاناه والمشرفين عليها ، باعتبارهم « مسؤولين » عن الكيان الصهيوني في فلسطين . اسم يكونوا على استعداد ، في نزاعهم مع بريطانيا ، للوصول الى مرحلة حرق الجسور معها ، او لاتخاذ اجراءات لا عودة عنها ، خشية من ان يؤدي ذلك الى عراقب وخيمة ، بينما لم يكن هذا بالضبط موقف اتسل وليحي . كما ان رئيس الوكالة اليهودية والمشرف على نشاط الهاغاناه العسكري ، بن - غوريون . كان يسعى ، من ناحية ، الى منع اليمين من الوصول الى السلطة ، او تقوية نفوذه ، بقدر ما كان يعمل ، من ناحية اخرى ، الى اخراج بريطانيا من فلسطين واقامة الدولة اليهودية . ولذلك كانت احدى عينيه تراقب بريطانيا ، بينما الثانية مفتوحة على اليمين ومنظمتيه ، اتسل وليحي ، فيعلن من حين الى آخر عن ضرورة تحطيم ما سماه « اربابهم » والقضاء على « فاشيتهم » . ولهذه الاعتبارات مجتمعة ، بدأ الصراع بين الاطراف الثلاثة ، البريطانيين والهاغاناه واليمين ، خلال الفترة التي سبقت قيام اسرائيل ، اشبه ما يكون بلعبة شد الحبل - ومرة اخرى خسر اليمين السياق .

بدأت « اللعبة » بين الاطراف الثلاثة - وكان الطرف العربي يغط آنذاك في نوم عميق - في ربيع سنة ١٩٤٤ ، عندما استأنفت اتسل وليحي نشاطهما العسكري ضد البريطانيين ، ثم صعدا هذا النشاط ، خلال فترة قصيرة ، بشكل ملحوظ . وردا على ذلك ، شدد البريطانيون مطاردتهم لاعضاء المنظمتين والمقربين منهما ، واعتقلوا العشرات منهم ، ثم قاموا بنفي نحو ٢٥٠ شخصا من اولئك المعتقلين الى اريتريا (١١٥) ، حيث بقوا هناك - واضيف اليهم منفيون آخرون فيما بعد - الى ما بعد لقامة اسرائيل . وقد كانت عمليات النفي تلك ضربة مؤلمة لليمين ، اذ اسفرت عن اخراج العديدين من قاداتهم ونشيطيهم من الميدان ، في وقت كان التنظيم فيه بحاجة ماسة اليهم ، مما ادى ، من ناحية ثانية ، الى تعزيز قوة الهاغاناه وانصارها . ويدعي البعض ان بن - غوريون وبعض زعماء الهاغاناه الآخريين لم يكونوا غير راضين عن عمليات النفي تلك ، بل قد يكون بعضهم قد « اوحى » للبريطانيين بالقيام بتنفيذها ، وذلك ليتخلصوا من اكبر عدد ممكن من اليمينيين المعارضين ، فيخلوا لهم المجال لتنفيذ مخططاتهم ، خلال تلك المرحلة الحرجة التي سبقت انشاء الدولة اليهودية .

ومهما تكن صحة تلك الادعاءات ، فمن الواضح ان العلاقات بين الهاغاناه واتسل وليحي لم تقف عند هذا الحد ، وانما ازدادت سوءا . ففي اوائل تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٤ ، اغتال عضوين من ليحي اللورد موين ،

المفوض البريطاني السياسي في القاهرة ، مما اثار غضب البريطانيين وحكومتهم بشكل لا سابق له ، فارتفعت اصوات عديدة تطالب « بالقضاء على الارهابيين » في فلسطين . وعلى الاثر ، اتصلت السلطات البريطانية بالدكتور وايزمان ، رئيس المنظمة الصهيونية العالمية وزعماء الوكالة اليهودية ، ووضعهم امام « مسؤوليتهم » مطالبة اياهم بالحد من نشاط المنظمات اليمينية . واوضحت تلك السلطات ، في الوقت نفسه ، ان التقاعس في القيام بذلك قد يؤثر على « اتجاه » الحكومة البريطانية للسعي نحو اقامة دولة يهودية في فلسطين ، بعد انتهاء الحرب ، من ناحية ، وقد يدفع السلطات العسكرية في البلد الى اتخاذ « اجراءات حاسمة » تجاه المستوطنين اليهود بأسرهم من ناحية ثانية . وعلى الاثر اوعزت القيادة الصهيونية الى الهاغاناه « بالضغط » على « المنشقين » اليمينيين ومحاولة « ضبطهم » ، فعقدت اجتماعات عدة بين قادة المنظمات العسكرية الثلاث ، الهاغاناه واتسل وليحي ، طالبت فيها الهاغاناه المنظمين الاخرين بالحد من نشاطهما المستقل ، والتنسيق عسكريا معها ، وسياسيا مع الزعامة الصهيونية المعترف بها . وقد استجابت ليحي للطلب ، اما اتسل فقد رفضت ، مما دفع الهاغاناه الى تشكيل وحدات خاصة من البلماح ، قامت باعتقال اعضاء اتسل وسهلت تسليم العديدين منهم الى المخابرات البريطانية ، التي نفتهم بدورها الى افريقيا . وكان نشاط الهاغاناه هذا ، الذي عرف باسم « السيزون » ، واستمر لبضعة اشهر خلال سنة ١٩٤٥ (١١٦) ، يؤدي الى نشوب حرب اهلية بينها وبين اتسل ، خصوصا بعد ان راحت بعض الفئات اليمينية تطالب بالقيام بعمليات انتقامية ضد الهاغاناه وزعمائها ، الا ان بيغن رفض الموافقة على تلك الطلبات معلنا انه « لن تقع حرب بين الاخوة » .

غير انه لم تمر غير فترة قصيرة ، حتى عادت المواقف وتغيرت ثانية . ففي صيف ١٩٤٥ جرت انتخابات عامة في بريطانيا واسفرت عن تسلم حزب العمال السلطة . وقد علق الصهيونيون امالا كبيرة على فوز ذلك الحزب ، في ضوء مواقفه المعلنة - قبل وصوله الى الحكم - المؤيدة لطلبات الصهيونيين بشأن اقامة دولة يهودية في فلسطين . ولكن سرعان ما اتضح ان تلك الامال كانت في غير محلها ، اذ اوضح العمال بعد وصولهم الى الحكم بفترة قصيرة ان السياسة البريطانية في فلسطين لن تتبدل كثيرا . وادى ذلك الى ردود فعل معاكسة قوية لدى الصهيونيين ، الذين قرروا توحيد منظماتهم العسكرية الثلاث ، ضمن اطار ما سموه « حركة العصيان العبري » (١١٧) ، وراحوا يشنون الهجمات على البريطانيين ومرافقهم الحيوية في فلسطين على نطاق واسع ، بهدف حمل بريطانيا عنوة على تغيير سياستها تجاه المستوطنين اليهود في فلسطين والاستجابة لطلبات الحركة الصهيونية . وخلال تلك الفترة ، صعد الصهيونيون هجماتهم تدريجيا ضد البريطانيين ، الى ان

وصلوا الى حد لم يعد باستطاعة اولئك السكوت عليه ، فقاموا باتخاذ اجراءات رادعة من قبلهم ، ادت في نهاية الامر الى تفكيك التعاون العسكري بين المنظمات الثلاث وحل « حركة العصيان العبري » . وجاء ذلك نتيجة لسلسلة من العمليات والعمليات المضادة ، التي نفذت من قبل الطرفين . فخلال ليلة ١٧ حزيران (يونيو) ١٩٤٦ ، قامت قوات البلماح بنسف كل الجسور الرئيسية ، التي كانت تصل بين فلسطين والدول المجاورة لها ، في محاولة للاثبات للبريطانيين ان تخطيطهم الهادف لتحويل فلسطين الى قاعدة لقواتهم في الشرق الاوسط ، استنادا الى استراتيجية جديدة ربما كان بعض ساستهم يفكر باتباعها ، يخضع لرحمة الهاغاناه . وقد اثارَت هذه العملية حنق السلطات البريطانية ودفعتها الى اتخاذ اجراءات مضادة ، فقامت يوم التاسع والعشرين من الشهر نفسه (الذي اطلق الصهيونيون عليه فيما بعد اسم « السبت الاسود ») بمهاجمة مكاتب الوكالة اليهودية ومصادرة مستنداتها ، واعتقال العديدين من زعمائها مع بعض زعماء اليهود الاخرين ، وزجت بهم في السجن ، بينما تمكن بن - غوريون والدكتور موشي سنيه ، قائد الهاغاناه آنذاك ، من الهرب الى اوربا . وردا على هذه الاجراءات قامت اتسل ، يوم ٢٢ تموز (يوليو) من السنة نفسها ، بمعرفة الهاغاناه وبموافقتها الضمنية على الاقل ، بنسف فندق الملك داوود في القدس ، حيث كانت المكاتب الرئيسية للحكومة البريطانية ، مما اسفر عن مقتل نحو ٨٠ شخصا من كبار الموظفين (١١٨) .

اثارت عملية فندق الملك داوود ، نظرا للخسائر الكبيرة التي نجمت عنها ، الهلع في قلوب زعماء الوكالة اليهودية ، الذين لم يكونوا على استعداد لمجابهة البريطانيين الى هذا المدى ، ولذلك سارعت الهاغاناه الى التنصل من المسؤولية عن العملية ، ثم انسحبت من « حركة العصيان العبري » - فعادت العلاقات المتأزمة بين المنظمات الثلاث الى سابق عهدها ، واتبعت كل منها سياستها الخاصة بها . ومنذ تلك الفترة وحتى صدور قرار الامم المتحدة بتقسيم فلسطين ، في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٧ ، ركزت الوكالة اليهودية اهتمامها بالشؤون السياسية ، على الصعيد العالمي ، اساسا بينما راحت الهاغاناه ، تستعد لامكانية خوض معركة مع العرب ، وان لم تتوقف عن شن الهجمات ضد المنشآت البريطانية ، وخصوصا تلك منها التي كانت تستعمل لمنع المهاجرين اليهود غير الشرعيين من دخول فلسطين . اما اتسل وليحي فقد عادت الى اسلوبها السابق ، ووسعتا نشاطهما ليشمل معسكرات البريطانيين وبعض قواعدهم العسكرية . وادى تصاعد عمليات اليمين هذا الى ردود فعل حادة من قبل البريطانيين ، فراحوا ينفذون احكام الاعدام بحق اعضاء تلك المنظمات ، الذين يقعون في قبضة الشرطة ، مما دفع اتسل الى

القاء القبض على جنود من القوات البريطانية ، لردع البريطانيين وحملهم على إيقاف تنفيذ تلك الاحكام - وقد تم لها ما ارادت .
ومع صدور قرار تقسيم فلسطين ، من قبل الامم المتحدة ، سنة ١٩٤٧ ، اعلنت اتسل عن رفضها له (١١٩) ، ولكنها اوضحت في الوقت نفسه انها ستلتزم بأية أوامر قد تصدرها أية حكومة يهودية يعلن عن تشكيلها في فلسطين ، بعد خروج البريطانيين من البلد . كذلك عدلت المنظمة خططها ، بعد اعلان البريطانيين عن نيتهم في الخروج من فلسطين ، فخففت من هجماتها ضدهم وركزت ، بدلا من ذلك ، على العرب واتبعت اسلوبا ارهابيا صرفا ، هدفه حمل اكبر عدد منهم على النزوح عن ديارهم . وفي اطار هذه السياسة نفذت وحدات من اتسل وليحي ، يوم ٩ نيسان (ابريل) ١٩٤٨ ، مجزرة دير ياسين ، التي ذهب ضحيتها نحو ٢٥٠ عربيا ، والتي وصفها كتاب التاريخ « الرسمي » الاسرائيلي لحرب ١٩٤٨ بانها ساهمت اكثر من اي حادث اخر في حمل الكثيرين من العرب الفلسطينيين على الهرب ، خوفا من ان يقعوا ضحية مذابح مماثلة (١٢٠) .

غير انه على الرغم من السياسة الجديدة التي اتبعتها اتسل ، واتجاهها الى شد أزمته استعدادا للقيام بـ « اعمال كبيرة » - وهي الاستعدادات التي دفعت البلماح والهاغاناه الى اتخاذ اجراءات مماثلة مضادة - كان من الواضح أن عهد الانفلاش والتصرف العشوائي الكيفي ، بالنسبة للصهيونيين عامة ومنظمتهم العسكرية خاصة ، يقترب من نهايته . فمنذ صدور قرار التقسيم ، راح بن غوريون يستعد لساعته الكبيرة : اعلان اقامة دولة اسرائيل . وفي غمرة استعداداته تلك ، ركز اهتمامه بالقضيتين الرئيسيتين ، اللتين قدر انهما ستواجهان الدولة اليهودية مع اقامتها : الحرب مع العرب من ناحية ، وانشاء أجهزة الدولة « الرسمية » من ناحية ثانية .

ففيما يتعلق بالموقف من العرب ، لم يكن بن غوريون اقل حماسا من اتسل للتخلص من اكبر عدد منهم من جهة ، والسيطرة على اكبر مساحة ممكنة من فلسطين ، لاقامة اسرائيل عليها ؛ من جهة ثانية . الا انه ، على عكس اتسل ، ارتأى ان يتم ذلك بواسطة طرد اولئك العرب ، باتباع مختلف الاساليب وليس القتل بالذات ، الى الدول العربية المجاورة ، وعلى ان يتم ذلك وفق خطة واضحة . وتحقيقا لذلك الهدف ، وضعت الهاغاناه ، الخاضعة لاشراف بن - غوريون ، موضع التنفيذ ما سمته « الخطة د » (١٢١) - وهي الخطة العسكرية الصهيونية الرئيسية التي اعتمدت لاقامة اسرائيل - وذلك خلال شهر اذار (مارس) ١٩٤٨ ، اي قبل نحو شهر من ارتكاب اتسل وليحي لمجزرة دير ياسين ، وجاء في مقدمة تلك الخطة ان الهدف من تنفيذها هو « السيطرة على مساحة الدولة اليهودية والدفاع عن حدودها [وفقا لقرار تقسيم فلسطين] ،

وكذلك عن مناطق الاستيطان [اليهودي] والسكان اليهود خارج تلك الحدود، ضد عدو نظامي أو شبه نظامي أو غيره ، يعمل من قواعد واقعة خارج مساحة الدولة [اليهودية] أو داخلها » . وبعد ان تعلن الخطة عن تبنيتها للتعليمات المنصوص عليها في الخطط السابقة ، التي كانت الهاغاناه قد وضعتها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، وتأمراً باتخاذ الاجراءات المناسبة ، العسكرية وغيرها ، لتأمين سلامة المستوطنين اليهود وممتلكاتهم ، تضيف انه « لاجل تأمين عمل جهاز الدفاع [اليهودي] الثابت بشكل ناجح وحماية مؤخرته » ، ينبغي القيام بنشاط ضد « قرى العدو » العربية . ويتلخص هذا النشاط في « اباده [هشمده] [القرى] العربية [حرق وتفجير ولغم الخرائب] - خصوصا بالنسبة للقرى التي ليس بإمكاننا السيطرة عليها بشكل دائم » . ويتم ذلك بواسطة « تطويق القرية واجراء تفتيش داخلها » . وفي حالة المقاومة - تباد القرى المسلحة ويطرد السكان الى ما وراء حدود الدولة . اما بالنسبة للقرى التي لا تبدي مقاومة ، فتسيطر القوات اليهودية عليها وتقوم ، من بين ما تقوم به ، « باعتقال كل الاشخاص المشتبه بامرهم من الناحية السياسية » (وكثيرا ما قتل اولئك المعتقلين رميا بالرصاص فيما بعد) . كذلك ينبغي السيطرة ، بموجب الخطة ، على الاحياء العربية المعزولة في المدن الكبيرة وطرد السكان العرب منها الى مكان التجمع الرئيسي للعرب في تلك المدن ، وتتم هذه الاعمال « وفقا للاسس نفسها التي شرحت بالنسبة لحو [بيعور] [القرى] » . والواضح الان ان الهاغاناه والجيش الاسرائيلي نفذوا « الخطة د » بحذافيرها ، مما مكنهما من « تنظيف » تلك المساحة من فلسطين ، التي احتلت سنة ١٩٤٨ ، من اكثرية القرى العربية وسكانها . والواضح ايضا ان النشاط العسكري للمنظمتين اليمينيتين ، اتسل وليحي ، خلال حرب ١٩٤٨ بدا كانه من صنع عسكريين هواة ، بالمقارنة مع « الانجازات » التي حققتها القيادة العمالية الصهيونية ، بزعامه بن - غوريون . ولم يساهم ذلك ، بالطبع، في الاعلاء من شأن اليمين عامة .

أما بالنسبة للقضية الرئيسية الثانية ، التي جابهت بن - غوريون قبيل الاعلان عن اقامة اسرائيل ، والمتمثلة في ضرورة اقامة الاجهزة الرسمية لتلك الدولة ، فان الامر لم يكن صعبا للغاية ، اذ تحولت دوائر الوكالة اليهودية تدريجيا ، الى وزارات حكومية مختلفة . غير انه بقيت هناك مشكلة صعبة للغاية ، تتعلق باقامة جيش منظم ومنضبط للدولة الجديدة . وكان لا بد لبن - غوريون من ان يقوم بحل تلك المشكلة ، بحكم منصبه على الاقل ، اذ كان قد احتفظ لنفسه في الحكومة الاسرائيلية المؤقتة ، التي شكلت اثر الاعلان عن اقامة اسرائيل ، بمنصبي رئيس الحكومة ووزير الدفاع . ولم يكن الحل سهلا للغاية ، بسبب العوامل المختلفة التي لم يكن بد من اخذها بالاعتبار .

فقد كان من الصعب ، من ناحية ، تشكيل أي جيش اسرائيلي من خلال تجاهل المنظمات العسكرية الصهيونية الثلاث ، الهاغاناه وأتسل وليحي ، التي كانت قائمة آنذاك . ولكن بن - غوريون ، من ناحية ثانية ، لم يكن معجبا بأي من تلك المنظمات ، بما في ذلك منظمته ، الهاغاناه ، أو - بشكـل أدق - القوى الضاربة التابعة لها ، كتائب البلماح . واسباس موقف بن - غوريون هذا ، بالنسبة لاتسل وليحي ، واضح ولا حاجة للتعليق عليه . أما بالنسبة للبلماح فالسبب يكمن في وقوع تلك الكتائب ، الى حد كبير ، تحت تأثير « الكتلة ب » بزعامة الكيبوتس الموحد ، التي كانت قد انشقت عن مباي ، حزب بن - غوريون ، سنة ١٩٤٤ ، واتحدت في مطلع سنة ١٩٤٨ مع حركة هاشومير هاتسيير وأقامت حزب العمل الموحد (مبام) ، الذي انتهج بدوره سياسة « يسارية » متشددة ، وحاول حمل البلماح على تنفيذها . غير ان بن - غوريون لم يعدم وسيلة لحل تلك المشاكل ، فقد أعلن ، بعد نحو اسبوعين من اقامة اسرائيل ، عن تأسيس « جيش الدفاع الاسرائيلي » ، وجند كل تلك المنظمات واعضائها فيه ، ثم امر بتنفيذ التجنيد الالزامي للسكان اليهود بأسرهم . وعندما تم ذلك ، أوعز الى تلك المنظمات بحل نفسها ، ولما تلكأ بعضها في تنفيذ ما طلب منه ، حل بواسطة أجهزة الدولة المختلفة ، ودمجت الكتائب المختلفة ببعضها البعض (١٢٢) . وقبل ان تنتهي سنة ١٩٤٨ ، كان واضحا بالنسبة للصهيونيين ، على اختلاف فئاتهم ، ان اللعب بالسياسة بواسطة العسكر ، خلال عهد بن - غوريون وفي ظله ، قد وصل الى نهايته ، وأن من يريد تعاطي السياسة عليه اختيار النشاط الحزبي وسيلة لذلك .

أما أتسل ، التي كان قد صدر أمر بحلها في حزيران (يونيو) ١٩٤٨ ، فقد أعلنت في الشهر نفسه عن تأسيس تنظيم سياسي . سمته حركة حيروت (الحرية) . وأعلنت حيروت في مبادئها الاساسية - جريا وراء تقليد اليمينيين الصهيونيين - « ان الوطن اليهودي ، الذي يمتد على كلتا ضفتي الأردن ، هو وحدة تاريخية وجغرافية لا تتجزأ » . وتقسيم الوطن هو عمل غير قانوني ، والموافقة على التقسيم هي ايضا غير قانونية ولا تلزم شعب اسرائيل . ومهمة الجيل هي ارجاع اجزاء الوطن التي اقتطعت منه ، وسلمت الى حكم اجنبي ، الى السيادة اليهودية » (١٢٣) .

« بدون حيروت والحزب الشيوعي »

لم يتوقف بن - غوريون ، في مساعيه الهادفة الى اقامة دولة يهودية عصرية واضفاء طابع الاستقرار على اوضاعها الداخلية عند هذا الحد ، ان سعى حثيثا أيضا الى اجراء انتخابات عامة في اسرائيل ، في اول فرصة ممكنة .

ومنعا لاي نقاش او خلاف قد يثور حول طريقة الانتخابات فيـؤدي الـى تأجيلها، أقرت - بسرعة - طريقة أمنت لاية مجموعة تحصل على ١٪ فقط من مجموع الاصوات تمثيلا في الكنيست ، بعد ان اعتبرت اسرائيل بأسرها منطقة انتخابية واحدة . وقد كانت طريقة الانتخابات هذه ، التي لم تتغير منذ ذلك الوقت ، رغم المحاولات المتعددة التي بذلت في هذا الصدد ، سببا رئيسيا في تشجيع الفئات المختلفة ، مهما صغر حجمها ، على خوض معركة الانتخابات، وأدت الى بروز احزاب وقوائم انتخابية عدة ، لم يتمكن أي منها ، منذ قيام اسرائيل ، من الحصول على اكثرية المقاعد في الكنيست . ولذلك كانت الحكومات الاسرائيلية دائما ائتلافية ، ويشترك فيها اكثر من حزب ، مما كان له تأثيره على الحكم في اسرائيل .

عقدت الانتخابات العامة الاولى في اسرائيل يوم ٢٥ كانون الثاني (يناير) ١٩٤٩ ، اي قبل انتهاء الحرب مع العرب وتوقيع اتفاقيات الهدنة مع الدول العربية . وأسفرت تلك الانتخابات عن فوز العمال بأكبر عدد من المقاعد ، ثم تبعه اليمين بشطريه ، المتشدد والمعتدل ، واخيرا المتدينون ، على اختلاف فئاتهم . وقد حصلت انذاك هذه الكتلة الثلاث الرئيسية ، رغم الانشقاقات داخلها ، على نحو ٩٠٪ من المقاعد في الكنيست ، بينما كانت الـ ١٠٪ الباقية من نصيب احزاب وكتل صغيرة ، ذات اتجاهات مختلفة . فقد فاز العمال في تلك الانتخابات ، الاولى ، بـ ٦٥ مقعدا (من مجموع ١٢٠) ، كان ٤٦ منها لحزب مباي و١٩ لحزب مبام ، الذي ضم انذاك احدوت هعفوداه - وانفصل الحزبان سنة ١٩٥٤ . اما اليمين فقد حصل على ٢٧ مقعدا (حيروت - ١٤ ، الصهيونيون العموميون - ٧ ، التقدميون - ٥ ، قائمة الحاربيين ، وهم انصار ليحي - ١) ، بينما كانت حصة المتدينين ، الذين خاضوا الانتخابات بقائمة توحدهم جميعا (المزارحي وهابوعيل همزراحي - ومنذ سنة ١٩٥٦ ، الحزب الديني القومي - واغودات يسرائيل وبوعالي اغودات يسرائيل) ١٦ مقعدا . اما المقاعد الاثني عشر الباقية ، فقد كان ٤ منها من نصيب الحزب الشيوعي الاسرائيلي (ماكي) و٢ للقوائم العربية المرتبطة بمباي ، والباقي لقوائم طائفية صغيرة من اليهود الشرقيين . واستنادا الى نتائج الانتخابات تلك ، قام بن - غوريون ، بصفته زعيم الحزب الذي حصل على اكبر عدد من المقاعد بتشكيل الحكومة .

بقيت نسب القوى التي افرزتها الانتخابات العامة الاولى ، داخل الكنيست ، على ما هي عليه عامة ، وان طرأت تغييرات طفيفة عليها من حين الى آخر ، منذ اقامة اسرائيل وحتى منتصف الستينات . ونتيجة لذلك كان مباي وزعيمه بن - غوريون الذين شكلوا كل الحكومات الاسرائيلية (وعندما استقال بن -

غوريون من الحكومة لفترة قصيرة في منتصف الخمسينات ، حل مكانه مباتي آخر - موشي شباريت) وحكموا اسرائيل عمليا خلال تلك الفترة . ولم يستطع بن - غوريون ، وهو في قمة قوته ، ان ينسى احقاده وخلافاته مع اليمين الاصلاحى وكرهه له ، فدرج على الاعلان ، قبيل كل انتخابات اسرائيلية وبعدها ، او عند نشوب اية أزمة حكومية ، انه على استعداد لتشكيل ائتلاف حكومي مع اية مجموعة حزبية في اسرائيل ، مهما كان لونها ، « ما عدا حيروت والحزب الشيوعي » - واصبحت هذه العبارة بمثابة « شعار » دائم له - مؤكدا انه ليس على استعداد حتى للجلوس معها . وقد غير بن - غوريون رايه هذا تجاه الحزب الشيوعي تدريجيا ، فراح يتبادل الكلام مع النواب الشيوعيين في الكنيست ، منذ اواخر الخمسينات ، ثم دعي النائب الشيوعي العربي توفيق طوبي الى زيارته في بيته مرة . ولكنه ، في مقابل ذلك ، بقي متشبثا بموقفه تجاه حيروت ، بشكل غريب ، حتى اواخر أيام حكمه ، بل ان كرهه لذلك الحزب ازداد مع مرور الوقت . وقد درج بن - غوريون عند الحديث عن بيغن ، مثلا ، على وصفه بأنه « ذلك الشخص الذي اعتقاد ان يجلس في الكنيست ، ويسمى نفسه باجا . » . كذلك كان يرد ، عادة ، على الانتقادات او الاستفسارات التي يوجهها له نواب حيروت ، بتوجيه كلامه الى النواب الاخرين في الكنيست ، متجاهلا حضور نواب حيروت ، وذلك امعانا في الاستخفاف بهم واحتقارهم . والمواضح ازاء هذه المواقف ، ان حيروت لم يحلم يوما بالاشتراك في الحكم ، ما دام بن - غوريون هو المشرف على تشكيل الحكومات الاسرائيلية .

الا ان اشتراك حيروت في حكم اسرائيل ، باعتباره ممثل اليمين المتصلب ، لم يكن متعلقا بموقف بن - غوريون منه فقط ، بقدر ما نجم ذلك عن قوة حيروت الذاتية المحدودة ايضا . فخلال عهد بن - غوريون ، وصل اكبر عدد من المقاعد ، التي حصل عليها حيروت لوحده ، في أي من الانتخابات العامة الاربع التي تلت الانتخابات الاولى ، الى ١٧ مقعدا ، وهو عدد كان بالامكان الاستغناء عنه لدى تشكيل اية حكومة - وهذا ما حدث فعلا . ولم ينجم ضعف حيروت النسبي ذلك عن مواقف بن - غوريون العاطفية المتشنجة تجاهه ، بل جاء نتيجة للسياسة العملية التي اتبعها ، والتي لم تمكن احدا من المزاودة عليه ، وبالتالي كسب نسبة اكبر من اصوات الناخبين . فبن - غوريون هو الذي أعلن قيام اسرائيل وتصدى لكافة المشاكل التي واجهتها ، خلال الخمسة عشر سنة الاولى لقيامها ، ووجد حولا لها - وهذا هو المهم - من خلال الاغراق في انتهاج الاسلوب البرغماتي اياه ، الذي برع الجناح العمالي الصهيوني في تطبيقه . صحيح ان تلك الحلول لم تكن دائما ناجحة تماما ، وبعضها مني بالفشل الذريع على المدى الطويل . الا ان اجمالي الانجازات التي حققتها اسرائيل ، خلال عهد

بن - غوريون ، كان مقبولا ، بشكل او باخر ، بالنسبة لأكثريّة الاسرائيليين . وجاءت الترجمة العمليّة لذلك استقرار نسبي في ميزان القوى السياسيّة ، داخل الكنيست ، حتّى نهاية عهد بن - غوريون ، ولم يستطع اليمين الصهيوني ، او غيره ، القيام بما قد يخل بذلك الاستقرار ، او تحويل كفة الميزان لصالحهم .

ولكن اذا كانت سياسة بن - غوريون هي العامل الرئيسي الذي ساهم في الحفاظ على الاستقرار السياسي داخل اسرائيل ، خلال عهده ، فان نشاط الرجل نفسه ، في اواخر مراحل عمله السياسي ، هو الذي أدخل بذلك الاستقرار ومهد الطريق ، تنظيميا على الاقل ، لصعود اليمين ، رغم ما في الامر من غرابة . ففي سنة ١٩٦٢ ، استقال بن - غوريون من منصبه ، كرئيس لحكومة اسرائيل ووزير دفاعها ، فعين - بناء على توصيته - وزير المالية ليفي اشكول خلفا له . غير انه لم يمر الا وقت قصير على تلك الاستقالة ، حتّى راح بن - غوريون يشن حملة ضارية ضد اشكول وحكومته ، لم يكن وراءها اي سبب منطقي ، اذهلت الكثيرين من الاسرائيليين بسبب شرستها وقسوتها ، بحيث دفعت العديدين الى الاعتقاد انه لربما شعر الرجل بالندم لتنازله عن السلطة ، او ان عامل الجيل (وكان بن - غوريون قد بلغ آنذاك السابعة والسبعين من عمره) بدأ يفعل فعله . ولم يتوقف بن - غوريون عند هذا الحد ، وانما وسع هجماته لتشمل العديد من الزعماء الاسرائيليين الموالين لاشكول او المحايدين ، بينما تكتل مؤيدوه حوله وهم يهددون بالانشقاق عن الحزب الام . وازاء هذا التهديد بالانشقاق من ناحية ، وانخفاض غير كبير في عدد الاصوات التي حصل عليها العمال في الانتخابات للهستدروت من ناحية ثانية ، رأى « كرادلة » المعسكر العمالي (وعلى رأسهم يتسحاق بن - اهرن ، سكرتير الهستدروت فيما بعد) انه من المناسب العمل على توحيد صفوفهم للحفاظ على ما يحلو لهم تسميته « السيطرة العمالية » على الحركة الصهيونية ، ولكنهم على الرغم من الجهود المضنية التي بذلوها في سبيل ذلك ، لم يحظوا الا بنجاح جزئي . فقبيل انتخابات ١٩٦٥ ، اعلن حزبا مبياي وأحدوت هعفوداه عن اقامة « تجمع » (معراخ) فيما بينهما خاض تلك الانتخابات متحدا وحصل على ٤٥ مقعدا (مقابل ٥٠ للحزبين في الانتخابات السابقة) . وادت اقامة هذا التجمع الى انشقاق بن - غوريون وأتباعه عن مبياي ، فأقاموا قائمة انتخابية خاصة بهم (رافي) ، خاضت الانتخابات مستقلة وحصلت على ١٠ مقاعد . اما حزب مبياي فقد رفض الانضمام الى التجمع العمالي ، واشترك في الانتخابات لوحده ، فحصل على ٨ مقاعد .

واثارت اقامة التجمع العمالي ردود الفعل المتوقعة لدى اليمين ، فقرر ايضا توحيد صفوفه ، وأقيمت كتلة حيروت - الاحرار (غاحال) ، التي اشتركت في الانتخابات نفسها بقائمة موحدة ، فحصلت على ٢٦ مقعدا (مقابل ٣٤

للحزبين في الانتخابات السابقة) . ولم يسلم اليمين من انشقاقات ايضا . اذ مع اقامة غاحال ، اعلن اعضاء حزب التقدميين (سابقا) ، الذي كان قد اتحد سنة ١٩٦١ مع الصهيونيين في اطار حزب الاحرار ، عن انشقاقهم . واقاموا حزب الاحرار المستقلين ، الذي حصل على ٥ مقاعد في تلك الانتخابات .

وقبيل انتخابات ١٩٦٥ ، انشق ايضا الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، لاسباب خاصة به ، الى شطرين : ماكي « اليهودية » ، التي اضمحلت مع مرور الوقت ، وراكاح « العربية » .

ولقد جاءت التحالفات والانشقاقات الحزبية ، التي حدثت خلال سنة ١٩٦٥ ، بمثابة مقدمة لاعادة تنظيم الاوضاع الحزبية داخل اسرائيل بصورة شبه شاملة . ففي سنة ١٩٦٨ اتحد مباي واحدوت هعفوداه وجزء من رافي واقاموا حزب العمل الاسرائيلي ، الذي اقام بدوره « تجمعا » جديدا مع مبام . اما باقي اعضاء رافي فقد حافظوا على استقلالهم ، وأخيرا تحالفوا وبعض الفئات التوسعية مع غاحال واقاموا ، قبيل انتخابات ١٩٧٢ ، كتل ليكود . وخلال هذه الفترة لم تتوقف التحالفات او الانشقاقات داخل الكتل الحزبية المختلفة ، وان تم ذلك على نطاق ضيق . وأسفرت هذه المتغيرات عن نشوء وضع حزبي جديد في اسرائيل ، تمثل قبيل انتخابات ١٩٧٧ ، في نشوء معسكرين حزبيين كبيرين : ليكود اليميني من ناحية والعمال من ناحية ثانية ، والقائمة الديمقراطية من اجل التغيير (داش) في الوسط .

حرب ١٩٦٧ ومضاعفاتها

اذا كانت أسس اليمين الصهيوني التنظيمية ، بتركيبه الحالي ، تعود الى منتصف الستينات ، فان عوامل نجاحه وازدياد قوته تعود ايضا الى الفترة نفسها . ولعل الحدث البارز والمهم ، الذي يمكن الاشارة اليه اكثر من اي حدث آخر باعتباره البداية لصعود اليمين في اسرائيل او ، على الاقل ، التمهيد لذلك ، هي حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ بالذات .

لم تكن حرب ١٩٦٧ حدثا عابرا في تاريخ اسرائيل - ولا في تاريخ المنطقة . وأهميتها لا تكمن فقط في الانتصار العسكري الساحق الذي كان من نصيب اسرائيل فيها ، بل تنبع أيضا من كونها تجسيدا لآخر طبقات نظريات الامن الاسرائيلية ، التي كان آباء الصهيونية ومعلموها وزعمائها قد قضاوا وقتا كثيرا في ابتداعها ومناقشتها وتطويرها . وقد اكتسبت هذه الحرب أهمية خاصة في نظر الاسرائيليين ، خصوصا في ضوء فشل كل نظريات الامن السابقة ، ابتداء من تلك الداعية الى ضرورة الحصول على ضمانات دولية لاقامة دولة يهودية في فلسطين ، مرورا بالدعوة الى تحويل اليهود في فلسطين

الى اكثرية ، لكي يوافق العرب على الاعتراف بوجودهم ، وانتهاءً بالرأي القائل انه ينبغي العمل على اقامة الدولة اليهودية اولا ، ثم الاتجاه للحصول على اعتراف بها . ولما فشلت كل تلك النظريات ، وضعت الطبعة الاخيرة التي نصت على انه لا بد ، في نهاية الامر ، من فرض السلام بالقوة على العرب وحملهم على الاعتراف باسرائيل . ولذلك علق الاسرائيليون آمالا كبرى على انتصارهم في تلك الحرب ، باعتبار ان ذلك فقط كاف لاحلال السلام مع العرب ، بحسب شروطهم ، وضمان وجودهم في المنطقة ، وبالتالي تخفيف الاعباء المختلفة الملقاة على عاتقهم ، وذلك دون ان يبذلوا جهدا كبيرا في سبيل ذلك . ولعل احسن دليل على هذا التفكير هو رد موشي دايان ، وزير الدفاع آنذاك ، على سؤال وجه اليه بشأن ما ينبغي على اسرائيل عمله بعد انتصارها في الحرب ، بقوله : « لا شيء » . انني انتظر تليفونا من العرب » .

ولم يرن التليفون في مكتب دايان ، بل على العكس من ذلك اتخذت الامور مساراً آخر . ولم يمر الا وقت قصير حتى عادت الاوضاع الى سابق عهدها ، وراحت المشاكل المختلفة تظهر واحدة بعد الاخرى ، ابتداء من ظهور المقاومة الفلسطينية المسلحة ثم بروز العامل الفلسطيني وتبلوره ، مروراً باعادة بناء القوى العربية المسلحة وحرب الاستنزاف ، وانتهاء بحرب تشرين ومضاعفاتها ، بالنسبة لاسرائيل ، على الصعيدين الداخلي والعالمي . ولم تجد حكومات حزب العمل ، ان كانت تلك التي رئسها اشكول او منير او رابين ، طريقة لمواجهة هذه التطورات الا العودة الى سياسة القوة والعنف والقمع ، وبمدى يشك معه فيما اذا كان حتى بيغن ، لو وجد نفسه في اوضاع مماثلة ، قادراً على فعل اكثر مما فعلته تلك الحكومات . والواضح ازاء هذه التطورات ان الآمال العريضة التي عقدها الاسرائيليون على نتائج حرب ١٩٦٧ ، باعتبارها السحر السذي سيخلصهم من الحصار المضروب حولهم ومن معظم مشاكلهم ويفتح امامهم عهداً جديداً ، قد ذهب كلها ادراج الرياح . ومع تبخر تلك الآمال ، وصل ايضا الخط البرغماتي التقليدي ، خط هرتسل ووايزمان وبن - غوريون والجنح العمالي بأسره ، الى طريق مسدود ، وعجز عن ايجاد حلول ، ولو مرحلية ، للمشاكل التي برزت في وجه اسرائيل . ثم جاءت حرب تشرين ، فهزت ثقة الاسرائيليين بأنفسهم وحرجت « كبرياءهم » ، ولكنها مع ما تبعها من تطورات سياسية لم تكن كافية لتحطيم الغرور الذي رضعوه جيلاً عن آخر ، ودفعهم نحو الواقعية والعقلانية ، بل على العكس أثارت « غضبهم » ودفعتهم الى مزيد من التطرف ، خصوصاً بعد أن عرضت أسباب الفشل الاسرائيلي فيها كأنه « تقصير » كان بالامكان تلافيه . وازاء هذه الاوضاع والمشاكل وخيبة الامل ، يبدو الاتجاه نحو اليمين واضحاً ، باعتباره آخر السبل لمواجهة المأزق التاريخي الذي تواجهه الصهيونية . كما ساهمت في تغذية هذا الاتجاه عوامل اخرى

عديدة ، لعل من أهمها سيطرة اليمين عموماً على أجهزة الاعلام الصهيونية ،
تدريجياً ، ثم امتداد نفوذه الى جهاز التعليم الاسرائيلي .

وعلى كل حال ، ومهما كانت الاسباب التي ساعدت على صعود اليمين في
اسرائيل ، من الواضح اننا امام مرحلة جديدة من السياسة الاسرائيلية ، على
الصعيدين الداخلي والخارجي . ومن المبكر ، وبالطبع ، الخوض في محاولات
لاكتشاف ابعاد هذه السياسة والمضاعفات التي قد تترتب عليها ، وان كانت
بعض ملامحها الرئيسية واضحة بشكل او باخر . الا ان هناك حقيقة واحدة
على الاقل ، تنبغي ملاحظتها : ان اليمين الصهيوني يدعو الى انتهاج سياسة
كانت هي السبب نفسه في سقوط العمال .

المصادر

- (٩) «كتفي هرتسل» ، (مؤلفات
هرتسل) - يقني عام فيعولام » ، (امام
الشعب والعالم) ، القدس : المكتبة
الصهيونية ، ١٩٦٠ - ١٩٦١ ، الجزء
الثامن ، ص ١١٥ .
- (١٠) «كتفي نوردو» ، (مؤلفات
نوردو) ، القدس : المكتبة الصهيونية ،
١٩٥٤ ، الجزء الاول ، ص ١٦٧ - ١٦٨ .
- (١١) المصدر نفسه ، الجزء الثالث ،
ص ١٤٨ .
- (١٢) المصدر نفسه ، الجزء الرابع ،
ص ١٦٦ .
- (١٣) المصدر نفسه ، ص ١٦٨ - ١٧٠ .
- (١٤) المصدر نفسه ، الجزء الثاني ،
ص ٩٢ .
- (١٥) المصدر نفسه ، الجزء الاول ،
ص ١٤٢ .
- (١٦) المصدر نفسه ، ص ١٤٥ .
- (١٧) المصدر نفسه ، الجزء الرابع ،
ص ١٧٨ .
- (١٨) انظر ، للتفاصيل ، يتسحاق ميئور ،
«هاتنوعاه هاتسيونيت بروسيا» ،
(«الحركة الصهيونية في روسيا») ،
القدس : المكتبة الصهيونية ، ١٩٧٤ ، ص
٣٥١ - ٣٦٣ .
- (١٩) انظر مقالة يوسف غورني ،

- (١)
Herzl , Theodor , *The Complete Diaries of Theodor Herzl* ,
(Ed. by Raphael Patai) , New
York and London : The Herzl
Press and Thomas Yoseloff, 1960,
Vol. 1 , p. 148.
- (٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ .
- (٣) كلوزنر ، «مئجي هايسود شسل
مدينت اسرائيل» ، («مؤسس دولة
اسرائيل») ، القدس ، احياساف ، ١٩٥٥ ،
ص ١٩٢ .
- (٤)
Herzl , Theodor , *The Jewish
State , An Attempt at a Modern
Solution of the Jewish Question* ,
(Translated by Sylvie D'Avigdor)
London : Central Office of the
Zionist Organization, 1934, p. 15.
- (٥) المصدر نفسه ، ص ٢٧ .
- (٦) المصدر نفسه ، ص ٢٨ .
- (٧) «هاپروتوكول شسل هاكوتغرس
هاتسيوني هاريشون» ، («محاضر المؤتمر
الصهيوني الاول») ، القدس : رؤوفين
ماس ، ١٩٤٦ ، ص ١٢ - ١٣ .
- (٨)
Herzl , *Diaries* ; Vol. 2, p. 629

- «التغييرات في التركيب الاجتماعي والسياسي للهجرة الثانية، ١٩٠٤-١٩٤٠» في «هاستيونوت»، («الصهيونية») ، (رئيس التحرير : دانييل كاريبي) ، تل ابيب : جامعة تل ابيب وهاكيبوتس هاميثوحاد ، ١٩٧٠ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .
- وانظر أيضا يهوشواع اوقيسر ، «سيفر هاعوفيد هليئومي» ، (كتاب العامل القومي) ، تل ابيب : اللجنة التنفيذية لنقابة العمال القوميين، ١٩٥٩ ، ص ١٤ .
- (٢٠) التفاصيل في يهودا سلوتسكي ، « مفوا لتولدوت تنوعات هعقوداه هايبرائيليت» ، («مقدمة لتاريخ حركة العمل الاسرائيلية») ، تل ابيب : عام عوفيد ، ١٩٧٣ ، ص ٨٥ - ١٠٣ و ١١١ - ١٢٠ .
- (٢١) المصدر نفسه ، ص ١٨٣ - ١٩٣ .
- (٢٢) انظر ، للتفاصيل ، تسفي ابن - شوشان ، «تولدوت تنوعات هايوعاليم بايرتس - يسرائيل» ، («تاريخ حركة العمال في ارض - اسرائيل») ، تل ابيب : عام عوفيد ، ١٩٦٣ ، الجزء الاول، ص ٢٢٤ - ٢٣٤ .
- (٢٣) «سيفر هاشومير» ، (كتاب هاشومير ») ، تل ابيب : نغير ، ١٩٥٧ ، ص ٢٠-٢١ ، ٤٥١ .
- (٢٤) انظر ، مثالا دستور حزب هايوعيل هاتسعيسر في ح . مرحفيا ، « عام فيموليدت » ، (« شعب ووطن ») ، القدس : هليفي ، ١٩٤٧ ، ص ٥٢٥-٥٢٦ .
- (٢٥) ارثور روبين ، «بركي حياي» ، («فصول حياتي») ، تل ابيب : عام عوفيد ، ١٩٦٨ ، الجزء الثاني ، ص ٧٨-٧٩ .
- (٢٦) Weizmann , Chaim ; *Trial and Error* , London : East and West Library . 1950 , p. 62 .
- (٢٧) المصدر نفسه ، ص ٦١ .
- (٢٨) المصدر نفسه ، ص ٦٣ .
- (٢٩) المصدر نفسه ، ص ١٥٨ .
- (٣٠) «مؤلفات نورداو» ، الجزء الثالث، ص ٣٢ - ٣٣ .
- (٣١) المصدر نفسه ، الجزء الرابع ، ص ٦٧ .
- (٣٢) المصدر نفسه ، ص ١٥٢ - ١٥٣ .
- (٣٣) المصدر نفسه ، ص ٦٧ .
- (٣٤) المصدر نفسه ، ص ٥٠ .
- (٣٥) المصدر نفسه ، ص ١٤٩ .
- (٣٦) المصدر نفسه ، ص ١٣٢ .
- (٣٧) المصدر نفسه ، ص ٩٨ .
- (٣٨) المصدر نفسه ، ص ٩٨ و ١١١ .
- (٣٩) المصدر نفسه ، ص ١١١ .
- (٤٠) المصدر نفسه ، ص ٥١ .
- (٤١) المصدر نفسه .
- (٤٢) المصدر نفسه ، ص ١١١ .
- (٤٣) المصدر نفسه ، ص ١٠٧ .
- (٤٤) المصدر نفسه ، ص ٩٥ - ٩٨ .
- (٤٥) المصدر نفسه ، ص ١٠٩ .
- (٤٦) المصدر نفسه ، ص ٩٦ .
- (٤٧) المصدر نفسه ، ص ١١٠ .
- (٤٨) Weizmann , p. 448 .
- (٤٩) انظر نصوص البيانات السياسية الاساسية للصهيونيين العموميين في مرحفيا ، ص ٤٦٢ - ٤٧٠ .
- (٥٠) انظر للتفاصيل ، موشسي يرأسلافسكي ، « تنوعات هايوعاليم هاييرتس يسرائيليت» ، («حركة العمال في ارض - اسرائيل») ، تل ابيب : هاكيبوتس هاميثوحاد ، ١٩٦٦ ، الجزء الاول ، ص ١٥٣ - ١٦٠ . وانظر ايضا يوسف غورني ، «احدوت هعقوداه» ، ١٩١٩ - ١٩٣٠ ، (« حزب [احدوت هعقوداه ، ١٩١٩ - ١٩٣٠ ») ، تل ابيب : جامعة تل ابيب وهاكيبوتس هاميثوحاد ، ١٩٧٣ ، ص ١٧ - ٢٣ .
- (٥١) انظر نص دستور الهستدروت

- (٦٥) المصدر نفسه ، الجزء الحادي عشر ، ص ٢٢٥ .
- (٦٦) المصدر نفسه ، ص ١٩٨ .
- (٦٧) المصدر نفسه ، الجزء الثاني عشر ، ص ٤٧ .
- (٦٨) بيلع ، ص ٢٨٥ .
- (٦٩) المصدر نفسه .
- (٧٠) المصدر نفسه ، ص ٢٨٤ .
- (٧١) مؤلفات جابوتينسكي ، الجزء الحادي عشر ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .
- (٧٢) المصدر نفسه ، ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .
- (٧٣) المصدر نفسه ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ .
- (٧٤) المصدر نفسه ، ص ٢٥٨ .
- (٧٥) المصدر نفسه ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .
- (٧٦) انظر ، للتفاصيل ، يفتال عيلام ، مفدا لهيستوريا تسيونيت احيرت « ، «مقدمة لتاريخ صهيوني آخر» ، تل ابيب : ليفين - ابشتاين ، ص ٤٠ - ٥١ .
- (٧٧) انظر ايضا بيلع ، ص ٤٩ - ٦٠ ، ص ٨٢ - ٨٣ .
- (٧٨) Schechtman , Joseph B. ; Benari, Yehuda ; *History of the Revisionist Movement* , Tel - Aviv : Hadar , 1970 , Vol. 1 (1925 - 1930) , p. 27 .
- (٧٩) مرجعنا ، ص ٤٢٨ .
- (٨٠) «سيفر بيتار» ، «كتاب بيتار» ، رئيس التحرير : ح . بن - يروحم) ، القدس وتل ابيب : لجنة اصدار كتاب بيتار ، ١٩٦٩ ، الجزء الاول ، ص ٣٠ ، ص ٣٣ ، ٤٧ .
- (٨١) المصدر نفسه ، ص ٩٤ .
- (٨٢) اوفير ، ص ٣٦ .
- (٨٣) المصدر نفسه ، ص ٤٣ - ٥٢ .
- (٨٤) التفاصيل في دافيد نيف ، « معرخوت هارغون هتسفاني هليثومي » ، «تاريخ المنظمة العسكرية القومية» ، تل ابيب : مؤسسة كلاوزنر ، الجزء الاول ، ص ١٥٦ - ١٧٨ .

واهدافها في مرجعنا ، ص ٢٧٢ - ٢٩٢ .

(٥٢) التفاصيل في « سيفر تولدوت هاغاناه » ، (كتاب تاريخ الهاغاناه ») رئيس التحرير : بن - تسيون دينور - دينبورغ) ، تل ابيب : معرخوت ، ١٩٥٦ ، الكتاب الاول ، الجزء الثاني ، ص ٦٣٩ - ٦٧٠ والكتاب الثاني ، الجزء الاول ، ص ٦٥ - ٧٦ .

(٥٣) انظر الجداول في «هاكونغرس هاتسيوني هاكاف - الف» ، («محاضر» المؤتمر الصهيوني الحادي والعشرون ») ، القدس : المنظمة الصهيونية العالمية ، ص ك ه (٢٥) ، «محاضر المؤتمر الثاني والعشرون» ، ص ك و (٢٦) .

(٥٤) Schechtman , Joseph B. ; *Rebel and Stateman , The Vladimir Jabotinsky Story* , London and New York : Thomas Yoseloff , 1961 , p. 422 .

(٥٥) موشي بيلع ، «عولامو شبل جابوتينسكي» ، («عالم جابوتينسكي») ، تل ابيب : دفوسيم ، ١٩٧٢ ، ص ٢٩٩٩ - ٤٠٠ .

(٥٦) «كتفي جابوتينسكي» ، («مؤلفات جابوتينسكي») ، تل ابيب : عاري جابوتينسكي (دار نشر) م . ص ١٩٥٣ ، الجزء التاسع ، ص ٢٤٠ و ٢٤٩ .

(٥٧) المصدر نفسه ، ص ٢٤١ .

(٥٨) المصدر نفسه ، الجزء الثامن ، ص ٢١٨ - ٢١٩ .

(٥٩) بيلع ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥ .

(٦٠) مؤلفات جابوتينسكي ، الجزء التاسع ، ص ٢٤٩ .

(٦١) المصدر نفسه ، ص ٢٤٥ .

(٦٢) بيلع ، ص ٢٣٢ .

(٦٣) مؤلفات جابوتينسكي ، الجزء الحادي عشر ، ص ١٧٥ .

(٦٤) المصدر نفسه ، الجزء الخامس ، ص ٥٤ .

- (٨٥) انظر الملاحظة (٥٣) اعلاه .
 (٨٦) المصدر نفسه .
 (٨٧) انظر ، للتفاصيل ، براسلافسكي ، الجزء الثاني ، ص ٢٤١ - ٢٦٩ . وانظر ايضا اوقير ، ص ١٠٧ - ١١٠ .
 (٨٨) النص في «مؤلفات جابوتينسكي» ، الجزء الثاني عشر ، ص ٤٥ - ٥٣ .
 (٨٩) انظر ايضا براسلافسكي ، الجزء الثاني ، ص ٢٤٦ - ٢٥٢ .
 (٩٠) لمزيد من التفاصيل ، انظر دافيد يسراييلي ، «هارايخ هاشيلشي فيايرتس - يسراييل» ، «الرايخ الثالث واراض - اسراييل» ، رامات غان : جامعة بار - ايلان ، ١٩٧٤ ، ص ١٠٧-١٥١ .
 (٩١) Schechtman , Joseph B. ; *Fighter and Prophet. The Vladimir Jabotinsky Story* , New York and London : Thomas Yoseloff , 1961, pp. 245 - 255 .
 (٩٢) مرجعيا ، ص ٤٤٣ .
 (٩٣) انظر ايضا براسلافسكي ، الجزء الثاني ، ص ١٧١ - ١٧٣ .
 (٩٤) «كتاب تاريخ الهاغاناه» ، الكتاب الثاني ، الجزء الثاني ، ص ٧٢٣ - ٧٢٤ ، ٧٢٤ ، ٨٣٣ - ٨٥٠ .
 (٩٥) انظر ، للتفاصيل ، غرشون ريفلين (محرر) ، «لايش ولاماجين ، تولدوت هانوتروت هاعفريت» ، «لنار والدفاع ، تاريخ الحراسة اليهودية» ، تل ابيب : معرخوت ، ١٩٦٢ ، ص ١٥ - ٧١ .
 (٩٦) انظر ايضا ابراهام عكيبا (محرر) ، «هايديد - اورد وينغييت» ، «الصديق - اورد وينغييت» ، تل ابيب : معرخوت ، ١٩٦٨ ، ص ٧٩ - ١٠٨ .
 (٩٧) الكس بايبن ، «تولدوت هاهتشفوت هاتسيونيت» ، «ريخ الاستيطان الصهيوني» ، رامات غان : ساد ، ١٩٧٠ ، ص ٣٦٩ - ٣٨٠ .
 (٩٨) انظر التفاصيل في نيف ، الجزء الثاني ، ص ٧٤ - ٩٤ ، ٢٢٧ - ٢٣٠ .
 (٩٩) «كتاب تاريخ الهاغاناه» ، الكتاب الثالث ، الجزء الاول ، ص ١٨٩ .
 (١٠٠) المصدر نفسه ، ص ٤٢ .
 (١٠١) المصدر نفسه ، ص ٥٣ - ٥٥ .
 (١٠٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٣ .
 (١٠٣) المصدر نفسه ، ص ٦٩٩ ، ٧٠٠ .
 (١٠٤) المصدر نفسه ، ص ٣٨٤ .
 (١٠٥) المصدر نفسه ، ص ٣٩٧ .
 (١٠٦) انظر ، للتفاصيل ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٣ - ٢١٠ .
 (١٠٧) نيف ، الجزء الثاني ، ص ٢٨١ - ٢٨٢ .
 (١٠٨) المصدر نفسه ، الجزء الثالث ، ص ١٩ .
 (١٠٩) المصدر نفسه ، ص ٧٢ - ٧٤ .
 (١١٠) «لوجمي حيروت يسراييل» - ليحي ، «كتايم» ، «المؤلفات» ، تل ابيب : لجنة اصدار مؤلفات ليحي ، ١٩٥٩ ، الجزء الاول ، ص ٢٧ - ٢٨ .
 (١١١) النص في مناحيم بيغن «مختيريت» ، «في الحركة السرية» ، تل ابيب : هدار ، ١٩٥٩ ، الجزء الاول ، ص ٢١ - ٢٥ . وانظر ايضا نيف ، الجزء الثالث ، ص ٢٧٧ - ٢٨١ .
 (١١٢) المصدر نفسه .
 (١١٣) مرجعيا ، ص ٤٠٢ .

معرخوت ، ١٩٦٨ ، الطبعة السادسة
عشرة ، ص ١١٧ - ١١٨ .

(١٢١) انظر نص مقدمة الخطة فسي
« كتاب تاريخ الهاغاناه » ، الكتاب
الثالث ، الجزء الثالث ، ص ١٩٥٥ -
١٩٦٠ .

(١٢٢) انظر أيضا دافيد بن - غوريون ،
« مدينتا اسرائيل هاميكويشيت »
(« دولة اسرائيل المجددة ») ، تل أبيب :
عام عوفيد ، ١٩٦٩ ، ص ١٤٥ - ١٤٦ ،
١٧٥ - ١٩١ ، ٢٦٣ - ٢٨١ .

(١٢٣) مرجعيا ، ص ٧٢٠ .

(١١٤) انظر بيغن ، الجزء الاول ،
ص ٧٢ .

(١١٦) المصدر نفسه ، ص ١٠٠ - ١٠٢ .

(١١٧) انظر أيضا « كتاب تاريخ
الهاغاناه » ، الكتاب الثالث ، الجزء
الثاني ، ص ٨٠٩ - ٨١١ ، ٨١٦ - ٨١٨ .

(١١٨) المصدر نفسه ، ص ٨٨٠ - ٨٨١
و ٨٨٩ - ٨٩٣ ، و ٨٩٨ - ٩٠١ .

(١١٩) بيغن ، الجزء الرابع ، ص ٨٠ .

(١٢٠) « تولدوت ملخيميوت
هاكومميوت » ، (« تاريخ حرب
الاستقلال ») ، اصدار قسم التاريخ في
الاركان العامة للجيش الاسرائيلي ،

حوار مع محمود عباس (أبو مازن) حلول كثيرة للمسألة اليهودية ولا حل للمشكلة الصهيونية

الاخ محمود عباس [أبو مازن] ، عضو اللجنة المركزية لحركة التحرير الوطني الفلسطيني «فتح» • هو احد المسؤولين الفلسطينيين القلائل المختصين بدراسة التجمع الاسرائيلي على ارض فلسطين المحتلة • وقد اصدر كتابا بعنوان « الصهيونية بداية ونهاية » •

في هذا الحوار مع « شؤون فلسطينية » يقدم الاخ ابو مازن منهجا فلسطينيا شاملا لتكوين التجمع الاسرائيلي ومازقه التاريخي وفاق الصراع العربي - الاسرائيلي •

□ كيف نفهم ونقيم نتائج الانتخابات الاسرائيلية التي جاءت بالليكود الى القيادة في اسرائيل ؟ هل تعبر هذه الانتخابات عن تحول جذري في التجمع الصهيوني ، ام تعبر عن مازقه ؟ وبالتالي ، ما هي الخيارات التي طرحها هذه النتائج ، علينا كثورة فلسطينية ، وكامة عربية في مواجهة العدو الصهيوني ؟

● الانتخابات الاخيرة ، هي اول انتخابات اسرائيلية تحظى بالاهتمام في الوطن العربي • اذكر ، ان انتخابات الكنيست السابقة ، كانت تمر ، دون اي اهتمام حقيقي في الصحافة او في اجهزة الاعلام العربية المختلفة • لقد جاء الاهتمام بنتائج الانتخابات الحالية لان المنطقة تعيش جو التسوية • اعتقد ان الانتخابات الاسرائيلية تعكس الوضع الداخلي الاسرائيلي ، اكثر مما تعكس النظرة السياسية الاسرائيلية • ونستطيع ان نقول ، ان نتائج الانتخابات ، جاءت سقوطا للعمل ، وليس نجاحا لليكود • لقد فقد الناخب الاسرائيلي ثقته بحزب

العمل ، الذي قاد الحركة الصهيونية واسرائيل تاريخيا ، نتيجة الفضائح الاخلاقية والمالية ، ولاسباب تتعلق مباشرة بالازمة الاقتصادية التي تمر بها اسرائيل . لم يكن هناك اذن ، مفاجآت في نتائج الانتخابات . لقد كان سقوط العمل متوقعا ، كما كان متوقعا ايضا ، ان يحافظ الليكود على وزنه السابق داخل الكنيسيت ، كما ان بروز كتلة يادين - داش - لم يكن مفاجئا . لان يادين طرح نفسه ، كمنقذ للتجمع الاسرائيلي ، من الفساد المستشري . نلاحظ ايضا ، ان البرامج السياسية للحزب الاسرائيلية الكبيرة لم تكن واضحة . الليكود ، كان قريبا جدا من سقوط العمل ، بدليل العرض الذي قدمه بيغن لدايان بتولي وزارة الخارجية .

ان الذي يقول ان الشعب في اسرائيل ، قد صوت ضد السلام ، هو مخطيء . ونتائج الانتخابات ، تعبر اذن ، عن قضايا داخلية واجتماعية .

تبقى ، نتائج نجاح الليكود على الوضع السياسي في المنطقة . نحن نملك القناعة ، بأن القرارات السياسية ، تؤخذ في اميركا اساسا . اي ان التوجه السياسي في اسرائيل ، يقرر في اميركا . هناك تجارب سابقة ، تؤكد صحة قناعتنا . نذكر ، ان بن غوريون ، وهو اكثر تصلبا وعنفا من مناحيم بيغن ، حين جاءته الاوامر بالانسحاب من سيناء وغزة ، بعد حملة السويس ، انسحب . كما ان بيغن ، غير موقفه مرتين خلال اسبوع واحد . في المرة الاولى ، قال انه يعتبر الضفة الغربية « ارضا محررة » ، ثم قال ، انه لا يمكن ضمها الى اسرائيل ، طالما هناك مفاوضات ، ثم اعلن التزامه بالقرار ٢٤٢ ، الذي التزمت به الحكومة المسابقة . لذلك اعتقد ، انه على المستوى السياسي ، لن يكون هناك تغييرات جذرية . الموقف الاسرائيلي ، هو في يد اميركا ، فهي التي تقدر سياستها ، وهي التي تنفذ هذه السياسة . لقد صرح كارتر بأنه واثق من ان بيغن سيأتي ، ويخرج من عنده معتدلا . هذا يعني ، انه سيصبح معتدلا ، باختياره ، او رغم انفه .

باختصار ، لقد كانت الانتخابات الاسرائيلية ، انتخابات داخلية . تعبر عن مأزق اسرائيلي يتعلق بجملة من القضايا .

□ هناك مسألتان . المسألة الاولى : هي ان البرامج السياسية للحزب الاسرائيلية الكبيرة كانت غير واضحة عشية الانتخابات ، والمسألة الثانية : ان نتائج الانتخابات ، تعبر عن ازمة داخلية فلنحاول ربط هاتين المسألتين ، كي نفهم طبيعة الازمة الداخلية .

● في العادة ، تتشدد الأحزاب في برامجها الانتخابية . عندما خاض كارتر ، انتخابات الرئاسة الاميركية ، لم يأت على ذكر القضية الفلسطينية . وبعد انتخابه

بدأ يتكلم عن وطن للاجئين ، ثم عن وطن للفلسطينيين ، ثم عن القرار ٢٤٢ وصولاً الى قرارات ١٩٤٧ ، والتعويض عن اللاجئين ، او بحث قضيتهم • الاحزاب الاسرائيلية كذلك ، لم تطرح برامج واضحة ، تتعلق بمسألة التسوية السياسية • نلاحظ مثلاً ، ان الليكود ، غير صيغة اراضي ١٩٦٧ ، بشكل يوحي للناخب بأنها لا تزال قيد البحث • اما حزب العمل ، فتعرفون ازمته في مؤتمره الاخير ، وكيف انه اضطر لتغيير النقطة الخاصة بالارض المحتلة • المسألة السياسية ، لم تكن حاسمة في الانتخابات • فالناخب ، كان اكثر اهتماماً بالازمة الداخلية •

نشأت الازمة في اسرائيل بعد حرب تشرين • لقد أدت حرب تشرين الى ايجاد ازمة ثقة في الادارة الاسرائيلية ، وفي الجيش الاسرائيلي • وهذا ما عبرت عنه كلمات مثل « الزلزال » ، و « التقصير » ، والنكبة ، والمصيبة وغيرها • بعد حرب ١٩٧٣ ، برزت اهم مسألة اسرائيلية ، وهي قضية الهجرة • فالهجرة هي الشريان الحيوي للمشروع الصهيوني ، عليها تتوقف الحياة الاسرائيلية بأسرها • المعادلة الاسرائيلية هي اشعال حرب سهلة ، يأتي المهاجرون بعدها • ومع المهاجرين ، تأتي الاموال من الولايات المتحدة والوكالة اليهودية ، وتزدهر الحالة الاقتصادية • حدث هذا بعد عام ١٩٤٨ ، حين بدأت الهجرة اليهودية من البلاد العربية • قبل حرب ١٩٥٦ ، كان هناك ازمة هجرة ، وقبل حرب ١٩٦٧ ، كان هناك ازمة هجرة وازمة بطالة ، فالبطالة هي نتيجة لازمة الهجرة • لكن حرب ١٩٧٣ لم تكن سهلة • لقد دفعت اسرائيل خسائر بشرية واقتصادية • لقد ادى هذا الوضع ، الى توقف الهجرة • كما تزعزعت الثقة بين الشعب والحكومة • وبين السلطتين السياسية والعسكرية • ان توقف الهجرة يؤدي الى توقف قطاعات هامة في الحياة الاقتصادية • وبرزها قطاع البناء الذي يسمى القطاع القائد • فاذا توقف البناء ، توقفت اغلبية القطاعات ، وبدأت البطالة والاضرابات • وبدأت الهجرة المعاكسة • هذا هو السبب الحقيقي للازمة الاقتصادية • لذلك ، نلاحظ ، ان اكثرية القطاعات الاقتصادية شهدت اضرابات متعددة • هكذا ، تبدأ ما يسمونه الحرب اليهودية • وهي على غرار الحرب اليهودية التي حدثت بين الجنرالات والسياسيين بعد حرب تشرين • الحرب اليهودية تجري الان بين الوكالة اليهودية ووزارة الاستيعاب وبين المنظمات اليهودية ، حول مسألة الهجرة • جميع مصادر الهجرة نضبت ، ولم يعد هناك مهاجرون الى اسرائيل ، غير اليهود السوفيات ، الذين لا يذهب عدد كبير منهم الى اسرائيل • عندما تسلم بنحاس سايير الوكالة اليهودية ، وعد بجلب مئة الف مهاجر • لكنه مات ، ولم يتمكن من جلب عشرين الف مهاجر • خلفه يوسف المرجي ، لكنه فشل هو الآخر • المشكلة ليست مشكلة هجرة فقط • انها ايضاً مشكلة تزوج • هذه هي الازمة في اسرائيل • ويضاف اليها طبعاً

الضرائب التي وصلت حداً غير معتدل ، إذ أنها أعلى نسبة في العالم • وهبوط العملة ، الذي يسمونه الهبوط الزاحف المستمر • والحصار الدولي المضروب حول إسرائيل ، وغلاء المعيشة • وخسارتها للكثير من أسواقها الأفريقية •

□ هل تستطيع إسرائيل ، حل مشكلة الهجرة ؟

● لا اعتقد أن إسرائيل قادرة على حل مشكلة الهجرة • والسبب ، يتضح حين ندرس التجمعات اليهودية في العالم • نحن نعلم ، أن عدد اليهود في العالم هو حوالي ١٤ مليون نسمة • يتوزعون على النحو التالي : ثلاثة ملايين في إسرائيل ، حوالي ستة ملايين في أميركا ، حوالي مليونين في الاتحاد السوفياتي ، والباقي في أوروبا الغربية وكندا وأستراليا • أما في الوطن العربي ، فلا يزيد عدد اليهود عن خمسين ألفاً • من أين سيأتي المهاجر اليهودي • لا أحد يهاجر من أميركا • بل على العكس ، يوجد في أميركا الآن حوالي ثلاثمائة ألف اسرائيلي • فأميركا هي مصدر جذب ، وليست مصدر هجرة • أما فرنسا وأوروبا الغربية ، فإن وضعها يشبه الوضع الأميركي • بدليل أن يهود فرنسا الذين كانوا حوالي مئة ألف ، أصبحوا اليوم أكثر من ستمئة ألف • البلاد العربية : لم يعد يسكنها جاليات هجرة • لم يبق سوى يهود الاتحاد السوفياتي • نلاحظ أن عدد المهاجرين اليهود السوفيات ، كان عام ١٩٧٢ ، ٤٠ ألف مهاجر ، وكانت نسبة « الارتداد » ٢٪ • أما عام ٧٦ فإن عدد المهاجرين هو حوالي ١٤ ألف مهاجر ، أما نسبة « الارتداد » فهي ٦٠٪ • وهذا يعني ، أن اليهودي إذا وجد خياراً آخر ، فإنه لن يذهب إلى إسرائيل • أن مستقبل الهجرة إلى إسرائيل هو مستقبل مظلم • هذا إذا بذلنا جهودنا • فلو وافق الاتحاد السوفياتي على إيقاف الهجرة ، وعلى عودة بعض المهاجرين اليهود السوفيات ، الراغبين في ذلك فلن يبقى يهودي سوفياتي يتسكع في أوروبا ، ويتعرض للملاحقة عملاء الوكالة اليهودية • وربما ، لن يبقى يهودي سوفياتي في إسرائيل • الكثيرون منهم يتمنون العودة إلى الاتحاد السوفياتي • حتى أن أحدهم قال : « لو فرشت الأرض بين تل أبيب وموسكو بالزجاج ، مشيت عليها حافياً » • كما عقد ٧٠٠ يهودي سوفياتي ، مؤتمراً صحفياً في فيينا ، وأعلنوا فيه ندمهم وأسفهم وطلبهم للغفران من الاتحاد السوفياتي • هناك معلومات حول بعض اليهود الجيورجيين ، في إسرائيل ، الذين اضطروا إلى التنصر على يد جمعيات تبشيرية ، من أجل أن تساعد على الرحيل إلى الخارج • لقد أخرجت إسرائيل اليهودي عن دينه •

ان المازق الصهيوني الاساسي ، هو مازق الهجرة • فالهجرة هي التعبير الحقيقي عن معنى الصهيونية • قال بن غوريون ، أن الصهيونية هي الهجرة ، وليست مظاهرات التأييد أو الدعم المالي • فاليهودي الذي لا يأتي إلى فلسطين ، هو خارج على الدين • كما يقول بن غوريون •

نضوب في الهجرة ، وازدياد في الهجرة المعاكسة ، التي لا تزال تنحصر تقريبا ، في اليهود الغربيين ، الاشكناز ، الذين يجدون امكانية اندماج في المجتمعات الغربية ، نتيجة كفاءاتهم العلمية ، ووضعهم الاقتصادي .

ليس هناك ، الان من مصدر للهجرة سوى الاتحاد السوفياتي . ان علاقتنا مع الاتحاد السوفياتي هي علاقة صداقة . ومن منطلق الصداقة هذه ، يجب ان نجري

حوارا مع السوفيات حول موضوع الهجرة . يجب ان يقتنع السوفيات ان هذا يضر بالشعب الفلسطيني . لانه يرسل انسانا ليقم في بيتي ، ويضيف جنديا يحمل سلاحه ليحارب شعبي . العلاج المناسب ، الذي نقترحه على الاصدقاء السوفيات هو حول اعطاء اليهود خيار الخروج . يخرج اليهودي السوفياتي ، ثم تقفل في وجهه جميع ابواب الهجرة الى اوربا الغربية واميركا ، فما معنى هذا ؟ هناك حرية واحدة ، هي الذهاب الى حيث لا يريد ، الى اسرائيل . الموقف الاوروبي الغربي هذا ، لا انساني ولا سامي ، وكأن اللاسامية عادت مرة اخرى الى العقل الاوروبي . لذلك فعلى الاصدقاء السوفيات ان لا يقغوا في الفخ الذي تنصبه لهم الاجهزة الاميرالية ، بحيث تتم الاساءة البالغة الى اليهود السوفيات المغر بهم ، في الوقت نفسه الذي يتضرر فيه شعبنا من هجرتهم الى بلادنا .

□ لقد وجد قسم من اليهود الغربيين ، خيار العودة الى اوطانهم . وتحمل كلمة « العودة » في مفهومنا معنى معاكسا للتعبير الصهيوني ، الذي يعتبر « العودة » ، عودة الى ارض فلسطين . نحن نقصد بالعودة ، العودة الى اوطانهم الاصلية . هل يستطيع العرب ، ان يقدموا خيارا لليهود الشرقيين ، الراغبين في العودة الى اوطانهم العربية ؟

● لم تعرف الصهيونية طريقها الى اليهود العرب . فلم يكن هناك لا سامية في الوطن العربي . والدليل على ذلك ، هو ان اليهود العرب ، لم يهاجروا الى فلسطين ، الا بعد انشاء دولة اسرائيل فليس لهم علاقة بتأسيس الدولة . ولم يتركوا اوطانهم ، رغم انهم ، على بعد بضعة مئات من الامتار من « ارض الميعاد » . فاليهود العرب ، كانوا يعيشون حياة كريمة ، ويشتركون في الحياة المدنية العربية . ونحن نعرف ، ان يهود العراق ، كانوا هم من حارب اول بؤرة صهيونية في بغداد ٢١ - ١٩٢٢ . يهود العراق ، هم الذين دمروا مقر الحركة الصهيونية . لكن ، بعد قيام اسرائيل ، بدأت المؤامرة . كانت المؤامرة عربية رسمية ، وصهيونية وبريطانية . فبعد ٣٠ سنة على وعد بلفور ، وبعد ٥٠ سنة من المؤتمر الصهيوني الاول ، لم تتمكن الحركة الصهيونية من جلب اكثر من ستمائة الف يهودي من كافة انحاء العالم . لذلك اضطر الصهاينة والاستعمار البريطاني ، الى ترحيل اليهود العرب عن طريق عقد صفقات مع الانظمة الرجعية

كنظام نوري السعيد ، ونظام الامام احمد في اليمن • فاسرائيل . بحاجة الى عنصر بشري منتج ، كي تستطيع الحياة • ولم تجد انسانا منتجا . غير اليهودي العربي • وكما قال اسحق بارموشيه ، [صاحب كتاب الخروج من العراق] • لقد اردتنا الحكومة الاسرائيلية ، ان ناتي هكذا . دون شيء • لقد احضروهم خالبي المفاض من كل شيء . كي يكونوا في اسفل الهرم الاجتماعي . من اجل القيام بالعمل المنتج ، وخدمة الطائفة الرومانية او البولونية ، التي لا تزال الى الان تحكم اسرائيل • لقد اتى اليهود العرب الى اسرائيل ، وبدأوا يعانون من التمييز العنصري • وهذا يفسر ، قرار ادانة الصهيونية بالعنصرية • فالصهيونية لا تمارس عنصريتها ضد العرب فقط ، بل تمارسها ايضا ، ضد اليهود العرب • يقول احد اليهود الغربيين : لو جئنا بثلاثة ، يهودي شرقي ، يهودي غربي وعربي ، فالذي يشعر انه غريب بينهم هو اليهودي الغربي • وهناك قول للشاعر الصهيوني بياليك ، بأنه يكره العرب لانهم يذكرونه باليهود الشرقيين • يمارس الاضطهاد العنصري ضد اليهود الشرقيين في جميع مجالات الحياة • ابتداء من العمل والسكن والزواج ، والتعليم والوظائف العالية ، وانتهاء بالكنيسة وادارات الدولة • لقد حولهم هذا الاضطهاد الى اناس مقهورين • لذلك يلاحظ اخواننا في الداخل شراستهم ضد العرب • لا يستطيع اليهود الشرقيون الهجرة : فثقافتهم ومؤهلاتهم العلمية وامكاناتهم المادية ، لا تساعدهم على الهجرة الى الغرب ، حيث يهاجر اليهود الغربيون • لا مخرج لهم ، سوى العودة الى البلاد العربية • لكن البلاد العربية ، كانت تقفل ابوابها في وجوههم • هناك سببان يدفعاننا الى المطالبة بالسماح لليهود العرب بالعودة الى بلادهم الاصلية • ١ - من اجل مساعدتهم على التخلص من الظلم والتمييز العنصري • ٢ - من اجل تصحيح خطأ تاريخي ارتكبته بعض الانظمة العربية •

لقد عاش اليهود في بلادنا منذ قرون ، ولم يمارس ضدهم اي اذلال او اضطهاد • ومن اجل الوصول الى تحقيق هذا الهدف ، كان يجب ان نزيل من اذهان الناس ، الفكرة الخاطئة ، بان كل يهودي هو صهيوني • لان موقف الكثير من اليهود ، هو مواجهة الحركة الصهيونية ، باعتبارها تخلق مشكلة يهودية ، ولا تحلها ، كما يشيع الصهاينة • ونحن نعادي من يقاثلنا فقط • كذلك ليس كل يهودي صهيونيا • هناك الكثير من الصهاينة غير اليهود ، امثال تشرشل وجميع من ساعد على اقامة الدولة الصهيونية ، او الذي يساعدها على الاستمرار • لقد استجابت بعض الدول العربية ، لطلبنا بالسماح لليهود العرب بالعودة ، رغم ان بعضها لا يملك الامكانيات الفعلية لتنفيذ ذلك • لقد بادرت اليمن ، واعلنت استعدادها لاعادة اليهود • ان اوضاع اليهود اليمنيين ، بقيت كما كانت في اليمن • انهم في اسفل السلم الاجتماعي • تنتشر الامية والفقر في صفوفهم • كذلك وافقت الحكومة السودانية على عودة

اليهود * رغم قلة عدد اليهود السودانيين ، فقد عاد بعضهم الى السودان ،
واقاموا مشاريع واستثمارات * كما ان العراق اعلن حق اليهود في العودة *
لكن هذا الاعلان ، يحتاج الى خطوات فعلية *

كيف يستطيع اليهودي ان يعود ، اذا لم يتصل به ، وتؤمن له الترتيبات
اللازمة * هناك مشاكل كثيرة منها اجراءات السفر والديون الكثيرة ، التي لا
يمكن التخلص منها ، وبالتالي تجعل الهجرة امرا صعبا * الدولة الاخيرة التي
وافقت هي الحكومة المغربية * لقد خرج عدد من اليهود المغاربة الى فرنسا ،
ومنها عادوا الى المغرب ، لقد سهلت الحكومة المغربية المسألة ، حين اعلنت
استعدادها لاعادة الجنسية المغربية ، لجميع اليهود المغاربة سواء عادوا الى
المغرب ، او لم يعودوا اليه *

من المؤكد ، ان هذه الاجراءات مفيدة ، ولكنها غير كافية * ان لا بد من موافقة
دول الطوق : سوريا ولبنان والاردن ومصر * بالنسبة لالاردن ، فعلى الرغم
من عدم وجود يهود اردنيين اصلا ، الا ان اهميته تكمن في كونه يستقبل العديد
من اليهود الهاربين من اسرائيل * وهؤلاء يهربون ، لانهم غير قادرين على
الخروج بالطرق الشرعية * اي انهم لا يملكون امكانيات مادية للخروج *
فيتجهون الى عمان سيرا على الاقدام ، من اجل طلب تسفيرهم الى البلاد التي
يرغبون في الذهاب اليها * مع الاسف ، فان الحكومة الاردنية تعيد اليهودي
الهاب الى اسرائيل * وهذا لا يزال يحصل حتى الان * وهو امر بالغ الخطورة *
لان الاردن ، اذا وافق على رحيل اسرائيلي واحد ، فسيسلك العشرات طريق
الاردن * في الحقيقة لا نعلم السبب * هل هذا جزء من اتفاقية الهدنة ؟ ام انه
اتفاق خاص جاء بعد اتفاق الهدنة باسترداد الهاربين *

اما بالنسبة لسوريا ومصر ، فان اهميتها في هذا الشأن هي في كونها دولا
محاربة * ولقد انجزت سوريا خطوة هامة ، وهي رفعها للقيود التي كانت
مفروضة على اليهود السوريين * لذلك اضطرت جميع الجمعيات التي تدعي
الدفاع عن اليهود السوريين الى حل نفسها * القاضي الاسرائيلي ، حاييم
كوهين . حل اللجنة التي يرئسها ، والتي تنادي بالدفاع عن اليهود السوريين *
والان ، رفعت القيود التي تتعلق بالاقامة والسفر والتعامل مع المجتمع * اما
الخطوة الثانية التي نترقبها ، هي اعلان الاستعداد ، للقبول بعودة اليهود
السوريين * وبين الخطوتين ، تمت خطوة اجرائية هامة ، اذ اعطيت التعليمات
باستقبال اي يهودي يعبر الحدود ، والسماح له بالسفر الى اي بلد يشاء *
وهذه خطوة ايجابية * لكن ، تثار بعض الاسئلة والاعتراضات ، في وجه هذا
المشروع * الاعتراض الاول ان هؤلاء قد يكونون جواسيس * وجوابنا بالغ
البساطة * ان ٩٩٩٪ من جواسيس اسرائيل في البلاد العربية ، لم يكونوا من

اليهود • ثم ان اسرائيل ، لا ترسل الجواسيس بهذه الطريقة ، لانها تخشى ان يكونوا مراقبين • الاعتراض الثاني هو ان اليهود سوف يسيطرون على الاقتصاد العربي مرة اخرى • اعتقد ان هذا مستحيل • فالوضع العربي ، تغير كثيرا خلال الثلاثين سنة الماضية • واصبح العرب احدى اكبر القوى الاقتصادية في العالم •

□ من الواضح ان المشروع الصهيوني هو مشروع استعماري ، يرتبط بالاستعمار العالمي ، ويهدف الى تمزيق الوطن العربي واذلاله واخضاعه • وجوهر هذا المشروع ، هو انشاء دولة غربية ، اي ان تكون اسرائيل دولة غربية وسط العالم العربي • لكننا نلاحظ ان نسبة اليهود الشرقيين الى مجموع اليهود في اسرائيل هي حوالي ٦٥ ٪ • على ضوء هذا الواقع، كيف يمكن تقييم المشروع الصهيوني ؟ ما هي علاقته بالاستعمار والامبريالية ؟ لماذا فشل في استقطاب اليهود الغربيين ، الذي يدعي بانهم اصحاب مصلحة في القدوم الى فلسطين ؟

● المشروع الصهيوني ، هو مشروع استعماري غربي • واليهود الشرقيون، هم اول ضحايا هذا المشروع • تاريخيا ، كان قورش هو اول من فكر في اقامة دولة يهودية ، لخدمة اغراضه التوسعية • فلقد اراد اعادة سبائا بابل التي فلسطين عام ٥٣٩ ق م • من اجل ان يبني حاجزا بينه وبين المصريين • فادعى انه رأى في منامه ملاكا ، قال له بضرورة اعادة سبائا بابل الى فلسطين • لكن عمليا، لم يعد احد سوى بعض الفقراء ، الذين ارادوا البكاء على حائط المبكى • ثم طرح نابليون المسألة بعد فشله في بلادنا • معتبرا ان وجود دولة يهودية في فلسطين ، تؤمن له طريق الهند • لكن مشروع نابليون لم ير النور • وقد ظلت الفكرة قائمة ، وانتقلت من الدوائر الفرنسية ، الى الدوائر البريطانية والاميركية في آن واحد • فالاستعمار البريطاني ، بعد انتصاره على محمد علي وطرده له من سوريا ، تبنى مشروع اقامة دولة يهودية ، لمواجهة احتمالات قيام دولة قوية موحدة في الشرق العربي • عرض المشروع أولا على مونتيفيوري* ، الذي رفضه لان - اليهود يعيشون في أوروبا ، فهل من المعقول مغادرة أوروبا

* مونتيفيوري : يهودي بريطاني ثري • ابدى اهتماما ملحوظا باوضاع اليهود في فلسطين ، وزارها سبع مرات • ساعد يهود القدس على بناء مساكن لهم ، وتحسين اوضاعهم الاقتصادية • وكان اول من ارسى حجر الاساس للقدس اليهودية ، خارج اسوار البلدة القديمة •

** احد المبشرين الانجليز في فلسطين • كان ملحقا في كنيسة المسيح في القدس ، وراعيا للكنيسة الانكليكانية في القدس ، له عدة مؤلفات اهمها : فلسطين المعاد اعمارها - Palestine Repeopled لندن ١٨٨٧ وفلسطين المكتشفة Palestine Explored

والذهاب الى الصحراء ، خاصة وان هذه الدولة سوف تكون تحت السيطرة العثمانية - بقيت الامور كذلك ، حتى مجيء هرتزل ، وتأليفه كتابه « الدولة اليهودية » - ومن الملفت للنظر ، ان هرتزل ، كان يكتب قبل عامين من تأليف هذا الكتاب ، عن نجاح حركة اندماج اليهود في المجتمعات الغربية .
 جيمس نيل ** ، قال عام ١٨٧٥ ، اي قبل ان يفكر هرتزل بمشروعه الصهيوني ، باننا ، اي الانجليز لا نستطيع ان نستعمر سوريا وفلسطين ، كما استعمرنا اميركا ، لاسباب عديدة . كالمناخ وعدم توفر الحماية الخ . ، انما يستحسن ان نأتي باليهود .

هكذا يتضح لنا ، ان مشروع اقامة دولة يهودية في فلسطين ، هو مشروع استعماري في اساسه .

اما الدور الاميركي ، فقد بدأ عام ١٨٤٠ ، حين بدأت اميركا ، ترسل البعثات التبشيرية من طوائف محددة : السبئية ، المعدانية ، شهود يهوه ، وكلها تبشر بالعهد القديم ، وبعثت دولة اسرائيل . وقد وصل الامر بقنصل اميركا في القدس ، الى اعتناق اليهودية عام ١٨٤٠ ، وبدأ يساهم في اقامة المستعمرات من « ماله الخاص » . ومن المساعدات المالية التي كانت تأتيه من الخارج . وبعد الحرب العالمية الثانية ، اصبحت اسرائيل تعتمد اساسا على دعم وتبني الولايات المتحدة لها . فكما يصرح اكثرية الزعماء الاميركيين ، فان وجود اسرائيل قوية ، هو مصلحة حيوية اميركية . وعندما صدر قرار ادانة الصهيونية بالعنصرية ، اعلن غولديبرغ ، بان هذا القرار ، يضر بالمصالح الاميركية . وعلى كل زعيم اميركي غير يهودي ، ان يعلن بانه صهيوني . لقد رسم المشروع الصهيوني كمشروع اوروبي وغربي . لكنه فشل في جذب اليهود الغربيين . فجاء باليهود العرب ، كي يشكلوا الشريحة الاجتماعية الدنيا ، التي تنهض باعباء الانتاج والحراسة . معظم المستعمرات الحدودية ، يسكنها يهود شرقيون ، يمنيون ، عراقيون وسغارية . قال يهود العرب هم الحاجز الأمني الغربي في المنطقة . بينما يعيش معظم اليهود الغربيين في المدن ، حيفا ، تل ابيب ، القدس الخ . ، تخشى السلطة الاسرائيلية من تنامي قوة وعدد اليهود الشرقيين ، لانهما تخشى من تحول اسرائيل الى دولة « شرق اوسطية » . فلغة وتراث اليهود الشرقيين ، هي جزء من تراث المنطقة العربية . وهذا ما كان بن جوريون يشير اليه دائما ، عندما كان يهاجم في الخمسينات ، اليهود الاميركيين ، لانهم لا يهاجرون الى اسرائيل . فالذي يخشاه بن جوريون ، هو تحول الدولة ، من دولة غربية الى مجرد دولة « شرق اوسطية » .

□ من الواضح تاريخيا ، ان بؤر اللاسامية كانت في اوروا . روسيا القيصرية او المانيا النازية الخ . ، واذا كانت اسرائيل تشكل حلا لمسألة اضطهاد اليهود في العالم ، فالاولى ان تستقطب اليهود الغربيين الذين اضطهدوا . لماذا فشلت

الصهيونية ، في استقطاب اليهود • وفشلت في بناء مجتمع متماسك ، حتى اصبح الكثير من اليهود ، يشعرون انهم لاجئون في اسرائيل ؟

● في القرن التاسع عشر ، والنصف الاول من القرن العشرين ، كان هناك فعلا ، اضطهاد لليهود في الدول الغربية • لكن نتيجة الحركات الثورية ، والتحولت الديمقراطية ، فان موجة اضطهاد اليهود ، والعداء للاسامية بدأت تتراجع او تختفي • الصهيونية ، جاءت من اجل تحريك الاضطهاد ، ولم تأت لحماية اليهود •

يقول هرتزل ، سيتكفل اللاساميون بتدعيم الهجرة • من اجل ان يهاجر اليهودي الى فلسطين يجب ان يكون مضطهدا • واذا لم يكن مضطهدا نضطهده • لقد عملت الصهيونية على اضطهاد اليهود ، لان المشروع الصهيوني لا يستطيع ان يستقطب انسانا مندما • تذكر المصادر الصهيونية ، انه في ليلة واحدة ، بدأت عملية اضطهاد اليهود في جميع انحاء روسيا القيصرية • الصهيونية ، لم تأت كي تحل مشكلة اليهود ، بل خلقت لهم مشكلة • الان ، لا وجود للاسامية في اوربا او اميركا او الاتحاد السوفياتي ، لذلك لا وجود لهجرة يهودية الى اسرائيل • اما هجرة اليهود السوفيات فلها اسباب اخرى اقتصادية في جوهرها • فاليهودي لا يهاجر الى فلسطين شوقا الى صهيون ، والدليل ان اكثر من ٦٠ ٪ من اليهود السوفيات ، لا يكملون الطريق من فيينا الى مطار اللد ، رغم ضغط وملاحقة عملاء الوكالة اليهودية • بل يرغبون في السفر الى اوربا ، حيث تأتي (هياس*) وتساعدهم على ذلك • اليهودي السوفياتي المهاجر ، قد يكون فنانا ، او مهوسا ، او صرافا يتاجر بالعملة الصعبة • وعندما يصل الى اسرائيل ، يتمنى العودة الى الاتحاد السوفياتي ، لان الحياة في اسرائيل بالغة السوء • ومن هنا ، يأتي شعوره بأنه لاجئ في فلسطين • من هو اللاجئ:

* جمعية مساعدة المهاجرين اليهود • وهي جمعية يهودية غير صهيونية تهتم اولا بالمحافظة على اليهودي كيهودي • وتسعى الى توطين اليهود في اي مكان من العالم ، وليس بالضرورة في اسرائيل •

** اختارت الحكومة السوفياتية ، منطقة استيطان ، واسعة المساحة ، قليلة السكان وذلك عام ١٩٢٨ • وهي منطقة بيربيديجان على ضفاف نهر أمور بالقرب من الحدود الصينية • وفي ٧ ايار ١٩٢٤ ، اعلنت مقاطعة بيربيديجان كمناطق يهودية ، تغطي مساحة ٣٦ الف كيلومتر مربع ، على ان تكون اللغة الرسمية في تلك المنطقة هي لغة اليديش • وفي اب ١٩٣٦ جندت السلطة اليهودية التي كانت تمسك بزمام الامور في تلك المقاطعة • وكان من نتيجة ذلك ان بدأ الطابع اليهودي المسيطر على تلك المنطقة بالانهيار • تبلى الان نسبة السكان اليهود فيها ٨٨ ٪ وهم يشكلون ٦٦ ٪ من يهود الاتحاد السوفياتي •

اللاجيء هو الانسان الذي لا يشعر بأنه مواطن في البلد الذي يقيم فيه . بل تشده الروابط العاطفية والمادية والتاريخية الى بلده الاصلي الذي عاش فيه مئات السنين . يأتي المهاجر الى اسرائيل ، فيجد شعوبا تتكلم تسعين لغة ، لها مئة لون ، جاءت من مئة دولة . فكيف يستطيع التقاهم معها . لا يوجد اي رباط سوى الدين . وحتى الدين ليس رابطا حقيقيا . يقول احد اليهود المهاجرين من اسرائيل : « انا هارب من اسرائيل ، لان الحياة اليهودية متوفرة في اميركا ، اكثر مما هي متوفرة في اسرائيل » .

حتى هذه الرابطة الواهية ، الدين ، التي احضر اليهود على اساسها ليست متوفرة بشكل حقيقي . فكيف لا يشعر اليهودي بأنه لاجيء ، وانه انتقل من غيتو الى غيتو جديد ، اشد اغلاقا ، واكثر جلبا للكراهية والعداء .

□ هل فشلت الصهيونية ، في اقامة علاقة بين اليهودي والارض ؟

● اود أولا ، ان اعود الى تجربة الاتحاد السوفياتي ، في اقامة دولة قومية يهودية في بيربيدجان ** ، لقد كتب الصحفي الاسرائيلي دان بن عاموس ، يقول ، « كان لنا تجربة قبل الف سنة ، ولكنها فشلت ، وهي تجربة المملكة الاولى . ثم اقام لنا الاتحاد السوفياتي دولة في بيربيدجان ولكنها فشلت ايضا لاننا لا نستطيع ان نكون الا من اصحاب الياقات البيضاء » . ثم يدعو الى اندماج اليهود في المجتمعات المختلفة ، ويقول ، « لو كنت صغير السن لسافرت الى نيوزيلنده ، واندمجت هناك . ولكن يبدو انه كتب علي ان اعيش المسادا اليهودية » .

يقول غوردون* ، ان الشحوب الطبيعية ، هي التي يكون العمل اليدوي بالنسبة لها طبيعة ثانية . فالحياة اليهودية ، اذا استمرت في فلسطين ، كما كانت عليه في الغيتوات ، فستكون النهاية سيئة . لا بد من العمل في الارض من اجل خلق اليهودي الفلاح ، واليهودي العامل . لان من يملك العمل يملك الارض . طبق بن غوريون ، في اوائل القرن ، هذه النظرية بشكل كامل . كان يصر على العمل العبري الكامل في المستوطنات . وقد نجحت الصهيونية في البداية ، في تطبيق العمل العبري . والذي ساعدها على ذلك ، هو الهجرة اليهودية الثانية (١٩٠٤ - ١٩١٤) ، التي كانت تتألف عناصرها من شباب اعمارهم بين ١٥ - ٢٠ سنة ، وكانوا منفردين غير متزوجين ، وبدون اقارب . ولكن كما قال غوردون ، فاننا نبدأ بالعمل اليدوي تمهيدا للانتقال الى عمل اخر . يلاحظ مثلا ، ان الهجرة الرابعة ، لم تكن كالثانية . كانت تتألف من عائلات هاربة من الاضطهاد النازي ، ولم تكن مهينة للعمل في المستوطنات ، فاقامت

* غوردون ، احد زعماء ومفكري الجناح العمالي الصهيوني .

في المدن • لقد ساعد العدد الكبير من الاطفال حوالي ١٤٠ الف طفل ، الذين جيء بهم في الهجرات الصهيونية الى فلسطين ، على تثبيت مبدأ العمل العبري • وهذا يذكرنا بالجيش الانكشاري الذي اقامه سلاطين بني عثمان • عام ١٩٤٨ ، لم يكن عدد سكان اسرائيل يتجاوز ٦٠٠ - ٦٥٠ الف نسمة ، وهذا العدد لا يكفي لاقامة دولة • فجاءت صفقة اليهود العرب وحلت المشكلة • هناك ازمة دورية كل عشر سنوات ، وهي تنجم عن نزوب الهجرة • فقبل عام ١٩٥٦ كان هناك ازمة اقتصادية خانقة • وقبل حرب ١٩٦٧ كانت اسرائيل تعاني ازمة اقتصادية نتيجة نزوب الهجرة • وبعد احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة ، استطاعت اسرائيل ان تحل ازمة نقص اليد العاملة ، عبر استخدام العمال العرب • لا وجود للهجرة ، والواقع الاسرائيلي يدفع القوى المنتجة الى مواقع الخدمات ، لذلك وصل عدد العمال العرب الى حوالي ١٢٠ الف عامل • وهنا اصيبت نظرية العمل العبري بشرخ كبير • هناك ضجيج في اسرائيل وتساؤلات ، حول اراضي الكيبوتسات والمستوطنات التي تؤجر للفلاحين العرب عن طريق المحاصصة • فعلى المدى البعيد ، سوف يشعر العامل العربي ان هذه الارض له • وبالتالي يتوقف مالك الارض ، الذي يكتفي بتسلم الانتاج ، عن التعامل مع الارض • اي ان الصلة بين المهاجر اليهودي والارض سوف تزول • من اجل ايقاف هذا الاتجاه ، اصدر الكنيست قانونا ، بمنع تأجير الارض للعرب • تذكر الاحصائيات ، ان ٧٠ ٪ من مزارع عسقلان وما حولها ، يعمل بها عمال عرب • بالاضافة الى مناطق المثلث والشمال والجنوب • وبالاضافة ايضا الى عمال المصانع ، ما عدا صناعة الاسلحة ، حيث يتزايد عدد العمال العرب باستمرار • الدوائر الاسرائيلية في حيرة حقيقية • فقد كتب احد الصحفيين ، تعليقا على قرار الكنيست بمنع تأجير الارض للعرب يقول ، ماذا كان باستطاعتنا ان نفعل ، لولا الهبة الالهية التي ارسلت لنا ، من خلال العمال العرب ، بعد انحسار الهجرة • ومن هنا نلاحظ ان الصهيونية فشلت في اقامة علاقة بين اليهودي والارض ، وهذا ماتتبا به غوردون نفسه حين قال : عندنا ميل لاحتقار العمل اليدوي لدرجة ان اولئك الذين يقومون بمثل هذا العمل يقبلون ذلك مضطرين على أمل ان يهربوا منه الى حياة افضل •

المهم ، بالنسبة لنا كثورة فلسطينية ، هو ان نعي الحقيقة الاسرائيلية الجديدة ، التي تتمثل في انحسار العمل العبري ، والحاجة المتزايدة الى العمل العربي •

□ لاحظنا ، ان اسرائيل ، كانت تلجأ الى الحل الكلاسيكي : الحرب ، من اجل التخلص من ازماتها : الازمة الاقتصادية ونزوب الهجرة • تعيش اسرائيل الان ، اسوأ ازماتها على جميع المستويات • فهل نتوقع ان تلجأ اسرائيل الى خيار الحرب ؟

● انني اعتقد ؛ ان اسرائيل لا تستطيع التحرك دون موافقة اميركية • هناك

نموذج آخر ، غير نموذج الانسحاب من غزة وسيناء بعد حرب ٥٦ الذي اشرفنا اليه . يذكر دايان ، في كتاباته ، انه نتيجة الضغوط الأوروبية الشديدة ، اقتنع بضرورة تنفيذ اقتراح الرئيس السادات بفتح قناة السويس عام ١٩٧١ . وقبل ابلاغ المصريين بالموافقة ، جاءت تعليمات واشنطن بعدم الانسحاب . ويعقب دايان قائلاً ، لو وافقت اميركا على قرار الانسحاب لتجنبت اسرائيل حرب تشرين . كما يذكر وزير المالية الاسرائيلي ، بانه لو خفضت الولايات المتحدة ، مساهمتها السنوية لاسرائيل وهي حوالي ٥٠٠ مليون دولار فقط ، لافلست . تقدم الولايات المتحدة كل شيء لاسرائيل ، من الدعم السياسي في المحافل الدولية الى السلاح المتطور .

اذا عدنا الى الاتفاقية الاقتصادية الاميركية - الاسرائيلية ، التي عقدت عام ١٩٥٥ ، لوجدنا ان الولايات المتحدة تزود اسرائيل بالمصانع الحربية والخبراء ، ثم تشتري السلاح الاسرائيلي . وهذا ، ليس لان اميركا ، التي تباع السلاح الى ثلاثة ارباع دول العالم ، بحاجة الى السلاح الاسرائيلي ، ولكن حتى يشعر الاسرائيليون ، انهم ينتجون ، وليسوا فقط ، مجرد حراس مسلحين للمصالح الاميركية في المنطقة . كتب الصحفي الاسرائيلي حاجاي ايشد : « نحن كلب حراسة حاد الاسنان ، مربوط بسلسلة طرفها بيد الولايات المتحدة . تطلقه متى تشاء وعلى من تشاء » .

تقدم الولايات المتحدة جميع اصناف المساعدات للكيان الصهيوني . لكنها لا تستطيع ان تقدم له الحياة البشرية . لقد استغلوا كل شيء ، النازية . الضغط على الاتحاد السوفياتي ، الضغط على رومانيا ، لكنهم لا يستطيعون في النهاية خلق اليهودي الراغب في الهجرة الى اسرائيل .

لقد فقدت اسرائيل ، الكثير من دورها في المنطقة . فقدت دورها الافريقي بشكل نهائي . فبعد ان كانت الدولة التي تقدم المساعدات التقنية للدول الافريقية ، في الوقت الذي كان يصور فيه العرب على انهم متخلفون و « تجار عبيد » ، انقلبت الآية الان رأساً على عقب .

اما احتمال لجوء اسرائيل الى خيار الحرب . فانهي اقول ، انه اذا كانت عقدة مسادا ، لا تزال تتحكم في اليهود ، فانا لا استبعد اللجوء الى الحرب . لكن هذه الحرب ستعجل في نهاية اسرائيل . ماذا تستطيع اسرائيل ان تفعل . هل ستكرر حرب ٦٧ ؟ فالعرب قادرون على استعادة قوتهم بعد سنوات قليلة . هل تحتل اراضي جديدة ؟ هذا يعني انها بلعت منجلاً جديداً . انني اعتقد ، ان الولايات المتحدة - اذا كانت جادة في التوصل الى تسوية - فانها تستطيع فرض ذلك على اسرائيل .

□ دعنا نتصور شكل اسرائيل بعد التسوية . او الشكل الذي ستأخذه اسرائيل في حال التوصل الى السلام .

● هناك كتاب فرنسي اسمه « اسرائيل تنتهي بالسلام » . اذا حدث السلام ، فان فكرة التوسع الاسرائيلية تنتهي ، وتنتهي معها الهجرة . كما ينتهي العطف على اسرائيل في الخارج . لقد ارسلت الجالية اليهودية الاميركية ، الحاخام شندلر ، ليقول ان الجالية اليهودية الاميركية ، معرضة للانقسام ، في حال رفض اسرائيل للتسوية .

انني اعتقد ، ان اسرائيل ترفض التسوية اساسا . وهي في مأزق . القبول بالتسوية مأزق ، ورفضها مأزق اخر . لذلك ، فعلينا نحن العرب ان نتصلب ، لان الازمة هي في الطرف الاسرائيلي اما نحن فنستطيع ان ننتظر .

□ ولكن الا تعتقد ان هذا الشعور ، لا يعمق ازمة اسرائيل ، ولكنه يسهل التنازل العربي ؟

● لا اقصد ذلك . ولكن نحن العرب لسنا مستعجلين الى درجة تقديم التنازلات . نستطيع الانتظار بالنسبة لسيناء والجولان . اما نحن الفلسطينيين ، فقد انتظرنا ثلاثين سنة ، ونستطيع انتظار خمس سنوات اخرى . المأزق هو في

الطرف الاميركي . وهذا يعني ، ان تصلبنا ، سوف يعطينا شروطا افضل . لقد اصبح الشعب الفلسطيني مشكلة اسرائيلية داخلية . الازمة ليست ازمتنا . انها ازمتهم . اذا صبرنا ، وتصلبنا اكثر ، فاننا سوف نشهد الانهيار الاسرائيلي ، الذي يجبر اميركا على تقديم تنازلات اكثر .

ليس لدي قناعة ، بان اسرائيل قادرة على التصرف خارج الارادة الاميركية .

□ حول موضوع الحرب . يبدو ان القرار الاسرائيلي في يد اميركا . وموقف اميركا يحدده مدى صلابة الموقف العربي وقايلته .

● انني ازيد هذا المعادلة . الموقف الاسرائيلي هو بيد اميركا ، ولامسح الموقف الاميركي تحددها الصلابة العربية . يقول الاميركيون مثلا ، ان الدولة الفلسطينية هي قضية عربية . يجب ان يتبلور الموقف العربي لكي تسحب هذه الذريعة من يد اميركا . وكذلك مسألة مؤتمر جنيف .

□ الموقف الاميركي ، يؤثر على الحرب والسلام في المنطقة . الا تعتقد ان نمو القوى العربية الذاتية ، وبالذات العسكرية ، سوف يضيق خيارات الحرب على اسرائيل والولايات المتحدة .

● المشكلة هي في عدم توازن السياسات العربية . اذا كان بعض الانظمة

صديقا للولايات المتحدة فان ذلك يعني العداء المطلق للاتحاد السوفياتي ،
والعكس أيضا • لقد أخطأ المصريون بخسارة السوفيات ، مقابل العلاقة الجيدة
مع الولايات المتحدة بعد حرب تشرين • ان خسروا مصدرا أساسيا من مصادر
قوتهم العسكرية والسياسية •

□ اذا اردنا ان نقيم خلاصة الموقف الاسرائيلي الحالي ، نلاحظ انه موقف يائس •
وهناك حالة مسادا - ما مدى خطورة هذا اليأس • هل يمكن توقع اللجوء الى حل
انتحاري ، كاستخدام السلاح النووي ؛

● ما هي نتيجة استخدام السلاح النووي • انها الانتحار • يستطيعون
تدمير مدينة عربية ، لكن اسرائيل تنتهي •

لقد خلقت الصهيونية مشكلة لليهود • ومن واجبنا العمل على حلها • بمعنى
ان يسمح للانسان اليهودي بوصفه انسانا ، ان يختار مكان اقامته وشروط
حياته بشكل حر • الذي يفضل الحياة في أوروبا يسمح له بذلك • الذي يريد
العودة الى البلاد العربية نساعدده على ذلك • اما افضل حل ، فهو القبول
بالعيش في دولة فلسطين الديمقراطية • هذا هو الحل الامثل ، الذي يحقق
الاندماج • ويزيل البؤر العنصرية من منطقتنا •

لا حل للمشكلة الصهيونية • وهناك اكثر من حل للمسألة اليهودية •

[شهادات]

وداعاً... إسرائيل

مهاجر يهودي سوفياتي حقق حلمه الصهيوني وصار « مواطناً إسرائيلياً » ، وعلى أرض الواقع أدرك أن الحلم الصهيوني خيانة ، فحمل الخيبة واليأس ورحل إلى باريس ليشهد على أن إسرائيل هي اناء مهشم لا يمكن ترميمه ، وهي إلى زوال قريب .

اسم الكاتب افرام سيفيلا . ولد في الاتحاد السوفياتي عام ١٩٢٨ في مدينة بوب رويسك . درس الأدب في جامعة مينسك ، وعمل صحفياً في جريدة فيلا - ليتوانيا مدة سبع سنوات . ثم أقام في موسكو وعمل في الإخراج السينمائي . في عام ١٩٧١ هاجر إلى إسرائيل .

سجل تجربته السوداء عن الحياة في فلسطين المحتلة في كتاب بعنوان « وداعاً يا إسرائيل » [صدر في باريس في نيسان - أبريل الماضي] . الفصل الذي ننشره هنا هو الفصل الخامس من الكتاب ، وهو يتناول التركيب الداخلي للتجمع اليهودي وعلاقات الطوائف اليهودية المتناحرة .

« لا يمكن إعادة ترميم اناء مهشم » ، مثل رددته الحكمة الشعبية بإصرار طوال قرون ، ويبدو أن جميع المحاولات التي أقيمت لبرهنة عكس ذلك بقيت دون جدوى . وجود إسرائيل بحد ذاته هو محاولة يائسة لكفحة هذه الحقيقة المقررة . أن الدولة اليهودية في فلسطين اناء مهشم ، يتشكل من ثمانين جزء من مختلف الأحجام ، هي عبارة عن البلدان التي رأت أولاد إسرائيل تهاجر منها نحو صهيون . وهي اناء مبرقش يحمل حروفاً ظاهرة تجف بسرعة ، وتخلق تشققات خطيرة .

من الصعب أحيانا فهم ما يجمع بين هؤلاء البشر المختلفين هذا الاختلاف والمتأثرين خارجيا وداخليا ، في لحمهم ودمهم بالخصائص القومية والعنصرية والعرقية للشعوب التي عاشوا وسطها خلال قرون .

من النموذج الكلاسيكي القادم من الثورات الى الرجل المتأصل في اليمن الصحراوية ، حيث البشرة الكامدة اللون والانعكاسات البرونزية ، والعينان السوداوان كحجر اليمان ، الى اليهودي الليتواني ذي العينين الزرقاوين والانف الخانس والشعر الاحمر . من المستحيل التمييز بين يهودي من جورجيا وجيورجي حقيقي . وأنا الذي أمضيت كل حياتي في الاتحاد السوفياتي لا ازال استغرب حين يعترف لي احد سكان تبيليسي أو كوتايسي في عارض من الصدق ، بأنه هو أيضا يهودي . لا ازال اجهل ما هو الفرق الخارجي بين يهودي من بوخارا واي مواطن آخر من آسيا الصغرى ، من تادجيك او من أوزبكستان مثلا . اليهود الالمان الذين هربوا من هتلر في الثلاثينات ، واسسوا مدينة نهاريه شمالي فلسطين يعيشون حتى الآن في بيئة اجتماعية مغلقة ، معظمهم لا يتقن العبرية بعد ، بل يستخدمون اللغة الالمانية ويقدمونها أكثر من الالمان أنفسهم . في ديمونا ، جنوب-اسرائيل ، نرى الجسناوات الشرقية السمرات البشرة ، يلبسن الساري ذا الالوان الفاقعة ، وقد رسم على جبهتهن نقطة حمراء ، ووضع على أرنبة الانف - وليس في شحمة الاذن - ماسة صغيرة جدا . انهن أيضا يهوديات اصلهن من الهند او من باكستان . اما اليهود المغاربة ، فيشبهون العرب .

فما هي اذا العلاقة بين بشر على هذا الحد من التباين ؟ لماذا يعتبرون أنفسهم يهود طيبين ؟ ويجب الا ننسى ان خمس عدد سكان اسرائيل فقط هو مؤمن . لذلك لا يمكن ان يكون الدين هو القاسم المشترك .

يؤكد الفيلسوف الفرنسي الوجودي ، جان بول سارتر في كتابه « تأملات حول المسألة اليهودية » ان اليهود لايشكلون مجتمعا حتى الان الا بفضل الضغوط الخارجية : « ان الرابط الوحيد الذي يحافظ على وحدتهم هو الأزدراء العدواني الذي يكنه لهم باقي الشعوب » . عدد كبير من الباحثين في اسرائيل وبيسن يهود الدياسبورا (المنفى) لا يشاركون الفيلسوف الفرنسي رايه أبدا . يفسرون على طريقتهم الخاصة بقاء هذا الشعب الذي لم يبد خلال الالف السنين ، بينما لم يبق من الشعوب المزمنة المجاورة الا رماد تاريخي ، وإشارات عابرة في المخطوطات . ليس موضوعي التدخل في هذا النقاش بل اريد فقط ان اقدم لكم نتيجة تجربتي وملاحظاتي الشخصية . واعترف بأن جان بول سارتر هو على حق بكل أسف .

نحن مرتبطون ، مضغوطون بعضنا على البعض الآخر ، بفعل احتقار وكره من حولنا . جمعنا الخطر المشترك الذي يهددنا ، وأقلعنا عن أرائتنا في الاندماج لنشكل كتلة واحدة مدموغة بخاتم كاهين وكراهية الذين حولنا . اكتشفنا اننا يهود وحملنا هذا الصليب ، لان كل موقف آخر ، كان مستحيلا .

ان الواقع الاسرائيلي ، هذا الخليط المخيف من اللغات ، ومن الناس ، الذين غالبا ما كانوا في تعارض تام : ما يسمى بالشعب اليهودي ، الذي جمع في وطنه القديم انطلاقا من أجزاء مشتتة ، يشهد أيضا على حقيقة نظرية الفيلسوف الفرنسي الاكيدة .

اذا توقفت الدول العربية عن تهديداتها ، وعقدت صلحا مع اسرائيل ، فانني مقتنع

ان هذا البلد لن يتحمل الاستقرار وسينهار تحت تأثير الانفعالات الداخلية المتصارعة والدمرة . يتشظى الى اجزاء صغيرة كثيرة . تلك التي اعتمد عليها عندما انشئ بشكل غير متقن .

لا فائدة من محاولة اعادة ترميم ابناء مهشم . فالشظايا التي يعاد ترميمها لا تشتبك ، والنتوءات تتصادم . في اسرائيل ، من الصعب منذ الآن اخفاء العدوانية الكامنة والكراهية ، والتنافر الموجود بين مجموعات اليهود العنصرية المختلفة . فاليهود القادمون من بلدان عديدة ، والذين هم اليوم في ديارهم ، على ارضهم ، في بلدهم ، هؤلاء الذين اضطهدوا خلال قرون بسبب اصلهم اليهودي ، يتجاهبون بكراهية ، مستخدمين في حربهم الالهية ، الحجج والبراهين نفسها التي استعملها مضطهدوهم من قبل .

« البذرة الانسانية ، مهما كانت سليمة ، وايا كانت درجة الصهيونية التي تحملها ، محكوم عليها بالتلف ، اذا زرعت في هذه الارض المسممة بالكراهية التي يحملها كل يهودي تجاه اليهودي الاخر » . هكذا اعلن المهاجر السوفياتي اي . يودين عن اكتشافه المدهش في جريدة « تريبون » * . ويسجل مواطنه السابق ليونيد جلغند في الجريدة نفسها : « في

اسرائيل ، يتعايش اليهود بشكل سيء جدا . وهم على استعداد دائم للاساءة الى بعضهم البعض . . . في اسرائيل ، لا تستعمل كلمة « يهودي » دون ان تردف بـ « يهودي روماني ، يهودي مغربي ، يهودي روسي ، يهودي جيورجي الخ » . او حتى ، يستغني عن استخدام كلمة « يهودي » فيقال : « لص روماني » ، « سكير روسي » ، اما اليهود الاثراك فلا اتجرأ على كتابة ما يقال عنهم في اية جريدة . . . احيانا اسمع هذه الصفة : « وجه الاكول الاسود » . وهذا اللقب العنصري المعيب يستخدم لوصف يهود آسيا وافريقيا .

« ذات يوم ، تشاجر ابني مع احد اولاد الجيران . وعندما رآني امه على الدرج بصقت في وجهي وقالت لي : أنتظر قليلا ، سنخفككم جميعا قريبا » .

هكذا ، وبشكل مؤذ ، يتشقق الوعاء الذي الصق بلعاب الصهيونية . والتوتر يسود مختلف المجموعات العنصرية بين سكان اسرائيل اليهود ، رغم أن الرسميين يحسوا حاجتهم وهم ينكرون وجوده . وردة الفعل الرسمية الاولى بعد جريمة مغدال - هعيمك السيئة الصيت كانت مواصلة نفي اي طابع عنصري لهذا العمل .

هذا ما حصل : في بلدة صغيرة من الجليل حيث يعيش اسناسا مهاجرون من المغرب ، اقام خلال السنوات الاخيرة اليهود الروس وكانت العلاقات بين الطائفتين حرجة للغاية . وفي مساء ذات يوم بينما كان الشباب الروس مجتمعين بمناسبة عيد ، هجم بعض « المغاربة » . قتل اثناء المشاجرة شاب من ريغا : كان قد وصل حديثا الى اسرائيل وهو في الخدمة العسكرية ، جاء بمأذونية ليبرى والدته . اثارته هذه الجريمة موجة شغب ادت الى نزول مئات المهاجرين في اليوم التالي التي الشوارع ، مغاربة وروس ، وقد حملوا ما

* جريدة « تريبون » (المنبر) هي احدى الجريدتين الصادرتين باللغة الروسية في اسرائيل - الثانية هي جريدة « نوتر ببي » (بلدنا) وكانت تكشف عن بعض الاستقلالية في الرأي ولذلك عطل نشرها . (المؤلف ، الفصل الثالث : دروس في الديموقراطية . صفحة ٨٩) .

توفر لهم من أسلحة • وشابهت هذه الظاهرة المذابح القيصريّة الى حد اضطرت فيه السلطات الى ارسال قوات جديدة من الشرطة لتفصل بين العصبتين اللتين تملكتهما الكراهية •

هذا الحادث ليس فريدا من نوعه بل كثير الوقوع واذا اندهش له القادمون الجدد ، فقد اعتاد عليه ساكنو البلاد القدامى • المهاجر الروسي ليون كاغان بحث بهذه الرسالة المرة للهِجة الى جريدة « تريبون » • كان الجميع يقضي وقتا طيبا في اسرائيل ليلة عيد « الاستقلال » • واجتمع عدد كبير من المهاجرين في نادي حوشي لتمضية يوم العيد الخامس والعشرين بابتهاج • ذهب ابني • كان الجميع مرحا ولم يتوقع احد امكانية حصول اي حادث • غير ان هذا ما حصل •

جاء ازرع مغربي وتحدى ابني فبصق في وجهه • ضربه ابني جوابا على ذلك • لكن اصدقاء المغربي كانوا في انتظار رد الفعل هذا • فهجموا عليه وضربوه بهمجية • ضربوه بالزجاجات ، ركلوه على وجهه وهو ملقى على الارض • وفر جميع الزعران المغاربة بعد الاعتداء •

كيف يمكن تفسير موقف الناس الذين اكتفوا بمراقبة انسان برىء يضرب بشدة ؟ لم يسمع احد ولو الى الفصل بين المتقاتلين • رجع ابني داميا ، ثيابه ممزقة • انف مكسور وعينان متورمتان ، واثار الضرب بالزجاجات والركلات تغطي جسده • الجسد يشفى ولكن هل تشفى روحه وروحنا ؟ هل كان في وسعنا ان نتخيل ونحن في الاتحاد السوفياتي انه سيتم استقبالنا بمثل هذا البغض ؟

في اليوم التالي ، اتى بعض الجيران مهتئين ابني بنجاة من الموت • « انه سعيد الحظ لانه بقي على قيد الحياة • اذ كان بإمكان المغاربة قتله • ولن يلقى القبض عليهم • »

هبات الكراهية العنصرية تهز اسرائيل • فما ان هدئت النفوس في ميغدال - هعيمك حتى كادت الدماء تسيل بغزارة في أشود • السبب هو تسريح مهين ، دون اي مبرر ، لعشرات الحمالين الجيورجيين في المرفأ • ترك هؤلاء الرجال وعائلاتهم دون اية وسيلة للعيش • وحين طرقت ابواب المؤسسات المختلفة ، سعيا وراء المساعدة ، وهم الذين يجهلون لغة البلاد وعاداتها ، لم يستمع احد اليهم • عندها ، أعلن اليهود الجيورجيون الاضراب امام مركز بلدية أشود • انضم اليه ، النساء والاطفال • هكذا ، وامام عيون الجميع • وتحت شمس محرقة ، بقي هؤلاء البشر اياما واياما دون تناول الطعام • فهل اثار معاناتهم شفقة اليهود ؟ على العكس • اخذ سكان المدينة ، وهم يهود ايضا ، لكنهم اتوا من بلدان اخرى : المغرب ، العراق ، بولونيا ، هنغاريا ، اتوا الى اسرائيل من أجل اهداف تختلف عن اهداف مواطنيهم الجيورجيين ومنذ مدة بعيدة ، اخذوا يستهزئون بهم ويسخرون بصوت عال من الالم دون التردد في استخدام نعت جارحة وشائنة لا يتجرأ اي معاد للسامية ان يتلفظ بها •

عندئذ حصل الانفجار ، فطبع الجيورجيين المتحمس وشعورهم كطائفة منكشدة على نفسها ، دفعت بجميع اليهود الجيورجيين دون استثناء الى الشوارع : اقيمت المتاريس ، حطمت واجهات المتاجر وساد المدينة جو من المذابح التي تضع اليهود في مواجهة اليهود هذه المرة • ساد الرعب سكان المدينة القدامى ، فطالبوا بانزال القوات المسلحة لتهدئة هؤلاء « القوقازيين القذرين » بالقوة •

انضمت الصحف نفسها الى الجوقة العنصرية مطالبة بالدم اليهودي الجيورجي ، ولولا شخصية وزير النقل هـ . بيريز اللبقة لحصلت مجزرة مخزية . وقد بقيت الصحف وقتها طويلا دون ان تغفر له حرمانها من هذه اللذة ، مواصلة تحريض قرائها معلنة دون هلع ان الجيورجيين سيذبحون اسرائيل بكاملها ، لشعورهم بقدرتهم على الافلات من العقاب .

هذه الدولة الصغيرة التي تختنق في جوار عدائي ، منقسمة الى عشرات الطوائف المتأثرة جغرافيا ببلدانها الاصلية . والعلاقات فيما بينها بعيدة كل البعد عن الودية . لا يزال يهود اسرائيل ، يعيشون في مدن واحياء حسب هذا الاساس الطائفي . يعيش « البلغاريون » في يافا خاصة ، و « الالمان » في نهاريا و « الرومانيون » في مداره ، ويهود بوخارا في بات شيمش ، و « الجيورجيين » مجمعون في اللد والرملة .

ولكن هناك تيارا اكثر اهمية وربما اكثر خطورة يقسم المجتمع الاسرائيلي الى فريقين معاديين بشكل فعال تبعاً لبداً عنصري هو لون البشرة . هناك اليهود البيض واليهود السود ، يهود أوروبا وأميركا من ناحية ، والاسيويون والافريقيون من ناحية أخرى . اشكنازيم وسفارديم ، حتى الدين اليهودي الاوحد ، لم يتمكن من مد الجسور بين الفريقين . نحن اليوم في اسرائيل امام ظاهرة مذهلة : ظاهرة وجود حاخام اكبر للاشكنازيم الى جانب حاخام اكبر للسفارديم .

وكان الظاهرة طبيعية ، بينما تثبت رسمياً الانفصال العنصري . ها هو الشعب الذي خلق الوجدانية يرسم الآن حداً شائناً امام اله واحد ، يفرق بين مواطنيه ، بين اخوانه في الدين وذلك تبعاً لمعايير اعداء اليهود التاريخيين انفسهم : المعايير العنصرية .

يشكل السفارديم الآن اكثر من نصف سكان اسرائيل ، وبما أنهم ينجبون اكثر من الاشكنازيم ، لا بد ان يشكلوا عما قريب الاكثرية الساحقة . هذه الظاهرة تبرز خاصة في الجيش حيث ، منذ الآن ، ثلاثة ارباع الجنود الاسرائيليين هم من عائلات السفارديم . وفي مستقبل قريب جداً ، لن يبقى اشكنازيم الا في مراكز القيادة وفي الطيران وكلاهما

يتطلب مستوى عال من الدراسات .

يفصل العامل الاقتصادي ، الى جانب لون البشرة ، فصلاً عميقاً بين الطائفتين الاشكنازية والسفاردية ويواجههما بشكل متناقض . فالاكثية الساحقة من الرجال الاثرياء ومعظم الطبقة الوسطى هم من الاشكنازيم . بينما لا يعيش في الضواحي الفقيرة مثل هاتكفاه في تل ابيب او القطمون في القدس ، الا السفارديم . ان الـ ١٢٢ الف عائلة التي تعيش - حسب الاحصاءات الرسمية - حياة معدمة ، مغيبة للكرامة الانسانية هي اساساً سفاردية .

ما هو سبب هذا التباين الاجتماعي الفظيع في بلد جديد لا تزال ذكرى انشائه ، حية في ذاكرة جيلنا ؟ من هو المسؤول ؟

ان ٥١٣٪ من المهاجرين الذين اتوا الى اسرائيل بين عامي ١٩٤٨ و ١٩٧٢ هم من اصل افريقي وآسيوي والباقي من أوروبا وأميركا . يعيش في الوقت الحالي في اسرائيل ٢٠٪ من الشعب اليهودي بينما لم يكن في اسرائيل ، سوى ٦٪ من يهود العالم ، خلال السنوات الاولى من انشاء الدولة . هناك ٦٠٪ من القوى العاملة و ٣٠٪ من اطفال لا تزيد اعمارهم عن ١٤ سنة بين الذين دخلوا في فترة ١٩٤٨ - ١٩٧٢ . والجدير

بالذكر ان القوى العاملة ، تشكل نسبة ٥٧٪ من القادمين من آسيا وأفريقيا . بينما تشكل القوى العاملة بين يهود أوروبا وأميركا نسبة ٧٢٪ . لايزيد متوسط عمر المهاجرين الى اسرائيل عن ٢٥ سنة .

ان اصول التباين الاجتماعي في صفوف الاسرائيليين متعددة . بعضها يرجع الى احداث خارجية . والبعض الآخر، تقع مسؤوليتها كلياً على ذمة الاشتراكيين الاسرائيليين .

ان رواد الاستيطان اليهودي في فلسطين هم الاشكنازيم المنحدرون من « خط السكن الحر لليهود » ، ومن غيتوات أوروبا الوسطى . كان هناك ، اذن طائفة وحيدة ومتينة من الاشكنازيم قبل ١٩٤٨ ، قبل اعلان دولة اسرائيل ، خصصت لنفسها جميع مراكز القيادة واسست عبر اجيال قليلة اقتصاداً قوياً بما فيه الكفاية لتأمين وسائل محتملة للعيش ، وحياتنا مزدهرة .

ثم تدفقت الى فلسطين موجة اليهود الذين نجوا من الكارثة النازية . كانوا ايضا من الاشكنازيم لكنهم فقراء وبؤساء . رغم ذلك لم يشكل هؤلاء المئات الالوف من اليهود البولونيين والتشيكيين والهنغاريين والرومانيين والبلغاريين ، الطبقات الفقيرة من المجتمع الاسرائيلي . وقد يسر نموهم الاقتصادي ، الى جانب المهارة الطبيعية ، والتأهيل المهني والمستوى الثقافي المرتفع ، تعويضات الحرب المهمة التي وازلت على سداها حكومة الرايخ الثالث الالمانية ، الى جانب منحها المعاشات مدى الحياة والمبالغ المخصصة للتعويض عن الاملاك التي نهبها او دمرها الفاشيون . كل ذلك اتاح لهذه الفئة من اليهود الاشكنازيم ان تتمكن من الوقوف على اقدامها بسرعة ، ان تفتتح متاجر ومشاغل وحتى مصانع ، مشكلة البرجوازية الصغيرة والمتوسطة . فتملكوا شققاً جميلة وحتى فيلات ، وسيارات وكان ذلك علامة الازدهار الاقتصادي في الخمسينات .

بعد فترة قصيرة من انشاء دولة اسرائيل ، هاجر الفرع السفاردي للشعب اليهودي بكثافة ، هذا الفرع الذي عاش منذ قرون في البلاد الاسلامية في الشرق الاوسط وشمال افريقيا وآسيا ، ١٢٥٠٠٠ توافدوا من العراق ، ٣٥٠٠٠ من تركيا ، ٢٢٠٠٠ من ليبيا (من اصل ٣٥٠٠٠ كانوا يعيشون فيها) و ٣٥٠٠٠ * آخرون من شمال افريقيا . اما الصحراء في اليمن القاحلة ، فقد امنت في عملية ذائعة الصيت اطلق عليها اسم « عملية بساط الريح » . اكثر من ٤٠٠٠٠ يهودي لا يعلمون شيئاً عن الثقافة الاوروبية ولا يزالون يعيشون على طريقة الحياة ، ما قبل انهيار هيكل سليمان .

اصبح اليهود السفارديم ، « السود » ، متوسلين باثسين منذ اول خطوة خطوها على ارض فلسطين . اتى السفارديم من اقطار شبه اقطاعية ، متخلفة، مستعمرات قديمة، حاملين جميع السمات الطبيعية للتأخر الرهيب لبلدهم الاصل . كانت اغليبتهم امية ، ونسبة المواليد مرتفعة في صفوفهم ، دون تدريب مهني ، معتادين على الجهد الجسدي ، والامراض

* كان عدد اليهود محدداً في المدن الاوروبية ، ولكن خارج حدود معينة ، لم يعد هذا العدد محدوداً . (ملاحظة من المترجم الفرنسي) .

* يفوق عدد اليهود القادمين من شمال افريقيا ، هذا الرقم بكثير . . ان يكاد يصل الى حوالي ٣٠٠٠٠ مهاجر .

المزمنة والحكم الاستبدادي . مما أدى الى انعدام اكد في المبادرة وفي القدرة على توجيه حياتهم الجديدة .

كانت هذه الموجة من المهاجرين تجربة كبيرة لدولة اسرائيل وللصهاينة الاشتراكيين في الحكم . سجل هذا الامتحان التاريخي فشلهم المريع ووضح الدلالات الخطيرة الاولى لتقصيرهم في المجالين الاجتماعي والسياسي .

حشرت العائلات الكبيرة السفاردي في مساكن مؤقتة - أصبحت دائمة فيما بعد - ضمن مخيمات انشئت بسرعة : « المعبروت » ، التي تشكل حتى اليوم ، احياء البؤس الصارخ ومناجم الاوبئة ، وجزر المخدرات والجريمة والبيغاء . كبرت العائلة . نرى اليوم في غرف صغيرة كانت تؤوي شخصين في الماضي ، ثلاثة اضعاف هذا العدد . يطوف ٢٥٠٠٠ مراهق ، عاطلين عن العمل ، منقطعين عن الدراسة ، الاحياء الغنية التي يسكنها الاشكنازيم ، مكرنين عصابات من الزعران وقطاع الطرق و « تزين » حيطان المدن الاسرائيلية ٣٠٠٠٠ صببية تنحدر من نفس هذه الاحياء : مومسات عديمات الجاذبية بوجههن المظلمة بالساحيق . لو القيتن نظرة الى السجون المكتظة التي ورثناها من البريطانيين ، لادركتم ان اكثرية اليهود الذين يتأملون العالم عبر القضبان الحديدية ، هم هؤلاء السفارديم انفسهم .

ان الحكومة الاسرائيلية التي حكمت على هذه الفئة من اليهود بالفقر والحياة البائسة ، بلا ترو ولا رحمة ، هي نفسها التي رفضت بشكل قاطع آنذاك ، باسم « مبادئها الاشتراكية » قبول استثمارات مهمة قدمها رجال اعمال يهود في العالم اجمع : كان لا بد ان تساهم هذه الرساميل في التطور الاقتصادي السريع وفي استحداث عدد واف من الوظائف ، كما تساعد في التدريب المهني للاخوان اليهود الاقل بياضا . حشروا اليهود الافروز - آسيويين في غيتوات جديدة ، حكموا عليهم بالبطالة التامة التي تفقد العزيمة ، وفسدوهم نهائيا ببهات هزيلة ومهينة ادت الى اذلالهم وجعلت منهم متسولين ، في ادنى مستوى السلم الاجتماعي .

ترسل اسرة الاشكنازيم اولادها الى افضل المدارس والجامعات دون ان تخشى النفقات

الكبيرة ، فهي تنعم ببحبوحة مادية ولها عدد قليل من الاطفال ، هكذا يأتي الاطباء والمحامون والمهندسون والمربون من هذه العائلات ، يرث الاولاد المتاجر والمصانع والوظائف « الجاهزة » ذات الاجور المرتفعة في المؤسسات الحكومية ، ويرث اولاد العائلات الاقل ازدهارا استعدادا للنشاط .

اما الجيل الجديد في عائلات السفارديم ، فهو يترعع في شروط مختلفة تماما ويحصل على ارب من نوع آخر ، فالاولاد في سن الدراسة يكفون عن التوجه الى المدرسة بعد ان قضوا فيها وقتا قصيرا مفضلين عليها الشارع بما فيه من اغراءات متعددة ومرببة ، يشجعهم على ذلك ، مواقف عائلاتهم الامية ، المتخلفة اللامبالية - دون الإشارة الى عدم اكرات المجتمع - فلا يصل الى الجامعات الا عدد قليل من هؤلاء الاولاد ونخبة نادرة تشق طريقها في طبقات المجتمع العليا التي تستقبل « الملونين » بكراهية .

فلنتذكر الانتخابات الفاضحة التي جرت عام ١٩٧٢ . ان مهمات رئيس الجمهورية في اسرائيل هي شرفية فقط ، تلعب هذه الشخصية دورا « تزيينيا » وليس لها اي تأثير

على حياة الدولة . بل ان تأثيرها هو دون تأثير الملكة في انكلترا . وحتى هذه الرئاسة الشكلية لم تترك للسفارديم . حكمت البلاد ومازالت تحكمها حتى اليوم طائفنة الاشكنازيم ، مستخدمين اصوات الاكثرية السفاردية المتزايدة ، في الانتخابات بالطرق الشرعية ، وشبه الشرعية . رغم أن التخلي عن عرش الرئاسة الشرقي هذا للسفارديم كان أمرا سهلا للغاية ، ولو من أجل تهدئة الانفجالات . بدأ ذلك ممكنا لأول وهلة . قدم اليمين مرشحين : « الابيض » افراييم كاتزير ، و« الاسود » اسحق نافون . ايد السفارديم المتملقون مرشحهم باقامة تظاهرات عديدة وفرحوا لانتخابه قبل الاوان . كما ان عددا كبيرا من الاشكنازيم قدر ان هذا امر عادل . لكن المنافسة الشديدة ، والكرامية المترسخة لدى النخبة الحاكمة جعلت « الحكماء » الاشتراكيين في السلطة يقرعون ناقوس الخطر . وهكذا ، مرة اخرى ، تم انتخاب رئيس « ابيض » افراييم كاتزير ، وتلقّت الطائفة السفاردية صدمة قوية ، وخجل الاسرائيليون الآخرون .

ان جسم اسرائيل الهش منقسم الى قسمين متفاوتين متواجهين عبر خندق عفن ومرعب . ويزداد هذا الخندق عمقا يوما بعد يوم .

لاقت حركة « الفهود السود » وهي على غرار حركة السود الاميركيين ، تأييدا حارا في صفوف الشباب السفارديم . وادت الى وقوع تظاهرات بعيدة كل البعد عن العمل البناء ، بل ذكرت بفضائح الزعران وافرزت حقدا عميقا وغير منطقي تجاه « الاخوة » الاشكنازيم .

اذكر ، ان ثلاثة شبان سمر ، اتوا لزيارتنا في « اوليان » (معهد لتعليم اللغة العبرية) من قرية ميساقيريت صهيون ، قرب القدس حيث كنا نسكن ، عند وصولنا من روسيا . قالوا أنهم جاءوا من قبل « الفهود السود » ، واقترحوا تنظيم سهرة مع المهاجرين في النادي . كنا جميعا مهاجرين اشكنازيم : يهود روس ، اميركيون وأوروبيون ، واتجهنا تلك الليلة الى النادي باهتمام كبير . فرحين سلفا ، بهذا اللقاء مع اسرائيليين قدامى . وقد اصبحنا اخيرا وبكل اجلال من مواطنيهم .

كانت هذه السهرة اول مناسبة لي ولعظم اصدقائي الروس الذين وطأوا حديثا « ارض الميعاد » اسرائيل ، كي نرى الصراعات الداخلية المقرفة . اعلن لنا الشبان الثلاثة من « الفهود السود » أنهم سيقتلون جميع اطفالنا اذا أقمنا في الشقق التي عرضتها علينا الوكالة اليهودية مقابل اموالنا ، ومن أجل إعادة الامور الى نصابها ، يجب ان نتخلى عنها للسفارديم . لو لم احضر شخصيا هذا « النقاش » في نادي « اوليان » (معهد) ميساقيريت صهيون ، لما كنت صدقت روايته من اقرب صديق الي . تركنا « الفهود السود » مع افكارنا المعتمة ، بعد تهديدات كثيرة .

حدث آخر كنت شاهدا عليه ، يمكنه ان يتم هذا الوصف . خلال حرب « يوم الغفران » ، كان السفارديم يؤلفون ثلاثة ارباع سريقتنا في الجيش . وكنا حوالي عشرة مهاجرين من الاتحاد السوفياتي ، انهى معظمنا دراسته العليا . نادانا قائد السرية يوما ، واعلمنا ان هناك « مغربيا » ، اي يهودي من المغرب ، « محشوا » بالخدرات ويشكل بالتالي خطرا اكيدا على من حوله . وكان يحمل سكيننا يجب توقيفه بعد انتزاع سلاحه .

لم نتساءل عندهما لماذا اختار القائد الجنود « الروس » لتنفيذ هذه « المهمة » ، علما ان السفارديم يشكلون معظم السرية ، في الواقع ، وبكل بساطة ، لن ينفذ السفارديم اوامر ضابط اشكنازي موجهة ضد احد رفاقهم من السفارديم ، حتى لو كان مجرما

يستحق حكما قاسيا تبعا للقانون العرفي . قام ثلاثة منا بتنفيذ الاوامر ، فانتزعنا سلاح المخدر واستعملنا ، بالطبع ، بعض القوة للتغلب على مقاومته . عندئذ طوقنا عدد من « المغاربة » . وقف اليهود « البيض » الى جانبنا . فانقسمت السرية الى قسمين غير متساويين في العدد . وكادت تنشب معركة دامية .

لقد رمانا قائدنا في صميم الصراع العنصري الموجود بين اليهود والذي لم يهدأ حتى تحت خطر الموت المشترك الذي كان يواجهه الجميع خلال حرب « يوم الغفران » .

يتخذ الصراع العنصري اشكالا متعددة . هذه مثلا، احد بلاغات الصحف الاسرائيلية :

« جرى منذ فترة قريبة ، اعتداء على زعيمين لحركة « اليهود السود » ، جاكوب ابرجيا وسعدى مارسينانو وهما يتجولان في القدس في شارع شفتو اسرائيل . ظهر مجهول فجأة واطلق عليهما النار مرارا قبل ان يختفي في الزحام » .

هناك امر اخر من الصعب تصديقه ، لكن الاحصاءات تؤكد : ان الزيجات « المختلطة » بين يهود الطائفتين نادرة جدا في اسرائيل وتشكل فقط ١٢٪ من مجموع الزيجات . بينما تصل في المقابل نسبة الزيجات بين اليهود والمسيحيين في الولايات المتحدة الاميركية الى ٤٠٪ .

انتهي أخيرا عرض هذه المشكلة العجيبة بعرض قضية « الفلاحين » وهم من اليهود السود ، أصلهم من الحبشة . كانوا حتى فترة قريبة جدا ، مثل باقي سكان افريقيا الاستوائية ، يرتدون المنزر عوضا عن الملابس ويعيشون قبائل منغلقة على نفسها . لا يفرق بينهم وبين جيرانهم السود الا يهودية عنيفة تدفعهم الى انهاء كل صلاة في صلواتهم ، مثلهم مثل جميع يهود العالم ، بالجملة التقليدية : « الى اللقاء في اسرائيل » . تحققت اليوم امنيتهم ووقعوا في قدر تغلي فيه البغضاء العنصرية . ولون بشرتهم السوداء وشكلهم الزنجي يصب زيتا على النار . أثارت اول مجموعة من اليهود السود التي وصلت من الولايات المتحدة وهي تنتسب الى ملة دينية يهودية ولكنها غير معتبرة يهودية ، سخطا عاما .

اقام « الاخوة السود » جنوبي البلاد ، في ديمونا ، بوصفهم يهودا مهاجرين وأعلنوا أنهم هم اليهود الحقيقيون بينما باقي السكان هم خلفاء مزيفون لابراهيم ، وأنهم سيباشرون باعادة تشكيل دولة اسرائيل حسب رأيهم ، وأنذروا ايضا أن سود اميركا سمعوا « صوتا من السماء » يمنحهم هذه الارض المروية بالحليب والعسل وأنهسّم يتجهزون للمجيء للاستيطان فيها .

نتخيل الاثر الرهيب الذي تركه هذا الاعلان اذا قرأنا الرسائل الجماعية المبعوثة لصحيفة « تريبون » تحت العنوان المعبر هذا : « من زرع الرياح » ، والتي وقعها كل من ل . فريدمان ، س . فينسيل ، ن . فريدمان ، ت . فيشر وكثيرون غيرهم : « لقد جئنا من دولة يؤكدون لنا فيها عدم وجود الشعب اليهودي ، استنادا الى الماركسيية - اللينينية الكلاسيكية . هل كان حقا من الضروري أن نتغلب على جميع العقبات لنتحقق بوطننا حتى نسمع من يقول لنا نفس الكلام بواسطة « نبي - يهودي » اسود » . نحن امام واقع هجرة ضخمة قريبة ، بما ان قائدهم بن عامي كارتر ، انذرنا ان اكثرية السود في الولايات المتحدة الاميركية هي من اليهود . لقد فتحنا المجال اليوم لمئات العائلات السود ، ولكن بماذا نذرنا غدا لمنع عشرة أو خمسة عشر مليون اسود من دخول بلادنا؟ لماذا يقلق وزيرنا ، بنحاس سابير ، اذا وصل عدد العرب الى ٤٥ مقابل ٥٥ يهودي بعد ٢٥ سنة ،

ويغفل الواقع الذي سنواجهه غدا حيث سيكون لدينا مقابل كل مليون يهودي ، ستة او سبعة ملايين من «خلفاء يهودا» أو بتعبير أبسط ، من العبيد ؟ وستتمكن غولدا مائير أن تقول لنفسها كل صباح : ولد هذه الليلة طفل يهودي والى طفل أسود .

«ترك اليوم ديمونا خمسون أسرة من المهاجرين الفرنسيين . وغدا لن تأتي الى هنا اية أسرة من «العالية الغربية» عندما تعلم من هو «الجار الحبيب» الذي ينتظرها ...»

«سيتدفق قريبا الى اسرائيل ، وراء العبيد «اليهود» و«فلاحي» الحبشة الذين وضعوا بسرعة على لائحة «الاهل الاقربين» ، قبائل افريقية وأسكويين «ليفيين وهيبين «كوغان» .

« نتخيل بسهولة مشهد أسرة من أكلة لحوم البشر شبه عارية ، وهي في اللد ، تكتب طلبات الهجرة . على اعتبار أن الاب افترس يهوديا في الاسبوع الفائت ، فبالتالي هناك دم يهودي يجري في شرايينه» .

وتصف صحيفة «تريبون» العلامات التي تبشر بالصراع العنصري في مقال عنوانه «متفجرة ديمونا» : «يستقبل «آباء المدينة» جميع الذين يأتون الى ديمونا لسبب او لآخر ، فيحدثونهم عن العبيد «اليهود» مؤكداً على النقطة التالية : «هذه مادة متفجرة ستنفجر عاجلا أو آجلا» . ويخلص رئيس بلدية ديمونا اسحق بريتز ومعاونيه اسرائيل نافون الى القول : «مشكلتنا الاساسية هي تقدم المدينة والمشاكل الاجتماعية» .

«تلقت رئيسة الوزراء ، السيدة غولدا مائير ، دعوة الى ديمونا ولقيت مواطنة شرف للمدينة . وتعتقد هي أيضا ان «هذه هي المشكلة الأكثر حدة ، ويجب العمل على حلها» .

منذ أسابيع قليلة ، كان رئيس بلدية ديمونا برياتي لوبوفيتش في نيويورك . وأول سؤال وجه اليه : «كيف تعيشون هناك على هذا البرميل من البارود» . تعتبر أجهزة الامن ان «العبيد اليهود» يمثلون تهديدا خطيرا للسلام . فمراسلاتهم مع الصين الشعبية والنشرات السياسية والاعانات المالية التي يتسلمونها من الخارج تقلق أجهزة الامن . يقول دان انفاري ، رئيس الشرطة المحلية أنه يمكن ، في حالات الطوارئ القصوى ، تعبئة ٢٠ الى ٣٠ شرطيا الى جانب معظم أفراد السكان الذكور لمجابهة مجموعة من ٢٥٠ «يهوديا أسود» ، لان لا احد يعلم مايدور في اذهانهم . يأتي الكثيرون من سكان مدينة ديمونا الى رئيس البلدية ، يقدمون الشكاوى ، يهددون ، يطرحون الحلول ، ويطالبون بالحاح بالتخلص من هذا «الاجتياح» . حتى أن بعضهم ترك المدينة . في الاسبوع الماضي، قتل «اليهود السود» أحد «اخوانهم» في ديمونا ، كانوا يلاحقونه في وسط المدينة والعصي في أيديهم . قال أحد السكان لرئيس البلدية أنه وزوجته مصابان بمرض في الاعصاب لانهما مجبران على العيش في حالة ضغط وخوف دائمين .

في الاسبوع الماضي أيضا ، اعيدت اسرتان مؤلفتان من تسعة اشخاص الى اميركا . ويقال هنا بصوت خافت أنها بداية ابعاد العبيد . يتمتع رئيس طائفة «العبيد اليهود» ، بن عامي كارتر ، بسلطة واسعة على اتباعه . كان ينظم مؤتمرات صحفية أمام المراسلين الاجانب ، يعلن فيها ان اسرائيل دولة عنصرية تفرق بين اليهود البيض واليهود السود . ومنذ فترة ليست ببعيدة ، دعا عددا كبيرا نسبيا من الاشخاص لمقابلته . واثناء المقابلة التي أجريت في شقة أحد «اليهود السود» ، حاول تحديد موقفه . كان قد خلع ثيابه العادية وليس ثياب العيد : منزر ومنديل أسود وقلنسوة خضراء صوفية : «نحن يهود سود» . نؤمن بالخير وقلبنا مليء بالمحبة تجاه كل انسان . ان معظم السود في

الولايات المتحدة هم من اليهود . جئنا الى هنا ، لم نتبع الا قلوبنا ، لبناء مملكة العدالة . هذا البلد هو وطننا ويجب ان تسوده العدالة . نحن نعيش تحت نير العبودية في الولايات المتحدة الاميركية منذ اكثر من ٤٠٠ عام ، اخذوا اجدادنا بالقوة من على شطآن افريقيا الذهبية ، ومنذ ذلك الحين ومستعبدونا يعملون على دفعنا الى نسيان ثقافتنا . لكن ماضينا ينتقل من جد الى أب ؛ ومن أب الى ابن ، ومن فم الى آذن ، وكنا نعلم أننا يهود . نحن هنا لنكنس سوريا جميع الاقدار . رجعنا الى وطننا لنشرح للبشر كيف يجب أن يعيش المرء .

«هذا البلد ليس بلدا كسائر البلدان . فهو أرض مقدسة . منحنا الله هذه الارض وعليكم أن تفهموا ذلك . كثيرون هنا لا يؤمنون بالله . يلوث نهر الاردن المقدس . سوف نتخلص من جميع المناطق الصناعية . جئت الى هنا كي افتتح لكم عهدا جديدا ، كي ارشدكم الى طريق جديد . نحن لسنا فقط يهودا ، نحن يهود اسرائيليون * . ليس اليهود الا خلفاء يهوذا الاسخريوطي . اليهود ليسوا شعبا . الله فقط في الحسابان وابراهيم واسحق واسرائيل .»

لا أحد يعتبر اليوم ، أن عبيد ديمونا يهود . حين وصلوا ، بعث لهم جوزف جيفا - مدير عام وزارة الاستيعاب في ذلك الوقت - الحاخام دارايي ليقوم هذا الاخير بمراسيم «الجيبور» (التهود) . رفضوا رفضا باتا . وازضافة الى ذلك ، صرحوا بأن على جوزف جيفا الخضوع لمراسيم التهود ، عندما جاء هذا الاخير شخصيا ليقابلهم ويعلمهم أنهم لن يستفيدوا من الحقوق الخاصة بالمهاجرين ولن يتمكنوا من ايجاد عمل اذا مارفضوا التهود . قالوا أنهم مواطنو الارض المقدسة الشرعيون ، وانهم هم الذين سيجعلون خلفاء يهوذا الاسخريوطي يعتنقون الدين . و«اليهود السود» يسخرون من أهالي ديمونا الذين يحترمون التقاليد . يروي بعض الشهود انه لا يوجد أسرة عندهم ، بل أن الرجال والنساء يبذلون شركاءهم في كل وقت واذا ولد طفل ، لا يعلم أحد من هو والده .

ينتظر الناس «تحرير ديمونا من العبيد» . كان جواب اسرائيل نافون ، معاون رئيس البلدية ، على ذلك ، مثلاً مغربيا يقول : «تذهب روح المفقيد الى جهنم اذا عرج حفار القبور وحمل النعش اعمى» .

هناك خندق اخر يقسم المجتمع الاسرائيلي انقساماً عميقاً ويسبب تصدعات جديدة في هذا الوعاء الذي أعيد ترميمه بسرعة ، والذي يدعى بالدولة اليهودية ، ليس مسألة لون البشرة ولا المشكلة العنصرية ، علماً أن هاتين المشكلتين تكفيان لانهيار الولد المشوه الذي انجبه آباء الصهيونية . أتكلم هنا عن العداة والمجابهة بين الاقلية المتدينة والاكثورية الملحدة ، وعن معارضتهما العنيفة التي تحدث ازمانات حكومية طويلة وصدمات نفسية مستعصية أحيانا ، لافراد آمنوا بصدق باسرائيل ، وارانوا أن يصبحوا مواطنين في هذا البلد .

تملك الاقليات المتدينة ، رغم عددها المحدود ، سلطة هائلة على الجزء الاكبر من الهبات المالية الخارجية . لذلك يتساهل معها حكام اسرائيل الاشتراكيون الملحدون ، مما يزيد من توتر الجو في البلاد ويجعله أكثر استعدادا للانفجار .

* نسبة الى الملة الدينية التي ينتسب اليها بن عامي كارتر واتباعه .

ان المواطن الاسرائيلي ، مهما كان موقفه من الدين، محروم من وسائل النقل العام يوم السبت ، وهو يوم الفرصة الوحيد . فعلى الذين لا يملكون سياراتهم الخاصة ، احترام التوقية الدينية وامضاء هذا اليوم في منازلهم رغم ارادتهم .

لايستطيع الملحد أن يتزوج زواجا مدنيا ، عليه ان يحصل مكرها على بركة الحاخام . كذلك لايمكن ان يوارى الثرى دون تدخل رجل الدين .

تتساهل الحكومة مع المتدينين وتمنحهم امتيازات الى حد التسامح بوجود ملة دينية متعصبة : الـ «نيتورايي كارتا» في حي «ميثاه شعاريم» القديم في القدس . وهذه الطائفة ترفض علنا الاعتراف بالحكومة وترفض بالتالي الخضوع للقانون . لايدفع هؤلاء اليهود الارثوذكسيون الضرائب ، ولايؤدون الخدمة العسكرية ، ويرتكبون من حيسن الى اخر فضائح تخل بالنظام ، والقوانين المدنية الاولية .

فالمتعصبون اجمالا ، وليس فقط هذه الطائفة بالذات ، يفتنمون فرصة حصانتهم للقيام باعمال جريئة اكثر فاكثر . كل شيء محلل لهم ، حتى اللصوصية الفاضحة . نحن نعلم ان المتدينين هم ضد الخلاعة . واكثرية الملحدن أيضا ليست متحمسة لهذه الموجة من القذارة التي تملأ واجهات متاجر الجنس ، فتستتكر هذه الظاهرة وتكافحها كظاهرة من ظواهر جنون هذا العصر . انما للنضال ايضا قواعد وقوانين . لكن تلميذين من مؤسسة دينية ذهبوا ليلا الى متجر «ايروس» بصفائح البنزين ، أشعلا فيه النار . كاد الحريق أن يدمر أحياء كاملة من تل ابيب لولا وفاء رجال اطفاء ملحدين تمكنوا من انقضاء بيوت يسكنها مئات البشر .

وقع التلميذان في ايدي الشرطة ، واحتجزا في السجن كما يستحقان . لكن القضية لم تكن بهذه البساطة! فقد علا صوت الابهاء الروحيين للدفاع عنهما بسدلا من شجب تصرفات اتباعهم الشريرة . وخافت السلطة . كنا عشية عيد ديني ، اذ أقدم رئيس البلاد، زلمان شازار على عمل لم يسبقه احد اليه ، فمن أجل تهدئة غيظ الابهاء الروحيين ، قام بتمضية العيد مع السجينين .

يمتد النقاش المستمر حول مسألة «من هو يهودي» منذ سنوات ، مثيرا ذهول من بقي لديه عقل سليم . وكاننا أمام مرض مزمن ، «قضية «من هو يهودي» سببت لنا مجموعة ازيمات حكومية يضاهاى عددها جميع الازيمات التي أحدثتها مشاكلنا الاخرى » .

«لم يحظ الجميع بأى يهودية ، ولذلك لا «يقترب» الجميع من المعبد اليهودي من ناحية الشرعية ، والغضب لايقيد ، على العكس ، فهو يزيد من حدة الصراع بين الفريقين ، هذا الصراع الذي كان يخشاه بن غوريون اكثر من خوفه من العرب والروس والانهيال الاقتصادي معا » .

يكتب ٠٩ كلاينر ، المهاجر من الاتحاد السوفياتي ، في جريدة «نوتر بيبي » : «يرسخون في ذهني منذ الصغر أنه يوجد يهود حيث يوجد عمل ثقافي . ظننت حتى وصولي الى اسرائيل ، ان الشعب اليهودي هو الشعب الاقل رجعية في العالم ، وانه دائما على حافة

التقدم ، ينمي قيمه الروحية والثقافية ونظامه الاجتماعي ، ويؤثر تأثيرا عميقا على الانسانية جمعاء» .

«عندما كنت أحلم بحياتي في اسرائيل ، كنت أقول لنفسي : «هناك سأتمكن من رؤية

مركز احتشاد المفكرين اليهود وأكبر تجمع لحكمتهم النشيطة لوحدة اليهود العاملين على انشاء دولة يهودية جبارة ، شعلة أمل تدافع عن يهود العالم أجمع .»

«عندما كتبت الصحف السوفياتية أن إسرائيل اعتمدت القانون العنصري «من هو يهودي» ، ظننت مثل معظم اليهود السوفيات أن هذا الخبر هو ضمن حملة الاقتراعات الموجهة ضد إسرائيل . واتضح لي عندما أتيت ، أن هذا القانون موجود حقاً . ماذا تفعلون ؟ ألا تعلمون أن الطوائف اليهودية الكبرى في العالم ، في الولايات المتحدة وفي الاتحاد السوفياتي ، فيها مئات الآلاف من العائلات المختلطة التي تحكمون عليها بالاستيعاب ؟ أليس من واجبنا أن نتخذ هذه العائلات من الاستيعاب ونعيدها إلى الشعب اليهودي ؟» .

أما مقال ج - تزيليكوف ، تحت عنوان «ماشاء الله» ، فهو مليء بالدعاية السوداء ، يقول : «إذا رجع المخلص فجأة اليوم . وإذا تحققت أعجوبة أحياء الموتى ، فجزء كبير من الذين هلكوا في معسكرات الاعتقال وفي اللغيتوات اليهودية ، سيكونون قد أحيوا بشكل يخالف القانون ، إذ لا تحق لهم أوراق الهجرة الاسرائيلية . ويرافق رجوعهم إلى العالم الحي معاناة جديدة : فلا يجوز قبرهم في مقبرة يهودية ، ولا قراءة صلاة الميت على الجثة . أما حول وجوب الغاء القدايس التذكارية التي أقيمت على نفوسهم ، فلا بد أن يستغرق درس هذه القضية وقتاً طويلاً لدى رابانية إسرائيل الرئيسية.»

يشعر الكثير من الاولاد المولودين من أم روسية وأب يهودي ، أن إسرائيل هي وطنهم . تصل المرأة إلى إسرائيل فخورة باطفالها . ولكنها تكتشف أنهم لايعتبرون يهوداً .

الحيلة وحدها تنقذ الوضع . فيجب ألا تبوح هذه النساء بالحقيقة . تبدأ إذا بالاكاذيب ، فنقول ، لقد قمت بتطيل الدين اليهودي ، واستنتجت أنه أفضل دين في العالم ، لذلك أتيد ديني الذي لا وجود له! وأريد أن أستبدله - أستبدل ماذا؟ - بأفضل دين موجود . هذه المقايضة مربحة من الناحية التجارية الصرفة .

لا يوجد حل آخر . إذ تنص الشريعة على أن اليهودي هو الذي ينحدر من أم يهودية ، ولا علاقة للاب بالموضوع .

لنرجع بشكل عابر إلى التاريخ . من أين تأتي هذه الحقيقة ؟ تعلمنا التوراة ان المحتد يرجع إلى سلالة الاب في الوظائف الدينية ، وفي الارث . والمخلص يجب أن ينحدر من آل (بيت) داوود ، أي من سلالة الاب وليس من سلالة الام . ولكن عندما هاجمنا الرومان منذ ألفي سنة ، اتضح للحكماء أن النساء أخذت تعاشر الجنود الرومان وتحمل منهم عن طريق الاغتصاب ، أو بملء ارادتهن ، لا أهمية للامر هنا ، فخافوا ان يتبرأ شعبنا ، نتيجة قانون التوراة . وحفاظاً عليه، تبنا هذا التحكيم الذي يبرهن عن قداستهم : أقروا أن الطفل الذي يلد من أم يهودية هو يهودي . لكنهم لم يقولوا أبداً أن الطفل الذي ولد من أب يهودي ليس يهودياً .

هناك شرط آخر يسمح للأحزاب الدينية بالتدخل في التشكيلات الحكومية ، وهو اعفاء تلاميذ المدارس الدينية والفتيات المتديفات من الخدمة العسكرية . مرة أخرى يبادرنا السؤال ، ماذا سيحدث لو جاء المخلص ، وأخذ جميع الرجال يدرسون التوراة وأردت فتياتنا جميعاً الفساتين الطويلة . من يدافع عن دولتنا ضد أعدائها حينئذ ؟ فشيبيتنا اليوم - طلاباً وعمالاً - هي التي تحفظ أمن وهدوء طلاب المدارس الدينية ، وتحرص

الفتيات اللواتي يلبسن التنانير القصيرة ، رفيقاتهن المتدينات • ماذا يحصل حينذاك ؟
كيف تحل احزابنا الدينية هذه المشكلة ؟ ربما تنوي تشكيل جيش من المرتزقة العرب •

لكن ، كانت أيام تصرف فيها رجال الدين بشكل مختلف • كانوا يفعلون كل ما في وسعهم لتسهيل حياة الشعب ، فأتت تأويلاتهم وتفسيراتهم متماشية مع التطور العام • لم يخافوا من تلطيف قانون التوراة : هانحن ننعيم بالاضاءة مساء يوم السبت ولا نطبق حرفياً «عين بعين و سن بسن» • أريد الا تفسر ملاحظاتي كأنها حملة على الدين • اريد أن أدافع عن كل شيء مقدس لدينا • اريد أن نتقطع عن خداع الله ، الذي هو الهي أنا ايضا • ولا اريد أن يستعمل الهي في مباريات سياسية ولا أن يصبح اله حزب واحد • سلطان الدين في بلد أكثرية سكانه الساحقة من المحدثين يشوه الجو ويحطم حياة الكثيرين ويؤدي الى عواقب مأساوية • كتب ن• غوتلين في جريدة «ترييون» بعد أن سرد قصة حب حزينة بين شابة اسرائيلية وشاب سويسري مسيحي • اراد أعتناق الدين اليهودي والحصول على المواطنة الاسرائيلية محبة بخطيبته ، دفعه رجال الدين الى الانتحار ، وأنهى مقاله بهذا الاكتشاف غير المشجع : «أنا نعين في بلد تستطيع قوانينه أن تفقد أي رجل متحضر عقله • فالرجل الطبيعي لا يمكنه أن يفهم منطق تصرفات موظفينا • كما أن بنية المؤسسات والدوائر عندنا ، هي تحد للمنطق البسيط الاولي • وهذا يعني أننا نحن الذين خلقنا هذا الوضع وتحملناه ، لسنا طبيعيين ولا متمدينين» •

الكس بي• ينهي رسالة موجهة الى جريدة «نوتر بيبي» (بلدنا) ، بالكلمات التالية : «اسمح لنفسي أن أطرح سؤالاً على الحكام الاسرائيليين : أيها السادة الحكام ، ماذا تتركون لليهود بعد رحيلكم ؟ كل ماتبقى لهم من أجدادهم ؟ لغة التوراة والاهانات ؟ لا يكفي ان يكون لدينا جيش جبار وشرطة ، وزعران ومومسات ، يجب ان تكون أفكارنا واضحة • فالدول الحديثة المزدهرة ، لن تساهم في تقوية دولة كدولة اسرائيل لاتزال تعيش في العصور الوسطى ، بل سيفعلون كل ما في إمكانهم لتبقى «معسكر اعتقال» ، دولة أثرية ، تصلح للسياحة» •

الوعاء الذي حوله أبائنا الصهاينة الى أمة واحدة انطلاقاً من عشرات المجموعات الاثنية اليهودية ، يغلي ويفور • يتكاثر البخار تحت الغطاء المحكم الاغلاق ، ويتزايد الضغط • فيهدد الجدران الهشة ، المؤلفة من قطع وعاء كسرتة الافواج الرومانية قبل انفسى سنة •

ترجمته عن الفرنسية : جاكليين فرهود

عملية المطالبة بالبوليس الدولي المراحل والمواقف

د. محمد المحجوب

عادت نغمة البوليس الدولي من جديد الى الظهور . وهي ، كنفعة الكانتونات السويسرية ، وموال اللامركزية الادارية والسياسية ، ومعزوفة تدويل الازمة اللبنانية ، من تلحين اليمين اللبناني وتوزيعه . ففي جعبة اليمين مشروعات ومقترحات يتحين الفرص لطرحها ، اعتقادا منه انها قادرة على الهاء الشعب ، وصرف المسؤولين عن مهمة اعادة البناء والتعمير ، والحفاظ على امتيازاته التي كانت السبب في الدمار الذي اصاب البلاد والعباد .

وفكرة البوليس الدولي ترتبط بوجود هيئة الامم المتحدة التي قامت ، كما نص ميثاقها ، لانقاذ الاجيال المقبلة من ويلات الحروب ، وحماية الحقوق الاساسية للانسان ، والمحافظة على السلام والامن الدوليين ، وحل المنازعات الدولية بالوسائل السلمية . وقد خول الميثاق الاممي مجلس الامن (كما خول قرار الاتحاد من اجل السلام الجمعية العامة ، فيما بعد) حق ارسال قوات دولية الى بعض الدول او المناطق المعرضة لخطر العدوان او الانفجار .

والقوات الدولية يمكن ، بصورة عامة ، ان تقوم بنوعين من المهام :

- مهمة الردع أو القمع ، أو مهمة فرض السلام بالقوة .

- ومهمة الحفاظ على السلام ، بالتمركز على الحدود الفاصلة بين الدول المتنازعة .

فمن حق الامم المتحدة ان تتخذ ، في بعض الحالات ، اجراءات عسكرية ضد

دولة أو دول وإرسال قوات دولية إليها لفرض السلام باسم المنظمة العالمية . ولم تُجأ هذه المنظمة الى تدبير من هذا النوع الا مرة واحدة منذ انشائها . وكان ذلك في العام ١٩٥٠ ، وضد كوريا الشمالية التي اتهمت بالاعتداء على كوريا الجنوبية ، وفي غياب المندوب السوفياتي عن اجتماعات مجلس الامن احتجاجا على عدم قبول الوفد الممثل للصين الشعبية . وإرسال هذه القوات الى الدولة المذنبة أو المعاقبة ، أو سحبها منها فيما بعد ، لا يحتاج الى موافقة تلك الدولة .

والمطالبون بالقوات الدولية للبنان لا يقصدون هذا النوع من القوات . انهم يقصدون بها القوات التي تقوم بمهمة حفظ السلام على الحدود وتقف حاجزا عازلا بين لبنان والكيان الاسرائيلي . وفي هذه الحالة يطلق على القوات الدولية اسم المبوليس الدولي ، أو الشرطة الدولية ، أو قسوة الطوارئ الدولية . واصطلاح المبوليس الدولي هو الشائع والمتداول .

والمرّة الاولى التي تعرف العالم المعاصر فيها الى قوة الطوارئ الدولية كانت في خريف العام ١٩٥٦ ، اي بعد فشل العدوان الثلاثي على مصر وقبول حكومة القاهرة بتمركز هذه القوات على حدودها المتاخمة للكيان الاسرائيلي . والسيد ليستر بيرسون L. Pearson وزير خارجية كندا السابق ، هو صاحب الفكرة . ومع ان قرار الجمعية العامة ، الصادر في ١١-٧-١٩٥٦ ، قد نص على وضع قوة الطوارئ على جانبي خط الهدنة ، فإن اسرائيل رفضت استقبالها على حدودها (١) .

وقوة الطوارئ ، بعكس القوات الدولية لفرض السلام ، يمكن ان ترسل الى الحدود المشتركة لدولتين بطلب منهما أو برضاها . ويمكن ان ترسل الى حدود الدولتين لتتمركز على جانب واحد من الحدود . وفي هذه الحالة تحتاج الى موافقة الدولة التي ستنزل في ارضها . وفي الحالتين يبقى وجود هذه القوة في اراضي الدولة أو الدولتين مرهونا باستمرار الموافقة السابقة .

ونحن في لبنان لم نحظ بعد بمعرفة اصحاب « الخوذ الزرقاء » أو « القبعات الزرق » (وهي التسمية التي تطلق على جنود قوة الطوارئ) . لقد أتيج لنا ان نتعرف فقط الى المراقبين الدوليين الذين يقيمون على حدودنا الجنوبية ، باعداد قليلة ، منذ العام ١٩٤٩ . ففي ٢٣ آذار (مارس) من هذا العام ، وقعت اتفاقية الهدنة بين لبنان واسرائيل ونصت في مادتها السابعة على ان « تكون للجنة الهدنة المشتركة سلطة استخدام المراقبين من بين المنظمات العسكرية التابعة للفريقين ، أو من بين عسكريي هيئة مراقبة الهدنة التابعة للامم المتحدة ، أو من كلتا الجهتين ، بالعدد الذي يعتبر ضروريا للقيام بمهمتها . وفي حال استخدام مراقبي الامم المتحدة لهذه الغاية فانهم يظلون تحت قيادة رئيس اركان هيئة مراقبة الهدنة التابعة للامم المتحدة » .

وتم اختيار المراقبين آنذاك من العسكريين التابعين للهيئة الدولية لمراقبة الهدنة • ومارسوا مهمتهم على جانبي الحدود الدولية الفاصلة بين لبنان وفلسطين حتى بداية آب (اغسطس) ١٩٦٧ • فابتداء من هذا التاريخ وحتى اليوم ، لم يعد لهم وجود على الجانب الاسرائيلي • وجرت محاولات عدة لاعادة الامور الى ما كانت عليه ، لم تكلل بالنجاح •

والفرق الاساسي بين المراقبين وقوة الطوارئ ان مهمة المراقبين تقتصر على مراقبة الحوادث والاشتباكات ، وما شابه ذلك من الاعمال والتصرفات التي تعتبر خرقا للهدنة ، وابلاغ الامر الى الامين العام للامم المتحدة • اما مهمة قوة الطوارئ فتتجاوز ذلك الى الوقوف بشكل حاجز مسلح على جانبي الحدود ، او على جانب واحد منها ، يحق لافراده ان يطلقوا النار على كل مخترق للحدود بلا اذن •



وكل حديث عن البوليس الدولي في لبنان يقترن (او يجب ان يقترن) باسم العميد ريمون اده ، رئيس حزب الكتلة الوطنية • فهو اول من طرح هذه الفكرة على الرأي العام اللبناني في بداية العام ١٩٦٥ ، فعقد عشرات الندوات والمؤتمرات والمناظرات من اجل الدفاع عنها واقناع المسؤولين بها ، والقى الخطب العديدة والتصريحات التي لا تحصى من اجل اظهار محاسنها واثبات قوائدها للوطن ، ووجه الى الحكومات السؤال تلو السؤال لاحراجها او حثها على اتخاذ موقف ايجابي من هذا الموضوع • لقد اثبت انه ، في الحقيقة ، بطل الفكرة ورائدها الذي لا يعرف الكلل او الملل •

وحتى نقف على مختلف جوانب الفكرة المطروحة ، ونطلع على حجج المناادين بها وردود المناهضين لها ، ونحلل موقف اسرائيل منها ، لا بد لنا ، في البداية ، من استعراض تاريخي للمراحل والتطورات والملابسات التي مرت بها الفكرة في لبنان • وبذلك نقسم بحثنا الى اربعة اقسام :

- المراحل التي قطعتها فكرة المطالبة بالبوليس الدولي •
- حجج المناادين بها •
- حجج المعارضين لها •
- موقف اسرائيل منها •



القسم الاول : مراحل فكرة البوليس الدولي

تأثرت الفكرة ، في كل المراحل التي قطعتها ، بالظروف والاضاع السياسية والعسكرية للبنان والمنطقة العربية ، فكان الاقبال عليها ، او الاحجام عنها ، او اللغظ حولها ، يشهد تارة ويفتر طورا ، تبعا للاحداث والظروف والتطورات التي كانت تتوالى على البلاد . وبامكاننا توزيع هذه المراحل على خمس فترات زمنية :

- مرحلة الانطلاق التي تبدأ مع تبشير العام ١٩٦٥ وتمتد حتى نهاية العام ١٩٦٨ .

- ومرحلة الانتشار والمجدل ، التي تشمل فترة العام ١٩٦٩ كلها .

- ومرحلة التبلور ووضوح المواقف ، التي تستوعب الفترة الممتدة من العام ١٩٧٠ حتى نهاية العام ١٩٧٤ .

- ومرحلة الركود النسبي ، التي دمغت عامي الحرب الاهلية (١٩٧٥ - ١٩٧٦) .

- واخيرا ، مرحلة الانتكاس والتراجع عن الفكرة والتشكيك في فعاليتها ، التي أخذت معالمها تتضح في الاونة الاخيرة .

اولا - مرحلة الانطلاق (١٩٦٥ - ١٩٦٨)

تميزت هذه الفترة بثلاثة احداث مهمة : التفكير في تحويل روافد نهر الاردن ، وقبول الحكومة اللبنانية بقراري وقف اطلاق النار بعد نكسة حزيران (يونيو) ، وحدوث الغارة المشؤومة على مطار بيروت . وتخلل هذه الاحداث جدل كبير حول ضرورة استدعاء البوليس الدولي ، اعقبه انقسام في الرأي العام وتباين في مواقف المسؤولين . ولم يكتف العميد اده بطرح الفكرة والدعوة اليها ، بل وجه اسئلة نيابية الى الحكومة هدد بتحويلها الى استجابات . وعندما بدأ البعض بمهاجمته ، تسليح بالسابقة المصرية وراح يصطاد تصريحات المسؤولين المصريين ويجابه بها المناوئين للفكرة .

١ - في ١٢-١-١٩٦٥ ، بحثت لجنة الشؤون الخارجية في المجلس النيابي موضوع تحويل روافد الاردن ، فتقدم العميد اده ، لأول مرة ، باقتراح استدعاء القوات الدولية لتوفير الحماية لعملية تحويل مجرى الوزاني والحاصباني . و اشار الى ان موافقة الامم المتحدة على ارسال هذه القوات ستعني موافقتها على التحويل .

٢ - وبعد انتهاء حرب حزيران (يونيو) و اعلان وقف اطلاق النار ، تسرعت الحكومة اللبنانية فبعثت الى الامين العام للأمم المتحدة (يوثانت) برسالة ابلغته فيها قرارها بقبول قرار وقف اطلاق النار (رقم ٢٣٣ و ٢٣٤) ، وطلبت منه توزيع قرارها كوثيقة صادرة عن الامم المتحدة . ولبى الامين العام طلبها في ٢٦-٧-١٩٦٧ ، فسارعت اسرائيل ، في اليوم التالي ، واعلنت ، للمرة الاولى ، ان اتفاق الهدنة بينها وبين لبنان اصبح لاجيا . واخذت ، منذ ذلك التاريخ ، تتصرف على هذا الاساس وتمتنع عن حضور اجتماعات اللجنة اللبنانية الاسرائيلية المشتركة للهدنة ، وترفض وجود مراقبين دوليين داخل حدودها .

٣ - في ٢٥-٦-١٩٦٨ ، وبعد قيام اسرائيل بغاراتها على الجنوب ، وخلال جلسة للجنة الشؤون الخارجية النيابية ، كرر العميد اده اقتراحه باستدعاء بوليس دولي لحماية منطقة الحدود الجنوبية (٢) ، فاثار اقتراحه عاصفة من اللغط والجدل على الصعيدين الرسمي والشعبي .

٤ - واعلن معظم السياسيين البارزين (وفي طليعتهم : عبد الله اليافي ، وصائب سلام ، وكمال جنبلاط ، وكامل الاسعد) معارضتهم لاي اتجاه يرمي الى وضع بوليس دولي على الحدود اللبنانية (٣) . وشن بعضهم حملة على العميد اده . واشترط آخرون (بيار الجميل ونسيم مجدلاوي) ، للموافقة على الاستعانة بهذا البوليس « ان يوافق عليه جميع اللبنانيين بمختلف اتجاهاتهم وميولهم وطوائفهم ، وان يحظى بموافقة جامعة الدول العربية » (٤) .

٥ - واستغرب العميد اده الحملة عليه واعتبر ان اقتراحه « ينبع من حرصه على مصلحة لبنان وسلامة حدوده » . واستشهد بما فعلته مصر التي « وافقت على ان ترابط القوات الدولية على حدودها مع اسرائيل طول سنوات للدفاع عن حدودها ولضمان امنها » . وقال : « لو رأيت مصر في وجود القوات الدولية اي انتقاص من سيادتها لما وافقت على ذلك » (٥) . ثم وجه سؤالاً الى الحكومة استوضحها فيه السبب الذي يمنعها من مباشرة بناء خزان ميفدون ، « فاذا كان السبب هو خطر التعدي الاسرائيلي ، فلماذا لم تطلب الحكومة من هيئة الامم المتحدة ارسال البوليس الدولي ، ولماذا لم نحاول اقناعها ان لبنان بحاجة الى استثمار مياه الحاصباتي واننا لا نتمكن من البدء بالعمل الا اذا امنت البوليس الدولي على الحدود لمنع اي اعتداء ؟ » (٦) .

وفي اليوم التالي ، اعلن انه سيحول سؤاله الى استجواب اذا لم تجيب الحكومة ضمن المهلة القانونية ، وانه سيقترح عقد جلسة سرية لمجلس النواب لمناقشة موضوع البوليس الدولي « على مستوى المسؤولية وليس كما يناقش الان على مستوى الدعاية والاستهلاك المحلي بقصد تملق الجماهير » (٧) .

٦ - وكتب الشهيد كمال جنبلاط بهذه المناسبة مقالا بعنوان : **البوليس الدولي أو أحوال الحلف** (أي الحلف الثلاثي الذي كان يضم شمعون والجميل وأده) استنكر فيه هذه «المعزوفة المستهجنة العجيبة» ، ولاحظ ان هذه النغمة «تأتي بعد حادثين صغيرين يقعان على الحدود اللبنانية، وكأن هنالك اتفاقا مسبقا بين الحلفيين وحكام اسرائيل لكي يخرجوا ٠٠ بنغمة البوليس الدولي ٠٠» .
وتصح العميد بأن يعمد الى المطالبة باحداث الخدمة العسكرية الالزامية ، وتسليح قرى الحدود ، وفتح المعسكرات لتدريب اللبنانيين على الوان الدفاع (٨) .

٧ - وانبرى بعض الصحافيين للدفاع عن السابقة المصرية والرد على المقارنة التي يحاول العميد اده اجراءها بين قبول مصر بالبوليس الدولي في العام ١٩٥٦ ، وبين مطالبته بالبوليس الدولي للحدود اللبنانية ، فأكدوا « ان القاهرة قبلت البوليس الدولي كتكتيك لاسترداد سيناء وغزة ، بينما يطالب العميد بالبوليس الدولي كاستراتيجية حماية ٠٠ فنحن في لبنان لانزال نتهرب من الاستعداد لمواجهة الخطر الاسرائيلي بدون بوليس دولي ، فماذا لو كان عندنا بوليس دولي ؟» (٩) .

واعتبر اخرون اقتراح العميد اده احدي الخطوات الفعلية لتنفيذ مشروع «تحييد لبنان» واقامة نوع من التعايش السلمي بينه وبين اسرائيل . وهذا ما دعا أحد الصحافيين الى رفض اقتراح العميد اده باستدعاء البوليس الدولي ، ورفض حديث قداسة البابا عن التعايش السلمي بين الطوائف اللبنانية وعن «لبنان المسالم حيال المأساة الفلسطينية» ، والتعليق بمرارة على هذين الموقفين والتساؤل عما اذا كنا «أبرشية أو ضيعة تعيش من تربية البقر ، وكل مطلبها حراس يؤمنون لها الاستمرار في حلب البقر ٠٠ نطلب البوليس الدولي ليحمينا ممن ؟ من العرب ام من اسرائيل ؟ ام من نصف اللبنانيين ؟ ام لتوفير زبائن لفنادق البلد ؟» (١٠) .

٨ - وصدف ان اوردت وكالات الانباء العالمية ، في بداية تموز (يوليو) ١٩٦٨ ، تصريحاً للدكتور محمد حسن الزيات ، الناطق الرسمي بلسان حكومة القاهرة ، قال فيه انه « اذا اقتضى تنفيذ القرار الذي اتخذه مجلس الامن الدولي في تشرين الثاني (نوفمبر) الماضي وجود قوات سلام دولية ، فاننا لن نعترض عليه» . فسارع العميد اده الى اصطياد هذا التصريح ووجه الى الحكومة سؤالاً طلب منها فيه الاجابة عما يلي :

١ - هل ان قرار ١٩٦٧/١١/٢٢ ٠٠ يتضمن عند تنفيذه وجود قوات دولية على الحدود التي ستفصل بين الاراضي العربية وتلك التي يحتلها العدو ؟

ب - هل ترى الحكومة رأي القائلين بان وجود قوات دولية على حدود لبنان الجنوبية يمس سيادة الوطن واستقلاله ؟

ج - هل ترى الحكومة ان من الافضل للبنان ان يطلب ارسال قوات دولية الى حدوده الجنوبية قبل وقوع هجوم من الجيش الاسرائيلي ، او بعد وقوع مثل هذا الهجوم ؟

د - مادام وزير الخارجية قد اعترف امام لجنة الشؤون الخارجية اللبنانية بان «لإسرائيل مطامع في اراضي لبنان ومياهه» . . . اذن هل تنوي الحكومة اثاره طلب قوات دولية لوضعها على حدود لبنان الجنوبية في جامعة الدول العربية ؟

هـ - هل وجود القوات الدولية يمنع الحكومة من اتخاذ جميع التدابير التي تؤدي الى تعزيز قوة لبنان الدفاعية ؟

و - ألا ترى الحكومة ان وجود قوات دولية يحول دون هجوم اسرائيلي محتمل ؟

ز - هل سبق لدولة ان هاجمت دولة اخرى مع وجود قوات دولية بينهما؟ (١١) .

٩ - وفي هذه الاثناء ، نقل عن لسان رئيس الجمهورية (شارل حلو) انه يرفض مناقشة اقتراح العميد اده ويقول : «ان اقتراح المطالبة باقامة بوليس دولي على الحدود الجنوبية لايمكن ان ينفذ مادام هو على رأس الدولة» (١٢) .

ومع أفول شمس العام ١٩٦٨ ، كاد المحاربون على جبهة البوليس الدولي أن يخلدوا الى الراحة لولا الغارة المشؤومة التي شنتها اسرائيل على مطار بيروت وما اعقبها من خسائر مادية ومشاحنات سياسية أدت الى استقالة الحكومة وتأزم الوضع الداخلي .

ثانيا - مرحلة الانتشار والمجدل (١٩٦٩)

تعتبر هذه المرحلة العهد الذهبي لفكرة البوليس الدولي ، ففيها قامت سلسلة من الاضرابات والمظاهرات احتجاجا على ظاهرة اللامقاومة التي اتسم بها موقف السلطة بعد الغارة على المطار . وفيها اتهمت واشنطن بالتمهيد للحماية الاجنبية . وفيها انضم حزب الكتائب الى العميد اده في اصطياد التصريحات الصادرة عن المسؤولين المصريين حول القوات الدولية . وفيها اشتد المجدل واحتدمت المعارك الكلامية بين الزعماء السياسيين والمنظمات الحزبية . وفيها

اتخذ كل من رئيس الدولة ورئيس الحكومة موقفا واضحا من الفكرة . وفيها اخيرا قدم اقتراح ، لم يحالفه التوفيق ، بزيادة عدد المراقبين الدوليين واعادة توزيعهم على جانبي الحدود .

١ - في بداية العام ١٩٦٩ ، اعلنت رئيس مجلس النواب (صبري حماده) معارضته الشديدة لاقتراح العميد اده ، ورفضه لبحثه رسميا في المجلس ، وخاصة في لجنة الشؤون الخارجية ، وقال : «ان على لبنان أن يستعد في هذه المرحلة ويعمل لاقامة حماية ذاتية ضد الاعتداءات الاسرائيلية» (١٣) .

٢ - وكانت البلاد تشهد ، في هذه الفترة ، سلسلة اضرابات احتجاجا على سياسة «الاستسلام واللامقاومة» التي اتبعها النظام الحاكم تجاه الغارة على المطار . ومما زاد في تأجيج النفوس ، ان الحاكمين ارتكبوا غلطة فاحشة حينما حاولوا تبرير سلوكهم هذا «بانه يكسبنا عطف العالم» (على حد تعبير المرحوم حسين العويني ، وزير الخارجية والدفاع) ، او بأن «قوة لبنان في ضعفه» (حسب تعبير الشيخ بيار الجميل ، وزير الداخلية) .

٣ - ولاحظت بعض الصحف أن سياسة الحماية الاجنبية التي لم تستطع في السابق ، أمام الضغوط الشعبية ، أن تحقق أحلامها في استئصال قوات اجنبية الى لبنان ، أو في وضع قوات دولية على حدوده الجنوبية ، أو في اقرار تحييد لبنان أو تدويله ، عادت اليوم ، بعد حادث المطار والتهديد الاسرائيلي بالاحتلال ، الى طرح هذه المشاريع المشبوهة .

وعندما استنكرت الولايات المتحدة المتحدة الغارة الاسرائيلية وتظاهرت بتأييد لبنان، أدركت الاوساط الوطنية حقيقة الموقف الاميركي وخلفياته السياسية ، واعتبرت أن حكومة واشنطن تدعم في الواقع الهجوم الاسرائيلي لانه يحقق قوة للتيار الذي ينادي بالحماية الاجنبية ، ويجعل النظام اللبناني كله يطالب بها ، بعد اظهار عجزه عن الرد والمقاومة . «وهكذا فان اميركا اكتفت باستنكار تصرف اسرائيل لفظيا ، بينما كانت في حقيقة الامر تؤيده ، كي تخلق الظرف المناسب لمشاريع الحماية الاجنبية» (١٤) .

٤ - وعندما طالب العميد اده بالبوليس الدولي واقترح (كيلا يظن ان وراء اقتراحه مخططا استعماريًا) بان تكون القوات تابعة لدول اسلامية ، كباكستان وتركيا واندونيسيا ، لاحظت بعض الاوساط ان هذه الدول الاسلامية تابعة لاحلاف عسكرية غربية (١٥) .

٥ - وفي ١٤/١/١٩٦٩ ، أوردت إحدى وكالات الانباء العالمية تصريحًا للسيد محمود رياض ، وزير الخارجية المصرية ، قال فيه : «ان الحكومة المصرية مستعدة لقبول وجود قوات تابعة للأمم المتحدة على الحدود المصرية -

الاسرائيلية ، بعد جلاء القوات الاسرائيلية ٠٠ ويمكننا أن نقبل أيضا قيام جنود القبعات الزرق بين قواتنا المسلحة وقوات اسرائيل في اثناء فترة انسحاب هذه الاخيرة ٠٠» (١٦) . فتلقت صحيفة العمل الكتابية هذه الفرصة الغالية لتعلق على هذا الخبر في موضعين :

١ - في زاوية «من حصاد الايام» ، حيث قالت : «كل ما في الامر ان مصر التقدمية الاشتراكية والعربية المناضلة لم تجد خرجا في موضوع القوات الدولية ، ولا كان رأيها هذا منقصا من قدر نضالها او من اخلاصها » .

ب - وفي الافتتاحية حيث سألت «أساطين نضال الصالونات والاراكيل» عن رأيهم في الموضوع وتساءلت : «كيف يكون وجود البوليس الدولي على الحدود المصرية - الاسرائيلية عزة وشهامة ووطنية وحنكة ودهاء وتحورا وتقدما واشتراكية وكرامة ورخاء ، بينما يكون ذلك الوجود نفسه على الحدود اللبنانية الاسرائيلية ذلا واستسلاما وخيانة وعمالة ورجعية واستعمارا وصهيونية ٠٠» (١٧) .

٦ - وتحولت مسألة البوليس الدولي الى موضوع يومي تتداوله الصحف والالسن ، وتعالجه المنظمات والاحزاب ، وتختلف حوله الشخصيات السياسية البارزة . واتسمت الفترة التي أعقبت تشكيل الحكومة الجديدة (برئاسة رشيد كرامي) باندفاع العميد اده في حملته ، والتبشير باقتراحه ، ومهاجمة المناوئين له . لقد دافع مرة عن اقتراحه الرامي الى حماية لبنان من مطامع اسرائيل ، واتهم كمال جنبلاط بانه يريد أن يجعل من لبنان دولة اشتراكية لضعافه وافقاره كي يصبح لقمة سائغة في فم اسرائيل (١٨) . ووجه من جديد سؤالا الى الحكومة كرر فيه مطلبه «لان خطر تعدي اسرائيل على لبنان بهجوم عسكري جديد خطر حقيقي وممكن الحدوث في أي وقت» (١٩) .

وشارك ، في الجامعة اليسوعية ، الى جانب الرئيس صائب سلام ، والوزير جوزف أبوخاطر ، والنائب نصري المعلوف ، في مناظرة حول «الخطر الصهيوني ومفاهيم الدفاع عن لبنان» ، كرر فيها افكاره المعروفة ، فتصدى له الرئيس سلام ووصف فكرة البوليس الدولي بانها أصبحت عقدة نفسية لدى فئة من اللبنانيين ، وعدد الاسباب التي تدفعه الى معارضة الفكرة ، ومنها عدم اجماع رأي اللبنانيين وعدم فعالية القوات الدولية (٢٠) .

وسئل العميد اده ، أكثر من مرة ، عما اذا كان سيطلب ببوليس دولي فيما لو أصبح رئيسا للجمهورية ، فأجاب بالإيجاب ورد على التهمتين اللتين تثاران عند الحديث عن هذا البوليس : تهمة العمل لتدويل لبنان أو تحييده ، وتهمة اقامة حاجز يمنع الفدائيين من التسلل الى اسرائيل (٢١) .

وابتداء من نهاية ايار (مايو) طرأ تغير على موقف العميد من العمل الفدائي فأخذ يدلي بتصريحات يعلن فيها رفضه لوجود هذا العمل في لبنان . وفي ١٣/٦/١٩٦٩ ، اجتمع حزب الكتلة الوطنية بجميع هيئاته وقرر بالاجماع تأييد البيان الذي أدلى به العميد حول القضايا السياسية ، وطالب فيه المسؤولين بوجوب «الاسراع في تقديم طلب الى الامين العام للامم المتحدة أو الى مجلس الامن ، لارسال قوات دولية الى لبنان قبل وقوع هجوم اسرائيلي عليه» (٢٢) .

وفي حزيران (يونيو) ، وعندما كانت الازمة الوزارية في أوجها ، قابل العميد اده رئيس الجمهورية وصرح قائلاً : « طلبت من الرئيس حلو استدعاء قوات دولية قرفض ، ثم طلبت منه اخراج الفدائيين فأجاب انه لايمكنه اخراجهم وحده » . واوضح ان القوات الدولية لن تأتي الى لبنان تنفيذاً لقرار مجلس الامن الصادر في ٢٢/١١/١٩٦٧ ، وقال : «لذلك اكرر ماقلته مرارا أن على السلطات اللبنانية طلب قوات دولية استناداً الى قرار ٢٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ، وليس تنفيذاً له . وعندئذ تتمركز القوات الدولية على أرض لبنان وتبقى الى أن يطلب لبنان سحبها » (٢٣) .

وفي أواخر تشرين الثاني (نوفمبر) ، أكد العميد للاذاعة الفرنسية رفضه للحماية الغربية ، وطالب بحماية الامم المتحدة لتفادي الانتقام الاسرائيلي ، وتعد بسحب اقتراحه هذا «ان قدر الفدائيون أو أحد من الجيوش العربية على حمايتنا» (٢٤) .

٧ - وأحب رئيس الحكومة الجديدة التي تشكلت في منتصف الشهر الاول من العام ١٩٦٩ ، أن يدلي بدلوه في موضوع البوليس الدولي ، فصرح في ندوة صحافية بان الفكرة قديمة وأنها ليست «موضع اتفاق في الرأي بين اللبنانيين» ، وألح الى أنه سيعمل بالمبدأ القائل بانه «يجب أن نطرح جانباً كل ماختلف عليه» (٢٥) . وبعد أيام أدلى بتصريح واضح حسم به الموقف الرسمي : قال : «ان وضع قوات دولية على الحدود اللبنانية لايمكن ان يحمي لبنان ، ذلك ان القوات الدولية التي وضعت على حدود بلدان اخرى لم تمنع اسرائيل من تنفيذ سياستها العدوانية» (٢٦) .

٨ - وكان الحلف الثلاثي ، بزعامة شمعون والجميل واده ، يعيش آنذاك أسعد أيامه ، فعقد ، باسم النواب من اعضائه ، مؤتمراً في مضيف برمانا ، مابين ٧ و٩ اذار (مارس) ، أذاع على أثره بياناً أعلن في احد بنوده المتعلقة بالسياسة الخارجية ، وجوب « الافادة من كل حق يولينا اياه انتسابنا الى منظمة الامم المتحدة ، ولاسيما حق الاستعانة بقوات الطوارئ الدولية لضمان سلامة اراضينا» (٢٧) .

وقابل فرسان الحلف الثلاثة رئيس الجمهورية ورفعوا اليه مذكرة مستوحاة من البيان الصادر عن المؤتمر (٢٨) . وخلال المناقشة قال الرئيس حلو ان قضية البوليس الدولي يقوم خلاف اساسي عليها بين اللبنانيين ولا يمكن الموافقة عليها في ظل هذا الخلاف . وتولى العميد اده مهمة الدفاع عن وجهة نظر الحلف مؤكدا ان قوة الطوارئ الدولية تقف في وجه مطامع اسرائيل التوسعية، ولايشكل دخولها أي افتئات على سيادة البلاد (٢٩) .

وفي نفس اليوم أذاع الرئيسان عبد الله اليافي وحسين العويني نص المذكرة التي سلمها الى الرئيس حلو ، زدا على بيان الحلف . وقد جاء فيها مايلي :

«ان الحلف يطالب باستقدام قوات أجنبية ، وسواء سميت قوات طوارئ دولية او غير ذلك ، ففي هذا الطلب نقض صريح لاسس الميثاق الوطني ومس في الصميم لسيادة لبنان واستقلاله ، فضلا عن أنه يعطي انطبعا في الخارج بان لبنان قد انفصل عن المجموعة العربية وعزل نفسه عنها ، وانه يساهم ، مباشرة أو غير مباشرة ، بالمخططات التي ترسم لتدعيم كيان اسرائيل واثارة الشكوك والخلافات بين الدول العربية .»

«ان الميثاق الوطني الذي اتفق عليه اللبنانيون سنة ١٩٤٣ ، ومازالوا يتمسكون به شرعة وطنية استقلالية يقضي برفض مبدأ الحماية الخارجية ورفض وجود قوات أجنبية على اراضيه . ولذلك فان مطالبة الحلف بحماية دولية أجنبية هو نقض صريح لهذا الميثاق كما قلنا ، وتهديد مباشر للوحدة الوطنية المرتكزة عليه ، ناهيك بان مبدأ الاعتماد على الاجنبي لحماية الوطن والدفاع عن اراضيه خطر وغير مجد ومن شأنه ان يزرع بذور الاتكالية والانهازامية في نفوس المواطنين ولاسيما الشباب منهم ، وبالتالي فانه يضعف معنوياتهم ويعطل منابع الشعور الوطني في نفوسهم» (٣٠) .

ورد كميل شمعون على هذه المذكرة ، وأكد ان الاستعانة بالبوليس الدولي ليست لحماية المناطق المسيحية ، بل للذود عن الحدود الجنوبية ، وهي ليست حدودا مسيحية (٣١) .

٩ - وفي النصف الثاني من اذار (مارس) ، دار حوار سياسي بين حزبي الكتائب والهيئة الوطنية تركزت المناقشة فيه حول المواضيع السياسية التي تسبب الانقسام الداخلي ، وفي مقدمتها مطالبة الحلف الثلاثي بالبوليس الدولي . وأعلن ممثل الهيئة الوطنية رأي حزبه بالبوليس الدولي فأكد «أنه لن يرضى به لانه دون فائدة ، فغولدا مايبير قالت منذ عدة ايام ان البوليس الدولي هو حائط بسيط ويمكن اجتيازه بسهولة ولايشكل أي ضمان لاي بلد» (٣٢) .

١٠ - وفي نهاية اذار (مارس) نشرت صحيفة «الاوريان» ردا على تصريحات اركان الحلف الثلاثي نسبتها الى شخصية مقربة من رئيس الجمهورية . ولكن الاسلوب الذي كتب به قد ذكر ، بغمزاته وتورياته واستطراداته ، قراء الفرنسية في لبنان بتلك المقالات التي كان الصحفي شارل حلو يكتبها في افتتاحية صحيفة «لوجور» . وقد جاء في الرد انه «اذا كانت غاية دعوة البوليس الدولي للاقامة على الحدود هي جلب الرساميل والسواح . فان أي سائح أو رأسمال سوف يتحول عن لبنان لمجرد علمه بان لبنان في خطر وأنه يستنجد بالبوليس الدولي» (٣٣) .

١١ - وفي ١١ اب (اغسطس) ، قام الاسطول الجوي الاسرائيلي بهجوم على بعض قرى الجنوب ، فرجع لبنان شكوى الى مجلس الامن . واقترح الامين العام للأمم المتحدة ، على كل من لبنان واسرائيل ، الموافقة على زيادة عدد المراقبين الدوليين ووضعهم على جانبي حدودهما المشتركة . وجاء ذلك في رسالة رسمية وجهها الى كل من الحكومتين في ١٦/٨/١٩٦٩ . ولم يحدد الامين العام عدد المراقبين الذي يريته ، ولكنه اكتفى باقتراح « عدد يكفي لاجراء مراقبة فعالة» . ولكن الحكومتين رفضتا ، لاسباب متباينة ، هذا الاقتراح ، فبقي وضع المراقبة الدولية على ما كان عليه .

١٢ - وفي ايلول (سبتمبر) ، عقد في لبنان مؤتمر للاساتذة والطلاب المنتمين الى عدة حركات مسيحية في المشرق العربي ، ضم المطران غريغوار حداد ، والاب جورج خضر ، والاب دوبريه لاتور ، واتخذ عدة قرارات ، منها «ان الحل الوحيد لقضية فلسطين هو بيد الكفاح المسلح الذي يخوضه شعبنا والذي لايمكن ان يتوقف قبل ازالة الدولة الصهيونية كدولة عدوانية وكواقع استعماري» ، ومنها كذلك «ان حرية العمل الفدائي ضمن جميع اجزاء الارض العربية أصبح امرا لايمكن التنازل عنه في أي ظرف ، لاننا لايمكن ان نقبل بان تصبح حدود أي بلد عربي حدود أمن وحماية لاسرائيل . ان العمل الفدائي في نظرنا يشكل على المدى الطويل أحد العوامل الرئيسية لحماية الارض العربية من الهمجية الصهيونية التي تتهددها بأسرها» (٣٤) .

ثالثا - مرحلة التبلور ووضوح المواقف (١٩٧٠-١٩٧٤)

شهدت هذه الفترة الزمنية عدة احداث سياسية مهمة ، في المجالين الداخلي والخارجي ، ابرزها :

- انتخاب سليمان فرنجيه رئيسا للجمهورية بفارق صوت واحد في صيف العام ١٩٧٠ .

- اجراء اخر انتخابات نيابية في لبنان ، في ربيع العام ١٩٧٢ ، في ظل اجواء ملبدة بغيوم الصراع السياسي .
- حدوث الاصطدام المسلح بين السلطة والمقاومة الفلسطينية في ايار (مايو) ١٩٧٣ ، بعد تمكن الاسرائيليين وعملائهم من التسلل الى بيروت ليلا واغتيال بعض قادة المقاومة .
- تحقيق العرب لبعض الانتصار في معركة اكتوبر ١٩٧٣ .
- وعلى صعيد حملة المطالبة بالبوليس الدولي برزت عدة ملامح جديدة ، أهمها :
- التزام احزاب اليمين وأحزاب الحركة الوطنية بموقف معين وواضح تجاه هذه المسألة التي ترددت اصداؤها في المعركة الانتخابية .
- تغيير بعض السياسيين لمواقفهم من المسألة .
- انضمام بيار الجميل وحزبه الى قافلة المبشرين بالبوليس الدولي .
- بداية التحرك رسميا باتجاه البوليس الدولي .
- استمرار العميد اده ، الذي ساءت علاقته بالسلطة وانفصل عن الحلف الثلاثي ، في دعوته التي راح يقرنها بالحملة على اتفاق القاهرة ، والتشكيك في تسليح الجيش ، والمطالبة بتقليد السلوك السوري .
- ١ - في بداية العام ١٩٧٠ ، انضم رئيس حزب الكتائب (وكان وزيراً للداخلية) الى العميد اده في حملته ، ودعا الى فتح حوار بناء بهذا الشأن ، وتساءل عن أسباب عدم طلبنا الحماية من الامم المتحدة «ببدل ان ندفع كل ثروتنا لشراء السلاح من أجل معركة خاسرة؟» (٣٥) .
- وزار رئيس الجمهورية وصارحه بان بقاءه في الحكم مرهون بتنفيذ اتفاق القاهرة ، وكرر أمام الصحافيين دعوته لفئة المعارضين لفكرة البوليس الدولي كي يدخلوا ، مع المؤيدين لها ، «في حوار ايجابي .» للوصول الى ما يحفظ سيادة لبنان وسلامة اراضيه» (٣٦) .
- وزار جمعية المراسلين الاجانب وعقد ندوة كرر فيها رأيه بوجوب استقدام قوات الطوارئ الدولية التي تقوم بمهمة «الدفاع عن الضعيف ضد القوي وتكون مع العدالة ضد الظلم» . ولكنه أكد ، مرة اخرى ، أن أمر دعوة هذه القوات مرهون بموافقة جميع اللبنانيين عليه (٣٧) .
- وفي نهاية شباط (فبراير) ١٩٧٢ ، كان موعد الانتخابات النيابية يقترب ، وكانت الغارات الاسرائيلية تتكرر على قرى الجنوب ، وكان حزباً الكتائب

والوطنيين الاحرار (بعد انسحاب حزب الكتلة الوطنية من الحلف الثلاثي) يعقدان الاجتماعات الدورية للتنسيق بينهما ، وكان رئيس الكتائب ينتهز كل فرصة ليدعو الى « السعي للمطالبة بالبوليس الدولي لحماية الحدود الجنوبية » (٣٨) .

٢ - واستمر العميد اديفي في حمل مشعل البوليس الدولي ، ولكنه لاحظ ، بعد توقيع اتفاق القاهرة ، انه « اصبح من الصعب ان تأتي القوات الدولية اليوم بعدما وافقت الحكومة اللبنانية على اتفاق القاهرة الذي ينقض اتفاق الهدنة مع اسرائيل واتفاق وقف اطلاق النار » (٣٩) . وكان قد قال في مجلس النواب ان اقتراح طلب قوات الطوارئ الدولية تجاوزته الظروف ولم يعد واردا . واذا طلبنا اليوم هذه القوات فان الامم المتحدة لن تلبى طلبنا (٤٠) .

الا ان العميد كان يحن الى الشعار الذي أطلقه فيعود اليه بعد كل غارة اسرائيلية . ففي بداية العام ١٩٧١ ، تعرضت منطقة الصرند للهجوم فسارع الى المطالبة من جديد بالبوليس الدولي (٤١) .

وعندما كانت تقدم مشروعات لتسليح الجيش كان ينبري لمعارضتها والتشكيك في نتائجها ، مؤكدا ان تعزيز قوتنا العسكرية ، في الظروف الراهنة ، لن يغير من واقعنا المرشينا . ونذكر على سبيل المثال ما قاله في اللجنة النيابية للمال والموازنة ، في ١٥/٢/١٩٧١ ، لدى مناقشة مشروع المئتي مليون ليرة لتسليح الجيش . لقد طرح السؤال التالي :

« اذا اشترى لبنان اسلحة حديثة وزود بها الجيش ، فهل يصبح في الامكان الموافقة على اعطاء أمر للجيش للرد على اسرائيل واسقاط طائرة هليكوبتر للعدو ، مثلا ، من دون التخوف من ردود الفعل الاسرائيلية والتدريج بالتغطية الجوية التي يملكها العدو ؟ فاذا كان الوضع برغم تسليح الجيش وانفاق الملايين لن يتبدل وسيظل الخوف من ردود الفعل الاسرائيلية قائما ، فلماذا نخصص اذن كل هذه الملايين ونحرم المناطق اللبنانية من المشاريع الحيوية ومن المدارس والطرق ؟ ألا يكون من الافضل ، والحالة هذه ، ان نظل على ما نحن ، لان قوتنا هي في ضعفنا ؟ » (٤٢) .

وفي مستهل العام ١٩٧٢ ، تكرست القطيعة بينه وبين قطبي الحلف الثلاثي السابق (شمعون والجميل) ، وبدأت علاقاته بعهد فرنجية تتدهور . ورغم ذلك فان ايمانه بالبوليس الدولي لم يتزعزع (٤٣) .

وفي صيف العام ١٩٧٤ ، كرر زيارته للجنوب ، محرضا الاهالي على التكتل والتقدم باستدعاء القوات الدولية « لانها الوسيلة الوحيدة التي في امكانها أن تضع حدا للهجوم الاسرائيلي على لبنان » (٤٤) . وسئل عن رأيه في استمرار

قصف قرى الجنوب ، فقال : « ان على الحكومة أن تختار بين ثلاثة مواقف :
وضع الجيش اللبناني على الحدود • أو الاستمرار في سياسة اللامبالاة ، مع
استمرار وجود «الجزء» الاسرائيلية على ارض الوطن • أو طلب قوات دولية
تمنع اسرائيل من الخرق الدائم لاتفاق الهدنة •» (٤٥) .

وعندما جرت ، في شباط (فبراير) ١٩٧٤ ، مفاوضات لايقاف اطلاق النار
في الجولان وايقاد قوات دولية للفصل بين الطرفين المتحاربين ، انتهر العميد
هذه الفرصة ليقول : «اذا وافقت سوريا غدا على وجود قوات دولية على
ارضها تتمركز بين الجيش السوري والجيش الاسرائيلي ، فاني سأطلب من
الحكومة أن تطلب أيضا قوات دولية تتمركز على الحدود اللبنانية والاسرائيلية،
لكي تمنع اعتداءات الجيش الاسرائيلي على قرانا •» (٤٦) . وكرر هذه
الفكرة بعد ذلك في لجنة الشؤون الخارجية النيابية (٤٧) ، وفي الندوة
الصحافية التي عقدها بعد عودته من باريس (٤٨) .

ولعل من أعظم المكاسب التي استطاع العميد اده تحقيقها على صعيد دعوته،
في هذه الفترة، أنه تمكن من كسب تأييد رئيس مجلس النواب ، وجعل وزير
الداخلية (كمال جنبلاط) يعود الى طرح فكرة الاستعانة بقوات عربية • فالرئيس
كامل الاسعد ، بعد معارضته العنيفة لفكرة البوليس الدولي وتصريحه بأنه
« ضد مناداة لبنان بطلب البوليس الدولي في هذه الظروف •• لان طلب
السلطات اللبنانية للبوليس الدولي اليوم •• يعني عزل لبنان عن المجموعة
العربية وتخليه عن دوره في المعركة المصيرية» (٤٩) ، عاد وتخلّى عن هذا
الموقف وأعلن تبنيه لاقتراح العميد اده (٥٠) .

وبعد تدهور الوضع في الجنوب وتوجيه اسرائيل لتهديداتها الى لبنان ،
طرح الشهيد جنبلاط اقتراحا قديما له يدعو الى الاستعانة بقوات من دول
المغرب العربي ، باعتبار ان هذه الدول لا مطامع لها في لبنان (٥١) .

٣ - وحاولت بعض وكالات الانباء العالمية ، المرتبطة بالامبريالية
والصهيونية ، ان تذيب اخبارا ملفقة من شأنها اشاعة الفرقة
والبلبل في صفوف الفئات المعارضة لفكرة البوليس الدولي ، فادعت يوما (كما
نشرت وكالة رويتر في نيا لها من باريس) « ان الزعيم الروحي للمسلمين
الشيعة في أوروبا دعا الى وضع قوات دولية لحفظ السلام لحماية الشيعة في
جنوب لبنان» ، وانه بعث برسالة الى البابا والامين العام للأمم المتحدة ورؤساء
الدول الاربع الكبرى تحدث فيها «عن المصير المفجع للمسلمين الشيعة المقيمين
بالقرب من الحدود الاسرائيلية» ، واقترح ارسال قوات دولية الى جنوب لبنان
«كيلا تبقى الاقلية الشيعية المقيمة هناك ضحية العسكرية الصهيونية» .

وسارع الامام موسى الصدر انذاك الى تكذيب الخبر مؤكدا أن ليس للشريعة زعيم روحي في اوربية ، وليس لهم اية علاقة بالاقترح المقدم (٥٢) .

٤ - وفي بداية العام ١٩٧٢ ، وفي اثناء الزيارات التي كان المبعوث الصامت للامم المتحدة (السفير يارينغ) يقوم بها لدول المنطقة ، سرت اشاعات مفادها أن اتصالات دبلوماسية سرية تجري لاحياء فكرة البوليس الدولي بين لبنان واسرائيل ، وذلك من ضمن مشروع التسوية السياسية الذي يعمل له مبعوث الامم المتحدة . وقيل أن بعض الشخصيات السياسية اللبنانية كانت تشارك في هذه الاتصالات الرامية الى حل مسألة الوجود الفدائي في لبنان بصورة تجعل انطلاق عمليات المقاومة ضد العدو من الاراضي اللبنانية أمرا غير ممكن . وذكرت بعض المصادر المطلعة أن لبنان أبلغ الجهات الدولية التي يجري اتصالات صامتة معها أنه يبحث جديا في دعوة مجلس الامن لارسال قوات دولية الى منطقة الحدود الجنوبية ، على ان يتخذ في ذات الوقت قرارا بالغاء اتفاق القاهرة الذي يعتبره متناقضا مع طلب ارسال القوات الدولية . غير ان السلطات اللبنانية تفضل انتظار بدء الجولة الجديدة للمبعوث يارينغ في المنطقة ، التي تهدف الى تحقيق حل جزئي عن طريق اعادة فتح قناة السويس على اساس القبول بمرابطة بوليس دولي على جانبيها . والدوائر اللبنانية تعلق أهمية كبرى على نتائج المساعي الدولية التي يقوم بها المبعوث يارينغ ، فاذا اسفرت عن اتفاق ، حتى ولو كان جزئيا ، فإن الامر يصبح في نظرها اقل تعقيدا ، ويمكن عندئذ الاقدام على خطوة استدعاء البوليس الدولي (٥٣) .

٥ - واضطرت الاحزاب والقوى الوطنية والتقدمية أن تعبر عن وجهة نظرها وتحدد موقفها من اقتراح البوليس الدولي الذي لا يختلف في شيء عن مشاريع الضمانات الاجنبية والدولية ، فعقدت في ٢٨/٢/١٩٧٢ ، اجتماعا أصدرت على اثره بيانا عن الوضع في الجنوب جاء فيه ما يلي :

«... ومرة اخرى عاد الحديث عن الضمانات الدولية يتجدد . وهو حديث لايرمي في الحقيقة الا الى عزل لبنان عن مجابهة اسرائيل . لم يعد للمطالبين بالضمانات الدولية من مخرج سوى المطالبة باستقدام بوليس دولي تكرون مهمته حماية اسرائيل وحدودها واقفالها في وجه الشعب الفلسطيني نهائيا . لا لخرافة الضمانات الدولية . لا للبوليس الدولي . جماهير لبنان بتلاحمها مع المقاومة هي التي تحمي أرض لبنان» (٥٤) .

٦ - وفي نهاية العام ١٩٧٤ ، ذكرت الصحف أن بعض الوزراء (المنتمين، ولاشك ، الى التيار اليميني) طالبوا ، في جلسة مجلس الوزراء ، بوضع قوات دولية على الحدود اللبنانية مع اسرائيل كحل مؤقت لقضية حماية حدود لبنان ، وان هذا الاقتراح قوبل بمعارضة شديدة من الوزراء الاخرين الذين

اعتبروا أن هذه القوات لن تستطيع تشكيل رادع يمنع إسرائيل من القيام بهجمات (٥٥) .

رابعاً - مرحلة الركود النسبي (١٩٧٥-١٩٧٦)

في هذه الفترة ، وبسبب الاحداث الاليمة التي اصابت لبنان ، تضاعف الاهتمام كثيراً بفكرة البوليس الدولي . والصوت الوحيد الذي بقي يذكر الناس بها هو صوت العميد اده . لقد ذكر بها في بداية الاحداث ، وخلالها ، وعند نهايتها .

١ - في بداية العام ١٩٧٥ ، كرر العميد اده طرح اقتراحه في مناسبات متعددة . ولعل الشيء الوحيد الذي تميزت به دعوته ، هذه المرة ، هو مطالبته الحكومة اللبنانية ، لدى موافقتها على استقدام القوات الدولية ، بوضع شرط: وجوب انسحاب هذه القوات عندما تطلب الحكومة السورية انسحاب القوات الدولية الموجودة في الجولان (٥٦) .

٢ - وخلال الاحداث ، تبنت اللجنة التنفيذية لحزب الكتلة الوطنية آراء العميد اده ، وأصدرت ، في ٦/٨/١٩٧٥ ، بياناً استعرضت فيه الاوضاع الراهنة والهجمات الاسرائيلية المتكررة على قرى الجنوب وختمته بالفقرة التالية :

«... فعلى ضوء هذا الواقع يرى الحزب أنه بات من الملح ان تجادر الدولة الى مطالبة مجلس الامن الدولي باتخاذ التدابير الفورية التي من شأنها ان تضع حداً نهائياً لاعتداءات اسرائيل المتكررة على مدن وقرى لبنان الجنوبي ، وفي طلبتها وضع قوات الطوارئ الدولية على الحدود اللبنانية ، على أن يصار الى سحبها فور سحب القوات الدولية التي تمركزت على الحدود السورية - الاسرائيلية اثر حرب تشرين (اكتوبر) ١٩٧٣» (٥٧) .

وعندما تكونت هيئة الحوار الوطني كان العميد اده من اعضائها، فاغتنم هذه السانحة ليعرض اقتراحه على « النخبة » السياسية في البلاد . ففي إحدى الجلسات تساءل عن طريقة حماية لبنان من الاعتداءات الاسرائيلية ، فقال : «اني أدعو الى اقتراح قديم ، بل الى الطريقة التي استعملها الرئيس عبدالناصر، وهي استحضار قوات دولية لحماية الحدود الجنوبية» . وتساءل ايضاً : « لماذا نعارض القوات الدولية ؟ أليست موجودة في سوريا ؟ لماذا لا تمدد وجودها من الجولان الى الناقورة لتحمي لبنان واهل الجنوب بالدرجة الاولى ؟ » (٥٨) .

٣ - و مر ، بعد ذلك ، عام كامل لم يأت أحد فيه على ذكر البوليس الدولي . لقد كان المواطنون يعيشون تحت وطأة كابوس رهيب . لقد كاد المواطنون ان ينسوا ان لهم حدودا في الجنوب ، متاخمة للكيان الاسرائيلي ، تعيش تحت رحمة الاقدار . ولم تكد الاوضاع الامنية ، في نهاية العام ١٩٧٦ ، تتحسن قليلا حتى خرج العميد اده عن صمته ، وعاد ليثير موضوع القوات الدولية ويطالب الحكومة باستقدامها لانقاذ الجنوب من الضياع (٥٩) .

خامسا - مرحلة الانتكاس والتشكيك (١٩٧٧)

على الرغم من حدوث انقلاب في موقف الرئيس صائب سلام لصالح فكرة البوليس الدولي ، فان هذه الفكرة ، أصيبت ، في الربع الاول من العام الحالي ، بانتكاسة ، وتعرضت لحملة تشكيك كان لموقف سوريا أثر فعال في حدوثها . ففي نهاية شباط (فبراير) ، ذكرت الصحف ان رئيس الجمهورية أجرى مع عدد من النواب مقابلات استمع خلالها الى آرائهم ومقترحاتهم ، ومن بينها طلب قوات طوارئ دولية للحدود الجنوبية (٦٠) .

وفي نفس اليوم ، أعلن الرئيس سلام : «ان العدوان الاسرائيلي المسلح الذي توصل الى احتلال اراض عربية واسعة في الجولان وسيناء والضفة الغربية جاء اليوم بتخطيط خبيث يحقق احتلالا مشابها في لبنان بأساليب متنوعة لم يعد في الامكان ارجاعه عنها سوى بقوة ردع دولية تحفظ حدود لبنان وتمنع عن الجنوب ما يصيبه» (٦١) . ولم يخف رئيس الكتائب سروره بهذا الانقلاب المفاجيء ، فصرح قائلاً : «هانحن نرى الان ان الاصوات التي ارتفعت من قبل تعارض استقدام قوات دولية الى الجنوب ترتفع اليوم مطالبة بهذه القوات ، أو تبدي الموافقة على وجودها» (٦٢) .

ومع بداية اذار (مارس) ، بدأت تظهر معالم الانتكاسة التي حلت بالفكرة ، وتلوح في الافق السياسي تباشير التراجع عن الفكرة والتشكيك في فعالية البوليس الدولي . وقد تجلى ذلك في الدلائل والمؤشرات التالية :

١ - تصريحات وزير الخارجية اللبنانية . فقد سئل الوزير فؤاد بطرس ، بعد جلسة مجلس الوزراء في ٢٨/٢/١٩٧٧ ، عما اذا كان مجلس الوزراء قد قرر طلب قوات دولية للمرابطة في جنوب لبنان ، فأجاب : «لم يتخذ اي قرار في هذا الموضوع ولا بحث فيه» (٦٣) . وكان الوزير بطرس قد اجتمع ، في نفس اليوم ، بالسفير الاميركي في بيروت ، فسئل بعد الاجتماع عما اذا كان قد طلب استقدام قوة أمن دولية الى الحدود ، فأجاب : «أنا لم أطلب شيئاً» (٦٤) .

٢ - موقف السياسيين الشيعة . فقد عقد تجمع السياسيين الشيعة اجتماعاً

برئاسة الامام الصدر ، في اول اذار (مارس) . وسئل الامام ، اثر الاجتماع ، عما اذا كان التجمع قد بحث مسألة استقدام قوات طوارئ دولية الى الجنوب، وعما اذا كانت ورقة العمل التي سيضعها المجتمعون ستوافق على هذه الفكرة، فنفي ان تكون ورقة العمل التي صدرت عن المجلس الاسلامي الشيعي ، أو برامج تجمع السياسيين الشيعة ، قد تضمنت هذا الموضوع ، وأشار الى وجود شكوك حول مدى فاعلية القوات الدولية (٦٥) .

٣ - تصريح الامين العام للامم المتحدة . فقد صرح انه لم يتلق حتى الان اي طلب من لبنان لارسال قوات دولية الى حدوده الجنوبية ، وان هذا الموضوع لم يثر خلال زيارته الاخيرة للبنان (٦٦) .

٤ - تصريح المندوب الدائم للبنان لدى الامم المتحدة (ادوار غرة) ، بعد مقابلته للامين العام للامم المتحدة . فقد قال بان «للمعلومات لديه عن الانباء التي تحدثت عن مطالبة لبنان الامم المتحدة بالمشاركة في حفظ الامن فوق اراضيه» (٦٧) .

٥ - الموقف الظاهري الجديد لقطبي «الجبهة اللبنانية» (شمعون والجميل) . فقد بدأت تتراءى في تصريحات الاول ملامح الشك في قدرة القوات الدولية على حماية الجنوب ، وفي تصريحات الاثنين بوادر المطالبة بوجوب الاعتماد على القوات النظامية اللبنانية لوضع حد لمأساة الجنوب .

صرح رئيس «الاحرار» بعد اجتماع «الجبهة» قائلاً : «لا أجد سبباً لعدم استعمال القوات اللبنانية النظامية من جيش وقوى أمن للمحافظة على الشرعية في الجنوب . أنا لست ضد اقتراح استقدام قوات دولية الى الجنوب ، ولكن هذا الامر - ولنكن واقعيين - ليس في يدنا» . وتساءل: «هل أكيد ان القوات الدولية تستطيع منع التحريب والحوادث التي تقع في الجنوب؟» (٦٨) .

وأدلى رئيس الكتائب بتصريح جاء فيه مايلي : «... وعلينا الاندع لاسرائيل الحجج ازاء الجنوب لنعود الى مواجهتها على الصعيد الدبلوماسي والرأي العام العالمي . وليس ما يمنع ، الى جانب ذلك ، ان تكون في الجنوب قوة نظامية لبنانية ، أو قوة دولية خارجية يتفق على هويتها ، بغية وضع حد نهائي لمأساة الجنوبيين» (٦٩) .

٦ - موقف الحكومة السورية من فكرة البوليس الدولي . ويبدو انه كان لهذا الموقف الاثر الفعال في كل مظاهر التغيير ، أو التبدل ، أو التراجع ، أو الاعتدال ، التي طرأت على مواقف البعض من الفكرة . فقد نددت صحيفة «الثورة» السورية ، وشبه الرسمية ، في تعليق لها بفكرة ارسال قوات دولية الى الجنوب ، وقالت : «ان القضية هي عبارة عن مسألة عربية محضه ، وان

قوات الردع العربية هي التي يحق لها أن تتواجد في لبنان ، وليس قوات دولية كما تطالب بذلك اسرائيل» (٧٠) .

٧ - موقف الانظمة العربية ، المهتمة حالياً بمسألة التسوية الشاملة ، من فكرة البوليس الدولي . انها تعتقد ان قطار التسوية السياسية قد تحرك ولايد له من بلوغ الهدف قريباً . وهي تريد أن تتسلح بمشكلة الحدود الجنوبية للبنان لتناور وتضغط في مفاوضاتها المقبلة ، لانها تخشى ، في حال التوصل الى حل لتلك المشكلة بمعزل عن اطار الحل السياسي الشامل الذي تسعى اليه ، ان يزداد الموقف الاسرائيلي تعنتاً وتصلباً .

القسم الثاني : حجج المنادين بالبوليس الدولي

يمكننا تلخيص منطق المؤيدين للفكرة على النحو التالي :

ان الجيش اللبناني ، بوضعه الحاضر ، عاجز عن حماية حدودنا الجنوبية . وهو يحتاج الى بعض الوقت ليجهز نفسه بالمعدات الحربية الحديثة ويصبح بالتالي قادراً على رد الهجمات والغارات الاسرائيلية . ومن الافضل لنا ، خلال فترة تجهيزه وتدريبه ، أن نعتمد على مساعدة قوة عسكرية خارجية . والمصلحة تقضي باللجوء الى قوات الامم المتحدة حيث تتمثل الدول الكبرى . وضمانات المنظمة العالمية ، في الظروف الراهنة ، هي أحسن الضمانات . وليس من العار ان يجا لبنان الى هذه الوسيلة للدفاع المؤقت عن حدوده ، فقد سبقته اليها دول عربية أخرى لايشك أحد في تمسكها بسيادتها واخلاصها للقضية العربية والفلسطينية .

من هذا المنطق تنطلق معظم المبررات والحجج التي يسوقها العميد اده وصحبه من أنصار البوليس الدولي . وللوقوف على أهم التفاصيل نوجز اراءهم حول الموضوع بالنقاط التالية (دون تكرار الاستشهاد بأقوالهم وتصريحاتهم التي وردت في الصحف السابقة) :

١ - ان لبنان بلد صغير لايستطيع أن يحارب ويتنصر بامكاناته العسكرية . وهو مضطر الى مواجهة أحد أمرين : اما الحرب وأما السلم . وبما أنه عاجز عن خوض غمار الحرب ، وراغب في المحافظة على جيشه وأرضه وسيادته ، فلا بد له من طلب قوة طوارئ دولية (٧١) .

٢ - ان هذه القوة «تفسح في المجال امامنا لتعزيز وسائل دفاعنا ، وفقاً للاساليب الحديثة والعصرية» (٧٢) .

٣ - «اذا كان لبنان يريد المحافظة على سيادته وسلامة اراضيه ، بانتظار ان تستعيد الجيوش العربية ، بما فيها الجيش اللبناني ، القوة التي تمكنها من

محاوية اسرائيل من جديد ، فليس امامه سوى طريقة واحدة هي استدعاء قوة الطوارئ الدولية» (٧٣) .

٤ - ان هذه القوة هي «الضمان الوحيد لمنع اسرائيل من الاعتداء على لبنان» . والحصول على هذه القوة سيتم بقرار من مجلس الامن الدولي ، أي بموافقة الدول الكبرى . «وعندئذ لن تتجراً اسرائيل على ضرب لبنان . وعلى افتراض أنه برغم وجود القوات الدولية أغارت واعتدت على لبنان ، تكون الحكومة قامت بما يمليه عليها ضميرها وواجبها الوطني ، وتكون ، تجاه الشعب ، قد قامت بكل مايمكن القيام به لحمايته» (٧٤) .

٥ - ان الدول الاربع الكبرى التي صوتت على قرار مجلس الامن ، رقم ٢٤٢ ، متفقة ضمناً على تنفيذ مضمون هذا القرار بواسطة قوات الامم المتحدة . وقد وافق الاردن ومصر ، ضمناً ، بقبولهما قرار مجلس الامن ، على مبدأ استخدام القوات الدولية لمراقبة الحدود المشتركة بينهما وبين اسرائيل يعد انسحاب هذه الاخيرة من الاراضي المحتلة . ومجلس الامن ، بقبوله ارسال هذه القوات ، سيكون منسجماً مع قراره . ومن الافضل لنا ان نطلب الحماية منه اليوم لئلا نضطر الى التوسل اليه يوماً بالبكاء ، ظالبيين منه رد الاراضي التي تكون اسرائيل قد استولت عليها . وان وجود القوات الدولية على حدود لبنان الجنوبية سيمنع اسرائيل من وضع يدها على منطقة الجنوب ، أو على قسم منها ، ويمنع اي اعتداء عسكري اسرائيلي على لبنان ، لانه من غير المعقول ان تتجراً اسرائيل على مهاجمة دولة تصميها قوات الامم المتحدة (٧٥) .

٦ - ان القوات الدولية هي «الحل الوحيد لمشكلة لبنان» . ووجودها على حدودنا يمنع الجيش الاسرائيلي من الاعتداء علينا ، لانه ان فعل خرق حرمة هذه القوات ومس المجتمع الدولي الذي تمثله (٧٦) .

٧ - ان «البوليس الدولي ليس عارا على لبنان ، فدول اخرى عديدة طلبته . انه حل مؤقت سريع كي تؤمن تسليح انفسنا » . ولا يجوز انتظار هجوم العدو واستيلائه على ارضنا حتى نسارع الى طلب النجدة من القوات الدولية (٧٧) .

٨ - ان البوليس الدولي الذي قبلت به مصر في العام ١٩٥٦ هو «السذي امن تراجع الجيش الاسرائيلي عن اراضي سيناء المحتلة وعودته الى ما وراء حدود هدنة ١٩٤٩ ، والذي حال دون وقوع اي اعتداء اسرائيلي طول احدى عشرة سنة لم تر فيه مصر افتئاتا على كرامتها ونيلا من سيادتها ، وهي لم تتعرض لنكسة ٥ حزيران (يونيو) الا عندما قررت الاستغناء عنه » (٧٨) .

٩ - ان المطالبة بالقوات الدولية لا تشكل خطوة اولى نحو تدويل لبنان وتحييده . فلبنان « لا يمكن ان ينادي بالحياد والتدويل ما دام في حالة حرب

مع اسرائيل ، وما دامت تشكل خطرا عليه « . وليس الهدف من وضع القوات الدولية على الحدود منع تسلل الفدائيين الى داخل اسرائيل عبر الاراضي اللبنانية ، « فالسوابق لا تتحدث عن سابقة من هذا النوع ، وليس هناك ما يثبت ان قوات دولية تمكنت من منع تسلل فدائيين من ارض الى ارض ثانية ٠٠٠ وإذا كان التسلل ممكنا بوجود قوات دولية فإن الهجوم العسكري غير ممكن » (٧٩) .

١٠ - ان الغرض من طلب القوات الدولية هو توفير الظروف للشعب اللبناني كي « يطمئن ويتصرف الى الاعمال البينة وتنفيذ المشاريع التي يتردد الآن في الاقدام عليها ٠٠٠ فلبنان هو الدولة العربية الوحيدة بين الدول المجاورة لاسرائيل ، التي بإمكانها ان تطلب قوات دولية لوضعها على الحدود لان حدودها لم تتعرض لاحتلال خلال حرب حزيران (يونيو) » (٨٠) .

١١ - ان اسرائيل « ليس من مصلحتها وجود مثل هذه القوة الدولية لانها تمنعها من تنفيذ خطة التوسع ومن وضع يدها على مياه لبنان الجنوبي واعادة مملكة داوود بجعل حدود اسرائيل تمتد حتى نهر الاولي . لذلك فان كل شخص يعارض قوة الطوارئ الدولية يخدم مصلحة اسرائيل ومطامعها » (٨١) .



تلك هي أهم المبررات التي يدلي بها انصار البوليس الدولي . ولا بد لنا ، قبل الانتقال الى استعراض وجهة نظر المعارضين ، من ابداء الملاحظات المهمة التالية :

الملاحظة الاولى هي ان العميد اده ما زال حتى اليوم زعيم الحملة المطالبة بالبوليس الدولي . ولهذا اعتمدنا في معظم الاستشهادات والامثلة التي اوردناها على اقواله وتصريحاته . غير ان اقطاب « الجبهة اللبنانية » ، وبعض السياسيين التقليديين ، اخذوا اليوم ، في غياب العميد عن لبنان ، يرددون ، دون تغيير او تحوير يذكر ، نفس الحجج والمبررات التي ما فتىء يدلي بها منذ العام ١٩٦٥ .

والملاحظة الثانية هي ان الرئيس صائب سلام قد تخلى مؤخرا عن موقفه السابق المعارض لاستقدام قوات دولية ، واتى بحجة جديدة تنسجم ، الى حد بعيد ، مع فكرة التدويل التي يرفعها اركان « الجبهة اللبنانية » . فاللبنانيون ، في رأيه ، قد بدأوا يشعرون بالامن والاستقرار بعد دخول قوة السردع العربية ، ولكن الظروف الدولية حالت دون قيام هذه القوة بتوطيد هذا الامن والاستقرار

في الجنوب وحماية ابناؤه ، فأصبح الواقع الخطير المرير يتطلب قيام قوة ردع دولية بهذا الواجب الملح في المحافظة على حدود لبنان . وليس من مصلحة احد ان يتوانى في المطالبة به . فالقوات الدولية أصبحت محيطة بإسرائيل في كافة حدودها مع سوريا ومصر والأردن ، وأصبحت الحاجة ملحة بحيث يمتد هذا الحزام الامني الدولي في الارض العربية فيشمل حدود لبنان « (٨٢) » .

والملاحظة الثالثة هي ان السابفة المصرية ، اي قبول مصر بالقوات الدولية بعد العدوان الثلاثي ، بقيت حتى معركة اكتوبر ١٩٧٣ ، المثال المفضل الذي يستند اليه معظم المنادين بفكرة البوليس الدولي في لبنان . وبعد المعركة المذكورة اقلع الجميع تقريبا عن الاتيان على ذكرها وراحوا ، من وقت الى آخر ، وبشيء من الخجل ، يطالبون بالتشبه بسوريا التي رضيت بتمركز القوات الدولية في الجولان . ولعل السبب في اغفال كل حديث عن السابفة المصرية يكمن في ان القوات الدولية لم تتمكن ، خلال عامي ١٩٦٧ و ١٩٧٣ ، من منع الصدام بين الطرفين المتنازعين .

والملاحظة الرابعة هي ان انصار القوات الدولية كانوا ، في البداية ، يعتبرون ان وجود هذه القوات على الحدود لا يتناقض مع العمل الفدائي والتسلل الى الارض المحتلة . ولكنهم غيروا موقفهم مؤخرا وراحوا يؤكدون على ان وجود الفدائيين على الارض اللبنانية يتنافى مع نصوص الهدنة ويعطي اسرائيل ذريعة لمهاجمة لبنان ويجرد القوات الدولية من كل فعاليتها .

والملاحظة الاخيرة هي ان العميد اده لم يتخل حتى اليوم عن موقفه من القوات الدولية ، الا ان حماسته لهذا الامر قد عرفت حالات من الارتقاع والهبوط ولعل السبب في ذلك يعود الى التغيرات والتقلبات والتطورات التي كانت تعترى مواقفه من العهود والحكومات المتعاقبة . ثم ان الدوافع والمبررات التي كانت تدعوه الى المطالبة بهذه القوات كانت تختلف باختلاف الظروف والاحداث . ففي ١٢-١-١٩٦٥ ، بحثت لجنة الشؤون الخارجية النيابية موضوع رواقد نهر الاردن ، فتقدم العميد باقتراح استدعاء بوليس دولي وقال : « قبل ان نحول مجرى الوزاني والحاصباني علينا ان نطلب قوات دولية تتمركز على الحدود ، فاذا حصلنا عليها تكون هيئة الامم قد وافقت على التحويل » . وعلى اثر انهيار الجيوش العربية في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، رأى العميد « انه أصبح ممن السهل على اسرائيل ان تستولي على قسم من لبنان الجنوبي وعلى المياه التي تجري هنالك ، خصوصا بعدما اعطيناها العذر للقيام بعمل عسكري عندما وافقنا رسميا على النشاط الفدائي عبر الاراضي اللبنانية » (٨٣) . وعندها ، للمرة الثانية ، طالب بالقوات الدولية . وطالب بها ، للمرة الثالثة ، بعد المغارة على المطار . اما اليوم فمبرراته تتلخص في الاوضاع المتردية التي تعيشها البلاد بعد

عامين من الحرب الاهلية ، وفي انقسام الجيش على نفسه وصعوبة الاعتماد عليه لحماية الحدود ، وفي احتمال التوصل الى تسوية سلمية للقضية الفلسطينية .



القسم الثالث : حجج المعارضين للبوليس الدولي

وللمعارضين حججهم ومبرراتهم كذلك . وهي تتركز على عدة اساس ، اهمها :

- ١ - الاعتقاد بان القوات الدولية لن تستطيع منع اسرائيل من مهاجمة لبنان .
- ب - الشك في قدرة هذه القوات على حماية حدودنا .
- ج - وجوب التشبه باسرائيل التي لم تلجأ حتى الان الى الحماية الدولية .
- د - اعتبار القوات الدولية حماية اجنبية مقنعة .
- هـ - التأكيد على ان الغرض من هذه القوات حماية اسرائيل من العمل الفدائي ، واجهاض هذا العمل ، وعزل لبنان عن المحيط العربي ، وعرقلة اي مشروع للخدمة العسكرية الالزامية .

و - التركيز على وجوب استعداد لبنان عسكريا للقيام بواجب الدفاع عن النفس وحماية الحدود .

وسنستعرض بشيء من التفصيل وجهة نظر المناهضين للفكرة ، دون تردد ما سبق لنا ان استشهدنا به من اقوالهم .

- ١ - اكد المعارضون ، في مناسبات عدة ، على ان اسرائيل لن تتورع عن غزو الجنوب واجتياح اية بقعة في لبنان عندما تصمم على ذلك . ان اسرائيل لا تحترم العهود ، ولا تقيم وزنا للمواثيق ، ولا تحجم عن ارتكاب المحرمات في سبيل الوصول الى غاياتها . واقوال التلمود ، وكتابات زعماء الصهيونية ، وتصرفات السياسة والعسكريين فيها ، خير شاهد على ذلك . ولهذا فان اسرائيل ستجتاح ، عندما تجد الفرصة مؤاتية ، القوات الدولية ، اذا وضعت على حدودنا ، وتبطل بها دون ان تخشى في ذلك لومة لائم . وهذا ما حصل لقوات الطوارئ الدولية في حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، عندما اجتازت القوات الاسرائيلية حدود الهدنة وقتلت العشرات من جنود القوات الدولية التي تأخر انسحابها في ذلك الوقت (٨٤) .

وفي العام ١٩٦٨ ، رد الرئيس عبدالله اليافي على اقتراح العميد اده ، فقال :
« ان اسرائيل عندما تريد ان تعتدي ، لا يهملها البوليس الدولي ولا هيئة الامم
المتحدة » والشواهد على ذلك اكثر من ان تحصى « (٨٥) » .

وتحدث المرحوم الشيخ مورييس الجميل (وكان من اركان المكتب السياسي
لحزب الكتائب) عن موضوع البوليس الدولي في لجنة التصميم النيابية فقال :
« ان اسرائيل عندما ترى نفسها قادرة على الاستيلاء على منابع المياه ومضطرة
الى ذلك بحكم نفاذ الاحتياطي من مياهها الجوفية ، وذلك ما سيحصل فعلا في
مدة اصبحت وجيزة ، لن تعدم الحجّة والبررات للاستيلاء على الجنوب
ومنابعه » (٨٦) » .

٢ - واكد المعارضون على ان لبنان عضو مؤسس في الامم المتحدة التي
قامت للمحافظة على السلام والامن الدوليين ، وحماية اعضائها من خطر العدوان
او التهديد بالعدوان . فاذا كانت هذه المنظمة قادرة ومصممة على رد غائلة
العدوان عنا ، فوجود البوليس او عدم وجوده سيان . ولكن المؤسف ان هذه
المنظمة العالمية ما زالت تخضع للمساومات بين الكبار ، وتتردد في تنفيذ
قراراتها ، وتحجم عن انزال اية عقوبة باسرائيل التي اديننت عشرات المرات منذ
قبولها المشروط في العضوية الاممية (٨٧) » .

ولاحظ المعارضون ان العميد اده ، وهو عميد المطالبين بالقوات الدولية ،
يكرر دائما القول بان لبنان ، بسبب ضعف امكاناته ، عاجز عن تأمين الدفاع
عن نفسه ، ويعبر عن ايمانه بقدرة القوات الدولية على حماية لبنان من اي
هجوم اسرائيلي (٨٨) . غير ان العميد اده قد ناقض نفسه بنفسه عندما
اجتمع بالملك حسين ، في ١٣-٩-١٩٦٩ ، واقترح عليه ان تتفق الدول العربية
على الانسحاب من هيئة الامم المتحدة لانها « تحولت الى حائط مبيكى دون ان
تكون لها القدرة على تنفيذ قراراتها » (٨٩) » .

وتساءل المعارضون بدهشة : اذا كانت الامم المتحدة ، كما يؤكد العميد ،
عاجزة حقا عن تنفيذ قراراتها ، فكيف يريد منا ان نطمئن الى ان القوات الدولية
التي سترسلها الينا ستكون قادرة على حمايتنا ؟

وانتهز العقيد نجيب الخوري ، نائب جليل ، صدور هذه الهفوة عن العميد
فأبرز التناقض في موقفه واتهامه بالازدواجية ، وقال : « ان الازدواجية في
شخص النائب ريمون اده بدأت تناقض نفسها ، فهو يطالب باستدعاء البوليس
الدولي لحماية الحدود الجنوبية ، ومن جهة ثانية يطالب بانسحاب الدول العربية
من الامم المتحدة ، لان هذه المنظمة ، حسب تعبيره ، عاجزة عن تنفيذ مقرراتها
بالنسبة لاسرائيل » (٩٠) » .

٣ - وشبه احد المعارضين مشروع البوليس الدولي « بشري عنده بستان ولا يريد ان يسهر عليه ويحميه ، فيستاجر ناطورا ثم ينام هو ويرتاح ٠٠٠ ، وتساءل : « هل الوطن اللبناني بلاد بلا شعب ، او شعب بلا رجال ، او رجال بلا رجولة ، حتى يبحثوا له عن يحميه ٠٠٠؟ اسرائيل المطوقة بالقوى العربية تتجنب طلب الحماية الدولية ، شكليا ، فيجب ان نرفض اي وجود دولي فسي المنطقة قبل ان نثبت وجودنا » (٩١) .

ووجد معارض اخر ان « اقتراح الاستعانة بالبوليس الدولي اشبه بمن يحاول صيانة زهرة نادرة من اعاصير الرياح وخطر الجراثيم والسموم ، فيعمد الى وضعها في بيت من زجاج تجنبا لها من الهلاك ٠٠٠ ثم تثبت له الايام ان الازهار بحاجة الى الرياح ، وان مواجهة الجراثيم والسموم تكسبها مناعة وقوة ، وان الحياة لا تؤخذ الا في ظل خطر الموت . ولو قدر لاقتراح العميد اده ان يوضع موضع التنفيذ ، فسوف تكون النتيجة ان الحس الوطني سوف يزول ، وان لبنان الملا وطن سوف يتدعم ٠٠٠ وبذلك يكون الخوف على حدود لبنان قد اودى بمعنى الوجود اللبناني ٠٠٠ كنا نفهم لهفة العميد على المطالبة ببوليس دولي لحماية حدود لبنان لو اننا استنفدنا كافة امكانياتنا الذاتية ووجدناها غير كافية للوقوف امام العدو » (٩٢) .

٤ - وبعد الغارة على مطار بيروت ، واشتداد الحملة من جديد للمطالبة بالبوليس الدولي ، وجدت الاوساط الوطنية ان تصميم المسؤولين على عدم مقاومة الهجمات الاسرائيلية ينسجم مع سياسة الحماية الاجنبية التي تبنتها العهود السابقة ، وان هذه السياسة تحقق بالفعل الاهداف التي يسعى اليها كل من الاستعمار واسرائيل :

١ - فالحماية الاجنبية هي الوجه الاخر لسياسة الملامقاومة ، اي رفض الاستعداد لمجابهة خطر اسرائيل الدائم . وهذا يعني ضرب الحركة الشعبية التي تريد المقاومة والاستعداد .

ب - والحماية الاجنبية ، سواء اكانت بوجود قوات اجنبية ام بوجود قوات دولية على الحدود ، تعني ضرب العمل القدائي ووضع حاجز منيع ضده .

ج - والحماية الاجنبية تعني التمهيد لمشاريع تصفية القضية الفلسطينية ، التي تعد الان تحت اسم : الحل السلمي والسياسي (٩٣) .

٥ - وتحدث الشهيد جنبلاط عن شعار استقدام البوليس الدولي (الذي اطلقه العميد اده) ، وعن شعار تدويل لبنان (الذي اطلقه بيار الجميل بعد نكسة حزيران / يونيو ، مباشرة) ، فوجد « ان الشعارين متلازمان يكمل

أحدهما الآخر ، ويستهدفان سلخ لبنان عن الكيان العربي وانتمائه الطبيعي لهذا المصير » ، واعتبر « ان استقدام البوليس الدولي يعني في الحقيقة والواقع اول مرحلة من مراحل المخطط الذي وضعته الانعزالية اللبنانية ، في شكلها المتأمر الحلفي ، مع اسرائيل لاجل تمكين الحلف من القيام بدوره الفعال في هذا الاتجاه » . واكد انه يكاد يرى مراحل هذا التخطيط تتوالى على الشكل التالي :

ـ اولا ، استقدام البوليس الدولي لحماية الحدود بين لبنان واسرائيل ، وكذلك للفصل بين لبنان وسوريا .

ـ ثانيا ، قيام ارباب الحلف الثلاثي ، بعد استقدام هذا البوليس ، باستنفار شامل لطاقتهم ورجالهم من اجل القيام بفتنة شعبية يفتعلونها بقصد استقطاب معظم الجماهير المسيحية حولهم .

ـ ثالثا ، مطالبة ارباب الحلف ، في ظل وجود هذا البوليس ، بتدويل لبنان ، اي جعله محكوما مباشرة من الامم المتحدة ، او بالحصول على كفالة دولية من بعض الدول الكبرى لحدوده ، او (وهو الامر الاكثر احتمالا وخطورة) قيام ارباب الحلف بالمطالبة بانشاء وطن قومي طائفي (٩٤) .

وبعد اسبوع ، كتب الشهيد جنبلاط مقالا كشف فيه خطورة الدعوة التي يبذلها البوليس الدولي . وجاء فيه :

« . . . ان استقدام البوليس الدولي ، في هذا الظرف ، يعني عمليا استغناء لبنان عن القيام بأي واجب دفاعي لتقوية جيشه ، وانسحابه من المعركة العربية المشتركة . ان استقدامه ليس لاجل صيانة حدود لبنان ضد اي عدوان مرتقب من اسرائيل بقدر ما هو تأكيد الطابع الدولي للبنان ، والاستعانة بهذا البوليس فيما بعد لمراقبة الحدود العربية بيننا وبين سوريا ، وللقيام على اي نشاط فدائي . واذا توغلنا اكثر في استكشاف بواطن الامور رأينا ارباب الحلف جادين متحفزين للقيام ببعض اعمال التخريب ، او لاطلاق لهيب الفتنة الداخلية والطائفية في البلاد فور ما يستقر بالبوليس الدولي المقام ، لكي يستطيع هذا البوليس الدولي حماية هذه الفتنة ، ولكي يستطيع ارباب هذه الفتنة من التقدم من الامم المتحدة ومن العالم للمطالبة بما هم يكتفون قد صمموا عليه من تجزئة الكيان اللبناني ، وتحقيق جزء من المشاريع الصهيونية » (٩٥) .

٦ - وكشف المعارضون عن هاوية التناقض التي يقع فيها انصار البوليس الدولي عندما يدعون (واهيانا يفاخرون) بان قوة لبنان في ضعفه ، او في براءة دبلوماسيته ، او في عمق صداقاته الدولية ، ثم لا يتورعون عن ابداء

تخوفهم من الهجمات الاسرائيلية والمطالبة بحماية البوليس الدولي . لقد تحدث رئيس الكتائب ، بعد احدي الغارات الاسرائيلية على الجنوب . فقال : « اذا استطاع لبنان ان يحافظ على حدوده حتى الان ٠٠٠ فذلك بفضل دبلوماسيته لا بفضل القوة العسكرية . واذا كان الاسرائيليون قد انسحبوا من اراضيها فان ذلك يعود الى دبلوماسية لبنان وصداقته الدولية، لا الى قوته العسكرية، (٩٦) .

والمعارضون يتساءلون عن مبررات استدعاء البوليس الدولي ما دامت الدبلوماسية او الصداقة الدولية اقوى من القوة العسكرية ، وما دام لبنان يستطيع الاعتماد على احدهما او كليهما ليضمن عدم الاعتداء عليه .

٧ - واثار المعارضون موضوع التجهيز العسكري للقوات الدولية ، فاكذوا ان هذه القوات تكون عادة مزودة بمعدات حربية بسيطة لا تسمح لها بالتصدي لاية قوة نظامية . ومعنى ذلك ان اسرائيل ، اذا قررت غزونا او ارتكاب عمل انتقامي ضدنا ، فستجد القوات الدولية نفسها عاجزة كل العجز عن صدها او تجميد تحركها . هذا بالاضافة الى ان هذه القوات لا تلجا الى استخدام سلاحها الا عند الضرورة القصوى ، اي في حال الدفاع المشروع عن النفس .

قال الامام الصدر ، بعد اجتماع للسياسيين الشيعة ، « ان هناك شكوكا واضحة في مدى فاعلية هذه القوة ، باعتبار ان اسرائيل تستغل الخلاف القائم ، ثم انها تشجع على هذا الخلاف وتقصف الجانبين بصورة مباشرة او غير مباشرة وتجعل الصراع الداخلي متفجرا باستمرار . اذن ما هو المطلوب من القوة الدولية للسلام . اين تقف وماذا تفعل ؟ » (٩٧) .

٨ - وأوضح المعارضون ان المنادين بالبوليس الدولي يحاولون دائما ايهام الرأي العام بان الخطر الاسرائيلي لا يطل الا من الحدود الجنوبية . والحقيقة ان القوات الاسرائيلية ليست بحاجة الى عبور حدودنا عند تصميمها على غزونا ، او الاغارة على مطارنا ومرافقنا ، او تخريب مؤسساتنا ومنشآتنا . ان بإمكانها استخدام الجو او البحر . واذا لجأت الى هذا الاسلوب ، كما فعلت عند ضرب المطار واغتيال القادة الفلسطينيين في وسط بيروت ، افقدت البوليس الدولي كل فعاليته .

وحول هذه النقطة كتب زميلنا الدكتور جورج ديب يقول :

« من يمكنه ان يؤكد ان اسرائيل ستهاجم لبنان برا من الجنوب ؟ هل نقع في نفس الغلطة مرة ثالثة ؟ في المرة الاولى انتظر العرب الضربة الاسرائيلية من الشرق فجاءت من الغرب ، وفي المرة الثانية انتظر لبنان ان تضرب اسرائيل من جنوب لبنان ، فاذا بها تضرب مطار بيروت . هل نقع في نفس الغلطة فننتظر

الهجوم على لبنان برا من الجنوب فنضع قوات دولية هناك ، فاذا باسرائيل تآتينا جوا وبحرا ٠٠٠٩ وهذا يعني ان البوليس الدولي لا يمكن ان يمنع اعتداء اسرائيليا ، (٩٨) .

٩ - وبعد كل ما تقدم طرح المعارضون على انفسهم السؤال المهم التالي :

هل تمركز البوليس الدولي ضمن الاراضي اللبنانية كقيل بحمايتنا ومنع اسرائيل من الاغارة علينا ، او احتلال جزء من ارضنا ؟

ووجدوا ان كل السوابق تجيب بالنفي (مقتل العشرات من القوات الدولية المرابطة في غزة من قبل الاسرائيليين ، عند بداية معركة ١٩٦٧ . وبعضهم قتل عمدا) .

ووجدوا كذلك ان تاريخ اسرائيل المحافل بالارهاب والاجرام لا يوحى بالثقة (اغتيال الكونت برنادوت . وطرد المراقبين الدوليين من منطقة العوجة في العام ١٩٥٥ . وتهديد الجنرال فون مورن ، كيبسر المراقبين ، ومعاونيه بالقتل . ارتكاب مجازر دير ياسين وكفر قاسم ٠٠٠)

ووجدوا ايضا ان اسرائيل تتعامل مع الامم المتحدة وفروعها باستهتار واحتقار . الم تهن اسرائيل المنظمة العالمية وتحقر مجلس الامن عندما اعتبرت القرار الصادر عنه في ٢٦-٨-١٩٦٩ ، والمتعلق بالهجوم على جنوب لبنان ، انه « كالاجراءات التي سبقته حادث دبلوماسي مصيره تنكة الزبالة » ؟ (٩٩) .

وتساءل المعارضون اخيرا عن دوافع المندفعين وراء سراب البوليس الدولي واغراضهم فوجدوها في الرغبة في عزل لبنان وابعاده عن مسيرة المصير العربي المشترك ، وايقنوا ان المطالبة بالبوليس الدولي تنطوي (ادرك الانصار ذلك ام لم يدركوا) على :

- محاولة لواد كل مشروع يرمي الى اقرار خدمة العلم .

- تسليم او اقتناع ساذج بان اسرائيل لا تطمع في لبنان ، وبان السدول والمنظمات العالمية قادرة على حمايتنا وراغبة فيها .

- خطوة تمهيدية ، قد تعقبها خطوات اخرى ، لاقامة تعايش سلمي بيننا وبين اسرائيل .

- تنازل فاضح عن حق اللبنانيين في اعداد انفسهم للدفاع عن وطنهم بانفسهم .

- اجهاض العمل الفدائي وحماية اسرائيل منسه ، لا حماية لبنان من اسرائيل .

- تشجيع الدول العربية المتاخمة للكيان الاسرائيلي على المطالبة ، فيما بعد ، بالبوليس الدولي ، مما يسفر عن حماية اسرائيل وتخلي الاجيال العربية نهائيا عن فكرة التحرير .

- مرحلة اولية لتعميم فكرة الحماية الدولية على النطاق العربي ، فقد تعمد بعض الانظمة العربية الى افتعال الازمات مع جيرانها العرب لتطالب ببوليس دولي على حدودها ، فتعزل نفسها عن بقية الاقطار العربية ، وتقضي بذلك على عملية التفاعل والتقارب بين الجماهير العربية (١٠٠) .



القسم الرابع : موقف اسرائيل من البوليس الدولي

تميز موقف اسرائيل ، منذ انشاء هذا الكيان ، بالرفض المطلق لفكرة القوات الدولية على حدودها الشمالية ، بل بالرفض المطلق لاي وجود دولي يمت بصلة الى منظمة الامم المتحدة . ان اتفاقية الهدنة بينها وبين لبنان تنص على وجود مراقبين دوليين على جانبي خط الهدنة . ومع ان عدد هؤلاء المراقبين كان ضئيلا ، فانها انتهزت فرصة انتصارها في العام ١٩٦٧ ، وارتكاب الحكومة اللبنانية لخطأ الموافقة على قرار وقف اطلاق النار ، لكي تستغني نهائيا عن خدمات المراقبين المرابطين على حدودها .

وعندما كانت مسألة القوات الدولية تثار على الصعيد اللبناني او العالمي ، كان المسؤولون في اسرائيل يسارعون الى حسم الامر واعلان الرفض . ففي حزيران (يونيو) ١٩٧٢ ، المقت غولدا مايبير (رئيسة الحكومة) خطايا في فيينا تطرقت فيه الى هذه المسألة واعلنت رفضها لاي اقتراح بارسال قوات دولية تعمل على احلال السلام في المنطقة (١٠١) . وفي شباط (فبراير) ١٩٧٤ ، اكد ناطق بلسان وزارة الخارجية الاسرائيلية ان الوزارة لم تطلب من الامم المتحدة ، بشكل رسمي او غير رسمي ، ارسال قوات دولية الى الحدود اللبنانية الاسرائيلية (١٠٢) . وفي حزيران (يونيو) من نفس العام ، اعلن شمعون بيريز (وزير الدفاع) رفضه للقوات الدولية وقال ان على لبنان ان يتحمل مسؤولية تسليل الفدائيين لا الامم المتحدة (١٠٣) .

ورفض اسرائيل للقوات الدولية كان رفضا مزدوجا يشمل امكان تمركز هذه القوات على اي من جانبي خط الهدنة . وبقيت اسرائيل متمسكة بهذا الموقف المتصلب حتى نهاية العام ١٩٧٦ .

فكيف نفسر هذا الرفض ؟ او ما هي العوامل او الخلفيات الكامنة وراء

معارضة اسرائيل لارسال قوات دولية الى الطرف الشمالي من حدودها ، او الى الطرف الجنوبي من حدود لبنان ؟ لعل التفسير يكمن في احد الاسباب ، او كل الاسباب التالية :

١ - ان لاسرائيل مطامع في جنوب لبنان * وهي تريد ان تبقى حدودها المشتركة مع لبنان بلا قوات دولية لئلا تحول هذه القوات دون تحقيق هذه المطامع *

ولهذا كان العميد اده يطالب دائما بوجود تمرکز القوات الدولية على الحدود اللبنانية فقط ، لان اسرائيل لا تقبل مطلقا بوجود مثل هذه القوات على حدودها بسبب اطماعها التي ترجع الى سنة ١٩٦٩ (١٠٤) * وتحدث ، في احدي المناسبات ، عن هذا الموضوع فقال ان « موقف اسرائيل بالنسبة الى لبنان واضح * فاسرائيل تريد تنفيذ الخطة المرسومة منذ العام ١٩٦٩ ، عندما كانت تطالب بمرتفعات جبل الشيخ وبن تكون حدودها الشمالية مع لبنان نهج الليطاني ، كي تتمكن من استثمار قسم من مياهه وان تستثمر مياه الحاصباني * وهذا الموقف واضح في رسالة وايزمان الى لويد جورج ، سنة ١٩٦٩ * لذلك رفضت اسرائيل في الماضي وترفض اليوم وسترفض غدا تمرکز القوات الدولية على حدود لبنان ، (١٠٥) *

٢ - ان اسرائيل تحتل بعض المواقع والمراكز المهمة في الاراضي اللبنانية * وهي تخشى ان تكتشف القوات الدولية ذلك وتجبرها على الانسحاب منها ، فهذه القوات ، ان قدر لها المجهود ، ستتمركز على الحدود الدولية التقليدية ، وقد تختار نفس المراكز المحتلة او بعض المراكز الملاصقة او المتاخمة لها *

٣ - ان اسرائيل ترغب (وان كان الكثيرون لا يصدقون ذلك) في عقد معاهدات صلح مع الاقطار العربية * وهي تعتقد ان وجود القوات الدولية على الحدود قد يؤدي ، في حال نجاحها ، الى تمنع او تلوؤ لبنان وبقية الاقطار العربية في عقد هذه المعاهدات *

٤ - ان اسرائيل تعتقد ان ثمة فرقا بين القوات الدولية المرابطة في سيناء والجولان وبين القوات التي يمكن ان ترابط على حدودها مع لبنان * ان الاولى تتمركز في مناطق تتميز بقلّة سكانها ، وضعف اهميتها الاقتصادية ، وبعدها عن مراكز الثقل في اسرائيل * اما الثانية فستكون على مقربة من مراكز النشاط والحركة والانتاج فيها ، وستعرقل مشاريعها التوسعية في جنوب لبنان *

٥ - ان اسرائيل قد بذلت حتى الان كل الجهود واستخدمت كل الوسائل للقضاء على العمل الفدائي ، فعجزت ورفضت الاعتراف بهذا العجز وادعت ان النشاط الفدائي لا ينبع من الداخل وانما يأتي من الخارج ، وخصوصا

من لبنان • ومع أن الايام والاحداث قد برهنت على أن السنابل الفدائية اصبحت تنبت في ارض فلسطين ، فإن هدوء الاوضاع على جبهات دول الحدود العربية، باستثناء الحدود اللبنانية، قد سمح لاسرائيل بتحميل لبنان مسؤولية كل عملية فدائية تجري على حدودها او في داخل الارض المحتلة • واسرائيل تخشى وجود قوات دولية على الحدود لان هذا الوجود كفيل بالكشف عن تحرك الفدائيين ، واثبات صحة العمل الفدائي الداخلي ، وتبرئة الساحة اللبنانية مما ينسب اليها زورا في معظم الاحيان •

والحقيقة أن موقف اسرائيل من مسألة القوات الدولية على الحدود اللبنانية كان دائما موضع استغراب وتعجب • وكان الكثيرون يبحثون عن تفسير او تحليل لموقفها المتناقض من هذه القوات : فهي ترضى بها في سيناء والجولان، وترفضها على حدود لبنان ، على الرغم من شكواها الدائمة من تسلل الفدائيين عبر هذه الحدود ، وعلى الرغم من كون هذه القوات اشد فاعلية من السلطات اللبنانية في منع التسلسل الفدائي •

ولاحظ العميد اده هذا التناقض ، في صيف العام ١٩٧٤ ، عندما جمعدت جميع العمليات الفدائية التي كانت تنطلق من الاراضي اللبنانية دون أن يؤدي ذلك الى توقف العمليات التي كانت تنطلق من داخل الاراضي المحتلة • وعشر العميد على التفسير عندما اكد ان « اسرائيل تريد ان تقول العكس ، لكي تجد ذريعة لضرب لبنان والمدنيين الامنين في لبنان » (١٠٦) •

٦ - ان اسرائيل تعرف حق المعرفة ان الحرب بينها وبين العرب قادمة يوما، وان عدوها الذي تضشاه في الشمال هو سوريا وليس لبنان • ولكن الاستراتيجية العسكرية تحتم على اسرائيل ، عند اندلاع الحرب ، مهاجمة سوريا من الاراضي اللبنانية • وقد تعرقل وجود القوات الدولية على الحدود اللبنانية مخططاتها الهجومية (١٠٧) •

٧ - ان الولايات المتحدة لا ترغب في ارسال قوات دولية الى المنطقة • إن مصلحتها تقضي بأن تبقى المنطقة على قوهة بركان • ان اهتمامها بالمنطقة يرتبط بمدى توافر النفط فيها • وتأمين السيطرة على النفط لا يتم الا بحرمان المنطقة من الراحة والاستقرار •

وقد وعى العميد اده هذه الحقيقة عندما اتهم الولايات المتحدة بان « ليس لها مصلحة في ان تقف هذه الغارات وهذا الهجوم الاسرائيلي العسكري ضد لبنان » • وشرح ذلك بقوله : « مصلحة اميركا هي مصلحة اسرائيل ، ومصلحة اسرائيل هي مصلحة اميركا • ويمكن ان تكون اسرائيل اليوم هي النجمة الـ ٥٢ او الـ ٥٣ في العلم الاميركي • واميركا عندها اسطسول سادس في البحر ،

واسطول سادس بري هو اسرائيل ، واسرائيل موجودة لتدافع عن مصالح اميركا . وانا اعتقد انه في اليوم الذي تفرغ فيه ابار البترول في المنطقة ستترك اميركا اسرائيل تتدبر امرها بنفسها » (١٠٨) .

وبقيت اسرائيل متمسكة بموقفها الرفض من مسألة القوات الدولية حتى نهاية العام ١٩٧٦ . ففي هذه الفترة التي تدفقت فيها قوات الامن العربية على لبنان ، زعم اسحق زابيين (رئيس الحكومة) « ان ليس لدى اسرائيل مطامح في شبر واحد من الارض اللبنانية » (١٠٩) .



وابتداء من نهاية شباط (فبراير) ١٩٧٧ ، بدأت التصريحات الاسرائيلية تسجل تراجعاً ملموساً في هذا المضمار . وهذا التراجع يتميز بأمرين بارزين : الامر الاول هو اكتفاء اسرائيل بمعارضتها لارسال قوات دولية الى حدودها وعلان عدم اعتراضها على ارسالها الى لبنان . ففي نهاية شباط (فبراير) ، ذكرت مصادر قريبة من وزارة الخارجية الاسرائيلية ان اسرائيل لم تتلق رسمياً اقتراحاً للرئيس سركيس بشأن مرابطة قوة دولية في جنوب لبنان . وذكّرت مصادر اخرى ان ييغال الون (وزير الخارجية) اعلن في مجلس الوزراء « ان لبنان دولة ذات سيادة ، واسرائيل لن تتدخل في اختيارها المحتمل دعوة قوات من الامم المتحدة للمرابطة على اي جزء من اراضيها ، بما في ذلك جنوب لبنان . ولكن الموقف قد يتغير كلياً اذا تضمن اقتراح سركيس رغبة لبنان في أن يرى على الجانب الآخر قوات لمنظمة الامم المتحدة في الجليل ، فمثل هذا الاقتراح سيكون مرفوضاً رفضاً قاطعاً في هذه الحال » (١١٠) .

والامر الثاني هو اشتراطها عدم التخلي عن حقها في ملاحقة الفدائيين داخل لبنان . فقبل زيارة رايبين لواشنطن واجتماعه بالرئيس الاميركي كارتر ، اذاعت الاوساط السياسية الاسرائيلية ان مسألة تمركز قوات دولية في جنوب لبنان ستكون من بين المواضيع التي ستبحث في الاجتماع . وقالت صحفية « هآرتس » ان اسرائيل ترغب ، في حال ارسال قوات دولية الى جنوب لبنان ، في الافادة من « ترتيبات خاصة » تسمح لها بملاحقة الفدائيين داخل الاراضي اللبنانية في حال شنهم هجمات جديدة رغم وجود القوات الدولية (١١١) . وحاول شمعون بيريز ، في اليوم التالي ، ان يحرض السلطات اللبنانية ، كالعادة ، على اتخاذ « التدابير المناسبة » في الجنوب لتصبح القوات الدولية ذات فائدة ، فهذه القوات ، في رأيه « يمكن ان تكون ذات فائدة في المناطق التي يسودها الهدوء اذ انها ليست قوة تهدئة بل قوة مراقبة » . والوضع في جنوب لبنان

لا يشكو من عدم وجود مراقبة بل من عدم تدابير مناسبة » (١١٢) .

ما هو التعليل الصحيح لهذا التغير الطارىء او الانقلاب المفاجيء في موقف اسرائيل ؟ وهل هو تغير صادق وثابت يأتي ليصحح سياسة خاطئة ، ام انه تكتيك ظاهري يتخذ ليخدم اغراضا مرسومة في مرحلة معينة ؟ ان كل تعليل ، في رأينا يجب ان ينطلق من الوقائع والحقائق والخلفيات التالية :

اولا - ان السياسة الخارجية لدولة ما ليست ، في الغالب ، سوى انعكاس لسياستها الداخلية . ويبلغ الترابط احيانا بين السياستين درجة من التلاحم والتشابك تصبح فيه السياسة الخارجية صورة اخرى للسياسة الداخلية . وتتجلى هذه الظاهرة في اسرائيل اكثر من اية دولة اخرى . واسرائيل تمر الان بازمات داخلية خانقة . واوضاعها السياسية والاقتصادية تجتاز مرحلة عسيرة . واسرائيل ، عندما تتعرض لازمة ، تعتمد الى تنظيم شؤون البيت واعداد الخطط لمفاجأة الجميع بعمل تظن انه قادر على طمس معالم الواقع واحداث تغيير جذري في العقليات والمفاهيم والايضاح . ان استراتيجيتها في هذا الصدد اصبحت معروفة . انها الان في ازمة وفي فترة انتخابات نيابية . وهي تود اعادة ترتيب بيتها . ومصحتها تقضي بعدم استثارة الغير واشارة المتاعب لنفسها .

ثانيا - ان وجود قوات الردع العربية بكثافة في لبنان وامكان تحولها ، في الملمات المصرية ، الى قوة امن رادعة تتعاون مع الجيش اللبناني (كله او بعضه) للذود عن حياض لبنان ، امر يدعو الى التبصر والتروي . ومصصلحة اسرائيل تقضي باتباع الحكمة وانتظار رحيل هذه القوات او انخفاض عددها قبل الاقدام على اي عمل عسكري . كما تقضي مصحتها بايهام العرب والعالم بانها غيرت موقفها السابق من مسألة تمركز القوات الدولية على الحدود اللبنانية ، مما قد يدخل الطمانينة على قلوب اللبنانيين والعرب : قلوب اللبنانيين ليصرفوا النظر عن تحصين الجنوب وتعزيز قوتهم العسكرية ، وقلوب العرب ليتسابقوا الى سحب قواتهم واختصار نفقاتهم .

ثالثا - ان فكرة استقدام قوات دولية الى الحدود اللبنانية تطرح الان ، من جديد ، وبالبحاح . من جانب بعض الاطراف المتنازعة في لبنان . والزأي العام اللبناني والعربي حائر ومنقسم على نفسه حول هذه المسألة . ومن مصلحة اسرائيل ان تتظاهر بالمرونة والاعتدال لتزيد النار اشتعالا ، وتحكم في الاذهان ربط فكرة القوات الدولية بالوجود الفلسطيني في الجنوب ، وتوغر الصدور ضد الفلسطينيين وضد المناهضين للبوليس الدولي ، وتطرح امام اللبنانيين في النهاية اختيارات حرجة . احلاها مر . وهي ، في كل ذلك ، الرابحة ، لان المنازعات الداخلية في اي قطر عربي ، وخصوصا اذا كان هذا القطر لبنان المتأخم

لها والحافل بكل ما يقلقها وينغص عيشها ، تخفف من مشاغلها وهمومها وتساعدها على الانصراف الى اعداد الخطط التوسعية للغد القريب .

رابعاً - ان كل الدلائل تشير الى ارتفاع اسهم المتطرفين في اسرائيل، واحتمال تسلمهم قريبا مقاليد الحكم فيها . واذا حدث ذلك واصبحت اسرائيل تحس رحمتهم ، فان موجة من التغيير ستصيب مخططاتها ومؤسساتها وتصرفاتها . وليس من المستبعد ان يصبح التطرف المقرون بالعنف شعارها . والحكمة تقضي بان تسلك اسرائيل الان الطريق الذي اتبعته المنظمات اليهودية الارهابية تجاه عرب فلسطين ، في فترات من عهد الانتداب ، فتتظاهر بمهادنة جيرانها ، ومنهم لبنان ، الى ان ينجلي الموقف ، وتهبط الازمات ، وتنجز الخطط ، ويصبح بالامكان ترجية الضربات الحاسمة الى الخصوم .

خامساً - ان الولايات المتحدة تعاني كغيرها من ازمة الوقود والطاقة . وقد شعر الرئيس كارتر بوطأة هذه الازمة فوضع برنامجا لمعالجتها . وحاجة الدول الصناعية ، والولايات المتحدة في طليعتها ، الى النفط تزداد شهرا بعد شهر . والانظار تتجه حاليا الى الدول النفطية في الوطن العربي ، فهي تعوم فوق بحيرات من النفط تخزن في جوفها اكثر من ٧٠٪ من الاحتياطي العالمي . ويبدو ان حكومة واشنطن ، في عهد الرئيس الجديد ، باشرت بتنفيذ سياسة جديدة تستهدف التوفيق بين الحاجات والاطماع ، وبين التكتيك والاستراتيجية ، كما تستهدف كسب ود العرب وابتزاز اموالهم بأسلوب منمق مستحدث ودون التضحية بالعلاقة العضوية التي تربطها باسرائيل . ولهذا تعددت اللقاءات بين المسؤولين العرب والاميركيين ، وكثرت التصريحات والوعود المعسولة بتسوية ما يسمى بازمة المشرق الاوسط وانشاء ما يسمى بالوطن القومي الفلسطيني ، فانعكس ذلك على سلوك المسؤولين الاسرائيليين (المشتركين خفية في اعداد السياسة الاميركية الجديدة) فاخذوا يبدون استعدادهم للتفاهم مع جيرانهم . وما تظاهروا به بالتساهل في قبول القوات الدولية على الجانب اللبناني من الحدود الا تكيف ذكي وانسجام مراوغ مع الخط السياسي المرسوم للمرحلة الراهنة .



الحواشي :

- ٢ - النهار ، ٢٦-٦-١٩٦٨ .
- ٣ - اليوم ، ٢٦-٦-١٩٦٨ .
- ٤ - النهار ، ٢٧-٦-١٩٦٨ .
- ٥ - نفس المرجع السابق .

١ - لمزيد من المعلومات راجع كتاب:
قوة الطوارئ الدولية ، للاستاذ مصطفى
مؤمن ، القاهرة ١٩٦٠ .

- ٢٥ - النهار ، ١٧-١-١٩٦٩ .
- ٢٦ - النهار ، ٢٦-١-١٩٦٩ .
- ٤٦ - النهار ، ٢٨-٢-١٩٧٤ .
- ٤٧ - قال في اللجنة : « اذا (واشدد على اذا) وافق السوريون على وجود قوات دولية بينهم وبين اسرائيل ، فهل هناك مانع ان نطلب نحن قوات دولية تقف حتى (واشدد على كلمة حتى) على ارض لبنان وحده ، لان اسرائيل ربما رفضت وجود قوات دولية على ارضها . وانا من الان اقول ان اسرائيل ستعارض حتى وجود قوات دولية على ارض لبنان لان لها مطامع وتنوي وضع يدها على المياه اللبنانية » . النهار ، ١٢-٣-١٩٧٤ .
- ٤٨ - راجع ما دار فيها في النهار ، ٢٦-٤-١٩٧٤ .
- ٤٩ - النهار ، ٢٤-٣-١٩٧٠ .
- ٥٠ - اقرأ كلمته خلال المائدة التي اقامها في فندق « هوليداي ان » ، الاوربان ، ١٦-٢-١٩٧٤ .
- ٥١ - النهار ، ٧-٣-١٩٧٠ .
- ٥٢ - النهار ، ٢-٦-١٩٧٠ .
- ٥٣ - مجلة البلاغ ، ٣١-١-١٩٧٢ .
- ٥٤ - راجع نص البيان في النهار ، ٢٩-٢-١٩٧٢ .
- ٥٥ - النهار ، ٢٠-١٢-١٩٧٤ .
- ٥٦ - النهار ، ٢٤-٢-١٩٧٥ .
- ٥٧ - السفير ، ٧-٨-١٩٧٥ .
- ٥٨ - النهار ، ٤-١١-١٩٧٥ .
- ٥٩ - النهار ، ٢٥-١١-١٩٧٦ .
- ٦٠ - النهار ، ٢٨-٢-١٩٧٧ .
- ٦١ - السفير ، ٢٨-٢-١٩٧٧ .
- ٦ - النهار ، ٢٨-٦-١٩٦٨ .
- ٧ - النهار ، ٢٩-٦-١٩٦٨ .
- ٨ - الانباء ، ٢٩-٦-١٩٦٨ .
- ٩ - الحوادث ، ٥-٧-١٩٦٨ ، ص ٧ .
- ١٠ - راجع ما كتبه أنسي الحاج في ملحق النهار ، ٧-٧-١٩٦٨ ، ص ١٩ . غير ان مارك رياشي كتب في « زاويته » بعد اشهر مطالبا باستقدام قوات دولية « تكون في الوقت نفسه جحافل سياسية تغيد بلدنا على الصعيد الاقتصادي ، فضلا عن حمايته على الصعيد الكياني » . النهار ، ١٤-١-١٩٦٩ .
- ١١ - النهار ، ١٠-٧-١٩٦٨ .
- ١٢ - الحوادث ، ٥-٧-١٩٦٨ ، ص ٦ .
- ١٣ - النداء ، ٨-١-١٩٦٩ .
- ١٤ - الحرية ، ١٣-١-١٩٦٩ ، ص ٥ .
- ١٥ - نفس المرجع السابق .
- ١٦ - وكالة الصحافة الفرنسية ، ١٤-١-١٩٦٩ .
- ١٧ - العمل ، ١٦-١-١٩٦٩ .
- ١٨ - نفس المرجع السابق .
- ١٩ - المحرر ، ١١-٢-١٩٦٩ .
- ٢٠ - النهار ، ١٥-٢-١٩٦٩ .
- ٢١ - النهار ، ٢١-٢-١٩٦٩ . وقد كرر العميد تصميمه على الاستعانة بالبوليس الدولي فيما لو اصبحت رئيسا للجمهورية ، وردة على التهمتين المذكورتين في مقابلة صحافية اخرى . النهار ، ٢٩-٤-١٩٦٨ .
- ٢٢ - النهار ، ١٣ و ١٤-٦-١٩٦٩ .
- ٢٣ - النهار ، ١٨-٦-١٩٦٩ .
- ٢٤ - النهار ، ٣٠-١١-١٩٦٩ .

- ٤٥ - النهار ، ١١-٥-١٩٧٤ .
 ٦٣ - نفس المرجع السابق .
 ٦٤ - نفس المرجع السابق .
 ٦٥ - السفير ، ٢-٢-١٩٧٧ .
 ٦٦ - النهار ، ٢-٢-١٩٧٧ .
 ٦٧ - النهار ، ٥-٢-١٩٧٧ .
 ٦٨ - النهار ، ٢-٢-١٩٧٧ . ويبدو ان نائب رئيس « الاحرار » (النائب كاظم الخليل) لم يتنبه الى التغيير الذي طرأ على سياسة الحزب و« الجبهة » ، او انه لا يحسن التنسيق مع رئيسه ، فصرح في ١٢ آذار (مارس) قائلاً : « ليس من جيش لبناني قابل للوجود في الجنوب ، وقد طالبنا ونطالب بايجاد قوة ردع دولية تضع حدا للمأساة ، لان اسرائيل تزعم ان قوة الردع العربية تشكل خطراً على امنها » . النهار ، ١٢-٢-١٩٧٧ .
 ٦٩ - النهار ، ٩-٢-١٩٧٧ .
 ٧٠ - الثورة (السورية) ، ٢-٢-١٩٧٧ .
 ٧١ - من تصريح للعميسد اده ، النهار ، ٢٩-٤-١٩٦٩ . وقال في تصريح آخر انه بعد ضرب مطار بيروت وجد ان الجيش اللبناني قد سيسته العهود السابقة ، فتخوف واقتنع بان ليس عندنا جيش بالمعنى الصحيح . ولذلك طالب بالبوليس الدولي . النهار ، ٢١-١٢-١٩٧٢ .
 ٧٢ - من تصريح للعميسد اده ، النهار ، ١-٥-١٩٦٩ .
 ٧٣ - من تصريح للعميسد اده ، النهار ، ٦-٥-١٩٦٩ .
 ٧٤ - من تصريح للعميسد اده ، النهار ، ١٩-٥-١٩٦٩ .
 ٧٥ - من تصريح للعميسد اده ، ١٧-٩-١٩٧٤ .
 ٦٢ - النهار ، ١-٣-١٩٧٧ .
 ٢٧ - العمل ، ١١-٣-١٩٦٩ .
 ٢٨ - العمل ، ١٨-٣-١٩٦٩ .
 ٢٩ - النهار ، ١٨-٣-١٩٦٩ .
 ٣٠ - المحرر ، ١٨-٣-١٩٦٩ .
 ٣١ - النهار ، ٢٣-٣-١٩٦٩ .
 ٣٢ - الانوار ، ٢٣-٣-١٩٦٩ .
 ٣٣ - الحوادث ، ٤-٤-١٩٦٩ .
 ٣٤ - الأنباء ، ٤-١٠-١٩٦٩ .
 ٣٥ - النهار ، ١-٢-١٩٧٠ . وعلق العميسد اده على هذا الموقف بقوله ان على الوزير بيار الجميل ، ان كان مقتنعاً بمقدرة القوات الدولية على حمايتنا من الغزو الاسرائيلي ، « ان يحمل مجلس الوزراء على اقرار ذلك ، والا استقال من الحكومة » . النهار ، ٢-٢-١٩٧٠ .
 ٣٦ - النهار ، ٤-٢-١٩٧٠ .
 ٣٧ - النهار ، ٢٢-٢-١٩٧٠ .
 ٣٨ - النهار ، ٢٩-٢-١٩٧٠ .
 ٣٩ - النهار ، ٢-٢-١٩٧٠ .
 ٤٠ - راجع محضر جلسة مجلس النواب في ٦-١٢-١٩٦٩ .
 ٤١ - راجع محضر جلسة مجلس النواب في ١٩-١-١٩٧١ . وراجع ما ورد في الكلمة التي القاها العميسد فسي « نادي النسور الاجتماعي » ، النهار ، ٢٦-١-١٩٧١ .
 ٤٢ - النهار ، ١٦-٢-١٩٧١ .
 ٤٣ - اعلن في ندوة متلفزة ان « البوليس الدولي هو الحل الوحيد » ، الانوار ، ١٨-١-١٩٧٢ .
 ٤٤ - النهار ، ١٧-٩-١٩٧٤ .

- في الامم المتحدة ، في مجلة دراسات عربية ، عدد ايار (مايو) ١٩٧٥ ، ص ٣١ .
- ٨٨ - النهار ، ٤-٩-١٩٦٩ .
- ٨٩ - النهار ، ١٥-٩-١٩٦٩ .
- ٩٠ - الانوار ، ٢٤-٩-١٩٦٩ .
- ٩١ - راجع مقال عزت صافي : الانوار ، ٢٨-٦-١٩٦٨ .
- ٩٢ - الحوادث ، ٥-٧-١٩٦٨ ، ص ٧ .
- ٩٣ - الحرية ، ١٢-١-١٩٦٩ ، ص ٥ .
- ٩٤ - راجع افتتاحية المحرر ، ١٦-١-١٩٦٩ ، التي كتبها جنبلات بعنوان : البوليس الدولي ومخطط الحلف .
- ٩٥ - المحرر ، ٢٣-١-١٩٦٩ .
- ٩٦ - النهار ، ١-٣-١٩٧٢ .
- ٩٧ - السفير ، ٢-٣-١٩٧٧ .
- ٩٨ - راجع ما قاله في ندوة النادي الثقافي العربي حول : قضايا الدفاع عن الوطن . مجلة الثقافة العربية ، عدد شباط (فبراير) ١٩٦٩ ، ص ٨٠ .
- ٩٩ - راجع كتابنا : اعمال اسرائيل الانتقامية ضد الدول العربية . مركز الابحاث . سلسلة دراسات فلسطينية ، رقم ٧٠ ، ص ١٨٢ .
- ١٠٠ - راجع مقالنا ، المذكور ، عن التدويل ، ص ٦٠ .
- ١٠١ - وكالة رويترز ، ٢٥-٦-١٩٧٢ .
- ١٠٢ - الاوريان ، ١٦-٢-١٩٧٤ .
- ١٠٣ - النهار ، ٩-٦-١٩٧٤ .
- ١٠٤ - الانوار ، ١٣-٨-١٩٧٢ .
- ١٠٥ - النهار ، ٨-٨-١٩٧٤ . وراجع
- النهار ، ٢٧-٥-١٩٦٩ .
- ٧٦ - من تصريح للعميد اده . النهار ، ٢٧-٢-١٩٧٥ .
- ٧٧ - من اقوال العميد اده ، في مناظرة الجامعة اليسوعية . العمل ، ١٦-٢-١٩٦٩ .
- ٧٨ - من تصريح للرئيس شمعون النهار ، ٢٢-٢-١٩٦٩ .
- ٧٩ - من تصريح للعميد اده ، النهار ، ٣١-٢-١٩٦٩ . وكان قد قال في تصريح سابق : « اما الذين يقولون ان استدعاء قوات طوارئ دولية من شأنه ان يمنع تسلل الفدائيين ، فهو قول مردود وغير صحيح لانه من الصعب على اية قوة تقف على الحدود الطويلة ان تمنع هذا التسلل ، الا اذا كان عدد قوات الطوارئ ضخمًا للغاية » . النهار ، ١٣-٢-١٩٦٩ .
- ٨٠ - من تصريح للعميد اده . النهار ، ٣١-٣-١٩٦٩ .
- ٨١ - من تصريح للعميد اده . النهار ، ١٣-٢-١٩٦٩ .
- ٨٢ - السفير ، ٢٨-٢-١٩٧٧ .
- ٨٣ - النهار ، ٢-٢-١٩٧٠ .
- ٨٤ - راجع مقالنا عن : التدويل والتحييد والبوليس الدولي ، في مجلة الطريق عند شباط (فبراير) ١٩٦٩ ، ص ٥٩ .
- ٨٥ - الانوار ، ٢٨-٦-١٩٦٨ .
- ٨٦ - العمل ، ١١-٥-١٩٦٩ .
- ٨٧ - اسرائيل هي ، من بين جميع الدول التي انضمت الى الامم المتحدة العضو الوحيد الذي ارتبط قبوله في العضوية الاممية بتعهده بتنفيذ بعض القرارات الصادرة عن الجمعية العامة . راجع دراستنا عن : فلسطين واسرائيل

- ١٠٨ - من حديث له لاذاعة مونت كارلو . نقلًا عن السفير . ١٢-٧-١٩٧٥ .
- ١٠٩ - النهار . ٤-١٢-١٩٧٦ .
- ١١٠ - النهار . ٢٨-٢-١٩٧٧ .
- ١١١ - النهار . ٣-٢-١٩٧٧ .
- ١١٢ - النهار . ٥-٢-١٩٧٧ .

مقالا عن : المشاريع الصهيونية وجنوب لبنان ، في مجلة مركز الدراسات الفلسطينية ، في جامعة بغداد . عدد اكتوبر ١٩٧٦ ، ص ٨٣ .

- ١٠٦ - النهار ، ٨-٨-١٩٧٤ .
- ١٠٧ - النهار ، ٩-٦-١٩٧٤ .

الإحتمال الأخير

[قصة]

الياهو هوري

« ماذا كنت تفعلين قبل ثلاثمائة عام في الحدائق القديمة »
الشهيد : محمد شبارو

انا هو الاحتمال الاخير ، قلت لها ونحن نمشي على شاطئ طويل . الرمل بين اقدامنا ، وهي ، بجسدها الاسمر وشعرها القصير كشعر فتى زنجي لا يمل من الضحك ، تهزأ مني . انت رومنطقي تقول . تصمت وتتركني اتكلم الى ما لا نهاية . وانا اتكلم . ادلى داخل الكلمات . التقط الحصى ، اضعه في فمي واستمر . ثم حين امسك بها تهرب الى الرمل ، تضع الرمل على رأسها وتلوح به في الفضاء . ثم تصرخ : توقف . اتوقف ، قائنا لا نستطيع . اعود كل مساء الى المنزل منكسرا ، واقدر ان اصمت . يجب ان امشي الى جانب الفتى الزنجي النحيل دون ان افتح فمي . عندها ، سرف تسقط في اللجة وتتكلم الى ما لا نهاية ، مثل جميع النساء . اهز رأسي ، ابتسم قليلا ، ارفع حاجبي من حين الى آخر ، ثم اقول حكمتي : انت رومنطقية . ولكن عندما التقيها يسقط قراري ، وابقى انا الرومنطقي الوحيد . عنقها يعلو . لا افهم ، وجه نحيل وشعر قصير يختلط بالرياح وعنق يمتد الى ما لا نهاية . وعندما احاول الامسك بالعنق واعلو اليه اسقط على الرمل . عليك ان تفهم كانت تقول . وامي تفهم كنت اقول . تنتظرنني حين اعود منهكا . وهي تعتقد انني لا اتكلم . لذلك لا تسأل . فقط تعطينني قليلا من الطعام ، لكنني طبعا لا اكل . تحزن امي ، انا احزن ، والعنق الطويل الذي اتسلقه لا يتوقف عن الامتداد . اتوقف عن طرح الاسئلة ، امشي الى جانبها ،

رأسي الى الارض ، ما هذا الحذاء تقول • هذا حذاء الفدائيين اجيبيها ، ثم
 نصمت • اسمها مريم • طبعاً لا يستطيع الركض اكثر • اتبعها ، تركض ، ثم
 تنحني • تضع الرمل على رأسها. كما تفعل دائماً • اذهب ، لماذا حذاء الفدائيين ؟
 وترن ضحكتها • وانا اسقط في حذائي • انزلق داخله كأنه سفينة صغيرة علي
 شاطئ طويل •

- انا فدائي •

- ولماذا انت فدائي ؟

- لانني اصبحت فدائياً •

- ولماذا اصبحت فدائياً ؟

- لانني ، لا اعرف • لانني احبك •

- انت رومنطريقي •

- انا امير •

- انت كلب •

- انا بطل •

- انت فدائي •

-

ضحكت • رنت كالقوس • امسك الرجل قوسه ورماه • لم يدخل السهم •
 سقط السهم في البحر ، وبدأ السهم يغرق •

- لماذا انت خارج الرمل ؟

قالت انها لا تحب ان تجيب على اي سؤال من اسئلتني •

- هل تعرف ابي ؟

- لا اعرفه •

- هل تحب ابي ؟

- كيف احب رجلاً لا اعرفه •

- يجب أن تحبه لانه ابي •

- لا احبه ، ولا احب جميع الآباء •

- لكن ابي مات .
- جميع الآباء يموتون .
- لكنه احترق .
- جميع الآباء يحترقون .

امسكت الكاميرا الى كتفي ووقفت . اريد أن أصورك . اخذت الكاميرا ورسمت الفتى الزنجي النحيل على الحائط ، ثم رسمت دائرة . قفي داخل الدائرة . تقف داخل الدائرة . أدور بها وهي تدور . تمد ذراعيها الى الامام ، ثم تنحني ، تصبح دائرة . - لماذا تلبسين البنطلون ؟ - تضحك . تدور داخل نفسها ثم تسقط وسط الدائرة . تمد يديها الى اقصاهما ، وجهها يرتجف قليلا . اتركها على الارض وارفعها الى سقف الغرفة . السقف يمتلئ بالرمل ، ثم ينحدر المرجح . أجلب قشا وأضعه على رأسها . انت دجاجة أقول . لماذا هذه الحرب تسال . امسك الكاميرا واعطي الاوامر . انا المخرج ، ممثلة واحدة ويحر ورمال .

- وكيف احترق والدك الذي لا احبه ؟
- تنهض ، تزيل القش عن رأسها ، تخرج من الدائرة ، انا لا احب دائرتك ولا السينما .
- ولكن كيف احترق والدك ؟
- اريد أن اذهب الى البيت . وأنا على اي حال لا اقرأ الصحف ولا احب قراءتها .

- اين مات والدك ؟

- انا في بيروت منذ مدة طويلة . وامس قالت امي انها تريد ان نذهب الى عمان . لكني لا اريد الذهاب الى عمان . انا لا احب عمان . هل تحب عمان ؟ . كانت عمان مدينة عندما تعرفت اليها . لا لم تكن مدينة . كانت مجموعة تلال . ذهب ، كان الجيش يستعد ونحن نستعد . لذلك لم اتجول في المدينة . كنت اقف في كمين والى جانبي رجال سمر جباههم لكني لم اعد اذكر اسماءهم . وكانت الطلقات تنفجر في الغضاء فوق رؤوسنا . لكن لم يحصل الصدام . الشروط الموضوعية لم تكن ناضجة . هكذا قالوا لي . طبعا اقتنعت . عندما تأتي الشروط الموضوعية لا تستطيع سوى ان تقتنع . والمشروط المقنعة يجب ان تكون موضوعية . كنت اسير وحيدا في شوارع عمان . فأنا لا اعرف احدا . والدورة العسكرية انتهت ، وعلي ان اعود الى بيروت . ولم تكن عمان تعني شيئا سوى انها مليئة باحذية الفدائيين وصور الشهداء والبنادق والذكريات عن

الوطن وهزيمة ٦٧ • لذلك لا اعرف عمان • اذكر انها كانت بيضاء ، وفي مجزرة ايلول ، حتى الدماء كنت اراها بيضاء • طبعاً لا احب هذه المدينة • جميع اصدقائي لا يحبونها • انها لا تشبه شيئاً • ربما تشبه الليل • مات اصدقائي في عمان ، لكن هذا لا يغير شيئاً •

ترقص في السقف ، ثم تنحدر الى الحائط • المدينة الاولى هي مجموعة حجارة ورمال وركام • القتي النحيل في السقف • ينحني ، يدور حول نفسه ، ينكسر • يسقط من السقف الى الحائط • تحمله الكاميرا الى يدي • اضيء الكهرباء • هل اعجبك الفيلم ؟ في المرة المقبلة سوف احمل الرمل والملح داخل ايقاع لم اكتشفه بعد • حين تنحني المرأة داخل الدائرة ، تصبح الدائرة اكثر جمالا • تصبح مثل الرغيف او مثل الليمونة •

- ولكنك لا تعرف عمان •

- الاسم •

- طلال • طلال صالح •

- المهنة •

- طالب في كلية الهندسة •

- لماذا تتظاهر ؟

- جميع الطلاب يتظاهرون ، وانا اتظاهر مثلهم •

البوليس ، احمر الوجه ، يحمل عصا بيضاء وترسا ابيض وقنابل مسيلة للدموع • نبكي ونهجم عليهم • بعضهم باقنعة وبعضهم بيكي بدون اقنعة • لكنهم يرتجفون • ونحن نركض وسط الشوارع ، نقتلع اسلاك الكهرباء وعواميد السير ، نهجم على تمثال بشارة الخوري تربطه بالحديد • نرقص • العصا بيضاء والترس ابيض ورجال الشرطة يكون ونحن نبكي : يقف الضابط • انت ويشير الي • انت هو المسؤول • تفرق يدي في جيبي ، ثم يسقط قميصي يتهدل فوق بنطلوني • لا اجيب • اصيب العشرات من رجال الشرطة يصرخ الضابط • انت مسؤول • انحدر الى الزاوية • الملك هو المسؤول • ثم اذهب الى البيت كالعادة • « ماذا كنت تفعلين قبل ثلاثمائة عام في الحدائق القديمة » •

ابي يعرف عمان • وامي تصر على الذهاب الى هناك • تخاف من القذائف • انا كذلك اكره الحروب • اعرف ماذا ستقول • اشارت باصبعها الى شفيتها كي اسكت • لكنني اكره الحروب وخاصة الحروب العادلة • انا احب ابي • وهو حين ذهب في المرة الاخيرة لم يعد ابدا • حتى حذاؤه لم يعد • طلبت من المسؤول ،

وكان صديقا لابي، ان يعطيني ثيابه او حذاءه او اي شيء • لم يبق شيء • وعندما ذهبنا الى المقبرة كان داخل النعش • وانزل الى التراب في النعش • احترق • لم افهم شيئا • دائما لا نفهم الاشياء الاساسية ، لذلك نتوقف عند التفاصيل • يوما اكتشفت عمان • انها مجموعة جبال ، هكذا يقولون دائما • لكنها مجموعة دوائر لا تحترق • تخترقها الشوارع العريضة والشعارات التافهة ، لكنها تبقى مجموعة دوائر • والدم الذي ينتشر حولها يصبح بقعا مدورة • لا تستطيع المدينة ان تتحول الى ليمونة • جاءت الدبابات وكنا هناك • ولم يكن ابي ، لانه مات قبل ذلك • مات بالقصف ، حين كانت الطائرات تفعل ما تريد • انتشر الجميع • انتشر ابي • رفع رأسه وكانت البندقية في يده تطلق طلقات غير مسمومة ، لان صوت الطائرات كان وحده مسموعا • ثم جاءت القذيفة • الدبابات هي التي قسمت المدينة الى دوائر • وبقينا نحن • العطش ، وامي التي تشتم الجميع ، وصورة ابي المعلقة الى الحائط •

الفتى الزنجي النحيل يمد عنقه • يضحك • هذه ذكريات قديمة • لكنه مات • الموت بعيد قالت • لذلك صنعوا العادات • البكاء والندب والرقص والوقسوف طويلا امام القبر • يقترب الموت بصلعته ويده • المدينة التي نسميها بيضاء تمتلئ بالصور والجثث والملصقات • يقفز وجه سرحان بشارة سرحان امام السائحة الثورية الاميركية •

— ما هذا ؟

— هذا ملصق • نحن نعامل سرحان كبطل • قتلت من اجل بلدي •
— لكنه ارهابي ومعاد للديمقراطية •

وانا ارهابي قلت للسائحة الاميركية • لكنني استطع ان اضمك الى صدري واقبلك واضحك • ضحكت ضحكة بيضاء • انحنى الفتى على الرمل ، غرس يده في بقعة رطبة وجلس • انت تتكلم كثيرا يقول • وامي تقول انني لا اتكلم • وتتساءل لماذا تعيش الى هذه الايام السوداء • ثم تخبرني القصة للمرة الالف ، وانا اسمعها للمرة الالف • وتنسى دائما قصة المجنون • اسكت انت مجنون • لا وجود لقصة المجنون ، كل ما هنالك انك ولد ذكي • جميع الذين رأوك كانوا يقولون يجب ان تخبريه يا ام احمد وتأخذه عند الحاجة فاطمة • كنت ابخرك واطعمك اللوز والسكر واعطيك الدراهم • لكنك ولد ذكي • عوض ان تشتري الباليونات والمثل ، كنت تذهب الى الدكان وتشتري من جميع الاصناف ، ثم تقف امام البيت وتفتح دكانا • ويأتي اولاد الحي الى دكانك ويشترون ، والله يبارك • النصف ليرة تصبح ثلاث ليرات • طبعا كنت اساهم انما في رواج تجارتك ، لاني كنت اعطي اولاد اختي الدراهم كي يشتروا من دكانك • لكنك كنت تبيع • قلت يا ام احمد هذا الولد سيصبح تاجرا ، وسيفتح الدكاكين ويبني العمارات •

لكن ماذا تفعل بنفسك الان • تتبع الحزوبات والفدائيين ولن تصبح تاجرا •

لكن امي لا تخبرني قصة المجنون • وانا نسيت القصة •

لم افهم ، واعتقد ان سالم الطويل لا يفهم الموضوع • طلقات واصسوات انفجارات في كل مكان • الارض تشتعل • نركض ، نجلس جانبا ونحن نلهث •
يمسك قاذف الب • جيدا على كتفه • عليك ان تغطيني ، يقول • اتقدم • اطلق النار • ويطلق هو قذيفته • اصوات رائحة ، لهب • وابواب الدكاكين تتحطم • فليحترق كل شيء • غدا سوف تأتي النساء بالعباءات الطويلة ، يفصلن رائحة البارود عن الاشياء ، ويذهبن •

يجب احراق الدكاكين •

الفتى الزنجي الاسمر • ينحني • كانت عمان دوائر بيضاء • امسك بها وارميها الى السقف • انظري ، تنظر الى جسدها وهو يتمدد صاعدا •

— لماذا تفعل بي هكذا ؟

السينما هي السينما اقول لها • الحياة خدعة • ترن ضحكتها بين كاحليها العاريين • انظر الى الوان البحر ، تقول • البحر ليس ازرق ، السماء ليست زرقاء • هذه هي الخدعة • الحقيقية • هل ترى ؟ ارى السماء زرقاء والبحر ازرق • هكذا ارى قلت لها •

— هل ترى الاخضر ؟ هل ترى الازرق الفاتح ؟ طبعا لا ترى الابيض • انت رمل • كلنا نمشي على الرمل ثم نصبح رملا • اريد ان اغوص هناك بين الاخضر والبنفسجي • في اللحظة الفاصلة • هناك اريد ان ابني بيتا او خيمة او مجموعة حصى او اغرق • هذا هو الغرق • استسلام كامل • الاشياء هي التي تنحني • هل رأيت الاشياء عندما تنحني ؟ • لكنني لا استطيع • جميع الناس لا يستطيعون • لا يستطيع احد ان يفصل الالوان ، نستطيع فقط ان نمزجها • وعندما تتداخل الالوان لا تتوقف • حتى المزج مستحيل • فللالوان مزاجها الخاص وتاريخها • يدخل اللون في اللون ، ثم يصبح اللون احتمالا ويدخل في الاشياء • تنحل الالوان في الالوان • الابيض غير موجود قالت • اخذ الفتى الزنجي تفاحة ، قضمها ، وضعها على رأسه وبدأ يركض • سقطت التفاحة • اين هي التفاحة قالت • التفاحة تمتزج بالرمل والرمل يمتزج بالماء • وحل • هذا تبين قالت • لون التفاحة يتغير • لكنها لا تزال على رأسي • انها على الارض قلت لها وانحنيت من اجل ان التقطها • اتركها صرخت : التفاحة على رأسي • انت لا ترى شيئا قالت • لا احد يرى • لكنها على رأسي • ويجب ان اسافر غدا • لا يمكن ان اترك امي وحدها • هل تستطيع ان تترك امك

وحدها ؟

- لا اعرف ، لكنني اتركها دائما .
- انا لا اترك امي وحدها . تريد أن تذهب الى عمان ، سوف اذهب معها .
- واذا ؟
- انت ! ماذا تريد مني .
- نتزوج كما يفعل جميع الناس .
- ضحك الفتى الزنجي النحيل . لن اتزوج . واذا تزوجت فلن اتزوجك . لن اتزوج رجلا سوف يموت .
- جميع الرجال يموتون .
- لكك فدائي . انا احب الفدائيين ، لكنني لن اتزوجهم لانهم يموتون بسرعة .
- جميع الفدائيين يتزوجون .

كانت الالوان تقترب . جلس طلال وحيدا على الرمل . خلع نظارتيه ، مسحها بعناية ثم اعادهما . كان الشاطئ يستقبل الامواج الخفيفة ، ثم يرسلها من جديد . وفي المساحة الرطبة التي تقع على حافة البحر كانت الدوائر تتزايد . هذا هو الفرق . تقدم من الشاطئ . هذه هي الالوان . لا تأخذ الالوان لونها الا لحظة الغرق . البحر يصبح دوائر لا تنتهي . امسك الرمل ورماه الى البحر . كل شيء يغرق في الماء . انحنى طلال . اين انت ايها الفتى الزنجي النحيل ؟

« ماذا كنت تفعلين قبل ثلاثمائة عام في الحدائق القديمة »
صوتي يغرق في الدائرة الاولى التي الى يساري . خلعت حذائي امسكته بيدي ومشيت . ركبت السيارة . ادرت المحرك . احدث المحرك خشخشة ثم انينا وشهقات متواصلة قبل أن تتحرك السيارة الى الامام . اين انت ايها الفتى الزنجي النحيل ؟ اوقفت السيارة امام الفرن . اشتريت رغيفا ساخنا وبدأت امضغه متمهلا ، والاشجار المزروعة على جانبي الطريق تعانق الاعمدة الكهربائية . وانا اتنشق رائحة الخبز .



كل شيء جاهز يقول نبيل . لكننا تأخرنا والشباب ينتظرون ، ينظر طلال الى ساعته ، علينا أن نذهب فورا . نبيل يقفز في الهواء . ماذا تفعل اسأله .

استعد • ولكننا لن نذهب الى مباراة كرة قدم • هكذا استعد يقول نبيل • ما هي اخبار المسلخ والكرنتينا يسأل سالم • لا اخبار حتى الان ، لكن الوضع بالغ الصعوبة • انا لا احب هذا الطعام • خبز وزعتر ، هذا ليس طعام المقاتلين يقول طلال • امر الفصيل يتكلم • هذا هو الفطور وعلينا ان نأكل بسرعة • يضحك نبيل ضحكة استاذ حقيقي • لا تضحك يا استاذ ، انا لا احب الخبز والزعتر • ماذا تفعل بنفسك يا طلال • لماذا تعقد الامور يا ولد • هذا عجيب وهذا عجيب • هنا نضع الزعتر داخل الخبز وهناك يضعون الزعتر داخل الكعكة •

- اريد ان اشترى كعكة •

المسألة ليست في الثمن يا ابو احمد • ثمن الكعكة عشرة قروش، الله لا يكسر احد • ولكن يجب ان يعتاد الولد على الطاعة • تتكلم امي وتتكلم • وانا انظر الى ابي • يغمزني الرجل الكهل ، الضعيف البنية المهلهل الثياب •
- امش امامي الى المدرسة •

اذهب الى جانبه ، يشتري لي كعكة ، اضعها على رأسي واركض • يركض ورائي : لا تخبر امك ، يلهث ثم يسقط على الارض •
- عندما اصبح رجلا ، سوف اشتغل بائع كعك •

والرجل الكهل يمسك بيدي ، يوصلني الى المدرسة ، ثم يذهب الى عمله • انتبه على نفسك • اركض في البيت ، لكن الرجل الكهل لا يركض ورائي • لا اله الا الله • بسام يغني داخل اللاندروف والمطر الكثيف يتساقط • انا لا اخاف منهم ، اخاف من البرد • والله يا اخي سالم ، عندما تنتهي الحرب ، سوف اخذك في رحلة بحرية حول العالم • المطر يسقط ، والسماء تلمع بالانفجارات • الاصوات تأخذ شكل الهمهمة • لكن ينقصنا الرمل • علينا ان نقطع الشوارع بالرمل • بسام لا يجلم سوى بالرمل • لماذا لا ننقل البحر بأسره الى المتراس ؟ نجلب الشاطئ ، ثم نجلب الامواج • قفزت الى البحر • اتبعني صرخت : دخلت الامواج في عنقها وصدرها • ولم اعد ارى سوى ذراعها الاسمر يلتمع تحت اشعة شمس يخترقها المطر •

- انت جبان •

- انتظريني ، سوف اخلع ملابسي •

- لا • تعال كما انت •

تقدمت ، ارتفعت الامواج الى الاعلى • لن اتزوجك هتفت • خرجت من

الماء ، وضعت الرمل على ثيابها وبدأت تركض .

– أنت شجرة .

– انا مريم . انت لا تعرف مريم . غدا عندما اذهب الى عمان سوف
تتعرف الي .

تركض وسط الرصاص . الرصاص يقترب ، يجب ان نذهب ، قلت لها .
الرصاص يقترب ، يجب ان اذهب ، قالت . الرصاص يقترب ، وقفت الى جانب
طلال . توغل سالم ونبيل في الشارع الطويل وذهب الجميع الى المواقع .
ظلام وماء . لا ينقصنا سوى وجه الله بلحميته الطويلة . المطر يتساقط ،
والشارع يفرق . يقف الى جانبي ولا يجيب . الماء يرتفع الى خاصرتي .
اسمع خشخشة . هذا صوت المطر والرعد . لن يحدث شيء هذه الليلة . نحن
لا نستطيع التقدم وسط المطر والظلام . علينا ان ننتظر بسام ، ربما يستطيع
ان يجلب الموج والبحر الى الموقع .

الظلام يمتد الى ما لا نهاية . ونحن نقف . اشعل سيجارة ، انفخ
الدخان في الهواء . لا اسمع سوى نقر المطر على الاكواخ المحيطة بنا ، وصوت
شجار يأتي من احد البيوت التي تقع خلفنا . وفجأة اشتعلت الدنيا ، رائحة
حرائق واصوات قذائف . السماء تلتهم والقذائف تسقط في كل مكان . الحرائق
تشتعل وثيابي ينخرها المطر . اخذت نفسا عميقا من سيجارتي التي ترتجف
في يدي . البرد شديد ، وخلفي ترتفع الاصوات والجلبة . نيران على سطح
احد البيوت تنطفئ فجأة . وثلاث نساء يلتمعن في الظلام ، بعباءاتهن
الطويلة . ومناديلهن ، وايديهن التي تخشخش .

– ما هذا ؟

الحزن الكردي يخرج الى الشارع . لا نسمع سوى صيحات تشبه صيحات
الاستغاثة ، ثم يبتعد الصوت . ثلاث نساء يركضن في الماء ، ثم يصعدن التلة
الخلفية . اركض باتجاههن .

– الى اين ؟

– الى جهنم . القصف لا يصيب الا بيوت الفقراء .

– ارجعي يا خالتي الى البيت .

– كيف ارجع . اذهب يا ابني واتركنا . الله يبسر .

عاد طلائ الى موقعه . ثلاث نساء ، اطفال على الكتف ، والماء يخرج من

الماء • لا نلمح النسوة الا بصعوبة • يشبهن ظلال قنديل عتيق تمسكه احداهن • قائد الفصيل يأتي مسرعا • يبدو ان هناك محاولة اقتحام للشارع • استعدادا • تبعته • وقفت في آخر شارع يوصل الى الطريق العام • وهي طريق كنا نستمع الى حركة الآليات التي تتحرك فيها • اخذ ظلال الى شارع آخر • ظلال وحده • عليك ان تنبطح يقول قائد الموقع • ينبطح على الماء • تتسرب المياه الى جسده • يرتجف قليلا • القصف يتصاعد • يجب ان نصمد • الماء يختلط بالدم • هذا شرف الثورة • انتم شرف الثورة • وشرف الثورة سوف يصمد • امسكت البندقية جيدا واطلقت الرصاص • كانت الطلقات ترن في اذني ولا اراها • امسك القنبلة اليدوية وارميها • الماء يرتفع والشظايا تتناثر • الماء يشهق عاليا ، هذا شرف الثورة • انا منبطح • لكنهم لا يتقدمون • لا شيء سوى الرائحة • رائحة المطر والماء الآسن ، والبارود الذي يحترق • اصوات قذائف • لا ارى شيئا امامي • لكن ظلال يبقى على الارض ، يطلق النار ، يتقدم الى الشارع الرئيسي • لا شيء سوى القصف • يتوقف المطر ، وتبدأ الحجارة تتفتت • انظر الى الخلف : ثلاث نساء ، بعباءاتهن الطويلة ، يركضن على التلة المرتفعة • تجلس المرأة الاولى على حجر ، وتبدأ نواحا خافتا • يتقدم الرجل من المرأة ، يمسك يدها ويرفعها تقف ثم تسقط • يسقط الرجل الى جانبا •

– هذه هي المرة الثانية • في المرة الاولى بدأنا نركض • قالوا انهم اقتحموا الحي • هربنا • وفي اليوم الثاني عدنا • واليوم انفتح علينا غضب الله • كيف سنأكل ؟

• كان الرغيف الساخن على وجهي •

– من اين اتيت بالخبز ؟

– اشتريته •

• وامامي يقف وهو يحمل فنجان قهوة يشتغل باللهب •

– يعطيكم العافية • ليلة متعبة •

ظلال يصرخ بفرح • انظر الى الشمس • لقد اشتريت الخبز والجبن ويجب ان نوزعه • يجب ان يتوقف القصف • كان ثوب المرأة طويلا ، يلامس الارض ثم يزحف خلفها • وعلى الثوب ارتمى ثلاثة اطفال يضعون ايديهم على رؤوسهم وينتحيون •

– ما هذا يا خالتي ؟

— لا شيء • ابحت عن زوجي • خرج امس في الليل وقال انه ذاهب ليشتري
— برا ، ولم يعد • هل رأيت الخبز ؟

طلال يحمل خبزا ويجلس بين النساء • اجتمعت النساء حوله • صوتته
يرتفع ، يحتد : هناك ازمة تموينية • هل رأيت زوجي • خرج الى الشارع وقال
انه سيشتري الخبز • لكن الخبز لم يأت • وضعت الرغيف في فمي وبدأت
امضغ • هل رأيت الخبز يا ابني ؟ تخرج المرأة مسرعة من الكوخ • الحق على
ام • قلت لها يا امي لا اريد ان أتزوج • امي ماتت منذ ثلاث سنوات • ماتت
بدون حرب • كيف يموت الناس بدون حرب • مستحيل • لا يوجد موت الا
داخل السرب • وضعت بندقيتي جانبا • قال طلال انه تعب ، ثم سألني عن
خسائرنا • لا شيء قلت له • فقط سمير اصيب بشظية صغيرة •

كان الشارع الطويل الذي يشرف على الكنيسة يمتد الى ما لا نهاية •
حوانيت على الجانبين • والمرأة تضع الملابس في خرجها • اقتربت منها ، كانت
تبكي : هل رأيت الخبز يا ابني ؟

سقطت القذيفة وسط برك الماء المنتشرة في كل مكان • ركضت المرأة • كان
ثوبها يركض وشعرها يتدحرج على وجهها • اقتربت من الدبابة ثم توقفت
اماها • كان ثوب المرأة يتهدل على الدبابة • دبابة تخرج من امرأة • امرأة
تخرج من دبابة • تنحج الرجل • انا من قرية سخنين • هل تعرفون سخنين •
المسألة اننا بعد ان هاجمنا كويانية اليهود عدة مرات ، اضطررنا الى التراجع •
جاء جيش الانقاذ • طبعاً تعرفون جيش الانقاذ • اما نحن فلم نكن نعرفه •
اسمي صقر ، لكنهم يلقبونني في التنظيم بصقر قريش • يا عمي هذه الثورة
جميلة • انها افضل من الثورات السابقة • انها تهتم بالشهداء • اما في
الماضي ، فلم تكن الحكومات العربية تهتم لا بالشهداء ولا بالاحياء • المهم
تعرفنا على جيش الانقاذ • قالوا ان جيش الانقاذ سوف يأتي • انتظرناه •
النساء ينتظرن • الاولاد ينتظرون ، ونحن تعبنا • وفجأة سمعنا اطلاق نار في
الهواء • يا هلا بالعرب • ورأينا الدبابة عن قرب • في الحقيقة هذه اول مرة
امسك فيها دبابة بيدي • تقدمت من قائد الدبابة • وبعد التحيات الرسمية التي
لا بد منها في مثل هذه المناسبات كما تعلمون ، وضعت يدي على حديد
الدبابة • ما الذ الحديد • دبابة ترفع الرأس • انها تختلف عن دبابات الانكليز •
اصغر قليلا ، لكنها اجمل • والله دبابة ترفع الرأس واكثر • نزل العساكر في
بيوتنا • استضفناهم • مضت ثلاثة ايام وهم لا يزالون ، اكل وشرب
وطلبات • طلبات الجيش على الرأس • الجيوش دائما على الرأس ، لانها
تحمي الاوطان • يجب بناء الجيوش القوية ، بدون جيش لا حرمة لوطن • وبعد
ثلاثة ايام جاءني ابو سعيد • ولكن يا صقر جيش الانقاذ لا ينقذ الا بطون

افراده • ما هذا الجيش • يجب ان تكلم قائد الدبابة • نبحنا الدجاج كله ، ولم يعد هناك شيء في القرية • متى يحارب هذا الجيش ؟ يا صقر ، يجب ان نحمل الكوبانية قبل ان يحتل اليهود البلد • بعد التخنخ والسلام والكلام ، فاتحنا قائد الدبابة بالموضوع • ننتظر الاوامر قال • قلت له اهجم على مسؤوليتي • لا استطيع ، انا متطوع مثلكم اجابني ، واحب ان ننتهي من قصة الكوبانية قبلكم جميعا • بعد الحديث والنقاش وافق الضابط على الهجوم • للحقيقة كان ضابطا مندفعاً • جمعنا في ساحة القرية • الدبابة سوف تتحرك الى التلة وتقصف الكوبانية • عليكم الثبات في مواقعكم • وعند اعطاء اشارة الهجوم تتحركون • لا اريد حرباً فرضوية • النظام هو اساس الحرب • وافقنا جميعاً ، رجل مقنع • تحركت الدبابة من الساحة وبدأت تمشي ببطء وسط شوارع القرية الضيقة • ثم غابت عن انظارنا • بدأنا نتوزع مجموعات في المواقع التي حددت لنا • ثم سمعنا صياح الضابط • ركضنا ، فرجنا الدبابة متوقفة وسط شارع ضيق ولا تستطيع الحراك • بدأ الضابط يشتم • يلعن ابو الحرب ، كيف نحارب بدون طرقات • جلبنا المعاول والرفوش وبدأنا نحفر التلال كي نوسع الطريق • وبعد جهد مضمّن استغرق ثلاثة ايام ، استطاعت الدبابة ان تتحرك وسط تهليلنا وتكبيرنا • المهم ان الدبابة لم تقصف سوى قذيفتين ، ثم تعطل المدفع • لماذا لا نهجم يا حضرة الضابط ؟ عليك ان تسأل ربنا ، يجيبني بتبرم وعصبية • المهم ، بدأ اليهود هجومهم من الكوبانية قبل ان نهجم نحن • ذهبنا الى الضابط • ماذا نفعل ؟ لا استطيع ان افعل شيئاً • سوف انسحب • المدفع معطل ودبابة بدون مدفع لا تساوي شيئاً • وعلى اي حال فالمعركة خاسرة • وغدا تأتي الجيوش العربية وتحرر فلسطين • انسحبوا معي الان • ثم تعود بدون تعب • وافقنا • لا • بعضنا وافق • انا والله لم اوافق ، وابو سعيد لم يوافق • قاتلنا • ثم ماذا نفعل • هجموا في حوالي عشرين دبابة • ماذا افعل • انسحبنا وتوكلنا على الله ، بعد ان مات منا الكثيرون • الحقيقة اننا دفننا القتلى قبل ان ناتي الى لبنان •

ابتعدت عن الدبابة • وضعت منديلها على رأسها واشارت الي اشارة الوداع • طبعاً لم اسأل الى اين ؟ فالقذائف المتفرقة كانت تتساقط ، ولا يسد من الثبات في الموقع • لكن المرأة ذهبت دون ان اعرف ماذا جرى لزوجها •

— استولينا على دبابة •

— ما هذا ؟

دبابة حقيقية يقودها نبيل • الجنود استسلموا قالوا انهم لا يريدون قتال

اخوتهم • طلبت اليهم ان يبقوا معنا • لكنهم ذهبوا • قالوا انهم سوف يرجعون • مشيت الدبابة ومشينا خلفها • اريد دبابة من كل الالوان • هل تعرف الالوان يقول الفتى الزنجي • انا لا اعرفها • لا افهم معنى الالوان • كل شيء ملون الى اقصى الحدود • وطلال يريد دبابة ملونة • جاء الشباب بجميع الالوان وبدأوا يطلون الدبابة • الدبابة ترفض التقدم • ونحن نظلي جسدها بجميع الالوان الممكنة • اريد دبابة حمراء ، لان الثورة بدأت • رائحة البارود في كل مكان • اصبح لبيروت رائحتها • في الماضي ، لم اكن استطيع تمييز رائحة بيروت • ولم يكن احد يعرف ان لها رائحة • الجميع يشم رائحته هو ، او رائحة الغرسون التي تختلط بالخمور والكولونيا الرديئة • اما الآن ، فيبيروت لها رائحة محددة • البارود في كل مكان ، والشوارغ الفارغة يسكنها الضباب ، واصوات القذائف تختلط باصوات المصواريخ الكورية التي تعوي في الفضاء • عواء ورائحة •

– وماذا جرى للمرأة بعد ذلك ؟

– لا اعرف •

اخذنا الدبابة • لونها • اخذنا رشاش ال ٥٠٠ وثبتناه في الكنيسة • اجتمع صبية الحي عليها • اقتادوا الدبابة ، ثم توقفت • ربطنا حبلًا من الشباك الى سبطانة المدفع • وكانت الثياب المنشورة من كل الالوان •

امسك طلال الرغيف ، لا اعلم ماذا يجب ان نفعل • يجب ان تبدأ الثورة • لكنها بدأت يقول سالم • انتم لا تفهمون ما هي الثورة • هذه هي الثورة • هكذا تكون الثورات • هل تعلم لماذا الرغيف مدور • لانه رغيف • لا يمكن ان يكون الرغيف الا هكذا ، مثل المقبرة • المقبرة مدورة ، لكننا لا نراها من الداخل • جميع الاشياء هكذا • لا نرى سوى سطح الاشياء • رائحة البارود تنتشر ، ونحن نقف تحت شمس شتائية ، نحمل بنادقنا ، نسترخي ، طلقات متفرقة ، رجل يقترب • انتم لا تعرفون عميق • تأكلون العنب وتشربون العرق لكنكم لا تعرفون عميق • هناك العنب • وابي رأسه يابس • لا تعرفون الطريق ، تعالوا ، انا خدمت في بيروت واعرف جميع شوارعها • لكن الجبل اجمل • ومنظر العنب وهو يتدلى يفتح شهيتي على العرق • انتم لا تشربون العرق • هذا خطأ • العرق شيء مهم • نار • يدخل العرق الى جوفي وتدخل النار • يجب ان يشتعل الانسان • العرق وحده يشعل • اضع العرق فسي جوقسي واسرق • هل تعلمون ماذا فعلت • بعد كل الذي جرى ، علمت ان الدولة تفرط • اخذت الملائة التي اقودها وهربت بها • حدث هذا قبل ان ينهار كل شيء • هربت بالملائة وحدي من حوش الامراء الى عميق • خرج ابي ، لم

يكن مندهشنا • اخذ الملاة وربطها امام البيت • نهضت في الصباح فلم اجد الملاة • يجب ان اذهب بالملاة والتحق بالثورة • سألت امي ، قالت ان ابي اخذ الملاة وذهب الى الكرم • ركضت الى الكرم • رأيتة يحاول ان يربط الى الملاة ادوات حديدية • اريد ان اقلح • والله الملاة افضل من التراكاتور • أصبحت الملاة حديث القرية • جاء المختار مهنتا واقترح انشاء تعاونية زراعية • ولكن يا مختار ، منذ زمن طويل وانتم تفلحون ارضكم بالتراكاتورات ، ولم نقترح عليكم انشاء تعاونيات • التراكاتور ملكية خاصة اما الملاة فهي ملكية عامة • هكذا يقول المختار الذي يفهم • تناقشنا • تصايحنا ، بدأ وكان الامور لن تحسم بشكل سلمي • يا مختار لم يعد هناك ملكية خاصة • كل شيء مباح • هبطت السماء على الارض • لكن المختار يريد اخذ الملاة وابي يريد الاحتفاظ بها • ومن اجل تلافي المشاكل سرقت الملاة من امام البيت وعدت بها الى الثكنة • وكان كل شيء قد انتهى • ولم يعد هناك احد يركب على ظهر احد • هكذا قالوا لنا • لكن القتال في المدن صعب • لا تستطيع ان تقتسل عدوك الا بعد جهد غير عادي • هذه ليست حربا • لا اعلم • ربما كنتم على حق • لكن كل شيء فرط •

المرأة الكردية تسأل عن زوجها ، وزوجها يتمدد باردا وسط الشارع •

- سوف يتعفن في الشارع •

- ننتظر الليل ونسحبه • تكرمي •

انحنى • كانت تحمل رغيفا مستديرا • قضمت لقمة • الله يكرمك • ولكن لا تنسوني •

- لن ننساك •

وكان هو ، يتمدد على بطنه • رجله ترتفع قليلا عن الارض ، والارض المبللة بالوحل والتراب والغبار تحيط به •



« ماذا كنت تفعلين قبل ثلاثمائة عام في الحدائق القديمة ؟ »

كان الجبل مثقوبا لكنه يتقدم • وكانت النساء تقف في صفيين طويلين بانتظار الحرب • لكن الحرب لم تأت • منذ ثلاثمائة عام ونحن ننتظر الحرب • لكن الحرب تأتي دائما وهي تحمل ثقبين كبيرين : ثقب الى الاعلى حيث يرتفع عنق المرأة فتختنق ، وثقب في الوسط قيل ان نولد • الجبل الذي يتقدم ، كان مثقوبا ، مثل الحرب • الجبل يشبه الحرب • قلت له • وتدحرج صوتي

بين اقدامنا التي تتدحرج في القرية ، حيث الليل ، وسكون غريب ، ورياح باردة • وصلنا الغابة • بيت عتيق مهجور ، واشجار صنوبر • ونحن نضع النار داخل كوم الحجارة ، حتى لا يراها احد •

– هل ترى الاشجار • لقد بدأت حرب الشعب • تحتاج حرب الشعب الى الاشجار • من اجل فيتنام على الاقل •

ادغال ومستنقعات • اشجار ورماد نار بدأت تنطفيء • منذ خمسين سنة ونحن نعيش الحروب • انحنى البندقية قليلا قبل ان يضعها على الارض •

– الحرب ضمير مستتر تقديره نحن • الآن انكشف الضمير المستتر •

ليس هذا مهما يقول طلال • انظروا الى الجبل • هذه هي المرة الاولى التي نصدق فيها الى الجبل • نبيل يحلم بالرمل • انا لا احب الجبال •

– لماذا اتيت اذن ؟

– واجب وطني • ثم بيتسم • الحرب في بيروت اجمل •

– مستنقعات وبعوض • انت تحب المستنقعات •

– انا احب المدينة •

انا احب النساء يقول طلال • الليلة ، سوف ننتقل من شرف الثورة الى شرف الموت • الموت حالة هادئة • وسط الرصاص والقنابل والدوي ، تقفز وتقفز • ثم تسقط في الهدوء ، الهدوء الكامل •

لكن الجبل مثقوب • تقف امرأة بيدها طعام كثير وحولها نساء ورجال • رأينا النار فأتيناكم بالطعام • وضعت المرأة الطعام وذهبت • اكلنا • الطعام يتجمد في حلقي • يجب ان اثقب عنقي ، عندها اصبح جبلا •

الجبل هو الملك • صنين هو الملك • لكن من يستطيع ان يتسلق هذا الجبل العاري • لا يمكن نقل هذه الاعتدة دون بغال • البغل هو الملك الحقيقي • نصعد ، نحمل الذخائر على ظهر البغل ، نمشي وراءه ويقودنا الى القمة • الثلج والضباب والطلقات الحمراء التي تخترق الليل • ينحني طلال • يضع نظارتيه • منذ ثلاثمائة عام كان الفتى النحيل ورقة مرمية على الشاطئ • التقطها عابر سبيل ووضعها في جيبه • وكان العراف الصيني القديم ينتظر • ولم يكن الرجل يعلم ان الاشياء تنتظر • اخذ العراف الصيني الورقة وتكلم • لم يفهم الرجل • وعندما رجع ليسأل وجد ان العراف قد مات • وان الارز الذي كان ينمو في الشارع صار خمرا محرقة • لكن الفتى الزنجدى يتسلق عنقي •

لا يتكلم ، لا يسأل • يحلم بأن لا يسافر لكنه سيسافر • والى جانبي ينام رجل
طويل القامة ، كث اللحية • يضع يديه خلف رأسه وينام بين قطرات الماء التي
ترشح من سقف الخيمة ، وبين الثلج الذي يغطي الثلج •

• تعالوا نشعل نارا على القمة • يجب ان تشتعل قمة الجبل • مساذا
سيحصل • بضعة قذائف •• بسيطة •

اشعل نارا • رفع يديه الى اعلى • خلع قميصه الكاكي ولوح به في القضاء •

هنا ينام الجبل • هنا يموت الجبل ، قال احد المقاتلين بلهجته القروية التي
لا تخطيء • يترصدون الجبل ثم يقتلونه • البغل ينزف • اصيب بشظية في
خاصرته • ينظر الى الارض ، لا يثن ، يترك الدم يسيل على بطنه دون ان
يتحرك • البغل هو الملك • وكان صنين رماديا • ثلج وبقع رمادية ومساحات
لا تحصى • نحن اعلى من الغيوم قال الرجل الكث اللحية وهو يمسك قطعة
اللحم المملح بين يديه ويمضغها كأنه يأكل الشوكولاتة • لا بد من الاكل • غدا
سوف تأكلون مثلي • انا رجل متزوج • يعني عملي • أفهم • اعرف ان المرأة
لا ترضى • اذا ضاجعتها تتبرم من كثرة المضاجعة • واذا لم تضاجعها تتساءل
عن معنى الزواج • وزوجتي التي تركتها منذ الف سنة لا تفهم • تعتقد انني
لست جديا • لكن انتهى الموضوع • انا اقف على اعلى قمة في اعلى جبل ،
واقدر نهائيا ، ان هذه الزوجة التي تشبه جميع الزوجات لا تصلح للزواج •
لا تنظروا الي هكذا • لا بد من الاكل • لا يمكن احتمال البرد دون ان ناكل
الهورمونات والفيتامين • ولا يوجد خبز • لقد فسد الخبز • ابتل بالثلج
واصبح قطعة من طين • لا يمكن ان ناكل الطين ، ولا يمكن ان نمزج اللحم
بالثلج •

على القمة ، حيث كل شيء يشبه كل شيء • كانوا ثلاثين رجلا ، ينامون
بين الثلوج • يضعون بنادقهم في اعناقهم وينظرون الى وجوه بعضهم •
يطرحون الاسئلة • نبيل يقفز • لاعب الفوتبول يقفز هربا من البرد • والقذائف
التي تتطاير تشعل الثلج • والطائرات تخترق الضباب من حين الى اخر ، لكنها
تبقى بعيدة • لان الجبل اصبح بعيدا •

اتكا الرجل الكث اللحية الذي اسمه نزيه على كوعه الايسر ، تمدد فوق
حرام صوفي موضوع فوق بقع الثلج والارض الرمادية ، انا تعبان قال • الحرب
متعبة ، لكنها لا تشبه النساء • لماذا يمزجون عادة بين الحرب والنساء •
السينما سخيفة • دائما في الافلام • يجب ان تكون هناك حروب والى جانبها
نساء • حتى تشي غيفارا وضعوا الى جانبه امرأة • ودايما يموت البطل

وتبقى المرأة كي تبكيه • طبعا ، زوجتي سوف تبكي • انها مثل جميع الزوجات لذلك يجب ان تبكي • لكن حتى الموت الذي هو مسألة المسائل ليس مشكلة • انه مشكلة تافهة داخل الامراض • عندما يكون الرجل مريضا يمتلئ رأسه بالمشاكل ويبدأ بطرح الاسئلة • اما عندما تكون صحته جيدة كصحة البغل فانه يتصرف ببساطة البغل •

وقف طلال الى جانبي وهو يمضغ حبات الفول الباردة المعلبة ، في محاولة لايقاف جوعه •
- لماذا تتكلم عن الموت والنساء ، يجب ان نتكلم عن النصر •

النصر ثوب مثقوب يقول نزيه • هل ترى الغيوم القريبة ، تستطيع ان تلمسها بيدك ، لكنك لا تستطيع الامساك بها • هكذا نحن • نستطيع ملامسة النصر ، لكننا لا نستطيع الامساك به •

التمعت الطلقات فوق رؤوسنا ، ثم بدأت القذائف ترسل انينا خافتا يسحقه صوت ارتطامها بالارض • كانت الحجارة تتطاير فوق رؤوسنا ، وسمير بلحيته وحنانه ، يقفز مرحا ، يطلق الرصاص ، يتدحرج بين الصخور • لا ارى شيئا • الضباب كثيف يصرخ • لكن نبيل لا يجيب • يجثو ، يطلق مشدودا ، شتائمه تسبق طلقاته • اما نزيه ، فكان منبطحا على الثلج ، مسترخيا ، يطلق بهدوء • يلتفت الى يمينه حيث يرى طلال باعصابه المشدودة ، وهو يقاتل كمن يصلي داخل كنيسة • يتوقف اطلاق النار فجأة • يأتي سعيد راكضا • لقد هربوا وتركوا هذا • يمسك مخزن الرشاش بيده • هذا الشكل من الحرب لا يكفي يقول سمير ••

- ماذا تقترح •

- يجب ان نرميهم بالحجارة • البندقية بندقية ، اما الحجر فهو جزء من يدي • يجب ان اشعر ان يدي هي التي تقاتل ، وليس هذا المعدن البارد الذي لا يلبي الحاجة •

يبتسم طلال • لقد جعلك هذا الجبل بدائيا •

ثلاثون رجلا يقفون على رأس الجبل • يشعلون النار ويرقصون • يأكلون اللحم الملعب ، ينزحون الى ذكرياتهم • يجب ان نتوقف عن حكاية ذكرياتنا يقول سالم • نحن نصنع المستقبل ، الذكريات لا تصنع المستقبل ، لكن الذكريات تمتزج بالاغاني والاهازيج • صوت احمد يرتفع ، يشق الصخور ، يتواصل مع الرياح الباردة • انا ملك الجبل يقول احمد •

- نحن حشرات مرمية في هذا الفضاء الواسع • جبال ، نصغر ونحن

نتسلقها .

- هذا كذب نحن نكبر والجبال تصغر . دائما يقولون هذا . الانسان داخل الطبيعة يصبح حشرة صغيرة . ولكن هذا ليس حقيقيا .

انا اصبحت اكثر طولا يقول سالم . انا اطول رجل في العالم يقول سمير . نحن هم الملوك الحقيقيون يقول طلال . ولكن هذين البغليين يشاركاننا على العرش .

كان الفتى الزنجي النحيل يركض . توقفي قليلا قلت لها . لكنها تركض ، والرمال تتطاير من قدميها العاريتين . سقطت على الارض . سوف اضعك في علة صغيرة واضع العلة الصغيرة في جيبي . وتصبحين اسيرة في جيبي . لانك لا تستحقين اكثر . ضحكت . انا لا احب الاسرى .

- وانا لا احب الاسرى ، لكنني مجبر .

- مجبر . جميع الطغاة يقولون ذلك ، عندما تخرجهم الحقيقة ، يبدأون في رواية مأساتهم التي تتلخص في كونهم مجبرين على ممارسة الطغيان . انت مثلهم .

رجلي تكبر . الثلج يتمدد داخل حذائي . انظروا يقول طلال . الوان اقواس القزح تختلط ببعضها . جميع الالوان التي رأيتها والتي لم ارها . الجبل يفتح فمه والشمس تتدحرج . جبل يتدحرج بين الغيوم . الوان تشبه البحر ، لكن البحر مسطح . والالوان تتشكل فجوات مستديرة . تمتد يدي ، لا تلتقط شيئا . الجبل المثقوب يتحرك . نحن نركض باتجاه الوادي ، والوادي يضم جسدي ، يقطعه الى نصفين ، والبحر البعيد يدخل بين الغيوم . امد يدي الى وجهي . وجهي تفاحة كبيرة تهرم . ويدي تمتد الى الشمس التي تسقط في عيوننا ، وهي تتدحرج بين اللهب وفم الحوت الذي يتأهب لابتلاعها .

حمل المقاتل القروي حذاءه ومشى حافيا . امس كانت الشمس تحرقنا ، واليوم اتى الضباب والشتاء واخذوا الشمس الى كعب الوادي . لكن المشكلة هي في هذا الحذاء اللعين . يبقى مبتلا . امشي وكأني احمل الجبل في رجلي . اصابع قدمي اصبحت متورمة ، ولم اعد قادرا على لمسها . الثلج ضد الحروب . حمل حذاءه ودخل الى شيء يشبه الخيمة . الماء في كل مكان . رائحة الصوف المبتل تشبه رائحة الغنم قبل ذبحه . والله الجزار ملك . ماذا يهمه . يفعل ما يشاء . يذبح ويبيع ويستطيع ان يأكل الى ما شاء الله .

ما هذا التموين ؟

كان لساني ناشفا وجوفي يحترق . دخلت الى الخيمة فوجدت المقاتل القروي يتناقش مع نزيه في السياسة . كان نزيه متكئا على يده اليسرى ، يرتجف قليلا من البرد . وجهه احمر بالشمس والضباب . يرفع يده اليمنى ، ويتكلم الى ما لا نهاية .

– يجب حل المسألة الشرقية بشكل نهائي . منذ ثلاثمائة عام والغرب يغرس سكينه في خاصرنا باسم المسألة الشرقية وحقوق الاقليات . يجب ان تنتهي من المسألة الى الابد .

جلست الى جانبهما واستمعت . ثم بدأ النقاش يحترق . وارتفع صوت المقاتل القروي . نظرت اليه ، كان يحمل في يده ليمونة تتهرج في الخيمة المعتمة . كانت الليمونة تشارك في النقاش على طريقته الخاصة . تنتقل من اليد اليسرى الى اليد اليمنى في حركة بطيئة . ثم جين يحترق النقاش ويصمت ، تأتي الليمونة لتشوق الصمت في حركة متسارعة بين اليدين ، وكأنه اصبح احد الحواة ، الذي يستطيع ادخال الليمونة في اذنه فتخرج شجرة من قمه . يضع الليمونة فوق الپطانيات المبتلة التي تكدست فوق بعضها . ينحني نزيه ، يمد يده ، لكن يد القروي اكثر سرعة . يمسكها ، ترقص بين يديه ، ثم يتركها تتدحرج قليلا .

– ولكن من اين جاءت الليمونة ؟

يتجاهل السؤال . ثم يأخذ صوته نبرة خاصة .

– يجب الاعتناء بالسلاح في هذا المناخ . فالماء يتسرب الى داخله . المهم ، يجب ان نتابع القتال . هكذا تريدون . انا اوافق . شرط ان لا نبقى هنا على رأس الجبل ، وسط هذا البرد الذي لا يطاق .

تدحرجت الليمونة . امسكها طلال . قفز المقاتل القروي .

– اريد الليمونة . هذه ليمونتي الخاصة .

– لا توجد املاك خاصة في الثورة .

قفز . امسك الليمونة وسحبها من يدي . جلس في زاوية الخيمة وحيدا هو وليمونته . تقدمنا منه . وضع الليمونة خلف ظهره .

– يجب ان نذهب الى بسكنتا . هناك نجد بيوتا واشياء ناكلها .

التمعت السماء بأصوات الرشاشات البعيدة . وقف نزيه . بدأت المعركة . يجب ان نأكل هذه الليمونة قبل المعركة ، نتقاسمها نحن الثلاثة . وقف طلال ، امسك بندقيته . وضع المقاتل القروي الليمونة في جيبه ، وبدأ يحاول انتعال

حذائه • كلنا جاهزون • لكن الليمونة هربت • اختفى ثم عاد ورائحته
 ليمون • من رأسه الى حذائه كانت رائحة الليمون تنتشر •
 - ماذا جرى لليمونة ؟

- تحولت الليمونة الى شجرة • هذا الرجل اصبح شجرة •
 كانوا امامنا ، لكنهم ليسوا كالبشر • طبعاً رجل عادي • لكن لا • نطلق
 النار ، يسقطون في حركة تشبه الحركة المسرحية • لم اكن ارى جيداً • لكنهم
 كانوا يسقطون • انا متأكد من ذلك • يركضون بسرعة ، ثم حين يسقطون
 تصبح الحركة بطيئة • يسقط الرجل وكأنه يمثل • لست متأكداً من انه رجل •
 في الواقع لا اعلم • لقد قمنا بعمل ممتاز • لا يمكن اختراق هذا الجبل • نحن
 حراس الثلج والبرد • لكن لا اعلم ، ربما كان ذلك غير واضح او مفهوم • انا
 متأكد • القتل مسألة اخرى • هنا ، كاني اطلق على حجر • في الواقع ، كنت
 اطلق على اهداف ، مجرد اهداف • وكانت الاهداف تتصرف بوصفها اهدافاً •
 هذا كل ما في الامر • •

يخلع طلال نظارتيه ، يمسح الوجه الممتزج بجبات العرق • جاء نزيه • لقد
 ماتت الشجرة • المقاتل القروي ، بحذائه الكبير ، ووجهه المحروق بالثلج
 والضباب ، يتقدم ، محمولا على البغل • ينام وحوله ثلاثة رجال يقودون البغل
 الابيض ، ويمسكون بالقروي •

توقف البغل امامي • انحنى طلال • رائحة الموت تشبه رائحة الليمون •
 الموت شجرة ليمون • عندما اموت اريد ان تكون رائحتي مثل رائحة شجرة
 الليمون •

عدنا الى الخيمة • تقدم طلال من حقيبة المقاتل القروي • فتح الحقيبة •
 - انظر ، ليمونة اخرى كانت تنتظر نهاية المعركة •

امسك نزيه الليمونة ، قسمها الى نصفين ، اخذ نصفها ، اعتصره ، فتساقطت
 قطرات الليمون في فمه وعلى لحيته •

- نشرب نخب الشهداء • لماذا لا تأكل •
 - لا استطيع •

- انت رومنطقي • الا تريد ان تصبح رائحتك مثل الشجرة ؟

وضعت الليمونة في فمي • كان طعمها جاداً • اكلتها دون ان اقشرها •
 اكلتها كلها • واصبحت رائحة الخيمة تشبه رائحة حقل الليمون الواسع ، الذي

يمتد من صيدا الى آخر العالم .



انا هو الاحتمال الاخير ، قلت لها . وكانت خطواتنا تسقط على طرقات المدينة المعتمة . اصوات خشخشة الثياب . كلمات ، نقولها دون ان نقول شيئا . امامنا تمشي سيارة اللاندروفر المحملة بالذخائر والطعام . ونحن نمشي ، نتهامس ونستمع الى تهامس القرويين وهم ينظرون الينا باعجاب . نعجب بأنفسنا . نفتخر ، كما كنا نحلم بأن نفتخر عندما كنا صغارا . نحن صغار ، ولكننا نفتخر كما يجب ان نفتخر .

خط طويل من المقاتلين الذين جاءوا من كل مكان الى العرس الذي لسم يبدأ . دخلنا سراي المدينة . قالوا ان هذا المكان يستطيع وحده استيعاب مئات الفدائيين الذين جاءوا من كل مكان . اضواء شموع . دهاليز طويلة . ندخل وندخل ولا نفهم اين نحن . وجدنا انفسنا في غرفة مستطيلة وكبيرة جدا . النوافذ عالية ومحاطة بالاسلاك .

— نحن في السجن . جئنا لنحارب فوجدنا انفسنا في السجن . مبدئيا ، انا لا اوافق . لا يمكن ان ننام في السجن حتى ولو كان السجن فارغا . وحتى اذا الغينا السجن ، لا يمكن . الفدائي لا يمكن ان ينام في السجن . هذا موقف مبدئي . لست مستعدا ان اوافق .

سالم ، وقاذف الـ ب ٧ في يده ، ووجهه الذي يرتجف على حائط السجن . يرتفع صوته . لن انام في السجن . انا جئت لاحارب ولن انام هنا .

يتقدم طلال من الدائرة التي تتعلق حول سالم . يقف كالخطيب ويتكلم متمهلا . المسألة ليست مبدئية ، المسألة عملية . لا يوجد مكان يتسع لنا سوى هذا السجن . ثم ، هذا جميل . تخيلوا معي : نخرج من السجن لندمر السجن . الثورة تبدأ من السجن . اعتقد ان المسألة غير مدروسة . لكنها تأتي كأنها مدروسة . كأنها تريد ان تقول ان السجن هو الذي يدمر السجن .

انت رومنطريقي اقول له .

انا رومنطريقي يجيبي .

والجبال التي تمتد كانت تمتد . يجب ان نتعرف على المنطقة بدقة يقول نبيل .

النقاش يتسع • حلقات صغيرة تتوزع في الزوايا والممرات • والضوء
الشاحب يصبح اكثر شحوبا • والقذائف تختلط بالنعاس • ثم ، وفي حوالي
التاسعة مساء ، كانت القاعة بأسرها نائمة • الشموع نائمة ، وأنا نائم ،
وظلال ينام الى جانبي • حتى القذائف بدت وكأنها تريد النوم • يوقظني
• طلال •

– هل تعرف لماذا ننام بهذه السرعة ؟

التعب قلت له • وكان صوتي يختلط بالثأوب والنعاس •

– لا ، ليس التعب • انه السجن • السجن يعني النوم • مجموعة مشاكل
صغيرة ، ثم يهرب الرجل الى النوم • عندما تنام تستطيع ان تتجاوز
المنذبات • تهرب الى شيء هو لك وحدك • النوم هو لي وحدي • لا يشاركني
فيه احد • انام كما اشاء • احلم • اتقلب • لاجل هذا السبب ننام نحن ،
وينام السجناء •

– ولكنني لست سجيناً •

– طبعاً سوف نحطم السجن • ولكن من اجل تحطيم السجن ، كان لا بد
من دخول السجن •

– أريد ان انام • وبعد ذلك ، أنت تناقض نفسك •

– الحياة هكذا • التناقض لا يعني انني اناقض نفسي • التناقض يعني
التناقض •

– النوم يعني النوم •

ادرت ظهري وحاولت ان انام • لكن طلال لا ينام • وابي يقول ان السمك
في البحر لا ينام • لكني لم اساله اين ينام السمك اذن • ابي يصر على ان
السمك لا ينام • وطلال لا ينام • ويدي لا تطال سقف السجن العالي • نهضت ،
كانت الشهب الحمراء تلمع من النوافذ الصغيرة العالية • خطواتي ترحف
على البلاط المغطى ببطانيات الصوف النابشة • وفي الغرفة الجانبية ، اصوات
وهمهمة • تقدمت ، شاهدتهم من خلف القضبان • اربعة رجال • كل واحد
يجلس بمفرده في زاوية معتمة • شمعة وحيدة ترتجف • تقدمت من القضبان •
تقدم احدهم باتجاهي ، ثم تحرك الآخرون • فتح الاول فمه ، ثم تبعه الآخرون •
خرج صوت واحد بتدرجات متفاوتة ، كأننا في مسرح يوناني • لم افهم قلت
لهم • انا سجين قال احدهم •

– وأنا سجين مثلكم •

- ولكنك تحمل رشاشا .
- غدا ، اعطيك رشاشا .
- تراجع احدهم وقد بدت الخيبة على وجهه .
- انت تسخر منا .
- انا لا اسخر منكم . هذا رأيي . غدا اعطيك سلاحا . ولكن لماذا . لماذا انتم هنا ؟
- المسألة معقدة . قالوا انهم يخافون علي . انا من قرية بعيدة ، وانست تعرف الاجواء .
- جاء طلال ونبيل واشخاص آخرون . بدأ طلال مهتما بالموضوع .
- غدا ، سوف اوصلك الى قريتك . لا يوجد سجناء هنا . لقد ألغينا السجن نهائيا .
- غدا ، سوف اعطيك بندقية وتأتي لتحارب معنا . هل تقبل ؟
- لكنني لا اعرف القتال .
- تتعلم القتال وانت تقاقل . هل تخاف ؟
- طبعا يخاف . انا اخاف . كلنا نخاف . الشجاعة خدعة . لا وجود للشجاعة . الخوف قبل او بعد . قبل او بعد دائما نخاف . نخاف من السجن قبل ان ندخله . نخاف من الموت قبل ان نموت . نخاف من الحرب بعد ان تنتهي المعركة . نخاف من المرأة قبل ان نتزوج .
- لا . نخاف من المرأة بعد ان نتزوج .
- تكوم السجناء حول المسجين الذي يخاف . وتكومنا نحن حول نبيل الذي لا يخاف . وفي النهاية يجب ان ننام . ارتفعت اصوات القذائف حول السجن ، وكان حزني يرتفع . حزن طلال ، غطى حزنه ايام السجن الثلاثة التي قضيناها ونحن ننتظر اخراج السجناء . طلال في الزاوية ، يعد القذائف وينتظر دوره . ثم جاء أمر الفصيل ، اخبرنا اننا سوف نعود ، لان العملية ألغيت . ولكن ماذا سنفعل بالسجناء سأل طلال . قال أمر الفصيل ان المسألة معقدة ، تحتاج الى وقت واتصالات . نحن لا نستطيع التصرف . نتركهم مؤقتا . لا بد من ان يخرجوا في النهاية .
- كل شيء مؤقت قالت ، وهي تحمل في يدها صورتها . انظر الى صورتني .

انت اجمل من الصورة • رفع للال الكاميرا الى كتفه ، ارتفع الفتى الزنجي
النحيل ، اختلط بالرمل وقطرات المطر •

اتكلم ، لاني حزين • نموت مثل الذباب • منذ ايام المغول او قبلهم او
بعدهم ، ونحن نموت مثل الذباب • نموت دون ان نفكر • نموت من الامراض ،
من البلهارسيا ، من الطاعون ، من الولادة ، من عدم الولادة • نموت مثل
الذباب • بدون وعي ، بدون كرامة ، بدون شيء •

- لكنك تدعو للحرب • والحرب تعني موت مزيد من الناس •

- الثورة تعني الحياة •

- لكنهم يموتون •

- يموتون بوعي • الوعي ضد الموت • لا نستطيع الغاء الموت الا بالوعي •
نتتهي من موت الذباب ، وندخل في الموت الحقيقي •

- الموت يلغي الوعي • الموت يلغي الوعي ، هل تسمع ؟ •

ركضت • وضعت الرمل على شعرها ، وبدأت تحرك رأسها •

- انت بورجوازية وانا لا احبك •

ركضت ولم اركض وراءها • حملت حذائي في يدي ، ومشيت بطيئا الى
السيارة • الى اين صرخت • الين تأخذني اسيرة وتضعني في العلبه ؟ فتحت
باب السيارة ، ادبرت محركها ، وذهبت •

الثلج يتدحرج فوق رؤوسنا • الضباب ، والجبل الكبير ينحني اسام
اقدامنا • العدو يتقدم ، يحاول التقدم ، لكننا نقف على القمة مثل الآلهة • لا
نتزحزح • نتقدم ببطء ، والبهغال البيضاء تتقدم ببطء الى جانبنا ، واصوات
الطلقات اختلطت باصواتنا • الاقدام ، تورمت واصبحت جزءا من الثلج والبقع
الرمادية • ونحن لا نزال • نعود الى الذكريات • نروي حكاية السجن • نتذكر
السجناء الاربعة • كل واحد يروي القصة كما يشاء ، او كما يتذكرها ، او كما
هي فعلا • والطلقات ترن في الفضاء الواسع ، حيث الشمس التي تتدحرج ،
والثلج الذي يتساقط ، والالوان التي لا تشبه الالوان • كان حلقي جافا • يدي
تتخشب حول البندقية • نستمع الى اصواتهم • يشتمون ونشتم ونطلق النار •
نحتاج الى حجارة سمير يصرخ نزيه • وبعد لحظات انسحبوا • كنا نجلس
بهدهوء حول بناذقنا ، حين قفز سالم • صرخ بصوت كالجبل : من هناك • ركض

بأتجاه رجل ، اعتقدته لأول وهلة احد رفاقنا .
- من انت ؟

ركض طلال ، ركض نزيه . اخذوا بندقية .
- من انت ؟

صوته يرتجف . تكلم دون ان يقول كلمة واحدة .
... من انت ؟

- انا راعي .

- والبندقية ؟

- انا ضائع .

صرخ نزيه ، اسير . امسكوه جيدا . اربطوه بالحبال . تقدم نزيه وضربه
على وجهه . اهلا مسير فاشستي ، وصلت الرسالة . لا تضربوه صرخ
سالم . ركض طلال ، امسكه من ذراعه ، تعال .

انا طالب قال . نحن مجموعة التبديل . تركوني في الجبل . لا تقتلونني .

كان يرتجف مثل الاسرى ، ونزيه يرتجف مثل الفاتحين ، وطلال يرتجف .
امسكته من ذراعه اليمنى ، امسكه طلال ، واخذناه الى الخيمة . سقيناه كوب
شاي ساخن . ماذا جرى للسجناء الاربعة سألني طلال . جاء نبيل ، يجب ان
نقتله فوراً . اولاد الكلب ، الفاشست .

الاسير يرتجف ، لن نقتله يقول طلال ، انه فقير مثلنا .

- لماذا يقاتل معهم ؟

- متى يصنع الفقراء حريهم الخاصة .

- لا توجد حرب خاصة بالفقراء . يجب ان تدمر البنايات البنايات ، والاكواخ
البنايات ، والمدن المدن . ومن الدمار ، تخرج حرب الفقراء الخاصة .

جلس طلال الى جانب الاسير ، وبدأ يتكلم . اخبره عن الجنوب ، وعن
فقراء النبعة ، وعن تل الزعتر . اخبره ان عمان كانت تحترق ، وان الليمونة
لم تمت . اخبره قصة السجن ، وقصة حبنا للسجناء الاربعة . كان الاسير
مقتنعا . دائما يقتنع الاسرى بسهولة .

- ولكن لماذا تقاتل معهم ؟

لا تقتلونني ، أرجوكم ، يقول الاسير • بن نقتلك يقول طلال • لكن تكلم • انا
مقتنع يقول الاسير • دائما ، يقتنع الاسرى بسهولة • ويموت الاسرى
بسهولة •



انا هو الاحتمال الاخير ، قلت لها • الموت هو الاحتمال الاخير يقول نزيه ،
وهو يمشي خلف البغل الابيض ، الذي يتعثر في مسيرته بين القلال الوعرة •
وطلال ، ينام هادئا ، يتهادى على صهوة البغل • طلقة في الراس ، وقطرات
دم تتساقط ، وتسيل على بطن البغل الابيض • الموت هو الاحتمال الاخير ، قال
لها • والسجناء الاربعة ، لا يزالون يطمون بالبندقية • والجبل يرتجف تحت
الاقدام • الموت هو الاحتمال الاخير ، اقول لها • والرغيف يجف في يدي •
وطلال ينام مستسلما كملك حقيقي • وصنين لا يجاوب •

أسبوع قصائد

محمود درويش

الرمل

انهُ الرملُ
 مساحاتٌ من الافكارِ والمراهِ ،
 فلنذهبْ مع الايقاعِ حتى حتفنا •
 في البدء كان الشجرُ العالى نساءً
 كان ماءً صاعداً ، كان لغه •
 هل تموتُ الارضُ كالانسانِ
 هل يحملها الطائرُ شكلاً للفراغِ ؟

البداياتُ انا
 والنهاياتُ انا

وآرملُ شكلٌ واحتمالٌ • برتقالٌ يتناسى شهوتي الاولى •

ارى فيما ارى النسيان ، قد يفترسُ الازهارَ والدهشة .
والرملُ هو الرملُ . ارى عصرا من الرملِ يظينا ،
ويرمينا من الايام .
ضاعتُ فكرتي وامراتي ضاعتُ
وضاعَ الرملُ في الرملِ . . .

البداياتُ انا
والنهاياتُ انا

والرملُ جسمُ الشجرِ الآتي ،
غيومٌ تشبهُ البلدانَ .
لونٌ واحدٌ للبحرِ والنومِ ،
وللعشاقِ وجهٌ واحدٌ ،
. . . وسنعتادُ على القرآنِ في تفسيرِ ما يجري ،
سنرمي الفَ نهرِ في مجاري الماءِ .
والماضي هو الماضي ، سيأتي في انتخاباتِ المرايا سيدُ
الايامِ .
والنخلةُ أمُّ اللغةِ الفصحى .
ارى ، فيما ارى ، مملكةَ الرملِ على الرملِ
ولن يبتسمَ القتلى لاعيادِ الطبولِ
وداعا . . . للمسافاتِ
وداعا . . . للمساحاتِ
وداعا للمغنينَ الذينَ استبدلوا « القانونَ » بالقانونِ كي
يلتحموا بالرملِ . . .
مرحى المصابينَ برؤيايَ ، ومرحى للسيولِ .

البداياتُ انا
والنهاياتُ انا

امشي الى حائط اعدامي كعصفورٍ غبي ،
واظنَّ السهمَ ضلعي ،
ودمي اغنيةَ الرمانِ • امشي •
واغيبُ الآن في عاصفةِ الرملِ ،
سيأتي الرملُ رملياً
وتأتينَ الى الشاعر في الليل ، فلا
تجدين البابَ والازرقَ ؛
يا ايتها المرأةُ - يا ايتها اللفظةُ
ضاعت لفظتي وامراتي ضاعتُ ••

سيأتي •• سوف يأتي عاشقانُ
ياخذانِ الزنبقَ الهاربَ من ايامنا
ويقولانِ امامَ النهرِ :
كم كان قصيرا زمنُ الرملِ
ولا يفترقانُ

والبداياتُ انا
والنهاياتُ انا

الصهيل الاخير

واصبُّ الاغنية
 مثلما ينتحرُ النهرُ على ركبتهٗ .
 هذه كلُّ خلاياي
 وهذا عسلي .
 وتنامُ الامنيه .

في دروبي الضيقه
 ساحةٌ خالية ،
 نسرٌ مريضٌ ،
 وردةٌ محترقه
 حلمي كان بسيطاً
 واضحا كالمشئقة :
 ان اقول الاغنيه .

اين انت الان ؟
 من اي جبل
 تأخذين القمرَ الفضي

من اي انتظار ؟
 سيدي الحب ! خطانا ابتعدت
 عن بداياتِ الجبل
 وجمالِ الانتحار
 وعرفنا الاودية .

اسبقُ الموتَ الى قلبي
 قليلا

فتكونين السَّفرُ
وتكونين الهواءَ .
أين أنتِ الآنَ
من أيِّ مطرٍ
تسترددين السماءَ ؟
وانا اذهبُ نحو الساحةِ المنزويةِ

هذه كلُّ خلاياي ،
حروبي ،
سُبلي .
هذه شهوتي الكبرى
وهذا عَسلي ،
هذه اغنيتي الاولى ،
اغني دائماً
اغنيةً أولى ،
ولكنْ
لن اقولَ الاغنيةَ .

لمساء آخر

كلُّ خوخٍ الارضِ ينمو في جسدٍ
وتكونُ الكلمةُ

وتكونُ الرغبةُ المحتدمةُ
سقطُ الظلِّ عليها

لا احدُ

لا احدُ ..

وتغني وحدها

في طريقِ العرباتِ المهملهُ

كلُّ شيءٍ عندها

لقبٌ للسنبلةُ

وتغني وحدها .

البحيراتُ كثيرةُ

وهي النهرُ الوحيدُ .

قصتي كانتُ قصيرةُ

وهي النهرُ الوحيدُ .

سأراها في الشتاءُ

عندما تقتلني

وستبكي

وستضحكُ

عندما تقتلني

واراها في الشتاءُ ..

انني اذكرُ
 او لا اذكرُ
 الْعَمَرَ تَبَخَّرُ
 في محطات القطاراتِ
 وفي خطوتها •
 كانَ شيئاً يشبهُ الحبَّ
 هواءً يتكسَّرُ
 بين وجهين غريبين ،
 وموجاً يتحجَّرُ
 بين صدرين قريبين ،
 ولا اذكرها ...

وتغني وحدها
 لمساءٍ آخرٍ هذا المساءُ
 وانادي وردّها
 تذهبُ الارضُ هباءً
 حين تبكي وحدها •

كلماتُ كلماتُ
 للشبابيكِ سماءُ
 للعصافيرِ فضاءُ
 للخطىِ دربُ وللنهرِ مصبُ
 وانا للذكرياتُ •

كلماتي كلماتُ
 وهي الاولى • انا الاولُ

كنا • لم نكن°
 جاء الشتاء°
 دون ان تقتلني •

حالة واحدة لبحار كثيرة

التقينا قبلَ هذا الوقتِ في هذا المكانِ
 ورمينا حجرا في الماءِ ،
 مَرَّ السمكُ الازرقُ
 عادتُ موجتانِ
 وتموَّجنا •
 يديّ تحبو على العطرِ الخريفيّ ،
 ستمشينَ قليلا
 وسترمين يدي للسنديانِ .
 قلتُ : لا يشبهك الموجُ
 ولا عمري •
 تمددتُ على كيسٍ من الغيمِ
 وشقَّ السمكُ الازرقُ صدري
 ونفاني في جهاتِ الشَّعرِ ، والموتُ دعاني
 لأموتَ الان بين الماءِ والنارِ
 وكانت لا تراني
 انَّ عينيها تنامانِ تنامانِ •••

سارمي عرقي للعشبِ ،
 لن انسى قميصي في خلاياك ،

ولن انسى الثواني ،
وسأعطيك انطباعاً عاطفياً ..

لم تقل شيئاً .
سترميني الى الاسماك والاشواك ،
عيناها تنامان تنامان ..
سَبَقْنَا حُلْمَنَا الْآتِي ،
سنمشي في اتجاه الرمل صيادين مقهورين
يا سيدتي !
هل نستطيع الان ان نرمي بجسمينا الى القطر
يا سيدتي ! نحن صديقان .

ونام السمك الازرق في الموج
واعطتنا الاغاني
سِرِّهَا ،
فَاتَّضَحَ اللَّيْلُ ،
انا شاهدتُ هذا السرَّ من قبل
ولا ارغبُ في العودة ،
لا ارغبُ في العودة ،
لا اطلبُ من قلبك غيرَ الخفقانِ .

كيف يبقى الحلمُ حُلماً
كيف
يبقى
الحلمُ
حُلماً

وقديماً ، شردتني نظرتانِ
والتقينا قبل هذا اليوم في هذا المكانِ !

قطار الساعة الواحدة

رَجُلٌ وامرأةٌ يفترقانِ
ينفضانِ الوردَ عن قلوبيهما ،
ينكسرانِ :
يخرجُ الظلُّ من الظلِّ
يصيرانِ ثلاثةٌ :
رجلاً
وامرأةً
والوقتُ ...

لا يأتي القطارُ
فيعودانِ الى المقهى
يقولانِ كلاماً آخرأ ،
ينسجمانِ
ويُحبانِ بزوغَ الفجرِ من اوتارِ جيتارِ
ولا يفترقانِ ...

.. وتلفتُ أجيلُ الطرفِ في ساحاتِ هذا القلبِ . ناداني
زقاقٌ ورفاقٌ يدخلونَ القبوَ والنسيانُ في مدريدَ . لا انسى
من المرأةِ الا وجهها او فرجي ..
انسائكِ انساكِ وانساكِ كثيراً

لو تأخرنا قليلاً
 عن قطار الواحدة •
 لو جلسنا ساعةً في المطعم الصيني ،
 لو مررتُ طيوراً عائدهُ •
 لو قرأنا صحفَ الليلِ
 لكنّا
 رجلاً وامرأةً يلتقيان •••

يومٌ أحدٍ •• ازرق

تجلسُ المرأةُ في اغنيتي
 تغزلُ الصوفَ ،
 تصبُّ الشايَ ،
 والشِّبَّاكُ مفتوحٌ على الايامِ ،
 والبحرُ بعيدٌ ••
 ترتدي الازرقَ في يومِ الاحدِ ،
 تتسلى بالمجلاتِ وعاداتِ الشعوبِ ،
 تقرأ الشعرَ الرومنطيكيَّ ،
 تستلقي على الكرسيِّ ،
 والشِّبَّاكُ مفتوحٌ على الايامِ ،
 والبحرُ بعيدٌ •

تسمعُ الصوتَ الذي لا تنتظرُ •
 تفتحُ البابَ ،
 ترى خطوةَ انسانٍ يسافرُ •

تغلقُ البابُ ،
 ترى صورتهُ • تسألها : هل أنتِ حُرٌّ ؟
 تنتقي موزارتَ ،
 ترتاحُ مع الارضِ السماويةِ ،
 والشبَّاكُ مفتوحٌ على الايامِ
 والبحرُ بعيدٌ •

•• والتقينا ،
 ووضعتُ البحرَ في صحنِ خَزَفٍ ،
 واختفتُ اغنيتي •

انتِ ، لا اغنيتي
 والقلبُ مفتوحٌ على الايامِ ،
 والبحرُ سعيدٌ ••

الحديقة النائمة

سَرَقْتُ يدي حين عانقها النومُ ،
 غطيتُ احلامها •
 نظرتُ الى عسلٍ يختفي خلفَ جفنينِ ،
 صليتُ من اجل ساقينِ معجزتينِ ،
 انحنيتُ على نبضها المتواصلِ ،
 شاهدتُ قمحاً على مرمرٍ ونعاسٍ ،
 بكتُ قطرةً من دمي
 فارتجفتُ ••

• الحديقة نائمة في سريري

ذهبتُ الى البابِ ،

لم التفتُ نحو روجي التي واصلتُ نومها

• سمعتُ رنينَ خطاها القديمِ واجراسَ قلبي

ذهبتُ الى البابِ

– مفتاحُها في حقيبتها

وهي نائمةٌ كالملاكِ الذي مارسَ الحبَّ –

ليلٌ على مطرٍ في الطريقِ ، ولا صوتَ يأتي

• سوى نبضِها والمطرُ

ذهبتُ الى البابِ ،

ينفتحُ البابُ ،

• اخرجُ

ينغلقُ البابُ ،

• يخرجُ ظلي ورائي

لماذا اقولُ وداعاً ؟

• من الآنَ صرتُ غريباً عن الذكرياتِ وبيتي

هبطتُ السلالمَ ،

لا صوتَ يأتي

سوى نبضِها والمطرُ

وخطوي على دَرَجٍ نازلٍ

• من يديها الى رغبةٍ في السفرِ

وصلتُ الى الشجرةِ

هنا قبلتني

هنا ضربتني صواعقُ من فضةٍ وقرنفلٍ •
 هنا كان عالمها يبتدىءُ
 هنا كان عالمها ينتهي •
 وقفتُ ثواني من زئبقٍ وشتاءٍ ،
 مشيتُ ،
 ترددتُ ،
 ثم مشيتُ ،
 اخذتُ خطايَ وذاكرتي المالحه
 مشيتُ معي •

لا وداعٌ ولا شجره
 فقد نامتِ الشهواتُ وراءَ الشبايبكِ ،
 نامتُ جميعُ العلاقاتِ ،
 نامتُ جميعُ الخياناتِ خلفَ الشبايبكِ ،
 نامَ رجالُ المباحثِ ايضاً ••

وريتا تنامُ •• تنامُ وتوقظُ احلامها •
 في الصباح ستأخذُ قبيلتها ،
 وایامها ،
 ثم تحضر لي قهوتي العربيه
 وقهوتها بالحليب •
 وتسألُ للمرةِ الالفِ عن حُبنا
 واجيبُ
 بانني شهيدُ اليدينِ اللتين
 تعدان لي قهوتي في الصباح •

وريتا تنامُ •• تنامُ وتوقظُ احلامها

- نتزوج°

نعم

- متى ؟

حين ينمو البنفسج°

علي قبعات الجنود°

طويت الأزقة ، مبنى البريد ، مقاهي الرصيف ، نوادي

الغناء ، واكشاك بيع التذاكر°

أحبك ريتا° أحبك° نامي وأرحل° :

بلا سبب كالطيور العنيفة أرحل°

بلا سبب كالرياح الضعيفة أرحل°

أحبك ريتا° أحبك° نامي

سأسأل بعد ثلاثة عشر شتاء°

سأسأل° :

أما زلت نائمة°

أم صحت من النوم°°

ريتا ! أحبك ريتا

أحبك°°

الفلسطينيون في الضفة الشرقية مؤشرات عددية

عصام حنيني

مقدمة في المنهج

هذه الدراسة يقصد بها حصرا ، دون اي تفسير آخر ، المساهمة في معرفة عدد الفلسطينيين في العالم ، واذا كانت قد بذلت من قبل ، جهود مختلفة للتعرف على عدد الفلسطينيين في الداخل والمهجر ، فان اهمية هذا التعرف بالنسبة للاردن ذات قيمة خاصة نظرا للحجم الكبير الذي يمثله الفلسطينيون هناك بالنسبة لعدد الكلي .

ولان الدراسة محصورة في هذا الجانب فقط ، فان الجهد فيها متجه لمعرفة عدد الفلسطينيين دون دراسة الجوانب الديموغرافية الاخرى للسكان هناك الا بما يخدم الغرض الاساسي الذي ترمي اليه الدراسة فلسنا معنيين هنا بمواضيع مثل الهجرة والتركيب العمري للسكان والزيادة الطبيعية لهم وتقسيمهم حسب الجنس الخ ، الا بمقدار ما تفيد هذه المواضيع في معرفة عدد السكان ، وبذلك فان هذه المواضيع سوف تجري الاشارة اليها وتمس مسا دون الغوص في تفصيلاتها .

من جانب ثان ، ولاسباب سنوضحها بعد قليل وكما سيظهر من خلال الدراسة نفسها ، فان هذه الدراسة ، على الرغم من انها تطمح لان تكون دقيقة في نتائجها الا ان الباحث الحالي لا يستطيع الادعاء بأنه حقق ذلك الهدف ، وانما هي محاولة للارتقاء الى ذلك ، ان نقص المعلومات الجا الباحث الحالي

الى اسلوب الافتراض في احيان كثيرة * وكان هذا الاسلوب في المعالجة ، على الرغم من كل ما يعتوره من اخطاء ، الوسيلة الوحيدة حيث تشجع المعلومات * وقد حاول الباحث الحالي ان يخفف قدر الامكان - وربما الى الحد الاقصى - من شوائب الافتراض بوسيلتين : الاولى بناء الافتراض على اكبر كمية ممكنة من المعلومات المتناثرة - و احيانا المتعارضة فيما بينها - والمقارنة بينها ، ومن ثم صياغة مقدمات الافتراض في ضوء مؤشرات ترجح احداها على الاخرى ، او تعزز نتائج الافتراض نفسه * والوسيلة الثانية اللجوء الى طريقة الفحص المتقاطع للمعلومات وللنتائج التي تمخضت عنها * ونحسب ان هذه الطريقة الاخيرة كانت توصل الباحث الى تقديرات يمكن الركون باطمئنان الى صحتها النسبية لجهة حيثياتها ونتائجها *

من جهة ثالثة فقد لجأنا في هذه الدراسة الى عرض الطرائق التي اوصلتنا الى النتائج بتفصيل يكاد يوحي بالتعقيد * غير ان تعمدنا ذلك كان بهدف واحد هو تمكين باحثين آخرين قد يمتلكون مزيدا من المعلومات ، مسن اكتشاف الاخطاء ان وجدت والتعرف على مواطنها الحقيقية من خلال التفصيلات الموجودة في هذه الدراسة * فكما اشرت في اسطر مرت ، فان هذه الدراسة تطمح لان تكون دقيقة في نتائجها ، ولكنها تبقى محاولة اولى في موضوع لم يترق من قبل ، وبذلك فان جهد القادمين سيستفيد حتما من نتائج هذه الدراسة وسيجنب نواقصها التي تظهر بالتاكيد من التفصيلات الكثيرة ، اكثر مما لو كانت الدراسة تلجأ الى اسلوب التعميم *

وقبل الدخول في صلب الدراسة ، لا بد من ايضاح بعض الحقائق التمهيدية التي تشير الى صعوبة البحث :

اولا : ان الاحصاءات في الاردن ، منذ كان ضم الضفة الغربية الى المملكة دستوريا في العام ١٩٥٠ ، لا تميز بين فلسطيني وشرق اردني * فالفلسطينيون ، بحكم المواطنة هناك ، هم اردنيون * وبذلك فان فرزهم حسب هويتهم الفلسطينية يبدو - للوهلة الاولى - متعذرا ان لم يكن مستحيلا ، ما لم نلجأ الى طريقة الفحص المتقاطع للمعلومات المتوفرة ، والتي يمكن بواسطتها استنتاج النسبة العددية للفلسطينيين استنتاجا تقديريا *

ثانيا : ان الارقام التي تعطيها وكالة غوث اللاجئين الفلسطينيين (الاونروا) لا تحل المشكلة * فهي على افتراض صحتها (ونشك في ذلك لاسباب متنوعة) فانها تشمل اللاجئين فقط * واللاجيء ، حسب تعريف الوكالة له ، هو « الشخص الذي كانت فلسطين مكان اقامته العادية لمدة سنتين على الاقل قبل النزاع العربي - الاسرائيلي في ١٩٤٨ ، والذي ، كنتيجة لذلك النزاع ، فقد بيته ووسيلة معيشته كليهما ، واللاجيء ، واطفاله ، كي يكون مستحقا مساعدة

الاونروا ، يجب ان يكون ١ - مسجلا لدى الاونروا . ب - يعيش في منطقة عمليات الاونروا . ج - في حاجة « (١) » .
وحسب هذا التعريف فان ١ - الفلسطينيين الذين لجأوا الى الاردن في ١٩٤٨ - ١٩٤٩ ولم يسجلوا لدى الوكالة ، لسبب او لآخر ، لا يعتبرون لاجئين . ٢ - سكان الضفة الغربية الاصليين لا تشملهم إحصاءات الوكالة .
وبذلك فان من انتقل من هؤلاء بسكنه الى الضفة الشرقية في فترات مختلفة بعد العام ١٩٤٨ لا يدخل في التعداد .

ثالثا : لا توجد ارقام معتمدة عن عدد السكان في الاردن قبل العام ١٩٥٢ ، وهو العام الذي جرى فيه اول تعداد للسكان والمساكن في الاردن . اما قبل ذلك العام فهناك تقديرات مختلفة ، تخمينية على الاغلب . وعلى الرغم من التناقض والاطغاء الاحصائية التي تميز بها ذلك التعداد ، فهو على الاقل التعداد المعتمد رسميا .

رابعا : بالاضافة الى تعداد ١٩٥٢ جرى تعداد آخر في العام ١٩٦١ تميز بدقة اكثر من سابقه . ومنذ ذلك لم يجر اي تعداد آخر . اما تقديرات السكان للاعوام التي تقع بين التعدادين وللعوام التي تلي تعداد ١٩٦١ فهي جميعا تقريبية تأخذ بالاعتبار الزيادة الطبيعية للسكان .

خامسا : قامت السلطات العسكرية الاسرائيلية في ايلول ١٩٦٧ باجراء تعداد للسكان في الضفة الغربية المحتلة ، ويمكن الاستعانة بنتائج هذا التعداد لمعرفة عدد السكان هناك ، بالاضافة الى خصائصهم الديموغرافية .
سادسا : لا توجد ارقام مستندة الى احصائيات عن عدد نازحي ١٩٦٧ الى الضفة الشرقية ، وجميع الارقام المعطاة هي تقديرية في الاساس ، ويجب ان تعامل بحيطه وتأن نظرا الى ان هذه التقديرات كانت تخضع احيانا لعوامل دعائية .

الوضع في شرق الاردن عشية الضم

كما اشرنا ليست هناك ارقام دقيقة عن عدد السكان في شرق الاردن عشية ضم الضفة الغربية اليها . وسنستعرض فيما يلي التقديرات المختلفة كما وردت في مصادر متعددة :

١ - جرت العادة لدى بعض الكتاب على جعل سكان شرق الاردن في العام ١٩٤٨ ٤٠٠٠٠٠ نسمة (٢) . وهناك تقدير آخر يجعل عدد السكان ٤٥٠٠٠٠ نسمة (٣) .

٢ - قدرت بعثة للبنك الدولي للتنمية عدد سكان شرق الاردن في العام

١٩٤٧ بهـ ٣٧٥٠٠٠ نسمة (٤) ، وبذلك فان متوقع عدد السكان في العسام
١٩٤٨ نحو ٣٨٤٠٠٠ نسمة .

٣ - يذكر سليمان موسى (احد مؤرخي الاردن) انه وقع بين يديه تقرير
مؤرخ في ٢٣ آب ١٩٢٢ قدمه كاتب نيابة العشائر الى الشريف شاكر بن زيد ،
يتألف من جدولين : الاول يتضمن اسماء المدن والقرى مع عدد سكانها واسماء
شيوخها ، والثاني يتضمن اسماء العشائر واسماء شيوخها وعدد مضاربيها
ونفوسها . ويذكر التقرير ان مجموع عدد سكان القرى والبلدان ١٢٢٤٣٠
نسمة ، وعدد العشائر ١٠٢٩٥٠ اي ان مجموع سكان شرق الاردن في العام
١٩٢٢ بلغ ، حسب هذا التقرير ، ٢٢٥٣٨٠ نسمة (٥) .

وفقا لهذا الرقم فان عدد سكان شرق الاردن في العام ١٩٤٨ كان نحو
٣٧١٩٠٠ على اساس ان النمو العام في شرق الاردن في الاعوام من ١٩٢٢
الى ١٩٤٨ ، لم يكن ليزيد عن ٢٥ بالمئة ، استنادا الى ما يلي :

١ - ان الفترة من العام ١٩٥٢ الى العام ١٩٦١ شهدت نموا عاما اقل من
٢ بالمئة (٦) . وبما ان الاوضاع الصحية في الاردن (التي تؤثر على انخفاض
نسبة الوفيات وبالتالي على ازدياد نسبة الزيادة الطبيعية للسكان) قد تحسنت ،
بسبب تطور الخدمات الطبية ، في الفترة من ١٩٥٢ الى ١٩٦١ عنها في الفترة
التي سبقتها ، فاننا نفترض افتراضا اوليا ان الفترة التي سبقت العام ١٩٤٨
شهدت نموا عاما نسبته اقل من ٣ بالمئة .

ب - ان الزيادة الطبيعية للسكان في جنوب شرق اسيا كانت ٢٥ بالالف
للاعوام ١٩٥٠ - ١٩٥٥ (٧) .

ج - كانت الزيادة الطبيعية الفعلية في اواخر الاربعينات في فلسطين ٢٧ر٤
بالالف للمسلمين و١٨ بالالف للمسيحيين (٨) .

وبمقارنة هذه الارقام نذهب الى ان معدل النمو العام للسكان في الاردن كان
نحو ٢٥ بالمئة وهو ما سنعتمده هنا .

٤ - تشير مصادر الانتداب البريطاني الى ان دوائر الصحة في شرق الاردن
تقدر عدد السكان هناك في العام ١٩٣٦ بهـ ٣٠٠٠٠٠ نسمة (بما في ذلك
السكان الرحل وشبه الرحل) (٢٩) . وفي العام ١٩٣٨ لم يطرأ اي تعديل
على هذا التقدير ، فالمصادر الرسمية البريطانية تقدر عدد السكان انذاك
بهـ ٣٠٠ر٠٠٠ (١٠) . ويذكر المؤرخان الاردنيان سليمان موسى ومنيب الماضي
ان عدد السكان في ١٩٣٨ كان ٣٠٠٢١٤ ، استنادا الى احصاء السكان الذي
قام به متصرفو الالوية في ذلك العام (١١) . ولو اعتمدنا هذا الرقم الاخير
(المقارب لتقديرات سلطات الانتداب) لصح الاستنتاج بان عدد السكان في

١٩٤٨ (بمعدل نمو سنوي مقداره ٢,٥ بالمئة) كان نحو ٢٧٥٢٠٠ .

٥ - نختلف مع المؤرخين المذكورين اللذين ذهبوا الى ان عدد سكان شرق الاردن في العام ١٩٤٦ بلغ ٤٣٣٦٥٩ ، وفقا لاحصاء السكان بالاستناد الى بطاقات توزيع المؤن (١٢) . اي ان عدد السكان في ١٩٤٨ كان يجب ان يكون نحو ٤٥٥٣٠٠ . ومرد الاختلاف الى ما يلي :

١ - ان الاحصاء تم بهدف توزيع المؤن ، فالصلحة لدى السكان المعدودين في زيادة ارقام المستفيدين تبدو هنا واضحة .

ب - ان نسبة النمو العام التي اعتمدنا والتي نراها مقبولة ستجعل من عدد السكان الشرق اردنيين في العام ١٩٥٢ نحو ٤٩٨٧٠٠ من جملة عدد السكان في الضفة الشرقية الذي بلغ حسب التعداد الذي جرى ذلك العام ٥٨٦٨٨٥ (١٣) . بمعنى ان عدد الفلسطينيين في ذلك العام هو ٨٨١٨٥ وهو رقم نرفضه وينقص كثيرا عن عدد الفلسطينيين في الضفة الشرقية ذلك العام كما سنبين في حينه .

٦ - تشير بعض المصادر الاخرى الى ان عدد سكان شرق الاردن في العام ١٩٤٢ بلغ ٣٤٠٠٠٠ نسمة (١٥) ، اي ان متوقع عدد السكان في ١٩٤٨ كان ٣٨٢٥٠٠ .

ان التقديرات من مختلف المحاور تجعل سكان شرق الاردن في العام ١٩٤٨ كما يلي : ٢٧١٩٠٠ ، ٢٧٥٢٠٠ ، ٣٨٢٥٠٠ ، ٣٨٤٠٠٠ ، ٤٠٠٠٠٠ ، ٤٥٥٣٠٠ . وقد اسقطنا من الحساب الرقم الاخير لاسباب اوضحناها ، وللاسباب نفسها نسقط الرقم قبل الاخير . وبذلك فان اعلى تقدير لعدد السكان كان ٤٠٠٠٠ نسمة ، غير ان لدينا من الاسباب التي نوضحها في فقرة لاحقة ما يجعلنا نعتقد ان عدد السكان في شرق الاردن في العام ١٩٤٨ لم يكن يتجاوز ٣٧٥٠٠٠ نسمة في احسن تقدير نبين حيثياته فيما بعد .

المتغيرات حتى ١٩٥٢

اخترنا العام ١٩٥٢ محطة بسبب وجود احصاء رسمي معتمد في الاردن غير ان ما نريد التذكير به ثانية هنا هو ان الاحصاء لا يميز بين فلسطيني وشرق اردني فالجميع سكان اردنيون ، وهذا الامر يجعل معرفة عدد السكان الفلسطينيين في الضفة الغربية يحتاج الى جهد تحليلي خاص .

في العام ١٩٤٨ لجأ الى الضفة الشرقية من الاردن نحو ١٠٠٠٠٠ لاجيء مسجلة اسماؤهم لدى الاونروا (١٦) . غير انه بالاضافة الى هؤلاء فقد شهدت

الاعوام التي تلت هجرة مكثفة من الضفة الغربية الى الشرقية لم تشتمل فقط على اللاجئين من السكان وإنما امتدت ايضا الى المواطنين المقيمين اصلا في الضفة الغربية . وليس ثمة من احصاء او ارقام معتمدة تبين عدد هؤلاء خاصة السكان الاصليين منهم . وقد وردت اشارة في تقرير البنك الدولي للتنمية نستخدمها هنا للدلالة على وجود هجرة سكانية من الضفة الغربية الى الشرقية - تذكر ان نحو ٩٠٠٠٠ شخص انتقلوا من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية بين العامين ١٩٤٨ و ١٩٥٢ (١٧) . الا ان هذه الاشارة لا توضح طبيعة هؤلاء المنتقلين : هل هم لاجئون ام مواطنون اصليون ؟ غير اننا تفترض استنادا الى معطيات الفترة من ١٩٥٢ - ١٩٦١ حيث نشطت حركة الهجرة من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية (كما سنبين في حينه) ان بذور هذه الهجرة ومقدماتها كانت سابقة للعام ١٩٥٢ ، ويؤكد هذا الافتراض حقيقتان :

الحقيقة الاولى ان مستوى المعيشة في الضفة الغربية حتى العام ١٩٥٢ كان ادنى منه في الضفة الشرقية ويبدو هذا الوضع بينا بنفسه من خلال فهم الاطار العام للنكبة التي تعرضت لها فلسطين وتأثيرات ذلك في الضفة الغربية ، خاصة ، من خلال زيادة عدد اللاجئين زيادة ضاعفت تقريبا عدد السكان ، ومن حيث فقدان الاراضي مورد الرزق الوحيد لسكان القرى الامامية المتاخمة لخطوط الهدنة . وتؤكد هذه الحقيقة مؤشرات دخول العمال في الاردن وتمايزها بين الضفتين . ففي الوقت الذي كان معدل اجور العمال الباطنين في الصناعة في مدن القدس والخليل ونابلس في العام ١٩٥٢ هو ٢٠٢ فلس يوميا ، كان في عمان ٢٥٢ فلسا . وفي الوقت الذي كانت فيه اجور العمال الاحداث في الصناعات في مدن الضفة الغربية ٦٠ فلسا يوميا ، كان في عمان ٨٥ فلسا (١٨) .

ان تفاوت الاجور بين الضفتين كان يقود الى هجرة ملحوظة من الضفة الغربية الى الشرقية بهدف السعي وراء الرزق .

الحقيقة الثانية مؤشر حركة البناء المرتبطة بشكل وثيق ، في احد اوجهها ، بحركة السكان . وقد شهد العامان ١٩٥١ و ١٩٥٢ توسعا ملحوظا في حركة البناء في الضفة الشرقية بالمقارنة مع الضفة الغربية . ففي خلال العام ١٩٥١ اقيم في مراكز بلديات الضفة الغربية ابنية بلغت مساحتها ٢٤١٣٩ مترا مربعا بينما كانت مساحة البناء في الضفة الشرقية في العام نفسه ١٢٠٢٦٧ مترا مربعا (١٩) . اي ان مساحة الابنية المنشأة في الضفة الشرقية بلغت ذاك العام ثلاثة اضعاف ونصف ضعف الابنية المنشأة في الضفة الغربية . وقد اتسعت الفجوة في البناء ما بين الضفتين في العام التالي . فبينما بلغ عدد

الغرف المنشأة فعلا في العام ١٩٥٢ في الضفة الشرقية ٤٠٢٥ غرفة ، كان ما انشئ في الضفة الغربية ٧٧٠ غرفة (٢٠) . اي ان الانشاءات في الضفة الشرقية بلغت ، في هذا المجال ، اكثر من خمسة اضعاف الانشاءات في الضفة الغربية .

ان هذه النسب مع تصاعد الخط البياني للفروقات بين الضفتين خلال سنتين فقط (١٩٥١ و ١٩٥٢) تجعلنا نتأكد من صحة الاستنتاجات عن نشاط حركة الهجرة من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية خاصة وان مرحلة « اللجوء » في السنتين اللتين ذكرنا كانت قد انتهت :

نحمل اذن ، فنقول ان التغييرات السكانية بعد العام ١٩٤٨ كانت نتيجة عاملين : الاول قدوم افواج من اللاجئين الفلسطينيين من مختلف انحاء فلسطين ، والثاني حركة هجرة من الضفة الغربية الى الشرقية . فما هو حجم هذه التغييرات ؟

بلغ عدد سكان الضفة الشرقية في العام ١٩٥٢ حسب احصاءات ذلك العام ٥٨٦٨٨٥ كما ذكرنا سابقا ، مقابل ٧٤٢٢٨٩ نسمة في الضفة الغربية (٢١) . وسنعالج هنا السكان في الضفة الشرقية مرجئين الضفة الغربية الى فقرة لاحقة . فما هو عدد الفلسطينيين في الضفة الشرقية ؟

كان عدد الفلسطينيين الذين يتناولون اعاشة من الاوروا في العام ١٩٥١ في الضفة الشرقية ١٤٩٦٨٣ شخصا (٢٢) . ولو حسبنا ان السكان زادوا زيادة طبيعية قدرها ٢٦ بالالف وهي الزيادة الطبيعية التي شهدها العام ١٩٥١ (٢٣) ، فنستطيع ان نقدر ان هؤلاء بلغوا نحو ١٥٤٠٠٠ شخص في العام ١٩٥٢ . ويقع هؤلاء ضمن فئتين :

الاولى فئة اللاجئين الذين قدموا مباشرة الى شرق الاردن في اثناء حرب ١٩٤٨ - ١٩٤٩ ، ونقدر ان عددهم بلغ في العام ١٩٥٢ ١١٣٠٠٠ شخص باعتبار ان عدد الذين لجأوا في اثناء الحرب هو نحو ١٠٠٠٠٠ .

الثانية فئة اللاجئين الذين نقلوا تسجيلهم من الضفة الغربية الى الشرقية بعد تسجيلهم في الاولى (هم لاجئون - مهاجرون) ويبلغ عدد هذه الفئة نحو ٤١٠٠٠ شخص (اي : ١٥٤٠٠٠ - ١١٣٠٠٠) .

نبقي هذه الارقام جانبا ونذكر ان هناك استنتاجا (نذكر حيثياته في فقرة لاحقة) يجعل المتوسط السنوي لعدد المهاجرين من الضفة الغربية الى الشرقية في السنوات من ١٩٥٢ الى ١٩٦١ نحو ١٦٢٠٠ شخص . واذا طبقنا هذا الرقم على الفترة من ١٩٤٩ الى ١٩٥٢ مع اننا نجد ان تلك الفترة شهدت هجرة

أكثر نشاطا من فترة ١٩٥٢ - ١٩٦١ فأنا نرى أن عدد الذين انتقلوا بسكناهم من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية في الاعوام ١٩٤٩ - ١٩٥٢ ما كان ليقل عن ٦٤٨٠٠ شخص . من هؤلاء كان نحو ٤١٠٠٠ شخص من اللاجئين كما بينا في الاسطر الماضية والباقي ٢٣٨٠٠ من المواطنين الاصليين من سكان الضفة الغربية .

وبذلك فان مصادر السكان الفلسطينيين في الضفة الشرقية في العام ١٩٥٢ كانت حسب الجدول التالي :

مصادر السكان الفلسطينيين في الضفة الشرقية في العام ١٩٥٢	
لاجئون مباشرة منذ العام ١٩٤٨ - ١٩٤٩ مع الزيادة الطبيعية	١١٣٠٠٠
لاجئون انتقلوا بسكناهم من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية	٤١٠٠٠
مهاجرون من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية	
(اصليون من الضفة الغربية)	٢٣٨٠٠
المجموع	١٧٧٨٠٠

اي ان نسبة الفلسطينيين الى مجموع السكان في الضفة الشرقية كانت نحو ٣٠ بالمئة في العام ١٩٥٢ (٢٤) . اما عدد السكان الشرق اردنيين فكان نحو ٤٠٩٠٨٥ نسمة (اي ٥٨٦٨٨٥ مجموع السكان ناقصا ١٧٧٨٠٠ مجموع الفلسطينيين) .

عودا على بدء ، فان عدد السكان الاردنيين في العام ١٩٤٨ كان ٢٧١٨٩٥ نسمة اذا اعتبرنا ان الزيادة الطبيعية بين ١٩٤٨ و ١٩٥٢ كانت ٢٥ بالالف . ومهما كانت الاخطاء الحسابية الناتجة عن طريقة التقديرات فان عدد سكان شرق الاردن في العام ١٩٤٨ ما كان له ان يتجاوز ٣٧٥٠٠٠ شخص ، وهو الرقم الذي نعتمده لبناء التقديرات القادمة والذي ذكرناه في صفحات سابقة ووعدنا بذكر حيثياته وقد بيناها الان .

التغيرات بين ١٩٥٢ و ١٩٦١

استمر تدفق الهجرة من الضفة الغربية الى الشرقية خلال هذه الفترة بالاسباب نفسها التي تحدثنا عنها في الفترة السابقة بالاضافة الى سبب آخر متعلق بتركز المشاريع الصناعية في الضفة الشرقية والحرمان النسبي الذي عانت منه الضفة الغربية في هذا الخصوص وقد نتج عن ذلك ان الضفة الغربية، باجمال ، مثلت منطقة طرد سكاني تمثل ذلك في المؤشرات التالية :

أولاً - لقد استقطبت الضفة الغربية العدد الأكبر من المهاجرين الى خارج الأردن ، ويوضح الجدول التالي نسبة توزع الاردنيين خارج الاردن (حسب الالوية) والذين كانوا ٦٢٨٦٣ شخصا في العام ١٩٦١ .

نسبة توزع الاردنيين خارج الاردن ١٩٦١ (٢٥)

١٣ر٤٪	لواء عمان
٠ر٧٪	لواء البلقاء
٥ر٤٪	لواء عجلون
٠ر٣٪	لواء الكرك
٠ر٣٪	لواء معان
٢ر٥٪	لواء الخليل
٢٨ر٥٪	لواء القدس
٤٨ر٩٪	لواء نابلس
١٠٠	المجموع (الأردن)

ويتضح من الجدول ان ٧٩ر٩ بالمئة من الاردنيين الموجودين خارج الاردن هم من الضفة الغربية .

ثانياً - كانت هناك مدن جذب رئيسية للهجرة في الضفة الشرقية هي اساساً عمان (بصفتها عاصمة) والزرقاء (بحكم وجود مناجم الفوسفات فيها ومعسكرات الجيش حولها) والعقبة (بسبب تطور مينائها وهو الميناء الوحيد للاردن) . وبالإضافة الى تضخم عدد السكان في هذه المدن الثلاث ، فان هناك مؤشراً ذا اهمية خاصة يشير الى اتجاهات الهجرة نجده في ارتفاع نسبة الذكور الى الاناث في مدن الجذب (في الضفة الشرقية) عن النسبة نفسها في مدن الطرد (في الضفة الغربية) . فالهجرة الناتجة عن البحث عن فرص العمل وبسبب البطالة ، تؤثر على اختلال نسبة الذكور الى الاناث في فئات العمر من ١٥ - ٥٩ وهي الفئات العمرية التي تقع فيها قوة العمل الرئيسية . والجدول التالي يبين هذه الحقيقة :

نسبة الذكور الى كل ١٠٠ من الاناث في فئات

العمر ١٥ - ٥٩ في العام ١٩٦١ (٢٦)

٩٥ر٩	الأردن (الضفتان)
١١٥ر٨	عمان
١٤١ر٦	الزرقاء
٢٢٨ر٥	العقبة
٨٦ر٨	بيت لحم وبيت جالا وبيت ساحور
٨٧ر٨	رام الله والبييرة

يتضح من الجدول ارتفاع نسبة الذكور الى الاناث في مدن الجنوب في الضفة الشرقية ، وهي جميعا اعلى من المعدل العام للاردن بدرجة كبيرة ، مقابل انخفاض هذه النسبة في مدن الطرد في الضفة الغربية التي هي ايضا ادنى من المعدل العام للاردن بدرجة كبيرة كذلك . والدلالة هذه واضحة في هجرة الرجال القادرين على العمل والباحثين عنه من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية .

ثالثا - النمو السكاني في الضفتين ونسبة التوزيع السكاني اللواتية الى المجموع العام في الاردن . وثبت فيما يلي جدولا يوضح ذلك ونعقبه بتحليل .

نسبة الزيادة في السكان حسب الالوية ونسبة التوزيع في الالوية الى عدد السكان (٢٧)

نسبة التوزيع %	نسبة التوزيع %	في السكان %	في السكان %
١٩٥٢	١٩٦١	الزيادة او النقص	الزيادة او النقص
١٠٠	١٠٠	+ ٢٨ر٤	الاردن
١٧ر٥	٢٥ر٤	+ ٩٥ر٥	لواء عمان
٤ر٩	٤ر٦	+ ٢١ر٨	لواء البلقاء
١٦ر١	١٦ر١	+ ٢٨ر١	لواء عجلون
٦ر٨	٦ر٧	+ ٢٧ر٣	لواتي الكرك ومعان
٩ر٥	٧	- ٤ر٩	لواء الخليل
٢٢ر٧	٢٠ر٢	+ ١٤ر٢	لواء القدس
٢٣ر٨	٢٠	+ ٨ر٤	لواء نابلس

من هذا الجدول يتضح ما يلي :

١ - حافظت الوية الضفة الشرقية - باستثناء لواء عمان - بين السنتين ١٩٥٢ و ١٩٦١ على نسبة توزيعها للسكان .

٢ - اختلفت نسبة التوزيع لالوية الضفة الغربية اختلافا بينا بين المعامين المذكورين : فبينما كان في لواء الخليل ٩٥٪ من السكان اصبح فيه ٧٪ ، ولواء القدس كان فيه ٢٢ر٧٪ فأصبح ٢٠ر٢٪ ، وفي لواء نابلس انخفضت النسبة من ٢٣ر٨٪ الى ٢٠٪ .

٣ - تنخفض نسبة الزيادة العامة في الوية الضفة الغربية عنها في الوية الضفة الشرقية انخفاضا واضحا وملموسا . فبينما الزيادة في السكان في الوية عمان والبلقاء وعجلون والكرك ومعان (معا) هي : ٩٥ر٥٪ و ٢١ر٨٪ و ٢٨ر١٪ و ٢٧ر٣٪ على التوالي ، فهي في القدس ١٤ر٢٪ وفي نابلس ٨ر٤٪ واكثر

من ذلك فان لواء الخليل (في الضفة الغربية) شهد خلال الفترة من ٥٢ - ٦١ انخفاضاً في السكان قدره ٤٩٪ .

٤ - استأثر لواء عمان بتضيق الاسد في الزيادة السكانية ان بلغت هذه الزيادة خلال تسع سنوات ٩٥٪ . وقد نتج عن ذلك ان لواء عمان استأثر بـ ٢٥٪ من مجموع سكان الاردن في ١٩٦١ بينما كان في العام ١٩٥٢ يضم ١٧٪ من مجموع السكان .

وبعد ، فان هذه الدلائل جميعاً تشير الى نشاط الهجرة من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية في السنوات التي تقع بين التعدادين ، وسنحاول فيما يلي ان نتلمس حجم هذه الهجرة .

كتمهيد لذلك نذكر اننا اعتمدنا نسبة قدرها ٣٠ بالالف لتمثل الزيادة الطبيعية للسكان للفترة ١٩٥٢ - ١٩٦١ ، وقد اتخذنا هذه النسبة اساساً لمعرفة متوقع عدد السكان والاجراء التقديرات اللازمة لذلك . وقد جاء اعتمادنا هذه النسبة مبنياً على الاسس التالية :

١ - كانت نسبة الزيادة الطبيعية للسكان في الاردن في العام ١٩٥٧ هي ٣١ بالالف (٢٨) .

٢ - بلغت الزيادة السنوية للسكان في المملكة (تأثير الزيادة الطبيعية والهجرة) اقل من ٣ بالمئة وقد استند في تقديرها الى تعداد العام ١٩٥٢ وتعداد العام ١٩٦١ (٦٩) ، وبما ان الاردن ليس قطراً جاذباً للهجرة بل على العكس من ذلك هو قطر نابذ فاننا نستنتج ان الزيادة الطبيعية كانت اعلى من معدل النمو العام .

٣ - كانت الزيادة الطبيعية للسكان العرب في اسرائيل في ١٩٦١ نحو ٤٠ بالالف (٣٠) . واذا وحدنا نسبة الولادات عند الفلسطينيين في اسرائيل والسكان في الاردن فان نسبة الزيادة الطبيعية لدى السكان في الاردن ستكون اقل من ٤٠ بالالف بسبب ارتفاع نسبة الوفيات عند هؤلاء عنها عند العرب في اسرائيل بسبب اختلاف ظروف الرعاية الصحية لدى كل من الطرفين . وبذلك فاننا نستطيع ان نعتمد باطمئنان نسبة ٣٠ بالالف مقبولة للزيادة الطبيعية في الاردن .

بعد هذا نعود الى السياق العام ومحاولة معرفة عدد الفلسطينيين في الضفة الشرقية في العام ١٩٦١ .

واذا اعتبرنا العام ١٩٥٢ سنة اساس لمعرفة متوقع عدد السكان في العام ١٩٦١ فاننا نحصل على الارقام التالية :

١ - الضفة الشرقية : كان عدد السكان في الضفة الشرقية في العام ١٩٥٢ : ٥٨٦٨٨٥ شخصا ، وبذلك فان متوقع عدد السكان في العام ١٩٦١ هو ٧٤٥٣٤٣ شخصا (بزيادة طبيعية قدرها ٣٠ بالالف) ، غير ان عدد السكان الاردنيين (فلسطينيين وشرق اردنيين) حسب تعداد ذلك العام كان ٨٩٦٧٥١ (٣١) اي ان هناك زيادة في السكان قدرها ١٥١٤٠٨ ليست ناتجة عن الزيادة الطبيعية وانما بتاثير الهجرة الى الضفة الشرقية .

٢ - الضفة الغربية : كان عدد السكان في الضفة الغربية في ١٩٥٢ هو ٧٤٢٢٨٩ ، وبذلك فان متوقع عدد السكان في ١٩٦١ هو ٩٤٢٧٠٧ (بزيادة طبيعية قدرها ٣٠ بالالف) . غير ان عدد السكان الاردنيين (فلسطينيين وشرق اردنيين) كان حسب تعداد ١٩٦١ هو ٨٠١٣٥٦ (٣٣) . وبذلك فان هناك فرقا بين متوقع عدد السكان وما هو قائم فعلا قدره ١٤١٣٥١ شخصا . ولا نجد تفسيراً آخر لهذا العدد الاخير سوى انه يشير الى حجم الهجرة من الضفة الغربية في السنوات ١٩٥٢ - ١٩٦١ .

وبمقارنة هذا الرقم الاخير مع الرقم الذي يدل على الهجرة الى الضفة الشرقية نجد الرقمين متقاربين بفرق ٦٦ بالمئة وهي نسبة يكونها خطأ التقديرات من جهة والاحصاء الاحصائية والنواقص التي تميز بها احصاء العام ١٩٥٢ من جهة ثانية . ولكنها في كل حال ، تعطينا رقما تقريبا نسبة الصحة فيه مرتفعة جدا ، عن عدد المهاجرين من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية ، وهو يقع في رقم بين ١٤٦٠٠٠ (لاقرب الف) و ١٥١٠٠٠ (لاقرب الف) ، وبوسط حسابي قدره ١٤٦٠٠٠ شخص ، وهو الرقم الذي نعتمده هنا للاسباب التي ذكرت (اي ان المعدل السنوي للهجرة من الضفة الغربية الى الشرقية كان ١٦٢٠٠ شخص ، وهو الرقم الذي اعتمدنا في فقرة سابقة واعدنا بذكره حيثياته) .

وهكذا يشير الجدول التالي الى مصادر السكان الفلسطينيين في العام ١٩٦١ .

مصادر السكان الفلسطينيين في الضفة الشرقية في العام ١٩٦١	
٢٢٥٨٠٦	القطريون الموجودين منذ العام ١٩٥٢ (بعضهم منذ العام ١٩٤٨ - ١٩٤٩ ، مع زيادتهم الطبيعية حتى ١٩٦١)
١٤٦٠٠٠	المهاجرون من الضفة الغربية الى الشرقية من تعداد ١٩٦١
٣٧١٨٠٦	المجموع

وبذلك ، فقد كان في الضفة الشرقية في العام ١٩٦١ نحو ٣٧٢٠٠٠ (لاقرب الف) فلسطيني . وسنفحص هذا الرقم بطريقة متقاطعة مع تطور عدد الاردنيين

بين ١٩٤٨ و١٩٦١ للتأكد من صحته . ان تقديرنا لعدد السكان المشرق اردنيين في العام ١٩٤٨ هو ٣٧٥٠٠٠ نسمة (وقد بينا اسباب هذا التقدير في فقرة سابقة) . وزيادة طبيعية قدرها ٣٠ بالالف (وهي الزيادة التي بينا اسباب اعتمادها) فان عدد المشرق اردنيين في العام ١٩٦١ كان ٥٢١٢٥٠ نسمة . واذا جمعنا الى هؤلاء عدد الفلسطينيين (٣٧٢٠٠٠) فاننا نتوصل الى ان عدد سكان الضفة الشرقية (حسب تقديراتنا) هو ٨٩٣٢٥٠ نسمة وهو لا يختلف الا اختلافا جزئيا طفيفا لا يعتد به عن عدد السكان الرسمي في تعداد ١٩٦١ والذي بلغ ٨٩٦٧٥١ .

من هنا نستطيع الاطمئنان الى صحة استنتاجاتنا بما يتعلق بعدد السكان الفلسطينيين في العام ١٩٦١ ، ونعتبر الرقم مقبولا بشكل مطلق .
وبحديث النسب فقد بلغ الفلسطينيون ٤١٤ بالمئة من مجموع السكان (الفلسطينيين والمشرق اردنيين) في الضفة الشرقية في العام ١٩٦١ . اما نسبتهم الى مجموع السكان في الضفتين فقد بلغت ٦٩ بالمئة . (مجموع الضفتين ١٦٩٨١٠٧ ، منهم ٣٧٢٠٠٠ فلسطيني في الضفة الشرقية و٨٠١٣٥٦ في الضفة الغربية) .

السكان ١٩٦٢ حتى حرب ١٩٦٧

منذ العام ١٩٦١ لم يجر في الاردن اي تعداد للسكان ، وجميع الارقام المعطاة عن السكان بعد ذلك العام انما هي تقديرية استنادا الى تعداد ١٩٦١ كسنة اساس وتطور السكان وفقا لحركتهم .
كانت تقديرات دائرة الاحصاءات العامة الاردنية للسكان في الضفة الشرقية للعام ١٩٦٧ (قبيل الاحتلال الاسرائيلي) ١٠٩٤٠٠٠ نسمة ، وللضفة الغربية ٩٧٧٠٠٠ نسمة (٣٢) وفي تقدير آخر للامم المتحدة ذكر ان عدد سكان الضفة الغربية عشية حرب حزيران ١٩٦٧ كان بين مليون ومليون ومئة الف نسمة منهم ٦٠٠٠٠٠ الى ٧٠٠٠٠٠ سكان اصليون ونحو ٤٣٠٠٠٠ لاجئون مسجلون في الاونروا (٣٤) . والان ما هي صحة هذه الارقام ودقتها ؟

ان الارقام الرسمية المعطاة (تقديرات دائرة الاحصاءات العامة) تلحظ الزيادة الطبيعية للسكان دون ان تدخل في حسابها الهجرة التي حدثت من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية . ونتيجة تحليل الارقام التي تقترحها الدائرة لعدد السكان فاننا نستنتج انها اتبعت المعطيات التالية لتقدير عدد السكان :

١ - اعتمدت معدلا للنمو يبلغ ٤ بالمئة (٣٥)

٢ - حسبت مدة النمو خمس سنوات ونصف السنة من بداية ١٩٦٢ حتى منتصف ١٩٦٧ (باعتبار ان تعداد ١٩٦١ جرى في تشرين الثاني من العام نفسه ، اي اواخر العام) .

٣ - اعتمدت ارقام تعداد ١٩٦١ ارقام اساس .

٤ - اخذت من ارقام تعداد ١٩٦١ تلك التي تبين عدد الاردنيين (الفلسطينيين والشرق اردنيين) دون الاجانب .

وإذا سلمنا بكل ذلك فان الرقم الذي توصلت اليه الدائرة المذكورة لعدد السكان في منتصف العام ١٩٦٧ انما هو مقومع عدد السكان الاردنيين وليس العدد الفعلي للسكان هؤلاء . ذلك اننا نعيد التذكير بحجم الهجرة من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية حتى العام ١٩٦١ (تحدثنا عن ذلك في فقرة سابقة) وهي هجرة لم تلغ اسبابها في الاعوام التي تلت ١٩٦١ . يضاف الى ذلك ان الستينات شهدت نموا ملحوظا في هجرة الفلسطينيين الى دول النفط الغنية ، وإذا كانت ارقام هذه الهجرة جميعا غير متوفرة ، فيكفي للاشارة اليها ابراز حجم الهجرة الفلسطينية الى الكويت التي كانت حتى ذاك تمثل القطر الاكثر جذبا للهجرة . ففي العام ١٩٦١ كان عدد الفلسطينيين في الكويت ٣٧٢٢٧ نسمة ، ارتفع عددهم في العام ١٩٦٥ الى ٧٧٧١٢ نسمة ، وبذلك تكون نسبة زيادتهم في اربع سنوات فقط ١٠٨ بالمئة (٣٦) . ومن الملاحظ ان القسم الاكبر من المهاجرين الفلسطينيين الى الكويت هو من فلسطيني الاردن ، ومن هذا القسم الاكبر فان ٩٤ر٤١ بالمئة من المهاجرين الى الكويت من الاردن (في العام ١٩٦١) هم من الضفة الغربية (٣٧) .

استمرت الهجرة ، اذن ، من الضفة الغربية في السنوات من ١٩٦١ الى ١٩٦٧ ، وقد توجه قسم من هذه الهجرة الى الضفة الشرقية مؤثرا على التركيب السكاني هناك من حيث الاصول السكانية ورافعا عدد الفلسطينيين . ويذكر تقرير رسمي لوزارة الانشاء والتعمير الاردنية (الوزارة المختصة بشؤون اللاجئين) انه في ١٩٦٧-٦٥ كان نحو ٤٥٠٠٠ لاجيء فلسطيني مسجلين في الضفة الغربية ، بينما يقطنون في الضفة الشرقية (٣٨) . غير ان التقرير لا يشير الى سنوات انتقالهم ، وبذلك فاننا سنلجأ الى اساليب اخرى لمعرفة : ١ - عدد السكان في الضفة الغربية ، ٢ - حجم الهجرة منها الى الضفة الشرقية ، ٣ - تأثير ذلك على عدد الفلسطينيين في الضفة الشرقية . ان مثل هذه المحاولة نراها تمر عبر محورين : الاول التعداد الذي اجرته السلطات الاسرائيلية في الضفة الغربية بعد احتلالها ، والثاني عدد النازحين من الضفة الغربية بتأثيرات حرب ١٩٦٧ .

اجرت السلطات الاسرائيلية تعدادا للسكان في الضفة الغربية في الفترة

من ١٧ - ١٥ ايلول ١٩٦٧ ، وكان عددهم حسب ذلك ٦٦٣٦٠٧ نسمة (منهم ٥٩٨٦٣٧ في الضفة الغربية . باستثناء القدس و ٦٤٨٠٤ في القدس) (٣٩) . غير ان هذا العدد ينبغي ان يضاف اليه عدد النازحين من الضفة الغربية بتأثير حرب ١٩٦٧ وقد قدروا حتى ١٥ ايلول ١٩٦٧ (اي قبيل الاحصاء الاسرائيلي بيومين) بـ ٢٠٠٠٠٠٠ شخص (٤٠) . ويبدو لنا هذا الرقم الاخير اعلى تقدير لعدد النازحين حتى ذلك التاريخ . ذلك انه حتى ٣ تموز ١٩٦٧ كانت التقديرات تشير الى ان عدد النازحين من الضفة الغربية بلغ ١٥٠٠٠٠ شخص (٤١) وحتى آب من العام نفسه كانت تقديرات اللجنة الوزارية الاردنية لشؤون النازحين تجعل عدد النازحين ١٧٧١٦٥ شخص (٤٢) .

وهكذا فان عدد سكان الضفة الغربية عشية حرب ١٩٦٧ كان نحو ٦٨٣٦٠٠ شخص (٦٦٣٦٠٧ بقوا في الضفة الغربية بعد الحرب + ٢٠٠٠٠٠ نزحوا بتأثير الحرب) . وهذا العدد يقل بـ ١١٣٤٠٠ شخص (١١٣٠٠٠ لا قرب الف) عن متوقع عدد السكان في ١٩٦٧ والذي قدرته دائرة الاحصاءات العامة الاردنية ، كما بينا ؛ بـ ٩٧٧٠٠٠ شخص . ان هذا الفرق سببه عاملان : الاول الهجرة الى الضفة الشرقية ، والثاني الهجرة خارج الاردن . ولكن هل يمكن معرفة نسبة كل منهما الى الاخرى ؟ نحاول هنا هذه المحاولة :

كان عدد الاردنيين (الفلسطينيين والشرق اردنيين) الموجودين خارج الاردن في العام ١٩٦١ : ٦٢٨٦٣ شخصا منهم ٥٠٢٦٢ من الضفة الغربية وحدها (٤٤) . وقد تبين في صفحات سابقة ان عدد الفلسطينيين في الكويت زاد بنسبة ١٠٨٪ بين العامين ١٩٦١ و ١٩٦٥ ، وكذلك زادت هذه النسبة بين ١٩٦٥ و ١٩٧٠ بمقدار ٩٠٪ (٤٣) . وبذلك نستطيع ان نفترض ان عدد الفلسطينيين زاد في الكويت بنسبة ١٠٠٪ بين ١٩٦١ ومنتصف ١٩٦٧ .

اذا اعتمدنا هذه النسبة وعمناها على اقطار الجذب ، فاننا في المقابل نتوصل الى نتيجة مماثلة بالنسبة لمنطقة الطرد السكاني والمعنية بها هنا الضفة الغربية . وبذلك نستطيع ان نفترض ، باطمئنان ان عدد المهاجرين من الضفة الغربية الى خارج الاردن زاد في العام ١٩٦٧ بنسبة ١٠٠٪ ، عنه في العام ١٩٦١ . وهكذا نتوصل الى ان عدد المهاجرين من الضفة الغربية وصل في العام ١٩٦٧ الى نحو ١٠٠٥٠٠ شخص (باعتبار عددهم في ١٩٦١ كان ٥٠٢٦٢ شخصا) .

وهكذا نتوصل الى رقم قريب من ١٢٥٠٠ هو عدد الاشخاص المهاجرين من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية خلال السنوات موضوع البحث (١١٣٠٠٠)

عدد المهاجرين الكلي من الضفة الغربية ناقصا ١٠٠٥٠٠ عدد المهاجرين من الضفة الغربية الى خارج الاردن) .

يلاحظ ان المعدل السنوي للهجرة من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية في الاعوام التي اعقبت ١٩٦١ انخفض عنه في الاعوام التي سبقت ذلك العام حسب تقديراتنا التي ذكرناها . ومرد ذلك الى اتساع نطاق الهجرة الى خارج الاردن . ونحن نرى ان ذلك حدث تدريجيا منذ اواسط الخمسينات حيث بدأت افواج المهاجرين تبحث عن مستوى معيشي افضل . ويتضح ذلك من البينة التالية : كان عدد الموظفين الاردنيين والفلسطينيين الذين دخلوا الخدمة في الكويت في الاعوام ١٩٥١ الى ١٩٥٥ (خمس سنوات) ٩٥٥ موظفا . وقد تضاعف هذا الرقم تقريبا في الاعوام الخمسة التالية اذ دخل الخدمة في الاعوام ١٩٥٦ - ١٩٦٠ ، ١٧٨٨ موظفا ، وتضاعف العدد في السنوات الخمس التالية (١٩٦١ - ١٩٦٥) فبلغ ٢٥٠٥ موظفين (٤٠) . اي ان نسبة الموظفين الذين دخلوا الخدمة في الاعوام ١٩٥٦ - ١٩٦٠ الى الموظفين الذين دخلوا الخدمة في الاعوام ١٩٥١ - ١٩٥٥ كانت ١٨٧ : ١٠٠ ، ونسبة هؤلاء في الاعوام ١٩٦١ - ١٩٦٥ الى اولئك في سنوات الاساس (١٩٥١ - ١٩٥٥) كانت ٢٦٢ : ١٠٠ . وتشير هذه النسب ، اذا اعتمدناها عينة وعمما نتائجها على مجمل حركة الهجرة ، الى ما ذهبنا اليه عن اتساع حركة الهجرة من الاردن الى الخارج وتضاعفها التدريجي منذ اواسط الخمسينات ، والتي كانت على حساب الهجرة الداخلية (من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية) . ونعيد الان ترتيب الحقائق لمعرفة عدد السكان الفلسطينيين في الضفة الشرقية عشية حرب ١٩٦٧ .

ان متوقع عدد السكان في الضفة الشرقية (حسب زيادة طبيعية قدرها ٤٠ بالالف عن سنة الاساس ١٩٦١ ، ولدة خمس سنوات ونصف السنة ، اي لمنتصف العام ١٩٦٧) هو ١٠٩٤٠٠٠ نسمة ، وهو تقدير دائرة الاحصاءات الاردنية كما ذكرنا . من هؤلاء ٤٥٣٨٤٠ شخصا فلسطينيا (باعتبار ان عددهم كما استنتجنا سابقا كان ٢٧٢٠٠٠ نسمة في العام ١٩٦١) . ويضاف الى هؤلاء ١٢٥٠٠ شخص هم عدد المهاجرين من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية . وبذلك فان عدد الفلسطينيين يبلغ ٤٦٦٣٤٠ نسمة . وهكذا تكون نسبتهم من مجموع السكان في الضفة الشرقية (١٠٩٤٠٠٠ متوقع عمود السكان + ١٢٥٠٠ مهاجر من الضفة الغربية) هي (٤٢) بالمئة .

تأثيرات نزوح ١٩٦٧

ارتفعت نسبة الفلسطينيين في الضفة الشرقية ارتفاعا بينا بعد حرب

حزيران ١٩٦٧ . فحركة النزوح الى الضفة الشرقية لم يكن مصدرها الضفة الغربية فقط ، وانما شملت - وللمرة الاولى بهذا الشكل الجماعي - قطاع غزة ايضا .

اولا : الضفة الغربية : ذكرنا سابقا ان عدد النازحين من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية منذ حزيران حتى منتصف ايلول ١٩٦٧ بلغ نحو ٢٠٠٠٠٠ شخص . غير ان هناك من الدلائل ما يشير الى استمرار حركة النزوح بعد ذلك التاريخ وان بوتيرة ادى . ذلك ان المصادر الاردنية تشير الى انه خلال الفترة من كانون الثاني ١٩٦٨ الى ايار ١٩٦٨ ترك ٥٩٣٦ شخصا الضفة الغربية (٤٦) . كذلك يشير الى هذه الحقيقة تناقض عدد سكان الضفة الغربية (حسب الاحصاءات الاسرائيلية) حتى نهاية العام ١٩٦٧ وخلال العام ١٩٦٨ : فبينما كان عدد سكان الضفة الغربية في ايلول ١٩٦٧ - باستثناء القدس - ٥٩٨٦٣٧ ، اصبحوا في نهاية السنة نفسها ٥٨٥٥٠٠ ، وتناقص عددهم في العام ١٩٦٨ قبلوا في نهايته ٥٨٤١٠٠ . ويبدو ان حركة النزوح الجماعي قد ترقفت في العام ١٩٦٩ ، اذ ارتفع عدد السكان في نهايته الى ٥٩٩٧٠٠ نسمة (٤٧) .

ارتفع عدد النازحين اذن عما كان عليه في الاشهر الثلاثة الاولى التي اعقبت الحرب . وتقدر مصادر الامم المتحدة عدد النازحين من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية كما كان في الاول من نيسان ١٩٦٨ بـ ٢٤٣٠٠٠ نسمة . وقد عاد عدد من هؤلاء الى منازلهم في الضفة الغربية . فحتى ٣١ آب ١٩٦٧ كان عدد النازحين الذين اعادوا عبور النهر من الشرق الى الغرب ١٤١٥٠ شخصا حسب الارقام الاردنية او ١٤٠٥٦ شخصا حسب الارقام الاسرائيلية (٤٩) . ومن ايلول ١٩٦٧ حتى حزيران ١٩٦٨ تمكن ٢٠٠٠ شخص آخرين (حسب الارقام الاردنية او ٣٠٠٠ شخص حسب الارقام الاسرائيلية) من العودة الى الضفة الغربية (٥٠) .

على اي حال ، ففي تقرير لوزارة الانشاء والتعمير الاردنية ورد ان عدد النازحين من الضفة الغربية كما هو في ١-١-١٩٧٢ بلغ ٢٢٠٢٧٢ شخصا (٥١) .

ثانيا - قطاع غزة : كان عدد النازحين من قطاع غزة الى الضفة الشرقية من حزيران ١٩٦٧ حتى ١ نيسان ١٩٦٨ نحو ٣٠٠٠٠ شخص (٥٢) . وحتى حزيران ١٩٧١ قامت وكالة الغوث بنقل بطاقات ٣٢٠٠٠ شخص من سجلات قطاع غزة الى سجلاتها في الاردن (٥٣) . وتشير الارقام الاردنية الى ان عدد النازحين من قطاع غزة الى الضفة الشرقية حتى ١-١-١٩٧٢ بلغ ٣٥٠٠٠ شخص (٥٤) .

سنوقف الان عند نهاية العام ١٩٧١ حيث توفرت المعلومات عن عدد النازحين ، الذين بلغوا عند ذاك - حسب مجموع الارقام التي سلفت - ٢٥٥٢٧٢ شخصا ، وقد رفع هؤلاء نسبة الفلسطينيين الى مجموع السكان في الضفة الشرقية ارتفاعا كبيرا . وسنعالج فيما يلي هذه النسبة مختارين محطة نهاية العام ١٩٧١ حيث توفرت معلومات رسمية عن عدد النازحين . وفي البداية نشير الى اننا سنعتمد هنا معدل زيادة طبيعية للسكان بين منتصف العام ١٩٦٧ ونهاية ١٩٧١ مقدارها ٣٠ بالالف (٥٥) .

وبهذه النسبة ولدة اربع سنوات ونصف السنة (منذ حزيران ١٩٦٧) . فان متوقع عدد السكان في الضفة الشرقية في نهاية ١٩٧١ هو ١٢٥٥٨٧٧ نسمة (الاساس ١١٠٦٥٠٠ في منتصف ١٩٦٧ ، منهم ١٠٩٤٠٠٠ تقدير دائرة الاحصاءات الاردنية و ١٢٥٠٠ مهاجر من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية ، كما مر في صفحات سابقة) . ويضاف الى هؤلاء ٢٥٥٢٧٢ نازحا بتأثير حرب حزيران من الضفة الغربية وقطاع غزة . وبذلك فان مجموع عدد السكان المتوقع في نهاية ١٩٧١ هو ١٥١١١٤٩ نسمة .

اما مصادر السكان الفلسطينيين في هذا المجموع فهي كما يلي :

١ - الفلسطينيون المقيمون في الضفة الشرقية قبل حرب حزيران ١٩٦٧ ، والذين كان عددهم آنذاك - كما ورد في الصفحات السابقة - ٤٦٦٢٤٠ نسمة . وبذلك فان متوقع عددهم في نهاية ١٩٧١ هو ٥٢٩٢٩٥ نسمة .

٢ - النازحون بعد حرب ١٩٦٧ ويبلغ عددهم ٢٥٥٢٧٢ نسمة . وبذلك فان عدد الفلسطينيين في الضفة الشرقية في نهاية العام ١٩٧١ بلغ نحو ٧٨٤٥٦٧ نسمة اي ان نسبتهم الى مجموع السكان هي ٥١٩ بالمئة .

سنفحص هذا الرقم بطريقة متقاطعة مع عدد السكان الشرق اردنيين .

كان تقديرنا للسكان الشرق اردنيين في العام ١٩٤٨ هو ٣٧٥٠٠٠ نسمة . وبحساب التكاثر الطبيعي للسكان بالنسب نفسها التي اعتمدت للسكان الفلسطينيين (٥٦) فان متوقع عدد السكان الشرق اردنيين في نهاية ١٩٧١ هو ٧٢٥٢٢٩ نسمة . وبذلك فان عدد الفلسطينيين - حسب هذا التقدير - يجب ان يكون ٧٨٥٨١٢ . (باعتبار ان مجموع السكان ١٥١١١٤٩) ، وهو رقم لا يختلف الا اختلافا طفيفا لا يعتد به عن تقدير عدد السكان الفلسطينيين في الضفة الغربية الذي جرى استنتاجه (٧٨٤٥٦٧) ، مما يجعل الامتتاج مقبولا .

ان هذه الارقام تقودنا الى تقدير متوقع عدد السكان في نهاية ١٩٧٦ .

فبإدخال معدل الزيادة الطبيعية للسكان يكون متوقع عدد السكان جميعا في الضفة الشرقية نحو ١٧٢٨٠٠٠ (لا قرب الف) ، منهم ٩٠٢٠٠٠٠ (لا قرب الف) فلسطيني . غير ان هذا الرقم يجب ان يؤخذ بتحفظ للأسباب التالية :

١ - لم تدخل فيه ارقام الهجرة الى خارج الاردن . كذلك لم يدخل فيه عدد الفلسطينيين الذين غادروا الاردن في اثناء أحداث ايلول ١٩٧٠ - تموز ١٩٧١ ، وفي أعقابها . وإذا أخذت هذه الحقيقة بعين الاعتبار فان هذا الرقم (عدد الفلسطينيين) يمكن ان يعامل على انه يمثل عدد السكان القانوني De jure Population . إذ يشمل هذا المصطلح جميع المواطنين المنتمين الى

القطر في فترة معينة سواء اكانوا فيه ام في الخارج .

٢ - مع ذلك ، فان الرقم المذكور لا يأخذ في الاعتبار - من جهة اخرى - عدد الفلسطينيين الذين عادوا من الخارج خلال المدة موضوع الدرس . فمن المعروف ان الغالبية العظمى من « المهاجرين » خاصة اولئك المتجهون منهم الى دول النفط ، انما يستمرون في « هجرتهم » مدة محدودة يعودون بعدها الى الوطن ليستثمروا فيه مدخراتهم التي جنوها في موطن هجرتهم . ومن هنا فان الهجرة هنا هي « هجرة مجازية » غير دائمة ومحدودة زمنا . ولما كانت الكثرة الغالبة من هؤلاء المهاجرين من الضفة الغربية (وهم يحملون الجنسية الاردنية) فانه من المتوقع والمنطقي ان يعود هؤلاء الى الضفة الشرقية والاستقرار فيها بعد الاحتلال الاسرائيلي للضفة الغربية . وفي الحقيقة ليس هناك معلومات ، حتى ولو تقديرية ، عن حركة هؤلاء واعدادهم .

وفي اي حال ، الى ان يجري تعداد شامل للفلسطينيين ، فاننا نظن ان ما قدمناه هنا يظل مؤشرات فقط الى عدد الفلسطينيين في الضفة الشرقية ، وهو ما اردناه حصرا في هذه الدراسة .

كذلك

P.J. Vatikiotis , *Politics and the Military in Jordan*, London: Frank Cass & Co. , 1967 , p. 9.

Walter Z. Laquer , (٢) *Communism and Nationalism in the Middle East* , London : Routledge and Kegan Paul , 1961 (Third edition) , p. 124.

The Economic Development (٤) of Jordan ; Report of a Mission organized

الحواشي

- (١) Public Information office , UNRWA Headquarters , *Palestine Refugees and Displaced Persons : Definitions and Statistics* , Beirut , 1961 , p. 1.
- (٢) انظر . Naseer Hasan Aururi . *Jordan : A Study in : Political Development , 1921 - 1945* , Ph.D. thesis , University of Massachussettes , 1967 , p. 49.

١ من قسم أ ، بيان ١ صفحة ١ من قسم ب ، بيان ١ صفحة ١ من قسم ج ، بيان ١ صفحة ١ من قسم هـ (أرقام متفرقة)
A. Konikoff , *Transjordan* : (١٥
An Economic Survey , Jerusalem,
1946 , p. 22.

مذكورة في : جميل هلال ، *الضفة الغربية : التركيب الاجتماعي والاقتصادي ١٩٤٨ - ١٩٧٤* ، بيروت : مركز الأبحاث ، ١٩٧٥ ، ص ٢٠ .

(١٦) حسن صبري الخولي ، *سياسة الاستعمار والصهيونية تجاه فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين* ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٢ (المجلد الأول) ، ص ٧٨٧ .

The Economic Development (١٧)
of Jordan , op. cit., p. 332 .

(١٨) أرقام مشتقة من :

G. L. Harris,
Jordan : its People , its Society , its Culture , New Haven , 1958 , p. 332 .

(١٩) أرقام مشتقة من :

Hashemite Kingdom of Jordan ,
Department of Statistics ,*Statistical Abstract 1951* , Table 2.

(٢٠) أرقام مشتقة من : المملكة الأردنية الهاشمية ، دائرة الإحصاءات العامة ، *المشورة الإحصائية ١٩٥٢* ، ص ٣ .

(٢١) أرقام مشتقة من : إحصاءات ١٩٥٢ ، المصدر المذكور ، بيان رقم ١ صفحة ١ من قسم و ، بيان رقم ١ صفحة ١ من قسم ز ، بيان رقم ١ صفحة ١ من قسم

ح
(٢٢)

UNRWA *Statistical Bulletin* , May 1950 - June 1951, p. 7.

مذكورة في : الياس خوري (معد) .

by the International Bank for Reconstruction and Development at the request of the Government of Jordan , Published by the Johns Hopkins Press , Baltimore, 1961, (Second printing) , p. 41.

(٥) سليمان موسى ، *تأسيس الإمارة ١٩٢١ - ١٩٢٥ : دراسة وثائقية* ، عمان ١٩٧١ ، ص ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

(٦) المملكة الأردنية الهاشمية ، دائرة الإحصاءات العامة ، *التعداد العام الأول للسكان والمساكن ١٨ تشرين الثاني ١٩٦١* [هنا فيما بعد : تعداد ١٩٦١] ، المجلد الأول (الخصائص العامة للسكان) ، صفحة ت ٠

(٧) محمد السيد غلاب ومحمد صبحي عبد الحكيم ، *السكان ديموغرافيا وجغرافيا* ، ص ٣٠ .

(٨) محمد السيد غلاب ، « تطور سكان فلسطين من سنة ١٩١٨ الى ١٩٦٥ » ، مجلة معهد البحوث والدراسات العربية ، العدد الرابع ، حزيران ١٩٧٢ ، ص ٣٢٣ .
(٩) *Report by the British Government To the Council of the League of Nations on the Administration of Palestine and Trans Jordan* , His Majesty's Stationary Office , 1936, p. 365.

(١٠) *The Same* , 1939 p. 370

(١١) منيب الماضي وسليمان موسى ، *تاريخ الأردن في القرن العشرين* ، ص ص ٤٤٨ ، ٤٤٩ .

(١٢) المصدر نفسه ، ص ٤٤٩ .

(١٣) المملكة الأردنية الهاشمية ، دائرة الإحصاءات العامة ، *إحصاءات المساكن لعام ١٩٥٢* [هنا فيما بعد : إحصاءات ١٩٥٢] ، بيان ١ صفحة

الكتاب السنوي ١٩٦٩ ، ص ٢٢ (ارقام مشتقة) .

Report of Secretary - (٢٤)
General , Thant , under General
Assembly Resolution 2252 (ES
- V) and Security Concil Reso-
lution 237. (1967) on the Guss-
ing Mission to the Occupied Ter-
ritories , UN Document A/6797,
15 September 1967.

in : The Institute for Palestine
Studies , The Palestine Refugees:
A Collection of United Nations
Documents [Hereafter : The
Palestinian Refugees] , Beirut
1970 , p. 545.

(٢٥) كان معدل النمو للسكان في
الأردن في العام ١٩٦٥ حسب ارقام دائرة
الاحصاءات الاردنية اربع % ، فقد كان عدد
السكان المقدر في العام ١٩٦٤ : ١٩٣٥٤٤٠
وفي العام ١٩٦٥ : ٢٠١٦٦١٨ . انظر
للرقمين على التوالي :

دائرة الاحصاءات العامة ، النشر
الاحصائية لعام ١٩٦٤ ، دائرة الاحصاءات
العامة ، كتاب الاحصاء السنوي ١٩٦٥ ،
ص ٢ ، ٢ . وهناك تقدير اخر يجعل
الزيادة السنوية نحو ٥ بالمئة للسنوات
١٩٦١ - ١٩٦٢ . النسبة مستخلصة من
Aruri , op. cit., p. 67.

(٣٦) بلال الحسن ، الفلسطينيون في
الكويت : بحث احصائي ، بيروت : مركز
الابحاث ، ١٩٧٤ ، ص ١١ ، ١٢ .

(٣٧) المصدر نفسه ، ص ١٤-١٧ .

(٣٨) المملكة الاردنية الهاشمية ، وزارة
الانشاء والتعمير ، عدد اهالي عرب
فلسطين اللاجئين والنازحين في الدول
العربية وبقية انحاء العالم حتى
١٩٦٨/٦/١٥ (تقرير) .

احصاءات فلسطينية ، بيروت : مركز
الابحاث ، ١٩٧٤ ، جدول ٣٦ ، ص ٣١٢ .

(١٢) النسبة مستخلصة من :
Statistical Abstract of Jordan
1951 , op. cit., Table 5.

(٢٤) يستنتج جميل هلال ، المصدر
المذكور ، ص ٢٠ ، انه كان في الضفة
الشقية ١٦٩٠٠٠ شخص في العام ١٩٥٢ ،
وهذا يعادل ٢٨٪ من مجموع سكان
الضفة الشرقية . ونعتقد ان الرقم الذي
توصلنا اليه اكثر دقة لاننا اخذنا في
الاعتبار عدد المهاجرين من المواطنين
الاصليين من سكان الضفة الغربية .

(٢٥) تعداد ١٩٦١ ، المصدر المذكور ،
المجلد الاول ، البيان ١/٥ صفحة ٣١ .

(٢٦) المصدر نفسه ، البيان ٩/٢ ص
٥٥ (نسب مشتقة) .

(٢٧) المصدر نفسه ، البيان ١٠/١ ،
ص ٢٩ .

(٢٨) النسبة مستخلصة من : الملكة
الاردنية الهاشمية ، دائرة الاحصاءات
العامة ، النشر الاحصائية السنوية
للعام ١٩٥٧ ، البيانات : ٣-١ ص ٣ ،
٣-٥ ص ٧ ، ١٧-١ ص ١٩ .

(٢٩) تعداد ١٩٦١ ، المصدر المذكور
المجلد الاول ، صفحة ٣٠ .

(٣٠) Israel , Central Bureau
of Statistics , Statistical Abstract
of Israel 1968 , Table B/2 , p. 18,
and Table C/3 p. 55.

(٣١) تعداد ١٩٦١ ، المصدر المذكور ،
المجلد رقم ١ بيان ١/٥ ، ص ٣١٧ (ارقام
مشتقة) .

٢٢ - المصدر نفسه ، المرفق نفسه .

(٢٣) الملكة الاردنية الهاشمية .

تقرير اوضاع الاشخاص المشردين ،
ايار ١٩٦٨ ، في : اميرة حبيبي ، المصدر
المذكور ، ص ٢٤ .
(٤٧)

*Statistical Abstract of
Israel 1974, Table XXVI/1, p.682:*

(٤٨)
Selected U N Documents,
op. cit., p. -.

(٤٩)
Report of the Commis-
sioner General of the UNRWA , 1
July 1966 - 30 June 1967 , General
Assembly - official Records ,
Twenty - Second Session - Supp-
lement No 13 (A/6713), para-
graph 36.

(٥٠) تقرير المفوض العام للاونروا تموز
١٩٦٧ - ٣٠ حزيران ١٩٦٨ ، في : اميرة
حبيبي ، المصدر المذكور ، ص ٢٤ .

(٥١) كامل الداودي ، رئيس ديوان
وزارة الانشاء والتعمير ، عرب فلسطين
بما فيهم اللاجئين والنازحون في الدول
المضيقة وفلسطين المحتلة حتى تاريخ
١٩٧٢/١/١ [تقرير احصائي] .

(٥٢)
Selected U N Documents,
op. cit., p. 1.

(٥٣) تصريح باسل عنسب ، ضابط
الارتباط والعلاقات العامة في وكالة
الغوث ، صحيفة « الرأي » الاردنية
١٩٧١/٦/٧ .

(٥٤) كامل الداودي ، المصدر المذكور .

(٥٥) استندنا في تقدير ذلك - بالاضافة
الى الحثيات التي قدمنا لمعدل الزيادة
الطبيعية للاعوام ١٩٥٢ - ١٩٦١ ،
الى المعطيات التالية :

(٣٩)
*Statistical Abstract of
Israel Israel 1968 , Table 13 ,
p. 36 and Appendix , Table 1 ,
p. 593.*

(٤٠)
*Selected UN Documents
on the Arab Refugee Problem in
the Middle East [Hereafter :
Selected U N Documents] ,
Public Information Office , UNR-
WA Headquarters , Beirut , 1961,
p. 1.*

انظر كذلك :

*Report of UNRWA
Commissioner - General for the
Period of 1 July 1966 - 30 June
1967 . in : The Palestinian Refu-
gees , op. cit., p. 173.*

(٤١)
Selected U N Documents
op. cit., p. 1.

(٤٢) التقرير الرسمي للجنة الوزارية
لشؤون اللاجئين ، عمان ١٩٦٧ . في :
اميرة حبيبي ، النزوح الثاني : دراسة
ميدانية تحليلية لنزوح ١٩٦٧ ، بيروت :
مركز الابحاث ، ١٩٧٠ ، ص ٣٢ .

(٤٣) تعداد ١٩٦١ ، المصدر المذكور ،
المجلد رقم ١ ، نيسان ١/٥ ، ص ٣١٥
(ارقام مشتقة) .

(٤٤) بلال الحسن ، المصدر المذكور ،
ص ١٢ .

(٤٥) الياس خوري ، المصدر المذكور ،
الجدول ٢٤ ص ٢٥٥ نقلا عن نتائج
احصاء الموظفين في الكويت ١٩٦٦
(ارقام مشتقة) .

(٤٦) اللجنة الوزارية العليا
[الاردنية] لاغاثة المشردين والنازحين،

والزرقاء والرصيفة والعقبة وجرش (في
الضفة الشرقية) كان ٣١ بالالف [ارقام
مشتقة] . انظر « الرأي » ٢١ / ١٠ / ١٩٧١ .

(٥٦) النسب التي اعتمدها هي
ما يلي :

١٩٤٨ - ١٩٥٢ : ٢٥ بالالف .

١٩٥٢ - ١٩٦١ : ٣٠ بالالف

١٩٦٢ - منتصف ٦٧ : ٤٠ بالالف
(حسب الاحصاءات الاردنية)

منتصف ٦٧ - اخر ١٩٧١ : ٣٠ بالالف .

٦ - كان معدل الزيادة الطبيعية للسكان
في الضفة الغربية في الاعوام ١٩٧٠
و ١٩٧١ و ١٩٧٢ ٢٩ بالالف . وكان في
قطاع غزة وشمال سيناء للاعوام نفسها
٣٠ بالالف .
النسب مستخلصة من :

*Statistical
Abstract of Israel 1974 , Table
XXVI/1 , p. 682.*

ب - تشير التغيرات السكانية
الصادرة عن القسم الديموغرافي في
دائرة الاحصاءات الاردنية الى ان معدل
الزيادة الطبيعية في مدن عمان

التركيب الإقتصادي لشرق الأردن

مقدمات التطور المسوّء (٢١/١٩٥٠)

القطاعات الإقتصادية الحديثة

(الصناعة ، التجارة ، الإدارة العامة والدفاع)

[القسم الرابع]

هاتف مورافيس

ثالثا : القطاع الإقتصادي الحديث

١ - القطاعات المنتجة للسلع

١ - الحرف والصناعات

لم يرافق التوسع المدني والنمو في القطاعات الخدمية نهوضا موازيا في الصناعة . وقد خلت البلاد بشكل شبه كلي من أية صناعة آلية حتى نهاية الثلاثينات (١) ولولا انشاء عدد من المؤسسات الصناعية الحديثة بعد ذلك ، لكان من الصعب الحديث عن وجود صناعة حتى مطلع الخمسينات .

باستثناء النمو الذي شهدته عمان وبعض المدن الأخرى القليلة ، ظل شرقي الأردن محتفظا بسمة الزراعة وشبه البدوية ، وظلت هذه السمة غالبية عليه . ولقد نمت الحرف المستقلة من احشاء النظام المعيشي للسكان ، أي مسن الصناعات المنزلية ومن النشاط الحرفي المرتبط بالانتاج المعيشي وكجزء متمم له . وهي حرف ظلت تتسم بمحدودية احتياجات السكان الزراعيين والبدو وانصاف البدو . من هذه الحرف والصناعات مطاحن الحبوب اليدوية ومعاصر الزيتون الخشبية والبدائية جدا . وكانت هذه المطاحن والمعاصر منتشرة في

(١) راجع هرشلاغ ، مصدر سابق ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

معظم القرى وتلبي حاجات الاستهلاك المباشر للفلاحين . وعن طريقها كان ينتج معظم الزيت المحلي والطحين (٢) . وشملت الصناعات الحرفية ، التي كانت تقوم في ورش صغيرة او داخل المنازل صناعة النسيج اليدوية التي تعتمد على انواع بدائية للغاية . والتي تنتج الملابس والعباءات والبسط والعقل وغيرها من المنسوجات المحلية . بالاضافة الى معامل تقطير الخمور ذات الطابع المنزلي والبدائي جدا .

الى جانب هذه الحرف القديمة ، ظهرت في المدن والقرى الكبيرة حوانيت الحرفيين الاكثر حداثة ولكن الصغيرة والمحدودة الانتاج ، مثل المخابز والافران ومحلات الحلويات والمواد الغذائية الاخرى ، وورش النجارة والحداة والصناعات المعدنية البسيطة ، وورش التصليح والصيانة . وقد نمت عدد من هذه الورش على هامش مشاريع الدولة والانشاءات الخاصة بالقوات البريطانية والمحلية ، كورش الصيانة والتصليح المعدنية والآلية (الميكانيك) والكراجات وورش النجارة ، ومعامل الطوب ومواد البناء الاخرى (٣) .

والواقع ان بعض النشاطات الصناعية الحرفية قد شهدت تطورا ليا محدودا ، مثل ظهور معاصر الزيتون الآلية في الاربعينات ، وكذلك نشوء مطحنة آلية حديثة في عمان ، في حين شهدت صناعة النسيج تطورا مع انشاء بعض المشاغل الآلية في سنتي ١٩٣٥ و ١٩٣٦ ، وفي عام ١٩٤٥ بدأ مصنع آلي صغير ينتج المنسوجات المحلية في عمان (٤) .

كان انتاج الخمور من ابرز الصناعات المنزلية في البلاد ، واتخذ فيما بعد شكلا صناعيا اوليا مع انشاء ثلاثة معامل بين عام ١٩٢٨ وعام ١٩٣١ ، كان اثنان منهما في السلط والثالث في الفحيص ، وقد ظلت هذه حتى عام ١٩٤٨ تنتج غالبية الخمور المصنوعة في البلاد رغم صغرها واستخدامها ادوات بدائية . وكان يعمل في هذه المعامل بين اربعة و ١٨ عاملا (٥) . وفي عام ١٩٤٨ انشئ معمل رابع للخمور ، استخدم ثلاثة عمال فقط ، ولكنه تمتع بتجهيز آلي

(٢) راجع كونيكوف ، مصدر سابق ، ص ٦١ .
(٣) راجع المحافظة ، علي في «الحياة الاقتصادية في عهد الامارة» (١٩٤٦/٢٦) ، المقال المنشور في مجلة «التنمية» الاردنية ، العدد الاول ، كانون الثاني - شباط ١٩٧٣ ، ص ٢٠/١٩ .

(٤) كونيكوف ، المصدر نفسه ، ص ٦١ .

(٥) المصدر السابق ، ص ٦١ ، كذلك راجع : Commercial Conditions in Trans Jordan during 1948 , (Local Manufactures)

حديث (٦) ، اما منتجات هذه المعامل فقد كانت النبيذ والعرق والكونياك من الكروم المحلية . ويظهر الجدول رقم (١) تطور انتاج الخمر في السنوات ١٩٤٤/٣٧ .

جدول رقم « ١ »

انتاج الخمر (١٩٣٧/١٩٤٤) بالليترات (٧)

الكوتياك	العرق	النبيذ	السنة
١٠٧٠٨	٢٦٢٦٤	٥٦٢٤	١٩٣٧
١١٤٨٦	٣٠٠٤٨	٥٩٩٧	١٩٣٨
١٧٥٢٨	٣٩٤٢٦	٨٢٦٥	١٩٣٩
٢٤٢٢١	٣٩٨١٨	٦٨٤٠	١٩٤٠
٣٣٢١٧	٣٨١١٨	٩٥٥١	١٩٤١
٣٣٣٠١	٣٣٩٢١	٧٢٧٣	١٩٤٢
٣١٠٦٠	٥٠١٤٢	٦٦١٧	١٩٤٣
٢٣٦٨١	٥٤١٤١	٥٣٢٧	١٩٤٤

كانت الصناعة الوحيدة ذات المظهر الحديث في البلاد هي صناعة التبغ وقد تقاسم انتاج التبغ مصنعان في عمان ملكيتهما بريطانية ، وقد بدأ عامي ٢٧ و ١٩٢٨ في انتاج السجائر والتبغ القوط (٨) .

تزودت صناعة التبغ موادها من الزراعة المحلية ، مع استيراد كميات اخرى من الخارج ، وكانت تجهيزات المصنعين حديثة والكفاءة العمالية فيهما عالية . كما كانا يتمتعان بعمالة عالية جدا بالمقاييس المحلية ، ففي بداية الاربعينات كانت صناعة التبغ توظف ٢٥٠ عاملا (٩) ، وفي عام ١٩٤٨ كانت شركة الدخان

(٦) المصدر الاخير ، الصفحة نفسها . وفي عام ١٩٤٨ كانت معامل الخمر الاربعة (نصراوي ونصراوي الجديد في السلط ، وسماوي ، ومشربش وبوجي في الفحص) تنتج مجتمعة ٥٩٧٩ ليتر من النبيذ و ٢٤٤٣٢ ليتر من العرق و ٧٧٧٨ ليتر من الكونياك . (٧) راجع كونيكوف ، ص ٦٢ .

(٨) راجع هرشلاغ ، المصدر نفسه ص ٣٣٧ ، وكونيكوف ص ٦٢ .

(٩) كونيكوف ، ص ٦٢ .

الوطنية توظف ٣٢٧ عاملا ، فيما وظفت شركة التبغ الاردنية ٥٠ عاملا في نفس العام (١٠) .

وكما يظهر الجدول التالي رقم (٢) فقد تضاعف حجم الانتاج من السجائر حوالي ست مرات بين عامي ٣٧ و ١٩٤٤ ، في حين انخفض انتاج التبغ الفرط بقوة في نفس الفترة .

جدول رقم « ٢ »

انتاج التبغ بالكيلوغرام (١٩٣٧ / ١٩٤٤) (١١)

التبغ الفرط	السجائر	السنة
٤٧ر٤٦٨	٢٠ر٣٠٦	١٩٣٧
٤٢ر٦٦٧	٢٣ر٦٢٩	١٩٣٨
٣٩ر٥٥٦	٣٢ر٤٣٩	١٩٣٩
٢٥ر٨٣٩	٣٦ر٣٦٨	١٩٤٠
١٩ر١٥٨	٤٨ر٦٣٣	١٩٤١
٩ر٥٧٦	٧٤ر١٠٨	١٩٤٢
٤ر١١١	١١٣ر٦٦١	١٩٤٣
٩ر٠٨٦	١٢٩ر٦٤٠	١٩٤٤

ولقد ارتفع انتاج المصنعين من السجائر في السنوات ٤٦ ، ٤٧ ، ١٩٤٨ بالترتيب الى ١٧٨ر٤٨١ ، ١٦٥ر٧٨٣ ، ١٥٩ر٨٦٥ كيلوغراما (١٢) . وكان انتاج التبغ يغطي الاحتياجات المحلية في فترة ما قبل الحرب الثانية ، وكان التوسع في الانتاج يلاحق تزايد الطلب باستمرار (١٣) .

(١٠) راجع Commercial Conditions ... p. 5.

(١١) كونيكوف ، ص ٦٢ .

(١٢) راجع Commercial Conditions ... p. 5.

(١٣) يلاحظ بعد الحرب الثانية تزايد حصة التبغ الاجنبي المخلوط مع التبغ المحلي ، وتراجع مساحة الاراضي المزروعة بالتبغ ، كما ان المستوردات من السجائر الاجنبية قد زادت ، ويذكر أحد منشورات وزارة الاعلام الاردنية (القطاع الصناعي في الاردن / عمان ١٩٦٧ ، ص ٢٥) ان صناعة السجائر المحلية لم تكن تغطي الا جزءا من الحاجات المحلية قبل عام ١٩٥٠ .

الى جانب هذه الصناعات ، ظهرت مؤسسات اخرى تعمل في صناعة البسكوت والحلويات ، المشروبات الخفيفة ، الطوب الاسمنتي والرخام والمطابع في عمان ، والخزف في صويلح وفي عام ١٩٤٥ تأسس معمل لدباغة الجلود في العاصمة ، وكان بعض انتاج هذه الصناعة يصدر الى سورية وفلسطين (١٤) .

اما المعلومات عن العاملين في الحرف والصناعات وارقام الانتاجية الاجمالية، وسلم الاجور ، ومستوى دخول العاملين فهي غير متوفرة ، شأنها شأن الاحصاءات الحيوية الاخرى .

وبشكل عام تظهر قيود وزارة المالية انه من بين ١٩ شركة سجلت لديها في الاعوام ١٩٣٠/١٩٣٥ برؤوس اموال قدرها ١٢٠٩٨.٠٩٨ ديناراً لم يكن اي منها يتعاطى الاعمال الصناعية . اما في الاعوام ١٩٤٠/٣٥ فمن بين ٤٢ شركة مسجلة برؤوس اموال قدرها ٣٤٣٨٦٠ ديناراً ، كانت ست شركات منها تعمل في الصناعة والتنقيب ، كانت رؤوس اموالها توازي ١١٦٨٠٠ دينار ، اي ان حصتها من رؤوس اموال الشركات كانت ٣٤٪ . وكانت اكبرها تعمل في التنقيب برأسمال ١٠٠ الف دينار ، وثلاث شركات للكهرباء والانارة والميكانيك برؤوس اموال مجموعها ١١٠٠٠ دينار وواحدة لصنع المرطبات برأسمال قدره ٤٨٠٠ دينار ، والشركة الاخيرة كانت تعمل في انتاج الصابون والزيت برأسمال لم يتجاوز الف دينار (١٥) .

وفي الاعوام ١٩٤٥/٤٠ لم يزد عدد الشركات الصناعية المسجلة في هذه الفترة عن ثلاث من بين ٨٣ شركة برؤوس اموال بلغت ٧٨١١٠ دينار . ولم تزد حصة رؤوس اموال الشركات الصناعية الثلاث عن ٣٣٠٠٠ دينار ، اي ٨٤٪ من رؤوس اموال الشركات المسجلة في هذه الفترة . وكانت اثنتان منها تعملان في التنقيب برؤوس اموال قدرها ٢٧٠٠٠ دينار ، وثالثة تعمل في صناعة الكحول برأسمال يوازي ٦ الاف دينار فقط (١٦) .

(١٤) راجع كونيكوف ، المصدر نفسه ، ص ٦٢ .

(١٥) راجع المنشرة الاحصائية السنوية الاردنية ، العدد الاول ، ١٩٥٠ . دائرة الاحصاءات العامة (عمان ، ١٩٥١) بيان رقم ٨٤ ، ص ١٥٧ .

(١٦) المصدر نفسه ، ص ١٥٧ .

أما فترة ١٩٥٠/٤٥ فقد شهدت أكبر توسع في تأسيس الشركات في البلاد ، إذ بلغت ٣٤١ شركة ، كان بينها ٢٤ شركة صناعية ، ولم تزد حصة الشركات الصناعية من رؤوس أموال الشركات المسجلة عن ٨٤٪ ، بالأرقام المطلقة ٢٤١٠ر١٠٠ دينار من أصل ٢٨٦٢٥ر٤٢٥ دينار ، هي مجموع رؤوس أموال الشركات المسجلة في هذه الفترة ، ولقد توزعت الشركات المسجلة التي تتعاطى الاعمال الصناعية في هذه الفترة على النحو التالي :

جدول رقم « ٣ »

الشركات الصناعية المسجلة في الاعوام ١٩٥٠/٤٥ (١٧)

رؤوس أموالها بالدنانير	العدد	نوع النشاط الصناعي
٢٢٠ر٠٠٠	٥	شركات المطاحن وصنع الاغذية
١٨١٣ر٠٠٠	٣	شركات التنقيب
٢٦ر٠٠٠	٢	شركات الصابون والزيوت
٣١٣ر١٠٠	٨	شركات الكهرباء والانارة والميكانيك
٦ر٥٠٠	٢	شركات صنع المرطبات
٣١ر٥٠٠	٤	شركات صنع الكحول
٢٤١٠ر١٠٠	٢٤	المجموع

أما في نهاية المرحلة التي ندرسها ، أي عام ١٩٥٠ ، فقد كان عدد الشركات التي تتعاطى الاعمال الصناعية في شرقي الاردن لا يتجاوز ١٦٨ شركة ، من مجموع الشركات المسجلة لدى وزارة العدلية ، والبالغة ١٨٧٧ شركة ، أي أن نصيب الصناعة منها لم يتجاوز ٩٪ تقريبا ، كما لم تتجاوز رؤوس أموالها ٢٥٥٩ر٩٠٠ دينار من مجموع رؤوس أموال الشركات المسجلة والبالغة ٥٢٨٥٥ر٣٤٣ ديناراً (١٨) .

ومن الجدول رقم «٤» ، الخاص بالمؤسسات والمحلات الحرفية والصناعية في البلاد العام ١٩٥٠ ، نلاحظ أن عدد المحلات والمؤسسات الحرفية والصناعية الآلية لم يتجاوز ٢٤٤ مؤسسة من بين ٨١٣ مؤسسة ، أي ٤٢٪ منها ، في حين شكلت المحلات والمؤسسات العاملة في تجارة المؤن ٢٤٪ من مجموع

(١٧) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

(١٨) المصدر نفسه ، بيان رقم ٨٥ ، ص ١٥٨ .

المؤسسات ، وشكلت محلات البقالة ٢٩.٥٪ . كما كانت نسبة المحلات التي تتعاطى تجارة الجملة ٤.٨٪ ، وبلغت نسبة المحلات الحرفية اليدوية ٢٢.٦٥٪ من المجموع ، أما المؤسسات الباقية ، والتي تتعاطى حرفا ومهنا متنوعة وغير محددة ، فقد بلغت نسبتها ٤.٩٪ من مجموع المؤسسات . يتبين لنا ضالة حصة المؤسسات الصناعية والحرفية وغلبة المؤسسات الخدمية والتي تتعاطى اعمال التجارة في البلاد .

كما يظهر الجدول المذكور ، ان القسم الاعظم من هذه المؤسسات (٥٥.٥٪) كان يتركز في قضاء عمان ، ثم في قضاء اربد (٣٣.١٪) ، ويليهما في عدد المؤسسات والمحلات الحرفية والصناعية والمهنية والخدمية كل من قضائي الكرك ٧.٤٪ ، ثم معان ٣.٩٪ . وفي الواقع كانت مدينة عمان تحظى بنحو نصف عدد المؤسسات المذكورة لوحدها ، اي ٢٥٣٧ او ٤٣.٦٪ . ثم مدينة اربد وحصلتها ٢.٦٪ ثم السلط ٨.٥٪ ، ثم الكرك ٥.٦٪ ، ثم جرش ٤٪ ، واخيرا معان ومادبا وعجلون والطفيلة (١.٩) .

ما من شك ان تخلف علاقات الانتاج وتدني مستوى تطور القوى المنتجة ، قد اضعف من فرص تطور الحرف والصناعة في البلاد ، ولا سيما في بداية فترة تطور شرقي الاردن المنفصل عن سورية . كما كانت نشأة البرجوازية مترافقة مع بداية السيطرة الكولونيالية ، وهي في اصولها كانت برجوازية وافدة تكونت من تجار غير محليين ، وتطورت مستفيدة من مشاريع الدولة ومن تسهيلات التي فتحت لها باب الاستيراد وتحويل العملة بحرية مطلقة ، واتسمت لذلك بطابع كومبرادوري في الغالب . وقد اتاح لها ذلك فرص الربح السهل بدون ادنى مخاطرة ، فلعبت دور الوكيل المحلي للراسمال الاجنبي ، دور المروج والسوق للبضائع المستوردة . وارتبطت اوساط كبار التجار بالسلطة وبالسلطات الكولونيالية بعلاقات وشيجة ومصالح متبادلة . لقد فضلت هذه الفئات البرجوازية لعب دور الوسيط بدلا من النهوض بمهمة اقامة مشاريع انتاجية غير مأمونة العواقب ، وبذلك فانها لم تختلف عن الفئات الكومبرادورية والبرجوازية الطفيلية في البلدان التابعة الاخرى .

على ان الامبريالية البريطانية تتحمل مسؤولية رئيسية في هذا المجال ، اذ بسبب اهدافها ذات الطابع الاستراتيجي - السياسي والامني ، لم تعن بتطوير القاعدة المادية الاساسية لاي انتاج حديث . ولم توفر الخدمات الضرورية لهذا الانتاج ولتطور القوى المنتجة . فالبلاد كانت تفتقد الى محطات توليد وتوزيع الطاقة الكهربائية مع توفر مصادر مناسبة لتوليد الطاقة ، في حين منحت شركة

يهودية في فلسطين امتياز توليد الطاقة منذ عام ١٩٢٦ . وهكذا اضطرت الصناعات المحلية القليلة لاستخدام مولدات صغيرة خاصة بها في توليد الطاقة الكهربائية . ولم تقدم الدولة اية تسهيلات او حوافز للانماء الصناعي فكانت خدمات المواصلات والتعليم والصحة وغيرها ضعيفة جدا ، كما كان المستوى التقني للعمال المحليين منخفضا ، وقد خلت البلاد من المدارس الصناعية والمهنية، اللهم الا من مدرسة مهنية حكومية واحدة كانت تستوعب سنويا بين ٥٠ و ٦٠ طالبا (٢٠) . ففي هذه المدرسة المقسمة الى اربع سنوات دراسية ، كان يجري تعليم مهنتي الحدادة والنجارة فقط ، ولم يتجاوز عدد معلمي المهن عن ٤ معلمين وكان مجموع الطلبة الدارسين في المدرسة للعام ٥٠/٤٩ لا يتجاوز ١٠٢ طالب ، ٦٩ طالبا منهم يدرسون الحدادة و ٣٣ طالبا يدرسون النجارة (٢١) .

وما من شك في ان تطور الحرف الصناعية قد عانى من ظروف غير مناسبة ، مثل ضيق السوق المحلي وقلة عدد السكان ، وتقليدية الانتاج والاستهلاك وطابعه المعيشي للسكان حتى فترة قريبة ، وقد اضعف هذا من القوة الشرائية للسكان وحكم على السوق والتبادل البضاعي بالحدودية والضيق . كما ان ضعف الخدمات الرأسية ساهم في اضعاف السوق الداخلي وبالتالي التطور الحرفي والصناعي .

لقد عملت الامبريالية البريطانية على ابقاء البلاد ذات طابع زراعي غالب ، وفي نفس الوقت شجعت بكافة السبل ، ومنذ البداية ، الصلات التجارية مع فلسطين ، ولما كانت الصناعة الفلسطينية تنهض بشكل رئيسي على ايدي المستوطنين اليهود وعبر المشاريع الصهيونية ، فقد اسهم هذا في ترسيخ « تقسيم عمل » داخلي بين البلدين ، وقد حالت سهولة انتقال البضائع والاموال دون نشوء استثمار صناعي في شرقي الاردن رغم وجود مقومات وخامات قابلة للاستثمار الصناعي . ولقد تمتعت السلع الفلسطينية والاردنية باعفاءات متبادلة وكان « هذا يعني تشجيع السلع الاستهلاكية ذات المنشأ الفلسطيني او المستوردة لفلسطين ، والمعاد تصديرها للاردن ، واعطاءها افضلية في السوق الاردني اذا ما تنافست مع السلع المشابهة لها والمستوردة من بلدان اخرى ، كما تم الاتفاق على اعفاء السلع الزراعية المصدرة من الاردن عن طريق ميناء حيفا من رسوم الترانزيت ، وكان لهذه الاتفاقية اثرها المباشر على اقتصاد شرق الاردن ، اذ نمت وتطورت الصناعات الاستهلاكية في فلسطين ولم يرق في الاردن صناعة تذكر لاعتمادها على السلع الفلسطينية المصنوعة ، وهكذا توسع الاردن في

(٢٠) راجع هرشلاغ ، المصدر المذكور انفا ص ٢٣٧ ، كذلك كونيكوف ص ٦٢ .

(٢١) راجع النشرة الاحصائية السنوية لعام ١٩٥٢ ، المصدر المذكور انفا ، بيان رقم

٢٠ ب . ص ٤٣ .

الانتاج الزراعي عن طريق زيادة المساحات المزروعة ، توسعت الصناعات الاستهلاكية في فلسطين ، وكان التبادل التجاري يتم على هذا الاساس ، وشجع ذلك وحدة النقد بين البلدين « (٢٢) » .

٢ - استثمار الثروات الطبيعية والخامات والتعدين :

على الرغم من وعي الكولونيالية البريطانية المبكر لوجود الخامات والمعادن في شرقي الاردن ، فان هذه الخامات والمعادن لم تتجه نحوها رؤوس الاموال البريطانية لاستثمارها ، وظل العامل الرئيسي في اهتمام بريطانيا بالاردن هو العامل الاستراتيجي والسياسي - الامني وليس عامل النهب الاقتصادي . اذ لفتت جمعية صانعي الاسمدة المحدودة البريطانية وزارة الزراعة الى وجود خامة الفوسفات ، وقامت الاخيرة بالاتصال مع وزارة الخارجية للفت نظرها بضرورة شمول منطقة السلط التي تتوفر فيها هذه الخامة ضمن حدود فلسطين . وذلك « لاهمية [المنطقة] من منظور الزراعة البريطانية » وطلبت وزارة الزراعة البريطانية ان تبقى أهمية الترسبات الفوسفاتية بالنسبة لبريطانيا « ماثلة في الذهن لدى تصميم حدود فلسطين » (٢٣) . ومع ذلك لم ييسدو ، ان السياسة البريطانية تجاه الاردن قد تأثرت كثيراً بسبب الفوسفات او غيره من الخامات .

لقد منحت بريطانيا بموجب صك الانتداب على شرقي الاردن وبموجب المعاهدة الاردنية البريطانية لعام ١٩٢٨ حق الاشراف على استثمار ثروات البلاد الطبيعية (٢٤) وكان ان منحت السلطات البريطانية ، بموافقة الحكومة الاردنية عدة امتيازات لشركات بريطانية وغربية ومختلطة (بريطانية - يهودية) ، كانت في كاملها متعارضة مع مصالح البلاد الحيوية . ولم تسهم هذه في تطوير القوة المنتجة المحلية والاقتصاد الوطني .

منحت شركة البوتاس الفلسطينية (البريطانية - اليهودية) بموجب الامتياز المعطى لها حق استثمار البحر الميت لمدة ٧٥ سنة تبدأ في كانون الثاني

(٢٢) راجع ، شرايحة ، وديع ، «التنمية الاقتصادية في الاردن» ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٩/٨ .

(٢٣) راجع دياب ، هنري ، تأسيس شرق الاردن في العام ١٩٢١ ، شؤون فلسطينية ، العدد ٥١/٥٠ ، تشرين الاول / تشرين الثاني ، ١٩٧٥ ، ص ٢٧٠ .

(٢٤) راجع صك الانتداب البريطاني على فلسطين وشرقي الاردن ، والمعاهدة الاردنية البريطانية لعام ١٩٢٨ لدى المحافظة ، علي ، تاريخ الاردن المعاصر (عمان ، ١٩٧٣) ، الصفحات ١٦٧/١٨١ ، لاسيما المادة ١٧ من المعاهدة ، ص ١٨٠ .

١٩٣٠ (٢٥) . ان موافقة حكومة شرقي الاردن على هذا الامتياز بوصفها شريكا فلسطين في البحر الميت ، لم تعد عليها بفوائد تذكر . فالامتياز حدد حصة الحكومتين الفلسطينية والاردنية من ارباح الشركة بما يعادل ٥٪ من الانتاج المباع . على ان تكون حصة شرقي الاردن نصف حصة حكومة فلسطين ، لكون اعمال الشركة تقوم في الاراضي الفلسطينية . وبموجب الامتياز المذكور لم يسمح للمواطنين الاردنيين والفلسطينيين بامتلاك حصة تتجاوز خمس (١/٥) الاسهم المطروحة للبيع العلني (٢٦) . وبذلك يمكن ملاحظة تفاهة العوائد المالية على البلدين من هذا الامتياز .

وكان انتاج شركة البوتاس قد ارتفع من ٤٨٠٠٠ طن عام ١٩٣٨ الى ١٠٠٠٠٠ طن في الاعوام ١٩٤٣/٤١ بقيمة تتراوح بين ثلاث ارباع المليون والمليون جنيه فلسطيني ، وقد ظلت قيمة الانتاج عند نهاية الانتداب البريطاني على فلسطين تقارب المليون جنيه (٢٧) .

منحت سلطات الانتداب في اذار ١٩٢٦ امتيازاً لتوليد الطاقة الكهربائية في فلسطين وشرقي الاردن الى شركة الكهرباء الفلسطينية المحدودة . وهي شركة بريطانية كانت الوكالة اليهودية من كبار المساهمين في رأسمالها . بموجب هذا الامتياز اصبح لها الحق في توليد وتوزيع الطاقة الكهربائية في كل انحاء فلسطين وشرقي الاردن ، باستثناء القدس . كذلك حق استغلال القوى المائية لنهري الاردن واليرموك (٢٨) . وقد اعطت الحكومة الاردنية موافقتها في كانون الثاني عام ١٩٤٨ على ان يشمل الامتياز الاراضي الاردنية ، كما بيعت اراض خصبة في وادي الاردن للشركة ، بلغت ٦٠٠٠ دونم مربع ، مما يعث مشاعر القلق والغضب في اوساط الجماهير والحركة الوطنية ، وحرك معارضة شعبية واسعة في البلاد (٢٩) .

اقتصر استثمار الثروات الطبيعية في البلاد على بعض الخامات مثل الملح والفوسفات ، والتراب الجص وحجارة البناء والرخام . فقد استخرج الملح

(٢٥) راجع الدجاني ، علي «محاضرات في اقتصاديات الاردن» ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص ٦٤ .

(٢٦) المحافظة ، علي ، الحياة الاقتصادية في عهد الامارة ، مصدر مذكور انفا ص ٢٠ .
(٢٧) راجع كونيكوف ، المصدر نفسه ص ٥٥ ، والمحافظة . المصدر المذكور انفا ، ص ٢٠ كذلك الدجاني ، المصدر نفسه ، ص ٦٤ .

(٢٨) راجع المحافظة ، المصدر نفسه ، ص ٢٠ .

(٢٩) بيع الدونم بثلاث جنيهات . واتهم بعض اركان الحكومة بقبض رشوة من نشطاء راجع القسوس ، عودة ، مذكراته المخطوطة .

في منطقة الأزرق على يد مواطنين من السوريين الدروز منذ عام ١٩٢٩ . ولم توجد ارقام رسمية عن الانتاج ، لكن ذكر ان الانتاج كان كافيا لتغطية الحاجات المحلية ، ولتصدير كمية محدودة منه الى سورية (٣٠) .

بدأ استخراج الفوسفات متأخرا ، رغم اكتشاف خامات كبيرة منه في مناطق عديدة من البلاد منذ بداية القرن الحالي . ودلت الدراسات منذ ذلك الحين على جودة هذه الخامات مقارنة مع الفوسفات المستخرج في شمال افريقيا ، كما ثبتت الجدوى الاقتصادية لاستثماره ، ان لجهة جودته او لوجود كميات كبيرة متوفرة منه (٣١) .

تأسست شركة اهلية « شركة الفوسفات الاردنية » مع اكتشاف مادة الفوسفات في الرصيفة القريبة من عمان عام ١٩٣٢ . وبدأت برأسمال ضئيل ونتاجية صغيرة . كانت فلسطين المستورد الرئيسي ، ان لم يكن الوحيد ، للفوسفات الاردني . حيث جرى تصنيع ونتاج السوبر فوسفات منذ عام ١٩٤١ . وكان الانتاج يغطي حاجة الزراعة المحلية في فلسطين (٣٢) .

بقي الانتاج من خامات الفوسفات ضئيلا ابان الحرب الثانية ، ففي عام ١٩٤٢ كان الانتاج يوازي ٣٢٠٠ طن . وارتفع قليلا الى نحو ٥٠٠٠ طن في عامي ٤٣ و ٤٤ . اما عدد عمال الشركة فقد تراوح بين ٨٠ و ١٠٠ عامل منتظم (٣٣) . بعد عام ١٩٤٥ - وكانت الشركة قد تحولت الى شركة مساهمة - وضعت اسس جديدة للانتاج والتصدير ، لكن الانتاج ظل ضئيلا في النصف الثاني من الاربعينات ، فكانت صادرات الفوسفات الى فلسطين في الاعوام ١٩٤٧/٤٥ على الترتيب التالي : ٤٥٦٨ ، ١٠٤٠٤ ، ١٠٤٨٨ ، ٣٤٨٨ طن (٣٤) .

ويبدو ان أية كميات لم تصدر الى فلسطين خلال عام ١٩٤٨ . وثم توقف تصدير الفوسفات نهائيا بعد الحرب العربية الاولى ، ولم تلبث ان صدرت اول شحنة من الفوسفات الاردني عام ١٩٥١ ، بعد فقدان المواثيق الفلسطينية ، واثرت ذلك (١٩٥٣) ساهمت الحكومة الاردنية بـ ٣٠٪ من رأسمال الشركة (٣٥) .

(٣٠) راجع كونيوف ، ص ٥٥

(٣١) المصدر نفسه ، ص ٥٧ .

(٣٢) راجع القطاع الصناعي في الاردن ، وزارة الاعلام الاردنية ، عمان ، ١٩٦٧ ، ص ١٥ ، كذلك كونيوف ص ٥٧ .

(٣٣) كونيوف ، ص ٥٧ .

(٣٤) راجع Commercial Conditions ... p. 7.

(٣٥) راجع القطاع الصناعي في الاردن ، المصدر السابق ، ص ١٥ .

استثمرت بضعة خامات غير معدنية اخرى على نطاق ضيق جدا . كما هو الحال مع التراب الجصي والسليكات والطوب وخامات الخزف . وكان في شرقي الاردن معمل واحد بدأ متأخرا في انتاج الخزف المحلي في ضويلح . كما كان هناك قرن لشوي الطوب وصناعته في الشونة يوظف بين ٦٠ و ٧٠ عاملا . وكان قسم من الانتاج (لم يزد عن ٢ الاف طن) يصدر الى فلسطين عام ١٩٤٣ . واستثمرت على نطاق ضيق ايضا حجارة البناء والرخام . اما خامة السليكات التي كانت متوفرة بكميات كبيرة في جنوب الاردن وماحص ، والمفيدة في صناعة الخزف والزجاج فلم تستثمر رغم انها اعتبرت احدى الخامات الطبيعية القابلة للاستثمار على نطاق تجاري (٣٦) .

جدول رقم « ٤ »

الحرف والصناعات في اقضية شرق الاردن (١٩٥٠)

مجموع المهن والحرف اليدوية	المهن والحرف اليدوية				المؤسسات		مجموع المحلات والمؤسسات الحرفية والصناعية	القضاء
	حرف ومهن اخرى	حرف يدوية	مخالات البقالة	تجارة الجملة	تجارة المفرق	الحرفية والصناعية (الالية)		
٣٠٩٣	١٣٥	٨٦١	١٠١٣٦	٢٠٣	٧٥٨	١٣٧	٣٠٢٣٠	عمان
١٨٥٦	١٢١	٣٦٥	٧٧٥	٧١	٥٢٤	٧٢	١٩٢٨٠	اردن
٤٠٧	١١	٦٧	٢٧٠	٣	٥٦	٢٣	٤٣٠	الكرك
٢١٣	٢٠	٢٤	١١٦	—	٥٣	١٢	٢٧٥	معان
٥٠٦٩	٢٨٧	١٠٣١٧	٢٠٢٩٧	٢٧٧	١٠٣٩١	٢٤٤	٥٨١١٣	المجموع

المصدر : النشرة الاحصائية الاردنية ، العدد الاول ١٩٥٠ ، دائرة الاحصاءات العامة (عمان ، ١٩٥١) بيان رقم ٨٦ ، ص ١٥٩ .

ب - القطاعات الخدمية (الانتاج غير المادي)

١ - التجارة والتجارة الخارجية

كانت مبادلات شرقي الاردن مع الخارج : قبل نشوء الادارة فيها ، تتسم بمحدوديتها وتوازنها . فهي من جهة محكومة بحجم التبادل البضاعي المتساح لمجتمع زراعي - رعوي مكثف بذاته - معيشي في تكوينه ، تقتصر مستورداته على الضروريات . وهي من جهة ثانية كانت مبادلات متساوية في الغالب ، اي ان البلاد لم تعان من مديونية تجاه الخارج ، حيث كان الانتاج ومن ثم الفائض هو الذي يقرر حجم التبادل . اما النقد المتداول ، فهو فضلا عن محدوديته كان

(٣٦) راجع كونيكوف ، ص ٥٩ .

قيمة بذاته (موضوعا للاكتناز) ، وليس فقط اداة للمبادلة .

بعد تأسيس الامارة ، واتجاه الانفاق الاميريالي الى تمويل الادارة والجيش ، دخل عامل جديد مؤثر في حجم المبادلة مع الخارج وفي اتخاذها صفة اللاتوازن . بعد ذلك باتت المبادلات مع الخارج تخضع شيئا فشيئا ، لا لوجود فائض قابل للمبادلة فقط ، وانما لوجود دخول خارجية غير متأتية عن الانتاج المحلي . وكانت هذه تستثير استهلاكا جديدا لم يتمتع بضرورة ملحة من وجهة النظر الاجتماعية والاقتصادية المحلية . اذ كان نمو الادارة والجيش في خدمة الكولونيالية البريطانية ومصالحها يترك اثره على التجارة مع الخارج من خلال تطلب هذا النمو لسلع واحتياجات لم تكن متوفرة في البلاد .

واذا كان من الصعب تعيين حدود المبادلات مع الخارج في وقت مبكر ، اي منذ مطلع العشرينات ، فذلك ليس فقط لعدم وجود حسابات دقيقة للتجارة الخارجية ، وانما ايضا لان الانفاق والمبادلة لم يخضعا لسيطرة مركزية صارمة . ولان الدولة لم تكن قادرة على مراقبة التجارة وعكس معطياتها بدقة في حسابات التجارة الخارجية ، وكذلك فان من الصعوبة بمكان قياس تأثير نشاط الدولة والجيش على التطور التجاري وعلى بنية الاقتصاد المحلي .

في عام ١٩٢٧ ، كانت ارقام الصادرات والواردات تشير الى المظاهر الاولى للخلل الذي نشأ نتيجة الانتقال غير الممهّد له نحو الانفتاح على السوق العالمية . ففي هذا العام بلغ العجز في الميزان التجاري ٥٥٣٩٢٨ جنييه فلسطيني ، وذلك حين كانت المستوردات توازي ضعف الصادرات . لقد بدأ هذا الخلل يظهر ، رغم ان السكان ما زالوا يعيشون ضمن نظام انتاج تقليدي مكثف بنفسه الى حد كبير ، مما يشير الى ان مسؤولية الخلل كانت تقع بشكل رئيسي على الاقتصاد المدني وعلى القطاعات المرتبطة بالادارة والجيش . وكان هذا الخلل يفصح عن بداية معاناة الاقتصاديين الريفي والرعي من ازمات احتجاز تطورها ومعاناتهما من بدايات الانتقال الى العلاقات البضاعية ، بدون تطوير وسائل الانتاج وهيكل الانتاج بشكل عام . مما وسع اعتماد الزراعيين والرعييين على السلع المستوردة .

لكن هذه لم تكن سوى بداية ، فقد كانت مظاهر التطور المشوه وغير المتوازن للاقتصاد المحلي تعكس نفسها في السنوات العشر التالية على التجارة الخارجية في شكل عجز متفاقم في الميزان التجاري ، وصل عام ١٩٤٩ الى ٧١٨٦٠٠٠ جنييه فلسطيني ، حين اخذت الواردات للبلاد توازي عشرة اضعاف الصادرات

منها للخارج ! (راجع الجدول رقم « ٢ ») .

وكي تتمكن من ملاحقة سمات التجارة الخارجية الاردنية واسباب العجز في الميزان التجاري ، نلقي بعض الاضواء على تركيب وحجم الصادرات والواردات وطبيعتها ، وعلى العلاقات التجارية مع البلدان العربية والاجنبية .

١ - الصادرات

اتسمت صادرات شرقي الاردن بالسمات العامة لصادرات البلدان المتخلفة والخاضعة للسيطرة الامبريالية ، فهي مكونة من سلع وخامات زراعية وحيوانية ، ابرزها الماشية والقمح والشعير والعدس ، الخضار الطازجة والجلود والصوف ، وحصّة هزيلة من الفوسفات الخام في سنوات الاربعينات الاخيرة . على ان صادرات الاردن اتسمت فضلا عن ذلك بضعفها بالنسبة للانتاج المحلي ، وبالنسبة لتجارة الاردن الخارجية على حد سواء .

كان القمح والشعير على رأس الصادرات الزراعية لشرقي الاردن ، وكانت قيمتهما تشهد تقلبا دراماتيكا بين سنة واخرى نظرا لاعتمادها على المطر . وكما يشير الجدول رقم « ١ » فقد تراوحت قيمة صادرات الاردن من القمح بين حد ادنى يوازي ٤٠ الف جنيه ، وحد أعلى يوازي مليون و ٨٥ الف جنيه في الاعوام ١٩٤٩/٣٨ . وينطبق الشيء نفسه على قيمة صادرات الشعير التي تراوحت بين الف جنيه و ٢٢٢ الف جنيه لنفس الفترة . اما صادرات العدس فقد شهدت وتيرة ارتفاع عالية من ٩ آلاف جنيه عام ١٩٤٨ الى ٢٦٧ الف جنيه عام ١٩٤٥ ، ثم عادت ، بعد صعود متواتر ، الى الهبوط الى ٦٤ الف جنيه عام ١٩٤٦ ثم الى ٣٩ الف جنيه عام ١٩٤٩ .

حافظت قيمة صادرات الخضار على وتيرة ترتفع على الدوام ، من ١١ الف جنيه عام ١٩٣٨ الى ٨٢ الف جنيه عام ١٩٤٨ ، مع هبوط الى ٦٣ الف جنيه عام ١٩٤٩ . وكانت صادرات هذه الزراعة بعيدة عن التقلب العشوائي نتيجة اعتمادها على الري ، ولكن في الوقت نفسه بقيت حدود زيادة صادرات الخضار ضيقة بسبب ضيق مساحة الاراضي الزراعية المروية .

وشهدت قيمة صادرات الحيوانات الحية « الماشية » تقلبا طفيفا مع اتجاه صاعد للزيادة من ٣٧ الف جنيه عام ١٩٣٨ الى ١٨٧ الف جنيه عام ١٩٤٥ . وبعد ذلك هبطت قيمة صادرات الماشية الى ٤٢ الف جنيه عام ١٩٤٦ ، والى ٣١ الف جنيه عام ١٩٤٩ .

جدول رقم « ١ »

صادرات شرقي الاردن الرئيسية (بالاف الجنيهات الفلسطينية للسنوات
١٩٤٩/٣٨) (١)

١٩٤٩	١٩٤٨	١٩٤٦	١٩٤٥	١٩٤٤	١٩٤٣	١٩٤٢	١٩٤٠	١٩٣٨	
٣١	-	٤٢	١٨٧	١٧٦	٩٥	١٠٦	٦٤	٣٧	الحيوانات الحية (الماشية)
٢٠٣	٤٠	١٠٨٥	٧٠٣	٢٩٣	٩٨٩	٢٣١	٤٨٨	٣٢٤	القمح
١٣١	١	١٥٩	٩٨	٤٦	٢٣٢	٥٦	٤٤	٢٠	الشعير
٣٩	٥٦	٦٤	٣٦٧	٩١	٦٠	٧٠	٣١	٩	العدس
٦٢	٨٢	٦٤	٥٦	٥٩	٥٨	٣٦	١٠	١١	الخضار الطازجة
٣١	٤٣	١٣	١٢	١٣	٨	٤	٦	٣	الجلود
٤	١٩	٧	٨	٧	٣	٢	٢	١	الصوف
-	-	٣٣	٢٣	١٩	١٧	٠٠	٠٠	-	الفوسفات الخام
١٠٥٣	٧٢٨	٢٠٤٤	٢٠٤٩	١٤٥٧	١٩٨٨	٧٤٤	٧٧٠	٤٧٢	كل الصادرات الأردنية

اما باقي الصادرات من جلود وصوف وفوسفات فقد احتلت حصة ضئيلة من قيمة الصادرات المحلية . وفيما يتعلق بالفوسفات فقد كان يصدر اساسا الى فلسطين ، حيث يصنع هناك للزراعة المحلية ، وقد ارتفعت قيمة صادرات الفوسفات من ١٧ الف جنيه عام ١٩٤٣ الى ٣٣ الف جنيه عام ١٩٤٦ ثم انخفض بعد عام الى ٦ آلاف جنيه ، وتوقف التصدير الى فلسطين بعد الحرب .

يظهر الجدول نفسه « ١ » ان قيمة الصادرات الاردنية بالقيمة المطلقة قد تأثرت بالعوامل المناخية والامطار ، لكونها في غالبيتها مكونة من مواد زراعية وحيوانية . وقد ازدادت قيمة الصادرات الاردنية ، مع صعود وهبوط ، من ٤٧٢ الف جنيه عام ١٩٣٨ الى ١٩٨٨ الف جنيه عام ١٩٤٣ . ثم هبطت عام ١٩٤٤ الى ١٤٥٧ الف جنيه ، وتلاها ارتفاع قوي الى ٢٠٤٩ الف جنيه عام ١٩٤٦ ، والى ٢٠٤٤ الف جنيه عام ١٩٤٧ . وعادت قيمة الصادرات الاردنية لتتخفف عامي ١٩٤٨ و ١٩٤٩ انخفاضاً سحيقاً الى ٧٢٨ الف جنيه والى ١٠٥٣ الف جنيه .

٢ - الصادرات حسب البلدان المستقبلية

يظهر توزيع صادرات شرقي الاردن حسب البلدان المستقبلية لها ، ان فلسطين كانت البلد الاول والرئيسي المستورد من الاردن . ففي عام ١٩٣٨ استوردت

(١) راجع : Quarterly Bulletin of Economic development U.N. Relief and Works Agency for Palestine Refugees . No. 8, August 1953. p. 48.

ما قيمته ٤٤٥ الف جنيه من مجموع صادرات الاردن البالغة ٤٧٢ الف جنيه ، اي انها استقبلت ٩٤٢٪ من صادرات الاردن . في حين لم تتجاوز الصادرات الى سورية ما قيمته ٢٨ الف جنيه في نفس العام (٢) .

ازدادت قيمة الصادرات الاردنية الى فلسطين فبلغت ١٩٧٥٠٠٠ ر.١٩٧٥ جنيه عام ١٩٤٣ ، وحافظت الصادرات الى فلسطين على متوسط قيمته مليون ونصف مليون جنيه في السنوات التالية ٤٤ ، ٤٥ ، ١٩٤٦ . ثم بدأت بالانخفاض الى ٤٥٩ الف جنيه عام ١٩٤٧ و ٥٦٢ الف جنيه عام ١٩٤٨ واخيرا ٧٢٨ الف جنيه عام ١٩٤٩ (٣) .

اما الصادرات الاردنية الى سورية فقد ظلت قيمتها ضئيلة ، ففي عام ١٩٤٤ بلغت ١٤٠٠٠ ر.١٤٠٠٠ جنيه فقط ، لكنها قفزت بعد ذلك الى ٤٤٠٠٠٠ ر.٤٤٠٠٠٠ جنيه عام ١٩٤٥ والى ٥٠٢٠٠٠ ر.٥٠٢٠٠٠٠ عام ١٩٤٦ ، ثم عاودت انخفاضها الى ٤٢٠٠٠ ر.٤٢٠٠٠٠ عام ١٩٤٧ و ١٥٠٠٠٠ ر.١٥٠٠٠٠٠ جنيه عام ١٩٤٨ واخيرا ٢٩٠٠٠٠ ر.٢٩٠٠٠٠٠ جنيه عام ١٩٤٩ (٤) .

وكانت صادرات شرقي الاردن الى البلدان العربية الاخرى محصورة اساسا في العراق والسعودية (نجد) ومصر ، الا ان قيمتها ظلت ضئيلة جدا وغير مستقرة .

٣ - المستوردات

تضاعفت قيمة مستوردات شرقي الاردن خلال سنوات الحرب الثانية مسن متوسط ١٢٠٠٠٠ ر.١٢٠٠٠٠٠ جنيه في الاعوام ١٩٣٩/٣٧ الى متوسط ٢٤٠٠٠٠ ر.٢٤٠٠٠٠٠ جنيه في الاعوام ١٩٤٤/٤١ . ان الارتفاع العالمي لاسعار السلع اثناء الحرب ، وازدياد المستوردات الخاصة بالمتطلبات العسكرية والمشاريع البريطانية في البلاد قد اسهمتا في تحقيق هذا الارتفاع . لكن ازدياد المستوردات لم يتوقف بعد الحرب ، بل تنامى بسرعة اكبر وكان هذا يعكس ازدياد الاعتماد على الخارج . هكذا ارتفعت المستوردات من قيمة ٢٩٨٦٠٠٠ ر.٢٩٨٦٠٠٠٠ جنيه عام ١٩٤٤ الى ٤٥٦٨٠٠٠ ر.٤٥٦٨٠٠٠٠ عام ١٩٤٥ ، ثم الى ١١٧٠٠٠ ر.١١٧٠٠٠٠٠ جنيه عام ١٩٤٦ . ومع عام ١٩٤٨ الذي شهد اندلاع الحرب الفلسطينية ، وازدياد الدعم البريطاني المالي للجيش الاردني ، كانت وتيرة ارتفاع المستوردات أقوى واشد ، فوصلت

(2) Ibid. Table XIII. p. 49.

(3) Ibid. Table XIII. p. 49.

(4) Ibid. Table XIII. p. 49.

قيمة المستوردات الى ١٠ر٢٨٤ر٠٠٠ جنيه عام ١٩٤٨ . ثم الى ١٢ر٧٤٤ر٠٠٠ عام ١٩٤٩ (انظر الجدول رقم « ٢ ») .

مكذا يمكن القول ان المستوردات كانت قد تضاعفت بعد الحرب العالمية الثانية مرة واحدة عن السنوات التي قبلها . ثم اخذت تتضاعف كل سنتين او ثلاث سنوات بعد ذلك . ففي عام ١٩٤٩ كانت المستوردات توازي عشرة اضعاف مستوردات عام ١٩٣٨ من حيث القيمة .

تشير ارقام ١٩٤٤/٢٨ الى ان السلع المصنوعة كانت تشكل ثلثي قيمة مستوردات الاردن الاجمالية ، ومن بينها كانت الملابس والمنسوجات تحتل المرتبة الاولى . فيما احتلت المواد الغذائية ما نسبته ٢٠ و ٢٥٪ . وتوزعت الحصة الباقية من المستوردات بين عدد من المواد الاخرى (٥) .

اما ارقام السنوات ٤٦ ، ٤٧ ، ١٩٤٨ فهي تشير الى ان المنسوجات والملابس (القطنية خاصة والحريرية والصوفية) تحتل المرتبة الاولى بين المستوردات وقد بلغت نسبتها الى اجمالي المستوردات ٣٨٪ و ٢٠ر٨٪ و ١٧٪ على التوالي .

بعد المنسوجات تأتي مستوردات البلاد من الحيوانات لغايات العمل وكانت لعام ١٩٤٥ (وهي الاعلى بين بقية السنوات) توازي ١ر٢٧ر٠٠٠ جنيه او ما نسبته ٢٤ر٧٪ من قيمة اجمالي المستوردات . وكانت حصتها في السنوات التالية : ١٢ر١٪ لعام ١٩٤٦ و ٢ر٦٪ لعام ١٩٤٨ . وقد انخفضت قيمة مستوردات حيوانات العمل لعام ١٩٤٩ الى ما يوازي ٣٠ الف جنيه فقط (٦) .

ارتفعت قيمة مستوردات السكر بالارقام المطلقة الى اجمالي المستوردات بوتيرة عالية جدا اثناء الحرب الثانية وبعدها . اذ كانت مستوردات السكر توازي ٤٧ الف جنيه لعام ١٩٣٨ فباتت توازي لعام ١٩٤٣ ، ٢٢٧ الف جنيه . وبعد انخفاض قيمتها في السنوات ١٩٤٦/٤٤ عادت ترتفع بقوة من ١٣٦ الف جنيه عام ١٩٤٦ الى ٥٦٦ الف جنيه عام ١٩٤٧ ، ثم الى مليون و ١٥٦ الف جنيه لعام ١٩٤٨ . وقد شكلت مستوردات السكر ما نسبته ٢٢ر٢٪ و ١١ر٢٪

(5) Konikoff , op. cit, p. 65 .

(6) Commercial Conditions in Trans Jordan during 1948.
Table A. p. 32.

و٨٤٪ من اجمالي قيمة المستوردات للسنوات ٤٦ و٤٨ و١٩٤٩ ، بالترتيب (٧) .

نشطت مستوردات السيارات بقوة بعد الحرب الثانية ، ففي عام ١٩٤٤ كانت قيمة المستورد منها ٢٨ الف جنيه فقط ، ثم قفزت الى ٢٦٣ الف جنيه عام ١٩٤٦ والى ٣٤٤ الف جنيه و ٣١٠ الف جنيه عامي ٤٨ و ١٩٤٩ بالترتيب (٨) .

ومع ازدياد استيراد السيارات ، كانت قيمة البنزين المستورد ترتفع ايضا من ٧١٧٦٠ جنيه لعام ١٩٤٦ الى ١١٣٠٤٨ ر.٤٨ جنيهها والى ٩٥٩٦٣ ر.٩٥ جنيهها عامي ٤٧ و ١٩٤٨ . وبالمثل زادت قيمة مستوردات اطارات السيارات من ٨٤٧٦٨ ر.٨٤ جنيهها لعام ١٩٤٦ الى ١٠٤٠٩٢ ر.١٠ جنيهها في عام ١٩٤٧ (٩) .

اما ترتيب المستوردات الاخرى من حيث اهمية قيمتها بالنسبة الى اجمالي المستوردات فقد كانت على النحو التالي : التمور ، الارز ، الشاي ، الاسمنت ، الخشب ، لباس الرأس ، الكيروسين ، الفولاذ ، الاحذية ، ورق السجائر ، الصابون ، الادوات الفولاذية ، الورق ، الحلويات ، الثقاب ، السولار ٠٠ الخ (١٠) . من ذلك يتبين ان المواد الغذائية والمنسوجات والملابس ومواد البناء والسلع الاستهلاكية المباشرة كانت تشكل غالبية المستوردات الاردنية .

ويظهر الجدول رقم « ٢ » تطور المستوردات الرئيسية من حيث قيمتها (بالآلاف الجنيهات الفلسطينية) ، وكذلك القيمة الاجمالية للمستوردات في السنوات ١٩٤٩/٣٨ .

جدول رقم « ٢ »

المستوردات الرئيسية لشرق الاردن (بالآلاف الجنيهات الفلسطينية) لسنوات ١٩٤٩/٣٨ (١١)

١٩٤٩	١٩٤٨	١٩٤٦	١٩٤٥	١٩٤٤	١٩٤٣	١٩٤٢	١٩٤٠	١٩٣٨	
١٣١٨	٨٦٥	٩١١	٣٣٤	١٨١	١٢٧	١٦٥	١٣٨	١٣٠	السجوة قطنية
٣٠	٣٦٧	٧٤١	١١٢٧	٢٢٠	٢٢٠	٢٢٠	٢٢٠	٢٢٠	حيوانات
١٠٠٧٦	١١٥٦	١٣٦	١٣٩	١٤١	٢٢٧	٢٠٧	١٣٦	٤٧	سكر
٣١٠	٣٤٤	٢٦٣	٥٠	٢٨	٢٢٧	٢٠٧	١٣٦	٤٧	سيارات
٢٨٥	٥٠٨	٣٣٣	١٠١	٢٢٠	١٤١	٢٦	٤٢	١٨	قهوة
٤٦٦	٢١٣	١٠٧	٥١	٢٧	٢٢٠	٢٢٠	٢٢٠	٢٢٠	اسمنت
٤٣٩	٣٩٦	٧٢	٥١	٣٨	٥٤	٤٣	٧٢	٣٩	بنزين
١٢٧٤٤	١٠٢٨٤	٦١١٧	٤٥٦٨	٢٩٨٦	٢٢٩٢	٢٠٨٣	١٦٧٢	١٣٢٩	قيمة كل المستوردات

(7) Ibid. p. 32. (8) Ibid. p. 32. (9) Ibid. p. 32.

(10) Ibid. p. 32.

(11) U.N. Relief & Works , Agency for Palestine Refugees, Quarterly Bulletin of Economic Development No. 8. August 1953. p. 48.

٤ - المستوردات حسب بلدان المصدر

اما توزيع المستوردات حسب بلدان المصدر ، فنجد ان الدول الرئيسية المصدرة للاردن كانت قبيل الحرب الثانية (١٩٣٨) على الترتيب التالي : سورية ، اليابان ، العراق ، فلسطين ، بريطانيا ، الهند ، ثم الولايات المتحدة الامريكية وبلدان اوروبية اخرى (١٢) ، وبعد الحرب الثانية طرأ تحول على ترتيب اهمية البلدان المصدرة للاردن . فقد توقفت المستوردات من اليابان في السنوات ١٩٤٧/٤٤ ، ثم تفاوتت قيمة صادراتها بعد ذلك مع ميلها الى الانخفاض الشديد ، بعد ان كانت تحتل المرتبة الثانية من حيث القيمة المطلقة والنسبية للمستوردات الاردنية (١٣) . ولقد سبب انتعاش التجارة مع اليابان التسهيلات المتاحة امام الاستيراد في العراق وقللة الرقابة آنذاك . كما كانت صلات العراق مع الهند سببا في انتعاش تجارتها مع الاردن (١٤) .

حافظت مستوردات الاردن من سورية على مركزها الرئيسي بين سائر البلدان الاخرى حتى نهاية الاربعينات . رغم تعديل الاتفاقيات التجارية بين البلدين . اما الاستيراد من فلسطين فقد شهد ارتفاعا ملموسا ومتواصلا من عام ١٩٣٨ وحتى عام ١٩٤٥ ، ثم تارجع مع ميل الى الانخفاض في السنوات ١٩٤٩/٤٦ . وبسبب التسهيلات الجمركية بين الاردن وفلسطين وللأسباب التاريخية والجوار ، ظلت التجارة مع فلسطين تتمتع بمكانة رئيسية ان على صعيد الصادرات او المستوردات (١٥) .

كما شهدت التجارة مع أوروبا في السنوات ١٩٤٩/٤٦ طفرة قوية وتضاعفت المستوردات منها خلال السنوات المذكورة ثلاث مرات . فيما استمرت المستوردات من البلدان الآسيوية على ارتفاعها نظرا لازدياد حاجة الاردن للشاي والارز والسيج (١٦) .

كانت حصص بريطانيا والولايات المتحدة من المستوردات الأردنية ضئيلة جدا قبل الحرب الثانية ، لكنها قفزت منذ بداية الاربعينات وبلغت ذروتها عام

(12) Ibid. p. 49.

(13) Ibid. p. 49.

(14) Konikoff , op. cit., p. 66.

(15) Quarterly Bulletin of Economic Development , op. cit. p. 49.

(16) Ibid. p. 49.

١٩٤٨ • فباتت بريطانيا المصدر الاول للاردن ، في حين زادت صادرات الولايات المتحدة الى الاردن عن صادرات فلسطين للاردن في نفس العام • وهكذا بات توزيع البلدان المصدرة للاردن من حيث اهميتها الى مجموع المستوردات لعام ١٩٤٨ على النحو التالي وبالترتيب :

٢٢١٧٪	جنيه	٢٢٣٤٠٠٠	١ - المستوردات البريطانية
١٩١٪	جنيه	١٩٦٧٠٠٠	٢ - المستوردات السورية
١١٤٪	جنيه	١١٧٣٠٠٠	٣ - المستوردات الاوروبية
١٠٤٪	جنيه	١٠٦٩٠٠٠	٤ - المستوردات العراقية
٧٥٪	جنيه	٧٧٨٠٠٠	٥ - المستوردات الامريكية (الولايات المتحدة)
٧٥٪	جنيه	٧٧٤٠٠٠	٦ - المستوردات المصرية
٧٢٪	جنيه	٧٢٩٠٠٠	٧ - المستوردات الفلسطينية
١٣٪	جنيه	١٣٣٠٠٠	٨ - المستوردات الهندية
٠٢٧٪	جنيه	٢٨٠٠٠	٩ - المستوردات اليابانية
١٣٥٪	جنيه	١٣٨٩٠٠٠	١٠ - المستوردات من باقي البلدان

وذلك من مجموع المستوردات لعام ١٩٤٨ البالغة ١٠٢٨٤٠٠٠ جنيه فلسطيني (١٧) •

٥ - العجز في الميزان التجاري

مما مر يمكن ان نلاحظ ان اهم سمات التجارة الخارجية الاردنية ، انها كانت تجارة استيراد ، وانها كانت ابعد ما تكون عن التوازن مع مرور السنوات • ففي عام ١٩٣٧ حين كانت المستوردات توازي ١٠٥٠٠٠٠٠ جنيه ، كان العجز التجاري يفوق قيمة نصف المستوردات • وانذاك كان حجم الاعتماد على السلع المستوردة ضئيلا بالاجمال • فالبنية الاقتصادية للسكان كانت ما تزال تتسم بطابع الكفاف والاكتفاء الذاتي الى حد كبير ، ولذا كان نموذج استهلاكها محدود وبسيط • ولم تكن التجارة قد نقلت السكان اكثر فاكثر نحو الاقتصاد السوقي ، هذا الامر الذي حدث ابان الحرب الثانية وبعدها ، حين اتجهت وتيرة الاعتماد على الاستيراد والسوق الخارجي تجنح بسرعة كبيرة جدا قياسا بنمو الانتاج المحلي والصادرات المحلية معا • وهكذا باتت قيمة

(17) Ibid. p. 49.

المستوردات في عام ١٩٤٩ توازي اثنتي عشر ضعفا من قيمة الصادرات . بعد ان كانت توازي عام ١٩٣٧ ضعفا واحدا من الصادرات .

كانت مسؤولية العجز المتزايد في الميزان التجاري الاردني نتيجة تفاقم الفروق بين وتيرتي تطور الانتاج والصادرات المحلية البالغة البطء . وتطور نمو المستوردات الخارجية (لحساب القطاع المدني والادارة العامة والجيش والخدمات) السريعة جدا . الامر الذي جعل التجارة الخارجية صورة عن التطور المشوه والضعف المزدوج في الاقتصاد المحلي ، وكمنظور لانفصال قطاعات الاقتصاد عن بعضها البعض ، ولنموها المتفاوت وغير المنسجم .

لقد تراوح العجز في الميزان التجاري الاردني في السنوات ١٩٤٩/٣٧ بين نسبة ٣٨٪ و ٨٥٪ عن حجم التجارة الخارجية . وكانت تسوية هذا العجز تتم بواسطة المساعدات المالية الخارجية ، ومن الدخول غير المنظورة مثل تجارة التهريب . ان الجدول رقم « ٣ » يظهر ارقام التجارة الخارجية الاجمالية والعجز في الميزان التجاري في السنوات ١٩٤٩/٣٧ .

جدول رقم « ٣ »

قيمة صادرات وواردات شرق الاردن وقيمة العجز التجاري (١٩٤٩/٣٧)
(١٨) (بالآلاف الجنيهات الفلسطينية)

السنة	الواردات	الصادرات الوطنية	بضائع معاد تصديرها	الميزان التجاري
١٩٣٧	١٠٥٠	٥١١	١٥	- ٥٢٤
١٩٣٨	١٢٢٩	٤٧٢	٩٣	- ٦٦٤
١٩٣٩	١٢٩٥	٥١٧	٦٣	- ٦١٥
١٩٤٠	١٦٧٢	٧٧٠	٧٥	- ٨٢٧
١٩٤١	٢٣٧٣	٥٩٠	٣٥٩	- ١٤٢٤
١٩٤٢	٢٠٨٣	٧٤٤	٢٩٥	- ١٠٤٤
١٩٤٣	٢٢٩٢	١٩٨٨	٣٠٥	+ ٤٦
١٩٤٤	٢٩٨٦	١٤٥٧	٣٣٦	- ١١٩٤
١٩٤٥	٤٥٦٨	٢٠٤٩	٧٨٤	- ١٧٣٥
١٩٤٦	٦١١٧	٢٠٤٤	٣٣٦	- ٣٧٣٧
١٩٤٧	٦١٣٤	٥٠٦	٣٦٥	- ٥٢٥٣
١٩٤٨	١٠٢٨٤	٧٢٨	١٧٨٤	- ٧٧٧٢
١٩٤٩	١٢٧٤٤	١٠٥٣	٢٣٥٢	- ٧١٨٦

٦ - المؤسسات التجارية والمالية ، ودورها الاقتصادي الداخلي :

كانت التجارة في مطلع العشرينات مقتصرة على بعض المدن الرئيسية ، وكانت في الغالب في أيدي مواطنين سوريين وفلسطينيين متوطنين في البلاد منذ العهد العثماني . وقد اقتصر على استيراد المواد الضرورية لمجتمع معيشي محدود الحاجات ، وذلك من سورية وفلسطين والعراق ، وأحياناً من مصر وأوروبا . كما كانت الحاصلات الزراعية ، ولا سيما الحبوب بالإضافة إلى الحيوانات الحية هي الصادرات الرئيسية للأردن . لم تكن هناك تجارة كبرى ولا شركات تجارية آنذاك (١٩) .

لكن توسع بضعة مدن ولا سيما عمان ، وازدياد أهمية ودور الدولة ، وقيام المشاريع الكولونيالية ، والانفتاح على السوق العالمي ، هذه العمليات التي ترافقت مع إجراءات أخرى ساعدت على ازدياد الطابع البضاعي للاقتصاد وعلى قيام سوق محلية ، وعلى نشوء وتطور المؤسسات القائمة على التبادل البضاعي والسوقي . ولقد اتخذت هذه العملية طابعاً متسارعاً في السنوات القليلة التي سبقت الحرب العالمية الثانية وإبانها ثم واصلت تطورها بوتائر متعاضمة في سنوات الحرب الفلسطينية . فباتت عمان « قبلة أنظار التجار ، من البلاد العربية المجاورة ، وذلك لعدم وجود قيود صارمة على الاستيراد وتحويل العملات الأجنبية » (٢٠) . كما ساعد على تنامي التجارة ، ازدياد ترابط شرق الأردن بالبلدان المجاورة ، وشق طريق جيفا - بغداد ، وازدياد أهمية البلاد كعقدة للمواصلات البرية وكبمر لتجارة الترانزيت ومع ازدياد الإنفاق العسكري والمدني إبان الحرب .

وكما ذكرنا فإن الصفة الأكثر جوهرية للتجارة الأردنية هو كونها تجارة استيراد ، ويفسر هذا الواقع المستوى المنخفض للإنتاج المحلي من جهة ، وتنامي احتياجات قطاع الدولة والجيش والمراقق الكولونيالية ، ونمو المدن في شكل طفرات ليس لها علاقة بالاقتصاد التقليدي للسكان ، ولا بالاحتياجات المحلية البحتة لهم . ولقد اتسع نطاق انتشار المؤسسات العاملة في التجارة ، بفضل تنامي وتيرة اعتماد الدولة والجيش والمشاريع الكولونيالية على السلع المستوردة . ثم لم تلبث تجارة الاستيراد نفسها أن امتدت لتصل إلى المدن

(١٩) راجع المحافظة ، على ، تاريخ الأردن المعاصر ، عهد الامارة (عمان ، ١٩٧٢) ص ١٢٧ .

(٢٠) المصدر نفسه ، ص ١٢٧ ، كذلك راجع الدجاني ، علي ، محاضرات ، في اقتصاديات الأردن (القاهرة ، ١٩٥٤) ص ٢١/٢٠ .

الصغيرة والارياف ، ومع تنامي الاعتماد على السلع المنتوردة نشأت المؤسسات التجارية الصغيرة ومحال البيع في المفرق ، وتنامي عددها مرات عديدة خلال الحرب الثانية وبعدها .

ومن بين ١١ شركة مسجلة في البلاد قبل عام ١٩٢٠ ، كانت ٩ شركات منها تتعاطى اعمال التجارة ويفوق رأس مال كل واحدة عن مليون دينار . وكما يظهر الجدول رقم « ٤ » فان مجموع رؤوس اموال الشركات التجارية التسع قد بلغ ١٠٩٣٩٨٥٠ دينار . في حين كانت الشركتان الباقيتان ، وهما تتعاطيان اعمال التعهدات ، ذات رؤوس اموال تافهة لا تتجاوز ٧٠٠٠ دينار .

كما نجد ان ١٥ شركة من مجموع الشركات المسجلة في الاردن بين عامي ١٩٣٠ و ١٩٣٥ وباللغة ١٩ شركة ، كانت تتعاطى اعمال التجارة برأسمال قدره ١٥٢٧٤٢٣ دينار . واذا ما وضعنا جانبا الشركة الوحيدة للتعهدات التي قامت برأسمال ضخم بلغ ١٠٦٢٥٠٥٠ دينار ، فان الشركات التجارية ظلت تحتل الحصة الاعظم من عدد الشركات المسجلة ، كما كانت تحوز على القسم الاعظم من رؤوس اموالها .

وفي السنوات التي سبقت الحرب الثانية (١٩٤٠/٣٥) سجلت في البلاد ٣٠ شركة صغيرة ومتوسطة تتعاطى اعمال التجارة ، شكلت بدورها القسم الاعظم من الشركات المسجلة في البلاد ، وكانت برؤوس اموال لم تتجاوز ٥٨٦٢٠ دينار . والى جانبها قامت شركة لاعمال التأمين برأسمال كبير بلغ ١٠٠ الف دينار ، وشركة اخرى للتعهدات برأسمال قدره ٥٠١٠٠ دينار ، كما شهدت هذه الفترة نشوء ست شركات صناعية برؤوس اموال بلغت ١١٦٨٠٠ دينار . وما من شك في ان هذه الفترة كانت تظهر ركودا تجاريا وضاللة مكانة الشركات المسجلة في الاعمال التجارية مقارنة بالمؤسسات الصناعية التي بلغت نسبة رؤوس اموالها ٣٤٪ من مجموع رؤوس اموال الشركات المؤسسة في هذه الفترة . لكن ظلت الشركات التجارية تشكل من حيث العدد الحصة الغالبة بالنسبة الى مجموع الشركات ، اي ٧١٪ .

كانت سنوات الحرب الثانية وما بعدها فترة ازدهار التجارة والنشاط التجاري في الاردن . فقد بلغ عدد الشركات التجارية المسجلة في الاعوام ١٩٤٠/١٩٤٥ ، ٦٦ شركة من مجموع ٨٣ شركة مسجلة في هذه الفترة ، اي انها شكلت ٧٩٪ منها . وبلغت حصتها من رؤوس اموال الشركات المسجلة ٧٥٪ .

جدول رقم « ٤ »

الشركات المسجلة في الأردن حسب اعمالها وتاريخ تأسيسها كما هي في
(٢١) ١٩٥٠ / ١٢ / ١٦

تأسست بين سنة ١٩٥٠ / ١٩٤٥	تأسست بين سنة ١٩٤٥ / ١٩٤٠		تأسست بين سنة ١٩٤٠ / ١٩٣٥		تأسست قبل سنة ١٩٣٥ / ١٩٣٠		تأسست قبل سنة ١٩٣٠		نوع الشركة
	العدد	مجموع رؤوس أموالها بالدينار	العدد	مجموع رؤوس أموالها بالدينار	العدد	مجموع رؤوس أموالها بالدينار	العدد	مجموع رؤوس أموالها بالدينار	
١٢,٧٧٢,٣٥٥	٢٢٤	٥٩٢,٦١٠	٢٠	٥٨,٦٢٠	١٥	١,٥٢٧,٤٢٣	١٠	١٠,٩٢٦,٨٥٠	شركات أعمال تجارية
١١٠,٠٠٠	٧	١٩,٠٠٠	-	-	١	٤,٥٠٠	-	-	شركات تأمين
١٢,٣٩٨,٦٦٥	٦	-	١	١٠٠,٠٠٠	-	-	-	-	شركات تأمين
١٣,٣٠٥	٥٢	١١٥,٠٠٠	٢	١٨,٦٠٠	٢	١,٦٢٥	-	-	شركات سياحة وسفر
٢٤٩,٤٠٠	١٥	٢٠,٠٠٠	١	٥٠,٦٠٠	١	١٠,٦٢٥,٠٠٠	١	٧,٠٠٠	شركات تعهدات
١,٨٠٠	٧	-	١	٢٤٠	١	-	-	-	شركات طباعة ونشر
١١,٨٠٠	٧	-	-	-	-	-	-	-	شركات قناتق
٤,٥٠٠	٧	٥٠٠	١	-	-	-	-	-	شركات لخدمات حسابات
٢,٤٦١,٠٠٠	٢٤	٢٣,٠٠٠	٢	١١٦,٨٠٠	-	-	-	-	شركات صناعة
٢٨,٦٢٥,٤٢٥	٢٤١	٧٨١,٦١٠	٨٢	٢٢٢,٦٢٠	٤٢	١٢,١٥٨,٩٨	١٩	١٠,٩٤٦,٨٥٠	المجموع

(٢١) راجع : النشرة الإحصائية الأردنية لعام ١٩٥٠ ، العدد الاول (عمان ، ١٩٥١)
بيان ٨٤ ، ص ١٥٧ .

وفي الاعوام ١٩٤٥/١٩٥٠ التي شهدت نهاية الحرب الثانية واندلاع الحرب الفلسطينية بنتائجها الوخيمة وما سببته من هجرة ونزوح ، فقد افسحت المجال امام انتعاش التجارة واعمال التعهدات والتأمين وشركات النقل والى حد ما الصناعة . فمن مجموع الشركات المسجلة في هذه الفترة وعددها ٣٤١ شركة كانت ٢٣٤ شركة منها تعمل في التجارة ، اي بنسبة ٦٨٫٦٪ منها . وقد بلغت رؤوس اموالها ١٢٧١٢٣٥٥ دينار ، اي ما نسبته ٤٤٫٤٪ . اما الشركات التي تتعاطى اعمال التأمين وعددها ست شركات ، فقد كانت ذات رؤوس اموال ضخمة تفوق المليوني دينار لكل منها وكانت حصتها من مجموع رؤوس اموال الشركات المسجلة لهذه الفترة توازي ٤٣٫٣٪ . في حين لم تتجاوز حصة رؤوس اموال الشركات الصناعية (وعددها ٢٤ شركة) عن ٨٫٣٪ .

وفي نهاية المرحلة التي ندرسها ، اي في عام ١٩٥٠ ، نجد انه من بين ٤٩٦ شركة مسجلة في البلاد كانت ٣٥٤ شركة منها تعمل في التجارة ، اي ما نسبته ٧١٫٣٪ منها . وكانت رؤوس اموالها توازي ٢٥٨٣٢٢٨٥٨ دينار ، اي نحو ٤٩٪ من مجموع رؤوس اموال الشركات المسجلة في نهاية عام ١٩٥٠ . والى جانب الشركات التجارية كانت شركات التأمين وعددها ٧ شركات تحظى بالحصة الثانية من مجموع رؤوس اموال الشركات المسجلة ، فقد بلغت ١٢٤٩٨١٦٥ دينار او ٢٣٫٦٪ منها . ثم بعد ذلك تأتي الشركات العاملة في اعمال التعهدات وعددها عشرون شركة برؤوس اموال ١١٠٥١٠٥٥٠ دينار . اما بلغت نسبتها ٢١٪ من مجموع رؤوس اموال الشركات في نفس العام . اما الشركات الصناعية وعددها ٣٣ شركة فلم تتجاوز رؤوس اموالها عن ٢٥٥٩٩٠٠ دينار او ما نسبته ٦٫٦٪ من مجموع رؤوس اموال الشركات في الاردن .

اما بالنسبة لتوزيع الشركات حسب حجم رؤوس اموالها ، فنجد انه من بين ٥١ شركة يزيد حجم رأس مالها عن ٥٠ الف دينار كانت ٢٩ شركة منها تعمل في التجارة ، اي ٥٧٪ منها ، وكانت ست شركات من بين سبع شركات تعمل في التأمين ، يزيد رأسمالها عن ٥٠ الف دينار ومن بين ١٩٩ شركة كانت تتراوح رؤوس اموالها بين ١٠ الاف و ٥٠ الف دينار كانت ١٥٣ شركة منها تعمل في التجارة اي بنسبة ٧٦٫٨٪ منها . (راجع الجدول رقم « ٥ ») .

جدول رقم « ٥ »

الشركات المسجلة في الاردن حسب اعمالها ورؤوس اموالها كما هي في
١٦/١٢/١٩٥٠ (٢٢)

نوع الشركة	مجموع الشركات المشغلة بالصفحة	مجموع رؤوس الاموال بالدينار	مجموع عدد الشركاء	عدد الشركات بحسب رؤوس الاموال (بالدينار)				
				اقل من ١٠٠٠٠	من ١٠٠٠٠ الى ١٠٠٠٠٠	من ١٠٠٠٠٠ الى ١٠٠٠٠٠٠٠	من ١٠٠٠٠٠٠ الى ١٠٠٠٠٠٠٠٠	من ١٠٠٠٠٠٠٠ الى اكثر
شركات اعمال تجارية	٣٥٤	٢٥٨٢٢٢٨٥٨	١٢٣٦	٣٠	٨٧	٥٥	١٥٧	٢٩
شركات نقل وسفر	٦٨	٧٦٠٥٣٠	٢٨٢	٢	٢٦	١٦	٢٥	٤
شركات تعهدات	٢٠	١٦٠٠١٦٥٠٠	٩٧	٤	٤	٥	٧	٤
شركات طباعة ونشر	٣	٢٠٤٠	٦	١	١	—	—	—
شركات لطاق	٧	١١٨٠٠	٦	١	١	—	١	—
شركات سبنا	٥	١٢٣٥٠٠	٢٨	—	٢	—	٢	١
شركات تأمين	٧	١٢٤٩٨١٦٥	٧٧	—	٢	—	١	٦
شركات لخصر حمايات	٤	٥٠٠٠	١١	٢	٢	—	—	—
شركات صناعية	٢٣	٢٠٥٩٩٠٠	١٦٨	١	٨	٧	١٠	٧
المجموع	٤٩٦	٥٢٨٥٥٢٤٢	١٨٧٧	٣٧	١٢٦	٨٣	١٩٩	٥١

كان اهم البنوك العاملة في البلاد بلا منازع هو البنك العثماني وهو بنك بريطاني ، قام بدور البنك الحكومي المركزي والبنك التجاري معا ولم يكن في البلاد بنك سواه قبل عام ١٩٢٥ ، والى جانبه فتحت فروع للبنوك الوطنية في فلسطين وهي البنك العربي وبنك الامة العربية في كل من عمان واربد (٢٢) وكان المصرف الزراعي براسماله الصغير قد تأسس عام ١٩٢٢ ، يقدم القروض للفلاحين ، وخصصت له منذ عام ١٩٢٢ مبالغ سنوية (٣٥٠٠ جنية فلسطيني) تدفع من خزانة المالية ، وكان يدير المصرف مجلس ضم وكلاء وزارات المالية والزراعة والداخلية وممثلين عن دائرة الاراضي وغرفة التجارة والمزارعين (٢٤) لكن دوره وتأثيره في حماية الفلاحين من المرابين والتجار كان محدودا (٢٥)

وقد عمل في قطاع التجارة كما في قطاع المال والتأمين عدد من الشركات الاجنبية او فروعها

(٢٢) راجع : النشرة الاحصائية الاردنية ، المصدر نفسه ، بيان ٨٥ ، ص ١٥٨

(٢٣) راجع الدجاني ، على ، المصدر نفسه ، ص ٢٢ . راجع أيضاً كونيكوف ، المصدر نفسه ص ٦٣

(٢٤) راجع ، المحافظة ، على ، المصدر نفسه ، ص ١٢٥

(٢٥) راجع ، القسم الثالث من هذه الدراسة والمتعلقة بالاقتصاد التقليدي (الزراعة والرعي)

٧ - المؤسسات التجارية الصغيرة

تحت تأثير التجارة الخارجية ، وبفضل الانفاق الداخلي المتزايد للدولة والجيش والمشاريع المرتبطة بالمصالح البريطانية الاستراتيجية والعسكرية ، ومع اتساع نطاق الفئات الاجتماعية المعتمدة على دخول نقدية ، تزايدت فرص نمو التبادل البضاعي الداخلي وازداد عدد مؤسسات التجارة المتوسطة والصغيرة . وفي الواقع كانت المؤسسات التجارية الصغيرة ومحلات تجارة الجملة والمفرق وحوانيت البقالة هي اداة تجارة الاستيراد في غزو الريف والمدن الصغيرة ، ويفضلها اتسع نطاق السوق المحلي وزادت وتيرة ربط الاقتصاد التقليدي به ، وبالتبادل البضاعي النقدي . وقد جذبت فرص نمو التجارة الداخلية والتبادل البضاعي الصغير مواطنين عربا جددا من فلسطين وسورية ، كما انخرط في هذا العمل ابناء الاقليات القومية والدينية ولا سيما اiban الحرب الثانية وبعدها . وقد ساعدت نتائج الحرب الفلسطينية على اتساع نطاق التجارة الصغيرة في المدن ، حيث لم يكن هذا النمط من المؤسسات التجارية يحتاج الى رؤوس اموال او تجهيزات كبيرة . ان الجدول رقم « ٤ » (في القسم الخاص بالصناعة والحرف) يظهر انه من بين ٥٦٩ مؤسسة ذات عمل يدوي (غير الي) في البلاد (عام ١٩٥٠) كان ١٣٩١ مؤسسة منها تعمل في تجارة المفرق ، اي ٢٥٪ منها تقريبا . بالاضافة الى ٢٧٧ مؤسسة تعمل في تجارة الجملة ، اي ٥٪ منها ، اما محلات البقالة فقد شكلت النسبة الاعظم من المؤسسات اليدوية ، اذ بلغ عدد البقاليات ٢٢٩٧ مؤسسة ، اي ٤١٫٢٪ منها . ان الجدول المذكور يظهر نموا سافرا لاعتماد غالبية المؤسسات البضاعية الصغيرة والمتوسطة على التجارة الخارجية ، او الاستيراد بشكل رئيسي . كما يظهر ان القسم الاعظم من الاقتصاد البضاعي في المدن هو اقتصاد غير منتج ، فهو قطاع التجارة الصغيرة اولا وقطاع خدماتي ثانيا .

ونظرا لان عمان كانت مركز النشاط التجاري والخدمات والدوائر الحكومية ، فقد حظيت بحصة الاسد من هذه المؤسسات والمحلات . ففي قضاء العاصمة عمان كان ٤٥٫٥٪ من محلات تجارة المفرق و ٧٢٫٢٪ من مجموع مؤسسات تجارة الجملة و ٣٣٫٦٪ من البقاليات .



وينضح اثر التجارة الخارجية على الاقتصاد المحلي للسكان ، من واقع ان الاردن كان اكثر بلدان المنطقة اعتمادا على السلع المستوردة . وحتى في سنوات ما قبل الحرب ، اي ١٩٣٩/٣٧ حين كان المتوسط السنوي للمستوردات

هو ١٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠ جنية فلسطيني ، كان معدل الفرد الاردني من المستوردات يوازي حوالي ٤ جنيهات مقابل ٢٢٢ جنية للفرد في مصر و ٢٨٨ دينار عراقي للفرد في العراق و ٣ - ٣٥ جنية استرليني للفرد في لبنان وسورية و ٤٩ جنية للفرد العربي في فلسطين (٢٦) ، اي ان حصة الفرد في الاردن من المستوردات كانت اعلى مما هي حصة الفرد في غالبية اقطار المشرق العربي . وقد ارتفعت هذه الحصة الى معدل يتراوح بين ٥ و ٦٥ جنية فلسطيني للفرد الاردني في مطلع الاربعينات (٢٧) .

على انه ينبغي الاخذ بالاعتبار ان هذه الارقام تعتبر مضللة اذا لم يؤخذ الى جانبها واقع ضالة حصة الفرد الواحد من العملة المتداولة وكانت توازي ١٣٣ جنية فلسطيني لعام ١٩٣٩/٣٨ ، (٢٨) وكذلك انخفاض مستوى دخل الفرد الاردني حيث كان يوازي ١٢٢ جنية لعام ١٩٣٥/٣٤ مقابل ٢٨٨ جنية مصري للفرد في مصر و ٤٩٩ جنية فلسطيني للفرد في فلسطين (٢٩) . فمن هذه المعايير يتضح ان ارتفاع معدل حصة المستوردات عند الفرد الاردني يعود اساسا الى ارتفاع اعتماد قطاع الدولة والجيش والمشاريع الكولونيالية على الاستيراد ، كذلك القطاع المنتفع من العمل فيها او حولها في المدن . كما يتضح انه حتى القطاع التقليدي من السكان ولا سيما الفلاحون قد اخذ يعتمد على الاستيراد في تأمين حاجاته بما يفوق دخله الحقيقي ، اي اعتمادا على الدين ، مما كان يضطر الفلاحين الى رهن اراضيهم ومن ثم فقدانها لصالح المرابين والتجار .

٢ - الادارة العامة والدفاع

١ - المساعدات المالية البريطانية ووجهتها

منذ شرع الامير عبد الله في تأسيس اول حكومة مركزية في شرق الاردن ، كانت المساعدة المالية البريطانية المصدر الاول لدخل الادارة . وقد قررت هذه المساعدة المالية الخارجية ، باهدافها وبالشروط التي ارتبطت بها ، علنا وضمنا ، بوجوه صرفها ، ان اتفاق الدولة سيتجاوز قدرات دخلها المحلي . واعطت هذه المساعدة الخارجية دورا مضخما للدولة يتجاوز

(٢٦) راجع هرشلاغ ، مصدر مذكور انفا ، ص ٣٤٤ .

(٢٧) راجع كونيكوف ، المصدر السابق نفسه ، ص ٦٥ .

(٢٨) راجع هرشلاغ ، المصدر نفسه ، ص ٣٢٢ .

(٢٩) راجع المحافظة ، على ، المصدر نفسه ، ص ١٢٧ .

الاحتياجات المتواضعة لبلد له شروط وظروف شرقي الاردن . ويتسم بدرجة متدنية من التطور الانتاجي . وهكذا اتسم دور الدولة في الاردن بتسورم مرضي ، فهو قد اكتسب نموا متعاضما على الصعيد المحلي بفضل المهمة التي اضطلعت بها الدولة في المنطقة . كاحدى ادوات حماية التقسيم الامبريالي . وتأمين الاستيطان الصهيوني في فلسطين ، وكان دور الدولة الامني الداخلي ينطلق من اعتبار هذا الامن شرطا لحماية الامن الامبريالي للمنطقة .

بات من المحتم ان تحدث المساعدة المالية الخارجية للدولة والجيش اختلالا متزايدا في التركيب الاقتصادي المحلي ، وان تترك بالتالي اثارا اجتماعية ضارة جدا ، فالمساعدة المالية البريطانية ، وهي تكتسب دورا مقروا اكثر فاكثرا . اعطت الدولة والجيش مكانة اقتصادية متنامية ، ان جعلت منها قطاعا موظفا للقوة العاملة ، واهم من ذلك ، جعلت من الدولة مركزا للنشاط والفعالية الاقتصادية ، فالتمويل الخارجي الذي صب في جهاز الادارة والجيش ، اعطاه القدرة الكافية على خلق قطاع خدمات محيط به ، وعلى تنشيط المشاريع والخدمات المرتبطة بمشاريع الدولة والمصالح الكولونيالية في البلاد . وكانت موارد الدولة الخارجية هي العامل الحاسم في تنمية الاقتصاد وفي خلق نواة اقتصاد سوقي مرتبط بالسوق العالمي ، وفي زيادة الطابع البضاعي للاقتصاد ، وفي تنشيط العلاقات البضاعية والراسمالية في البلاد ، بالمقارنة مع نتائج التطور الفعلي للانتاج المحلي وانتقال الاقتصاديات المحلية من طابعها المعيشي - الطبيعي الى اقتصاد بضاعي .

وفي ظل المصاعب التي عانى منها مختلف قطاعات الانتاج المادي في البلاد ، فقد اكتسب قطاع الادارة العامة والدفاع (الجيش) دورا متعاضما الهمية من الوجة الاقتصادية المحلية ، ولم يلبث ان لعب هذا القطاع الدور المقرر والموجه لتطور الاقتصاد المحلي برمته .

ازداد حجم الاعتماد على المساعدة المالية البريطانية ، اثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها ، ان ازدادت حاجة السلطات الكولونيالية لرفع عدد القوات المحلية ولإقامة عدد من المشاريع الضرورية ، حتى ارتفعت حصة الانفاق العسكري في البلاد بالنسبة الى مجموع نفقات الدولة ، والى مجموع المعونة المالية البريطانية . فالانفاق على القوات العسكرية الذي كان يوازي ٢٨٪ من نفقات الدولة لعام ١٩٢٤ ، ارتفع ليصل الى ٣٦٪ عام ١٩٣٧/٣٦ ، ثم تضاعف ليصبح ٧٤٪ من نفقات الدولة العامة لعام ١٩٤٦/٤٥ (١) .

(١) راجع المحافظة ، على ، «العلاقات الاردنية - البريطانية» دار النهار (بيروت ، ١٩٧٢) ص ٩٨ .

ورغم تحفظنا على مثل هذه المقارنات بالنظر الى ان الانفاق البريطاني على الجيش المحلي لم يكن يدخل ضمن النفقات العامة للدولة حتى سنوات متأخرة ، الا انه لا يراودنا الشك في ان الجيش والاعراض العسكرية كانت تحظى بحصة متزايدة ورئيسية من الموازنة ومن المساعدة المالية البريطانية سنة بعد اخرى (٢) .

اكثر من ذلك ، فان هناك اعتقادا سطحيا يرى ان الاردن كان بلدا ممولا من الكولونيات البريطانية اكثر مما هو بلد مستنزف ، اي انه كان « يستفيد » من الدور الموكل الى الدولة من قبل الكولونيات البريطانية ، غير ان هذا الاعتقاد ليس صحيحا ، اذا ما جرى التدقيق في اوجه الانفاق بالمقارنة مع الموارد المحلية والخارجية ، والواقع ان الوطنيين الاردنيين قد لاحظوا مبكرا ان الانفاق على الجيش وعلى الاعراض الكولونياتية كان يستنزف ليس فقط الحصنة العظمى من المعونة البريطانية ومن النفقات العامة للدولة ، بل ايضا حصة تزيد او تقل من سنة الى اخرى من الواردات المحلية للدولة الممولة اساسا من التحصيلات الضريبية المباشرة وغير المباشرة . اي ان المواطنين الاردنيين كانوا يمولون جزءا من اعباء الجيش والنشاط الكولونياتي المعادي لهم والموظف في خدمة الامبريالية البريطانية . وقد تركزت الاحتجاجات الحادة في وقت من الاوقات على هذا الجانب في مراسلات زعماء الحركة الوطنية والمعتمد البريطاني في عمان ، كما اشارت لها بيانات المؤتمرات الوطنية (٣) لدرجة

(٢) راجع هرشلاغ ، مصدر مذكور آنفا ، ص ٣٢٢/٣٢١ .

(٣) قال « بيان المؤتمر الاردني الاول » المنعقد في عمان ، في ٢٥ تموز ١٩٢٨ : « ٠٠٠ وقد ضاعف النكبة نهج دار الاعتماد في السياسة المالية منهج تضخيم الميزانية بارهاق المكلف الاردني بالضرائب الفاحشة لاعالة ضباط قوة الحدود والموظفين البريطانيين ودار الاعتماد وتشكيلات المراقبة المالية برواتب ومخصصات باهظة مع السعي بشتى الوسائل للاستغناء عن المساعدة المالية الانجليزية عن عاتق المكلف البريطاني على حساب المكلف الاردني الفقير ، في الوقت الذي أصبحت فيه هذه الاعانة تنفق مع اضعاف اضعافها من خزانة البلاد على موظفين بريطانيين ومصالح بريطانية محضة ، بحيث قد أصبح بذلك على شرقي الاردن الضعيفة الغرم ولبريطانيا العظمى الغنم ، مما لم يسمع به قبليه في تاريخ الاستعمار الحديث » .

كما أعلن الميثاق الوطني الذي اقره المؤتمر الاردني الاول عن رفض « شرق الاردن تحمل نفقات اي قوة احتلالية اجنبية وتعتبر كل مال يفرض عليها من هذا القبيل مالا مغتصبا من عرق عاملها المسكني وفلاحها البائس » و اضاف « ترى شرق الاردن مواردها ، اذا منحت حق الخيار بتنظيم حكومتها المدنية ، كافية لقيام ادارة دستورية صالحة فيها . اما الاعانة المالية التي تدفعها الحكومة البريطانية فان بلاد شرق الاردن تعتبرها نفقات

القول أن حجم الانفاق على الجيش ونفقات المعتمد البريطاني كانت تزيد على قيمة المعونات المالية البريطانية المقدمة للحكومة الاردنية (٤) . وكان هذا الى جانب اسباب اخرى ، موضوع سخط المواطنين واحد حوافز نقيمتهم ودافعوا من دوافع النضال ضد السيطرة البريطانية .

ومن نافل القول الاشارة الى ان تزايد الاعتماد على الدعم المالي البريطاني ، كان يترافق مع تزايد الخضوع للاشراف الكولونيالي البريطاني ، ماليا واداريا وعسكريا على الدولة والجيش ، من قبل رجال الكولونيالية البريطانية ومن عملائها وموظفيها المحترفين (٥) .

ان الجدول رقم «١» يظهر ارتفاع نسبة مساهمة المساعدة البريطانية المالية الى مجموع موارد الموازنة العامة من ٢٧٪ للعام ١٩٢٥/٢٤ الى ٧٥٪ عام ١٩٤٤/٤٣ .

اما عام ١٩٤٥/٤٤ ، حين بلغت مجموع الواردات الحكومية ٣١٧٣٥٥ر٣٠٠ جنيها ، فقد كانت المساعدة البريطانية المالية ٢٤٠٣٣٩٠ر٢٤٠ جنيها ، اي ثلث ١٧٪ من الواردات الحكومية وكذلك هو الحال في العام التالي ١٩٤٦/٤٥ ، حيث كانت توازي ٢١١٨٣٢٠ر٢١١٨ جنيها منها ٢٢٨٥٠٤٣ر٢٢٨٥٠٤٣ مساعدة مالية بريطانية ، او ما نسبته ٧٣٪ من واردات الموازنة الاردنية (٦) .

»»»

ضرورية لخطوط المواصلات الامبراطورية وللقوى العسكرية المعسدة لخدمته ، مصالح البريطانية ليس الا ، لذلك فان هذه الاعانة التي تضاف اليها اليوم قسم من واردات البلاد تحقيقا لغايات لا مصلحة لشرقي الاردن فيها ، كما هو الواقع ، لا تخول بريطانيا العظمى حق الاشراف على مالية شرق الاردن ، هذا الاشراف المركزي الضار الواقع اليوم ، ولهذا فاننا نعتبر الوضع المالي الحاضر المبني على سياسة تخفيف الاعانة المالية على عاتق المكلف البريطاني على حساب المكلف الاردني عبارة عن وضع ضار غير مشروع لانتحمله موارد البلاد ، ومن الواجب ابطاله واستبداله بنظام يؤيد استقلال حكومة شرقي الاردن المالي ، مقررين ان التصرف المالي الحاضر لا يجوز صدوره عن حليفة غنية كبريطانيا بالنسبة لبلد فقير كشرقي الاردن

راجع : « ماذا ترك الامير للاساطير » (١٩٢٨) صادر عن مكتب الدعاية والنشر للقضية الاردنية ، ص ٥٦/٥٥ ، وص ١٢٠/١٢٩ . راجع ايضا الماضي وموسى ، تاريخ الاردن في القرن العشرين ، مصدر مذكور انفا ، رسالة رئيس المؤتمر الوطني للمعتمد البريطاني في عمان ، ص ٢٩٧/٢٩٩ .

(٤) راجع المحافظة ، على ، العلاقات الاردنية البريطانية ، ص ٩٢ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٥٢/٥١ ، كذلك الماضي وموسى ، ص ٢٦٦/٢٦٣ .

(٦) المحافظة ، المصدر السابق ، ص ٩٤ .

جدول رقم (١)

ملخص واردات ونفقات الحكومة الاردنية بالدنانير الفلسطينية (١٩٢٤-١٩٤٤)

النفقات			الواردات			
المجموع	غير العادي	الانفاق العادي	المجموع	الدعم المالي الخارجي	الواردات المحلية	السنة
٣٢١,١٢٠	٢٠,٨٣٤	٣٠٠,٢٨٦	٣٢١,٣٢٩	٨٩,٠٧٩	٢٣٢,٢٥٠	٢٥/٢٤ الى
٣٦٩,٣٩٥	٤٠,٩٧٠	٣٢٨,٤٢٥	٣٧٧,٥١٧	١٠١,٢٥٩	٢٧٦,٢٥٨	١٩٣٤/٣٣
٢٨١,٣٠٠	٢٧,٤٩١	٢٥٣,٨٠٩	٢٩٥,٦٣٠	٨١,٧٨٣	٢١٣,٨٤٧	١٩٣٥/٣٤
٤٣٥,٠٤٠	٧٧,٦١٠	٣٥٧,٤٣٠	٤١٨,٦٥٠	١٣٠,٥١٠	٢٨٨,١٤٠	١٩٣٦/٣٥
٤٦٢,٧١٠	٩٧,٤٢٦	٣٦٥,٢٨٤	٤٥٩,١٥٠	١٠٠,٩٩٠	٣٥٨,١٦٠	١٩٣٧/٣٦
٧٧٥,٤٣٤	٢٣٤,٢٩٦	٤٤١,١٣٨	٧٤٣,٣٣٧	٤٠٤,٠٠٥	٣٣٩,٣٣٢	١٩٣٨/٣٧
٨٦٦,٣٢٥	٢٤٧,٦٣٦	٥١٨,٦٨٩	٨٤٤,٠٤١	٤٦٥,٢٠١	٣٧٨,٨٤٠	١٩٣٩/٣٨
١,٢٢٧,٢٧٧	٦٤٥,٧٦٠	٥٨١,٥١٧	١,١٩٨,٦٦٩	٨٠٩,٢١٤	٣٨٩,٤٥٥	١٩٤٠/٣٩
١,٢٤٦,٣١٤	٦٨٣,٢٠١	٨٦٣,١١٣	١,٢٨٣,٧٨٠	٨٥٠,٣٣٣	٤٣٣,٤٤٧	١٩٤١/٤٠
١,٧٣٥,٥٣٨	٤٩١,٩٩٠	١,٢٤٣,٥٤٨	١,٦٩٢,٧٣٢	١,٢٤٥,٠١٣	٤٤٧,٧١٩	١٩٤٢/٤١
٢,٦١٩,٧٥٧	٣٩٨,٦٧٨	٢,٢٢١,٠٧٩	١,٦١٢,٩٥٧	١,٩٦٧,٣٢٤	٦٤٥,٦٣٣	١٩٤٣/٤٢
						١٩٤٤/٤٣

٢ - الواردات المحلية ومصادرهما

اعتمدت موارد الحكومة المحلية على الضرائب والجمارك والمكوس والرسوم وعائدات البريد والبرق ، وعلى مدخولات متنوعة اخرى . وكانت عائدات الرخص والضرائب المباشرة (ضريبة الارض والمواشي ، الابنية والاراضي وضريبة الدخل) المصدر الاول والرئيسي لدخل الحكومة المحلي في العشرينات والنصف الاول من الثلاثينات . وبالارقام كانت هذه توازي متوسطا سنويا مقداره ١٢٠.٢٤ جنية فلسطيني من مجموع الواردات المحلية البالغة قسي متوسطها السنوي ٢٣٢,٢٥٠ جنيها بين الاعوام ١٩٢٥/٢٤ و ١٩٣٤/٣٣ ، اي ما نسبته ٥١,٦% (٧) .

بعد ذلك ظهر تطور حثيث في حصة مساهمة الضرائب غير المباشرة ، اي الجمارك والمكوس من متوسط قدره ٦٧,٩٢٢ جنية فلسطيني في سنوات ١٩٢٥/٢٤ و ١٩٣٤/٣٣ الى ٢١٧,٢١٣ جنية لعام ١٩٤٤/٤٣ (٨) ، اي انها زادت بنسبة ٣١٩% . ويلاحظ ان مساهمة الضرائب غير المباشرة زادت عن

(7) Konikoff , op. cit., p. 95.

(6) Konikoff , op. cit., p. 95 .

(8) Ibid, p. 95.

مجموع واردات الضرائب المباشرة وعائدات رخص المهن والصناعات •

ان الزيادة المرتفعة لحصة الواردات من الضرائب غير المباشرة قد عكست واقعتين ملموستين في التطور الاقتصادي للبلاد ، اولهما ازدياد حجم التجارة وخاصة المستوردات من السوق العربي والعالمي وازدياد الاعتماد على الخارج ، وثانيتهما ، الاتجاه المتزايد في النظام الضريبي لتحميل المواطنين اصحاب الدخول الدنيا والمتوسطة قسما اكبر فأكبر من اعباء الادارة • لقد ارتفعت واردات الجمارك والمكوس في نهاية الاربعينات على النحو التالي : ١٠١٣٤٥ ر جنيه عام ١٩٤٦ ، ١٩٦٠١ ر جنيه عام ١٩٤٧ و ١٩٤٢٢٧٦ ر جنيه عام ١٩٤٨ (٩) •

ان الرسم البياني التالي يعبر بوضوح عن تطور واردات الدولة من الجمارك والمكوس بوتيرة عالية خلال الاعوام ١٩٣١/١٩٤٨ •

وفي المكاثة الثالثة ، بعد الجمارك والمكوس ، وبعد الضرائب المباشرة وعائدات الرخص ، كان دخل الدولة من رسوم الادارة وذلك بالنسبة لواردات الدولة المحلية • وقد ازدادت واردات رسوم الادارة من ٢٣١١٧ ر جنيه كمتوسط سنوي بين ١٩٢٥/٢٤ و ١٩٣٤/٣٣ الى ٩٦٧٧١ ر جنيه عام ١٩٤٤/٤٣ ، ثم تلتها واردات المدخولات المتنوعة ، ثم اخيرا واردات البريد والتلغراف (انظر الجدول رقم (٢) •

جدول رقم (٢)

توزيع الموارد المحلية حسب مصادرها الرئيسية بالجنهات الفلسطينية

النسبة	الجمارك والمكوس	الرخص والضرائب	الرسوم	البريد والتلغراف	تخصيلات متنوعة	المجموع
من ١٩٢٥/٢٤	٦٧٩٢٢	١٢٠٠٢	٢٣١١٧	١٠٢٢٢	١٠٩٦٥	٢٣٢٢٥٠
من ١٩٣٤/٣٣	٩٨٦٢٧	١١٣٠٥٧	٣٢٨١٢	١٢٩٨٢	١٨٧٨٠	٢٧٦٣٥٨
١٩٣٥/٣٤	١٤١٥٠٠	١٤٨٨٠٠	٤٩٨٠٠	١٩٤٣٠	١٩٣١٠	٣٧٨٨٤٠
١٩٤٠/٣٩	٢٢١٧٨٥٨	٢١٣١١٠	٩٦٧٧١	٣٠١١٩	٨٧٧٧٥	٦٤٥٦٢٣

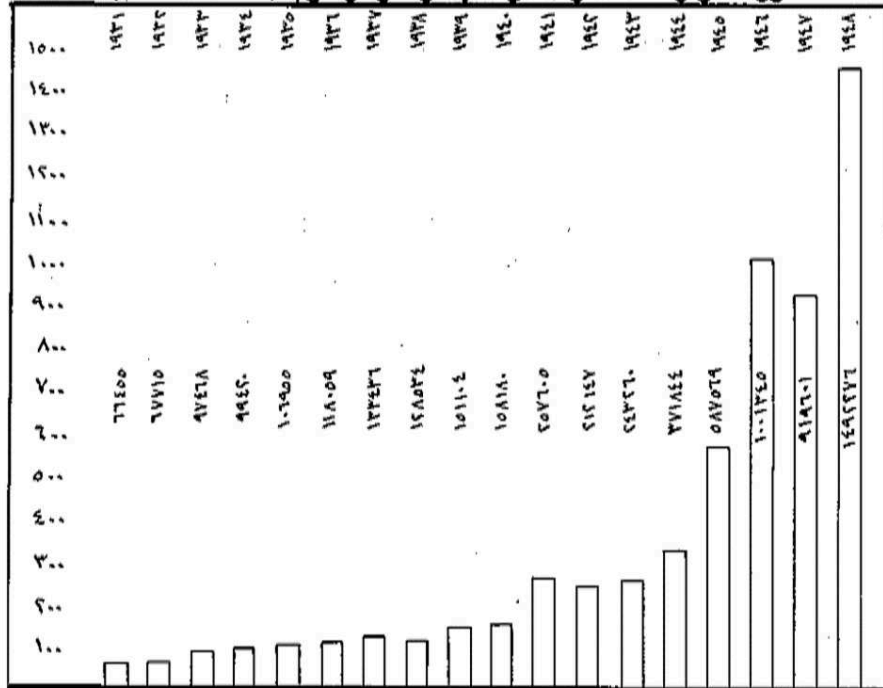
Konikoff , op. cit., p. 96.

لقد تضاعفت الموارد المحلية لموازنة الحكومة منذ منتصف العشرينات وحتى منتصف الاربعينات حوالي ثلاث مرات ، وكانت الضرائب غير المباشرة هي المساهم الاساسي في ارتفاع الواردات المحلية للموازنة • وكانت عائدات

(9) Commercial Conditions in Trans Jordan , op. cit , p. 42.

الرخص وبضعة مدخولات مالية اخرى ، بالاضافة الى الجمارك والمكوس تلقي بالعبء الضريبي على عاتق اصحاب الدخول المتواضعة والمتوسطة اساسا ، سواء في المدن او الريف . فيما كانت الابعاء الضريبية على الفئات العليا من المجتمع ضئيلة جدا . وعلى سبيل المثال لم تكن هناك اية ضريبة على الدخل حتى عام ١٩٣٣ ، وعندما وضعت هذه الضريبة حلت محل ضريبة التمتع العثمانية ، وكانت مقتصرة على الموظفين الحكوميين بنسبة تتراوح بين ١٥٪ و ٣٪ مع اعفاء ٦٠ جنيها من الدخل السنوي من الضريبة (١٠) . ولم تزد موارد ضريبة الدخل لعام ١٩٣٨/٣٧ عن خمسة آلاف جنيه فلسطيني فقط ! (١١) . كما لم تزد مساهمة هذه الضريبة عن ١٪ من ايرادات الدولة المحلية في نهاية الثلاثينات (١٢) ، وظلت مساهمة هذه الضريبة تافهة حتى عام ١٩٤٤ ، كما سنبين .

تطورات واردات الدولة من الجمارك والرسوم (١٩٣١-١٩٤٨)



Commercial Conditions in Trans Jordan during 1948 , Graph k, p. 42.

- (١٠) المحافظة ، علي ، « الحياة الاقتصادية في عهد الامارة » مجلة التنمية ، مصدر
مذكور انفا ص ٢٢ او راجع « تاريخ الاردن المعاصر » لنفس المؤلف ، ص ١٢٥ .
(١١) المصدر الاخير نفسه ، ص ١٢٥ . راجع ايضا ، الدجاني ، علي ، مصدر المذكور انفا ، ص ١٦ .
(١٢) راجع مرشلاغ ، المصدر نفسه ، ص ٢٢٢ .

النظام الضريبي في الاردن

بقي النظام الضريبي متخلفا جدا في الفترة التي تلت الحرب العالمية الاولى ، ويقول علي الدجاني ان جل ما يمكن تسجيله عن هذه الفترة ان الضرائب حولت من القروش التركية الى النقد المصري ثم الى النقد السوري ، وقد اضطرت الحكومة الاردنية الى قبول التراث المالي العقيم ، وكان اول ما فعلته هو الغاء طريقة تلزيم الاعشار بالمزاد العلني (١٣) . وعموما ظلت الجباية تعتمد على القوائين العثمانية حتى عام ١٩٣٢ (١٤) لكن تأثيرها بقي قويا في التشريعات الضريبية الجديدة بعد ذلك ، وغالبا ما جاءت لصالح ملاك الاراضي والاغنياء والزعامات العشيرية وكبار موظفي الدولة وكبار التجار . وحتى في الحالات التي يفترض فيها بهذه الفئات ان تتحمل بعض الاعباء الضريبية ، كانت تملك كل الامكانات والوسائل للتهرب منها ، ولما كانت الحكومة جادة في تحصيل الضرائب من الفئات الاجتماعية العليا او تصد اعفاءات من الضرائب كوسيلة لرشوة لزماء العشائر وكبار الملاك (١٥) .

وكانت الضرائب المباشرة تتألف من الضرائب التالية :

١ - ضريبة الاراضي .

وقد فرضت هذه الضريبة عام ١٩٣٣ ، وحلت محل ضرائب الويركو والعشر وضريبة الطرق . وتحسب على اساس الدخل الزراعي . وقد تراوح مردود هذه الضريبة تبعا للمحصول او الناتج الزراعي الذي كان يتأثر بالمناخ والامطار ، حيث كانت الحكومة تضطر لتأجيل تحصيلها او تخفيضها او شطبها بقرار من مجلس الوزراء (١٦) .

٢ - ضريبة الابنية والاراضي ضمن مناطق البلديات .

وقد حلت محل ضريبة المسقفات ، بموجب قانون صدر عام ١٩٢٥ ، وعُدل بعد ذلك عدة مرات . وكانت الضريبة تتقاضى ٨٪ من الربح المقدر للابنية

(١٣) راجع الدجاني ، علي ، المصدر نفسه ، ص ٧ .

(١٤) المحافظة ، على ، « تاريخ الاردن المعاصر » ، ص ١٣٤ .

(١٥) بينا ذلك في نهاية القسم الثالث من هذه الدراسة ، ولا سيما في القسم المتعلق بالمسألة الزراعية .

(١٦) راجع الدجاني ، علي ، المصدر نفسه ، ص ١٥ .

والاراضي المعدة للايجار ، و ٦٪ من الربح المقدر للبناء اذا ما اتخذ جزء منه مسكنا لصاحبه والآخر اعد للايجار ، و ٤٪ من الربح المقدر اذا كان البناء معدا لسكن صاحبه . وقد استثنيت من الضريبة المعامل والمصانع المشتملة على الات انتاجية لمدة ثلاث سنوات والابنية التي تقام لسكن افراد القبائل الرحل لمدة ست سنوات (١٧)

٣ - ضريبة المواشي *

وتجبي هذه الضريبة من اصحاب المواشي بحسب عدد رؤوسها اثر كل تعداد سنوي (١٨) *

٤ - ضريبة الدخل *

وقد فرضت عام ١٩٣٣ ، كما اشرنا سابقا ، على اصحاب الرواتب من موظفين ومستخدمين ، وذلك حتى عام ١٩٤٤ حين بدء فرضها على جميع المكلفين . ويشير شكري شعشاعة رئيس ديوان المحاسبة الى « ان الحكومة لاحظت ما يعترض تقدير الارباح من المشاكل والصعوبات وما يتطلبه هذا الاجراء من مصاعب جمة ، خصوصا وان حسابات التجار لا تجري الا في النادر على وجه يصح الاعتماد عليه في تقدير الدخل ولذلك عدل عن فرض الضريبة على اساس الدخل ، وقسم التجار وارباب الحرف والمهن الى صنوف ثم حدد لكل صنف منها مبلغ مقطوع جرى تقديره بعد الاستقصاء والدرس » (١٩) *

وفي حين بلغت حصيلة ضريبة الدخل عام ١٩٣٨/٣٧ ٥٠٠٠٠٠ جنية حين كانت تقتصر على الموظفين ، باتت توازي عام ١٩٤٨/٤٧ ١٩٦٠٠٠٠ جنية *

٥ - ضريبة رخص الصناعات والمهن *

وقد فرضت على التجار واصحاب المهن والحرف وسائر الصناعات عام ١٩٤٣ ، وقد بلغت حصيلتها عام ١٩٣٨/٣٧ حوالي ٤٦٠٠ جنية ، ارتفعت الى ١٧٠٠٠٠ جنية عام ١٩٤٨/٤٧ (٢٠) *

(١٧) المصدر نفسه ، ص ١٥ ، اشارة الى مذكرة شكري شعشاعة رئيس ديوان المحاسبة الاردني .

(١٨) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها *

(١٩) المصدر نفسه ، ص ١٦ *

(٢٠) المصدر نفسه ، ص ١٦ *

اما الضرائب غير المباشرة فقد كانت تشمل الجمارك والمكوس ورسوم الطوابع .

ويصنف علي الدجاني الدور الذي لعبته رسوم الجمارك والمكوس بالدور الخطير في حياة الاردن المالية ، اذ دأبت الحكومة على زيادتها كلما شعرت بحاجتها للمال ، فهي ايسر السبل منالا ، واقرابها وصولا ، ولم تكن تسيير وفق اي منهج اقتصادي ، ولكنها كانت ذات اثر كبير في حياة السكان الاقتصادية في فترة من الزمن ، مما سبب تشجيع إعادة التصدير والصادرات غير المسجلة « (التهريب) (٢١) » .

وقد بلغت رسوم الجمارك والمكوس في السنة المالية ١٩٣٨/٣٧ - ١٢٧ الف جنيه ، وكانت تشكل ١٥٪ من مجموع الواردات العامة . وبلغت عام ١٩٤٨/٤٧ ٩٢٩ الف دينار ، اي ١٩٪ من مجموع الواردات و ٣٣٪ من الواردات العادية (المحلية) (٢٢) في حين ارتفعت حصيلة الضرائب المباشرة من ٢٠٠ الف دينار عام ١٩٣٨/٣٧ الى ٦٩٢ الف دينار عام ١٩٤٨/٤٧ وفي العام الاخير كانت الضرائب المباشرة تؤلف ٢٥٪ من الواردات العادية (المحلية) و ١٥٪ من مجموع الواردات (٢٣) .

وقد فرضت الحكومة عام ١٩٤٤ ضريبة الزكاة على جميع المسلمين اعتبارا من اول نيسان ١٩٤٥ (٢٤) الى جانب غيرها من الضرائب والرسوم العشوائية .

٣ - الانفاق الحكومي ووجهته

تظهر دراسة الانفاق الحكومي ووجهته ، الى اي مدى كانت السيطرة البريطانية وهيمنتها على السلطة بالاشتراك مع القوى الرجعية ضارة ليس فقط على مستوى التطور الاقتصادي - الاجتماعي في البلاد فحسب ، وانما على مستوى الخدمات الضرورية جدا في ميادين الزراعة والتعليم والصحة العامة وغيرها . فقد كانت حصة هذه من نفقات الدولة ضئيلة جدا ، بالنسبة للحصة التي استأثر بها الجيش والامن العام والادارة المركزية من النفقات .

(٢١) المصدر نفسه ، ص ١٧ .

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ١٧ .

(٢٣) المصدر نفسه ، ص ١٧ .

(٢٤) راجع المحافظة ، على ، تاريخ الاردن المعاصر ، ص ١٣٦ .

في الفترة بين الحربين العالميتين ، كان حوالي ٦٠ - ٦٥٪ من إيرادات الدولة تنفق على شؤون الجيش والدفاع . وكان ٢٠٪ من الإيرادات العامة تنفق على الإدارة . فيما كان الانفاق على الزراعة والري والتعليم والصحة وغيرها تتراوح بين ١٥ و ٢٠٪ من واردات الدولة فقط . ويعلق هرشلاغ على توزيع النفقات على النحو السالف بقوله : « لم يكن أكثر من عشر انفاق الميزانية يوجه الى نشاطات بناءة في الزراعة والتعليم والصحة ، فيما يبتلع الدفاع والإدارة البقية ٠٠ » ويضيف بصدد غياب الدولة الاقتصادي البناء : « لم تبذل مطلقا أي محاولة للتصنيع أو لتحديث الزراعة وتكثيفها ٠٠ » (٢٥) .

بعد الحرب العالمية الثانية لم يحدث أي تحول في توزيع النفقات وفي وجهتها، فعلى الرغم من أن إجمالي الانفاق العام قد تضاعف عدة مرات عن فترة ما قبل الحرب ، فقد ظل الدفاع والأمن يستأثران بالحصة الأبرز في النفقات . ارتفع الانفاق العسكري والأمني من ١٤١٦٤٥ جنيه لعام ١٩٣٥/٣٤ إلى ١٨٦٩٦٤٨ عام ١٩٤٤/٤٣ أي بزيادة تبلغ ١٣٢٪ خلال عقد واحد من السنوات (انظر الجدول رقم « ٣ ») .

أما نفقات الإدارة المركزية والمالية فقد شهدت ارتفاعا من ٨٤٠٦٤ جنيه لعام ١٩٣٥/٣٤ إلى ١٥٧٢٥٢ جنيه لعام ١٩٤٤/٤٣ أي مقدار ١٨٧٪ . وزاد الانفاق على البريد والتلغراف والأشغال العامة من ٥٠٤٠٤ جنيه إلى ١١٤٢٥٩ في الفترة نفسها . نظرا لازدياد احتياج السلطات والقوات البريطانية لتسهيلات جديدة وبخاصة شق الطرق كطريق حيفا - بغداد ، وازدياد الانفاق على الانشاءات العسكرية التي كانت تمول بعض أوجهها من الموازنة العامة الأردنية ، وخاصة أثناء الحرب .

مقابل كل هذا ، ظل تطور نفقات الزراعة والري في الفترة نفسها بالغ الضعف، من ٢٠٩٤٩ عام ١٩٣٥/٣٤ إلى ٥٧٧٥٥ جنيه عام ١٩٤٤/٤٣ ، وكذلك الحال مع التعليم والصحة العامة التي كانت حصتها لعام ١٩٣٥/٣٤ من الانفاق العام توازي ٣٦٣٣٨ جنيه وزادت إلى ٩٤٣٥٨ جنيه بعد عشر سنوات (١٩٤٤/٤٣) . أن مقارنة تطور حصص هذه القطاعات إلى مجموع النفقات العامة بين فترة ما قبل الحرب وما بعدها تظهر تراجعاً ملموساً في حصص قطاعات الزراعة والري والتعليم والصحة خلال فترة الحرب وبعدها .

إن توزيع النفقات العامة على النحو السالف ، حرم المواطنين من أبسط أشكال الخدمة العامة ، واثّر على تطور قطاعات الإنتاج الأساسية ، وعلى

مستوى المعيشة وعلى مستوى الخدمات الصحية والتعليمية ، في الوقت الذي كان الثقل الاساسي للواردات المحلية ملقى على عاتق غالبية المواطنين من ذوي الدخل المحدود والمتوسط . وكانت وجهات الانفاق غير الانمائية تعكس الوجه الاخر لانعدام التوازن والعدالة التي ميزت السياسة الضريبية واعباء تمويل موارد الموازنة الحكومية في البلاد .

جدول رقم (٣)

توزيع النفقات الحكومية حسب بنودها الرئيسية بالجنيهات الفلسطينية

السنه	الامارة والمالية	البوليس والدفاع	البريد- التلغراف والاشغال العامة	الزراعة والري	التعليم والصحة العامة	نفقات متنوعة
من ١٩٢٥/٢٤ وحتى ١٩٣٤/٣٣	٨١,٦٧٢	١٢٨,٥٥٥	٣٩,٢٣٦	١٣,٠٤٠	١٩,٧٤٧	٢٨,٧٨٠
١٩٣٥/٣٤	٨٣,٠٦٤	١٤١,٦١٥	٥٠,٤٠٤	٢٠,٠٤٥	٣٦,٣٣٨	٣٦,٠٢٥
١٩٤٠/٣٩	١١٩,٧٩٠	٢٧٤,٤٧٧	٣٠٥,٧٩٣	٥٢,٧٩١	٤٨,٦١٩	٦٤,٨٥٠
١٩٤٤/٤٣	١٥٧,٢٥٢	١,٨٦٩,٦٤٨	١١٤,٢٥٩	٥٧,٧٥٥	٩٤,٣٥٨	٣٢٦,٤٨٥

Konikoff , p. 97.

الخدمات (الاساس الاجتماعي والاساس الاقتصادي)

ان العرض السريع التالي لمساهمة الدولة في الخدمات الاساسية (الاجتماعية والاقتصادية) ، تظهر تدنيها الفادح ، كما يبين ان نموها كان مرهونا بدرجة رئيسية ، بمدى ما تقدمه هذه الخدمات من تسهيلات للمصالح الكولونيالية ، ولا سيما فيما يتعلق بالمواصلات والبناء التحتي الاساسي .

اولا : التعليم :

نظرا لضعف الانفاق العام على التعليم ، فقد كانت الخدمات التعليمية الخاصة اكبر اتساعا من التعليم الحكومي . ففي عام ١٩٣٥/٣٤ كان في البلاد ١١٦ مدرسة غير حكومية مقابل ٦٥ مدرسة حكومية ، وكانت هذه تستوعب ٢٠٠ معلم من مجموع ٣٥٣ معلما في البلاد . ورغم ذلك فقد كان طلبة المدارس الخاصة يشكلون حوالي نصف الطلبة . اي ٣٠٩ طالباً وطالبة من مجموع ١١٢٢٦ طالباً . وطالبة في نفس العام (انظر الجدول رقم «٤») .

ضعف الخدمات التعليمية الحكومية هذا ، اعطى التعليم في البلاد طابعا فئويا ، شمل ابناء القلة من الفئات الاجتماعية العليا في المدن والبلدات الرئيسية . فيما غالبية السكان محرومة من فرص تعليم ابنائها . وقد لعبت المدارس الخاصة الارسالية والدينية والاهلية دورا رئيسيا مبكرا في تقديم الخدمات التعليمية مع غياب الدولة او قصورها .

مع ازدياد عدد طلبة المدارس الحكومية خلال سنوات الحرب وبعدها ، فان المدارس لم تزد بالوتيرة نفسها ، بل عادت في منتصف الاربعينات الى نفس عددها تقريبا في اول سنوات الحرب الثانية . اما عدد المعلمين فقد ازداد ببطء شديد . وهكذا كان عدد المدارس الحكومية لعام ١٩٤٤/٤٣ ٦٩ مدرسة ، وعدد المعلمين ١٨٨ ، فيما كان عدد الطلبة الحكوميين ٩٦٠٧ طالبا وطالبة لنفس العام .

اما في المدارس الخاصة فقد ظل عدد طلابها يراوح مكانه تقريبا ، مع شيء من الصعود في السنوات ١٩٣٥/٣٤ و ١٩٤١/٤٠ ثم هبوط في السنوات ١٩٤١/٤٠ ، وبقي عدد المدارس يراوح في مكانه حتى ١٩٤١/٤٠ ، ثم هبط بقوة فيما بعد . ويمكن قول الشيء نفسه عن عدد المعلمين .

جدول رقم « ٤ »

تطور التعليم في سنوات مختلفة بين ١٩٣٤ و ١٩٤٤

مجموع الطلبة	المدارس غير الحكومية			المدارس الحكومية			السنة الدراسية
	الطلبة	المعلمون	المدارس	الطلبة	المعلمون	المدارس	
١١٢٢٦	٥٣٠٩	٢٠٠	١١٦	٥٩١٧	١٥٣	٦٥	١٩٣٥/٣٤
١٣٨٥٤	٥٣٤٢	٢١٩	١١٧	٨٥١٢	١٨١	٧٤	١٩٣٩/٣٨
١٦٧٥٥	٦٦٠٥	٢١٨	١١٦	١٠١٥٠	١٨٤	٧٤	١٩٤١/٤٠
١٥٢٠١	٥٥٩٤	١٧٣	٨٦	٩٦٠٧	١٨٨	٦٩	١٩٤٤/٤٣

Konikoff , p. 119.

بالارقام ، كان عدد المدارس الخاصة (غير الحكومية) لعام ١٩٤٤/٤٣ : ٨٦ مدرسة ، وعدد المعلمين ١٤٣ معلما يقدمون خدماتهم لـ ٥٩٤٠ طالبا وطالبة .

بالاضافة الى طابعه الفئوي الاجتماعي الذي يحرم عددا كبيرا من السكان الذين هم في سن الدراسة ، وتمركز الخدمات التعليمية في المدن الرئيسية ، فقد اتمم التعليم باتساعه النسبي لدى المسيحيين العرب لوجود مدارس ارسالية

واهلية دينية ، ولدى الفئات القومية بشكل اضيق مثل المشيشان والشركس والبهائيين والارمن والدروز (٢٦) . فيما اتسم التعليم لدى المسلمين بمحدوديته لضعف الخدمات الحكومية في هذا المجال ، فعلى الرغم من ازدياد الاقبال على التعليم الحكومي الذي اقتصر على التعليم الابتدائي ، فان نسبة القبول في المدارس الحكومية في منتصف الاربينات لم تزد عن ٥٠٪ من عدد المتقدمين للتعليم العام . اما فيما بين صفوف البدو ، فقد كان التعليم ضعيفا للغاية ، ففي عام ١٩٣٥ كان عدد الطلاب من ابناء البدو يتراوح بين ٤٠ و ٦٠ طالبا ، كان معظمهم من ابناء الشيوخ (٢٧) .

كان تعليم الاناث ضعيفا بوجه عام في البلاد ، الا انه افضل حالا عند المسيحيين وفي المدارس غير الحكومية . ففي المدارس الحكومية كان عدد الطالبات الى الطلاب : ١٢٩٧/١ طالبة مقابل ٣٠١/٥ طالبا اي حوالي ١٩٪ من المجموع العام . في حين انه لدى المسيحيين في المدارس الحكومية كان يوازي ٢٥٠ طالبة مقابل ٥٦٠ طالبا . وذلك لعام ١٩٣٨/٣٧ ، اي ان الطالبات كن يشكلن ٣٥٪ من مجموع الطلبة المسيحيين في المدارس الحكومية (انظر الجدول رقم « ٥ ») .

اما في المدارس غير الحكومية ، فقد كان عدد الطالبات المسلمات الى الطلاب المسلمين يوازي ٢٠٠ طالبة مقابل ١٩٧٩ طالبا . اي ٩٪ من مجموع الطلبة المسلمين في المدارس الخاصة لعام ١٩٣٨/٣٧ . في حين كان عدد الطالبات المسيحيات الى الطلاب المسيحيين يوازي ١٥٠٠ طالبة مقابل ١٨٤١ طالبا او ما نسبته ٤٤٪ من مجموع الطلاب والطالبات المسيحيين لعام ١٩٣٨/٣٧ .

جدول رقم « ٥ » تطور عدد الطلبة وفقا للجنس والدين (١٩٤٤/٣٧)

المدارس غير الحكومية		المدارس الحكومية				السنة الدراسية		
المسيحيون		المسلمون		المسيحيون			المسلمون	
اناث	ذكور	اناث	ذكور	اناث	ذكور	اناث	ذكور	
١٥٠٠	١٨٤٧	٢٠٠	١٩٧٩	٢٥٠	٥٦٠	١٢٩٧	٥٣٠١	١٩٣٨/٣٧
٢١٣٦	٢٣٨٣	٣١٤	١٧٧٢	٣٠٣	٨٠٤	١٥٩٢	٧٤٥١	١٩٤١/٤٠
١٧٣٣	٢١٠١	٢٦٨	١٤٩٢	٢٤٠	٨٣٩	١٦١٧	٦٨١١	١٩٤٤/٤٣

Konikoff , p. 119.

(26) Konikoff , op. cit, p. 25.

(27) Ibid. p. 26.

بشكل عام كان عدد الطالبات في جميع مدارس البلاد يوازي ٣٨٥٨ طالبة مقابل ١١٣٤٣ طالبا اي مانسبته ٢٥٤٪ من مجموع الطلبة في شرقي الاردن وذلك لعام ١٩٤٤/٤٣ في حين ان نسبة الطالبات الى مجموع الطلبة لعام ١٩٣٨/٣٧ كانت لا تزيد عن ٢٥٪ .

وكما سبق ان اشرنا ، كانت اغلب المدارس الحكومية مدارس ابتدائية ، واقتصرت الدراسة الثانوية على مدرسة السلط ومدرسة اربد التجهيزية ، ولم تدم الاخيرة طويلا اذ الغي منها الصفان الثانويان الاخيران عام ١٩٣٢ (٢٨) بقيت مدرسة متوسطة . كما بدأ اول امتحان للثانوية العامة Matriculation عام ١٩٣٥ وذلك في عمان . اما المعلمون فقد كان اغلبهم من مواطني الاقطار العربية المجاورة (فلسطين ، سورية) (٢٩) .

وعموما ازداد عدد المدارس الحكومية خلال ربع قرن بأقل من ضعف واحد ، فقد كان عددها عام ١٩٢٣/٢٢ ٤٤ مدرسة فأصبحت ٧٧ مدرسة عام ١٩٤٧/٤٦ ، ازداد عدد معلميها من ٨١ معلما الى ٢١٤ معلما ، كما تضاعف عدد الطلبة عام ١٩٤٧/٤٦ بنحو ثلاثة اضعاف ما كان عليه عام ١٩٢٣/٢٢ . اي من ٣٣١٦ طالبا وطالبة الى ١٠٧٢٩ طالبا وطالبة وذلك في المدارس الحكومية (٣٠) .

ويتضح ضعف العناية الرسمية بالتعليم من ضالة الانفاق عليه . اذ كان معدل الانفاق على تعليم الشخص الواحد في شرق الاردن عام ١٩٣٥/٣٤ ، ٧٥ مليما فلسطينيا مقابل ١٨٥ مليما في فلسطين و١١٤ مليما في العراق . اما نسبة نفقات التعليم الى مجموع النفقات العامة للموازنة فقد تراوحت بين ٤ر٤٪ عام ١٩٢٥/٢٤ ثم ارتفعت الى اقصى نسبة لها عام ١٩٢٩/٢٨ حيث بلغت ٧ر٣٪ من النفقات العامة . وظلت تتراوح بين ٥ر١٪ و٦ر٧٪ الى عام ١٩٣٨/٣٧ . ومع الحرب العالمية الثانية ظلت نسبة الانفاق على التعليم تنخفض بقوة حتى بلغت ١ر٠٦٪ عام ١٩٤٥/٤٤ (٣١) .

ثانيا : الصحة والخدمات الصحية :

نظرا للمستوى المعيشي والاقتصادي المنخفض ، كانت الصحة العامة تتأثر بغياب الخدمات الصحية والحكومية « العامة » في البلاد او من قلتها . كانت

(٢٨) راجع المحافظة ، على ، « تاريخ الاردن المعاصر » ، ص ١٥٤ .

(٢٩) راجع كونيوف ، ص ٢٧ .

(٣٠) المحافظة ، على ، المصدر نفسه ، ص ١٥٥/١٥٤ .

(٣١) المصدر نفسه ، ص ١٥٨ .

الابوثة والامراض مستفحلة ، فيما شمل سوء التغذية غالبية السكان في الريف والبادية : فمتوسط الاستهلاك اليومي من السعرات الحرارية للفرد الواحد في شرقي الاردن لم يزد عن ١٩٠٩ وحدة « مقابل ١٩٦٢ وحدة للفرد في العراق ، ٢١٩٩ وحدة في مصر ، ٢٣٩٤ وحدة في سورية ولبنان ، ٢٥٧٠ وحدة في فلسطين . وذلك لعام ١٩٣٩/٣٨ (٣٢) اي كان متوسط الفرد من استهلاك السعرات الحرارية في شرق الاردن دون باقي المشرق العربي .

كانت نتائج سوء التغذية تستفحل في بعض السنوات ، بسبب من الجفاف والقحط وموت أعداد كبيرة من المواشي ، واذ ذاك كانت المجاعة تنتشر في البداية وفي الريف . ومن الامراض المنتشرة في البلاد ، خاصة لدى البدو : Xerophthalmia Scurvy وقد تسبب ذلك بارتفاع نسبة الوفيات (٣٣) . وقد هددت الملاريا السكان بجدية ، وانتشرت في وادي الاردن ومنطقة الازرق . كما كانت امراض العين منتشرة ، وبيئت الفحوصات ان ربع الطلبة في المدارس يعانون من الترخوما ، وفي بعض الحالات كان نصف السكان قد اصيبوا بالترخوما (٣٤) .

كانت معدلات الوفاة عالية جدا بين السكان . وكانت هذه تحد من الزيادة الطبيعية ، ففي عام ١٩٣٠ كان معدل الوفاة يوازي ٢٥ر٤ بالالف مقابل معدل ولادة يوازي ٣٩ر٤ بالالف وبالارقام المطلقة كان عدد الوفيات ٦٦٦١ شخصا مقابل ١٠ر٣٤٠ ولادة . (انظر الجدول رقم « ١ » في اول الدراسة) .

لقد حدث تحسن بطيء في الخدمات الطبية خلال الثلاثينات والاربعينات . فقد انخفضت بعض الشيء معدلات الوفيات - مع بعض الارتفاع في بضعة سنوات (١٩٣٤/٣٣) - فوصلت الى ١٨ر٧ وفاة بالالف مقابل زيادة في المواليد وصلت الى ٤٢ر٤ ولادة للالف لعام ١٩٣٨ . ثم انخفضت ايضا الى ١٦ر١ وفاة للالف مقابل ٣٩ر٤ ولادة لعام ١٩٤٣ . وتظهر الارقام ان هذا المعدل في الوفيات ظل عاليا بالمعايير المتعارف عليها دوليا .

تظهر الاحصاءات الحيوية ان معدلات الوفاة بين الاطفال بعد الولادة تمثل حيزا هاما من الوفيات في البلاد: في عام ١٩٣٠ كان معدل الوفيات يوازي ٢٢٢ وفاة لكل الف ولادة ، وظل المعدل فوق مئتي وفاة للالف ولادة حتى عام ١٩٢٧ حين واصل انخفاضه التدريجي سنة بعد اخرى ، لكن بقي معدلا

(٣٢) راجع هرشلاغ ، المصدر السالف الذكر ، ص ٣٥٤

(33) Konikoff , op. cit, p. 23.

(34) Ibid. p. 23.

مرتفعا رغم ذلك ، ففي عام ١٩٤٢ كان معدل وفيات الاطفال يوازي ١٥١ وفاة لكل الف ولادة !

ان المعطيات والارقام السابقة لا تعود مستغربة اذا لمسنا انخفاض مستوى الخدمات الصحية وضالة مؤسساتها ومرافقها . ففي عام ١٩٤٣ لم يزد عدد المستشفيات الحكومية عن اربعة ، كانت اثنتان منها مستشفيات عامين ، والثالثة للأمراض المعدية ، والاخيرة لـ ophthalmic بالاضافة الى خمسة مراكز للاروثة ، ووحدة لعلاج المساجين (٣٥) . مقابل هذه كانت هناك خمس مستشفيات غير حكومية كانت فعاليتها قد استوعبت اكثر من نصف عدد الداخلين للمستشفيات في البلاد (اي ٢٩٧٦ حالة من ٤٧٤٥) ، كما كان متوسط استعمال اسرتها شهريا يوازي ٨٨٦ وحدة من ١٢٧ وحدة من كل المستشفيات . وكان عدد اسرتها يوازي ١٥٥ سريرا من اصل ٢٧٤ في عموم مستشفيات البلاد (٣٦) .

رغم ضالة عدد المستشفيات الحكومية ، غير الكافية لاستقبال المرضى في البلاد ، فقد سجلت لعام ١٩٤٣ ، ١٦٧٧٢٨ مراجعة لعياداتها ، ودخلها ١٨٦٩ شخصا ، مقابل ٣٥٠٣١ مراجعة لعيادات المستشفيات الخاصة التي دخلها ٢٨٧٦ شخصا في نفس العام (٣٧) .

كان عدد الاطباء البشريين المرخصين ، واطباء الاسنان والصيدالة والمقابلات ضئيلا كما هو متوقع . ولا يقارن بالاحتياجات الواقعية لسكان يعانون من الامراض المتوطنة وسوء التغذية . ففي عام ١٩٣٥ ، لم يزد عدد الاطباء البشريين عن ١٨ طبيبا ، بالاضافة الى ٦ اطباء اسنان ، ٤ صيادلة ، ٤ قابلات . اما في عام ١٩٤٣ فقد بات عددهم : ٣٠ طبيبا بشريا ، ١٠ اطباء اسنان ، ٩ صيادلة ، و١٤ قابلة (٣٨) . ولا داعي للقول ان هؤلاء كانوا مستقرين في المدن الرئيسية ، مثلما هو الحال ايضا مع المستشفيات الحكومية والخاصة .

ثالثا : المواصلات :

١ - الطرق البرية

على الرغم من الاهمية البالغة للبلاد كمعبر قديم للتجارة ، ورغم انها كانت عقدة مواصلات قديمة ، فان البلاد كانت في مطلع القرن ، وحتى بعد الحرب

(35) Ibid. p. 24.

(36) Ibid. p. 24.

(37) Ibid. Table XXIX. p. 120.

(38) Ibid. Table XXVIII. p. 120

الاولى ، مفتقدة الى شبكة مواصلات حديثة وفعالة . وفيما عدا الخط الحديدي الحجازي الذي قطع البلاد ووصلها بالجزيرة وسورية في مطلع القرن ، فان الطرق المعبدة كانت قليلة . وظلت الطرق القديمة جدا مستخدمة في بعض المناطق ، فيما ردمتها الرمال في مناطق اخرى .

مع انشاء الادارة في البلاد ، كانت بريطانيا ترى في شرقي الاردن ، نقطة صلة هامة لمصالحها ولسيطرتها بين كل من العراق وفلسطين . وكانت ترى ان ربط البلدين عبر الاردن ، مسألة بالغة الاهمية . هذه هي احدى النقاط البارزة في اتفاق عبدالله - تشرشل عند بحثهما اقامة ادارة عربية برعاية هاشمية - بريطانية . وهكذا - ومنذ وقت مبكر - بدأت السلطات البريطانية باجراء كشف جوي (في ايار ١٩٢٦) على الطريق بين شرقي الاردن وتحديد معالمها . ثم تالفت حملة عسكرية من مئة جندي وسيارات مصفحة وطائرات اخذت تحدد نقاط امتداد الطريق وتقيم فيها مخافر ، زودت باللاسلكي . وفي حزيران من نفس العام كانت هذه الحملة قد بلغت بغداد ، وبذلك بدأت تتامن المواصلات البرية والجوية بين البلدين عبر الصحراء السورية (٣٩) .

اما الطرق الداخلية المرصوفة فلم تزيد على ٢٠ كيلومترا تربط جرش - السلط - عمان ، فيما كانت ٢٨٠ كيلومترا قابلة لاستعمال العربات الالية في الفصول الجافة (٤٠) . وبشكل عام ، وحيث شقت طرق ترابية ، فقد كانت هذه تتعرض للانهيارات والردم ، وتعيق صلة الريف بالمدن الرئيسية . على ان شق الطرق شهد تقدما لاسباب متصلة باحتياجات السيطرة البريطانية او باحتياجات تأمين الامن الداخلي . وهكذا كان هناك (العام ١٩٣٥) ١٤٣٨ كيلومترا من الاراضي الصالحة لمرور السيارات كانت ٩٤٪ منها غير معبدة (٤١) .

منذ ١٩٢٦ ، شقت السلطات البريطانية وبتمويل خاص من عدد من المؤسسات الكولونيالية (٤٢) طرقا تصل بين فلسطين والمدن الاردنية عبر طريق جسر اللنبي - عمان . واخر بين الحدود السورية والمدن الاردنية الاخرى . مثل طريق درعا - الرمثا - المفرق - عمان ثم العقبة .

مع الحرب الثانية ، شرعت بريطانيا بشق طريق حيفا - بغداد ، الذي كان

(٣٩) الماضي وموسى ، المصدر السابق نفسه ، ص ١٧٢ .

(40) Konikoff. op. cit., p. 76.

(41) Ibid. 76.

(٤٢) كانت المؤسسات البريطانية الممولة هي حكومة فلسطين ، صندوق تنمية المستعمرات

و British Treasury المصدر السابق ، ص ٧٦ .

(43) Konikoff . op. cit., p. 76.

أكبر خط مواصلات للكولونيالية البريطانية في المنطقة . بلغت مسافة الطريق في الاراضي الاردنية ٣٤٠ كيلومترا من مجموع ١٠٨٠ كيلومترا وبلغت كلفته مليون جنيه انجليزي وقد تكلفت السلطات البريطانية بنفقاته (٤٣) . وكانت مبالغ من المساعدات البريطانية لشرق الاردن تغطي تكاليف هذا الطريق . وانهمك في تنفيذه مئات العمال الذين جرى تشغيلهم .

في عام ١٩٤٤ ، كان ثمة ٢٠٠٠ كيلومتر من الطرق الصالحة لمرور السيارات ، كان بينها نحو ٦٠٠ كيلومتر من الطرق المعبدة الصالحة للمرور في كافة الفصول . وكانت الاخيرة تشمل طريق جسر اللنبي - السلط - عمان . طريق عمان - الزرقاء - المفرق ، وطريق جسر الجامع - اربسد - المفرق ، طريق جسر الملك حسين - اربد ، وطريق درعا - الرمثا ، طريق رأس النقب - العقبة ، اما اطولها فكانت طريق المفرق - الحدود العراقية ٢٦٣ كيلومتر (٤٤) .

أدى تطور شق الطرق بين شرقي الاردن ، والاقطار العربية المجاورة ، الى تنشيط التجارة مع هذه البلدان ومع السوق العالمي . كما أدى كجزء من هذا التطور في المواصلات والتجارة الى ازدياد عدد سيارات النقل الصغيرة والكبيرة وسيارات الشحن . فقد كان عدد العربات الالية عام ١٩٢٦ لا يتجاوز ١٣٠ عربة ، ثم وصلت عام ١٩٣٨ الى ٥٨٩ عربة ، اي كان هناك سيارة واحدة لكل ٥٠٠ شخص وكان هذا هو المعدل بالنسبة لمصر والعراق في تلك السنة (فيما عدا السيارات العسكرية) (٤٥) .

ورغم عدم توفر ارقام احداث ، الا انه من المؤكد ان عدد السيارات قد ارتفع بقوة خلال الحرب الثانية وبعدها . فارقام التجارة الخارجية تشير الى تزايد قيمة استيراد السيارات بالجنيهات ، غير انها لا تذكر عدد العربات وحجمها .

ب - السكك الحديدية :

بعد التخريب الذي لحق بالخط الحديدي الحجازي اثناء الحرب العالمية الاولى في اراضي الجزيرة ، اقتصر اتصالات السكة الحديدية على معان في جنوب البلاد ، ونصيبين في الحدود السورية . وقد شغلت السكة منذ ١٩٢٤ تشغيليا كاملا ، ولم يرمم الجزء الموصل بين معان والمدينة حتى الان . اي ان ما يستخدم من الخط في الاراضي الاردنية هو ٣٢٣ كيلومترا فقط . وظل الامر على هذا النحو حتى عام ١٩٤٢ حين مدت السلطات العسكرية البريطانية وصلة طولها ٤١ كيلومترا بين معان والنقب (٤٦) .

(44) Ibid. p. 77.

(٤٥) راجع هرشلاغ ، المصدر السابق ، ص ٣٥٢ ، راجع كونيكوف ايضا ، ص ٧٧ .

(46) Ibid. p. 77.

ولا داعي للاستطراد والاشارة الى مباحثات تسيير الخط او ادارته التي كانت موضع خلاف منذ نهاية الحرب الاولى ، كما ان الخط في الاراضي الاردنية كان موضع خلاف بين الامارة البريطانية في شرق الاردن وحكومة فلسطين (ادارة الانتداب) ، وقد حسم لصالح الاخيرة عمليا (٤٧) .

لم يلعب الخط الحديدي في الحياة الاقتصادية وفي النقل الدور الذي مثله قبل الحرب الاولى ، فقد اقتصر رحلات القطار من نصيب (سورية) الى عمان على ثلاث رحلات اسبوعية بالاضافة الى رحلة واحدة اسبوعية من عمان الى معان . الا ان هذا لم يبلغ اهميته ، خاصة بالنسبة للسفر ، فقد ارتفع عدد المسافرين على الخط من ٢٤٨٧٠ شخصا عام ١٩٣٦/٣٥ الى ٥١١٦٤ شخصا عام ١٩٤٠/٣٩ ، ثم الى ٩٤٨٤٤ عام ١٩٤٢/٤١ . كما زاد النقل التجاري عبر الخط ، وخاصة في التصدير من ١٤٤٣١ طنا لعام ١٩٣٦/٣٥ الى ٣٧١٠٣ طن عام ١٩٤٤/٤٣ . فيما زاد النقل التجاري الداخلي من ٢٧٢٧١ طنا لعام ١٩٣٦/٣٥ الى ٤٦٦٥٣ طنا عام ١٩٤٤/٤٣ . واستخدم الخط لنقل المواشي والحيوانات (٤٨) .

د - ميناء العقبة

ضم ميناء العقبة الى الاردن رسميا بعد سنوات قليلة من انشاء الادارة الهاشمية في البلاد . ورغم انه المنفذ البحري الوحيد لشرق الاردن ، ورغم دوره التاريخي ، وموقفه الممتاز الا انه لم يطور ليكون منفذا للتجارة مع الشرق . فقد ظلت التجارة الخارجية مؤمنة عبر البلدان المجاورة ، وخاصة عبر فلسطين وسورية والعراق .

اقتصرت نشاطات الميناء وحياته الاقتصادية على الصيد ، الذي بدونه لم يلعب دورا متناميا في تنمية موارد البلاد وفي تأمين معيشة السكان المحليين . في عام ١٩٢٨ اقيم في الميناء معمل صغير لتثليج السمك وحفظه بغية التصدير الى فلسطين ، الا ان صعوبات عدة حالت بين المشروع والنجاح . وقد تكررت المحاولات دون فائدة .

في عام ١٩٣٥ ، كان الصيد عبر الميناء ضئيلا جدا . وقد ذكر جيمس هورنيل عند زيارته للعقبة ، اجابة مختار القرية : « هناك سمك كثير ولكن ليس هناك من يشتري » . وقد ترك اكثر العاملين في الصيد (حوالي ٣٠٠ رجل) البلدة

(٤٧) راجع موسى ، سليمان ، « غربيون في بلاد العرب » ، الفصل المترجم عن سانت جون فيلبي ، ص ١٤٠/١٣٨ . كذلك كونيكوف ص ٨٠/٧٨ .
(48) Konikoff. op. cit., p. 79. Table XIX. p. 114. Table XX , XXI. p. 11٤

بحثا عن العمل • وقد اثر عدم وجود وسائل مناسبة للتصدير وللحفظ • دون انتعاش الصيد السمكي في العقبة ، وبقي الصيد البدائي.حيث ٩٠٪ من عماليات الصيد تتم بالشباك اليدوية • وفشلت عام ١٩٣٦ محاولة للصيد بسفينة صيد حديثة ، فقد تحطمت في طلعتها الاولى ولم تعد صالحة للاستعمال (٤٩) •

في اثناء الحرب الثانية ومع النقص في اللحوم في فلسطين بذلت محاولات بريطانية في العقبة ومع البلدان المطلة على خليج العقبة لاستثمار صيد الاسماك • واقامت ثلاجات ومخازن مبردة كبيرة وسفن صيد متوسطة كلفت ٨٠ الف جنيه فلسطيني •

لقد اصطدمت هذه المحاولات بمشكلة اليد العاملة والصيادين المهرة الحديثين • أن ارقام الصيد من الميناء المتوفرة تشير الى انها لم تتجاوز ٧٤ طنا لعام ١٩٤٨ (٥٠) •

د - المواصلات الجوية وخدماتها •

لم يكن في البلاد مطارات مدنية ، لذا كانت الطائرات التجارية تستخدم مطارات سلاح الجو البريطاني • وكان مهبط الاتش فور 4 - H التابع لشركة نفط العراق يستخدم لتأمين خدمات الطائرات العابرة في الاجواء الاردنية وللتزود بالوقود • وفي عام ١٩٤٦ اسست شركة طيران محلية لتأمين المواصلات مع البلدان العربية المجاورة ، وكانت تمتلك خمس طائرات يقودها طيارون بريطانيون • وكانت خدماتها لعام ١٩٤٨ قد شملت نقل ٤١٠٨ مسافرين قاطعة مسافة ٨٩٠٨٧٠ ميلا (٥١) •

هـ - الخدمات البريدية والمهاتفية واللاسلكية •

كانت الخدمات البريدية داخل البلاد تتامن باستعمال العربات ، وبما ان الكثير من الطرق يتعذر استعمالها شتاء فقد كان هذا يؤثسر على مستوى هذه الخدمات • اما الخدمات البريدية الخارجية فقد كانت تتامن عن طريق ارسالها بالقطار الى حيفا ومن هناك الى العالم • عام ١٩٢٦ اقيم تبادل بريدي مباشر مع سورية ، تلاه تبادل اخر مع العراق عام ١٩٣٢ ، بعد ١٩٣٩ كانت الخدمات

(49) Ibid. p. 52 , 53.

(50) Commercial Conditions in Trans Jordan during 1948. p. 8.

(51) Ibid. p. 8. Konikoff . op. cit., p.82

البريدية تتأمن بين القدس وعمان بالسيارات • اما الرسائل الجوية فقد كانت منذ ١٩٣٨ تتم عبر خدمات البريد الجوي البريطاني •

اما خدمات التلغراف والتلغراف فقد كانت تصل بين المدن والبلدات الرئيسية في البلاد مباشرة مع فلسطين ، سورية ، العراق ومصر وكما هو متوقع فإن تقدم الاتصالات كان يتم اساسا لصالح الحكومة ، الامن العام ، فيما كانت الاتصالات العامة في هذا النطاق قليلة • وجزئيا كانت تتم لاغراض تجارية او تخدم اتصالات المواطنين الاجانب مع الخارج (٥٢) •

و - انابيب نقل النفط •

كان الامتياز الممنوح من الحكومة الاردنية الى شركة نفط العراق في مطلع عام ١٩٣١ ، قد اعطى الاخيرة حق انشاء انبوب لنقل البترول الخام من منابعه في كركوك الى مدينة حيفا عبر الاراضي الاردنية ، وهو الامتياز الذي وفر للشركة احد الخطين الرئيسيين اللذين ينقلان النفط العراقي عبر البحر الابيض المتوسط •

بموجب هذا الاتفاق اعفيت الشركة من جميع انواع الضرائب والرسوم المفروضة على الزيوت المعدنية التي تدخل الاراضي الاردنية ، كما اعفيت جميع لوازم ومهمات واجهزة الشركة اللازمة لتنفيذ المشروع من جميع الضرائب والرسوم الجمركية ، ووضعت كافة الطرق والسكك الحديدية والخطوط الهاتفية والبرقية الموجودة في البلاد تحت تصرفها ، دون ان تدفع الضرائب للمساهمة في صيانتها او تصليحها • ومنحت الشركة حق استخدام الخطوط الحديدية في شرقي الاردن لخدمة اغراضها • وحددت مدة الاتفاق بخمسة وسبعين عاما (٥٣) •

لقد انتهت الشركة مد الانابيب عام ١٩٣١ ، كما شقت في العام نفسه طريقا موازيا لامتداد الانابيب لتأمين حمايتها • وكان طول المسافة التي تمر فيها الانابيب في الاراضي الاردنية ٢٠٠ ميلا • وكان للخط ١٢ محطة ضخ ، اثنتان منهما في الاراضي الاردنية وهما المعروفتان باسم 11.4 H.5 • وكانتا تضخان آنذاك ٤٢٥٠٠ برميل في اليوم • عوضا عن كل هذه التسهيلات والاعفاءات المفرطة في كرمها ، كانت القوات المحلية مكلفة بحماية الخطوط هذه ، حيث كان يتواجد ٥٠ - ٦٠ جنديا في محطتي الضخ لاغراض امنيسة (٥٤) •

(52) Konikoff. op. cit., p. 82.

(٥٣) انظر تفاصيل مسهبة عن الاتفاقية المحققة بالحقوق الوطنية ، المعقودة مع شركة نفط العراق لدى المحافظة ، على العلاقات الاردنية البريطانية ، ص ١٠٤/١٠٢ •

(54) Konikoff. op. cit., p. 84.

ومقابل كل ذلك ، فإن الاتفاق نص على اعفاء الشركة من أية رسوم أو ضرائب على مرور النفط بالترانزيت عبر الأراضي الأردنية .

اقتصرت « المنافع الاقتصادية » للبلاد من أعمال الشركة - وفقا للمصادر الامبريالية (٥٥) - على ما وفره من تشغيل وانفاق عام واجور في البلاد اثناء مد الخطوط . فقد بلغ انفاق الشركة في الاردن ، كرواتب او اجور ، ومبادلات نحو ٤٧ر٠٠٠ جنيه فلسطيني لعام ١٩٣٢ . وخلال اعمال الانشاءات الرئيسية في عامي ٣٣ و ١٩٣٤ كان ما معدله ٢٠٠٠ من العمال قد وظفوا في اعمال الشركة . تضمنوا اعدادا من العمال المهرة مثل عمال الحفر والسائقيين والـ Fitters وغيرها . كما اكتسبت بعض المهارات في الميكانيكية ، وحفرت آبار المياه . غير انه من الملاحظ انه بعد انتهاء مد الخطوط فقد انحسر عدد العاملين المحليين في منشآت الخط ومحطاته ، كما انحسرت انفاقات الشركة ، فيما كانت الطرق والآبار الارتوازية قد وضعت في خدمة اعمال الشركة فحسب . وقد وقع هذه الاتفاقية بشروطها المجحفة رئيس الوزراء آنذاك حسن باشا أبو الهدى الذي كان يفتخر بعمالته للبريطانيين وبعداثة للجماهير والحركة الوطنية .

وفي عام ١٩٢٣ وقعت الحكومة الأردنية اتفاقا مشابها مع شركة النفط الانجلو - ايرانية لنقل النفط الايراني الخام عبر الاردن الى فلسطين ، غير ان المشروع لم يتحقق (٥٦) .

وتكررت مثل هذه الاتفاقيات المجحفة ، عندما عقدت الحكومة الأردنية وشركة التابلاين اتفاقا في آب ١٩٤٦ لمدة سبعين عاما تضمن تسهيلات عديدة ، دون ان تدفع الشركة أية رسوم أو ضرائب من أي نوع . ولم تتضمن الاتفاقية سوى مادة واحدة حفظت بعض الحقوق الوطنية عرضا ، حيث نصت على أن أي اتفاق مماثل مع سورية ولبنان يحوي شرطا ملائما أكثر مما هو في اتفاق آب ١٩٤٦ ، فإن هذا الشرط يعتبر نافذ المفعول من تاريخ الاتفاق المعقود بين الشركة وحكومتى سورية ولبنان . ووفقا لمضمون هذه المسادة يكتسب الاردن عائداته من التابلاين (٥٧) .

استنتاجات ختامية .

مما مر يمكن القول ان الدولة في الاردن كانت تعمل في خدمة الكولونيالية البريطانية بشكل رئيسي . يتضح هذا من جملة أوجه : -

(55) Ibid. p. 84.

(٥٦) راجع المحافظة ، المصدر السابق ، ص ١٠٤ .

(٥٧) الماضي وموسى ، المصدر المذكور انفا ، ص ٤١١/٤١٢

١ - من كونها كانت ممولة بشكل رئيسي من الكولونيالية البريطانية ومعتمدة على المعونة المالية البريطانية . كان اعتمادها على هذا العون يتزايد ولا سيما في سنوات الحرب الثانية بعد ان تطلبت المصالح البريطانية زيادة اعتمادها على القوات المحلية وعلى تطوير هذه القوات عدداً وعدة . هكذا هبطت حصة الواردات المحلية الى مجموع الموارد العامة للدولة من نسبة ٧٢٫٢٪ في الاعوام ١٩٣٤/٤٢ الى ٤٤٫٨٪ عام ١٩٤٠/٣٩ والى ٢٤٫٧٪ عام ١٩٤٤/٤٣ ، كنتيجة لتنامي حصة المعونة البريطانية لموازنة الدولة في الاردن . وهذا بدوره كان يزيد من حجم الاشراف والادارة المباشرة للسلطات البريطانية وممثليها وعملائها مع الدولة والقوات المسلحة .

٢ - كانت حصة الدفاع والامن من الموازنة العامة تتنامى بالتالي للسبب البار اعلاه . ويتناسب نموها مع زيادة المعونة المالية البريطانية للموازنة . هكذا ارتفعت حصة الدفاع والامن من متوسط ٤٠٪ من النفقات العامة للدولة في الاعوام ١٩٣٤/٢٤ الى ٧١٫٣٪ عام ١٩٤٤/٤٣ والى ٧٣٫٨٪ عام ١٩٤٦/٤٥ . ١٩٤٦ .

وبالمقابل يمكن القول ان الجماهير الاردنية كانت متضررة ومستنزفة من قبل السلطات البريطانية . ومن الانفاق على خدمات لم تكن تقتضيها المصلحة الوطنية ، بل بالعكس كانت الجماهير الاردنية مضطرة لتمويل جوانب هامة من نفقات القوات الموظفة في خدمة الاستعمار البريطاني وادارتها العامة والمشاريع المرتبطة بها كالاشراف العامة والطرق والمواصلات والبريد والتلغراف . اما المؤشرات المباشرة على تضرر مصالح الجماهير من الدولة وطبيعتها الكولونيالية فهي التالية :

١ - كانت حصة الانفاق على كل من الزراعة والري ، والتعليم والصحة العامة ، وهي القطاعات الخدمية التي تستفيد منها الجماهير الاردنية ، لا تزيد في المتوسط للاعوام ١٩٣٤/٢٤ عن ١٣٫٣٪ من النفقات العامة للدولة وانخفضت هذه الحصة الى ٥٫٨٪ من النفقات العامة للدولة عام ١٩٤٤/٤٣ .

٢ - واذا ما قارنا الانفاق على الزراعة والري والتعليم والصحة العامة بالواردات المحلية للدولة ، لوجدنا انها لم تزد عن ١٨٫٤٪ في الاعوام ١٩٣٤/٢٤ وعن نسبة ٢٣٫٥٪ لعام ١٩٤٤/٤٣ . اي ان المواطنين الاردنيين لم يتلقوا خدمات مقابل الحصة الاعظم من الضرائب المباشرة وغير المباشرة التي يقدمونها للدولة . وبكلام اخر كان المواطنون الاردنيون يمولون القطاعات غير المفيدة لهم ، وبعضها معاد لهم ولصالحهم (كالدفاع والامن) بما نسبته

٨١٫٦٪ من الواردات المحلية في الاعوام ١٩٣٤/٢٤ وبنسبة ٧٦٫٥٪ عام ١٩٤٤/٤٣ . وحتى لو اضعفنا الى قطاعات الخدمات المفيدة للجماهير الاردنية ، نفقات اخرى كالبريد والتلغراف وغيرها ، مع انها تعمل لمصلحته في خدمة المصالح البريطانية في اكثرها ، فان اكثر من نصف واردات الضرائب المقدمة منهم تذهب لتمويل اغراض ليس لهم ولا للبلاد أي مصلحة فيها . بل هي في الغالب موظفة ضد مصالحهم وطموحاتهم . ان هذا ما يبرهن على ان احتجاج الحركة الفلسطينية ومن نضالها ومن اجل الاستقلال المالي كان له اساسه الموضوعي والمشروع ، كما يبرهن هذا على تهافت الادعاء ان البلاد كانت « مستفيدة » من الكولونيالية البريطانية اكثر مما هي مستنزفة .

٣ - اما الوجه غير المباشر للاستنزاف الامبريالي لشرق الاردن وجماهيرها، فيتجلى في مضمون وجوهر نمط التطور الاقتصادي الرث الذي حملته معها السيطرة الكولونيالية . فتمو جهاز الدولة والجيش وقطاع التجارة بافراط في خدمة المصالح الكولونيالية او بسببها وضعف تطور قطاعات الانتاج الاساسية وتحولها الى مواقع هامشية ، هو جوهر الاستنزاف الامبريالي . ان أدت هذه العملية التاريخية الى اضعاف مقومات التحرر الوطني بالمعنى الاقتصادي والاجتماعي ، واعاقت تطور القوى المنتجة ، واعطت الفئات الطفيلية فرصا واسعة للعب دور مقرر في حياة البلاد . وبالمقابل اعاقت تشكل الطبقات وتطور البلاد الاجتماعي وتكون قاعدة اجتماعية واسعة ، منسجمة وفعالة في النضال ضد الامبريالية .

واخيرا كانت الدولة ، فضلا عن كونها تعمل في خدمة الكولونيالية البريطانية، تخدم اساسا مصالح الفئات الطفيلية التي تشكلت كطبقة حاكمة غير متجانسة في نهاية الامر وكانت ، اي الدولة ، تستنزف الجماهير الكادحة من اصحاب الدخول الدنيا والمتوسطة . هذا ما تظهره المؤشرات التالية :

١ - كانت حصيله ضريبية الدخل والرخص (اي الضرائب المباشرة) تشكل ما نسبته ٥١٫٦٪ من الواردات المحلية في سنوات ١٩٢٤/١٩٣٤ . ولم تلبث ان هبطت مساهمتها سنة بعد اخرى فقد كانت نسبتها الى الواردات المحلية في السنوات اللاحقة كما يلي : ٢٣٪ لعام ١٩٤٤/٤٣ و٢١٫١٪ لعام ١٩٤٨ . اي ان الاعباء الضريبية التي يتحملها اصحاب الدخول الكبيرة قد ارتفعت في سنوات الحرب وبعدها بوتائر عالية جدا . بل وخيالية .

٢- اما الجمارك والرسوم (اي الضرائب غير المباشرة) فقد اخذت شيئا فشيئا تحمل العبء الضريبي الاكبر على الجماهير الفقيرة واصحاب الدخول المحدودة . وهكذا ارتفعت حصيلتها من ٢٩٫٢٪ من الواردات المحلية في الاعوام ١٩٣٤/٢٤ الى ٢٣٫٧٪ عام ١٩٤٤/٤٣ ، ثم الى ٤٧٪ عام ١٩٤٨/٤٧ .

وهذا يبرهن على ان الجماهير الكادحة والمحدودة الدخل كانت تمول الدولة بشكل رئيسي ، وليس اصحاب الدخل العليا .

ولو قارنا حصيلة الضرائب غير المباشرة من جمارك ورسوم ، مع نفقات القطاعات الخدمية الضرورية للجماهير مثل الزراعة والري والتعليم والصحة العامة ، لتبين لنا ايضا وبالملموس ان الانفاق على الاخيرة لم يتجاوز ٦٢٫٩٪ من الضرائب غير المباشرة في الاعوام ١٩٣٤/٢٤ و٦٩٫٨٪ عام ١٩٤٤/٤٣ و١٤٫٥٪ عام ١٩٤٨/٤٧ . اي ان الجماهير الفقيرة كانت تمول الخدمات والمصالح غير الضرورية لها ، والموظفة في خدمة الكولونيالية البريطانية .

٣ - كانت خدمات من مثل الاشغال العامة والبريد والتلغراف تنتزع ما نسبته ١٢٫٢٪ من النفقات العامة في الاعوام ١٩٣٤/٢٤ و٢٥٫٢٪ لعام ١٩٤٠/٣٩ . اي نسب توازي تقريبا الانفاق على الزراعة والتعليم والصحة او تفوقها كثيرا ، مع ان الجماهير لم تكن قادرة على الاستفادة من هذه الخدمات. وكانت بالاكتر موظفة في خدمة الوجود الكولونيالي ، او فئة محدودة من السكان . وكان الانفاق عليها يتم ايضا من الواردات المحلية الى هذا الحد او ذاك . اذ ان دخل هذه المرافق الخدمية لم يزد عن ٢٦٪ من نفقاتها في ١٩٣٤/٢٤ وعن ٦٫٣٪ عام ١٩٤٠/٣٩ .

كل ذلك يبرر وصف الدولة كجهاز كولونيالي معاد للجماهير ، موظف في خدمة المصالح البريطانية ، وان الجماهير كانت متضررة بالمعنى المباشر من هذا الجهاز ، وليس فقط ، بالمعنى السياسي والاقتصادي الاشم . كما كانت الجماهير مستنزفة ، مضطهدة بالمعنى المباشر ، من قبل الفئات الطفيلية المستفيدة من الدولة ، والتي اخذت تشكل طبقة اجتماعية متعايشة ومنتفعة من الارتباط بالامبريالية ومن نمط التطور الرث الذي صاحب سيطرتها على البلاد خلال هذه الفترة .

افريقيا ٧٧

معدلات الصّراع .. ومفارقاته

سمير كرم

اكثر من اي منطقة جغرافية متكاملة في العالم تحتل افريقيا مكانا اول في احتياطي وفي انتاج عديد من انواع المواد الخام التي تمس حاجة العالم الغربي اليها باستمرار ، ليس لاغراض الانتاج السلمي فحسب ، بل ولاغراض الانتاج العسكري - بما فيه الذري - كذلك .

والمدخل الطبيعي الى فهم الصراعات الكبرى على افريقيا هو ارقام ثرواتها الطبيعية . فالقارة السوداء تملك وحدها ٩٠ بالمائة من احتياطي العالم من الماس (٥٧٥ مليون قيراط) و ٩٠ بالمائة من احتياطي العالم من البلاتين والبلاتين (١٢٧٠٠ طن) و ٩٠ بالمائة من احتياطي العالم من الكروم (١٦٠٠ مليون طن) ، وتملك ربع احتياطي العالم من اليوكسيت (٤٠٠٠ مليون طن) ، ١٥٪ من النحاس الخام (٤٤ مليون طن) ، ١٤٪ من الغاز الطبيعي (٣٠٠٠٠٠٠ مليون متر مكعب) ، ١٣٪ من الحديد الخام (٣٠ مليار طن) ، ١٢٪ من النفط (٩٢٠٠ مليون طن) ، فضلا عن كميات هائلة من معادن الرصاص والزنك والقصدير والليثيوم والجرافيت ...

* انظر « شؤون فلسطينية » ، ايار (مايو) ١٩٧٧ : افريقيا ٧٧ -
الاحتميات والاحتمالات .

وتوزيع بعض هذه الثروات الطبيعية في البلدان الافريقية له طابع قريد يبعث على الدهشة . فنجد مثلا ان زائير تملك وحدها ٨٧ بالمائة من كل احتياطي القارة من الماس ، وان معظم ثروات افريقيا من الذهب والبلاتين يتركز في جنوب افريقيا ، والبوكسيت في غينيا والكاميرون . ثم هناك « حزام النحاس » العريض في زامبيا وزائير ، اللتين تملكان ٩٣ بالمائة من احتياطي افريقيا منه . وفي شمال افريقيا يكمن اضعف احواض الفوسفات في العالم ، حيث تملك المغرب اكثر من ٩٠٪ من احتياطي العالم منه . وتملك الجزائر وليبيا ونيجيريا ثروات هائلة من النفط والغاز الطبيعي .

ونتيجة لهذا الاحتياطي الهائل فان بلدان افريقيا تعتبر من اكبر المنتجين والمصدرين للثروات المعدنية . فنجد ان افريقيا انتجت في عام ١٩٧٥ نسبة ٩٨٪ من كل الماس المنتج في العالم ، وكذلك ٨١٪ من البلاتين والبالاديوم والذهب ، وحوالي ٥٠٪ من المنجنيز والكروم ، ٣٠٪ من الفوسفات ، ١٢٪ من النفط والحديد الخام ، ٦٪ من البوكسيت والقصدير المركز ، و ٤٪ من الزنك . والاختلال في توزيع هذه الثروات المعدنية في باطن اراضي البلدان الافريقية له انعكاسه في اختلال مماثل في توزيع انتاج هذه البلدان لتلك الثروات .

ولكن الظاهرة الاشد خطورة من اختلال التوزيع والانتاج ، هي ظاهرة النهب الذي تمارسه الشركات الرأسمالية الكبيرة في عمليتي الانتاج والتسويق في افريقيا ، حيث تسيطر هذه الشركات سيطرة شبة تامة على انتاج وتصدير ثروات افريقيا المعدنية . وهناك شركة واحدة ضخمة - هي المؤسسة الانجلو - اميركية لجنوب افريقيا Anglo - American Corporation for South Africa - تسيطر وحدها على انتاج انواع عديدة من المواد الخام المعدنية (الذهب ، الماس ومشتقاته ، اليورانيوم ، الكوبالت ، والبلاتين) في جنوب افريقيا ، ناميبيا ، ليسوتو ، بوتسوانا ، زامبيا ، وزائير . وتبلغ قيمة عمليات هذه الشركة في زامبيا وحدها اكثر من ٥٠٠ مليون دولار .

واضعف مجال للاستثمار الاجنبي في افريقيا هو صناعة النفط والغاز الطبيعي . وقد بلغت قيمة استثمارات الشركات الغربية (الاميركية والبريطانية والفرنسية اساسا) خلال ربع القرن الثالث من هذا القرن (١٩٥٠ - ١٩٧٥) ١١٧٠٠ مليون دولار .

واذا خرجنا من اطار الثروات المعدنية وجدنا افريقيا تملك ١٧٪ من الثروة الخشبية في العالم ، اذ تملك وحدها مساحة ٧٠٠ مليون هكتار من الغابات الاستوائية . كما تضيف افريقيا الى مقدار الطاقة الكهربائية المستخرجة من المصادر المائية في العالم ١٦٢٩٠٠٠ مليون كيلو وات ساعة سنويا ، وهو ما يعادل ٣٠٪ من الطاقة العالمية . وفي الزراعة تنتج افريقيا ٧٠٪ من انتاج

العالم من الكاكاو (حوالي مليون طن) ، ٦٥٪ من الالياف النباتية ، ٥٥٪ من زيوت النخيل (٣٥٠.٠٠٠ رطل) ، و ٥٥٪ من السمسم (٣٥٠ الف طن) ، فضلا عن كميات ضخمة من البن وجوز الهند والموز والفواكه والمطاط والتبغ والقطن (*) .

قد تبدو هذه مقدمة طويلة مشحونة بالارقام والنسب المثوية لموضوع يتعلق بالصراعات الكبرى على افريقيا ، ولكنها في النهاية مقدمة ضرورية كي لا تبقى كلمة افريقيا او عبارة « القارة العذراء » التي كثيرا ما سمعناها وقرانها في كتب الغرب ، كلمة او عبارة مجردة من محتواها الذي تعنيه بالنسبة للغرب خاصة . فربما حينما تقال كلمة افريقيا قفزت الى المذهن العربي صورة الخريطة التي يحتل منها الشمال الافريقي العربي (من مصر شرقا الى المغرب غربا) كل القطاع الشمالي ، وربما قفزت صورة الغابات التي يحتمي في احراشها المقاتلون من اجل الحرية ، وربما صورة القبائل التي تجيد انواع الرقص الايقاعي الذي لهم الموسيقى الاوروبية الحديثة . . . ربما قفزت الى المذهن العربي اي صورة الاتك التي تقفز الى المذهن الغربي - خاصة الاوروبي - عندما تذكر افريقيا . . . وتلك تتألف ملامحها العاملة والتفصيلية من الارقام والنسب المثوية التي حشرناها في المقدمة . . .



صراعان . . ونتيجتان

في غضون عشرين شهرا فقط من منتصف عام ١٩٧٥ الى اوائل عام ١٩٧٧ كانت افريقيا مسرحا لصراعين كبيرين - بكل المقاييس التي يمكن استخدامها لوصف صراع بانه كبير - : صراع في انغولا في ١٩٧٥ ، وصراع في زائير في عام ١٩٧٧ . وكان واضحا لكل عين ترى ان الصراعين وجهان لصورة واحدة . . . وان القوى المشتركة في الصراعين مباشرة اما لها اطراف دولية . . . او انها هي نفسها اطراف لاجسام دولية .

□ هذان الصراعان دارا على ارض اثنتين من اكبر الدول الافريقية واغناها بالثروات . انغولا وزائير .

□ كذلك فقد دارا على ارض بلدين افريقيين هما الاقرب جغرافيا واستراتيجيا الى جبهات الصراع الكامن بين افريقيا السوداء ونظم الحكم البيضاء . فانغولا وزائير تشكلان - مع تانزانيا وموزمبيق على الجانب الاخر من القارة ، خط الهجوم الاول من افريقيا السوداء على نظم الحكم البيضاء .

□ احد المصراعين - صراع انغولا - انتهى بما يعد - من زاوية نظر عالمية، انتصارا للاتحاد السوفياتي بقيام سلطة الجبهة الشعبية لتحرير انغولا ، التي نالت التأييد السوفياتي الصريح والواضح والكامل منذ عام ١٩٥٦ ، وهزيمة للولايات المتحدة (والى جانبها أوروبا الغربية ، ووراءهما الصين) التي وقفت ، بعد طول ابتعاد عن دور فعال في صف نضال انغولا ضد الاستعمار البرتغالي ، الى جانب الجبهتين الاخرين لاسباب ربما لا تعني في التحليل النهائي شيئا الا كونهما اتخذتا موقفا مناهضا للجبهة التي ايدها السوفيات .

□ الصراع الآخر - صراع زائير - انتهى بما يعد انتصارا للغرب الاميركي والاوروبي (وللخط السياسي الخارجي للصين) بالحيلولة دون سقوط نظام موبوتو اليميني والمفاسد . وهو - كما يتضح انتصارا بالسلب ، وليس انتصارا ايجابيا ، كما الحال في قيام سلطة الجبهة الشعبية في انغولا . وقد استطاع الغرب ان يعوض هذا المعنى السلبي لانتصاره عندما ركز قدراته الاعلامية على تصوير الحركة في اقليم « شابا » (كاتانغا) الزائيري ، بانها حركة انغولية - سوفياتية - كوبية . وقد دفع فريقا من القادة الافريقيين الموالين للغرب - الذين يمرون بظروف مماثلة لموبوتو ولا يريدون لسقوطه ان يكون نموذجا - لان يتولوا اطلاق المعلومات غير الصحيحة عن اشتراك فعلي كوبي او انغولي او شحنات تسليح سوفياتية كبيرة في اقليم « شابا » - ولم يستطع الغرب - لاسباب واضحة - ان يطلق هو هذا النوع من الاتباء . وساعد الاتحاد السوفياتي الغرب في هذا عندما بدا شبه مستدرج الى تأييد بالتعاطف مع ما يجري في اقليم « شابا » . فيما بدا الغرب مصمما هذه المرة على الا يدع « انغولا » تتكرر في « زائير » ، وعزز الموقف الصيني المضاد من الروح المعنوية للغرب وتصميمه على الحاق هزيمة بالاتحاد السوفياتي ، حتى وان كان يعلم ان الاتحاد السوفياتي لم يشترك في هذه المعركة .

□ في هذين المصراعين تجلت بوضوح حقيقة ان الولايات المتحدة - في نظرتها الاستراتيجية العامة الى افريقيا السوداء - تقسم القارة الى فئتين من الدول : دول افريقية « اشتراكية » ، تعتبرها معادية لها وتشكل خطرا على مصالح الغرب كله في افريقيا، وهذه تشمل اساسا تانزانيا وزامبيا والكونغو (برازافيل) وكانت تريد في الصراع الاول ان تمنع انضمام انغولا الى هذه المجموعة . وقشلت ، ودول افريقية « رأسمالية » ، تعتبرها حليفة لها وتشكل حماية مساعدة

لمصالح الغرب في أفريقيا ، فيما الحماية الرئيسية تتمثل في نظم الحكم البيضاء ، وهذه تشمل أساسا زائير ومالاوي وجابون وكينيا ، وكانت الولايات المتحدة تريد في الصراع الثاني أن تمنع خروج زائير من هذه المجموعة .

□ في هذين الصراعين تجلت بوضوح حقيقة أن الاتحاد السوفياتي كان ذا نظرة استراتيجية - ايدولوجية معا ، وأن اهتمامه بأفريقيا قد سجل تصاعدا كبيرا في السلوك الدولي السوفياتي الذي توجهه مؤشرات مشتركة من «المصالح» و «المبادئ» . في الصراع الأول تحرك الاتحاد السوفياتي عقائديا ومصالحيا معا في توازن دقيق ومدروس فيما اعتبره المراقبون الغربيون « أكبر تدخل عسكري للاتحاد السوفياتي على الإطلاق في منطقة غير متاخمة لحدوده » . (قدرت قيمة الامدادات العسكرية السوفياتية الى انغولا بأكثر من نصف مليون دولار) ، وكان تأييده للجبهة الشعبية لتحرير انغولا استمرارا لموقف ايدولوجي صاحب هذه الجبهة من بداياتها الضعيفة الى اللحظات الحاسمة ، في صراعها ضد الامبراطورية الاستعمارية البرتغالية ، ثم ضد الانشقاقات التي خلقها الغرب ، وشارك في خلقها الخط الصيني . وفي الصراع الثاني تحرك الاتحاد السوفياتي بغير توازن بين خطه الايدولوجي ومصالحه الاستراتيجية . ولهذا شاب حضوره في هذا الصراع التردد - حتى الاعلامي - فلم تكن القسوة الرئيسية المتصدية لنظام موبوتو ذات قيمة ثورية ايدولوجية حقيقية . ولم يكن ثمة ارتباط عضوي بينها وبين تطلعات شعب زائير ، كما كان حال الجبهة الشعبية في انغولا .

[وينعكس الاختلال نفسه بين «المبادئ» و «المصالح» في سياسات موسكو الاخيرة ازاء التناقضات الاقليمية بين الصومال واثيوبيا ، بما تنطوي عليه من مشكلات ارتيريا ، والحدود الصومالية - الاثيوبية ، ومصير جيبوتي بعد الاستقلال] .

□ اظهر هذان الصراعان ان المقولة الذاهبة الى ان « اميركا ما بعد فيتنام» مقيدة الحركة اكثر من الاتحاد السوفياتي هي مقولة صحيحة ، وذلك حيث اتضح حرص الولايات المتحدة على الاتلعب دورا مباشرا في صراع بعييد عن حدودها ، ولكنهما اظهرا ايضا ان هذا القيد الذي فرضته تجربة فيتنام المريرة على اميركا لا ينفي حقيقة ان الغرب الامبريالي لا يزال - رغم تناقضاته الاستراتيجية والاقتصادية - متماسكا سياسيا الى حد يمكنه من تنسيق ادواره الاستراتيجية باتقان في بعض الاحيان . بينما المعسكر الاشتراكي لا يزال يتحمل الاعباء الجسيمة الخطيرة المترتبة على بلوغ الصراع الصيني - السوفياتي المدى الذي وصل اليه . في الصراع الاول كانت الغلبة في مسلك اميركا تجاه انغولا لعقد فيتنام . وفي الصراع الثاني كانت الغلبة في مسلك اميركا هي

عامل التماسك والتنسيق بين دول الغرب الامبريالي . وهكذا فان اوروبا الغربية التي ربما بدت سطوحيا على الهامش في الصراع الاول ، تقدمت الى الخُسط الامامي للصراع في الصراع الثاني ، وان بقيت هامشية من حيث صنع القرار ، ومن حيث غنائم الصراع . وفي الوقت نفسه فان الصين - التي ربما بدت في الصراع الاول « ضد » الاتحاد السوفياتي اكثر مما هي « مع » طرف ما - ظهرت في الصراع الثاني اكثر استعدادا لان تكون « مع » الغرب والقوى الداخلية العاملة له بقدر ما هي « ضد » الاتحاد السوفياتي والقوى التي يؤيدها .

هكذا فان موقف الاتحاد السوفياتي - من جانب - وموقف اوروبا الغربية - من الجانب المعاكس - يبدوان معبرين عن استمرارية لدوافع ومنطق واهداف توطدت منذ وقت طويل سابق على نشوء جذور اي مسن هذين الصراعين ، النموذجين - الاول بايديولوجيته .

اما موقف الولايات المتحدة وموقف الصين فانهما يبدوان معبرين عن تغيير جدة في الدوافع والمنطق والاهداف . وبهذا المنطق فان هذه الدراسة - التي لا تهدف الى مسح شامل لسياسات الدول الكبرى المتصارعة في افريقيا - تتجه نحو بحث هذا الجانب : الولايات المتحدة والصين ، بدرجة اكبر من التفصيل ، على خلفية من السمات والعوامل التي شرحناها عن افريقيا السبعينات ، والسمات والعوامل الاخص لافريقيا ٧٧ . ولكي نواصل السير مع خيط الحتميات والاحتمالات ، فان التركيز على الولايات المتحدة والصين بالذات يفيد في كشف التمايز بين هذه المتغيرات : الحتمية والاحتمالية .

اميركا ٠٠ « الوثيقة ٣٩ »

يعرف المتخصصون في الشؤون الافريقية في الولايات المتحدة بوجود وثيقة سرية خاصة بالسياسة الاميركية في افريقيا يشار اليها باسم « مذكرة الدراسة رقم ٣٩ للامن القومي » National Security Study Memorandum 39 (N.S.S.M. 39)

وهي آخر واهم وثيقة تحدد الخطوط العامة والاهداف الرئيسية لسياسة الولايات المتحدة في « الجنوب الافريقي » . وقد شارك في وضعها خبراء وزارة الخارجية ووزارة الدفاع ووكالة المخابرات المركزية C.I.A. ، وساعد في وضعها في صيغتها النهائية خبراء من وزارة الخزانة ووزارة التجارة ، وكذلك من وكالة ابحاث الطيران والفضاء N.A.S.A.

واذا كانت هذه المذكرة لم تجد سبيلها الى النشر في افريقيا - والوطن العربي ايضا - لاسباب مفهومة لا تقتصر على سريتها ، وانما تمتد الى التقاعس

وفقدان الاهتمام - فان ذلك يوجد كل مبرر لمناقشتها ، على ضوء التطورات الاخيرة للسياسة الاميركية في افريقيا .

وضعت هذه الدراسة - الوثيقة - في عام ١٩٧٠ بأشراف هنري كيسنجر ، وكان وقتها مساعدا للرئيس الاميركي نيكسون لشئون الامن القومي . وتتألف من « خمسة اختيارات » مفتوحة امام الولايات المتحدة في افريقيا ، وتتراوح هذه الاختيارات الخمسة بين « التعاون الوثيق » مع نظم الاقليات البيضاء الحاكمة ، و « عدم التدخل كلية » في شؤون القارة بأسرها .

ويهمنا هنا - من اجل فهم موضوعي لما استجد ويستجد في سياسة الولايات المتحدة تجاه افريقيا خلال الفترة الاخيرة - مناقشة « الاختيار الثاني » الذي طرحه « الوثيقة ٣٩ » . مع ملاحظات سريعة عن مضمون كل من الاختيارات الخمسة .

● الاختيار الاول : يدعو الحكومة الاميركية الى « تعاون اوثق وصريح مع نظم الحكم البيضاء من اجل الحفاظ على - وتوسيع - المصالح الاميركية ، الاقتصادية والاستراتيجية والعلمية » . (وعلينا ان نلاحظ هنا ان كلمة « علمية » تعني في سياغها البحوث المتعلقة باستغلال مصادر الثروة الطبيعية ، واستغلال المواقع الجغرافية الملائمة في قارة افريقيا لانشاء محطات متابعة الاقمار الصناعية ، التي بدورها تتولى دراسة مواقع الثروات الطبيعية الكامنة تحت الارض . الخ فكلمة علمية هنا لا تعني المعنى الاكاديمي المجرد للكلمة بما لها من قيمة فكرية وانسانية .

● الاختيار الثاني : يدعو الحكومة الاميركية الى « ارتباط اوسع مع الدول السوداء والبيضاء على السواء ، بهدف التأثير على الدول البيضاء لتتجه نحو الاعتدال ، وتثبيط الاتجاه الى العنف الذي تؤيده الدول السوداء » . وقد قدمت هذا الاختيار ودافعت عنه مجموعة خبراء لمجلس الامن القومي الاميركي ، اي مجموعة مساعدي هنري كيسنجر .

● الاختيار الثالث : يدعو الحكومة الاميركية الى مواصلة سياستها الافريقية التي مارستها طوال الستينات ، وهي سياسة « الروابط المحدودة » مع نظم الاقلية البيضاء ، والاستمرار في علاقات التجارة والاستثمار والمساعدة مع الحكومات السوداء المعتدلة . وقد استمات في الدفاع عن هذا الاختيار المسئولون في ادارة شئون افريقيا بوزارة الخارجية .

● الاختيار الرابع : يدعو الحكومة الاميركية الى التنديد بحكم الاقليات البيضاء على نحو اكثر وضوحا ، يضمن كسب تأييد الحكومات السوداء للمصالح الاميركية في افريقيا .

● الاختيار الخامس : يدعو الحكومة الاميركية الى فصم كل ارتباط ممكن لها مع الحكومات السوداء والبيضاء معا في الجنوب الافريقي (الذي تسمية الوثيقة « شبه القارة الافريقية الجنوبية ») .

اما لماذا نرى تركيز الاهتمام على « الاختيار الثاني » ، فهذا امر يكشفه محتوى هذا الاختيار نفسه ، اعني المحتوى سياسيا وما ينطوي عليه من منهجية في تناول مسائل العلاقات الدولية من زاوية النظر الاميركية ، فضلا عن ان هذا الاختيار قد لقي تأييد هنري كيسنجر منذ ذلك الوقت ، وتبناه ودفع به الى قنوات التنفيذ العملي في وزارة الخارجية الاميركية وفي البيت الابيض . ولا يزال هذا الاختيار قائما يؤدي دوره ووظيفته في السياسة الخارجية الاميركية بعد رحيل كيسنجر عن منصبه ، اللذين من خلالهما اسهم في صياغة « الوثيقة ٢٩ » ، ووضعها موضع التنفيذ ، وهما منصب وزير الخارجية ومنصب رئيس مجلس الامن القومي (مساعد الرئيس الاميركي لشئون الامن القومي) .

وقد بدأت مناقشة « الاختيار الثاني » في الوثيقة بمقدمة مفادها « ان البيض في افريقيا وجدوا لبيقوا ، وان الطريقة الوحيدة التي يمكن بها احداث تغيير هي من خالهم» . واوصى الاختيار باتباع استراتيجية ذات شقين : «تحقيق استرخاء انتقائي في موقفنا ازاء نظم الحكم البيضاء» من اجل تشجيع الاعتدال ، و « مزيد من المساعدة الاقتصادية الكبيرة للدول السوداء ، من اجل المساعدة على الجمع بين المجموعتين وممارسة قدر من النفوذ في سبيل تغيير سلمي » .

يرمي هذا الاختيار بصورة محددة الى انتهاج سياسة اميركية « اكثر ليونة» تجاه حكم ايان سميث العنصري في روديسيا . وكان يرمي - في الوقت الذي وضعت فيه هذه الدراسة الى قبول السياسات البرتغالية (السابقة على حركة القوات المسلحة - في نيسان ١٩٧٤) باعتبارها توحى بمزيد من التغيير في مستعمرات البرتغال الافريقية [. ويتعهد الاختيار ببذل جهد اكبر لاقناع الدول السوداء بان العنف يأتي بنتائج مضادة . وتصور واضعو « الاختيار الثاني » انه لا بد من مرور فترة خمس سنوات تقريبا (تبدأ من منتصف عام ١٩٧٤) قبل ان يصبح في الامكان الحصول على استجابة من البيض ، وقبل ان يصبح في امكان السود ان ينصتوا الى صوت السياسة الاميركية ، وعلى هذا الاساس فانهم اقترحوا تسريع التغيير في مواقف البيض عن طريق اشارة الى استعداد لدى الولايات المتحدة « لقبول اجراءات سياسية تضمن تقدما نحو مشاركة سياسية واسعة باشكال معينة من جانب كل السكان، بما يكون اقل مباشرة من حكم الاغلبية » .

كذلك دعا « الاختيار الثاني » الى استمرار فرض حظر تصدير الاسلحة مباشرة الى جنوب افريقيا والى المستعمرات البرتغالية ، ولكنه ادخل تعديلا هاما

يقضي باتباع « معاملة متحررة بالنسبة للمعدات التي يمكن ان تخدم اغراضا عسكرية ومدنية معا » . وبعد اشهر قليلة من وضع هذا الاختيار موضع التنفيذ قال مساعد وزير الخارجية الاميركي للشؤون الافريقية « دونالد نيسوم » ان هذا التعديل قد « بدل سياسة الحظر » . وشرح ما يعنيه قائلا « اننا لا نصرح - مثلا - طبقا لمبادئ الحظر - باصدار اذون بتصدير طائرات عسكرية ، او طائرات نقل ضخمة للاستخدام العسكري ، ولكننا يمكن ان ننظر في الاذن باعداد صغيرة من الطائرات غير المسلحة ذات الطابع المدني » .

وبالنسبة لاهمية هذا التعديل للبرتغال ، فانها تتمثل في بيع عدد من الطائرات النفاثة الضخمة الى البرتغال ، وهي طائرات استخدمت طوال السنوات الثلاث الاولى من السبعينات في نقل القوات والمعدات البرتغالية على اوسع نطاق الى المستعمرات البرتغالية آنذاك .

وبالنسبة لجنوب افريقيا فان التعديل قد انعكس مباشرة في ارتفاع قيمة مبيعات الطائرات الاميركية للحكومة العنصرية البيضاء من ٢١ مليون دولار في العام ١٩٧٠ الى ٨٠ مليون دولار في العام ١٩٧٢ . وقد استخدمت الطائرات الاميركية بوجه خاص في تسيير دوريات مراقبة جوية على الحدود الشمالية لجنوب افريقيا .

وفي الوقت نفسه فان البرتغال وجنوب افريقيا تمكنتا بذلك من شراء انواع من مبيدات النبات والغازات الفتاكة من الولايات المتحدة، من انواع كانت تستخدمها الاخيرة في فيتنام في السنوات نفسها من اوائل السبعينات .

كذلك فقد دعا «الاختيار الثاني» الى تكثيف الدعاية الاميركية في بلدان افريقيا، وتكثيف برامج تبادل الزيارات مع الدول السوداء والبيضاء على السواء . واوصى بالتبادل العسكري كجزء من « برامج تبادلية انتقائية مع جنوب افريقيا » . وبالفعل فان تدفق الزوار من دول الجنوب الافريقي على الولايات المتحدة قد زاد بشكل هائل في السنوات التي تلت وضع هذا الاختيار موضع التنفيذ . وبصفة خاصة فان عددا كبيرا من زعماء جنوب افريقيا القبليين (المتعاونين مع حكومة بريتوريا العنصرية وليس الزعماء الوطنيين) وكذلك زعماء نقابات العمال ورجال الاعمال من جنوب افريقيا ، قاموا بزيارات جابوا خلالها انحاء الولايات المتحدة كضيوف على وزارة الخارجية الاميركية .

وعلى الرغم ان السياسة المعلنة للحكومة الاميركية - هي تحريم تبادل زيارات العسكريين مع جنوب افريقيا ، فان هذه الزيارات يتم تبادلها فعلا تحت غطاء كونها « زيارات خاصة » او « ذات طابع شخصي » . وبهذه الصفة قام «الادميرال بيرمان» رئيس اركان حرب قوات دفاع جنوب افريقيا بزيارة للولايات المتحدة

في شهر آيار (مايو) ١٩٧٤ ، وأجرى محادثات مع اثنين من اكبر المسؤولين في « البننتاغون » (وزارة الدفاع الاميركية) هما « توماس مورر » رئيس هيئة اركان الحرب الاميركية المشتركة (وهو اعلى منصب عسكري اميركي) ووزير البحرية الاميركي آنذاك وليام ميدندورف . وقد تمت زيارة الاميرال وقتئذ على الرغم من ان ادارة افريقيا في وزارة الخارجية الاميركية رفضت التوصية بمنحه تأشيرة دخول للولايات المتحدة ، عى اساس ان ذلك مناقض لروح الحظر العسكري المفروض على جنوب افريقيا . الا ان عددا من اعضاء مجلس المشيوخ الاميركي ذوي النفوذ القوي بحثوا الامر مع مساعدي كيسنجر (الذي كان قد اصبح وزيرا للخارجية في عام ١٩٧٣ ، فأعطيت التأشيرة للاميرال العنصري .

من ناحية اخرى دعا الاختيار الثاني في « الوثيقة ٣٩ » الى تشجيع الاستثمارات والتجارة مع جنوب افريقيا ، ورفع الحظر على تقديم قروض او تسهيلات ائتمانية بضمان الحكومة الاميركية لحكومة جنوب افريقيا . وكان الموقف الرسمي المعلن قبل ذلك هو الامتناع عن التشجيع او التثبيط الرسمي للاستثمارات الاميركية في جنوب افريقيا . ومع ذلك فقد استمرت القنصليات الاميركية في مدن جنوب افريقيا المختلفة تقدم التسهيلات الرسمية للمؤسسات الاميركية العاملة هناك . وخلال السنوات الخمس الاولى من السبعينات زادت استثمارات رأس المال الاميركي في جنوب افريقيا بنسبة تروبو على ٣٥ في المائة .

يلاحظ في هذا الصدد ان اثنين من توصيات « الاختيار الثاني » في « الوثيقة » لم يوضعا برسم التنفيذ . احدهما توصية بالغاء الحظر الذي فرض على زيارة البحرية الاميركية (رجالها وسفنها) لجنوب افريقيا - وهو حظر كان قد فرض ردا على تعرض البحارة الاميركيين الزنوج للتمييز العنصري اثناء زيارة لكيب تاون في العام ١٩٦٧ ، والثانية توصية بالاحتفاظ بمحطة متابعة الاقمار الصناعية الاميركية في جنوب افريقيا . فقد اغلقت المحطة في اواخر عام ١٩٧٥ . وفي الحاليتين فان الجرح الذي كان يمكن ان ينشأ عن تنفيذ التوصيتين بالنسبة للحكومة الاميركية كان في تقديرها اكبر من الفائدة التي يمكن ان تعود من تنفيذهما .

وفيما يتعلق بروديسيا فان الاختيار الثاني اوصى بالاحتفاظ بالقنصلية الاميركية في سولزبوري ، وتخفيف العقوبات الاقتصادية تدريجيا ضد حكومة ايان سميث ، والعمل على الاعتراف في النهاية بهذه الحكومة اعترافا كاملا . وقد جاءت التوصية بالاحتفاظ بالقنصلية الاميركية نتيجة ضغوط من وكالة المخابرات المركزية ، التي كانت تريد حماية عملياتها في المنطقة بغطاء رسمي . ولكن الحكومة البريطانية مارست ضغطا على حكومة نيكسون لاغلاق هذه القنصلية واغلقت القنصلية فعلا في عام ١٩٧٠ . وفي الوقت نفسه بدأ تخفيف

العقوبات واصدرت حكومة نيكسون قرارها بالسماح باستيراد ١٥٠ الف طن من « الكروم » الخام . وبعد هذا القرار نشطت العناصر المؤيدة لدعم العلاقات بين الولايات المتحدة وحكومتى بريتوريا وسولزبوري تنشط في المساومات البرلمانية الخلفية في الكونغرس واطراف الحكومة . ولم يكن مفاجئا بعد ذلك ان يقوم « كلارك ماكريغور » مدير حملة إعادة انتخاب نيكسون في العام ١٩٧٢ بزيارة لروديسيا ، حيث ابلغ ايان سميث انه يتوقع اعتراف الحكومة الاميركية بحكومته خلال وقت قصير . ويعتقد مراقبون اميريكيون ان « فضيحة ووترغيت » حالت دون تنفيذ هذا الموعد ، وحالت بالتالي دون وضع هذه التوصية مسن توصيات « الاختيار الثاني » موضع التنفيذ .

وفيما يتعلق بمسألة ناميبيا فان « الاختيار الثاني » لم يدع لتغيير في الموقف الاميركي القائم الذي يعتبر ان احتلال جنوب افريقيا للاقليم « غير مشروع » ، الا انه اوصى بالتقليل من الاهتمام الذي تحاط به قضية ناميبيا ، وتشجيع إعادة التقارب بين حكومة جنوب افريقيا والامم المتحدة . وتحقيقا لهذه التوصية رفضت الولايات المتحدة الانضمام الى عضوية مجلس الامم المتحدة الخاص بناميبيا ، وقاومت الجهود لتقوية سلطة هذا المجلس ، الذي يزمي الى التمهيد لاستقلال ناميبيا عن جنوب افريقيا باشراف المنظمة الدولية . وكان المنسذوب الاميركي من اشد المندوبين حماسا لاقتراح ساقط بتأييد حوار بين جنوب افريقيا والامم المتحدة بشأن ناميبيا .

وفي ذلك الوقت حاول « نيو سوم » مساعد وزير الخارجية الاميركي لشئون افريقيا تبرير سياسة الولايات المتحدة ازاء ناميبيا ، بوصفها بانها تحبذ « الاتصال » مع جنوب افريقيا ، « والاتصال لا يعني القبول ، انما هو يعني - بمعنى ما - تحديا اكبر من العزل . ويمكن ان يعني املا اكبر يمكن ان يعطي للسود والبيض على السواء ممن يبحثون عن سبيل آخر (غير سبيل العنف) » . ولكن كان من الواضح ان « الاتصال » الذي تحدث عنه المسئول الاميركي لم يكن يشمل اي اتصال مع حركات التحرير . ولهذا فان نتيجته الطبيعية كانت تقوية مركز العناصر اليمينية المتطرفة في جنوب افريقيا ، وخاصة « الحزب الوطني » وزعيمه « كوني مولدر » (Connie Mulder) الذي اعتبر اكبر المستفيدين من سياسة « الاتصال » الاميركية مع جنوب افريقيا . ففي الوقت نفسه رفض كيسنجر ومساعدوه اقتراحا - من داخل الاوساط الاميركية - بتنظيم اجتماع سرى مع الزعيم المغيني الراحل « اميلكار كابرال » اثناء زيارته للولايات المتحدة (١٩٧٢) . واحتفظت الولايات المتحدة بهذا الموقف ، حتى بعد ان اصبحت « حركة تحرير غينيا - بيساو » الرئيس الاخضر « حكومة غينيا - بيساو » المعترف بها من عشرات من دول العالم . وكانت الولايات المتحدة الصوت

الوحيد الذي ارتفع معترضا على ضم غينيا - بيساو الى عضوية منظمة الصحة العالمية التابعة للأمم المتحدة في مايو (ايار) ١٩٧٤ ، وكانت - في النهاية - آخر دولة اعترفت بهذه الحكومة الوطنية .

وجاء بعد ذلك اكثر مواقف الولايات المتحدة تعبيرا عن تأييدها لسياسة دعم حكومات الاقليات البيضاء عندما استخدمت حق الفيتو (الاعتراض) في عام ١٩٧٤ في مجلس الامن ضد طرد جنوب افريقيا من الامم المتحدة . وعلى الرغم من ان هذا الموقف اثار موجات نقد حادة ضد الولايات المتحدة من جانب الدول الافريقية ، فان الحكومة الاميركية اشاحت عن ذلك النقد كله معتبرة ان « الفيتو » سيرفع اسهمها في « بريتوريا » . ومع ذلك فلم يبد على مدى السنوات التي مضت منذ استخدام الفيتو الاميركي لمصلحة حكومة بريتوريا ان اسهم اميركا هناك اسهمت في دعم اتجاه اصلاحي ومعتدل في جنوب افريقيا ، وهي الحجة التي استندت اليها الولايات المتحدة عندما اعترضت على طرد جنوب افريقيا من الامم المتحدة .

(يشبه هذا الموقف كثيرا الحجة التي تتذرع بها الولايات المتحدة كلما قدمت لاسرائيل شحنات جديدة من الاسلحة او المساعدات الاقتصادية . والقائلة بان هذا الدعم الاميركي يتجه باسرائيل نحو الاعتدال) . ولكن يبدو ان كل ما كان يطمح اليه المسؤولون الاميركيون من اعتدال من جانب حكومة بريتوريا ، هو « ان تكف عن اجراءاتها العنصرية القصيرة النظر مثل رفضها منح تأشيرات دخول للسود الاميركيين » !

يمكننا ان نخرج من هذه الوثيقة - وبالتحديد من « الاختيار الثاني » فيها - الذي نذهب الى انه موضع التنفيذ منذ اوائل السبعينات الى الان - بالملاحظات التالية :

● ان الولايات المتحدة ترمي الى فرض الامر الواقع . ولكن بعد تمويهه بمتغيرات خارجية شكلية . والاساسية في هذا الامر الواقع هو وجود حكومات الاقليات العنصرية البيضاء واستمرار وجودها ، واستمرار الولايات المتحدة في الاعتماد على هذا الوجود . (ولعلنا لا نبتعد عن الواقع اذا قلنا ان الملمح من ملامح السياسة الاميركية موجود في الشرق بالنهج ذاتها) . والنتيجة العملية لهذه السياسة هي استمرار وجود حكومة بريتوريا عضوا في الامم المتحدة بصوت اميركا وحدها .

● ان السياسة الخارجية للولايات المتحدة لا تزال سياسة كيسنجرية ، وان تكن بدون كيسنجر نفسه . فان « الاختيار الثاني » هو اختيار كيسنجر بكل ملامحه ، تتمثل فيه طريقة مواجهة المشكلات بتعميدها واقعا جوهريا ، ثم اغفالها

او الالتفاف من حولها ، او معالجتها بالمسكنات التي تقلل الشعور بالالم ، ولكنها لا تقضي على الاغراض ، ولا تمنع تفاقمها .

● ان محور سياسة الولايات المتحدة في افريقيا يتمركز على « شبه القارة الجنوبية الافريقية » . الامر الذي يوحى في كثير من الجوانب بغياب سياسة اميركية خاصة بافريقيا خارج هذا الحزام الجنوبي ، الذي يتكون من جنوب افريقيا وروديسيا وناميبيا وليسوتو وبرتسوانا (والبلدان الثلاثة الاخيرة لا تخرج عن كونها محميات جنوب افريقية وان كانت الاخيرتان دولتين مستقلتين من الناحية النظرية) ومالاوي وزامبيا وزائير . وقد كانت المستعمرات البرتغالية (انغولا وموزمبيق اساسا) تدخل في هذا الحزام الجنوبي قبل استقلالها . ويكشف هذا « الغياب » بدوره حقيقة ان اميركا لا تنظر ابدا الى افريقيا كوحدة متكاملة . (وهنا ايضا يمكننا القول ان اميركا تطبق في هذا نفس ما تطبقه بالنسبة للوطن العربي فهي لا تنظر ابدا اليه كوحدة متكاملة وتريد دائما التعامل معه كمناطق منفصلة ان لم يكن كقطار منعزلة) .

● ان الولايات المتحدة لا تعتزم ان يكون لها دور مباشر ضد « العنف » (اي ضد الثورة) في افريقيا ، ولكنها ستبذل كل ما يوسعها لاحباط « العنف » ، وفي الوقت نفسه تقوية دور « البيض » في القارة ما دامت هي لا تريد التورط مباشرة في القارة ، بمعنى ان تكون الحكومات البيضاء هي « قبضة » الولايات المتحدة في القارة .

● ان الولايات المتحدة لا تلغي كلية دور المنظم الافريقية السوداء في سياستها الافريقية ، فان الحكومات « المعتدلة » تشكل ايضا - وفي الترتيب بعد المنظم « البيضاء » - ركائز للسياسة الاميركية في القارة .

● ان الولايات المتحدة مستمرة في تجاهل المنظم الثورية وحركات التحرر الوطني في افريقيا ، بشكل يسمح للمرء بان يستنتج ان واشتطن ليست بصدد اي تحول - او تظاهر بتحول - نحو تأييد القوي الوطنية في افريقيا ، وان حدود تحولها لا تتجاوز تقديم النصح للمنظم البيضاء بأن تبدي قدرا اكبر من الاعتدال يمكنها من الاستمرار في اداء دورها .

الى ان هناك رأيا له مبرراته الموضوعية يذهب الى ان الاهتمام الاميركي بالشئون الافريقية ضعيف اصلا ، ويبقى ضعيفا حتى بعد وضع الاختيار الثاني من « الوثيقة ٣٩ » موضع التنفيذ . ويدلل اصحاب هذا الرأي على وجهة نظرهم بطرح اسئلة بشأن افريقيا يؤكدون انه لا توجد لها لدى المسؤولين الاميركيين اجابات واضحة او كافية كما هو الحال لو طرحت الاسئلة نفسها عن السوق الاوروبية المشتركة ، او حلف الاطلسي ، او الشرق الاوسط . فما هي العوامل

الرئيسية المؤثرة في سياسة الولايات المتحدة تجاه أفريقيا؟ هل توجد استراتيجية اميركية عامة بشأن أفريقيا؟ ماذا عن انعكاسات ذلك على مسائل افريقية محددة مثل روديسيا ونزاعات الحدود المتعددة والتنمية الاقتصادية ٠٠ الخ ٠

ويتفق معظم مراقبي المشئون الافريقية - بما فيهم الاميركيون - على ان هنري كيسنجر ، الذي لا يزال يعد اكثر وزراء الخارجية الاميركيين تأثيرا ، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية - على الاقل - في مسار السياسة الخارجية للولايات المتحدة ، لم يبد اهتماما كبيرا بعلاقات الولايات المتحدة مع افريقيا ، ولم يكن يعتبرها ذات اهمية استراتيجية للمصالح الاميركية ، حتى ان اسم افريقيا نادرا ما يرد ذكره في الكتب والمقالات الكثيرة التي نشرت عن كيسنجر على مدى السنوات العشر الاخيرة ٠ وقبيل قيام كيسنجر برحلة الى دول افريقيا في اواخر النصف الاول من عام ١٩٧٦ ، قال صحفي اميركي - من المعنيين بالمشئون الافريقية : « اذا أصبحت لدينا سياسة افريقية ، فلا بد ان توجد في فراغ ، دون قيادة عارفة سواء من الرئيس او من وزير الخارجية » (ستيفن لويد - مجلة Africa البريطانية ، العدد ٥٣) وهو يشير الى مقدار عدم الفهم المتوفر لدى الحكومة الاميركية بالقرار الذي اتخذته في عام ١٩٧٥ بتعيين (ناثانيل ديفيز) مساعدا لوزير الخارجية للمشئون الافريقية بعد ان كانت دول افريقية كثيرة قد دددت به بسبب دوره السيء السمعة في انقلاب تشيلي ضد حكومة الرئيس سلفادور الليندي عام ١٩٧٣ ، فضلا عن انعدام خبرته بالمشئون الافريقية ٠ وكان تعيين ديفيز في هذا المنصب قرارا شخصيا من كيسنجر الذي كان يريد ان يكون كبير مستشاريه لشيئون افريقيا ٠

وقد كان بعض الدبلوماسيين يتصورون ان تستعين الحكومة الاميركية ، من اجل بناء سياسة افريقية قوية لها - بمجموعة اعضاء الكونغرس السود (١٧ عضوا) الذين يمكن ان تخرج منهم قيادة قوية لسياسة اميركية تجاه افريقيا ٠ الا ان نفوذ هذه المجموعة التي تسمى Caucus ضئيل في دوائر الكونغرس الاميركي ، وضئيل جدا لدى السلطة التنفيذية (البيت الابيض) ويرجع ذلك الى ان ايا من اعضائها لا يتولى منصبا مؤثرا في ابي من لجان الكونغرس الهامة (كلجنة العلاقات الخارجية ، ولجنة القوات المسلحة ٠٠ الخ) ومجموعة اعضاء الكونغرس السود مشغولة - بطبيعة الحال - بالمسائل الداخلية الخاصة بالسود الاميركيين ، وكيس بمسائل السود الافريقيين ، ولم يتغير هذا الحال رغم ان كيسنجر عقد اجتماعا مع هذه المجموعة في آب (اغسطس) ١٩٧٥ ، وابدى لها تشجيعا على الاهتمام بالمسائل الافريقية ، فالحقيقة ان كيسنجر كان ضد اي دور هام للكونغرس في امور السياسة الخارجية ٠

وخارج اطار مجموعة اعضاء الكونغرس السود ، فان الاهتمام في الكونغرس

يشكل عام بالمسائل الافريقية محدود للغاية ، وان كان بعض اعضاء مجلس الشيوخ - مثل ادوارد كينيدي وهيوبرت همفري - يبدون قدرا من الاهتمام الشخصي الذي يكاد يتخذ طابعا « انسانيا » اكثر منه سياسيا .

قد تكون هذه المعلومات - في جزئياتها - صحيحة ، ولكن من قبيل التبسيط المخل الخروج منها - في كليتها - باستنتاج بانه ليست للولايات المتحدة استراتيجية افريقية او سياسة افريقية . انما يمكن فقط القول بان الاستراتيجية الافريقية للولايات المتحدة بقيت لسنوات طويلة في حالة خمول او سكون ، ولكنها ظهرت بوضوح وبقوة بمجرد ان ايقظتها أحداث جديدة في القارة . ولا يعني الخمول السابق الا ان الولايات المتحدة كانت تحس بأن هناك تناسباً حسابيا بين مقدار الاستقرار في القارة ومقدار ما لها من مصالح - استراتيجية واقتصادية - فيها . ولا يعني زوال حالة الخمول ، والعودة الى سياسة نشطة الا ادراك واشتطن باختلال هذا التناسب نتيجة تغير في معادلتها الاستقرار = المصالح . فالاستقرار (من وجهة النظر الاميركية) اختل منذ انهيار الامبراطورية الاستعمارية البرتغالية في افريقيا وما جره من نتائج : ايجابية بالنسبة لحركة التحرر الوطني ضد النظم البيضاء الباقية ، وسلبية بالنسبة لتلك النظم التي تعتبرها الولايات المتحدة ركيزة الاستقرار . واما المصالح فقد ازدادت حجماً واهمية ، اذ ازداد حجم الاستثمارات الاميركية في القارة ، واتسع نطاق التحرك الاستراتيجي الاميركي (عسكرياً وبترولياً) معاً نتيجة أزمة الطاقة . ولنلاحظ ان افريقيا تمثل في قطاعات كاملة منها «مناطق بترولية » () .

وفيما قبل انهيار الامبراطورية البرتغالية في افريقيا - الذي عجلت به او وقتت له حركة القوات المسلحة البرتغالية في نيسان ١٩٧٤ ، فان الولايات المتحدة كانت تضع افريقيا في الترتيب الاخير من سلم اولويات العلاقات الدولية . بعد اوروبا الغربية واسبيا واميركا اللاتينية والشرق الاوسط . وكان هذا ينعكس على مقدار « المساعدات » الاقتصادية والعسكرية المخصصة لنظم افريقية تعتبرها الولايات المتحدة صديقة لها . لقد نالت افريقيا - في مجموعها - من برنامج المساعدات الخارجية الاميركي في العام ١٩٧٥ - الذي كان بداية تحسين مستوى الاهتمام الاميركي بالقارة - ١٦٩ مليون دولار ، اي حوالي جزء من عشرين من المساعدات التي حصل عليها بلد واحد - هو اسرائيل - من اميركا في العام نفسه !

وفي الوقت نفسه فان الولايات المتحدة - حتى الانهيار الاستعماري البرتغالي - لم تكن تعتبر افريقيا منطقة مواجهة سوفياتية - اميركية او منطقة تدخل اميركي مباشر . وعندما حدث هذا الانهيار كانت الولايات المتحدة قد ارغمت على ان تنتهج استراتيجية مضادة لاستراتيجية التدخل المباشر - على المستوى العالمي -

بعد الهزيمة الكاملة في فيتنام . وكان هذا هو العامل المباشر وراء سقوط
الحضور الاميركي ابان الصراع الانغولي .

وبالاضافة الى هذه العوامل الاميركية في ضعف سياسة الولايات المتحدة
ودورها في افريقيا . كان هناك العامل الافريقي . فان تحالف الولايات المتحدة
مع النظم البيضاء ضد حركات التحرر الوطني ، واتخاذها موقفا سلبييا حتى
من النضال ضد التمييز العنصري قد اضعف ديناميكية اي تحرك اميركي تجاه
افريقيا . وزاد من سوء سمعة اميركا ، تسرب بعض جوانب من وثيقة دراسة
الامن القومي الاميركية (رقم ٣٩) الى بعض الدول الافريقية في صيف عام
١٩٧٤ . فقد كانت الوثيقة تكشف - من وجهة نظر افريقية - انعدام التعاطف ،
مجرد التعاطف ، من جانب الولايات المتحدة مع حركات التحرر ، وتعكس بالمقدر
نفسه اخفاق اميركا في فهم اتجاهات الحركة السياسية في افريقيا طوال الاعوام
العشرين السابقة . ولم تكن سمعة الولايات المتحدة في حاجة الى لطمة جديدة
في افريقيا عندما اقر الكونغرس الاميركي مشروع القانون الذي عرف باسم «تعديل
بيرو » Byrd Amendment وهو التشريع الذي سمح بكسر قيود العقوبات
الاقتصادية على نظام سميث في روديسيا لاستيراد الكروم منها . وكانت الولايات
المتحدة الدولة الوحيدة في العالم التي اصدرت قانونا صريحا بانتهاك قرارات
الامم المتحدة في هذا الشأن . وقد ادى هذا القانون وباعتراف ناثانيال ديفيز
مساعد وزير الخارجية الاميركية آنذاك الى « مد حكومة سميث غير الشرعية
بعملات اجنبية كانت في امس الحاجة اليها وبدعم سيكولوجي . . . وادى الى
جعل علاقتنا مع الاغلبية الساحقة من الافريقيين اقل ودا مما كان يمكن ان
تكون » .

وفي ظل تلك الظروف فان الصراع الانغولي فاجأ الولايات المتحدة بتحريك
ديناميكي قوي من جانب الاتحاد السوفياتي في صف احدى القوى الداخلية
المتصارعة داخل انغولا . وهو دور شاركت فيه كوبا بفعالية قوية . ووجدت
الولايات المتحدة نفسها امام هذه المفاجأة مضطرة للاقتضار على « التحذير » من
اثار الدور السوفياتي - الكوبي على « الانفراج الدولي » وعلى العلاقات
الثنائية بين الدولتين الاكبر . فقد قال كيسنجر مرة (امام النادي الاقتصادي
في ديترويت في تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٧٥) « ان الولايات المتحدة لا تستطيع
ان تبقى غير مهالمة ازاء التدخل السوفياتي والكوبي في انغولا ، وهذا ما يمكن
ان تكون له عواقبه بالنسبة لمستقبل الانفراج . نحن لا نستطيع مثلا ان نتجاهل
الحشد الكبير من الاسلحة السوفياتية في انغولا ، الذي ادخل تنافس الدول
الكبرى الى افريقيا لأول مرة منذ ١٥ عاما » .

ولكن كيسنجر - على الرغم من هذا التحذير - استبعد اي محاولة كبيرة من

جانب الولايات المتحدة لاحباط «التدخل السوفياتي في انغولا» . كل ما استطاعته وقتها انها نقلت كميات من الاسلحة الاميركية - وصفتها مصادر افريقية وغربية بانها «متواضعة» - الى حركة «يونيتا» و «الجبهة الوطنية لتحرير انغولا» عن طريق زائير . ووصف كيسنجر في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٦ الموقف كما كانت تراه واشنطن بقوله انه منذ منتصف تموز (يوليو) والموقف يتحول عسكريا بصورة جذرية لصالح الجبهة الشعبية لتحرير انغولا . وقد اصبحت زائير وزامبيا اكثر قلقا بشأن تأثيرات ذلك على امنهما ، واتجهتا الى الولايات المتحدة لمطلب المساعدة في منع الاتحاد السوفياتي وكوبا من فرض حل في انغولا . وبالإضافة الى هذا كان هناك قلق اميركي خاص على استثماراتها في زائير (٨٠٠ مليون دولار) الذي جاء الموقف في انغولا يضيف اليه عاملا خطيرا ، علاوة على عوامل عدم الاستقرار الداخلي في زائير واهتزاز نظام موبوتو ، وانهيار اسعار النحاس العالمية .

الذي حدث في ذلك الوقت انه على الرغم من تغير الظروف وتحول اتجاه الاحداث نحو اختلال المعادلة الاميركية الاستقرار = المصالح ، فان الولايات المتحدة بقيت على تمسكها باطروحات «الاختيار الثاني» التي شرحناها ، واتخذ تحالفها الضمني مع النظام العنصري في جنوب افريقيا صورة اكثر سفورا يدفعها هذا النظام الى التدخل في الصراع الدائر في انغولا ، مغفلة اثار ذلك على الدول الافريقية وموقفها من الولايات المتحدة ، بل مغفلة ظروف جتسوب افريقيا الداخلية - السياسية والاقتصادية - التي لم تكن تهديتها ! لا للخروج خاسرة من هذا التدخل . لقد اساءت الولايات المتحدة تقدير قوة قواعدها في القارة (جنوب افريقيا - روديسيا - زائير) ، واساءت تقدير ردود الفعل الافريقية ازاء استخدامها مخالف المتظم العنصرية ضد جسم افريقي هو انغولا ، واساءت ، في الوقت نفسه ، تقدير قوة القوى المتصارعة داخل انغولا . واعتمدت فقط مقولة التصدي للتدخل السوفياتي - الكوبي ، وكأنها كافية وحدها لتبرير سلسلة الاخطاء الاميركية . وهكذا وقعت الاستراتيجية الاميركية في فخ احادية النظرة ، التي جعلتها اسيرة تصديد مصالحها في افريقيا بمقياس واحد هو وجود او غياب تدخل سوفياتي ، ولم يكن ذلك سوى استمرار لموقف عدم التعاطف مع حركات التحرير الوطني ، التي كان نضالها هو المصانع الاساسي لاتجاه حركة افريقيا السياسية لاكثر من عشرين عاما .

ان حجم الاستثمارات الاميركية في «افريقيا جنوب الصحراء» يقدر بنحو ١٦٠٠ مليون دولار (في نهاية عام ١٩٧٥) بينما تقدر الاستثمارات الاميركية في افريقيا كلها بنحو ٢٥٠٠ مليون دولار وتبلغ قيمة تجارة اميركا مع افريقيا عامة حوالي ١٥٠٠ مليون دولار . وتمتلك الشركات الاميركية ٥٦ بالمائة من رأسمال الصناعة والتجارة في جنوب افريقيا وروديسيا ، ويبلغ عدد الشركات

الاميركية التي تعمل في هاتين الدولتين ٣٠٠ شركة . وبطبيعة الحال يهـم الولايات المتحدة ان تحصل ، وان تستمر في الحصول من افريقيا على اليورانيوم والبلاتين والكروم والمنجنيز .٠٠ ولهذا فانها لا تستطيع ان تقوم بعملية فك ارتباط مع افريقيا ، ولا تستطيع في الوقت نفسه ان تتصل من مشكلاتها في القارة . هذا ما لا تسطيعه .٠٠ فما الذي تسطيعه الولايات المتحدة ؟

لقد وصفت صحيفة « وول ستريت جورنال » الاميركية - الناطقة بلسان دوائر الاعمال والتجارة م ٧ ل في نيويورك - السياسة الاميركية في افريقيا ، في نيسان ١٩٧٦ ، وكانت اللطمة التي تلقتها في انغولا لا تزال مطبوعة ساخنة على وجه هنري كيسنجر .٠٠٠ وصفتها بأنها « تاهت نهائيا في السنوات الاخيرة بين المواربة والاسفاف » .

ومن قبيل المواربة فان الولايات المتحدة ابتلعت غصتها من انتصار الجبهة الشعبية لتحرير انغولا ، والاخفاق الاميركي في تزويد الحرب الاهلية في انغولا بوقود الاستمرار ، وفي تخويف كوبا او ثني الاتحاد السوفياتي عن مساعدة الجبهة الشعبية . ولكنها في الوقت نفسه ارادت ان تغير صورتها في عيون الافريقيين . ومن قبيل المواربة ايضا ذهب هنري كيسنجر الى جولته الافريقية التي صاحبها طنين كثير في ايار ١٩٧٦ . ويقدر ما اعتبر القيام بهذه الجولة جزءا من محاولة كسب اصوات الزنوج الاميركيين للرئيس الاميركي فورد ، حيث كانت مهلة انتخابات الرئاسة في اوجها ، فان فشل الرحلة لا بد ان يعد من اسباب فشل فورد . فمن قبيل المواربة كانت الرحلة كلها . ومن قبيل المواربة وقف كيسنجر يقول : « على الافريقيين ان يبرهنوا على ان باستطاعتهم حكم انفسهم ، حتى تسارع ونساعدهم على تغيير الاوضاع السياسية في بلادهم » . وربما اعتقد كيسنجر ان ساسة افريقيا يعانون من ضعف الذاكرة . ولم يكن ذلك صحيحا . فقد خرجت الصحف الافريقية اثناء جولته تذكره بتصريح له في عام ١٩٧٠ قال فيه بالحرف الواحد : « ان الحركات الافريقية التحررية والتي تناضل ضد الاستعمار البرتغالي وضد حكومات الاقلية البيضاء في روديسيا وجنوب افريقيا هي حركات غير مرغوب فيها ، ولا تستطيع اميركا التعامل معها ، لانها لا تستطيع الضغط على المستعمرين البيض » .

ومن قبيل الاسفاف كان رد كيسنجر على الزعماء الوطنيين الافريقيين الذين طالبوه بان تقدم اميركا السلاح من اجل نضال الافريقيين ضد العنصريين البيض : « السلاح لا .٠٠ اننا لا نرغب في تدخل اجنبي في افريقيا . ولكن اعطونا مهلة ثلاثة اشهر فقط حتى نفكر بحلول سياسة ترضي الجميع . نحن نحبذ حكم الاكثرية السوداء في روديسيا » . ! ويومها كان تعليق مجلة « جون افريك » على تصريحات كيسنجر : « ان كيسنجر وامثاله لا يهـمهم الشعب

الافريقي ، حتى ولا الانسان في اي مكان • هؤلاء يهمهم مصالح بلادهم المالية والاقتصادية فقط • لذلك نقول : لا مفاوضات دون قتال • قاتلوا وفأوضوا في وقت واحد • ولكم في اسرائيل ربيبة اميركا افضل مثال • ان اليهود الاميركيين البالغين ستة ملايين فقط يسيطرون على اميركا سيطرة كاملة ، يأمرونها فتاتمر دون ان تتجاسر حتى على التردد ••

ومن قبيل الاسفاف كان كيسنجر يريد ان يظهر كما لو ان سياسة اميركا تجاه افريقيا قد تغير اتجاهها بزواية ١٨٠ درجة •• بينما كان كل هم كيسنجر البحث عن طبقة بورجوازية افريقية تقبل تنفيذ رغبات اميركا كما ينفذها البيض في جنوب افريقيا وروديسيا ، وهي تنحصر في : (١) وقف الزحف السوفياتي - الكوبي ؟ (٢) المحافظة على استغلال الموارد الطبيعية في افريقيا ؟ (٣) تأمين طريق البترول الى الغرب الاوروبي والاميركي •

ومن قبيل الاسفاف كان موقف كيسنجر الذي عبر عنه ازاء قضية استقلال ناميبيا لقد اعلن كيسنجر ان الولايات المتحدة لا تعارض في منح الاستقلال لناميبيا ، ولكن بشروط •• وهذه هي الشروط الاميركية :

- ١ - القضاء على جبهة تحرير ناميبيا •
- ٢ - ابقاء رأس المال التابع لجنوب افريقيا على ما هو عليه •
- ٣ - قبول ادخال رأس المال الغربي والاميركي اليها بلا قيود •
- ٤ - اشراف اميركي على جميع موارد الانتاج في ناميبيا حتى يستطيع الافريقيون استخدام الآلات التي سيعملون عليها •

وباختصار فان اميركا تريد ان تفرض مسبقا استعمارها الاقتصادي الجديد على ناميبيا عن طريق نظام يقبل هذه الشروط ويرفع علم استقلال اسمي • وهذا يقسر مقدار الفزع الذي انتاب اميركا على نظام موبوتو في زائير بعد ذلك بعام واحد • فقد كانت تسعى في ايار ١٩٧٦ للعثور على بورجوازية افريقية على غرار موبوتو ، فاذا بها توشك ان تفقد موبوتو نفسه في اوائل ١٩٧٧ • وعندما ارادت انقاذه كان لا بد ان تلجأ الى قسوى « مقبولة » في افريقيا • فقد كانت الولايات المتحدة - في الاجتماع الطارئ الذي عقده خبراء حلف الاطلسي في مقر قيادة الحلف في بروكسل في اليوم التالي لنشوب احداث « شابا » - امام اختيارين : استخدام قوات جنوب افريقيا وروديسيا واسرائيل لاضاد حركة « شابا » ضد موبوتو ، او الاستعانة بقوات « افرو - عربية » كي يبقى حلف الاطلسي بعيدا ، وكذلك اسرائيل والنظاميين العنصريين الاخرين • اختارت اميركا الطريق الثاني • وكسبت به • ولكنها كشفت حلفاءها الجدد •

الصين .. التحالفات الجديدة ..

لدور الصين في أفريقيا ابعاد رئيسية ترسم الخطوط العامة الخارجية له .. وان كان بعض هذه الخطوط غير مستقيم وبعضها غير محدد المعالم ..

● دور الصين في أفريقيا تحدده في الفترة الاخيرة الاعتبارات نفسها التي تحيط بسياسة الصين الخارجية ككل .. وهي اعتبارات تعطي مؤشرات الى دخول هذه السياسة في عملية اعادة تشكيل لتحالفات الصين العملية مع القوى العالمية الخارجية .. فاذا كانت الصين قد وقفت عمليا - وسياسيا - مع القوى اليمينية والمالية للغرب ، الاوروبي والاميركي ، ابان الصراع الحاسم الذي جرى في انغولا .. فان ذلك لم يكن غريبا عن مواقف مماثلة اتخذتها السياسة الخارجية الصينية في اوربا واسيا واميركا اللاتينية .. ولكن هذه المواقف بطبيعة الحال تبدو غريبة و « نشازا » على خلفية من الايديولوجية ، وحتى على خلفية من الاهداف السياسية العامة المعلنة للصين ..

● ودور الصين في أفريقيا تحدده مقولات صينية رئيسية مؤداها ان أفريقيا اصبحت « مركز الصراع بين الشرق والغرب » ، وان للبنية الاقتصادية - الاجتماعية للمجتمع الافريقي طبيعة خاصة بحكم غلبة العنصر الفلاحي فيها مما يجعل طبقة الفلاحين هي القوة المحركة الرئيسية للثورة في ذلك المجتمع ، وان هناك اوجه شبه كبيرة ، بين التجربة الصينية في الصراع والتجربة الافريقية ، ابرز ملامحها التمييز العنصري الذي عاناه كل من الشعبين الصيني والافريقي على ايدي « البيض » ..

● دور الصين في أفريقيا كذلك تحدده طبيعة وحدود قدرات الصين الاقتصادية والتكنولوجية على تلبية احتياجات افريقيا ، سواء المتعلق منها بتحديات الاستقلال ، او تحديات التنمية بعد الاستقلال .. بالاضافة الى واقع البعد الجغرافي بين الصين واجزاء كبيرة من افريقيا في غياب اسطول جوي واسطول بحري للصين يستطيع ان يضغط مسافات هذا البعد الجغرافي ..

● دور الصين في أفريقيا يحدده - ايضا - فهم الصين نفسها لدورها على النطاق العالمي .. ويتعبير اكثر تحديدا ، يحدده المشعار الذي تلج الصين منذ سنوات عليه ، وهو انها دولة نامية فقيرة من دول العالم الثالث .. وهو شعار يفرض على الصين ان تقدم نفسها لافريقيا بهذه المصفة ، بما ينطوي عليه ذلك من شجب لكل ما دون العالم الثالث ايديولوجيا ، وما فوق العالم الثالث اقتصاديا وتكنولوجيا ..

● دور الصين في أفريقيا يحدده « ايديولوجيا » الفكر السياسي والاجتماعي

الصيني ، فيما يتعلق بمفهوم الثورة واساليبها في مرحلة التحرر الوطني ، وفي المراحل التالية • ونعني بهذه الايديولوجية المبادئ العامة التي لا تتغير مع تغيرات المواقف السياسية • وقد يرى بعض المتخصصين في الشؤون الصينية ، انه لا يبقى بعد المواقف السياسية القابلة للتغيير شيء اسمه ايديولوجيا او مبادئ فكرية عامة ، الا مبدأ « البراغماتية » (الذرائعية) الذي يجعل « المردود العملي » المقياس الرئيسي - ان لم يكن الوحيد - لصواب او خطأ سياسة ما •

● دور الصين في افريقيا يحدده - اخيرا - حجم مصالح الصين في القارة • وربما كان اجدر بنا ان نضع حجم المصالح بين اوائل العوامل المحددة لدور الصين - كما لادوار غيرها - ولكن النتيجة ان مصالح الصين ، اكثر من غيرها من الدول المشتركة في الصراعات الكبرى في افريقيا ، تحددها العوامل المسابقة كلها مجتمعة • فضلا عن ان حجم هذه المصالح ليس كبيرا • لا بالمقياس الى حجم ووزن الصين ، ولا بالمقياس الى حجم ووزن افريقيا ، ونعني هنا المصالح المحسوسة الاقتصادية والتجارية والاستراتيجية • كما لا يتناسب حجم المصالح الصينية في افريقيا مع « حجم » المقولات الايديولوجية والسياسية التي تطرحها الصين كشعارات لها ، وبصفة خاصة منها مقولة « افريقيا مركز الصراع بين الشرق والغرب » •

ومع ذلك فانه يجوز لنا ان نبدأ من نقطة تحديد حجم مصالح الصين الاقتصادية في افريقيا • فاول ما يمكن ملاحظته ان افريقيا لا تحتل ايا من المراكز الستة الاولى في تجارة الصين الخارجية (تصديرا واستيرادا على السواء) ، بل ان افريقيا لم ترد في ترتيب قبل الثاني عشر في تجارة الصين الخارجية لعام ١٩٧٤ (آخر الاحصاءات المتاحة) فقد بلغ حجم الصادرات والواردات بين الصين وافريقيا في عام ١٩٧٤ ما قيمته ٦١٠ ملايين دولار اميركي (ويميل الميزان التجاري بينهما لمصلحة الصين بفائض في الصادرات على الواردات قيمته ٢٣٠ مليون دولار) ، بينما نجد ان حجم تجارة الصين مع الولايات المتحدة في عام ١٩٧٤ نفسه ١٠٧٠ مليون دولار (ويميل الميزان التجاري بينهما لمصلحة الولايات المتحدة بما قيمته ٨٤٠ مليون دولار) • واذا اردنا مثلا آخر غير الولايات المتحدة نجد ان قيمة تجارة الصين مع ماليزيا في العام نفسه تبلغ ٥٥٠ مليون دولار • على الرغم من ان ماليزيا بلد واحد صغير في آسيا ، وافريقيا قارة بأكملها • فضلا عن ان ترتيب ماليزيا في ذلك العام (١٩٧٤) على جدول تجارة الصين الخارجية هو في المحل السادس بعد اليابان والولايات المتحدة وهونغ كونغ والمانيا الغربية وكندا •

وبالاضافة الى هذه الحقائق - الارقام فان اتجاه تجارة الصين مع افريقيا هو نحو النقصان لا الزيادة • فقد كان ترتيب افريقيا على جدول التجارة

الخارجية الصينية السابع في عام ١٩٧٣ . وفي ذلك الوقت كانت نسبة تجارة الصين مع افريقيا بالنسبة لحجم تجارتها العالمية ٥٪ ، وكانت هذه النسبة ٦٪ في عام ١٩٧٢ وكانت ٧٪ في عام ١٩٧١ .

ولعل من المهم - لفهم الوجه السياسي لهذه الارقام الاقتصادية - ان نستند الى معلومات اوسع عن اتجاه تجارة الصين الخارجية بشكل عام . ان يلاحظ ان تجارة الصين مع العالم غير الاشتراكي بلغت في العام ١٩٧٤ ما قيمته ١١ر٤٠٥ مليون دولار (يعجز في الميزان الصيني قدره ١ر٥٣٥ مليون دولار) ، بينما بلغت تجارة الصين مع العالم الاشتراكي في العام نفسه ٢ر٣٠٠ مليون دولار (بفائض لمصلحة الميزان التجاري الصيني قيمته ٤٤٠ مليون دولار) . وفي العام ١٩٧٣ كانت نسبة تجارة الصين مع العالم الاشتراكي ١٧٪ من اجمالي تجارتها الخارجية ، ومع العالم غير الاشتراكي ٨٣٪ . واذا مضينا خطوة ابعد من هذا وجدنا ان نسبة تجارة الصين مع الدول الرأسمالية المتقدمة تمثل ٥٣٪ ، بينما نسبة تجارتها مع الدول النامية (بما فيها افريقيا طبعاً) ٢١٪ .

يبقى ان نضيف الى هذه الصورة الرقمية حقيقة اقتصادية لها دلالتها السياسية هي ان ارقام تجارة الصين مع افريقيا التي ذكرناها (وهي مستقاة من المصادر الرسمية الصينية التي تصدر تقريراً اقتصادياً سنوياً متأخراً سنتين عادة) تشمل تجارة متبادلة بين الصين وجنوب افريقيا . جزء منها مباشر ، وجزء منها تجارة تتخذ شكل « اعادة تصدير » لسلع صينية من هونغ كونغ ، او لسلع جنوب افريقية تذهب الى الصين من نيوزيلاندا (*) . وتشترى الصين ذهباً من جنوب افريقيا بما قيمته ٧٠ مليون دولار سنوياً .

فهل تختلف اتجاهات رباح السياسة عن اتجاهات رباح التجارة في سياسة الصين الافريقية ؟

اذا كانت اتجاهات رباح التجارة تحكمها ضوابط موضوعية دقيقة ، فان الرياح السياسية هي اقل موضوعية بكثير ، ويظهر تتبع المواقف الاساسية (المحطات الرئيسية) في تاريخ سياسة الصين في افريقيا في السنوات الخمس عشرة الماضية ان هذه الرياح تعرضت لتقلبات عديدة قبل ان تتجمع في تيار واحد صوب تشجيع القوى اليمينية واستعداد العالم الغربي - وفي مقدمته الامبريالية الاميركية - على القوى التقدمية التي تخشى الصين ان يكون في انتصارها في افريقيا تدعيماً للنفوذ السوفياتي ، حتى ولو كان ذلك يعني تفتيتاً

* U.S - China Business Review , 1975 , by the National Council for U.S. - China Trade.

للفنود الغربي الامبريالي . وقد بلغ الامر في هذا الاتجاه الاحادي لرياح السياسة الصينية الخارجية ان أصبح بعض مراقبي الشئون الصينية (China Watchers) يطرحون تفسيراً احادياً له ، هو ان الصين أصبحت محكومة بالخوف المرضي (Phobia) من الاتحاد السوفياتي بصورة تنعكس على جميع مظاهر سلوكها الداخلي والخارجي . وينطوي هذا التفسير على تبسيط لظاهرة هي بطبيعتها معقدة ومتعددة الاسباب ، وان كان هذا لا يمتنع كون هذا التفسير السيكولوجي تفسيراً صحيحاً جزئياً ، يؤكد صحته رصد المواقف التي تبدو فيها الصين وكان سياستها كلها غير مبنية على افعال وانما على ردود افعال . فاذا ابدت الاتحاد السوفياتي الطرف « س » في القضية « ١ » ، (ايا كان الطرف وأيا كانت القضية وموقع هذا الطرف فيها) ، فان الصين تسارع الى تأييد الطرف « لا » « س » ان وجد ، او الى محاولة تدمير الطرف « س » نفسه اذا لم يتوفر نقيضه ، او الى محاولة نفي القضية برمتها . مع ذلك تبقى محاولة تفسير سلوك الصين بمعطيات علم النفس المرضي محاولة وصفية فقط ، وليست علمية . فالصين - دولة وحزباً - ظاهرة دولية اعقد بكثير من ان تبسط الى درجة فرد .

وفيما يتعلق بأفريقيا فان القول بوجود حالة « فوبيا » لدى الصين ازاء الاتحاد السوفياتي هو اقل دقة من القول به بالنسبة لمناطق العالم الاخرى . فان الاتحاد السوفياتي لا يشكل في أفريقيا خطراً على مصالح صينية مباشرة ، كما هو الحال في آسيا ، وجنوب شرق آسيا بالذات ، مثلاً ، حيث احتمالات « الاحتكاك » او « الصدام » قائمة ، او حيث توجد درجة اكبر من المصادقية لنظرية « احتواء الصين » من جانب الاتحاد السوفياتي .

كذلك فان أفريقيا - ربما اكثر من آسيا واميركا اللاتينية - هي نموذج العالم الثالث ، بمستويات النمو ، وبمستويات التطور التاريخي . الامر الذي يجعلها - اكثر من غيرها - هدفاً لسياسة العالم الثالث بالمفهوم الصيني . وهو مفهوم متعدد الجوانب فهو في جانب منه يتمثل في نظرية محاصرة ريف العالم لمدته ، اي محاصرة المناطق النامية والاقلة نمواً والمتخلفة (اي العالم الثالث) مناطق العالم الصناعية المتقدمة (رأسماليتها واشتراكيها على السواء) . وهو في جانب آخر يتمثل في نظرية مقاومة « هيمنة الدولتين العظميين » او « الصراع ضد الامبريالية الاشتراكية السوفياتية » بالدرجة الاولى . وهو في جانب ثالث يتمثل في التماثل بين الواقع الصيني وواقع العالم الثالث ككل . وهي كلها جوانب تدفع الصين الى تقمص العالم الثالث واصدار البيانات الرسمية التي تشبه المراسيم بأن الصين لن تصبح ابداً دولة كبرى ، وانها ستظل دولة نامية متحدة المصالح بالدول النامية الاخرى .

ومما يؤكد ادراك الصين لحقيقة وزن افريقيا في العالم الثالث ان المساعدات الاقتصادية الخارجية التي تقدمها الصين للدول النامية - بشروط معقولة للغاية وفي بعض الاحيان بدون فائدة مطلقا - تصب كلها - تقريبا - في افريقيا ، على الرغم مما لاحظناه من صغر حجم التبادل التجاري بينهما • ومنذ عام ١٩٧٣ تحصل افريقيا على نسبة ٩٠٪ من مساعدات الصين الاقتصادية الخارجية والوعود بالمساعدات • وتعكس هذه الحقيقة ايضا تقديرا لدى الصين في السنوات الماضية - قبل احداث ١٩٧٧ - بأن افريقيا تكاد تكون مجالا خاليا من نفوذ الدولتين الاكبر ، وتقديرا بأن هذا الوضع يتطلب منها ان تسبق النفوذ السوفياتي الى افريقيا - هذا بالاضافة الى تصور الصين بأن الواقع الافريقي الاقتصادي والاجتماعي يمثل تربة خصبة لتطبيق « النموذج الصيني » في التنمية وفي الثورة على السواء • ولهذا فان الحالة الصحية للعلاقات بين الصين وافريقيا كانت باستمرار عرضة للتقلبات تبعا لتأثيرات الاحداث الداخلية في الصين • وصحيح ان القاعدة العامة : ان بالتأثير المتبادل بين الاوضاع الداخلية والعلاقات الخارجية بالنسبة لكافة البلدان ، ولكن تأثير احداث الصين الداخلية - وخاصة في ذروات تقلباتها - كان اوضح من اي تأثير لاحداث افريقية داخلية على سياسات الصين ازاء افريقيا •

وعلى سبيل المثال فان الصين فاجت افريقيا بتأييد حركة بيافرا الانفصالية في نيجيريا ، في ذروة احداث الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى (١٩٦٦ - ١٩٦٩) التي كانت تجتاح الصين في ذلك الوقت ، وكان من ابرز ملامحها اشتداد حدة الهجوم على الاتحاد السوفياتي • وكان وقوف الاتحاد السوفياتي مع وحدة نيجيريا ضد الحركة الانفصالية في « بيافرا » بمثابة « فرصة » لاتهام موسكو والبلدان الاشتراكية الاخرى بخيانة « حركة التحرر الوطني لشعوب افريقيا » • ولقد كان من نتيجة ذلك ان صوتت ٢٠ دولة افريقية في الامم المتحدة عام ١٩٦٨ ضد انضمام الصين للمنظمة الدولية ، مقابل تسع دول فقط صوتت ضدها في عام ١٩٦٥ • كذلك فان الفترة نفسها - فترة « الثورة الثقافية » - شهدت تكثيف النشاط الايديولوجي الصيني في افريقيا الى حد ان دبلوماسيا صينيا (كان قائما بالاعمال في تنزانيا) وجه في عام ١٩٦٧ تحذيرا بأنه « اذا لم يجد الزعماء الافريقيون في انفسهم الشجاعة لقيادة ثورة ثقافية ، فان الشعب سيجد زعماء جددا » • وكانت النتيجة ان القوى الامبريالية سبقت الى تنفيذ انقلابات عديدة في افريقيا قام معظمها بحجة منع « التهديد الصيني » ، وانعكس ذلك في عدد من الدول الافريقية التي تقيم علاقات دبلوماسية كاملة مع الصين • اذ هبط من ١٧ في عام ١٩٦٥ الى ١٣ في عام ١٩٦٨ ، وكان المفروض ان يزيد •

وعندما عاد الهدوء الى الصين نفسها ، والى سياستها الخارجية ، وعادت

الى الاهتمام باستعادة عضويتها في الامم المتحدة ، بذلت جهودا كبيرة في افريقيا في عام ١٩٧١ ، على اساس ان افريقيا تملك وحدها عددا مرجحا من اصوات الدول في الامم المتحدة . وكان اكبر نشاط صيني للخروج من العزلة الدولية التي فرضتها بكين على نفسها ابان « الثورة الثقافية » ، وفرضتها عليها نزاعاتها الحادة مع العالم الاشتراكي والامبريالية الاميركية في وقت واحد . كان معظم هذا النشاط موجها لافريقيا . وعادت الصين الى صيغة « التعايش السلمي » و « مبادئ باندونغ » ، وتراجعت شعارات « حرب الشعب الطويلة الامد » .

وعندما انضمت الصين الى الامم المتحدة في اواخر ١٩٧١ ، وقامت بينها وبين الولايات المتحدة علاقات افضل واتصالات على مستوى عال (رحلات كيسنجر السرية في عام ١٩٧١ ثم زيارة الرئيس الاميركي نيكسون لبكين في ١٩٧٢ وما تلاها من زيارات وعلاقات) دخلت سياسة الصين في افريقيا مرحلة جديدة تركّز فيها على ان التناقض الرئيسي في العالم اليوم هو بين الدول النامية والدول الامبريالية ، ومن بينها الاتحاد السوفياتي .
(الاشتراكية) .

ولقد اتبعت الصين باستمرار في سياستها الافريقية اسلوبا انتقائيا ، يتناسب مع محدودية امكانياتها ، ومع محدودية مصالحها المباشرة في القارة . بمعنى انها اختارت عددا محدودا من الدول الافريقية لتركيز اهتمامها على العلاقات معها ، باعتبارها سياسية واقتصادية واستراتيجية ، كما اختارت التركيز على عدد محدود من المشروعات ذات الاهمية الكبيرة والرئيين الاعلامي العالي . وعلى سبيل المثال فان من الواضح ان الصين تعلق منذ نحو ١٥ عاما اهمية كبرى على صلاتها بكل من تنزانيا وزامبيا - وكذلك الكونغو (برازافيل) حتى سنوات قليلة مضت - من بين عشرات الدول الافريقية . كما تعلق اهمية كبرى على صلاتها مع عدد محدود ايضا من حركات التحرر الوطني « المناقسة » : « يونيتا » (التي انشقت عن الحركة الشعبية لتحرير انغولا في عام ١٩٦٦ لاسباب تتعلق بالصين) ، وحركة « كوريمو » (اللجنة الثورية لموزمبيق ، التي تكونت بانشقاق عدة جماعات ماوية عن جبهة « فريليمو ») ، و « حزب مؤتمر عموم جنوب افريقيا » (المنافس لحزب المؤتمر الوطني الافريقي الذي يقود الصراع المسلح في جنوب افريقيا ضد نظام الحكم العنصري) .

كذلك تظهر هذه السياسة الانتقائية في ابرز صورها في مشروع خط « تانزام » الحديدي الذي اقيم بمساعدة مالية وفنية وبشرية من الصين ليربط تانزانيا وزامبيا . ان الصين لم تضع في مشروع واحد خارج اراضيها مثل ما وضعت من امكانيات في هذا المشروع الذي بدأت تنفيذه في عام ١٩٦٦ وانتهى العمل

فيه في عام ١٩٧٦ . ويمتد هذا الخط (غير المزدوج) مسافة ١١٦٠ ميلا بين دار السلام (عاصمة تانزانيا) ومدينة كابردي امبوشي في شمال وسط زامبيا ، حيث يرتبط خط « تانزام » بشبكة السكك الحديدية لزامبيا . ويشتمل الخط على ١٤٧ محطة ، و ٣٠٠ جسر و ٢١ نفقا . وقد بنيت عند مشارف « دار السلام » باحة تحتوي على ١٠ خطوط لتكون بمثابة باحة لتجمع القطارات ، فضلا عن ٣ « ورش » رئيسية للإصلاح . وقد امتد الصين خط « تانزام » بكل القطارات العاملة عليه وكذلك بكل ما استخدم في بنائه من القضبان الحديدية . وبلغ عدد الصينيين الذين عملوا في المشروع في ذروة العمل فيه حوالي ١٥ الف عامل وفني معظمهم من سلاحى المهندسين والاشارة في الجيش الصيني .

ولقد كان الهدف من هذا المشروع - من زاوية الاهتمام الصينية - تأكيد المقدرة الصينية على تنفيذ هذا النوع من المشروعات الكبرى (وان كان من المشكوك فيه كثيرا ان تستطيع الصين القيام بعدد من هذه المشروعات في وقت واحد) ، وبالتالي رسم صورة للصين لدى الشعوب الافريقية مكملة لصورة « الدولة النامية » . بحيث تصبح « الدولة النامية القادرة بالاعتماد على النفس ان تقدم مساعدات قيمة للدول النامية الصديقة لها » ، وكذلك عرض صورة عملية من الايديولوجية الصينية بما يشمله ذلك من اخلاقيات حزبية وانسانية . فقد كان من الواضح ان الصين مهتمة للغاية بأن يتبرك الاف الصينيين الذين عملوا في ذلك المشروع افضل الانطباعات لدى الافريقيين ، فيما يتعلق بقدرتهم على العمل الشاق والصبر وتحمل المصاعب والعيش في المستوى نفسه الذي يعيش فيه عمال البلد الذي يتلقى المساعدة . الخ . (هذا على الرغم من انه لم تقم علاقات اجتماعية متبادلة بين الصينيين والافريقيين في تانزانيا او زامبيا على مدى السنوات التي استغرقها تنفيذ المشروع . فقد كان الصينيون يريدون ان يتركوا انطبعا بأنهم لا يتدخلون ، وانهم غير معنيين بنقل ايديولوجيتهم ، كما اسهم حاجز اللغة في الابقاء على مسافة بين الجانبين) . وكان من الواضح ان الصين تقدم تضحية المخاطرة الاقتصادية مقابل اهداف ايدولوجية وسياسية تتعلق اساسا بصورتها في افريقيا خاصة والعالم الثالث عموما . فقد قضى اتفاق مشروع « تانزام » بأن تدفع الصين نفقاته (التي بلغت نحو ٤٥٠ مليون دولار) في صورة قرض بدون فوائد لمدة ٣٠ عاما ، ويبدأ تسديده بالتساوي من جانب تانزانيا وزامبيا في عام ١٩٨٣ . وكل ما حصلت عليه الصين من فائدة اقتصادية هو شراء الدولتين سلعا صينية - معظمها سلع استهلاكية رخيصة - واعادة بيعها في اسواق اخرى بأسعار اعلى ، واستخدام الارباح في تسديد جزء من نفقات المشروع المحلية . وعلى مدى ابعد من السنوات الى وقت بداية تسديد القرض ، فان الصين تتوقع ان تكون حصتها من نحاس زامبيا حصة كبيرة ومتزايدة .

ولكن من المؤكد ان « الحضور الصيني » - السياسي والايديولوجي - قد ازداد كثافة ووزنا بفعل دور الصين في هذا المشروع ، وبصفة خاصة بفعل كيفية ادائها لهذا الدور . وهو « مردود » عملي لا يقل اهمية للصين عن اي مردود اقتصادي قريب او بعيد الاجل .

ولقد كان التصور الاستراتيجي للمشروع قبل ان يبدأ تنفيذه انه سيلعب دورا كبيرا في رفع قدرة زامبيا بالذات على مساعدة حركات التحرر فسي المستعمرات البرتغالية عسكريا ، ولكن هذه المستعمرات حققت استقلالها في عام ١٩٧٤ - ١٩٧٥ قبل وقت قليل من اتمام المشروع . الا ان هذا لا يمنع المشروع من الاحتفاظ باهميته بالنسبة لحركات التحرير الوطني الافريقي في جنوب القارة ككل (وخاصة جنوب افريقيا ، وناميبيا وروديسيا) ، وبالنسبة لتقليص اعتماد زامبيا وتانزانيا اقتصاديا على جنوب افريقيا ، والاتجاه بها اكثر نحو جاراتها الشمالية المتحررة .

وبعد التطورات الاخيرة التي وجدت فيها افريقيا - ٧٧ الصين في صف اليمين في انغولا ، وفي صف نظام موبوتو ، الممثل لاحتكارات الامبريالية الغربية ، الاميركية والاوروبية ، وفي صف النظم المماثلة التي سارعت الى نجدته تلبية لاشارات غربية ، وفي صف التجارة - علنا وخفية - مع نظامي جنوب افريقيا وروديسيا العنصريين . بعد هذه التطورات الاخيرة - التي لا تعدم لها سوابق في احداث الستينات وما مضى من السبعينات - تثار اسئلة افريقية بشأن الصين :

- هل تحتفظ بالمردود الايديولوجي والسياسي الذي حصلت عليه من مشروع « تانزام » بعد ان عكست سياستها الخارجية الصورة التي رسمتها الصين لنفسها خلال هذا المشروع ؟
- هل تبقى لشعارات الصين مصداقية تكفي لمواجهة دور الاتحاد السوفياتي والتصدي له في اي اتجاه ؟

● الى اين يمكن ان تؤدي - بالنسبة لافريقيا - نقاط الالتقاء المثيرة للدهشة والتساؤل بين سياسة الصين الخارجية وسياسة الغرب الامبريالي وبين المواقف العملية لهما ؟

● الى اين يمكن ان يؤدي - بالنسبة لافريقيا - تصاعد « الصراع » بين الصين والاتحاد السوفياتي ، اكثر مما ادى اليه حتى الآن منذ منتصف الخمسينات من انقسامات ونزاعات افريقية ، وصلت الى قلب حركات التحرر واضرت بها بافدح مما اضرت باي من الاتحاد السوفياتي او الصين ؟

وهذه كلها من نوع الاسئلة التي تحمل في طياتها اجوبتها الضمنية . وهي

اجوبة لا يكفي ان تستمد من منطق السؤال نفسه او انها لا بد ان تستمد ايضا - وفي الاساس - من تجارب السنوات الماضية ، ومن محطات الاحداث الرئيسية الافريقية التي كان للصين فيها حضور ايجابي او سلبي ، او غياب ايجابي او سلبي . ولعله لم يكن من قبيل المصادفة ان « الغياب السلبي » للصين فسي احداث الكونغو - كينشاسا (زائير فيما بعد) في اوائل الستينات ، وهو الغياب الذي تمثل في عدم تقديم اي عون لباتريس لومومبا وحركته ورجاله (خشية ان ينطوي ذلك على دعم للاتحاد السوفياتي في افريقيا) قد تحول الى « حضور سلبي » للصين في زائير - ٧٧ ، بكثافة سياسية واضحة ، وكثافة عسكرية مبهمة ، الى جانب القوى نفسها التي قضت على لومومبا وحركته وتريد ان تقضي على تياره . . .

والان لا يستطيع باحث في الصراعات الكبرى على افريقيا ان يفلت من مواجهة معادلات تبدو فيها مفارقات غريبة ولكنها حقيقية .

للاعلان في

مجلة

شؤون فلسطينية

في القطر العراقي

يرجى الاتصال بممثلنا في بغداد - شارع

الجمهورية - عمارة الفيحاء

ص.ب ٣١١٩ - هاتف : ٦٦٥٤٤ و ٦١٨٠٥

دور البحرية العربية في البحر الأحمر [٢]

مصمود عزيم

عرضنا في الحلقة الاولى من هذه الدراسة للاطار الاستراتيجي الذي يجب ان تستخدم ضمنه القوة البحرية العربية ، ثم انتقلنا الى عرض ميزان القوى البحري في البحر الاحمر ، حيث تعرفنا على اجمالي القوة البحرية المصرية ومتطلبات تطويرها .

ونستكمل في الحلقة الثانية ، والاخيرة ، من هذه الدراسة ، بقية ميزان القوى البحري في البحر الاحمر ، وكذلك في البحر الابيض المتوسط بين دول المواجهة العربية المباشرة (مصر وسوريا) والمحتملة (ليبيا) واسرائيل ، بحكم ان الصراع البحري المسلح حال نشوبه بين العرب واسرائيل ، لن يقتصر على مسرح البحر الاحمر وانما سيمتد الى مسرح البحر الابيض المتوسط ، بحكم ضرورة تحول المواجهة المحدودة الى مواجهة شاملة ، كما اثبت واقع الصراع العربي - الاسرائيلي من قبل . ومتطلبات استخدام القوة البحرية العربية .

القوة البحرية السودانية

تضم البحرية السودانية نحو ٦٠٠ ضابط وبحار (في عام ١٩٧٦) ، وقد تشكلت اعتباراً من عام ١٩٦٢ ، على اساس العمل في البحر الاحمر ونهر النيل ، ولها قاعدة بحرية وحيدة في البحر الاحمر هي « بورسودان » وتتألف من ٧ زوارق دورية كبيرة اميركية الصنع ، وكانت مخصصة لايران ، ثم حولت

الآخيرة ٤ منها الى السودان في عام ١٩٧٥ ، وحولت الثلاثة الأخرى المبنية اصلا لحساب ايران الى السودان في العام نفسه ، والأربعة زوارق التي حولتها ايران هي من فئة « كاب » ، ودخلت الخدمة العملية ما بين عامي ١٩٥٥ و ١٩٥٧ ، ويبلغ الوزن القياسي للزورق ٨٥ طنا ، وعند الحمولة الكاملة ١٠٧ اطنان ، وطوله ٢٩ مترا ، وعرضه ٤ امتار ، وغطاسه ٢ متر ، وهو مسلح بمدفع عيار ٤٠ مم م / ط وقاذف قنابل عيار ٧٢ بوصة ، ومزود بأربع محركات ديزل قوتها ٢٢٠٠ حصان ، وسرعته القصوى ٢٠ عقدة ، ويتألف طاقمه من ١٥ رجلا .

أما الثلاث زوارق الأخرى فقد دخلت الخدمة العملية بين عامي ١٩٦٧ و ١٩٦٩ ، ويبلغ الوزن القياسي للزورق منها ١٠٥ اطنان ، وعند حمولة الكاملة ١٤٦ طنا ، وطوله ٣١ مترا ، وعرضه ٤ امتار ، وغطاسه ٣ امتار ، وهو مسلح بمدفع عيار ٤٠ مم ومدفعين عيار ٢٠ مم ومدفعين رشاشين ، وتبلغ قوة محركاته الديزل ٢٠٠٠ حصان ، وسرعته ٢٠ عقدة ، ويتألف طاقمه من ١٥ رجلا .

وبالإضافة الى هذه الزوارق السبعة الإيرانية الاصل ، هناك ستة زوارق دورية كبيرة يوغسلافية الصنع (والخبراء اليوغسلافيون البحريون هم الذين اشرفوا اصلا على تدريب رجال البحرية السودانية) ، اثنان منهما وزنهما القياسي ١٩٠ طنا ، وعند الحمولة الكاملة ٢٤٥ طنا ، وطول الزورق ٤١ مترا ، وعرضه ٦ امتار ، وغطاسه ٢ متر ، وهو مسلح بمدفعين عيار ٤٠ مم ومدفعين عيار ٢٠ مم ، وتبلغ قوة محركاته الديزل ٣٣٠٠ حصان ، وسرعته ٢٠ عقدة ، ومدى عمله ١٥٠ ميل بسرعة ١٢ عقدة ، وقد سلمتهما يوغسلافيا للسودان عام ١٩٦٩ ، والأربع زوارق الدورية اليوغسلافية الأخرى ذات حجم اصغر ، اذ يبلغ وزنها القياسي ١٠٠ طن ، وطول الزورق ٣٥ مترا ، وعرضه ٥ امتار ، وغطاسه ١٧ متر ، ومسلح بمدفع ٤٠ مم وآخر ٢٠ مم ورشاشين ٧٦ مم ، وقوة محركاتها الديزل ١٨٠٠ حصان ، وسرعته ٢٠ عقدة ، ومداه ١٤٠٠ ميل بسرعة ١٢ عقدة ، وكانت هذه الزوارق هي اول سفن البحرية السودانية عام ١٩٦٢ .

ولدى البحرية المذكورة ٦ زوارق هجومية سريعة ، يوغسلافية الصنع ايضا ، ويبلغ الوزن القياسي للزورق منها ٥٥ طنا ، وعند الحمولة الكاملة ٦٠ طنا ، وطوله ٢٣ امتار ، وعرضه ٦ امتار ، وغطاسه ٢ متر ، وهو مسلح بمدفعين ٤٠ مم ومدفعين منفردين ٢٠ مم ، وتبلغ قوة محركاتها الثلاثة ٥٠٠٠ حصان ، وسرعته القصوى ٣٦ عقدة ، ويتألف طاقمها من ١٤ رجلا .

وبالإضافة الى ذلك يوجد لدى البحرية السودانية سفينتا انزال دبابات ،

يوغسلافية الصنع ، وزن الواحدة القياسي ٤١٠ اطنان وطولها ٤٤ مترا ، وعرضها ٦ امتار ، وغطاسها ٢١ متر ، ومسلحة بمدفع عيار ٢٠ مم ومدفعين رشاشين عيار ١٢٧ مم ، وسرعتها ١٠ عقد ، ويتألف طاقمها من ١٥ رجلا . فضلا عن ٣ زوارق انزال حمولة ٤٠ طنا (١) .

ومن الواضح ان القوة البحرية السودانية ، على وضعها الراهن ، ليست اكثر من قوة حراسة سواحل في واقع الحال ، وانه يلزم تطوير الزوارق الكبيرة فيها عن طريق تسليحها بالصواريخ سطح - سطح وقنابل الاعماق واسلحة اكثر فاعلية م / ط ، وتجهيزها بمعدات الكترونية متطورة ، وبطائرات هليكوبتر مضادة للغواصات والزوارق ، حتى يمكن اعتبارها ضمن القوة البحرية العربية الفعالة في البحر الاحمر ، خاصة وان شواطئ السودان تسيطر على منتصف البحر المذكور ، ويمكن ان تكون قواعدا البحرية والجوية ومحطات الرادار الجوي والبحري الموجودة بها ، ذات دور بالغ الاهمية في التصدي للزوارق الاسرائيلية وطائرات الدورية بعيدة المدى والمقاتلات الاسرائيلية ، التي ستحاول ان تشكل مظلة جوية للزوارق وقوة ضاربة للقوى البحرية العربية في جنوب البحر الاحمر .

« القوة البحرية السعودية »

تضم القوة البحرية السعودية ١٥٠٠ ضابط وبحار ، ولها قاعدتان رئيسيتان ، احدهما في « جدة » على البحر الاحمر والثانية في « الظهران » على الخليج العربي . وتتألف قوتها الرئيسية من ثلاثة زوارق طوربيد سريعة من فئة « جاجوار » الالمانية الصنع ، دخلت الخدمة العملية عام ١٩٦٩ . ويبلغ الوزن القياسي للزورق ١٦٠ طنا ، وعند الحمولة الكاملة ١٩٠ طنا . وطوله ٤٢٥ مترا ، وعرضه ٧ امتار ، وغطاسه ٢٤ متر . وهو مسلح بمدفعين منفردين من عيار ٤٠ مم ، واربعة انابيب لاطلاق الطوربيدات عيار ٥٣٣ مم (٢١ بوصة) ، ومزود باربعة محركات ديزل قوتها ١٢ الف حصان ، وسرعتها القصوى ٤٢ عقدة ، ويتألف طاقمها من ٣٣ رجلا (٣ ضباط و ٣٠ رتب اخرى) . بالاضافة لزورق دورية كبير اميركي الصنع ، هيكله من الصلب ، اشترته السعودية عام ١٩٦٠ ، يبلغ وزنه القياسي ١٠٠ طن . وطوله ٢٩ مترا ، وعرضه ٨ امتار ، وغطاسه ١٩ متر ، ومسلح بمدفع عيار ٤٠ مم ، وقوة محركاته الديزل الاربعة ٢٢٠٠ حصان ، وسرعته ٢١ عقدة ، ويتألف طاقمه من ١٥ رجلا .

وهناك ٧٣ لنش دورية ساحلية من ثلاثة انواع مسلحة برشاش واحد .
فضلا عن زوارق « هوفر كراقت » بريطانية الصنع، يبلغ وزن الزورق منها ١٠
اطنان وطوله ١٤ر٨ مترا ، وعرضه ٧ر٧ امتار ، وغطاسه ٤ر٨ امتار . وسرعته
القصوى ٥٨ عقدة .

وهناك صفقة موقعة بين المملكة السعودية والولايات المتحدة الاميركية في
بداية عام ١٩٧٢ ، تعرف ببرنامج العشر سنوات لتطوير القوة البحرية
السعودية ، تتضمن شراء ٤ كاسحات الغام ساحلية فئة « ٣٢٢ » ، و ٤ سفن
انزال دبابات ، و ٣ سفن تدريب ، وسفینتی قطر ، و ٦ « كورفيت » حديثة و ٦
زوارق دورية كبيرة حديثة . والسفن الاخيرة هي التي ستشكل ، عند تسلم
البحرية السعودية لها ، عماد قوة هذه البحرية الفعال . اذ ان « الكورفيت »
ستكون سفينة يبلغ وزنها عند الحمولة الكاملة ٧٥٠ طنا ، وطولها ٧١ر٤٠ مترا .
وعرضها ٨ر٤٠ امتار ، وغطاسها ٢ر٦٥ متر ، وسرعتها نحو ٣٠ عقدة ، وسوف
تسلح بثمانية صواريخ سطح - سطح من طراز « هاربون » التي يصل مداها الى
١١٠ كلم ، وبمدفع طراز « اوتوميلارا » ، الآلي التلقيم والرمي ، من عيار ٧٦
مم المزدوج المهمة (ضد السفن والطائرات) ، ومدفعان م / ط عيار ٢٠ مم ،
و ٢ هاون مضاد للغواصات . اما زوارق الدورية الكبيرة الحديثة فيبلغ وزن
الزورق عند الحمولة الكاملة ٣٢٠ طنا ، وطوله ٥٦ مترا وعرضه ٧ر٦٠ مترا ،
وغطاسه ١ر٧٥ متر ، وسرعته القصوى ٣٨ عقدة ، وهو مسلح باربعة صواريخ
« هاربون » وبمدفع ٧٦ مم ، من النوع المذكور آنفا ، و ٢ هاون ضد
الغواصات (٢) .

« القوة البحرية لليمن الديمقراطية الشعبية »

تتألف البحرية اليمنية الشعبية من ٣٠٠ ضابط وبحار تقريبا ، ولها قاعدة
واحدة هي « عدن » وتضم زورقي صواريخ « اوسا » ، و ٢ « كورفيت » مضادة
للغواصات من طراز « سو - ١ » سوفيتية الصنع ، وزورقي طوربيد طراز
« ب٦ » السوفيتي ، و ٣ كاسحات الغام ساحلية (بريطانية الصنع) ، و ١٥
زورق دورية ساحلية صغير (بريطانية الصنع) ، وسفینتی انزال دبابات من
طراز « بولنوكثي » (سوفيتية الصنع) ويمكن الرجوع الى مواصفات الزوارق
الصاروخية وزوارق الطوربيد والسفن المضادة للغواصات المماثلة لها في
البحرية المصرية (بالقسم الاول من الدراسة) . وهي قوة بحرية لا بأس بها

بالنسبة لحجم اليمن الجنوبي وقواه البشرية ، كما ونوعا ، وكذلك لمسرح العمليات في باب المندب وخليج عدن ، وان كانت في حاجة الى بعض الاضافة المحدودة نسبيا في عدد زوارق الصواريخ وطائرات الهليكوبتر المضادة للغواصات .

« القوة البحرية للجمهورية اليمنية العربية »

تتألف القوة البحرية لليمن الشمالي من ٥٠٠ ضابط وبحار ، ولها قاعدة واحدة في « الحديدية » ، وتضم ٤ زوارق طوربيد سوفيتية الصنع من فئة « ب ٤ » ، تسلمتها عام ١٩٦٠ ، ويبلغ الوزن القياسي للزورق ٢٥ طنا ، وطولها ٢٥ مترا ، وعرضه ٣٫٧ امتار ، وغاطسه ١٫٨ متر . وهو مسلح برشاشين ، وأنبوبين لاطلاق الطوربيدات عيار ١٨ بوصة ، ومحركيه الديزل قوتهما ٢٢٠٠ حصان ، وسرعته القصوى ٥٠ عقدة .

بالاضافة الى اربعة زوارق دورية كبيرة سوفيتية الصنع من فئة « بولوشات » ، تسلمتها عام ١٩٧٠ ، ويبلغ الوزن القياسي للزورق ١٠٠ طن ، وطولها ٣٠ مترا ، وعرضه ٨ امتار ، وغاطسه ١٫٨ متر . وهو مسلح بمدفعين عيار ٢٥ مم (٣)

ومن الواضح ان هذه القوة البحرية ضعيفة ، ولا تستطيع ان تلعب دورا فعالا في التصدي للزوارق او الغواصات الاسرائيلية العاملة في البحر الاحمر ، وهي في حاجة الى تطوير كبير في التسليح كما ونوعا . هذا بالنسبة للقوى البحرية العربية الموجودة في البحر الاحمر بكامل قواها تقريبا (باستثناء السعودية التي قد يكون جزء من قواتها البحرية في الخليج العربي) . اما البحرية المصرية ، فقواتها موزعة بين البحرين الابيض المتوسط والاحمر ، وقد اتاح لها اعادة الملاحه في قناة السويس قدرة كبيرة على سرعة تغيير ثقل حشود قوتها بين البحرين بمرونة وسهولة نسبية ، نظرا لعدم اضطرارها الى الدوران حول افريقيا كلها عبر رأس الرجاء الصالح للوصول الى البحر الاحمر من قاعدتها الرئيسية في « الاسكندرية » الواقعة على البحر الابيض المتوسط . على خلاف الحال بالنسبة للبحرية الاسرائيلية ، التي لا تستطيع نقل اي قطعة بحرية رئيسية (زوارق صواريخ او غواصات) الا عبر رحلة طويلة حول القارة الاريقية باكملها ، وحين تمر في « باب المندب » لا بد أن ترصدها أجهزة ووسائل الرصد العربية ، وبالإضافة الى ذلك فإن ضيق مساحة البحر الاحمر نسبيا ، ووجود

القواعد البحرية الاسرائيلية في البحر الاحمر داخل خليج العقبة وعند مدخله (ايلات وشرم الشيخ) ، يجعل من السهل نسبيا على وسائل الاستطلاع المصرية رصد القطع البحرية الاسرائيلية بدقة ، ومن ثم حشد الوسائط المتفوقة عليها كيميا ونوعيا .

وحتى نستطيع ان نتوصل الى ميزان قوى تقريبي بين العرب واسرائيل في البحر الاحمر ، سنفترض ان البحرية المصرية ستركز ثلث قوتها الرئيسية في البحر المذكور والثلاثين في البحر الابيض المتوسط ، وان البحرية السعودية ستركز قواها في الاخرى في البحر الاحمر دون الخليج العربي .
وعلى الاساس المذكور انفا تصبح القوة البحرية العربية الممكن حشدها في البحر الاحمر تتألف من الوحدات التالية :

مدمرتان من فئة (سكوري) واربع غواصات من فئة « ر » (وكلها قطع مصرية) ونحو ٨ زوارق صواريخ « اوسا » و « كومار » (٦ منها مصرية و ٢ من اليمن الجنوبي) ، و ٦ قناصات غواصات « سو ١ » (٤ مصرية و ٢ من اليمن الجنوبي) ونحو ٢١ زورق طوربيد (١٢ مصرية و ٣ سعودية و ٤ من اليمن الشمالي و ٢ من اليمن الجنوبي) ، بخلاف عدد من كاسحات الالغام المصرية ، اما زوارق الدورية المختلفة الاحجام والموجودة في بحريات السدول العربية المطلة على البحر الاحمر ، فليست صالحة للدخول في اشتباكات بحرية مع زوارق الصواريخ او الغواصات او زوارق الطوربيد الاسرائيلية والطائرات المتعاونة معها بمختلف انواعها ، نظرا لضعف تسليحها المضاد للسفن او للطائرات ، وانعدام اسلحتها المضادة للغواصات ، ومن ثم فان مهامها ستقتصر على حراسة السواحل والتصدي لعمليات تسلل عناصر التخريب والاغارة من « الكوماندوس » البحري الاسرائيلي ، والذي يقدر عدده بنحو ٣٠٠ رجل ، معظمهم من الضفادع البشرية .

القوة البحرية الاسرائيلية :

وتمتلك البحرية الاسرائيلية قوة إجمالية ، موزعة على كلا البحرين ، الابيض المتوسط والاحمر ، تضم نحو ١٨ زورقا للصواريخ وربما ٢٠ (نظرا لان احواض حيفا تنتج زورقين من فئة رشاف سنويا على الاقل) ، منها ٦ زوارق كبيرة من فئة « رشاف » على الاقل ، وربما ارتفع عددها الى ١٠ زوارق خلال هذا العام . والباقي من فئة « ساعر » الاصغر حجما والاقل مدى (يمكن الرجوع لتفاصيل القوة البحرية الاسرائيلية ، من حيث عدد القطع ونوعيتها وقدراتها ، الى دراستنا الخاصة بهذا الموضوع في العدد ٦٥ من شؤون فلسطينية) ،

بالإضافة لنحو ٩ زوارق طوربيد ، و ٢٥ زورق دورية ساحلية صغير من فئة « دبور » ، البالغ وزنها عند الحمولة الكاملة ٢٥ طنا ، وسرعتها ٢٥ عقدة ، وبعضها مسلح بانبوين لاطلاق الطوربيدات في مقدمتها ، وبعضها الآخر مسلح بصاروخين سطح - سطح من طراز « غابرييل » ، والبعض مسلح بالتسليح التقليدي الأصلي فحسب والذي يتألف من مدفعين ٢٠ مم ورشاشين ٥٠ بوصة . كما تضم هذه البحرية زورقي دورية كبيرين و ٤ زوارق دورية ساحلية صغيرة ، بالإضافة للغواصة « دولفين » ، توأم الغواصة « دكار » التي غرقت في ٢٥ - ١ - ١٩٦٨ في شرقي البحر الأبيض المتوسط في ظروف غامضة ولم ينج أحد من طاقمها . وهناك ثلاث غواصات حديثة من حجم صغير ، يقدر وزنه على سطح الماء بنحو ٤٢٠ طنا ونحو ٦٠٠ طن تحت سطح الماء ، وهي من طراز « فيكرز ٢٠٦ » بريطانية الصنع ، وقد بدأ في بناء الغواصة الأولى في ٢ - ١٢ - ١٩٧٥ ، ويقوم البحارة الاسرائيليين بالتدريب على هذا النوع من الغواصات في بريطانيا حاليا ، وهي مسلحة بثمانية انابيب لاطلاق الطوربيدات عيار ٥٢٣ مم (٢١ بوصة) في مقدمتها ، وتبلغ قوة محركاتها الديلزل ٢٠٠٠ حصان ، ومحركاتها الكهربائية ١٨٠٠ حصان ، وسرعتها ١١ عقدة فوق سطح الماء و ١٧ عقدة تحت سطح الماء ، ويتألف طاقمها من ٢٢ رجلا . (٤) وهي تعد بذلك اقوى في التسليح من الغواصة « دولفير » الاكبر حجما منها (١٥٣٥ طنا فوق سطح الماء ، وزن الاخيرة ، مقابل ٤٢٠ طنا للفيكرز) ، واقل منها في طاقمها بكثير (اذ ان طاقم دولفين يضم ٦٥ رجلا) . ونعتقد ان غواصة « فيكرز » على الاقل ستعمل في البحر الاحمر ، خاصة وأن حجمها الصغير يتيح لها فرصا افضل في الملاحة عبر مضائقه الضيقة عند مدخل خليج العقبة (مضائق تيران) او عند « باب المندب » . كما انه يوجد منذ نيسان (ابريل) ١٩٧٤ زورقا صواريخ فئة « رشاف » في القواعد البحرية الاسرائيلية في خليج « العقبة » ، وصلا هناك عبر « باب المندب » اثر رحلة بحرية طويلة بدأت من « حيفا » في البحر الابيض المتوسط نحو جبل « طارق » ، ثم المحيط الاطلسي فالمحيط الهندي مرورا برأس « الرجاء الصالح » . ويحمل الزورقين المذكورين اسمي « رشاف » و « كيشيت » ، وقد جهزا باجهزة « سونار » الخاصة باكتشاف الغواصات .

ويقول « اريك سيلفر » ، مراسل صحيفة « الغارديان » ، في عددها الاسبوعي الصادر في ٥ - ٦ - ١٩٧٧ ، ضمن تحقيق صحفي بعنوان « توازن الابتزاز » كتبه اثر زيارة قام بها لمنطقة « شرم الشيخ » والمناطق القريبة منها مثل « رأس

نصراني « و « رأس محمد » ، ان « شرم الشيخ لم تفقد شيئاً من اهميتها الاستراتيجية بالنسبة لاسرائيل . ويؤكد المخططون العسكريون انها لا غنى لاسرائيل عنها لردع العرب عن اغلاق مضيق « باب المندب » . وان القواعد البحرية والجوية الاسرائيلية الكبيرة الموجودة في « شرم الشيخ » تخلق توازناً في الابتزاز بين الطرفين . وان « شرم الشيخ » ، وبالذات لسان الارض القريبة منها جنوباً والممتدة داخل البحر المعروفة باسم « رأس محمد » يحرسان كلا من خليج « العقبة » و « السويس »

وتستطيع زوارق « رشاف » ، بدعم جوي ولوجيستيكي (اداري) ، ان تمنع الملاحة العربية والدولية نحو ميناء « العقبة » ، وبصورة اكثر فاعلية في الرد الانتقامي بالنسبة لقناة السويس « (٥) وهذا يؤكد الاهمية الكبيرة التي توليها قيادة البحرية الاسرائيلية لمسرح عمليات البحر الاحمر ، ونقلها اليه زوارق « رشاف » الصاروخية بعيد المدى ، فضلاً عن عدد من زوارق الطوربيد القديمة وزوارق « دبور » ، وتخصيص قوة جوية مساندة لعملياتها ، تتخذ من « شرم الشيخ » قاعدة لها ، وان « شرم الشيخ » بقاعدتها البحرية والجوية ستلعب دوراً حيوياً للغاية في العمليات البحرية والجوية الاسرائيلية ضد القوى البحرية وحركة الملاحة العربية في قناة وخليج السويس ، وعند مضيق « باب المندب » ، لرفع « ثمن » اي عملية « خنق استراتيجي » قد يقدم عليها العرب مرة اخرى عند « باب المندب » ، ومن ثم فإن قواعد « شرم الشيخ » تعتبر احدى الوسائل الفعالة في تنفيذ استراتيجية « الردع » الاسرائيلية او في عمليات « الرد الجسيم » المضاد لممارسة « الخنق الاستراتيجي » العربي . وهذا يؤكد ما سبق ان اوضحناه ، في القسم الاول من دراستنا هذه ، من ان الممارسة الناجحة للخنق الاستراتيجي العربي تفترض ضرورة استعادة سيطرة مصر على « شرم الشيخ » والشاطئ الشرقي لخليج السويس ، للحيلولة دون التعرض البحري الاسرائيلي للملاحة في خليج السويس ، ولاضعاف فاعلية الدعم الجوي الاسرائيلي للعمليات في الخليج المذكور وعند « باب المندب » . واستطرد « اريك سيلفر » في تحقيقه الصحفي المشار اليه آنفاً ، موضحاً ان زوارق « رشاف » تستطيع الوصول الى « باب المندب » من « شرم الشيخ » (وذلك نظراً لان مداها يبلغ نحو ٢٤٠٠ كلم بسرعة ٣٠ عقدة ، ويمكن ان يزيد بعض الشيء عند السير بسرعة اقل من ذلك) ، ولكن هذه المسافة تجعل المدى القتالي لطائرات « الفانتوم » و « الكفير » الاسرائيلية يصل الى حده الاقصى ، ولذلك قال احد الضباط الاسرائيليين للكاتب « ان باب المندب تقع خارج المدى

القتالي طويل الامد لطائراتنا ، ولكنها ليست خارج المدى الذي نستطيع ان نفعل فيه شيئا ما » • (٦)

ويعلق الكاتب على ذلك فيقول « ولكن ، الطائرة الاميركية « ايغل » ف - ١٥ ، التي بدأت اسرائيل تتسلمها في كانون الاول (ديسمبر) الماضي ، ستحدث تغييرا له مغزاه الكبير في الموقف » • (٧) والمعروف ان الطائرة « ف - ١٥ » ، التي تعد احدث واغوى الجيل الحديث للمقاتلات الاميركية ، والتي صممت خصيصا للتفوق نظريا على « الميغ ٢٥ » ، يبلغ مداها القتالي في حالة الطيران « عالي - منخفض - عالي » نحو ١٨٠٠ كلم ، وان مداها الاقصى يبلغ نحو ٤٨٠٠ كلم • وعموما فان الطائرات الاسرائيلية ، بانواعها الثلاث ، يمكن ان تزود بالوقود في الجو اثناء رحلتها الطويلة من « شرم الشيخ » حتى « باب المندب » وجزيرة « بريم » في اقصى جنوب البحر الاحمر ، وذلك بواسطة طائرات النقل المزودة بصهاريج الوقود الخاصة بمثل هذه العمليات من طراز « ستراتوكروزر » ، التي يملك منها الطيران الاسرائيلي ١٢ طائرة ، منها طائرتين على الاقل مزودة بصهاريج الوقود •

ويعتقد ان البحرية الاسرائيلية ستزيد حتما من عدد زوارقها الصاروخية « رشاف » في البحر الاحمر ، من زورقين الى اربعة زوارق على الاقل ، ليكون لها دورية مشكلة من زورقين بصفة دائمة في البحر • كما انها ستستخدم عددا من زوارق « دبور » المسلحة بصواريخ « غبرائيل » ، ربما بلغ ٨ او ١٠ زوارق ، في العمليات التعرضية قصيرة المدى في خليج « السويس » وضد القواعد البحرية المصرية في « الغردقة » و « سفاجه » • وهذه الزوارق يمكن نقلها الى « ايلات » فوق شاحنات كبيرة نظرا لصغر حجمها وخفة وزنها الناتج عن ان هيكلها مصنوع من الالومنيوم في مصانع الطائرات الاسرائيلية • ومعنى هذا ان اجمالي القوة النارية الصاروخية الاسرائيلية في البحر الاحمر ، والتي تشكل الجزء الرئيسي للقوة البحرية الاسرائيلية ، يمكن ان تصل الى ٤٨ صاروخا في الصلية الواحدة (اذ ان الاربعة زوارق « رشاف » المفترض وجودها يسلم كل منها بسبع صواريخ ، والعشر زوارق « دبور » يسلم كل منها بصاروخين) • وهذا يفترض ان يكون لدى البحرية العربية في البحر الاحمر قوة لا تقل عن ١٢ زورقا من نوع « اوسا » ، حتى تكون متعادلة مع القوة الاسرائيلية المفترضة ، او حتى تحقق تفوقا كليا في حالة عدم وصول حجم القوة الصاروخية الاسرائيلية الى تقديرنا المفترض • وقد نشر مؤخرا ، في احدى المجلات العالمية

٦ - المرجع السابق •

٧ - المرجع السابق •

المتخصصة في الاسلحة البحرية والجوية ، ان احواض السفن في اسرائيل تبني حاليا زورقا جديدا اطلقت عليه اسم « كيو ٩ » ، يعتبر تطويرا للزورق « رشاف » ، يبلغ وزنه نحو ٨٥٠ طنا ، وطوله ٧٧ مترا ، ويصل مدى عمله الى ٨٠٠٠ كلم ، وهو مزود بسطح خاص في مؤخرته مخصص لطائرة هليكوبتر مقاتلة ، فضلا عن مدافعه وصواريخه واسلحته الاخرى (التي لم ينشر شيء محدد عنها) ، ويبلغ عدد طاقمه ٤٥ رجلا ، وتكلفته تقدر بنحو ٧٥ مليون دولار * (٨) وسوف تكون هذه الزوارق ، او على الاصح هذه الفرقاطات الصغيرة السريعة في واقع الامر ، عماد القوة البحرية الاسرائيلية في الثمانينات . ويتشابه هذا الزورق الجديد مع سفن حراسة السواحل الاميركية المعروفة بفئة « ريلانيس ٢١ » ، التي يبلغ وزنها القياسي ٩٥٠ طنا ، وطولها ٦٤ مترا ، ولها سطح لطائرة هليكوبتر ، ويصل مدى عملها الى نحو ٩٧٦٠ كلم بسرعة ١٤ عقدة . ومعنى هذا التطوير ، الذي يجب ان تضعه البحرية العربية في اعتبارها منذ الآن ، هو ان البحرية الاسرائيلية ستكون لها سفن سريعة وقوية التسليح ضد السفن والغواصات والطائرات ، قادرة على الوصول الى أي هدف ساحلي او بحري في العمق العربي ، سواء في البحر الاحمر او البحر الابيض المتوسط ، في اوائل الثمانينات ، لضمان تأمين حرية الملاحة الاسرائيلية في كلا البحرين على المدى الاستراتيجي ، ومن ثم يصعب على العرب ممارسة « الخنق الاستراتيجي » ضدها ، بل يشكل ذلك عنصرا هاما في « الردع » الاسرائيلي المضاد للخنق الاستراتيجي .

القوة البحرية السورية

ولما كانت اي مواجهة عربية - اسرائيلية فعالة في البحر الاحمر ، ستحول الى مواجهة شاملة في كلا البحرين الاحمر والابيض المتوسط ، ان لم تكن ايضا في مسارح العمليات البرية ، فانه يجب علينا استكمال صورة ميزان القوى البحري العربي - الاسرائيلي بالنسبة لمسرح عمليات البحر الابيض المتوسط ، ومن ثم سنتعرض للقوى البحرية لكل من سوريا وليبيا ، والاجزاء المتوقع تقريبا استخدامها في البحر المذكور من قبل مصر واسرائيل .

تتألف البحرية السورية (وفقا لآخر تقديرات موسوعة جينز البحرية) من نحو ٢٥٠٠ ضابط وبحار ، ولديها قاعدتان رئيسيتان في كل من مينائي « اللاذقية » و « بانياس » . وتضم فرقاطتين من فئة « بتيا ١ » السوفيتية

الصنع تسلمتهما عام ١٩٧٥ . ويبلغ الوزن القياسي للفرقاطة ٩٥٠ طنا . وعند الحمولة الكاملة يصبح وزنها ١١٥٠ طنا . وطولها الاجمالي ٨٢٫٢ مترا . واقصى عرض لها ٩٫١ امتار ، وغطاسها ٢٫٢ امتار . وهي مسلحة باربعة مدافع مزدوجة المهمة (ضد السفن والطائرات) من عيار ٧٦ مم موزعة على برجين ثنائي السبطانة ، احدهما في المقدمة والآخر في المؤخرة ، بالاضافة لاربعة مجموعات اطلاق قذائف صاروخية مضادة للغواصات بكل منها ١٦ اسطوانة ، وخمسة انابيب لاطلاق الطوربيدات من عيار ٤٠٦ مم (١٦ بوصة) . وهي مزودة بمحركي ديزل ومحركي توربين - غازي ، اجمالي قوتها ٢٠ الف حصان ، وسرعتها القصوى ٣٠ عقدة ، ويتألف طاقتها من ١٠٠ ضابط وبحار . ومزودة بجهاز رادار للانذار المبكر وجهاز رادار آخر لادارة النيران . وهي اساسا سفينة صغيرة مضادة للغواصات ، ذات قدرة على الاشتباك مع زوارق الطوربيد والفرقاطات الصغيرة غير المسلحة بصواريخ سطح - سطح . وبالاضافة لهاتين الفرقاطتين ، تضم البحرية السورية ٦ زوارق صواريخ فئة « اوسا » و ٦ زوارق صواريخ من فئة « كومار » (سبق ان اوضحنا قدراتها عند عرض القوة البحرية المصرية) ، كما يوجد لديها ٨ زوارق طوربيد عاملة من فئة « بي - ٤ » ، التي يبلغ وزنها القياسي ٢٥ طنا ، ومسلحة بانثويبي اطلاق طوربيدات عيار ١٨ بوصة ورشاشين مزدوجين م/ط ، وتبلغ قوة محركها الديزل ٢٢٠٠ حصان ، وسرعتها القصوى ٥٠ عقدة . وهناك ٣ زوارق دورية كبيرة فرنسية الصنع ، يبلغ الوزن القياسي لكل زورق ١٠٧ اطنان ، وعند الحمولة الكاملة يصبح وزنه ١٣١ طنا . وطوله ٢٨٫٢ مترا ، وعرضه ٧٫٥ ، وغطاسه ٢٫١ ، وهو مسلح بمدفع ٧٦ مم ومدفعين ٢٠ مم وبقذائف قنابل اعماق ، وتبلغ قوة محركاته الديزل ١١٣٠ حصانا ، وسرعته القصوى ١٦ عقدة ، ومدى عمله ٦٨٠ ميلا بسرعة ١٣ عقدة ، ويتألف طاقمه من ٢٨ رجلا . وقد بنيت هذه الزوارق عام ١٩٤٠ ، ثم اعيد تجهيزها بصورة احدث بمحركات ديزل عام ١٩٥٥ ، وبيعت الى سوريا عام ١٩٦٢ ، ولهذا فانها قاربت نهاية قدرتها العملية ، والمعتقد ان زورقا واحدا منها فقط هو العامل حاليا ، وهو يصلح للحراسة الساحلية الخفيفة . وبالاضافة الى ذلك ، تملك البحرية المذكورة كاسحة الغام للعمل في اعالي البحار من فئة « ت ٤٣ » السوفيتية الصنع (مواصفاتها مماثلة لتلك الموجودة لدى البحرية المصرية) ، وكاسحتي الغام ساحليتين من فئة « فانيا » السوفيتية الصنع ، ويبلغ وزنها القياسي ٢٢٥ طنا ، وعند الحمولة الكاملة ٢٥٠ طنا ، وطولها ٣٩٫٩ مترا ، وعرضها ٧٫٣ امتار ، وغطاسها ٢٫١ متر ، ومسلحة بمدفعين عيار ٣٠ مم ، وتبلغ قوة محركها الديزل ٢٢٠٠ حصان ، وسرعتها القصوى ١٨ عقدة ، ويتألف طاقتها من ٣٠ رجلا .

وتدعم القوة البحرية السورية في عملياتها المضادة للغواصات والسزوارق والسفن الخفيفة ، تسع طائرات هليكوبتر من طراز « كاموف - ٢٥ » السوفيتية المصنع ، التي يبلغ مدى عملها ٣٥٠ ميلا بحريا ومسلحة بطوربيدات مضادة للغواصات ، ومشاعل للعمل ليلا . وبظبيعة الحال تشكل زوارق الصواريخ ، القوة الضاربة الرئيسية للبحرية السورية ، ويبلغ اجمالي قوتها النارية ٣٦ صاروخا في الصلية الواحدة . كما انها تمتلك قدرة لا بأس بها من الاسلحة المضادة للغواصات تتركز في الفرقاطتين فئة « بتيا ١ » وطائرات الهليكوبتر التسع المذكورة . ولكنها تحتاج لدعم قوتها الضاربة بغواصتين او ثلاث ، وبثلاث او اربع قناصات مضادة للغواصات .

« القوة البحرية الليبية »

تضم البحرية الليبية نحو ٢٧٠٠ ضابط وبحار ، وقاعدتها الرئيسية في ميناء « طرابلس » ، فضلا عن قواعد عمليات في « بنغازي » و « درنة » و « طبرق » . وتتألف حاليا من فرقاطة « ماركة ٧ » بريطانية المصنع ، بدأ في بنائها في ٢٧ - ٩ - ١٩٦٨ ، وانزلت الى البحر في ايلول (سبتمبر) ١٩٦٩ ، ووصلت الى طرابلس في خريف ١٩٧٣ . ويبلغ وزنها القياسي ١٣٢٥ طنا ، وعند الحمولة الكاملة يصبح وزنها ١٦٢٥ طنا . وطولها الاجمالي ١٠٠٦ امتار ، واقصى عرض لهيكلها ١١ مترا ، وغطاسها ٣٤ امتار . وهي مسلحة بمدفع عيار ١١٥ مم (٤ بوصة) في برج امامي ، مزدوج المهمة (ضد السفن والطائرات) ، ومدفعين عيار ٤٠ مم م / ط منفردين ، ومدفع ثنائي السبطانة عيار ٣٥ مم م / ط ، و ٦ قوائف صواريخ سطح - جو من طراز « سي كات » ، موزعة على مجموعتي اطلاق ثلاثية (ويبلغ مداها نحو ٣٥ كلم وتوجه بصريا أو بالرادار او بالتليفزيون) ، فضلا عن هاون مضاد للغواصات « ماركة ١٠ » . وتبلغ قوة محركها التوربينيين الغازيين ٢٣٢٠٠ حصان ، ومحركها الديزل ٣٥٠٠ حصان . وسرعتها القصوى ٣٧٫٥ عقدة ، والاقتصادية ١٧ عقدة ، وفي الحالة الاخيرة يصل مدى عملها الى ٥٧٠٠ ميل . وهي مزودة بثلاثة اجهزة رادار، احدها للمراقبة الجوية، والثاني لادارة النيران، والثالث لتحديد الاتجاه . كما تمتلك « كورفيت » تسمى « طبرق » ، بريطانية المصنع ، انزلت الى البحر في ٢٩ - ٧ - ١٩٦٥ ، ووصلت الى « طرابلس » في ١٥ - ٦ - ١٩٦٦ . ويبلغ وزنها القياسي ٤٤٠ طنا ، وعند الحمولة الكاملة ٥٠٠ طن ، وطولها الاجمالي ٥٤ مترا ، واقصى عرض لها ٨٫٧ امتار ، وغطاسها ٤ امتار . وهي مسلحة بمدفع عيار ١٠٢ مم (٤ بوصة) في برج امامي ، و ٤ مدافع فردية م / ط عيار ٤٠ مم ، وتبلغ قوة محركها الديزل ٣٨٠٠ حصان ، وسرعتها القصوى ١٨

عقدة ، ومدى عملها ٢٩٠٠ ميل بسرعة ١٤ عقدة ، ويتألف طاقمها من ٦٣ رجلا (٥ ضباط و ٥٨ رتبا آخرين) وبالإضافة الى هاتين السفينتين ، يوجد لدى البحرية الليبية ٣ زوارق صواريخ سريعة من فئة « سوسه » البريطانية الصنع ، وقد بنيت جميعا في عامي ٦٧ و ٦٨ . ويبلغ الوزن القياسي للزورق ٩٥ طنا ، وعند الحمولة الكاملة ١١٤ طنا ، وطوله الاجمالي ٣٠.٥ مترا ، وعرضه ٧.٨ امتار ، وغطاسه ٢.١ متر . وهو مسلح بثمانية صواريخ سطح - سطح من طراز « س س ١٢ » ، التي يبلغ مداها نحو ٨ كلم ، وبمدفعين منفردين م / ط عيار ٤٠ مم ، وهو مزود بثلاث محركات توربينية غازية قوتها ١٢٧٥٠ حصانا ، واقصى سرعة لها ٥٤ عقدة ، ويتألف طاقمها من ٢٠ رجلا .

كما أن لديها ١١ زورق دورية كبيرا يتفاوت وزنها بين ١٠٠ و ١٢٠ طنا ، كل منها مسلح بمدفع عيار ٢٠ مم ، وتتراوح سرعتها بين ١٤ و ١٨ عقدة ، ويتفاوت مدى عملها بالسرعة الاقتصادية بين ١٥٠٠ و ١٨٠٠ ميل . وهي لا تصلح الا في اعمال حراسة السواحل الخفيفة ، ولا تدخل بطبيعة الحال ضمن القوى البحرية الصالحة للقتال البحري . كما ان لديها سفينة دعم لوجستيكي (اداري) ، تسمى « زلتين » ، بريطانية الصنع ، بدأ بناؤها عام ٦٧ ، ودخلت الخدمة العملية في بداية عام ١٩٦٩ . ويبلغ وزنها القياسي ٢٢٠٠ طن ، وعند الحمولة الكاملة ٢٤٧٠ طنا ، وطولها الاجمالي ٩٨.٨ مترا ، وعرضها ١٤.٦ مترا ، وغطاسها ٥.٨ امتار . وبها حوض جاف طوله ٤١ مترا ، وعرضه ١٢.٢ مترا . ومسلحة بمدفعين م / ط عيار ٤٠ مم . وتبلغ قوة محركها الديزل ٣٥٠٠ حصان ، وسرعتها ١٥ عقدة ، ومدى عملها ٣٠٠ ميل بسرعة ١٤ عقدة ، ويتألف طاقمها من ١٠١ رجل (١٥ ضابطا و ٨٦ رتبا آخرين) . وهي توفر كافة الخدمات اللوجستكية المطلوبة للسفن الليبية ، بما في ذلك الحوض الجاف المتحرك ، الذي يمكن أن تجرى اصلاحات لسفن يبلغ طولها ٣٦ مترا ، وهي في عرض البحر . أي ان زوارق الصواريخ « سوسه » مثلا يمكن اصلاحها فيه ، وكذلك زوارق الدورية الساحلية الكبيرة ، وكذلك زوارق من فئة « كومار » مثلا . وهناك تقارير صحفية تشير بأن الاتحاد السوفييتي سيسلم البحرية الليبية خلال عامي ٧٦ و ٧٧ نحو ٢٤ زورق صواريخ من فئة « اوسا » ، ولكن لم يتأكد بعد ما اذا كان ذلك قد تم فعلا . فضلا عن ذلك تعاقدت ليبيا مع ايطاليا في عام ١٩٧٤ على شراء ٤ « كورفيت » زنة ٥٥٠ طنا (عند الحمولة الكاملة) ، من المفروض ان تسلم اليها في عامي ٧٧ و ٧٨ ، وسوف تسلم كل سفينة بأربعة صواريخ سطح - سطح فرنسية من طراز « اوتومات » ، التي يصل مداها الى نحو ٥٩ كلم ، وبمدفعين اليين مزدوجي المهمة (ضد السفن والطائرات) من نوع « اوتوميلار ١ » عيار ٧٦ مم ، وبمعدات اعاقا الكترونية ، واجهزة « سونار » لاكتشاف الغواصات .

كما تعاقدت ليبيا مع فرنسا عام ١٩٧٥ على شراء ١٠ زوارق صواريخ سريعة من طراز « بي ر ٧٢ » ، ولا يعرف موعد البدء في تسليمها بعد . ويبلغ وزن الزورق القياسي ٥٣٦ طنا ، وطوله ٦٣٢ مترا . وعرضه ٩ امتار . وغاطسه ٢٤ امتار . وهو مسلح بأربعة صواريخ سطح - سطح من طراز « اكسوست ام ٢٨ » ، التي يبلغ مداها ٣٧ كلم تقريبا ، وبمدفع « اوتوميلار ١ » عيار ٧٦ مم . وبمدفعين ٤٠ مم ومدفعين ٢٠ مم (ويمكن استبدال المدفعين ٤٠ مم بمدفع واحد ٧٦ مم نظرا لانهما على برج واحد مزدوج السبطانة في المؤخرة) . وتبلغ قوة محركاته الاربعة الديزل ٢٠ الف حصان ، وسرعته القصوى ٣٢ عقدة . ومدى عمله ٢٠٠٠ ميل بسرعة ١٦ عقدة ، و ٧٠٠ ميل بسرعة ٣٠ عقدة . ويتألف طاقمه من ٤٤ رجلا . كما انه يمكن تسليحه بطوربيدين موجهين سلكيا او بقاذفي طوربيدات مضادة للغواصات . وهو مزود برادار للملاحة وآخر للانذار المبكر الجوي والبحري ، ورادار لتوجيه الصواريخ . فضلا عن جهاز « سونار » لكشف الغواصات يمكن تركيبه في الزورق . وهناك تقارير تفيد بتعاقد ليبيا على شراء ٣ - ٤ غواصة فرنسية الطراز من فئة « اغوستا » المصنوعة في اسبانيا او من فئة « دافني » الفرنسية ، ولكن لم تتأكد بعد اي مواعيد لتسليمها . وكذلك هناك معلومات غير مؤكدة عن غواصات سوفيتية الصنع ستسلم للبحرية الليبية ، بعد أن يتم تدريب طواقمها في الاتحاد السوفياتي . ولذلك لا نستطيع ان ندخل الغواصات ضمن القوة البحرية حاليا ، وتوضح لنا هذه المعلومات ان ليبيا سيكون لديها خلال العام القادم ، على الازجج ، قوة بحرية كبيرة وفعالة ، تتميز بحدثة وتطور قطعها من حيث القدرة الملاحة والتسليح . وانها في حالة حصولها فعلا على الاربعة وعشرين زورقا من طراز « اوسا » ، وكذلك العشرة زوارق الفرنسية « بي ر ٧٢ » ، والاربعة « كورفيت » الايطالية ، ستكون لديها قوة نارية صاروخية قادرة على مواجهة الصواريخ الاسرائيلية « غبرائيل » في زوارق « رشاف » و « ساعر » ، تضم ١٥٢ صاروخا في الصلية الواحدة (مع استبعاد الصواريخ س س ١٢ الموجودة حاليا في الزوارق الثلاثة من فئة « سوسه » ، والتي لا تستطيع مواجهة صواريخ غبرائيل بكلا نوعيها بسبب قصر مداها) . فاذا ما اضعنا اليها القوة النارية لزوارق الصواريخ السورية ، البالغ قدرها ٣٦ صاروخا ، والقوة النارية لزوارق الصواريخ المصرية فسي البحر الابيض المتوسط (على اساس افتراض انها تضم ١٠ زوارق كومانر) ، البالغ عددها نحو ٢٠ صاروخا ، يصبح اجمالي القوة الصاروخية البحرية العربية في البحر الابيض المتوسط نحو ٢٠٨ صاروخا . على حين ان اسرائيل تمتلك حاليا نحو ١٠ زوارق « رشاف » (في تقديرنا الخاص ، اما وفقا لآخر تقارير معهد الدراسات الاستراتيجية البريطاني فتمتلك ٦ زوارق فقط ، ولكن ذلك كان حتى بداية عام ١٩٧٥ فقط ، علما بان احواض حيفا تنتج زورقين كل

سنة) ، و ١٢ زورق « ساعر » ، وإذا افترضنا أنها ستضع ٤ زوارق «رشاف» في البحر الاحمر ، فستكون قوتها الصاروخية في البحر الابيض المتوسط تقدر بنحو ١٢٦ صاروخا (موزعة على ٦ زوارق «رشاف» و ١٢ زورق « ساعر ») ، أو بنحو ١٤٠ صاروخا في اوائل عام ١٩٧٨ ، على اساس زيادة عدد زوارق « رشاف » الى ٨ زوارق في البحر الابيض المتوسط .

ولكن ذلك الميزان محسوب ، كما قلنا ، على اساس افتراض تسلّم البحرية الليبية لقطعها المتعاقد عليها بالكامل عام ١٩٧٨ . ولذلك فان الميزان الحالي ، الذي يتسم بالواقعية المباشرة ، يختلف كثيرا عن الارقام المذكورة ، وهو يميل لصالح اسرائيل . ان ان القوة العربية الصاروخية (المصرية والسورية على فرض حشد الست زوارق « اوسا » المصرية في البحر الاحمر) تقدر بنحو ٥٦ صاروخا فقط ، مقابل ١٢٦ صاروخا للبحرية الاسرائيلية ، وفقا للفرض المشار اليه آنفا . وحتى اذا افترضنا ان البحرية المصرية ركزت كافة زوارقها الصاروخية في البحر الابيض المتوسط ، وان البحرية الاسرائيلية لا تمتلك في البحر المذكور الا ٤ زوارق « رشاف » و ١٢ زورق « ساعر » (اخذا بتقرير المعهد البريطاني عن عام ٧٦ - ٧٧) ، فان الميزان يكون ايضا لصالح البحرية الاسرائيلية ، اذ انها سيكون لديها ١١٢ صاروخا مقابل ٨٠ صاروخا للبحريتين المصرية والسورية . ولا نستطيع ان ندخل في الميزان الصواريخ الليبية الحالية « س.س ١٢ » .

« آفاق استخدام البحرية العربية »

وعلى ضوء العرض المفصل لميزان القوى البحري العربي - الاسرائيلي ، في كل من البحرين الاحمر والابيض المتوسط ، يتضح لنا ان الوضع الراهن للقوة البحرية العربية ، وكذلك في المستقبل القريب الاكثر واقعية ، يوفر افضلية الاخذ باستراتيجية هجومية في البحر الاحمر ، واخذ استراتيجية دفاعية ، في الاساس ، في البحر الابيض المتوسط ، خاصة ضمن ميزان القوى الجوية القائم حاليا . وذلك لان البحرية العربية ، وخاصة المصرية ، تتمتع بقدرة حشد ومناورة اسرع في البحر الاحمر عن البحرية الاسرائيلية ، اذ انها تعمل على خطوط داخلية قصيرة نسبيا ، بسبب تمتعها بميزة استخدام قناة السويس . وفي الوقت نفسه فان ضيق وعمق البعد الجغرافي للبحر الاحمر ، يتيح للأسلحة الجوية العربية فرصة العمل من قواعد برية قريبة ، وممتدة على طول شاطئ البحر المذكور ، الامر الذي يتيح لها مدى قصيرا للعمليات الجوية المساندة للعمليات البحرية ، وقدرة افضل على تنظيم مظلات جوية قوية وفعالة ، دون

الحاجة لطائرات بعيدة المدى او ترتيبات معقدة للامداد بالوقود في الجو . وفي الوقت نفسه يتيح لها حشدا كبيرا في الطلعات الجوية ، خاصة فوق خليج السويس والمناطق الاكثر جنوبا حتى « باب المندب » ، الامر الذي قد يحقق تفوقا ، او تعادلا على الاقل ، على الطيران الاسرائيلي فوق مسرح العمليات المذكور ، شرط توفر ادارة عمليات جوية كفؤة والحد المعقول من حشد الطائرات المناسبة نوعيا . واذا ما نجح الطيران والبحرية العربية في تعاونهما المشترك في البحر الاحمر ، وحيدت القدرات الرئيسية للطيران الاسرائيلي ، فانه يمكن تحرير منطقة مضائق « تيران » ، اي « رأس محمد » و « شرم الشيخ » و « رأس نصراني » وجزيرتي « تيران » و « صنابير » ، بواسطة عملية برمائية جوية مشتركة ، خاصة وان ضيق عرض مدخل خليج السويس نسبيا ، قد يساعد على استخدام وسائل الدفاع الجوي الصاروخية بفاعلية تغطي معظم الخليج والشاطئ الغربي منه ، وبذلك تحصر البحرية الاسرائيلية داخل خليج « العقبة » وميناء « ايلات » اثر نجاح العملية البرمائية المنشودة ضد « شرم الشيخ » ، والتي لن تكون بطبيعة الحال عملية معزولة عن العمليات الاخرى في الجبهة كلها . ولكن الشرط الرئيسي لنجاح الاستراتيجية العربية البحرية ، مثلها مثل الاستراتيجية البرية والجوية ، يكمن في توفر قيادة موحدة للعمليات المشتركة البحرية والجوية تخضع لها كافة الوسائل العسكرية العربية لدول المنطقة .

وبطبيعة الحال فان التطبيق الامثل ، او الاكثر نجاحا ، لاستراتيجية هجومية عربية في البحر الاحمر ، يتطلب دعم القدرات البحرية العربية في البحر الابيض المتوسط دعما قويا وفعالا ، من خلال تعزيزها بمزيد من الوسائل القتالية البحرية والجوية (بالنسبة لمصر وسوريا) ، وبالسعي من اجل ادخال القوة البحرية الليبية المتنامية ضمن القوى البحرية العربية العاملة فعليا ضد العدو الاسرائيلي المشترك ، وايجاد قيادة موحدة للعمليات المشتركة الجوية والبحرية المصرية - السورية - الليبية . وذلك لضمان دفاع ايجابي فعال ضد عمليات الردع والرد الجسيم للبحرية الاسرائيلية ، التي ستلجأ الى تنفيذها حال تطبيق الخنق الاستراتيجي في البحر الاحمر ، وكذلك لوضع الاسس المادية العملية لبدء ممارسة الخنق الاستراتيجي في البحر الابيض المتوسط ، الذي سيكون اكثر خطرا وحسما للصراع لصالح العرب ، اذا ما استطاعوا تطبيقه فعليا .

تقارير

النازحون

« النزوح عن اسرائيل ٠ من ؟ وكم ؟ ولماذا ينزح الاسرائيليون ؟ » هذا هو موضوع المقال - التقرير الذي نشره تسيون رايبى ، مدير شعبة الديموغرافيا في مديرية الاحصاء المركزية في اسرائيل ، في صحيفتي هارتس ٣ - ٦٦/١٢/٥ وداغار ٢٠ - ٧٧/٤/٢٢ ، والذي يشكل محاولة اولى من نوعها ، للبحث في ظاهرة النزوح التي تجتاح اسرائيل .

وقد توصل تسيون رايبى في بحثه هذا ، الى ان عدد النازحين اليهود من اسرائيل ، منذ قيام الدولة الاسرائيلية في عام ١٩٤٨ وحتى نهاية عام ١٩٧٦ ، قد بلغ في مجمله ٢٢٠ الف نازح فقط من مجموع السكان . « وان ظاهرة النزوح هذه في اسرائيل لا تختلف عنها في بلدان العالم الاخرى ، والتي تشكل فيها الهجرة من بلد الى آخر ظاهرة مألوفة » .

اما من حيث عدد النازحين من مجموع القادمين الجدد الى اسرائيل منذ عام ١٩٤٨ وحتى نهاية عام ١٩٧٦ فقد بلغ ١٤٥ الف نازح من مجموع مليون ونصف قادم جديد ، اي بنسبة ١٠٪ فقط ، وان هذه النسبة هي ضئيلة جدا ، بالمقارنة مع نسبة النازحين عن البلاد الاخرى المستوعبة للهجرة ، كالارجنتين والولايات المتحدة واستراليا ، والتي بلغت نسبة النازحين فيها ، كالارجنتين مثلا في الاعوام ١٨٨٧ - ١٩٢٤ حوالي ٤٧٪ من مجموع المهاجرين الذين وصلوا اليها في تلك الفترة ، وفي الولايات المتحدة ٢٤٪ في الاعوام ١٩٠٨ - ١٩٢٤ ، وفي استراليا ٧٠٪ في الاعوام ١٩٠٦ - ١٩٢٤ .

اما بالنسبة لبررات النزوح واسبابه ، فانه يتوصل الى انه قد يكون السبب الاقتصادي ولكن ليس كوضع اقتصادي موضوعي ، وانما لما تشييعه الازساط المرتبطة في الاقتصاد الاسرائيلي عن الوضع الاقتصادي الخطير المخلق في اسرائيل ، وخاصة في الاحوال

التي يرافق فيها هذا الوضع تخفيض لليرة الاسرائيلية .

وبغض النظر عن مدى مصداقية الأرقام الواردة في التقرير ، او المعطيات المقدمة لنا عن الحركة السكانية في اسرائيل ، او عدم مصداقيتها لا نملك الا ان نناقشها كما قدمها المقال - التقرير لنا ، وما دمنا لا نملك الوسائل والوثائق لاجراء البحث الاحصائي الموثوق بانفسنا ، والوصول بالتالي الى معطيات وارقام دقيقة حول هذا الموضوع .

وفي الواقع ، انه لا توجد اية طريقة موثوقة ، بصفة عامة ، من شأنها ان تحدد عدد النازحين بشكل موثوق في كل سنة . ولذلك فان الكثير من بلدان العالم ، يتخلون عن حصر كهذا . وكانت الامم المتحدة التي اعتمدت هذه الطريقة ، هي الاخرى ، فسي الاحصاء ، قد توقفت ومنذ عام ١٩٧٠ ، عن نشر معطيات الهجرة في كتابها الديموغرافي السنوي ، بسبب الاخطاء في هذه المعطيات المقدمة اليها من بلدان مختلفة في العالم .

والتعريف المعتمد لكلمة نازح (اميجرانت) هنا ، وفي البلدان التي ليست حساسة كاسرائيل في موضوع النزوح ، هو كل من يعلن عن نيته البقاء خارج بلده اكثر من سنة ، وهذا هو التعريف المقترح من جانب الامم المتحدة ، كما ورد في النموذج الصادر عن مديرية الاحصاء المركزية في الامم المتحدة ، والذي وزع على جميع الدول الاعضاء ، لجمع المعطيات الاحصائية عن حركات الهجرة العالمية .

والمشكلة في هذا التعريف بالنسبة لاسرائيل ، ان كلمة « نازح » هنا تعني كل من يترك البلاد نهائيا ، الا ان الامر يختلف في اسرائيل عنه في باقي الدول الاخرى بسبب قانون الهجرة والجنسية الذي وضع اصلا لليهود فقط ، لاستقطاب يهود العالم من اجل الاستيطان في فلسطين المحتلة ، ولترك الباب مفتوحا امام النازحين عن اسرائيل . للعودة كمواطنين عائدين ، وهم في هذه الحالة يعاملون معاملة القادمين الجدد تقريبا من حيث الامتيازات والتسهيلات المعطاة لهم زيادة على ما يتمتعون به من حقوق مواطنيتهم التي لم يفقدوها . ولذلك فاننا نرى الكثيرين ممن اعلنوا عن نيتهم النزوح من اسرائيل ، ثم عادوا اليها ، كمواطنين - عائدين « دون ان يدرجوا في سجل النازحين . ومن هنا تأتي الصعوبة الكبيرة في تحديد عدد النازحين بشكل موثوق .

ولهذا فقد عمد تسيون رابي الى انتهاج طريقة مغايرة ، بحيث اعتمد الدورة السنوية في حركة السكان عبر حدود اسرائيل ، اي العدد الاجمالي للخارجين من اسرائيل خلال السنة الواحدة ، ومن ثم حسم العدد الاجمالي للعائدين اليها ، كما هو مبين في البيان رقم ١ الذي اورده التقرير . وهذه هي الطريقة المتبعة لحصر عدد السكان الانسي (ديفاكتور) .

• ويوضح تسيون رابي ان عدد النازحين وفقا لهذه الطريقة ، يكون اكثر مما هو في الواقع ، اذ انه في كل فترة زمنية معينة ، يكون ثمة عدد من المواطنين الاسرائيليين في الخارج ، بشكل زمني ، سواء كان ذلك لاهداف سياحية او اهداف اخرى . وانه كلما زاد عدد المواطنين الاسرائيليين الخارجين - كما هو حاصل - كبر عدد المواطنين الاسرائيليين الماكثين في الخارج بشكل مؤقت ، ولفترات زمنية قصيرة ، قد يحدث انحراف عفوي في هذه الطريقة ، اذ ان عدد العائدين يتأثر بعدد الخارجين في الاشهر السابقة لذلك . ويضيف ، انه لكي نقارن بين الفترات المركبة من عدة سنوات ، تعكس لنا هذه الطريقة المتغيرات التي تطرأ على مجرى النزوح .

بيان ١ - حركة السكان عبر الحدود

١٩٧٦ - ١٩٤٨

(لليهود فقط)

العالم	خارجون	عائدون	مكثوا في الخارج
١٩٤٨ - نيسان	٣٩٠٠	٥٤٠٠	+ ١٥٠٠
١٩٤٩	١٧٠٠٠	٩٥٠٠	- ٧٥٠٠
١٩٥٠ - ١٩٥٤	٢٩٥٠٠	١٨٦٠٠	- ١٠٩٠٠
١٩٥٥ - ١٩٥٩	٤٥٦٠٠	٢٤٣٠٠	- ١١٣٠٠
١٩٦٠ - ١٩٦٤	٨٢٨٠٠	٧٢٢٠٠	- ١٠٦٠٠
١٩٦٥ - ١٩٦٩	١١٦٢٠٠	١٠٧٠٠٠	- ٩٢٠٠
١٩٧٠ - ١٩٧٤	١٨٣٤٠٠	١٧٣٨٠٠	- ٩٦٠٠
١٩٧٠	١٣٩٧٠٠	١٣٤٨٠٠	- ٤٩٠٠
١٩٧١	١٦٧٥٠٠	١٦٠٢٠٠	- ٧٣٠٠
١٩٧٢	١٨١٨٠٠	١٧٦٥٠٠	- ٥٣٠٠
١٩٧٣	٢٠٠٥٠٠	١٩٣٣٠٠	- ٧٢٠٠
١٩٧٤	٢٢٧٧٠٠	٢٠٤٢٠٠	- ٢٣٦٠٠
١٩٧٥	٢٤١٦٠٠	٢٢٧٦٠٠	- ١٤٠٠٠
١٩٧٦	٢٢٤٨٠٠	٢٣٧٨٠٠	- ١٦٩٠٠

نسبة النزوح لم تتغير

وإذا ما اعتمدنا بيان حركة السكان ، والذي يشكل في هذه الحالة ، الحد الأقصى لعند النازحين ، كما يقول تسيون رابي ، كقياس للنزوح في فترات مركبة من عدد من السنين ، نجد أن العدد الأكيد للنازحين اليهود من إسرائيل في كل عام ، لم يتغير منذ قيام دولة إسرائيل ، وكنسبة لمجموع السكان ، المتزايد دائما بفعل الهجرة والولادة الطبيعية ، نرى أنه قد انخفض كثيرا .

ففي بيان الحركة السكانية ، للسنوات ١٩٧٠ - ١٩٧٤ ، كان المعدل السنوي حوالي ١٠٠٠٠ نازح في السنة ، مقابل ١١٠٠٠ نازح في السنوات ١٩٥٠ - ١٩٥٤ .

وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن عدد السكان اليهود قد تضاعف ، في السنوات العشرين الأولى لقيام دولة إسرائيل ، مرتين ، يكون من الواضح إذن ، أن نسبة النزوح من المجموع الكلي للسكان قد تضاعفت ، فمعدل حركة السكان في السنوات ١٩٧٥ - ١٩٧٦ ، وصل إلى ١٦٥٠٠ في السنة ، ولكننا إذا ما نظرنا إليه كنسبة سكانية إجمالية ، نرى أنه لا يزال أقل من المعدل السنوي لسنوات الخمسين .

ولكن تسيون رابي يتجاهل هنا بالطبع أن سنوات الخمسين كانت أكثر السنوات حفرًا بالقدوم إلى إسرائيل ، بينما تكاد الهجرة تنعدم في سنوات السبعين ، وأنه وفقًا لما قاله

الناطق بلسان مديرية الاحصاء المركزية في اسرائيل ، في مؤتمره الصحفي في القدس يوم ٧٦/١٢/٢١ ان « عدد القادمين الجدد الى اسرائيل بلغ في عام ١٩٧٦ ٢٠٠٠٠ قادم جميعد بينما بلغ عدد النازحين عن اسرائيل ١٥٠٠٠ نازح » (دأقار ٧٧/١/٢) اي بفارق ٥٠٠٠ فقط ، وانه في السنوات التي تلت حرب تشرين ١٩٧٢ مباشرة ، كادت تكون الهجرة الى اسرائيل معدومة تماما بينما وصل عدد النازحين وفقا لبيان رقم (٤) الى ٢٠٠٠٠ نازح .

ولم يكتف تسيون رابي بهذه الطريقة التي انتهجها في مقاله - التقرير بالنسبة لحصر النازحين ، وانما اعتمد طريقة اخرى ، وهي « الطريقة الانجع من غيرها ضمن المعطيات والامكانات القائمة لديه الآن » على حد تعبيره ، وهي « الاعتماد على عدد الاسرائيليين الذين خرجوا في سنة معينة ، ولم يعودوا خلال ٤ سنوات » ، اي مكثوا في خارج اسرائيل بشكل متواصل اكثر من ٤ سنوات .

وفقا لهذه الطريقة ، فانه كان ينبغي على تسيون رابي الانتظار ٤ سنوات في كل مرة ، كي يستطيع تحديد عدد النازحين في سنة معينة ، وبالنسبة للذين غادروا اسرائيل في السنوات الاخيرة ، ولم يكملوا ال ٤ سنوات بعد على مغادرتهم ، ولهذا فقد اعتمد وضع فرضية تخمينية تركز على انماط العودة لمغادري السنوات السابقة ، وفي هذه الحالة ، كانت الفرضية المعتمدة بالنسبة لهذه السنوات ، هي معدل العائدين من الاسرائيليين الذين كانوا في الخارج ، كما كان عليه في السنوات السابقة .

وهذه فرضية متبعة في كل اساليب الفرضيات التخمينية بالنسبة للظواهر الاجتماعية ، وخاصة في مجال الحركة الطبيعية كالولادة والموت ، حيث تدل التجارب في هذا المجال على عدم توقع تغييرات كبيرة في هذا الاتجاه في السنة الواحدة ، ولهذا فقد اعتمد البروفيسور تسيون رابي فرضية التوازن بمعدل المتغيرات ، في تقريره ، كما هو مبين في البيان رقم ٢

الا ان الامر يختلف بالنسبة لحركة الهجرة بشكل عام عنه بالنسبة للحركة الطبيعية، التي بنيت عليها الفرضية المثابتة في المعدل ، حيث تؤثر في حركة الهجرة والنزوح ، عوامل اجتماعية واقتصادية وسياسية ، وغير ذلك من العوامل الطارئة ، والتي هي في طبيعتها غير متوازنة ، مما يجعل اي تخمين لانماط التصرف المتعلقة بالهجرة غير دقيق وغير مبلور ، وبالتالي غير موثوق .

وبالنسبة لاسرائيل ، فان هذه الطريقة ، التي تعتمد شرط البقاء ٤ سنوات في الخارج ، فهي علاوة على انها مبنية على تخمين غير دقيق كما بينا ، فانها لا تستوفي كل شروط المعطيات التي تحدد عدد النازحين بشكل دقيق ، اذ ان فترة ال ٤-٥ سنوات ، هي فترة زمنية طويلة نسبيا . حيث ان الحساب بالنسبة لهذه الفترة ، يبدأ في كل مرة من جديد ، ابتداء من تاريخ الخروج الاخير للمواطن الاسرائيلي من اسرائيل . اذ ان نموذج الخروج المعتمد في هذه الحالة ، لا يوضح ما اذا كان مقر سكناه الثابت هو في الخارج ، وانه جاء لمجرد زيارة لاسرائيل فقط ، ام ان مقر سكناه الثابت في اسرائيل ، ويخرج في كل مرة لسبب من الاسباب للخارج .

بيان ٢ - مواطنون مكثوا في الخارج اكثر من ٤ سنوات متواصلة

عدد المواطنين	سنة الخروج
٩٠٠٠	١٩٦١
١١٠٠٠	١٩٦٢
١٠٧٠٠	١٩٦٣
٩٢٠٠	١٩٦٤
٨٧٠٠	١٩٦٥
١٠٩٠٠	١٩٦٦
١٠٧٠٠	١٩٦٧
٧٠٠٠	١٩٦٨
٦٢٠٠	١٩٦٩
٧١٠٠	١٩٧٠
٩٠٠٠	١٩٧١
٨٠٠٠	١٩٧٢
(١٥٠٠٠) تخمين	١٩٧٣
(١٦٠٠٠) تخمين	١٩٧٤
(١٣٠٠٠) تخمين	١٩٧٥
(١٥٠٠٠) تخمين	١٩٧٦

وكثيرا ما يقوم النازح عن اسرائيل بزيارة لها ، مرة كل ٤ سنوات او مرة كل سنة حتى بعد مكوث ٤ سنوات في الخارج ، ما دام يحتفظ بجوازه الاسرائيلي ، وما دام قد ترك خلفه ارتباطاته العائلية والمادية ، او للمحافظة على مواظنته الاسرائيلية ، او للمتع بالامتيازات والتسهيلات المعطاة للنازحين العائدين ، ثم يعود ويخرج مرة اخرى ، وفي هذه الحالة وفقا لهذه الطريقة لا يعد نازحا .

وكانت اسرائيل قد اصدرت في بداية عام ١٩٦٨ ، عدة أنظمة تمنح المواطنين العائدين ، والذين غادروا البلاد قبل ١٩٦٤ ، اي قبل ٤ سنوات ، نفس الحقوق المعطاة للقادمين الجدد ، بالنسبة للسكان ، والزراعة والجمارك ، وغير ذلك من الامتيازات . وكانت هذه الامتيازات والتسهيلات قد اعطيت في البداية لمدة محددة ، الا ان هذه المدة جددت مرة اخرى .

وكانت مديرية الاحصاء تتوقع عددا كبيرا من العائدين في العامين ١٩٦٩ - ١٩٧٠ ، من بين الاسرائيليين الذين غادروا اسرائيل قبل نيسان ١٩٦٤ ، الا ان عدد العائدين لم يتغير بنسبة ملموسة في فترة التسهيلات كما يتوضح من البيان رقم ٣ التالي ، الذي اورده التقرير .

بيان ٣ - مواطنون عادوا الى اسرائيل بعد مرور ٤ سنوات واكثر
(لاحظ انه يستعمل كلمة مواطنين بدلا من كلمة نازحين)

عدد العائدين	عام العودة
١٩٠٠	١٩٦٤
٢٦٠٠	١٩٦٥
٢٦٠٠	١٩٦٦
٢٧٠٠	١٩٦٧
٣٧٠٠	١٩٦٨
٣٨٠٠	١٩٦٩
٤٢٠٠	١٩٧٠
٤٥٠٠	١٩٧١
٤٥٠٠	١٩٧٢
٤٢٠٠	١٩٧٣
٢٨٠٠	١٩٧٤
٢٧٠٠	١٩٧٥
٣١٠٠	١٩٧٦

وبعد ان قدم لنا تسيون رابي في تقريره هذا حصرا للنازحين وفقا لطريقة الـ ٤ سنوات ، نراه يقدم لنا حصرا آخر ، معتمدا هذه المرة طريقة ثالثة ، يصفها بأنها « الطريقة الافضل من غيرها من بين الامكانيات القائمة اليوم » ، وهي الطريقة الاولى المقترحة من الامم المتحدة ، اي البقاء في الخارج اكثر من سنة ، ولكن بتعديل ادخله من عنده على هذا التعريف وهو : « ان يؤخذ بعين الاعتبار عدد المواطنين العائدين الى اسرائيل بعد غياب اكثر من سنة في الخارج » ، ووفقا لهذا التعريف لكلمة « نازح » ، يكون البيان الصافي لعدد النازحين ، هو عدد المواطنين الاسرائيليين الذين مكثوا في الخارج اكثر من سنة ، اي عدد المواطنين الاسرائيليين الذين خرجوا ولم يعودوا خلال سنة ، مطروحا منه عدد المواطنين الاسرائيليين الذين عادوا الى اسرائيل بعد مكوث سنة او اكثر .

ووفقا لهذه الطريقة ، والتي تحتوي ايضا على تخمين للاسرائيليين الذين خرجوا خلال عام ١٩٧٦ (التخمين مبني على اساس غياب ٣ اشهر) ، ولم يكملوا السنة بعد ، توصل البروفيسور تسيون رابي الى حصر شامل للنازحين اليهود من اسرائيل يبلغ ٢٤٠٠٠٠ نازح منذ قيام الدولة في ١٩٤٨ وحتى نهاية عام ١٩٧٦ ، مسقطا من حسابه الاحصائي ٩٠٠٠٠ نازح ، ممن اسماهم بالقادمين قسرا في الفترة ما بين ١٩٦٩ - ١٩٧٦ ، ثم نزحوا ، ولهذا لم يدمجوا في مجموع النازحين .

واذا ما اضفنا نحن هؤلاء القادمين النازحين ، الى النتيجة التي خرج بها تسيون رابي ، باعتبارهم نازحين فعلا ، يكون عدد النازحين عن اسرائيل خلال الـ ٢٩ سنة على قيامها ٣٣٠٠٠٠ نازح وليس ٢٤٠٠٠٠ نازح .

نسبة النازحين من القادمين الجدد

ومن خلال المعطيات عن النازحين المعلنين في الفترة ما بين ١٩٤٨ - ١٩٦٥ ، وعلى مواطنين مكثوا في الخارج من ١ - ٤ سنوات ، في الفترة التالية لذلك ، نصل الى نتيجة ، ان قرابة ٦٠٪ من النازحين اي ١٤٥٠٠٠ نازح ، كانوا من القادمين الجدد في الاعوام ١٩٤٨ - ١٩٧٦ .

وكان قد وصل الى فلسطين المحتلة ، ما بين قيام دولة اسرائيل وحتى نهاية ١٩٧٦ ، وفقا لإحصائيات الواردة في التقرير ١٦٠٠٠٠٠ قادم جديد (مليون وستمئة الف) ، الا ان التقرير يسقط من حساب النازحين ٩٠٠٠٠ قادم نازح كما ذكرنا ، ولهذا لسم يدمجوا في مجموع النازحين ، وبناء عليه ، يكون عدد القادمين منذ قيام الدولة وحتى عام ١٩٧٦ ، لغرض حصر النازحين من القادمين ١٥٠٠٠٠٠ قادم جديد فقط ، اي ان عدد النازحين لهذه الفترة ١٩٤٨ - ١٩٧٦ ١٤٥٠٠٠٠ نازح اي ما يساوي ١٠٪ من مجموع القادمين الجدد .

كما وان المعطيات الواردة في التقرير ، تدل على ان نسبة النزوح عند القادمين الجدد ، الجدد ، الجدد اعلى منها عند القادمين الجدد ، القدامى ، فمن بين القدامى اي من عام ١٩٤٨ - ١٩٦٤ ، كانت نسبة النزوح ٢٥٪ فقط ، بينما كانت عند القادمين الجدد من عام ١٩٦٥ - ١٩٧٠ ١٢٦٪ .

نسبة النزوح وفقا للتوزيع السكانية ، مسقط الراس والجيل .

اما فيما يتعلق بالنازحين الذين خرجوا عام ١٩٧٠ ولم يعودوا حتى نهاية عام ١٩٧٣ ، اي انهم غابوا اكثر من ٣ سنوات فقد كانت نسبة النازحين من مواليد اسرائيل ، وفقا لما جاء في التقرير الاحصائي المذكور ، ٣٢٦٪ ، ومن مواليد آسيا وافريقيا ٢٢٤٪ ، والبقية من مواليد اوروبا وامريكا ٤٥٪ .

وهذه النسب لا تأخذ بالحسبان حجم مجموعات السكان النسبي في اسرائيل ، ولذلك فاننا اذا ما اعتمدنا الفروق القائمة وفقا لبلد الولادة في التركيبة السكانية الاجمالية ، وينسب ١٪ من تلك المجموعة من السكان ، اي ، عدد النازحين عام ١٩٧٠ والذين مكثوا في الخارج اكثر من ٣ سنوات مقسوما على كل ١٠٠ اسرائيلي من نفس المجموعة من عدد السكان الاجمالي في اسرائيل ، نصل الى نسب مختلفة ، فمواليد اسرائيل مثلا ، يشكلون قرابة ٥٠٪ من مجموع السكان الاجمالي في اسرائيل ، وبناء على ذلك تكون نسبة النازحين في السنوات ١٩٧٠ - ١٩٧٣ هي ٢١٪ ، ومن بين مواليد آسيا ١٩٪ وافريقيا ٢٩٪ اما بين مواليد اوروبا وامريكا فهي ٤٧٪ .

اما اذا اخذنا تركيبة الاجيال ، فهذه النسب تختلف ايضا ، فنسبة النازحين للجيل ١٥ - ٢٩ سنة عند مواليد اسرائيل هي ٣٢٪ وعند مواليد آسيا ٢٩٪ وعند مواليد افريقيا ٣٨٪ اما عند مواليد اوروبا وامريكا فهي ٨٨٪ .

اما للجيل ٣٠ - ٤٤ سنة ، وكما ورد في التقرير ايضا ، فتقترب نسبة النزوح لمواليد اسرائيل ، من نفس النسبة عند مواليد اوروبا وامريكا ، وعند مواليد آسيا فانها اقل في هذا الجيل ، اما عند مواليد افريقيا فهي متوسطة .

ما هي اسباب النزوح

ليس عدد النازحين الدقيق بالذات ، هو ما يهمننا في هذه الحال ، وان كان له الاهمية الكبرى على المدى البعيد ، بل ما يهمننا بشكل اكثر ، هي الاسباب والنزعات التي تحدد مسار حركة النزوح من اسرائيل ، والمتغيرات التي تطرأ عليه ، وارتباطه بالظواهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

والرأي السائد بين الباحثين لاسباب حركات النزوح في العالم ، بأن السبب الرئيسي للنزوح هو العامل الاقتصادي . ويقول مدير شعبة الديموغرافيا في مديرية الاحصاء المركزية في اسرائيل تسيون رابي انه « قد يكون الوضع في اسرائيل لا يختلف عن ذلك من هذه الناحية » ، الا انه يعود ليتفي ذلك بقوله « وفي اعتقادي ان ليس الوضع الاقتصادي الموضوعي هو السبب في النزوح ، بل الجو المخلق الذي تشيخه الاوساط المرتبطة بالاقتصاد ، وكان الاقتصاد الاسرائيلي خطير ومقبل على كارثة » (هارتس ٧٦/١/١٢ ، دافار ٧٧/٥/٢٢) .

ولكي يثبت لنا ذلك ، يسوق لنا ذلك مثلا ، ان مصروفات العائلة الاسرائيلية في ٧ سنوات من ١٩٦٨ - ١٩٧٥ ، تدل على ان « مستوى المعيشة قد ارتفع في اسرائيل بنسبة ٤٠% » ، ولذلك « لا يمكن ان يكون الوضع الاقتصادي خطيرا » . ويضيف بأن « ليس اولئك الذين اضيروا مباشرة من الوضع الاقتصادي ، كالبطالة مثلا هم الذين ينزحون ، وانما هم في الاساس اناس راسخون اقتصاديا ، ويخشون على مستقبلهم الاقتصادي ، ولديهم الامكانيات الكافية للبدء في بناء مستقبلهم في بلاد اخرى » (المصدر نفسه)

ولذلك فانه يخرج بنتيجة غريبة للاسباب التي تؤدي الى النزوح ، وهي « تخفيض سعر الليرة الاسرائيلية ، وما يتقدمها ويعقبها من تحويل عن خطورة الوضع الاقتصادي » ، وليس كسبب اقتصادي موضوعي ، معتمدا في ذلك على انه في السنوات « ١٩٦٢ و ١٩٦٧ و ١٩٧٤ وهي السنوات التي كان فيها تخفيض الليرة الاسرائيلية ، كان ثمة ازدياد ملموس في حجم النزوح ، بالمقارنة مع السنوات المتاخمة » (المصدر نفسه) ، كما يظهر في البيان رقم ٤

ويعود هذا الازدياد في حجم النزوح ، اثر اي تخفيض لليرة الاسرائيلية الى امرين اثنين - كما ورد في التقرير

« ١ - انه في كل فترة زمنية يوجد خارج البلاد مرشحون للنزوح ، وانه بين مجموعة العوامل المؤثرة على حسابات المرشح للنزوح ، ما اذا كان سيبقى في الخارج او يعود الى اسرائيل ، تؤثر على ما يبدو حقيقة التخفيض الذي كان في نفس السنة في اسرائيل . »

« ٢ - انه قبل عدة شهور من تنفيذ خطة التخفيض ، تبدأ وسائل الاعلام بالحديث عن الحالة الاقتصادية القاسية ، كجزء من حملة التوعية ، لاقناع الرأي العام بأضطرارية التخفيض ، فتتبعها على الفور جميع الاوساط المرتبطة بالاقتصاد ، وبشكل تناقسي ، ابتداء من الجامعة والمالية وبنك اسرائيل ، وانتهاء برؤساء التنظيمات الشعبية والمؤسسات الخاصة ، بنشر نبوءات قائمة عن المستقبل الاقتصادي في اسرائيل ، وكان

بيان ٤ - مركبات حصر النازحين

معدل النازحين	اسرائيليون عادوا بعد أكثر من سنة	اسرائيليون خرجوا ولم يعودوا	المسقة
٩١٠٠	٦٩٠٠	١٦٠٠٠	١٩٦١
١٢١٠٠	٨٢٠٠	٢٠٣٠٠	١٩٦٢
١٠٨٠٠	٨٩٠٠	١٩٧٠٠	١٩٦٣
٩٧٠٠	١٠١٠٠	١٩٨٠٠	١٩٦٤
٨٥٠٠	١١٧٠٠	٢٠٢٠٠	١٩٦٥
١١٦٠٠	١٢٧٠٠	٢٤٣٠٠	١٩٦٦
١٢٠٠٠	١٤٣٠٠	٢٦٣٠٠	١٩٦٧
٥٧٠٠	١٧١٠٠	٢٢٨٠٠	١٩٦٨
٥٠٠٠	١٧٥٠٠	٢٢٥٠٠	١٩٦٩
٤١٠٠	١٩٩٠٠	٢٤٠٠٠	١٩٧٠
٤٦٠٠	٢١٨٠٠	٢٦٤٠٠	١٩٧١
٣٩٠٠	٢١٧٠٠	٢٥٦٠٠	١٩٧٢
١٠٥٠٠	٢٣٨٠٠	٣٤٣٠٠	١٩٧٣
٢٠٦٠٠	١٨٤٠٠	٣٩٠٠٠	١٩٧٤
١٤١٠٠	٢٣١٠٠	٣٦٢٠٠	١٩٧٥
١٥٠٠٠	٢٤٩٠٠	٤٠٠٠٠	١٩٧٦

الدولة مقبلة على كارثة اقتصادية والحكومة عاجزة امام مجرى التدهور التضخمي ، وما على الاسرائيليين الا ان يشدوا احزمتهم ويخفضوا من مستواهم المعيشي . مما يحطم اي حس لدى المواطن الاسرائيلي ، بالامن الاقتصادي في المستقبل ، مما يجعله يتوصل الى النتيجة الحتمية ، وهي ان يقفز من السفينة الغارقة قبل فوات الاوان .

وفي هذا الاستنتاج الغريب ، ينهي تسيون راابي مدير قسم الديموغرافيا في مديرية الاحصاء المركزية في اسرائيل ، تقريره الاول من نوعه عن النزوح في اسرائيل واسبابه ، ودون ان يتطرق الى الاسباب الموضوعية الحقيقية للنزوح من اسرائيل ، وهي الاسباب السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتشابكة ، والتي لا يمكن حتى لتخفيض الليبرة الاسرائيلية ، وهو السبب الذي ساقه ، ان يكون بمعزل عنها ، على الاقل الاقتصادية منها .

ولكنه ينفي حتى هذا السبب ، قلو انه اقر على الاقل بأن السبب الاقتصادي هو العامل الاساسي للنزوح ، لما كان خرج عما توصل اليه الكثير من الباحثين في شؤون النزوح والهجرة ، ولكننا على الاقل حاولنا الاخذ بمصداقية علمانيته المجردة ، مع انني أميل فعلا الى الاخذ بوجهة نظره ، ان ليس الوضع « الاقتصادي الموضوعي » هو الحافز على النزوح من اسرائيل ، وانما هو الوضع السياسي - الامني ، المترتب على السياسة الاسرائيلية الصهيونية التوسعية الاستيطانية ، والمرتبطة بالمصالح الرأسمالية في

المنطقة ، مما يجعلها في حالة حرب دائمة منذ قيامها وحتى الآن ، وانه العنصر الاساسي بين سائر العناصر التي تؤثر بمجملها على النزوح ، سواء كانت تلك العناصر اقتصادية او اجتماعية .

ومن خلال المعطيات في البيانين ١ و٤ عن مركبات حصر النازحين نرى انسه في السنوات ١٩٥٥ - ١٩٥٩ ، ١٩٦٢ - ١٩٦٣ ، ١٩٦٦ - ١٩٦٧ ، ١٩٧٣ - ١٩٧٤ ، كان ثمة ازدياد في حجم النزوح بالمقارنة مع السنوات المتاخمة . وصحيح ان هذه السنوات التي ازداد فيها حجم النزوح ، كانت هي السنوات التي جرت فيها التخفيضات في سعر الليرة - باستثناء ١٩٥٥ - ١٩٥٩ - ولكن هذا التخفيض لم يأت عفوا وبمعزل عن مسببات المحيطة به ، بل كان مرتبطا بوضع اقتصادي موضوعي ترتب على الوضع السياسي - الامني الذي كان سائدا في تلك السنوات .

ففي السنوات ١٩٥٥ - ١٩٥٩ مثلا ، لم يكن أي تخفيض في سعر الليرة ، ومع ذلك كان ازدياد في حجم النزوح عن السنوات المتاخمة لها . ولكنه كان العدوان الثلاثي على مصر ، ومساهمة اسرائيل في هذا العدوان ، ومن ثم انسحابها من شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة ، دون ان تحقق أي هدف ، رغم كل ما دفعت به من امكانياتها العسكرية والاقتصادية ، التي ادت بالتالي الى تدهور اقتصادي ، بالاضافة الى الازمة الاقتصادية التي كانت قائمة قبل العدوان ، اثر الحركة المتزايدة للقادمين الجدد في تلك السنوات .

اما في السنوات ١٩٦٢ - ١٩٦٣ ، فصحيح انه جرى في هذه السنة التخفيض الكبير في سعر الليرة الاسرائيلية نتيجة للازمة الاقتصادية الخانقة التي كانت تعيشها اسرائيل ، وما يترتب عليها من تضخم مالي وبطالة متفشية ، ولكنه صحيح ايضا ان اسرائيل كانت تشهد في تلك السنوات اكبر موجة من التغيرات السياسية في المنطقة وعلى الخارطة العربية ، كما كانت تشهد استيراد اكبر كمية من صفقات الاسلحة ، لعملية تطوير جيشها وتقويته لمواجهة المد القومي العربي ، وانهاكها بمشروع المياه القطري الذي كلفها عشرات الملايين من الليرات ، كما كانت تشهد في هذه المرحلة ، اول هزة سياسية واجتماعية واخلاقية حادة ، اثر استقالة بن غوريون وحكومته ومن ثم فضيحة نافون .

وكذلك في العامين ١٩٦٦ - ١٩٦٧ ، وهي السنة التي شهدت فيها اسرائيل اكبر الاستعدادات المتواصلة للحرب التي شنتها عام ١٩٦٧ على الدول العربية المجاورة ، وما سبقها من التوتر السياسي في صراعها مع الدول العربية المجاورة حول تحويل مجرى الاردن الذي اقره مؤتمر القمة الاول في القاهرة عام ١٩٦٤ الذي جاء ردا على مشروع المياه القطري الاسرائيلي والاعتداءات الاسرائيلية المتواصلة على سوريا . مما ادنى الى اعلان اسرائيل حالة التقشف عام ١٩٦٦ وكل ما ترتب عليه من بطالة وغلاء في المعيشة ، وهيمنة لاجواء الحرب في نهاية عام ١٩٦٦ وبداية عام ١٩٦٧ ، بين اسرائيل والدول العربية .

ومن هنا نرى ان حركة النزوح بعد عام ١٩٦٧ ، قد انخفضت بشكل حاد ، نظرا للتفاؤل الذي ساد المجتمع الاسرائيلي اثر انتصار اسرائيل الساحق عام ١٩٦٧ ، وما اعقبه من الشعور بالامن السياسي والاقتصادي لدى الجمهور الاسرائيلي ، اذ ان عدد النازحين في الاعوام ١٩٦٨ - ١٩٧٢ قد بلغ في مجموعه ٢٣٠٠٠ نازح ، بينما بلغ مجموع

النازحين خلال العامين السابقين لها ١٩٦٦ - ١٩٦٧ ، ٢٢٦٠٠ نازح ، اي اكثر من عدد النازحين خلال الخمس سنوات التالية .

بينما نرى في المقابل النسبة العالية جدا في ازدياد حجم النازحين المطرد عن اسرائيل ، بعد هزيمة حرب رمضان عام ١٩٧٢ ، حيث قفز حجم النازحين عام ١٩٧٢ اي بعد الحرب مباشرة ما يزيد على ٢ اضعاف عنه في عام ١٩٧٢ ، فبينما بلغ عدد النازحين عام ١٩٧٢ ٣٩٠٠ نازح كان عدد النازحين عام ١٩٧٢ ١٠٥٠٠ نازح . وفي عام ١٩٧٤ ارتفع الى ٦ اضعاف ، وفي عام ١٩٧٥ ٥ اضعاف ، وفي عام ١٩٧٦ ٥ اضعاف ايضا (انظر بيان رقم ٤) . ولم يكن هذا الازدياد الكبير في حجم النزوح الا نتيجة للهزيمة العسكرية التي منيت بها اسرائيل ، والتي افقدتها توازنها السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، زيادة على ترتب على هذه الهزيمة من تصدع في تكوين اسرائيل العقائدي الصهيوني ، مما افقدها بريقها كدولة كل اليهود في داخل اسرائيل وخارجها ، وانها اصحت في اعين يهود العالم ، دولة ككل الدول ، (دافار ٧٦/١٢/١٧) .

وان كان تسيون رابي قد حاول التخفيف في تقريره من حدة ما تتركه حركة النزوح على المجتمع الاسرائيلي من سلبيات ، وبالتالي اخفاء الاسباب الحقيقية لهذا النزوح المتنامي ، فان الصحافي الاسرائيلي المعروف يهودا جوتلف ، يقر في معرض هجومه القاسي على النازحين وعلى من يسميهم بـ « منامي الدفاع عن النازحين » ان « ثمة اسبابا حقيقية للنزوح ، وعلينا ان نراها كما هي ، فجزء كبير جدا من النازحين هم من الشباب ، الذين غادروا اسرائيل خوفا من الحرب ، او من وطأة الخدمة العسكرية الاحتياطية المرهقة ، كما ان معظم النازحين ليسوا من الاوساط المعوزة او العاطلين عن العمل ، وانما العكس هو الصحيح ، كما وان هناك الكثير من الشباب ممن ينهون الخدمة العسكرية يسارعون الى مغادرة اسرائيل ، حيث ينهبون بما يرونه من رخاء في العيش خارج اسرائيل ، وما يحيطهم من مدى واسع يفتقدونه ، مما يجعلهم يتعدون عن اسرائيل ٠٠٠ اما الذين يخرجون للدراسة فانهم ما ان يتقدموا في تحصيلهم وبناء مستقبلهم العلمي ، حتى يديرون ظهورهم لاسرائيل » (دافار ٧٧/٥/٢٢) .

اما يهود امريكا ، كما يقول يحيئيل لاقط ، المسؤول عن مندوبي الهجرة في الولايات المتحدة ، فانهم « يردون اسباب هذه الحركة المتزايدة من النزوح الى الولايات المتحدة ، الى فضائح الانحطاط والانحلال في المجتمع الاسرائيلي ، والتي تتمتع بنشر واسع في نيويورك لا يقل عنه في اسرائيل ، والى الاضطرابات الدامية في الضفة الغربية ، والتي تحظى بعناوين اضخم من تلك العناوين عن الحرب اللبنانية » (٧٦/١٢/١٧) .

وبالتالي فان هذه الضربة من النزوح التي تجتاح الكيان الصهيوني ، ما هي الا « اللاخصة لكل فشل الدولة الاسرائيلية ، وهي توحيد لكل خيبات الامل ، وهي ردة الفعل الحتمية على كل الامل التي لم تتحقق ٠٠٠ اذ ليس النزوح عن اسرائيل مجرد ظاهرة شاذة لحالة سياسية واقتصادية واجتماعية او اخلاقية فقط وانما هو نتيجة حتمية لتصدع المفهوم القومي » (دافار ٧٧/٥/٢٢) وما هو الا « عرض من اعراض الوباء المتفشي في دولة اسرائيل ومجتمعها بأسره » (المصدر نفسه) .

النزوح وتأثيره المعنوي والمادي على الهجرة الى اسرائيل

واجهتة الحكم في اسرائيل تعرف اكثر من غيرها مدى خطورة هذه الضربة من النزوح التي تمنى بها الآن ، على المدى القريب والبعيد ، سواء كان ذلك من الناحيتين المعنوية والمادية على حد سواء ، اذ ان هذه الضربة تشكل خطرا كبيرا على قدراتها العسكرية والصناعية والاقتصادية نظرا لتنوع النازحين الذين هم في غالبيتهم من الشباب الذين يشكلون العمود الفقري للجيش الاسرائيلي ، زيادة على انهم من اصحاب المهن الحرة والفنيين وخريجي المعاهد العليا .

كما وتشكل أحد العوامل الفاعلة على تقليص هجرة يهود العالم الى اسرائيل ، بل واكثر من ذلك يشكل النزوح « أحد الاسباب المباشرة الى الازدياد في حجم « تساقط » المهاجرين من الاتحاد السوفيتي ، اذ وصلت نسبة المهاجرين « التساقطين » هؤلاء الى ٥٠٪ وحيثا ان ٦٠٪ من مجموع الواصلين الى مراكز الهجرة في فيينا » (يديعوت احرونوت ٧٧/١/٢٠) وكان قد « وصل الى فيينا خلال عام ١٩٧٦ فقط ١٤٢٦٣ قادم جديد يحملون تأشيرات دخول الى اسرائيل اي بمعدل ١٠٠٠ - ١٢٠٠ في كل شهر ، لم يصل منهم الى اسرائيل سوى النصف فقط » (المصدر نفسه)

والاخطر من ذلك فان « نسبة ال ٥٠٪ من هؤلاء « التساقطين » هم من النوعية الجيدة ، اذ ان ٧٠٪ من يهود موسكو و ٩٠٪ من يهود اوديسا يفضلون الهجرة الى بلاد اخرى ، واكثر هؤلاء هم من الاكاديميين والشباب والفنيين ، اما الذين يفضلون الهجرة الى اسرائيل ، فاما هم من سكان الجبال او العجائز والاطفال » (المصدر نفسه) .

اما مراسل معاريف في نيويورك جادنجشون ، فقد كتب في عددها الصادر في ٧٧/١/٢١ يقول انه « بينما تكاد تكون الهجرة معدومة من الولايات المتحدة الى اسرائيل ، فان النزوح من اسرائيل الى هذا الجزء من العالم يزداد يوما بعد يوم » ويضيف : « ان عالم النزوح حائلة عامة لامة كاملة ، حالة نفسية ووباء قومي » وان حقيقة النزوح في بلاد غير اسرائيل « لا تقلل من خطورة المشكلة التي يتحتم على اسرائيل مواجهتها » ، اذ انها « تمنع اي هجرة من الولايات المتحدة » واكثر من ذلك « فانها تلحق ضررا بالغاً بقدرة اسرائيل الاقتصادية ٠٠٠ اذ ان كل من له خبرة ولو قليلة في عالم التبرعات والاعتمادات المالية التي كانت تنهال على اسرائيل ، يعرف ان المتبرعين قد بدأوا ومنذ الآن يتدمرون ، ويعلنون انهم غير مستعدين للتبرع لدولة ، يعيش جزء كبير من ابنائها في جوار بيوت المتبرعين انفسهم » (المصدر نفسه)

ويضيف جادنجشون قائلاً بأن « التضال ضد حركة النزوح ، معناه ، بعث الصهيونية في اسرائيل نفسها ، انه تضال ضد التخلف والتردي الاجتماعي ، وتساو فسي الامكانيات » - ثم يتساءل « كيف يمكن لنا ان نصدر مبادئ - صهيونية اسرائيل - ليهود امريكا مثلا ، في الوقت الذي لا نملكها نحن ؟ - وكيف نستطيع اقتناب عائلة من نيو جيرسي بالهجرة الى اسرائيل ، وزجها في الحياة الاسرائيلية القاسية المتوترة ، في نفس الوقت الذي توجد فيه عائلة اسرائيلية هاربة من اسرائيل ، في دهاليز نفس الكنيس القائم في حي من نطلب اليهم الهجرة الى اسرائيل » (المصدر نفسه) .

توفيق فياض

الجامعة الفلسطينية الشعبية

عليها ابناء الطائفة اليهودية في جامعات العالم ، او عن الحاجة لتوفير التعليم العالي لليهود في فلسطين ، وهم الذين يمتلكون عددا من الجامعات في اميركا وبامكانهم ان يسدوا الحاجة الى التعليم العالي بوسائل كثيرة ومختلفة . انما جامعة عبرية وفي مدينة القدس بالذات فكانت ذات هدف ومغزى محدد لم يكن ليخفى على العرب الفلسطينيين ، حتى في ذلك الوقت المبكر من الوعي النضالي الفلسطيني .

فالجامعة هي البؤرة الثقافية والمختبر المصغر الذي يسعى الى اخراج اللغة العبرية من بين دقات الكتب الصفراء ، وغبار القرون . وجعلها لغة سهلة متداولة تصلح لمعالجة مسائل الكيمياء والفيزياء النظرية ، كما تصلح للتعامل بين ابناء المزرعة وابناء السوق . والجامعة العبرية ، من بعد احياء اللغة والفكر العبرانيين هي التي تعالج جميع مناخي حياة الشعب الذي يتكون والدولة التي ستنشأ . فهي بلغة التصوير ، بؤرة تركيزية FOCUS على شيء معين . ولا يضيرها ان يكون فيها بعد ذلك من يخالفون الصهيونية في ارائها ومعتقداتها ، او وسائل تطبيقها لان ذلك من مستلزمات التفاعل الفكري في الجامعة . ولكن مجرد كونهم في جامعة من هذا القبيل هو عمل في الاطار الصهيوني .

لقد وعى العرب الفلسطينيون منذ البداية اهمية نشوء جامعة في القدس تكون نقيضا للجامعة العبرية . والجامعة النقيضة تكون نقيضا في المغزى والهدف .

في الرابع من كانون الثاني - يناير ١٩٢٥ احتفلت الحركة الصهيونية بافتتاح الجامعة العبرية على جبل الزيتون في مدينة القدس . وقد حضر تلك المناسبة كبار زعماء الصهيونية في العالم ومؤيديهم ، ومنهم اللورد بلفور . وتحدث حاييم بياليك شاعر الصهيونية فقال : « ان جلال وعظمة هذه اللحظة يمكن ان يسيء اليهما اي نوع من انواع المبالغة . لذلك فمن الواجب علينا ان نعلن بكل صراحة وامانة وفي حضور هذا الجمع بان البيت الذي يفتتحه الان على قمة جبل سكوبس ضيفنا الكريم اللورد بلفور ، ليس سوى معهد جنين لا يكاد يكون له شيء اكثر من مجرد الاسم . وهو بالنسبة للوقت الحاضر ليس اكثر من وعاء يمكن ان يملأ وان مستقبله غير معروف ، اذ انه في يد القدر . وعلى اي حال ، فانتني اشعر بكل تأكيد ان الالاف المحتشدة هنا ، وعشرات الالاف من الاسرائيليين في جميع زوايا العالم ، يشعرون بقلوب تخفق فرحا بان الاحتفال الذي نقيم اليوم على هذه البقعة ليس من الطقوس المصطنعة التي اخترعها احد الناس ولكنه يوم مقدس لالهنا وشعبنا ! »

انشاء الجامعة العبرية، في رأي بياليك لم يكن عملا عاديا بالنسبة للعديد من اليهود ، بل كان « عملا مقدسا بالنسبة لاله وشعب اسرائيل » . وكان جزءا لا يتجزأ من انشاء الدولة اذا لم يكن قاعدة واساسا لها . ولا نظن لحظة واحدة ان انشاء الجامعة العبرية كان ناتجا عن نقص عدد المقاعد التي يمكن ان يحصل

الذي انشأته سلطات الانتداب والذي لم يكن يهدف الى اكثر من تدريب الموظفين اللازمين للادارة البريطانية في فلسطين .

وبالتالي فقد كان نظام التعليم الفلسطيني لا يؤدي الى تكوين طبقة مثقفة من القيادات الفلسطينية اللازمة ، وانما يخلق طبقة من الموظفين الذين يربطون مصيرهم بالسلطة المنتدبة التي ستدفع لهم رواتب التقاعد حينما يؤدون خدمات لها على الوجه الاكمل !

لقد كان نظام التعليم الفلسطيني في ظل سلطة الانتداب البريطاني مشوها للشخصية الفلسطينية ومحرفا لها عن الغايات الطبيعية للتعليم والثقافة . وفي هذه الشروط كان هم الطلبة هو الحصول على شهادة « المترك » ، ومنها الى شهادة الكلية العربية ليرفدوا جهاز الادارة وجهاز المعارف . ثم تختار سلطة الانتداب كل عام عددا من هؤلاء لارسالهم في بعثات دراسية الى بريطانيا ليكونوا الكوادر العليا لجهاز الادارة ، شأنهم في ذلك شأن الواقدين من بقية المستعمرات البريطانية . ولذلك فان تيار التعليم بحوافزه وقيمه قد ابتعد عن التناغم مع حاجات الشعب الحقيقية وطموحاته الوطنية ، كما اسهمت هذه الطرق في هجرة الشباب عن الارض الى المدن والوظائف ، مكونة بذلك تيارا اشتد مع النكبة عام ١٩٤٨ فتحول الى هجرة الى بلدان النفط والعالم الخارجي . فقد شهد عام النكبة هجرة فئة كاملة من الشعب الى الوظائف الادارية والتعليمية قسي الخارج .

وكانت هذه الفئة نتاج التعليم في فلسطين في ظل الانتداب ، فوجدتها شركات النفط واجهزة الادارة الحكومية المكونة حديثا في الخليج مدربة وجاهزة فوظفتها واستفادت منها .

فهي ليست « لشعب مختار » ، وانما لكل ابناء الشعوب . وكان لولب هذا الفهم الفلسطيني وحركته زعيم فلسطين انذاك المغفور له الحاج محمد امين الحسيني الذي دعا الى مؤتمر اسلامي في القدس ، فانعقد بذلك المؤتمر الاسلامي الاول عام ١٩٢٠ واتخذ من بين ما اتخذ من قرارات للحفاظ على عروبة فلسطين انشاء جامعة عربية في القدس . ولكنه ليس مسمن المستغرب انذاك ان تمر السنون حتى خروج البريطانيين عام ١٩٤٨ دون تحقيق فكرة تلك الجامعة . فالبريطانيون الذين تعهدوا بانشاء « وطن قومي لليهود في فلسطين » قد تعهدوا ايضا بخلق الظروف والمناخ المناسب لانشاء ذلك الوطن .

وهكذا ، فان محاولات انشاء جامعة عربية في فلسطين قد احبطت بنفس القدر من العزيمة التي يسرت لليهود الصهيونيين انشاء جامعة لهم . ومن المؤسف ان محاولات احباط مشروع الجامعة الفلسطينية في القدس قد امتدت الى ما بعد زوال الانتداب البريطاني عن فلسطين . وما يذكر ، ان الحاج امين الحسيني ، طلب اجراء دراسة واستملاك ارض للعمل على انشاء جامعة فيها تحقيقا للفكرة التي حملها منذ عام ١٩٢٠ . وذلك بعد السماح له بالعودة لزيارة القدس عام ١٩١٧ .

اما الكلية العربية للمعلمين التي انشأتها سلطات الانتداب البريطاني على جبل المكبر في القدس فقد كانت تخدم غرضين في ان معا . فمن ناحية اولى كانت المقابل الشكلي للجامعة العبرية على جبل سكوبس ، لسد الطريق على المطالبة بالجامعة العربية فتظهر كأنها نواة للجامعة مع انها لم تكن اكثر من كلية ذات صفين جامعيين للتربية ، اي ما يسمى بالجونيور كولج . والهدف الثاني كان تخريج المعلمين لنظام التعليم الفلسطيني

فصل النظام التعليمي عن الوضع السياسي كما ان احدهما يؤثر في الآخر . فالوضع السياسي للفلسطينيين في عهد الانتداب البريطاني قد خلق نظاما تعليميا لا يساعد على تحقيق الطموحات الوطنية ، بل يساعد على تكوين ديناميكية التفريغ والشتم . كما ان وضعهم السياسي بعد النكبة قد اصبح اكثر سوءا فانعكس ذلك على الوضع التعليمي والثقافي .

صحيح ان عدد خريجي الجامعات من الفلسطينيين قد تجاوز الثمانين الفاً ، وان معدل الخريجين الجامعيين قد وصل الان الى خمسة الاف في العام . ولكن الصحيح ايضا هو ان الهلال الاحمر الفلسطيني لم يستطع في اوج ازمتات الشعب ونضاله الدامي ان يستحوذ على خدمات اكثر من خمسين طيبيا ، معظمهم من الخريجين الجدد بينما يعمل مئات المتخصصين من الاطباء الفلسطينيين في اقطار عديدة عربية واجنبية .

هنالك الان حوالي اربعة وعشرين الف فلسطيني يتخرجون من المدارس الثانوية كل عام . ولا يستطيع الالتحاق منهم بالجامعات على اختلافها اكثر من خمسة الاف طالب وطالبة . وبينما يتزايد عدد المتخرجين من المدارس الثانوية كل عام ويزداد عدد المتخرجين من الجامعات ، الا ان نسبة المقبولين في الجامعات الى عدد خريجي المدارس الثانوية تتناقض بسبب الضغط على القاعد الجامعية .

هذه مشكلة . ولكن المطروح ليس اهمية التعليم عموما ، واهمية التعليم الجامعي على الاخص ، وانما المطروح هو : اي نوع من التعليم ؟ ولاي غرض ؟

بالامكان الخوض بصورة اكثر توسعا في مشكلات التعليم الفلسطيني في وضعه

ومن سفرية التناقض ، انه بينما كانت مئات الالاف من الشعب الفلسطيني تلجأ من النكبة الى المخيمات ، كانت الالاف من فئة الموظفين والاداريين والمدرسين تلجأ الى الوظائف في الدول العربية المحتاجة الى خبراتهم مكونين بذلك فئة اخرى من الفلسطينيين او شريحة من المجتمع التي تكونت في المنفى . وفي الوقت الذي ضاعت فيه بعد عام النكبة اية ملامح لنظام تعليمي فلسطيني يمكن ان يحافظ على الشخصية الفلسطينية او تكون له علاقة بالاحتياجات التعليمية والثقافية لشعب يناضل من اجل استعادة وطنه ، في هذا الوقت ازداد انحراف المهمة التعليمية عن طريق مدارس وكالة غوث اللاجئين التي صارت توفر لابناء الفلسطينيين في المخيمات تعليما مهنيا يتناسب وحاجات الشركات العاملة في اقطار النفط .

بغض النظر عن الدوافع الحقيقية وراء نظام وكالة الغوث التعليمي ، سياسية كانت او انسانية ، وبغض النظر عن الفوائد الفردية العائدة على الافراد واسرهم المستفيدين من هذه الفرص التعليمية والتشغيلية ، فلا مناص من اعتبار مجال التعليم الذي اقبل عليه الفلسطينيون بعد النكبة ، او الذي اتاح لهم ، انما يشكل اقنية جديدة للتشتت . ولقد كان كل ذلك ناتجا عن الوضع السياسي الذي وجد الفلسطينيون انفسهم فيه بعد النكبة عام ١٩٤٨ . فمثلما كان من المستحيل عليهم اعادة تجميع انفسهم في ظل نظام سياسي خاص بهم يقررون فيه مصيرهم ، كان من المستحيل عليهم ايضا تطوير نظام تعليمي جديد يتناسب والطموحات الوطنية والفردية في آن معا . فكانوا يخضعون لانظمة تعليمية مختلفة في اماكن وجودهم ، يسعى من خلالها كل منهم الى ان يشق طريقه بنفسه .

ان ما نسعى الى تبيانه هو عدم امكان

نظرية وتطبيقية ونتاجية في الوقت ذاته، بحيث تتيح المجال امام الطالب لكسب نفقات تعليمه من خلال عمله وانتاجه .^{٥٠} وبذلك تستطيع الجامعة المقترحة ان تحل عقدا كثيرة : منها اعتماد الابناء على الاباء في نفقات تعليمهم ، ومنها ايضا عقدة اغتراب الابناء عن مجتمعهم والفصل ما بين الدراسة والتطبيق .

ومما قيل في المذكرة في حينه ان حياة كل اسرة فلسطينية اصبحت تتركز حول طلب الرزق من اجل تأمين تعليم الابناء حتى يستطيع كل منهم القيام بشؤون نفسه ، في اي مكان يجد فيه الرزق ، ومساعدة ذويه . وهذا الامر الناتج عن الضرورة ، على ما فيه من حسنات ، لا يخلو من معائب كثيرة عملت في المدى القريب وتعمل في المدى الابعد على التشتت الثقافي والسكاني ، وخلق تباين في المفاهيم والاهداف ، ووسائل المعيشة ، ومستوياتها ، وابتعاد الاجيال الصاعدة عن الشعب والوطن . وما ذلك الا لان هذه الدراسات الجامعية متفرقة ومشتتة بين مختلف دول الارض . فالتنوع الثقافي شيء ،

والتشتت هو شيء اخر . فحينما لا تزيد نسبة الجامعيين الذين يدرسون في الخارج عند شعب من الشعوب عن خمسة بالمائة ، فان ذلك يمكن ان يعتبر نسبة عالية من التنوع الثقافي ، ولكن عندما تزيد هذه النسبة عن خمسين بالمائة كما هو حادث بالنسبة للشعب الفلسطيني ،

باعتبار ان الذين يدرسون في انبساط العربية لا يعدون مغتربين ، فان ذلك يعتبر تشتتاً . كذلك فان اي نسبة عالية من الدراسات في الخارج يمكن ابتلاعها واستيعابها في الجهاز الهضمي للشعب المستقر على ارضه ، ولكنها يمكن ان تشكل اخطارا كبيرة على حياة شعب مثل شعبنا يجاهد لاعادة بناء حياته الوطنية على ارضه .

الراهن . فالطالب الفلسطيني الذي يسعى لتلقي العلم في احدى الجامعات العربية او الاجنبية يواجه صعوبات لا حصر لها، في معادلة الشهادات والقبول ، والتكيف مع المحيط ، والاعداد لدخول جامعة لا يعرف مسبقا اين هي ، ولا ما اذا كان سيجد فيها مقعدا ، وفي الغالب لا يعرف ان يوفق بين رغباته وميوله الطبيعية ، وما يجده متوافرا له في الدراسة ، ويبين مكان العمل الذي يتناسب مع دراسته بعد التخرج .

مرة اخرى ، لو كان المطروح هو اهمية تعليم ابناء الشعب الفلسطيني وزيادة عدد الخريجين الجامعيين منهم ، لامن لخذ كل هذه المصاعب الوارد ذكرها انفسا ومعالجتها وتسهيل ما يمكن تسهيله منها، بل ان العديد من الجهات في الواقع قد تصدت للتغلب على الصعوبات المالية في اكثر الاحيان فوفرت المساعدات والنتج الدراسية والقروض للطلبة الفلسطينيين . ونستطيع ان نرى ان هذه العملية هي ذات وجهين ، احدهما مشرق وانساني ، والثاني لا يخلو من التحفظات، ولا شك ان المرء سيبدو متطرفا لو طالب بمنع هذه المساعدات عن الطلبة الفلسطينيين . اذ ان المطروح ليس حرمانهم من التعليم ، وانما توفيره لهم .^{٥١} ولكن اي نوع من التعليم ؟

في عام ١٩٧١ تقدمت بمذكرة الى مركز التخطيط في منظمة التحرير الفلسطينية حول انشاء جامعة فلسطينية للتغلب على معظم المشاكل التي تواجه الطلبة الفلسطينيين : مشاكل عدم وجود اماكن كافية لهم في الجامعات ، ومشاكل التكيف مع المحيطات الاجنبية ، والمشاكل المالية وغير ذلك، وقد اقترحت ديمقراطية التعليم في الجامعة المقترحة لموجبات نظرية وعملية في الوقت ذاته للتغلب على مثل هذه المشاكل . فالجامعة المقترحة يجب ان تكون

ومن ذكر هذه الاسماء يتبين ان سؤال « اين تكون الجامعة ، يتغلب على سؤال كيف تكون وما هيئتها » فان جماعة « جامعة قبرص ، المقترحة بتصوير انشاء جامعة فلسطينية في قبرص لتلافي مشاكل الاعتراض العربي » وفي ذلك ما فيه من تعليق على الوضع العربي . ولست ادري ما هي الجامعة العائمة اللهم الا ان تكون جامعة في سفينة او عوامة خارج المياه الاقليمية ، او ربما هي الجامعة المتحركة التي ليس لها مكان محدد . واما الجامعة المفتوحة فربما تكون تلك التي تقوم دروسها بالمراسلة ، وعن طريق الاذاعة والتلفزيون والاشربة المسجلة والانفلام .

وبالنسبة لجامعة الارض المحتلة فالمكان معروف ، ولكن الصعوبات ايضا معروفة فيما يتعلق بما يمكن ان تكون عليه الجامعة في ظل الاحتلال .

ثمة اختلاط في الاسماء ما بين الجامعة المفتوحة التي شاء الداعون اليها ان يترجموا اسمها بالانجليزية من The Open الى الجامعة الشعبية بالعربية ، وبين الجامعة الشعبية التي اشرنا اليها انفا والتي تختلف في مفهومها عن مفاهيم كل الجامعات المطروحة على بساط البحث .

ولا بد من الوقوف قليلا هنا عند الجامعة المفتوحة نظرا للخطوة التي خطاها الداعون اليها بانجاز دراسة اولية لها ، اشترك فيها الصندوق القومي الفلسطيني ، والصندوق العربي للتنمية في الكويت ، ومنظمة اليونيسكو . ويعالج واضعو هذه الدراسة مشكلة المكان ، مكان الجامعة ، باعتماد نظام التعليم المفتوح ، اي ذلك النظام الذي يصل الى الطالب وينفتح على الجميع بدلا من «مركزيته وانغلاقه» اي بمعنى ان تذهب الجامعة الى الناس

كانت فكرة جامعة فلسطينية في حينها تعتبر ضربا من الخيال او الحلم . ولم يكن من الغريب ان تنشأ الاستئلة فوراً حولها : اين تقام ، ومن الذي يتولى انشاءها ، وكيف يمكن تمويلها ، واي نظام تعليمي تتبع ، وكيف يمكن تأمين الاعتراف بشهاداتها ، وما هو وضعها القانوني في اي بلد تقوم فيه ، وهل يمكن لاي بلد ان يسمح بقيامها فيه ؟ السؤال الاكبر كان هو : اين وفي اي بلد يمكن ان تقوم مثل هذه الجامعة ؟

في ذلك العام ، اي عام ١٩٧١ ، صارت فكرة الجامعة حلما واردا في اذهان الكثيرين ، وليس مجرد حلم يداعب خيال واحد من الناس . ففي نفس الفترة تقريبا تقدم عدد من المهتمين بدراسات واقتراحات الى مركز التخطيط الفلسطيني حول الجامعة الفلسطينية المقترحة . فمنهم من اقترح انشاء جامعة تكنولوجية على اساس حاجة الدول العربية الى خريجها واستعداد ابناء الشعب الفلسطيني للاقبال عليها ، بالاضافة الى انخفاض نسبة تخوف الانظمة العربية من مثل هذه الجامعة نظرا لبعدها عن السياسة وتخصصاتها التكنولوجية ! واخرون اقترحوا انشاء جامعة تربوية لنفس المبررات . ومن نفس المنطلقات تقريبا نشأ اقتراح انشاء جامعة للدراسات العليا المتخصصة لما بعد شهادات الليسانس والبيكالوريوس .

اهم ما في الامر ان فكرة الجامعة الفلسطينية قد اصبحت مطروحة ، فتعدد بحثها وتنوع في مختلف اماكن التجمع الفلسطيني الى ان بات يصعب حصر انواع الجامعات المقترحة ، كما تبين من مقررات وتوصيات المجلس الوطني الفلسطيني في اجتماعه الاخير ، حيث ورد ذكر ما يسمى بالجامعة العائمة ، والجامعة المفتوحة ، وجامعة قبرص ، والجامعة الشعبية ، وجامعة الارض المحتلة .

أمرا شبه مستحيل » - ومع الاعتراف بمنظمة التحرير كممثل وحيد للشعب العربي الفلسطيني ، اضحى من المفروض « وضع هذا الاعتراف موضع التنفيذ على شكل واقعي عملي يتطلب بالضرورة وسائل عدة ، من ضمنها انشاء مؤسسة فلسطينية للتعليم العالي ، وذلك لان اكتساب المعرفة والاستفادة منها امران اساسيان لدعم الرغبة الملحة للشعب الفلسطيني في الهوية الوطنية والسيادة وتقرير المصير » .

هذا قول حق ، واذا اثبت شيئا فانما هو يثبت ان ظرفا سياسيا جديدا للشعب الفلسطيني قد نشأ ، وان هذا الظرف لا بد وان يؤثر في النظام التعليمي وان يتأثر به . ان هذا يضع على كاهل منظمة التحرير الفلسطينية كممثلة وحيدة للشعب العربي الفلسطيني ان تضع النظام التعليمي للفلسطينيين الذي يتناسب مع طموحاتهم الوطنية والفردية . وتقول الدراسة : « انها لحقيقة تاريخية انه لم يكن باستطاعة الشعب الفلسطيني ان يقوم بأي شكل من اشكال التخطيط الاجتماعي والاقتصادي لمدة ثلاثين عاما ٠٠ وكانت نتيجة ذلك ان المؤسسات القليلة التي كانت موجودة قبل عام ١٩٤٨ اصابها الضعف في نفس الوقت الذي استمرت فيه الهجرة الفلسطينية الجماعية الى الخارج . لذلك فان احد اهداف منظمة التحرير الفلسطينية من اقتراحها انشاء الجامعة الشعبية الفلسطينية ان تضع حدا لهذه الفوضى وهذا الضياع . ولكي يتم ذلك فان على المؤسسة المقترحة ان تلعب دورا قياديا في تنمية القوى العاملة والمعلومات وادوات التحليل والتسهيلات اللازمة لاعداد التخطيط الواقعي الفعال » .

« لذلك فان من الاهتمامات الرئيسية

كل الناس عن طريق المراسلة والوسائل الاعلامية بدلا من ان يذهبوا هم اليها ، والمبررات الاقتصادية لهذا العمل متوافرة ، فبدلا من توظيف المال في الابنية والاساتذة ، فانه ، يوظف في الوسائل التعليمية من افلام واشرطة ويوفر كثيرا .

وفي هذا الحل لمشكلة المكان ، ما فيه من ثغرات لا تعد ولا تحصى . فهو بالدرجة الاولى يفترض بقاء حالة الشتات هذه ويحاول ايجاد حلول لهذا الوضع كما هو عليه دون اهتمام بتغييره . ثم ان هذا الحل هو تقليد يكاد يكون اعمى للجامعة المفتوحة في بريطانيا ، والتي يتخرج فيها كل عام حوالي ثمانين الف متخرج . فهناك يستخدم التلفزيون البريطاني لبث الدروس . فاي تلفزيون سيستخدمه الفلسطينيون لبث دروس جامعتهم ؟ واذا كانت الدول العربية تسمح بوضع اوقات محطات تلفزيوناتها تحت تصرف الجامعة الفلسطينية المفتوحة فان من الاسهل عليها والاكثر امنا ان تسمح لهم بانشاء جامعة يدرسون بين جدرانها ولا « تفيض » دروسهم على الاخرين . فلا بد لكل دولة من ان تسيطر على الدروس المبثوثة من محطاتها الاذاعية والتلفزيونية . وقد يصلح هذا النظام التعليمي لاية دولة عربية تريد ان تتوسع في ايصال التعليم الى ابنائها ، ولكنه غير عملي وغير ممكن بالنسبة للفلسطينيين .

دراسة اليونيسكو على اي حال تشخص مشكلة الفلسطينيين التعليمية تشخيصا لا بأس به . ولكنها تتوصل الى الحلول المترفة والخطئة وغير العملية في الوقت ذاته . فهي تقول : « كان من نتائج نكبة الشعب الفلسطيني الذي اصبح خاضعا لنظم حكم مختلفة ذات انظمة تربوية متباينة ، ان اصبحت امكانية اقامة نظام تربوي منسق وموحد لجميع الفلسطينيين

ظروفنا الراهنة يجب ان تكون شيئاً مختلفاً عن جامعة كانت ستنشأ في القدس قبل خمسين عاماً ، ومختلفاً ايضاً عن جامعة في بريطانيا لاختلاف الظروف . ثمة مقاييس تقاس بها الجامعات الحقيقية في جميع انحاء العالم ، ومقاييس اخرى يجب ان تقاس بها جامعتنا الفلسطينية المقترحة ، وما لم تنطبق عليها كل هذه المقاييس فانها لن تكون جامعة ولن تكون فلسطينية .

المقياس الاول هو ان الجامعة ، اي جامعة ، ليست في الجوهر مبانسي او شهادات مزوقة ، وانما هي مكان للتفاعل الحر بين عقول الجيل الطالع والجيل العالم من الاساتذة ، وتفاعل عقول هؤلاء وهؤلاء مع بيئتهم ومجتمعهم . وما لم تتحقق هذه الشروط الاساسية في الجامعة ، اي جامعة ، فانها تصبح دكاناً لبيع الشهادات مثل العديد من الجامعات التي لا تستحق هذا اللقب . ان التوجه نحو الدراسات الهندسية والعلوم التطبيقية والطب سيكون صعب المنال في الجامعة المفتوحة . اضع الى ذلك ان عملية وجود التلميذ في الجو الجامعي واحتكاكه الشخصي بالاساتذة والاخذ عنهم لا يقل اهمية عن وجود الجامعة ذاتها في بيئتها ، وان وجود كلية من كليات الجامعة في مخيم فلسطيني لهو افضل الف مرة من وجودها في قبرص او في المياه الاقليمية او على الهواء !

هذا شرط اول وهو يحدد مكان وجود الجامعة الفلسطينية الشعبية المقترحة في ظروفنا الراهنة . فيجب ان تكون كلياتها موجودة في اماكن وجود التجمعات الفلسطينية . وان تجربة الهلال الاحمر الفلسطيني الذي اضطرته الحاجة الى افتتاح مدرستين للتعمير يمكن ان تدفعه الى افتتاح كلية للطب سيما وانه يملك

لنظمة التحرير تركيز المناهج والبرامج التي ستقدمها الجامعة المقترحة على مشاكل الفلسطينيين ، من اجل اعداد الشبيبة للعمل ضمن المجتمع الفلسطيني .

ومعلوم جيداً ان اغلبية القوى العاملة الفلسطينية ذات الكفاءة مستخدمة حالياً خارج المجتمع الفلسطيني ، لذلك من الاهمية القصوى ان تقوم التربية التي ستقدمها المؤسسة المقترحة على ربط التدريب والتربية والمهارة المكتسبة بنظام من القيم والمثل العليا يشجع المتعلم ويحثه على العمل في نطاق المجتمع الفلسطيني وللصالح العام .

كل هذا كلام جميل . . . ووارد . ولكن ما هو الحل ؟ الحل كما ترى دراسة اليونيسكو الاولى هو الجامعة المفتوحة التي لا نعتقد انها تستطيع القيام بمثل هذه المهمة وبالطريقة التي تريدها الدراسة الاولى . فان هذه الدراسة الاولى تقترح اجراء دراسة جدوى يستغرق القيام بها ثلاث سنوات ، ومبلغ نصف مليون دولار تقريبا . ويعول دعاء المشروع على الدراسات السكانية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية والنفسية ووضع خطة مفصلة لكل من « الضفة الغربية وقطاع غزة » الخ . . .

وهكذا نجد انفسنا امام مشروع دراسي لاوضاع الفلسطينيين طويل الامد ، مع خيارات في النهاية للمشروع في الضفة الغربية وقطاع غزة . . وما الذي يحوجنا حينذاك الى جامعة على الاثير ؟ ان هذه الجامعة المعلقة والمستوردة فكراً واسلوباً لا تختلف عن مشاريع النقطة الرابعة . ولا ندري ما في مصلحتها من مواد .

نعتقد ان الجامعة الشعبية الفلسطينية، في

التي يتوق اليها الشعب العربي الفلسطيني والتي أصبحت جزءاً لا يتجزأ من هويته ودوافع ثورته . فهذا الشعب الذي عانى كل انواع الكبت والاضطهاد لا تعني الهوية الفلسطينية اليه شيئاً ما لم تكن موصولة بالسعي للخلاص من جميع ما عاناه ، وما لم تكن الحرية معنى من معاني الهوية . وان الديمقراطية بكل معانيها السياسية والاقتصادية والاجتماعية هي مكملة لسالة الهوية والحرية .

المقياس الثالث لجامعة فلسطينية

الالتزام والطموح هي الابداع التربوي . والغاية من الابداع التربوي هي اطلاق طاقات الانسان التي تجعله متناغماً مع نفسه ومع حياته وما يختار . فلقد واجهت الاساليب التربوية التقليدية في السنوات الاخيرة امتحانات راح فيها الجيل الطالع في العديد من البلدان يرفض اساليب التلقين التي اثبتت عمقها . فقد انحرف التعليم في الكثير من الجامعات عن غاياته واصبح سلسلة متصلة الحلقات من الامتحانات والكتب المقررة والشهادات والعذابات بدلا من ان تكون الغاية هي الاكتشاف وتمكين الفرد من مهارات وخبرات ومعرفة يمارس بها حياة اكثر متعة ومعنى .

المقياس الرابع للجامعة الفلسطينية ان

تكون جامعة لكل الشعب . وبهذا فانها لن تحتاج الي دراسة جدوى تحدد لها المسار الذي يؤثر بدوره على اتجاه القضية ، بل انها كجامعة للشعب ، ستفتح كل الخيارات ، وتحول دون ان تسوق فئة من الناس القضية كلها الى خيار واحد .

وغني عن القول ان المهمات الملقاة على عاتق جامعة فلسطينية في الوقت

في لبنان اكثر من سبع مستشفيات . ولا نعتقد انه من الصعب ان تتحول جامعة بيروت العربية بما فيها من كلية للهندسة وكلية للاداب والتجارة الى نظام التعليم الجامعي الفلسطيني الجديد سيما وان الغالبية العظمى من طلابها هم من الفلسطينيين . ثم ما الذي يمنع من افتتاح كلية زراعية فلسطينية في بعض البلدان العربية الزراعية حيث توجد اعداد من الفلاحين الفلسطينيين وابنائهم المبعدين عن الارض . وهكذا دواليك .

المقياس الثاني هو ان اية جامعة

فلسطينية يجب ان لا تكون فلسطينية الانتماء فحسب ، والا سقطت في المحاذير الاقليمية . فالجامعة ليست « غيتو » ، ويجب ان لا تقع في فخ عقلية « الغيتو » المنسوب لوقوعنا فيه . الجامعة يجب ان تكون فلسطينية الانتماء وفلسطينية الالتزام وفلسطينية الطموح . وهذا يجعل من كلياتها في اي مكان في الوطن العربي منائر للعلم والطموح القومي الذي لا يقتصر على الفلسطينيين كما ينسجم مع شعار الثورة الفلسطينية بانها فلسطينية الوجه عربية القلب .

من قضايا الانتماء والالتزام والطموح

تتفرع مسائل كثيرة تكون في مجموعها الطريق الى فلسطين ، وتكون في حقيقتها جوهر الجامعة وما تهدف اليه . فليست المسألة كما ذكرنا هي زيادة عدد الخريجين

الجامعيين فحسب ، او تسهيل حصولهم على الشهادات الجامعية . ان معنى « فلسطيني » يكتسب من كل ما هو نقيض لمعنى الصهيونية . وهذا يجعلها بالضرورة تنزع الى معرفة الحقيقة واكتشافها لا الى اخفائها وكبتها . والحرية الاكاديمية ليست الا طعماً من مذاق الحرية

او تخصيص ميزانية • وانما هو يأتي
نتيجة حركة ثقافية واعية ، وستغتنى هذه
الحركة بالمناقشة والحوار •

ابراهيم ابو ناب

الراهن هي اصعب بكثير من المهمات
التي كانت ستلقى على جامعة لو انشئت
في القدس قبل خمسين عاما • وفي رأيي
ان جامعة من النوع الذي نريد لا يأتي
بانشاء لجنة خبراء ، او اصدار مرسوم •

الدفاع الجوي الاسرائيلي

بعد حرب تشرين

القدرات الكافية لشن سياسة عسكرية
« هجومية » مماثلة ، قد توقع في صفوفه
خسائر موازية لتلك التي يوقعها هو في
صفوف ذلك الطرف • اضعف الى ذلك مدى
تحمل اسرائيل لتلك الخسائر وخاصة على
المستوى البشري • وقد اقتنع العدو وهذا
يبدو ظاهرا على طريقة تعامله مع مسألة
بناء قواته بعد الحرب الاخيرة ، بان
الهجوم لا يكفي ان لم يكن مدعوما بنظام
دفاعي متكامل ، يضمن تأمين الخلفية
الصلبية ، الضرورية لتدعيم ومساندة
هكذا هجوم ، ويمنع بالتالي اي هجوم
مضاد (او مسبق) محتمل من تحقيق
اهدافه •

ولعل المسألة الاساسية في اعادة ترتيب
الوضاع الدفاعية تتناول الدفاعات
المضادة للهجمات الجوية ، استراتيجية
كانت ، ام عملياتية • ومن يتابع عن كثب
المراحل التي مر بها التركيز الاسرائيلي
على اعادة تنظيم ، وتزويد ، القطاعات

يأتي الاهتمام الاسرائيلي المتزايد
بتطوير وتقوية الدفاعات الجوية ، ورفع
مستوى فعاليتها كما ونوعا ، كظاهرة
مثيرة للانتباه ، خاصة وان هذا الاهتمام
« المستجد » ، اذا صح التعبير ، لم
يبرز على واجهة التخطيط العسكري
الاسرائيلي الا في الفترة التي تلت حرب
تشرين ١٩٧٣ ، كاستيعاب مباشر من قبل
العدو ، لنتائج تلك الحرب ودروسها ،
بالاضافة الى شعور اكيد منه بمتغيرات
اساسية طرأت على خارطة الميزان العسكري
في المنطقة ، الامر الذي استدعى بطبيعة
الحال ، اعادة النظر بمجمل سياساته
الدفاعية •

ولقد اصبح من الواضح الان ، ان
العدو الاسرائيلي قد بات مقتنعا ، بان
استراتيجية « الهجوم » كافضل وسيلة
للدفاع ، التي درج على اتباعها في
خوض عملياته العسكرية ، قد لا تكون هي
الافضل عندما تتوفر لدى الطرف الاخر •

حتما غير قادرة على شن هجمات جوية على الاهداف الاسرائيلية سواء كانت تلك الاهداف استراتيجية ام عملياتية ، وبالتالي لسم يكن من الضروري ، في نظرس الاسرائيليين ، الحفاظ على قوة دفاع جوي محترمة ، ماعدا الحسد الاديى الكفيل باحباط « المفاجآت » .

وخلال حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ كان السلاح الجوي الاسرائيلي لا يملك سوى سربا مطاردا واحدا : ونقصد هنا ان ايا من الاسراب الجوية الاسرائيلية لم يكن مخصصا لاعمال الاعتراض والمطاردة ، بل ان العدو حصول حتى الطرازات المعترضة اساسا في ترسانته الجوية ، كطائرات « ميراج - ٢ سي » الى طائرات هجوم ارضي مع احتفاظها بقدرة ثانوية على الاعتراض والقتال الجوي تؤمنها مدافعها الرشاشة من عيار ٣٠ ملم ، التي كانت تشكل ، على كل حال ، سلاحا فعلا للهجوم الارضي . اما صاروخ « ماترا - ٥٣٠ » جو - جو الذي كانت الطائرة معدة لكي تحمله في عمليات الاعتراض الجوي فقد انفي من تسليح معظم الطائرات (ما عدا تشكيل واحد مؤلف من ١٢ طائرة) وتم استبداله بصواريخ جو - ارض من طراز « اس - ٣٠ » AS - 30 او بقنابل موجهة من نوع ماترا « خارقة الاسمنت » Concrete Dibber . كما صار من الثابت الان ان اسرائيل لم تبق خلال الحرب ، الا على تشكيل واحد (نصف سرب مؤلف من ١٢ طائرة) من طراز « سوبر ميستير ب - ٢ » ليؤمن حماية الاجواء الاسرائيلية من هجوم جوي عربي مضاد . في الوقت الذي كانت باقي الطائرات (حوالي ٢٥٠ طائرة) تتجه الى اهدافها في مهمات هجوم ارضي وقصف تكتيكي . وهذا « التقصير » اذا صحت تسميته كذلك ، لم يكن مقتصرا على الطائرات فقط بل تعداه الى وسائل الدفاع الارضية

المضادة للطائرات لدى كل من القوات البرية والجوية ، وحتى البحرية ، يجد ان الدفاع تالف اساسا من سببين : فمن ناحية نجد ان النتائج المباشرة لحرب تشرين التي اظهرت ارتفاع مستوى الاسلحة المضادة (للدروع والطائرات على حد سواء) ، والفعالية التي اثبتتها تلك الاسلحة لدى الجانب العربي ، استدعت ، وهذا طبيعي ، لفت نظر العدو الى ذلك القطاع من القدرة العسكرية ودفعته الى التفكير بالحصول على اسلحة مماثلة ، ومتفوقة ، اذا أمكن ، من اجل الحفاظ على التوازن العسكري العام . اما الناحية الاخرى ، والتي تشكل ، بنظرنا ، السبب الاكثر اهمية ، فتتلخص بالشعور لدى الدوائر العسكرية الاسرائيلية بازدياد القدرة العسكرية العربية الهجومية ، خاصة على الصعيد الجوي ، وتفكير العدو ، ربما للمرة الاولى ، بالخطر الجدي الكامن في هجوم جوي عربي يستهدف عمق الاراضي الاسرائيلية على المستوى الاستراتيجي من ناحية ، ودعم القوات البرية في ساحة المعركة ، على المستوى العملياتي من ناحية اخرى .

وفي هذا المجال ، لا بد من اعادة التذكير ببعض الوقائع التي كان العدو الصهيوني يخوض نزاعاته العسكرية على اساسها والتي يبدو انها قد تخلخلت في المدة الاخيرة واثبتت فشلها .

لقد كانت اسرائيل دوما متأكدة من ايمانها بالثنائي « طائرة - دبابة » وقدرته على تحقيق ما يطلب منه . وفي الوقت نفسه . فقد كانت اسرائيل مقتنعة بعدم قدرة الثنائي « الطائرة - دبابة » لدى الجانب العربي المقابل من القيام بذلك ، وخاصة الجانب المتعلق « بالطائرة » منه . فالاسلحة الجوية العربية ، بالنسبة لاسرائيل ، كانت

مطاردة ممتازة (بل ان هذه المهمة كانت هي الاساس عندما صممت الطائرة خلال الخمسينات واولائل الستينات لحساب البحرية الاميركية) ، الا ان الدور الاسرائيلي الرئيسي الذي اوكل اليها كان اعمال القصف الهجومية ، لا اعمال الدفاع والقتال الجوي .

ومن الجدير بالذكر هنا ، ان قوات العدو الاسرائيلي لم تحصل خلال الفترة ١٩٦٧ - ١٩٧٣ على سلاح واحد معد في الاساس لاستخدامه في اغراض دفاعية ، اكان ذلك على شكل طائرات معترضة ، ام على صعيد الدفاعات الارضية ، باستثناء ثلاث بطاريات هوك اضافية ، حصلت اسرائيل عليها من الولايات المتحدة ، وعدد محدود من المدافع الرشاشة من عيار ٢٠ ملم التي تم تفكيكها في اسرائيل عن طائرات « الوراغان » القديمة وتحويلها الى مدفعية مضادة للطائرات على منصات رباعية مركبة على اليات نصف مجنزرة ، ترافق القوات البرية اثناء تقدمها .

ولقد كان الاجراء الوقائي الوحيد الذي اتخذته اسرائيل خلال فترة استيلائها بعد حرب ١٩٦٧ على اراض عربية واسعة ، ان وضعت عليها نقاط مراقبة استراتيجية على جبل الشيخ ومرتفعات سيناء والضفة الغربية ووضعت مراكز رادار واجهزة رصد وانذار مبكر ، كانت تضمن حسب الاقتناع الاسرائيلي ، مراقبة اي تحرك جوي عربي يهدف الى مهاجمة مواقعها ، وبالتالي كشفه واحباطه ، عن طريق هجوم جوي استباقي قبل ان تتمكن الطائرات العربية من الوصول الى اهدافها .

ووسط كل تلك المعطيات ، دخلت اسرائيل حرب تشرين (اكتوبر) ١٩٧٣ . فماذا كانت النتيجة ؟ لقد فوجيء الطيران الاسرائيلي ، الذي كان يعد القوة النارية الرئيسية للجيش

التي كانت مؤلفة آنذاك من بضع بطاريات من طراز « هوك » ، قدرتها المصابر الغربية آنذاك بسبع ، تحتوي كل منها على ٦ قواعد اطلاق . وكانت مهمة هذه البطاريات تتألف بشكل خاص من حماية المنشآت الاستراتيجية كالمطارات والمرافق ، بالإضافة الى مركز الابحاث النووية الاسرائيلي في صحراء النقب ، حيث اسقطت احداها عن طريق الخطأ طائرة اسرائيلية من طراز « ميستير - ١٤ » ، اما الدفاع عن الوحدات البرية فقد كان ملقى على عاتق عدد من بطاريات المدفعية المضادة للطائرات التي كانت مؤلفة من مدافع من طراز « بوفورز ل - ٤٠/٧٠ » عيار ٤٠ ملم بريطانية الصنع ، و « اورليكون » عيار ٣٠ ملم و « هيسبانو - سوزيا » عيار ٢٠ ملم ، سويسرية . وهي جميعا طرازات بدائية نسبيا ، يتم توجيهها نظريا (ما عدا عدد من مدافع « بوفورز » التي كان قد جرى تزويدها بجهاز تعقب وتوجيه راداري صغير) .

وعلى ضوء النتائج التي آلت اليها حرب حزيران والتي كانت بالنسبة للقيادة الاسرائيلية اثباتا لصحة نظرياتها ، استمر وضع الدفاعات الجوية على ما كان عليه ، بل وازداد « سوءا » . وطيلة الفترة التي تلت حرب حزيران وخلال حرب الاستنزاف على الجبهة المصرية عامي ٦٩ و ٧٠ . كان التركيز الاسرائيلي على تطوير القدرات الاسرائيلية الهجومية ، يتضح بشكل هائل . فانصبت جهود الاسرائيليين على الحصول على طائرات هجومية لمهام الدعم الارضي والمساندة التكتيكية القريبة (سكاى هوك ٤ -) واخرى من أجل تنفيذ عمليات القصف التكتيكي والاقتحام الجوي في العمق INTERDICTION الذي يأخذ في هذه الحالة سمات استراتيجية ، (قانتوم ف - ٤) . وعلى الرغم من ان هذه الاخيرة كانت في الوقت نفسه طائرة

الى طائرات مطاردة ومعتزضة متخصصة لمواجهة الطائرات العربية المهاجمة في الجو .

□ المحاولات الاسرائيلية لسد الثغرة (١٩٧٣ - ١٩٧٧) .

وهكذا خرجت اسرائيل من حرب تشرين وفي مقدمة الدروس العسكرية التي استخلصتها من تلك الحرب الضرورة القصوى لاعادة تنظيم دفاعاتها الجوية وتقويتها . وقد زاد من تلك الضرورة بالنسبة للقيادة العسكرية الاسرائيلية ، تزايد القوة الجوية العربية . نوعيا هذه المرة . ونقصد هنا ، ان الاسلحة الجوية العربية التي طالما كانت متفوقة ، كما ، على الطيران الاسرائيلي ، استطاعت خلال الفترة التي تلت حرب تشرين تحقيق تفوق نوعي تميز بحصول تلك الاسلحة على طرازات جديدة من الطائرات السوفياتية ، المخصصة هذه المرة لعمال القصف التكتيكي والاقترام الجوي بعيد المدى ، وهو الجانب الذي لم يكن متوفرا لها ، نسبيا على الاقل ، من قبل . فحصلت كل من مصر وسوريا والعراق وليبيا على طائرات من طراز ميغ - ٢٧ (فلوغر - د) وهو آخر ما انتجته الصناعة الجوية السوفياتية ، وكسان يعرف باسم « ميغ - ٢٢ ب » لتمييزه عن طائرة ميغ - ٢٣ الاساسية المطاردة المعتزضة التي حصلت عليها الاسلحة الجوية العربية ايضا . وتقدر الحمولة التي تحملها هذه الطائرات بـ ٤ - ٥ اطنان من القنابل ، والصواريخ جو - ارض ، كما ان مداها القتالي العملي على ارتفاعات منخفضة يصل الى ١١٢٥ كلم ، حسب تقديرات المصادر الغربية ، مما يجعلها نموذجية للاحتياجات العربية . وكذلك حصلت كل من مصر وسوريا على طائرات « سوخوي - ٢٠ » (وهو الطراز المعد للتصدير من الطائرة سوخوي - ١٧)

الاسرائيلي بفاعلية الاسلحة الارضية المضادة للطائرات لدى الجيشين المصري والسوري ، وخاصة فاعلية صواريخ « سام - ٦ » والمدافع الرشاشة الرباعية من طراز « زس يو - ٢٣ (٤) » ، عيار ٢٣ ملم والموجهة بالرادار .

وقد كان سوء تقدير القيادة الاسرائيلية لقدرات الدفاع الجوي العربي تقنيا وبشريا سببا رئيسيا في انزال الخسائر التي لحقت بالسلح الجوي الاسرائيلي خلال تلك الحرب .

واذا كانت المصادر الاسرائيلية (والغربية) قد اشارت بصورة مستمرة الى هذا الجانب من المفاجأة الاسرائيلية لكونه لا يشكل نقطة حرج مباشرة لاسرائيل ، الا ان هناك جانبا آخر اغفلت تلك المصادر الاشارة اليه وهو تمكن الطيران العربي لأول مرة من شن غارات ناجحة نسبيا على الاهداف الاسرائيلية (باستثناء العمق) وخاصة في اليوم الاول للقتال حين قامت ما يزيد عن مائتي طائرة مصرية من طراز ميغ - ٢١ وميغ - ١٧ وسوخوي - ٧ ومائة طائرة سورية من نفس الانواع بغارات على العديد من المواقع الاسرائيلية في سيناء والجلولان ، ولقد اثبتت تلك الغارات ان يوسع الطيران العربي الاغارة على القوات البرية الاسرائيلية حين تتوفر النية لذلك كما كشفت بشكل فاضح هزال الدفاعات الارضية المتوفرة للقوات البرية وعدم قدرتها على مواجهة تلك الهجمات الجوية بشكل كاف . والنقطة الاخرى في الموضوع ، والتي دأبت اسرائيل على طمسها ، كانت قدرة الطيران العربي على مواجهة الطائرات الاسرائيلية والدخول معها في معارك متكافئة ، اطاحت بنظرية « الطيران الاسرائيلي الذي لا يقهر » رأسا على عقب ، واثبتت حاجة اسرائيل هذه المرة ، لا الى طائرات هجومية مزودة بقدرة دفاعية ثانوية ، بل

- الدفاعات الارضية المضادة للطائرات .

- أجهزة الرصد والانذار والتعقب المبكر، بما فيها الطائرات .

وسنطرح ما طرأ على كل جانب من هذه الجوانب على حدة :

□ الطائرات المطاردة الاعتراضية :

لم يعد هناك من حاجة لتكرار القول بان سلاح الطيران ، كان (وما زال) العصب الرئيسي في التركيبة العسكرية الاسرائيلية والذراع «الاطول» التي تحرص اسرائيل دائما على الحفاظ على تفوقها وتميزها، حتى على الفروع الاخرى من القوات المسلحة .

وبعد حرب تشرين . ورغم الضائمر التي مني بها سلاح الطيران الاسرائيلي ، ووقفه مشلولاً في الايام الثلاثة الاولى، أمام الدفاعات الارضية العربية ، خرجت القيادة العسكرية الاسرائيلية بقناعة ثابتة تلخصت في أن سلاح الطيران هو بالنهاية ، القادر على قلب الموازين وحسم المعركة في صالح اسرائيل .

ان هذه المقولة لم تتغير في اسرائيل منذ انشائها في العام ١٩٤٨ ، الا ان ماتغير كان متعلقاً «بشكل» سلاح الطيران لمرحلة ما بعد تشرين ، وتحويله من قوة «هجومية» صافية ، الى قوة «دفاعية» متكاملة ، تحتفظ بقدرتها الفائقة على تنفيذ المهام «الهجومية» بمختلف اشكالها ،*

وهذه الطائرة تطوير للقاذفة التكتيكية « سوخوي - ٧ » وتميز عنها بزيادة كبيرة في حمولتها الهجومية (٤ اطنان) وزيادة مداها القتالي ، بحيث تتمكن من قطع مسافة ١٤١٥ كلم بحمولة طنين من القنابل . كما حصلت كل من ليبيا والعراق على قاذفات بعيدة المدى اسرع من الصوت من طراز « تيو - ٢٢ » القادرة على حمل اكثر من ٨ اطنان من القنابل والصواريخ لمسافة ١٤٠٠ كلم وبسرعة تفوق سرعة الصوت .

هذه الطرازات التي بات وجودها في الترسانة العربية ، يضاعف الاهداف الاسرائيلية الاستراتيجية تحت سيطرة اسلحة الطيران العربية دون عائق (تتفوق الطائرة ميغ - ٢٣/٢٧ من حيث السرعة والقدرة على المناورة في القتال الجوي ، التي تؤمنها لها قدرتها على تحريك جناحيها ، على أي طائرة موجودة لدى اسرائيل بما فيها الفانتوم فـ٤ ، وذلك باعتراف المصادر الغربية والاسرائيلية نفسها) ، جعلت من التصميم الاسرائيلي على بناء نظام دفاع جوي متكامل ، هدفا لا يحتمل تحقيقه أي تأجيل .

وقد تركزت الجهود الاسرائيلية على مختلف نواحي الدفء الجوي التي سنقسمها هنا ، على الرغم من ارتباطها العضوي ببعضها، الى جوانب ثلاثة ، وذلك بهدف مقارنة الامور وتبسيطها، وهذه الجوانب هي :

- الطائرات المقاتلة المطاردة والمعتزلة .

* ملحوظة : لا نريد أن ندخل هنا من جديد في الجدل حول ماهية «الهجومية» من ناحية ، و«الدفاعية» من ناحية اخرى ، فالمقصود هنا ببساطة ، «الهجوم» هو التنفيذ «الاجابي» لمخططات طرف ما ومن ثم العمل على نقل المعركة الى مرمى عدوه ، في حين نعني «بالدفاع» منع ذلك العدو من تنفيذ مخططاته عبر التصدي لوسائله «الهجومية» والعمل على تدميرها او الحد من قاعليتها .

قدرتها على المناورة اثناء التحليق ، كما سلحتها بصواريخ جو - جو اسرائيلية الصنع من طراز «شافيرير» مخصصة لعمليات القتال الجوي الالتحامية ، كما حافظت على تسليح الميراج المؤلف من مدفعين رشاشين من طراز «ديفا» عيار ٣٠ ملم .

وقد بدأت الطائيرة «كفير» خدمتها الفعلية في صفوف اسراب الدفاع الجوي التابعة لسلاح الطيران الاسرائيلي في العام ١٩٧٥ . وتختلف التقديرات حول عدد الطائرات من هذا الطراز في الخدمة الا انها تتراوح بين ٥٠-٦٠ طائرة ، مع العلم أن حاجة سلاح الطيران الاسرائيلي النهائية قد لا تقل عن ١٠٠-١٥٠ طائرة .

والى جانب الطائيرة «كفير» التي ادعت اسرائيل انها تفوقت على «الفانتوم» في المعارك الجوية الاختبارية التي أجريت بين الاثنتين ، حصلت القوات الجوية الاسرائيلية من الولايات المتحدة الاميركية على أحدث طائيرة تنتج هناك حاليا وهي طائيرة «ف - ١٥» ايغل .

وبما يتعلق بهذه الطائيرة ، فالهدف الاساسي من وراء انتاجها كان رغبة السلاح الجوي الاميركي في الحصول على طائيرة مقاتلة معترضة لمنافسة الطائيرة السوفياتية من طراز «ميغ - ٢٥» التي تتفوق على أية طائيرة اميركية في الخدمة حاليا . وعلى الرغم من تصنيف هذه الطائيرة «كمقاتلة متعددة المهام» ، الا ان دورها الاساسي هو الاعتراض والمطاردة . ومن اجسبل ذلك فقد حرص المصممون الاميركيون على التركيز على قدرة الطائيرة على المناورة خلال المعارك الجوية ، ولو كان ذلك على حساب السرعة (٢٤٣٥ كلم/ساعة على ارتفاع ١٢٢٠٠ مترا و١٤٣٥ كلم/ساعة على مستوى سطح

من اعمال قصف تكتيكي واستراتيجي (في العمق ضد المنشآت الحيوية) ، واقتحام جوي ، وهجوم ارضي وتقديم المساعدة للقوات البريئة عن قرب ، واستطلاع عملياتي واستراتيجي . وفي الوقت نفسه يجب على هذه القوة الوصول بمستواها الدفاعي الى درجة لم يسبق ان وصلت اليها من قبل بهدف التصدي بفعالية لاي هجمات جوية معادية واعتراض ومطاردة وبالتالي تدمير أي طائيرة عربية تتمكن من خرق المجال الجوي الاسرائيلي والافلات من الدفاعات الارضية .

وعلى هذا الاساس لم تكثف القيادة الاسرائيلية في الفترة التي تلت الحرب الاخيرة بالعمل على رفع مستوى الاداة الهجومية لسلاح الطيران ، (كما جرت العادة بعد كل حرب عربية - اسرائيلية) بل تعدتها هذه المرة الى الاهتمام الزائد بتزويد ذلك السلاح بالقوة الكافية من المطاردات المعترضة ، هذه المرة بهدف رفع مستواه الدفاعي في وجه الهجمات المعادية . ولاول مرة في تاريخه ، يحصل سلاح الطيران الاسرائيلي بعييد حرب تشرين على طائيرة مصممة في الاساس للقيام باعمال المطاردة والاعتراض والقتال الجوي القريب Dog Fight ، وهذه الطائيرة كانت المقاتلة «كفير» التي سرقت اسرائيل تصاميمها عن طائيرة «ميراج - ٥» الفرنسية وادخلت عليها تعديلات اساسية بهدف تحويلها من طائيرة هجوم ارضي ، الى طائيرة اعتراضية (هذه المرة أصبحت المهمة الهجومية ثانوية) .

وكان التركيز الاساسي في صنع الطائيرة منصبا على المرونة والقدرة على المناورة خلال عمليات القتال الجوي ، وقد زودت اسرائيل طائراتها هذه بأجنحة صغيرة وراء حجرة الطيار ونظام جديد من الزعانف الذيلية ورفرافات الجناحين ، بهدف تحسين

أنها كانت تعتمد قبل كل شيء على قدرات سلاحها الجوية الهجومية وبالتالي قدرة ذلك السلاح على حماية الاجواء الاسرائيلية ومنع أية طائفة عربية من اختراقها ، بالإضافة الى قدرته على تغطية وحماية ودعم عمليات القوات البرية والبحرية .

الا ان هذه النظرة التي اهتمت بشكل كبير خلال حرب تشرين ، حيث استطاعت القوى الجوية العربية القيام بمهام فعالة ضد المواقع الاسرائيلية البرية ، في الوقت الذي اثبتت الدفاعات الجوية العربية التي كانت تعتمد اساسا على ثنائي «الطائرة الاعتراضية - الصاروخ» على قدرتها في حماية الطائرات العربية فوق مسرح المعركة .

وقد شعرت القيادة الاسرائيلية عندئذ بان الدفاع الجوي المتكامل لا يمكن ان يتحقق الا اذا تم دعم الطائرات الاعتراضية التابعة لسلاح الجو ، بدفاعات أرضية ، ثابتة ومتحركة ، تؤمن حماية المطارات والمواقع الحيوية من ناحية ، ومرافقة القوات البرية لحمايتها من الهجمات الجوية المعاكسة من ناحية اخرى .

فالقوات البرية الاسرائيلية اشتكت كثيرا خلال الحرب من ضعف قوتها النارية المضادة للطائرات ، كما ان السلاح الجوي ، الذي كان مشغولا بتنفيذ المهمات الهجومية ضد الاهداف العربية ، وجد في حماية قواته البرية عبئا اضافيا ، قد لا يمكن ان يتحمله في المستقبل ، ان لم تعاونه فيه ، دفاعات أرضية جيدة ، ترفع عن كاهله جزءا من مهمات الحماية تلك .

وعلى ضعيد الصواريخ ، فقد تركز الجهد الاسرائيلي على ناحيتين : الاولى كانت تقضي برفع مستوى الدفاعات الصاروخية حول المنشآت الحيوية والمدن

البحر) كما ان تسليحها الرئيسي يتألف من مدفع رشاش سداسي الفوهات من طراز إم - ٦١ فولكان، عيار ٢٠ ملم بالإضافة الى ٤-٦ صواريخ جو - جو فوجية راداريا او بالاشعة دون الحمراء من نوع «سبارو» و«سايدويندر» (من المرجح ان تستبدل هذه الاخيرة بصواريخ «شافير» في الطائرات الاسرائيلية)

وقد اوصت اسرائيل على ٢٥ طائرة من هذا الطراز كدفعة أولى ، بدأت بتسلمها مؤخرا .

وبالإضافة الى هذين الطرازين الجديدين ، حصلت اسرائيل على المزيد من طائرات «فانتوم ف - ٤» حيث يقدر عند الطائرات من هذا النوع في الترسانة الجوية الاسرائيلية بحوالي ٢٤٥ طائرة (٢٢٢ ف - ٤ اي + ١٢ ف - ٤ اي) بالمقارنة مع ١٢٠ طائرة كانت تملكها ابان حرب تشرين . وقد عمدت اسرائيل بعد عام ١٩٧٣ على اعادة تزويد طائراتها من طراز فانتوم بنظام جديد لرافعات الاجنحة والذيل مشابه للنظام الذي ركبته المانيا الغربية على طائراتها من طراز «ف - ٤ ف» المعدة لعمليات المطاردة والاعتراض . وهذا النظام كفيل بزيادة قدرة الطائرة على المناورة ورفع مستواها القتالي خلال مهمات الاعتراض الجوي .

□ الدفاعات الأرضية المضادة للطائرات :

اذا كان الدور الهام الذي تلعبه الصواريخ «ارض - جو» في أية مواجهة تقليدية قد أصبح من الامور المسلّم بها عسكريا ، لدى غالبية الجيوش ، فان من الثابت أيضا ان اسرائيل لم تعط هذا الموضوع الاهتمام الكافي قبل حرب تشرين . ويعود ذلك كما سبق وذكرنا الى

الصواريخ هي تطويـر لصاروخ «سأيدويندر» جو - جو ، بعد أن اضيفت اليه التجهيزات اللازمة لاطلاقه من الارض . وهو معد لمرافقة القوات المدرعة وتأمين حماية جوية قريبة لها ضد الطائرات المحلقة على ارتفاعات منخفضة وبسرعة تفوق سرعة الصوت . ويتكون «تشابارال» من جهاز الاطلاق والتحكم ، والعربة الحاملة ، والصاروخ نفسه . وتنطلق الصواريخ من برج مركب على العربة يحمل ٤ قذائف ويتم توجيه الصاروخ بدائيا بواسطة المطلق ، ثم يسير الى هدفه بشكل مستقل وذلك بواسطة رأسه الباحث عن الحرارة ، الذي يوجهه الى مصدر الاشعة مادون الحمراء المنطلقة من الهدف . ولايزيد مدى «تشابارال» عن ١٠٨ كيلومترات وهو صالح لمطاردة الطائرات على ارتفاعات منخفضة ، لكنه يمتاز بقدرته على المناورة على المسافات القريبة .

وقد أجرت اسرائيل تجارب على هذا الصاروخ بهدف تحسين وسائل توجيهه وذلك عن طريق اضافة مقدر مدى من نوع «لايزر» صالح للعمل في الليل وفي الاحوال الجوية السيئة . واصبح هذا الصاروخ قيد الخدمة الفعلية في الجيش الاسرائيلي منذ العام ١٩٧٥ تقريبا ولايعرف العدد الذي طلبته اسرائيل منه .

وبالاضافة الى الصواريخ ، قررت القيادة الاسرائيلية تزويد قواتها البرية بمدافع مضادة للطائرات ذاتية الحركة من نوع «فولكان» سداسي الفوهات عيار ٢٠ ملم . وهذه المدافع نسخة برية عن المدفع «م - ٦٦ فولكان» المحمول على طائرات «فانتوم» و«ايغل» . وهو مركب على عربة مدرعة برمائية من نوع «م - ١١٣» ، ويوجه راداريا . ويمتاز بشكل خاص بقدرته الغزيرة على الرمي (٦٠٠٠ طلقة بالدقيقة) . ومن المفترض ان يعمل هذا

والمطارات وذلك عبر زيادة البطاريات من طراز «هوك» التي تضاعف عددها من ٧ بطاريات الى ١٥ بطارية (تحتوي كل منها على ٦ منصات اطلاق) . كما طلبت المزيد (يقدر بـ ٧ بطاريات اخرى) من صواريخ «هوك المعدلة» Advanced Hawk التي ادخلت عليها تعديلات تتعلق بدقة الاصابة وزيادة مدى عملها .

وهذه الصواريخ تكفل لاسرائيل حماية معقولة ضد الطائرات المحلقة على ارتفاعات متوسطة وبسرعة تفوق سرعة الصوت .

ومن ناحية اخرى شددت اسرائيل على تزويد قواتها البرية ، المدرعة والمشاة الميكانيكية ، بغطاء دفاع جوي مرتفع المستوى . فحصلت على اعداد كبيرة من صواريخ «رد آي» (العين الحمراء) التي يحملها المشاة وتطلق من على الكتف .

وهذه الصواريخ المشابهة من حيث الدور والواصفات لصواريخ «سام - ٧» ، السوفياتية تؤمن للمشاة حماية ضد الهجمات الجوية التي تشنها طائرات الهليكوبتر المسلحة ، او الطائرات المقاتلة المحلقة على ارتفاعات منخفضة وبسرعة أقل من سرعة الصوت . وهي توجه بصريا عند الاطلاق ، ثم تتجه الى اهدافها بواسطة جهاز لاحق للاشعة مادون الحمراء المنبعثة من الغازات المحترقة من مؤخرة محركات الطائرات النفاثة . ويبلغ مدى عمل هذا الصاروخ حوالي ٣-٥ كلم ويصل بارتفاعه الى ٣ الاف متر .

والتطوير الثالث الذي طرأ على الدفاعات الصاروخية المضادة للطائرات ، كان حصول اسرائيل على صواريخ «تشابارال» المحمولة على عربات مدرعة برمائية من طراز «م-٧٣» . وهذه

نفسها . الا ان اسرائيل عانت وقنعت بالحصول على «هوك أي» (عين الصقر) . وهذه الطائرات مزودة بجهاز رادار بعيد المدى من نوع فان - أب من - ١١١ ، AN - APS - 111 مركب على شكل صحن فوق هيكل الطيسائرة وحاسب الكتروني متطور من نوع «ليتون ل - ٣٠٤» متعدد الاغراض . ويطلق على عمل الطائرة الاسم الرمزي «ات د س» ATDS ، التي يمكن ترجمتها بـ «النظام الجوي التكتيكي لتجميع المعلومات» . وهي تعمل على اساس البقاء في الجو على شكل دورية دائمة تتعقب خلالها أي تحركات جوية معادية ، ثم تبلغ عنها بشكل مبكر ، بحيث يتم تجهيز الوسائل المضادة من طائرات وصواريخ ومدافع بأقل قدر ممكن من الوقت . وتستطيع «عين الصقر» هذه ، البقاء في الجو لمدة ٥ ساعات متتالية ، كما يمكن تزويدها بالوقود جوا من اجل اطالة هذه المدة .

كما ستحصل اسرائيل على جهاز رادار بعيد المدى ، يغطي كافة الصدود الاسرائيلية وشواطئها ، عبر سلسلة من المحطات المتقدمة . وسيعمل هذا الجهاز الاميركي الصنع ، بالتنسيق مع طائرات «هوك أي» من جهة ، ومع قيادة المقاتلات التابعة لسلاح الجو من جهة اخرى .

ولا يمكن في هذا المجال ، الا التذكير بمحنة الانذار المبكر الاميركية التي أسفرت عنها اتفاقية سيناء والتي ، بنظرنا ، ستفيد منها اسرائيل اضعاف ماستفيد مصر ، والاسباب لذلك واضحة !

□ الدفاع الجوي الاسرائيلي في المرحلة المقبلة :

نستطيع القول ، في معرض تقدير قوة الدفاعات الجوية الاسرائيلية اليوم ، ان اسرائيل ماضية ، بلا شك في استكمال

المدفع بالتنسيق مع الصاروخ «تشابارال» لتشكيل نظام دفاع جوي متكامل لمرافقة القوات المدرعة والمشاة الاسرائيلية خلال عملياتها العسكرية . وهو شبيهه الى حد ما بالنظام الدفاعي السوفياتي المؤلف من مدافع ذاتية الحركة من عيار ٢٢ ملم «ز س يو - ٢٢ رباعي» وصواريخ سام - ٩ (وهي نسخة مطورة عن «سام - ٧» تحمل على عربات مدرعة برمائية بشكل رباعي) . وذلك لتأمين حماية فعالة ضد الهجمات الجوية القريبية والمنخفضة الارتفاع .

كذلك لم تهمل اسرائيل موضوع زيادة المدفعية المضادة للطائرات التقليدية ، فزودت قواتها البرية باعداد اضافية من المدافع عيار ٢٠ ملم من نوع «هسبانو سويزاء» المفككة عن طائرات «اوراغان» والمركبة على عربات نصف مجنزرة من طراز «م - ٣» ، كما وردت تقارير تفيد الى اتباع الاسلوب نفسه مع مدافع طائرات «ميسثير - ٤» من نوع «ديفا» عيار ٣٠ ملم . التي يعتقد انها ركبت بشكل ثنائي على عربات من الطراز المذكور سابقا .

□ اجهزة المرصد والانذار المبكر :

يعتبر سلاح الطيران الاسرائيلي من اوائل الاسلحة الجوية في العالم (باستثناء الدولتين العظميين وعدد قليل من الدول الاوروبية وكندا) الذي يحصل على طائرات انذار جوي مبكر . وقد استطاعت اسرائيل «نيل موافقة» الولايات المتحدة الاميركية على تزويدها باربعة طائرات من نوع «هوك أي اي - ٢ سي» EA - 2C التي تنتجها شركة فرومان وذلك بمبلغ ٢١٠ ملايين دولار على ان يتم تسليمها في اواخر هذا العام ، وقد كان الطلب الاساسي منصبا على الحصول على طائرات من نوع «براوهر أي أي - ٦ ب» EA-6B التي تصنعها الشركة

الى طائرات الفانتوم التي يمكن استخدامها في هذا المجال وعدد غير محدد من الطائرات بدون طيار من طراز «تشوكار» المعدة أصلا للاستطلاع والتسبي تجري اسرائيل تجارب عليها حاليا بهدف استخدامها كطائرات هجوم ارضي تدار راداريا من الارض .

● الوسائل الارضية :

- حوالي ٢٠-٢٥ بطارية صواريخ من طراز «هوك» و«هوك المتقسم او المعدل» تحتوي كل منها على ٦ منصات ثلاثية لاطلاق الصواريخ . وتؤمن مهمات الدفاع المتوسط عن المنطقة Area Defense ضد الطائرات المنخفضة والمتوسطة الارتفاع . (مجموع قوة نارية ٢٥ × ٦ × ٣ = ٤٥٠ صاروخا) .

- عدد غير محدد من بطاريات صواريخ «تشابارال» ، يرجح ان تحتوي كل منها أيضا على ٦ منصات ثلاثية ، تؤمن الحماية للقوات المدرعة والمشاة الميكانيكية ضد الطائرات المنخفضة الارتفاع .

- عدد غير محدد من صواريخ «رد أي» المحمولة على الكتف والمزودة بها قوات المشاة .

- عدد غير محدد من المدافع السداسية من عيار ٢٠ ملم «فولكان» تؤمن السدور نفسه الذي تلعبه صواريخ «تشابارال» وتعمل بالتنسيق معها .

- اكثر من ٩٠٠ مدفع مضاد للطائرات من طرازات متعددة تشتمل على مدافع «بوفورز» عيار ٤٠ ملم و«أورليكون» عيار ٣٠ ملم متطورة ، و«ديفا» عيار ٣٠ ملم و«هيسبانو سوزا» عيار ٢٠ ملم ، محمولة على عربات نصف مجنزرة ثنائية ورباعية .

بناء قدرتها الدفاعية الجوية على مختلف الاعددة ، وبشكل يشير الى انها لن تسمح لاي ثغرة بالتواجد ، في قواتها المسلحة . وفي الوقت نفسه فالعدو لن يهمل بالطبع الاستمرار في تأكيد قدراته الهجومية .

وكتقدير لما يمكن ان يكون عليه مجموع قوى الدفاع الجوي الذي بحوزة العدو نستطيع ايراد التالي ، وذلك اعتمادا على المصادر الغربية :

● الطائرات المعترضة :

- ٢٥ طائرة متعددة الاغراض مع تشديد على اعمال القتال والمطاردة من طراز «ف - ١٥ ايجل» ، مزودة بصواريخ جو - جو من نوع «سبارو» المعدل و«سايدويندر» او «شافيرير» الاسرائيلي الصنع + مدفع «فولكان» عيار ٢٠ ملم .

- ٢٤٠ - ٢٤٥ طائرة «ف ٤ / رف - ٤ فانتوم» لاعمال القصف التكتيكي مع تحسين وسائل الطائرة القتالية ، مزودة بصواريخ جو - جو من نوع «سبارو» + مدفع «فولكان» .

- ٥٠-٦٠ طائرة «كفير» و«كفير سي - ٢» المعدلة والعدة لاعمال الاعتراض والمطاردة (مع قدرة ثانوية على تنفيذ اعمال الهجوم الارضي) ، مزودة بصواريخ جو - جو من طراز «شافيرير» + مدفعين عيار ٣٠ ملم .

- ٣٠-٤٠ طائرة «ميراج - ٣ سي» وهي ماتبقى من الطائرات الفرنسية الاصلية في حوزة اسرائيل . وتستعمل حاليا لاعمال الاعتراض والمطاردة ، مزودة بصواريخ من طراز «شافيرير» + مدفعين عيار ٣٠ ملم .

هذا طبعا بالاضافة الى القوة الجوية الهجومية المؤلفة من ٢٦٠ طائرة تقريبا من نوع «أ - ٤ سكاي هوك» ، بالاضافة

يجب ان يتحقق سريعا ، قبل ان يغسر التنامي في القوة العسكرية الاسرائيلية خطيرا وقد تنعكس اثاره السلبية على اي مجابهة اسرائيلية - عربية مستقبلية .

محمد علي قاسم



المراجع :

- Issues) .
 — Flight International (Various Issues) .
 — Jane's all the World's Aircraft 1976-1977
 — Jane's weapons Systems 1973 - 1974 , 1975 - 1976 .
 (Jane's Yearbooks , St. Gile's House , London) .
 — The Military Balance 1973-74
 1974-75
 1975-76
 1976-77
 (The Institute of Strategic Studies , London) .
 — Aviation & Marine (Various Issues) .
 — Air International (Various

● الوسائل الالكترونية :

— ٤ طائرات انذار جوي مبكر من نوع «هوك آي» .

— نظام رادار بعيد المدى يعمل بالتنسيق مع الطائرات .

— وسائل الكترونية وحرارية متنوعة لمهام التشويش الالكتروني على اجهزة التوجيه والرادار للأسلحة العربية ، وتشتمل على معدات تركيب في الطائرات ، ومحطات أرضية خاصة وطائرات بدون طيار ترافق الطائرات المعترضه والقاذفة في مهماتها .

والخلاصة، فاننا اذ نورد هذه الحقائق، فهو للتبليغ على أن العدو قد عمد منذ اللحظة الاولى لإحساسه بتزايد الخطر العربي الجوي ضده ، إلى رفع مستوى قواته وأسلحته ، ليس فقط بهدف إعادة التوازن ، كما يتبادر إلى الذهن لأول وهلة ، بل لتحقيق التفوق الذي لايجازف بخسارته في أي مرحلة من مراحل الصراع . والرد على ذلك ، عند الجانب العربي ، لايجدر أن يكون سوى الاستمرار في العمل على رفع مستوى القدرة العسكرية العربية ، لأن لاشيء غير ذلك على الإطلاق ، ينفذ في منع العدو من تحقيق اهدافه . وهذا «الهدف» العربي ،

الطائرة الأميركية (ف - ١٦)

الاربع من هذه الطائرات على النحو التالي :

١ - هولندا (٨٤) طائرة + (١٨) طائرة تحت الطلب ٢٠ - بلجيكا (١٠٢) طائرة + (١٤) تحست الطلب ٣٠ - الدنمارك (٤٨) طائرة + (١٠) تحست الطلب ٤ - المفرويج ٧٢ طائرة . وفي بداية عام ١٩٧٥ حذا سلاح الجو الاميركي حذو هذه الدول الاطلسية فقرر التعاقد مع الشركة المذكورة لتزويده بـ (٦٥٠) طائرة من النوع نفسه على ان يتسلم الدفعة الاولى منها في بداية العام ١٩٧٨ . ثم توالى التعاقد على شراء هذه الطائرة وكان من بينها اسرائيل التي أبدت استعدادها للحصول على (٢٥٠) طائرة من نوع (ف - ١٦) المتطورة يتم صنع (٥٠) منها في الولايات المتحدة ، على حين تتولى الصناعة الجوية الاسرائيلية (بيدك) (BEDEK) تجميع الـ ٢٠٠ طائرة الباقية في اسرائيل . وكانت الادارة الاميركية قد وافقت من حيث المبدأ في الحادثات التي تمت في اواسط شهر ايلول ١٩٧٥ بين (بيريز) وزير الدفاع الاسرائيلي وكبار المسؤولين الاميركيين في وزارتي الدفاع والخارجية في واشنطن على بيع اسرائيل عددا من طائرات (ف - ١٦) الاميركية المتطورة . وكانت بعض الاوساط الصحفية في الولايات المتحدة قد قدرت هذه الصفقة بـ ٤٠٠ طائرة الا ان مصادر اميركية واسرائيلية عسست وقدرتها بـ ٢٥٠ طائرة . وظلست هذه مجرد تكهنات صحفية الى ان اعلن (رابين) في ٦-١٢-١٩٧٦ ، ان اسرائيل ستحصل

تردد اسم طائرة (ف - ١٦) لأول مرة في الاذاعات والصحف والمجلات العالمية والمحلية في العام ١٩٧٤ ، عندما قررت اربع دول من الدول الاوروبية الغربية الاعضاء في حلف شمال الاطلسي وهي بلجيكا وهولندا والنرويج والدنمارك التوصل الى قرار موحد نهائي في مجال تقويمها للطائرات الاربع المعروضة عليها وبالتالي انتقاء الطائرة الفائزة في هذا التقويم التنافسي الذي قررت المشاركة فيه كل من شركتي (جنرال داينامكس) بطائرة (واي ف - ١٦) و (ثورروب) بطائرة (واي ف - ١٧) الاميركيتين ممثلتين للولايات المتحدة وشركة (ساب سكانيا) بطائرة (ساب - ٣٧ - فيجين) ممثلة لدولة السويد وشركة (داسو) بطائرة (ميراج ف - ١) ممثلة لفرنسا . كانت الغاية من هذا التقويم التنافسي انتقاء طائرة معترضة مقاتلة حديثة تحل مكان طائرة (لوكهيد ستار فايترف ١٠٤) القديمة المستخدمة في اسراب الدول الاربع التي مضى على خدمتها في اسراب الخط الاول للحلف قرابة الخمسة عشر عاما بعد ان تقرر اعادة تقويم قدرة الحلف الجوية القتالية . وقد جاءت نتائج المنافسة لصالح طائرة (واي - ف ١٦) الاميركية حيث قررت الدول الاوروبية المعنية التعاقد على شراء (٣٤٨) طائرة منها في صفقة واحدة مشتركة عرفت في الاوساط العالمية (بصفقة القرن) ، نظرا لكونها صفقة الطائرات الضخمة الاخيرة التي ستعدها هذه الدول الاوروبية في السنوات المتبقية من هذا القرن . وتقرر بصورة اولية ان تكون حصة كل دولة من هذه الدول

في العالم . ومن ذلك ان اية طائرة يتم انتاجها ويتم تحليقها في الجو لاتعتبر من الناحية الفنية جاهزة للعمل الا بعد اجراء سلسلة طويلة من التجارب عليها لاندخال التعديلات المناسبة والضرورية التي تتطلبها مراحل تطوير النموذج الاول منها . وقد يستغرق ذلك سنوات عديدة . فمثلا حلستق النموذج الاول لطائرة (نورثروب - ف - ١٥) NORTHROP

F-5 A

الاميركية لأول مرة في الجو في العام ١٩٥٩ . ومنذ ذلك العام والشركة تدخل التعديل وراء التعديل على النموذج وتذلل العقبات التي كانت تبرز امامها . من وقت لآخر ، ولم تدخل الطائرة في خدمة اسراب القتال العاملة في كل من تايوان وايران والحبشة والملكة المغربية وكوريا الجنوبية وكندا وغيرها من الدول الحليفة لاميركا في العالم الا في بداية العام ١٩٦٤ . وعلى الرغم من ذلك لم تتوقف شركة (نورثروب) عن اجراء التجارب على الطائرة . وفي العام ١٩٧٢ اعلنت الشركة عن انتاجها نموذجا جديدا من طائرة (ف - ١٥) . اكتسب تطورا هو النموذج (ف - ٥ اي) (F - 5 E) وهكذا نرى ان انتاج طائرة (ف - ٥) وتطويرها استغرق قرابة ١٨ عاما حتى تمكنت الشركة من وضعها للحمل بالمواصفات والشروط القتالية التي تتطلبها المواجهات الحديثة . وهذا ينطبق على كافة الطائرات الحربية والمدنية والشواهد كثيرة على ذلك . لذلك ليس مستبعدا على الاطلاق ان تضطر شركة (جنرال داينامكس) الى اجراء العديد من التجارب على طائرة (ف - ١٦) (وهذا اصبح في حكم المؤكد) وقد يضطرها ذلك الى ادخال تعديلات اساسية على النموذج الحالي .

تجمع هذه الطائرة معظم المزايا الفنية والتكتيكية الموجودة في طائرة التفوق

بشكل اكيد على احدث طائرة مقاتلة من طراز (ف - ١٦) ، واضاف « ان عدد الطائرات وكيفية تسديد ثمنها مسألة لاتزال بحاجة الى تحديد » . وفي ١٢-٧-١٩٧٦ أعلن مصدر مسؤول في واشنطن « ان الولايات المتحدة اعطت موافقتها المبدئية على تسليم اسرائيل طائرات مقاتلة من طراز (ف - ١٦) ، غير أنه اضاف قائلا « انه لم يتخذ اي قرار محدد بشأن عدد الطائرات التي سيتم تسليمها لاسرائيل » .

لكن بعض الاوساط الاسرائيلية ذكرت ان اسرائيل ربما تقلص عدد الطائرات في الصفقة المذكورة الى ٢٠٠ طائرة نظرا للزيادة التي طرأت على سعر كل طائرة . على اي حال ان التحدث عن الصفقة هو موضوع سابق لاوانه ومن المؤكد ان مسألة البيت نهائيا بامرنا يخضع لاعتبارات سياسية وفنية ، اذا اخذنا بعين الاعتبار (١) السياسة الاميركية الجديدة التي درجت بعد حرب تشرين اول (١٩٧٣) على اخضاع مبيعات السلاح لاسرائيل الى دراسة وتقويم دقيقين بالنظر لما لهذه الصفقات من تأثير على التطورات الجارية في المنطقة وعلى موازين القوى فيها .

(٢) التصريحات التي صدرت مؤخرا عن وزير الدفاع الاميركي والتي كشف فيها النقاب عن وجود متاعب فنية في بعض اجهزة الطائرة (ف - ١٦) وتأثيرات ذلك السلبية على قدرتها القتالية حيث سيؤخر ذلك موعد تسليم الطائرة الى الدول التي تعاقدت على شرائها . والى حين ورود تفصيلات اخرى تظل عملية بيع الطائرات (ف - ١٦) لاسرائيل رهنا بالتطورات المستقبلية .

اما بالنسبة للتطور الفني فهذا يعتمد بالدرجة الاولى على تطور المراحل الفنية للمشروع . فهناك شواهد كثيرة في تاريخ صناعة الطائرات الحربية والمدنية

(٤) صواريخ موجهة (يمكن زيادتها في المستقبل بعد ادخال التعديلات)

(٧٢٠) ميلا (١٢٩٥) كم

حوالي ٦ - ٧ ملايين دولار .

ان الاختلافات في السرعة تظل مع ذلك غير ذات قيمة في الاشتباكات الجوية التقليدية . اذا اخذنا بعين الاعتبار ان الاشتباكات الجوية التقليدية عادة تنحصر بين سرعة (٠.٨) ماك و (١.٤) ماك ولا تحتاج الى اكثر من ذلك . كما ان مهام الاعتراض لا تتطلب اكثر من سرعة (١.٨) ماك ذلك لانه لكل طائرة مقاتلة قيودا تحدد سرعتها من وضع الى اخر . لهذا ان ماتفده طائرة (ف - ١٦) في مجال تعوضه في مجال اخر ، وكما نرى فان تسليحها من الصواريخ هو اقل من تسليح (ف - ١٥) وقد يبدو لاول وهلة انه عامل سلبي يحد من قدرتها كطائرة معترضة ومقاتلة . لكن الحقيقة ان قدرة طائرة (ف - ١٦) على المناورة في الجو كبيرة جدا واكبر من غيرها بكثير نتيجة لبعض التصحيحات في بعض اجزاء هيكلها واجهزتها . وهذا مايمكنها من التفوق على غيرها من الطائرات في الجو بسهولة ومثال على ذلك . تزويدها بقلابات موازية امامية (Leading Edge Flaps) تعمل بصورة اتوماتيكية وتلقائية تبلغ سرعة حركتها ٣٥ درجة / الثانية وهذه تمكنها من المناورة بشكل احسن في الاوضاع التي يضطر فيها الطيار في القتال الجوي اللجوء الى المناورات المتقدمة . ان التقنية الاميركية هي الوحيدة تقريبا التي لجأت الى استخدام القلابات الامامية في طائراتها المقاتلة كعامل مساعد للطيار في مناوراته القتالية وهذه توجد في اكثر من طائرة مقاتلة اميركية ومنها (ف - ١٥) . وان وجدت في بعض الطائرات الاخرى الاوروبية او السوفياتية فانها لا تستخدم على نطاق واسع ، على عكس الاميركيين الذين يعتبرون هذا التصميم اساسيا في

الجوي الـ (ف - ١٥) لكنها تختلف عنها في بعض النواحي التي لاتاثير لها اطلاقا على قدرة الطائرة القتالية . ان الاختلافات تشمل النواحي التالية :

- وزنها فارغة

- وزنها بحمولة قصوى

- السرعة على مستوى سطح البحر

- السرعة القصوى على ارتفاع

٣٦٠٠٠ قدم

- قوة الدفع

- التسليح

- المدى التكتيكي

(نصف دائرة)

- ثمن كل طائرة

طائرة (ف - ١٥)

(٢٦١٤٧) رطل (١١٨٦٠) كغ

(٥٤١٢٣) رطل (٢٤٣٥٠) كغ

(٩١٥) ميل / الساعة (١.٢) ماك

(١٦٥٠) ميل / الساعة (٢.٥) ماك

محرك واحد (٢٥٠٠٠) رطل مع حارق

اضافي

هجوم ارضي - حمولة خارجية

(١٥٠٠٠) رطل (٦٨٠٤) كغ

الاعتراض - (٩) صواريخ موجهة

(١.٢٠) ميلا (١.٨٠٠) كم

حوالي ١٨ مليون دولار

طائرة (ف - ١٦)

(١٤١٠٠) رطل (٦٣٩٥) كغ

(٣٣٠٠٠) رطل (١٤٩٦٩) كغ

(٩١٥) ميل / الساعة (١.٢) ماك

(متشابهة)

(١٢٢٥) ميل / الساعة (٢) ماك

محركين قوة كل واحد (٢٥٠٠٠) رطل مع

حارق اضافي لكل منهما .

هجوم ارضي - حمولة خارجية

(١١٠٠٠) رطل باوضاع طبيعية (١٥٢٠٠)

رطل بعد تخفيف حمولتها من الوقود

الداخلي .

اجهزة قيادتها بواسطة اسلاك معدنية وزيت الهيدروليك . كما انه لا يوجد للطائرة عامل مساعد يعمل في حركات الطوارئ بواسطة الاسلاك المعدنية ، انما اوجدت (٤) قنوات كهربائية كتدبير احترازي تعمل بصورة اوتوماتيكية وتلقائية حال تعطل القناة الكهربائية الرئيسية . اما بالنسبة لمقصورة الطيار فقد جهزت بمقعد مائل ٣٠ درجة الى الخلف وهذا يعطي الطيار قدرة اكبر للعمل في المناورات التي تكون فيها قوة الجاذبية الارضية Force (-G) في اعلى الدرجات التي بإمكان الطيار تحملها ، كما ان هذه الوضعية للمقعد تعطي الطيار مجالاً واسعاً للرؤية الخلفية وهذه تمكنه في مناورات القتال الجوي من مراقبة الاهداف المعادية القادمة من الخلف .

اما بالنسبة لمحرك الطائرة نوع (برات اندوتيني - ف ١٠٠ - بي دبليو - ١٠٠) (Pratt and Whitney - F 100 - PW - 100)

فقد تم انتقاؤه لاعطاء طائرة (ف - ١٦) نسبة دفع الى وزن (١٥ الى ١) وهي نسبة جيدة جداً تبين قدرة الطائرة على زيادة سرعتها (تسارعها) . اذا علمنا ان النسبة المثالية في الطائرات المقاتلة يجب ان تكون (١ - ١) على ان لا تزيد فيها نسبة الوزن على الدفع . اما اذا زادت نسبة الدفع على الوزن فهذا مؤشر ايجابي يبرز قدرة الطائرة على العمل الجيد .

وعلى الرغم من الاجهزة المتقدمة المصممة في الطائرة الا انه روعي ان تكون في حدود المعقول حتى لا يزيد ذلك من وزن الطائرة ورفع تكاليف صنعها وبالتالي زيادة سعر مبيعها .

المنظرة الاسرائيلية

للمطائرات المتقدمة الحديثة

ان طائرة (الفانتوم) تشكل اليوم العمود الفقري في اسراب القتال التي

اكثر طائراتهم المقاتلة المتقدمة . ان طائرة (ف - ١٦) هي طائرة تفوق جوي خفيفة محدودة المدى ، على حين تعتبر ال (ف - ١٥) طائرة تفوق جوي ثقيلة بعيدة المدى . وبالإضافة الى ذلك فان طائرة (ف - ١٦) هي طائرة محدودة المدى ايضا في عمليات الدعم الارضي التكتيكي ، على عكس طائرة (ف - ١٥) التي تعتبر طائرة معترضة مقاتلة بعيدة المدى في الدرجة الاساسية والتي يمكن في بعض الحالات قيامها ببعض المهام التكتيكية خارج نطاق جبهات القتال المعروفة . من جهة اخرى فان تكاليف تشغيل طائرة (ف - ١٦) هي اقل بكثير من تكاليف تشغيل طائرة (ف - ١٥) يضاف الى ذلك ان مدة اعداد وتجهيز الاولى هي اقل ايضا منها في الثانية .

لقد لجأت الى المقارنة بين الطائرتين المذكورتين لسببين رئيسيين الاول لان العدو حصل فعلاً على طائرة (ف - ١٥) وباشر في تشكيل اسرابها ومن المتوقع ان يحصل على طائرة (ف - ١٦) ايضا ولكن ذلك لن يتم قبل عام ١٩٨٠ على الأرجح . والثاني ان هاتين الطائرتين تعتبران من اكثر الطائرات تقدماً بين الطائرات المقاتلة المستخدمة في العالم من ناحية التصميم والتجهيز والقدرة على العمل والمناورة .

المزايا التقنية والتقنية المستحدثة

لقد استحدثت في طائرة (ف - ١٦) تصاميم عديدة حديثة متقدمة شملت بعض اجزاء هيكلها واجهزة القيادة والرادار المختلفة والاجهزة المساعدة الملاحيمة والاخرى ، التي تساعد الطيار في بعض مهامه الهجومية ضد الاهداف الارضية . جهزت الطائرة بجهاز لقيادتها في الجو يعمل كهربائياً لتوجيه اسطح القيادة التي تعمل بواسطة زيت الهيدروليك ، وهذا غير متوفر في الطائرات الاخرى التي تعمل

المعارك الجوية التي دارت في فلسطين في المراحل الاولى لحرب عام ١٩٤٨ خصمها مدربا ومثقفا قادرا على قيادة طائرتيه والسيطرة عليها في اصعب المناسبات الجوية ، ومستعدا لمهاجمة أية اهداف ارضية او بحرية تحدهما له قيادته مهما بلغت تعقيدا .

لذلك لجأت القيادة الجوية الاسرائيلية نظرا لهذه المعطيات ومعطيات جديدة اخرى دخلت على الموقف ، الى تبني نظريات متقدمة في محاولة منها لمعالجة هذه الازواج الجديدة . ومن ضمنها استخدام طائرات التفوق الجوي مثل (ف - ١٥) و (ف - ١٦) على امل ان تتمكن بواسطتها من المحافظة على الهوة الكبيرة التي ظلت قائمة طيلة سنوات الصراع التي سبقت حرب تشرين (تقلصت بعض الشيء بعد هذه الحرب) ، كما جاز يفصل بين قدرة سلاح الجو الاسرائيلي المتفوقة في العمل وقدرة الاسلحة الجوية العربية المقصرة في العمل . فمثلا ان قدرة طائرتي (الفانتوم) و (كفير) الاسرائيلية على اعتراض الطائرات الحديثة المتقدمة التي ضمت الى الترسانة

الجوية العربية مثل (ميراج - ف ١) و (ف - ٥ اي) و (ميج - ٢٣) و (ميراج - ٥) وغيرها هي محدودة في ظل المستجدات التي طرأت وتطسرا على الموقف العسكري من وقت الى اخر وقسي ظل تعدد جبهات القتال دخول الحسدود ومساحة الارض الكبيرة التي يطلب من سلاح الجو الاسرائيلي العمل فيها ، خاصة وانه يواجه عدوا يتفوق عليه في عدد الطائرات بنسبة تقارب ٢ الى ١ . واذا كان نشاط سلاح الجو الاسرائيلي فسي الماضي قد اقتصر على اسقاط الطائرات العربية في الجو وتقديم الدعم للقطعات البرية الاسرائيلية من جهة ومهاجمة القطعات البرية العربية من جهة ثانية ، وفي الغالب كانت نتائج ذلك باستمرار

تشكل خط القتال الاول في سلاح الجو الاسرائيلي ، تعاونها في مهام الدعم الارضي القريب طائرة (سكايهوك) وطائرات (كفير) التي تنتجها محليا الصناعة الجوية الاسرائيلية . ونظرا للتحسينات المتقدمة والمتطورة التي ادخلت على صناعة الطائرات الحربية في العالم والتي شملت الاجهزة المستحدثة فسي الطائرة والهيك والمحرك والسرعة والحمولة الخارجية ، فقد ادركت قيادة سلاح الجو الاسرائيلي - خاصة بعد التحسن الكبير الذي طرأ على اوضاع القوات المسلحة العربية . ان هذه الازواج المستجدة تفرض عليها الحصول على طائرات متفوقة في كافة النواحي على مثيلاتها المستخدمة في الاسلحة الجوية العربية حتى تتمكن من التصدي للطائرات المعادية بفاعلية كبيرة بحيث يعطيها ذلك قدرة اكبر على العمل في الجو وبالتالي يعطيها قدرة للتأثير على المعارك الارضية والبحرية في المجالين الهجومى والدفاعى . وكان ذلك يعني من الوجهتين القتالية والفنية الحصول على طائرات التفوق الجوي الحديثة المجهزة بمعدات الكترونية متقدمة ومتطورة جدا ، وهي عوامل هامة تعطي الطائرة قدرة اكبر للاسهام بالمهام القتالية الصعبة ، وعلى الاخص تلك التي توجه ضد الاهداف الارضية والبحرية والجوية المعقدة .

لقد بدأت قيادة سلاح الجو الاسرائيلي تواجه تحديات جديدة بعد حرب تشرين اول (اكتوبر) ١٩٧٣ على الصعيدين الاستراتيجي والتكتيكي لم نألفها فسي السابق . فلقد ضمت الى الترسانة الجوية الحربية العربية طائرات حديثة لا تقل مقدرة ونوعية عن تلك التي حصلت عليها اسرائيل مؤخرا . كما ان قيادات شابة برزت على المسرح العربي . يضاف الى ذلك ان نوعية الطيارين والفنيين قد تحسنت كثيرا واصبح على الطيار الاسرائيلي ان يواجه ولاول مرة منذ

دفاعها الحالي (شمعون بيريز) بقوله :
«اننا نقترب بسرعة من عصر سيقلل فيه
توازن الرعب بين اسرائيل وجيرانها
من البغضاء التي تسود بينهم ويعطي
بعض التوازن للمنطقة » ويمضي ليقول :
«اننا لسنا بعيدين عن عصر يمتلك فيه
الجانبان صواريخ غير تقليدية متعددة
الرؤوس وعندما سيتم تحقيق توازن الرعب
هذا في خلال التسعينات او في نهاية
هذا القرن » .

لذلك نستطيع ان نحدد المزايا المطلوب
توفرها في اية طائرة مقاتلة تسعى اسرائيل
للحصول عليها مستقبلا ويمكن تلخيصها
في المعادلة التالية :

(سرعة عالية في حدود (٢ - ٢٥)
ماك + مدى تكتيكي كبير في حدود دائرة
نصف قطرها (٧٠٠ - ١٠٠٠) ميل +
مدة طويلة للتخليق في الجو (٤ - ٦)
ساعات + تسليح متطور في مجال
الرشاشات والصواريخ الموجهة جو - جو
وجو - أرض + حمولة خارجية كبيرة
تقع في حدود (١١٠٠٠ - ١٥٠٠٠ -
رطل + اجهزة تقنية متطورة هجومية
وملاحية) . وقد وجدت اسرائيل توفر
اكثرها الى حد ما في طائرة (فانتوم)
والى حد كبير في طائرة (ف-١٥)
و (ف - ١٦) .

الرائد الطيار حسين عويضة

مضمونة وايجابية ، فانه اليوم يحتاج الى
مضاعفة جهوده الى حد كبير ليتمكن من
الحصول على مثل هذه النتائج التي
اصبحت الى حد كبير غير مضمونة
ومؤكدة . لذلك رأت اسرائيل ان توسع
مفاهيمها في مجال استخدام الطائرات
المقاتلة وان توزع الادوار بين طائفة
واخرى . فطائرة (فانتوم) لم تعد
اليوم الطائرة السحرية التي بإمكانها
القيام بشتى المهام ، ان قدرتها اليسوم
تقتصر فقط على مهام الدعم الجوي للقوات
البرية مضافا الى ذلك اسناد بعض
المهام الاخرى اليها اذا ما سمحت الاوضاع
العسكرية بذلك .

لهذا وجدت قيسادة سلاح الجو
الاسرائيلي نفسها مضطرة للحصول على
طائرات حديثة قادرة على التفوق في
القتال الجوي على الطائرات العربية في
المعارك الجوية التي من المتوقع حدوثها
فوق جبهات القتال ، وحتى تتمكن
بواسطتها من تحقيق التفوق الجوي
وبالتالي - ان امكنها ذلك - السيطرة
الجوية المطلقة فوق سماء المنطقة كما تم
لها ذلك بعد حرب عام ١٩٦٧ . فكان لا
بد من الحصول على طائرتي (ف - ١٥)
و (ف - ١٦) حيث تأمل هذه القيادة ان
تتمكن بواسطتهما من المحافظة على ميزان
القوى الجوي وابقائه على حاله ، الى ان
تتمكن من ادخال اسلحة جديدة السى
ساحة الصراع - كما اعلن ذلك وزير

(موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية: رؤية نقدية)

رؤية جديدة لها مغامراتها الفكرية المثيرة .
وحتى لو افترضنا انها خلقت من هذين
العنصرين فانها تثير من الاسئلة بقدر ما
تجيب عليها .

مثال ذلك : هل يجوز لمؤلف بمفرده ان
يكتب موسوعة في موضوع ما - خاصة اذا
كان بالغ التعقيد ؟ وماذا عن المقدمة التي
يحاول فيها المؤلف اعادة صياغة المنهج
البنوي بما يتفق مع الرؤية الماركسية
للتاريخ ، ناهيك ان يكمل هذه الرؤية
بالمنهج البنوي ؟

واهم من ذلك كله ان الموسوعة في
علاجها للمفاهيم والمصطلحات الصهيونية
الاسرائيلية حاولت ان تكون تعبيراً عن كل
المحاولات العربية العلمية السابقة لمعالجة
الظاهرة الصهيونية فهل نجحت في ان تصل
الى القانون الذي يحكم بناء الصهيونية
كفكرة او نظام سياسي ؟

ولكن لننزل الحديث عن كل هذا السى
حينه .

دار الاهرام - مركز الدراسات
السياسية والاستراتيجية
القاهرة - ١٩٧٥

بعد جهد متواصل محسوم شبه فردي زاد
عن ثلاثة اعوام صدرت هذه الموسوعة
الرائدة . وكان التصور ان هذا العمل
سيثير شيئاً من الجدل ان لم ينجح في
اثارة الكثير من الاهتمام . ولكن ما قد
مر اكثر من عامين واقتنته معظم المكتبات
ولم يعلق عليه احد بخير او بشر سوى
بعض المجلات الاسرائيلية .

وهكذا تحقق توجس المؤلف من ان تكون
الموسوعة «قد ولدت ميتة» على حد تعبيره .
وربما يرجع ذلك الى ان الناس عادة لا
« يقرأون » الموسوعات وانما « يرجعون »
اليها بين الحين والآخر .

ولكن هذا التبرير وحده لا يخفي . فهذه
موسوعة عن قضية متفجرة مصيرية هي
الصراع العربي الاسرائيلي ، ثم انها

منها ان الاحتلال البريطاني لمصر وقع في نفس العام الذي بدأت فيه الهجرة الصهيونية الى فلسطين *

يبقى بعد هذا ملحقان آخران الاول اسمه « الفهرس الموضوعي » الذي رتب المصطلحات ترتيبا منطقيا موضوعيا وليس هجائيا . (بالمناسبة اكتشفت مع الاسف ان ترتيبنا الابددي - اجد هوز ٠٠٠ الخ - هو نفس ترتيب الحروف العبرية وليس العربية) . وقد رتب المؤلف الموضوعات ككل بدورها ترتيبا منطقيا بحيث يمكن قراءة الموسوعة ككتاب . (بهذا ربما يكون هذا الفهرس الموضوعي هو الاول من نوعه . فكل الموضوعات ترتب المواد ترتيبا موضوعيا ولكنها في الوقت نفسه ترتب رؤوس الموضوعات ذاتها ترتيبا هجائيا . اما هنا فالترتيب منطقي موضوعي) . وفي نهاية الموسوعة يوجد فهرس انجليزي - عربي بكل المصطلحات التي وردت فيها ليتمكن القارئ من استخدام الموسوعة كقاموس يسترشد به اثناء قراءته اي كتاب بالانجليزية كما يمكنه ايضا استخدامها كموسوعة في نفس الوقت .

وقد استهل الدكتور المسيري الموسوعة بمقدمة طويلة على طريقة ابن خلدون تتجاوز الخمسين صفحة حاول فيها ان يضعها في مكانها من الموسوعات التي سبقتها باللغات الاخرى . وقد بين حقيقة غريبة وهي ان هذه هي اول موسوعة يكتبها مؤلف غير يهودي (باية لغة) عن موضوع اليهودية والصهيونية واسرائيل . ثم ينتقل المؤلف بعد هذا الى موضوع المصطلح الصهيوني وترجمته مصاولا ايضا الاطار اللغوي الايديولوجي الذي اتبعه في ترجمة المصطلحات . ذلك ان المصطلح الصهيوني ليس مجرد مصطلح وصفي وانما هو مشحون ايضا بالدلالات والافتراضات . فمصطلح « الشعب اليهودي »

تقع الموسوعة في حوالي ٥٠٠ صفحة مطبوعة بالبنت الصغير ، حاوية اكثر من ٦٠٠ مدخل (مصطلح) تغطي كافة المصطلحات والاعلام الصهيونية والاسرائيلية ، وكذلك المصطلحات اليهودية التي قد تكون لها علاقة مباشرة بالصراع العربي الاسرائيلي ، وبالادب الذي كتب عن الموضوع سواء بالعربية او باللغات الاخرى . والمدخل تتفاوت طولها وقصرها حسب علاقتها بموضوع الصراع . فالمدخل عن « الطاليت » قصير اذا ما قورن بمدخل « الشعب المختار » لان الاخير له علاقة مباشرة بالفهم الصهيوني للواقع والتاريخ . والموسوعة علاوة على ذلك تحوي صورا كثيرة تسهم في تقريب الموضوع لذهن القارئ العربي .

وتضم الموسوعة ملحقا يسميه المؤلف « التاريخ المتزامن » وهو عبارة عن جدول باهم الاحداث التاريخية في العالم وما يقابلها زمنيا من احداث خاصة بالاقليات والتجمعات اليهودية . ويبدو ان مهمة هذا الملحق هو ان يبين عدم انفصال الوجود اليهودي عن الوجود الانساني عامة بعكس ما يزعمه المفكرون الصهاينة .

ولقد لاحظت في نهاية الامر - بشيء من الدهشة - ان لهذا التاريخ المتزامن فضلا في اعطاء الاحداث حجمها الطبيعي والنسبي . فمثلا مذبحه « كيشينيف » الشهيرة في روسيا التي تتحدث عنها التواريخ الصهيونية ليس حدثا فرديا موجهها ضد اليهود وحدهم وانما هو جزء من القمع العنصري القيصري لكل الاقليات غير الروسية (وكل التجمعات الثورية ايضا !) بغض النظر عن انتمائها الديني او العرقي .

فاذا كان عدد القتلى في حادثة كيشينيف (١٩٠٣) قد بلغ ٤٨ فان عددهم في موكب الاب جابون (عام ١٩٠٥) بلغ ٧٠ قتيلا . ثم ان الملحق يوضح حقائق تثير التساؤل ،

اربعين عاما على الاقل (انظر الاصحاح ١٢ في سفر القضاة بالتوراة) واكتفى المؤلف بالقول انهم استقروا فسي جنوب الشاطئ الفلسطيني « وتمكن الملك داود من التغلب عليهم ، الا انهم سرعان ما استعادوا استقلالهم » . واذا لاحظنا ان المؤلف افرد لهم في الموسوعة عمودا واحدا (مثلما افرد لشركة « العال » - ص ٨٢ نفس المساحة تماما) لحق لنا القول انه لا عذر له في هذا الاختصار .

اما الجزء الاخير من المقدمة فيعالج قضية المنهج . ولعل هذا الجزء من المقدمة هو الاضافة الحقيقية . ومناقشة المنهج تستحق مقالا مستقلا . والحق انها استأثرت بمعظم وقت الندوة التي اقامها البرنامج الثاني (الثقافي) باذاعة القاهرة فسي فبراير (شباط) ١٩٧٥ فور صدور الموسوعة وشارك فيها عدد من كبار خبراء الفكر السياسي . وحسبنا ان نشير هنا الى انه منهج يحاول دراسة العلاقة الجدلية بين « الشكل اليهودي » المحدد للظاهرة الصهيونية « ومضمونها الامبريالي » العام .

ويختتم المؤلف المقدمة بجزء عنوانه « مقدمة لدراسة اية ظاهرة صهيونية (اسرائيلية) » وهي محاولة لتحديد القوانين الاساسية التي تتحكم في الظاهرة الصهيونية ككل . ولعل اهم ما في هذا الجزء هو نظرية المحاور الثلاثة التي تدور حولها الظاهرة الصهيونية وهي : جيتو شرق اوروبا ، والمصالح الامبريالية فسي الشرق الاوسط، والبناء الاقتصادي السياسي الاسرائيلي . ثم يختم المقدمة بقوله : « اذا ما حللنا اسرائيل الى عناصرها الاولى لوجدنا معظمها مشتركا مع ظواهر اخرى وبعضها مقصور على اسرائيل . وكل هذه العناصر بتكوينها للبيئة الاسرائيلية هي مصدر خصوصية هذه الظاهرة . والدارس لا بد ان يرى الظاهرة في خصوصيتها

يفترض للوهلة الاولى ان اليهود يكونون شعبا وبالتالي يصبح البرنامج الصهيوني شيئا طبيعيا بل وتقدما . لهذا السبب ذاته لم يذكر المؤلف هذا المصطلح الا في مجال محاولة تفنيده مستخدما بدلا منه اصطلاح « الاقليات اليهودية في العالم » . كما يفترض اصطلاح « اليسار الصهيوني » او « الصهيونية الاشتراكية » امكانية التقاء الصهيونية والثورة ولذلك استخدم المؤلف اصطلاح « الصهيونية العمالية » ليعتد بالاصطلاح عن عالم التقييم ويقترب به من ارضية الحقائق الصلبة . بل ان المؤلف استحدث بعض المفردات العربية للتمييز بين الظواهر المختلفة التي يحاول المصطلح الصهيوني ان يؤكد وحدتها باستخدام كلمة واحدة للاشارة اليها . وهكذا فانه يتحدث عن دولة اسرائيل الحديثة وعن مملكة اسرائيل القديمة . وبالتالي يتحدث عن الاسرائيليين واليسرائيليين للتمييز بين بنائين تاريخيين لا يربطهما سوى المصطلح الصهيوني . ولكن هذا لم يمنعه من ان يقع في المحذور ، فقد استخدم كلمة « الفلسطينيين » بدلا من الطاء في معرض اشارته الى سكان فلسطين القدامى ، وبذلك افقد هؤلاء - بحرف واحد - صلتهم بالبلاد التي استمدت فلسطين اسمها منهم رغم انهم وفدوا من جزر اليونان اي انه كان اولى ان يسميهم « الفلسطينيين » من قبيل الانصاف الموضوعي التاريخي (لا القومي الانساني) . ولا يشفع للمؤلف هنا انه حاول استخدام التاء بدلا من الطاء فسي ترجمة مصطلح Philistines لابعاد الفلسطينيين عن شبهة دلالة هذه الكلمة التي « اصبحت مرادفة للشخص محدود الافق والثقافة والمنهمك في الاهتمام بالامور المادية » (صفحة ٢٨٤) . ثم انه اختصر هذا المصطلح الى حد انه اغفل حقيقة هام وهي ان « الفلسطينيين » حكموا كل ارض فلسطين بما في ذلك المملكة العبرانية

ويعالج الجزء الخاص بالحركة التعاونية اصولها البرجوازية الصغيرة (وليس العمالية) وكيف ان الهدف الاساسي منها هو الاستيطان الاحلالي . وقد طبق المؤلف منهجه البنيوي في المدخل الخاص بالاحزاب الاسرائيلية وتوصل في النهاية الى انها ليست سوى مؤسسات استيطانية اقليمية تقوم ايضا بدور الاحزاب ولكنها ليست احزابا بالمعنى المتعارف عليه .

ولعل من اهم اسهامات هذا العمل انه يحطم شيئا من الرهبة التي تحيط بالصهيونية واسرائيل في العقل العربي وهي رهبة مصدرها الدعاية الاسرائيلية وبعض الدراسات الادبية « الموضوعية » التي تكاد تحمل شعار « اخف نفسك » بحجة شعار « اعرف عدوك » !

ومن هذا القبيل الكتب التي تتعرض للمخابرات الاسرائيلية والتي اثبت كاتب الموسوعة ان رصيده هذه المخابرات من الفشل اكثر كثيرا من رصيدها في النجاح وان نجاحها اساسا يكمن في الاعمال القردية اكثر منها في العمليات المركبة (لعل هذا يفسر تحول المخابرات الاسرائيلية بعد حرب ٧٣ من نظام خلايا التجسس الى نظام تجنيد العميل الواحد بعد ان اتهارت معظم الخلايا الجماعية) .

ومن هذا القبيل ايضا المادة الخاصة بمسادا التي تبين ان التفسير الصهيوني الشائع لهذه الواقعة لا اساس له في الواقع وانها اسطورة يعتقد المؤلف ان الصهيونية تستخدمها لارهاب الاخرين باتجاهاتهم الشمشونية الانتحارية .

ربما كان التهديد باستخدام هذا السلاح الارهابي الانتحاري صحيحا ولكن السؤال: هل هذا السلاح موجود اصلا ؟

اي هل هناك فعلا ما يسمى عقدة مسادا ؟

يقول المؤلف ان اليهود كانوا اساتذة في « فن البقاء » بينما يقول المفكر الفرنسي

وفي تفاعل هذه العناصر كلها ، وهو تفاعل جديد كل الجدة لانه لن يقدر لكل هذه العناصر المشتركة وغير المشتركة ان تتواجد داخل بيئة اخرى .

بعد ذلك قسم المؤلف المداخل الى اربعة اقسام : اليهودية ، الصهيونية ، واسرائيل ثم الحركات المعادية للصهيونية .

ولعل اهم ما في الجزء الخاص باليهودية هو المدخل بمصطلح « التاريخ » فهنا يحاول المؤلف ان يميز بين ثلاثة مستويات من التاريخ : التاريخ المقدس - وهو القصص التوراتية المختلفة ، ثم تاريخ العبرانيين أو اليسرائيليين القدامى ، واخيرا تواريخ الاقليات اليهودية وهو الواقع التاريخي الحالي للوجود اليهودي . بعد هذا يحاول المؤلف ان يفسر اسباب ظهور الصهيونية كأيدولوجية معادية للتاريخ، ترفض الواقع التاريخي في فلسطين وواقع الاقليات اليهودية في المنفى . ويتضح منهجه الجدلي في هذا التفسير فهو يتعرض للتصوير التوراتي التاريخي وخاصة فكرة « الماشيح » او المسيح المخلص Messiah والعودة الى صهيون ، وهي فكرة يصفها بأنها دينية قومية زاد الشتات اليهودي حدتها ، ولكن الفكرة تظل مجرد فكرة الى ان تكتسب بناء تحتيا ، وهذا البناء التحتي هو اشتغال الاقليات اليهودية في أوروبا بالاعمال التجارية والمالية - وهي اعمال تتسم بالهامشية في المجتمع الزراعي .

اما الجزء الخاص بالصهيونية فقدم تصنيفا للمدارس الصهيونية المختلفة والنظام التصنيفي السائد الذي هو بالمناسبة نظام مثالي قرره الدراسات الصهيونية التي تحاول تعمية الواقع اكثر من تنويره . اما النظام التصنيفي الذي اقترحه الدكتور المسيري فيمتاز بأنه يحاول الوصول الى اساس واقعي لكل المقولات حتى يمكن فهم اصولها وتطورها وعلاقتها بالقوى المتصارعة .

بذكرى خروج اليهود من مصر ، بينما الثاني هو ذكرى صعود المسيح الى السماء والتوقيت بين الاثنين مختلف .

(٣) في الحديث عن طائفة السامريين (٢١١) اغفل المؤلف ذكر اسم كتابهم المقدس وهو « الترجوم » كما انه ذكر ان السامريين « بحكم دينهم ليسوا صهاينة » مع ان هذه الطائفة التي ظلت تعيش فترة طويلة مع العرب في نابلس وبعد انشاء اسرائيل قد تحولت بعد احتلال ١٩٦٧ للضفة الغربية واصبحت تشجع استيطان اليهود في هذه المنطقة . والاستيطان الاحلالي التوسعي هو من ابرز مقومات الدعوة الصهيونية . ثم انه اغفل الاشارة الى اختلافهم الواضح في شروط الزواج والمحرمات وموعد نهاية العالم وظهور الماشيح خصوصا وانهم الطائفة الوحيدة التي يمكن اعتبارها استمرارا للعبرانيين القدامى في مملكة اسرائيل . وهذه الميزة كانت تستحق افراد اكثر من نصف عمود لهم - رغم ضالة عددهم .

نتقل الى الجزء الثاني من الموسوعة وهو الخاص بالصهيونية . ولعل اهم ملاحظة تستحق الاشارة هنا هو ان الموسوعة قد اشارت الى « الاندماج » Assimilation على انها مرادفة في نظر الصهيونية لمصطلح « الانصهار » Dissolution رغم الفارق بينهما من حيث ان الاندماج « هو ان يصبح الانسان جزءا من كل دون ان يفقد بالضرورة صفاته الخاصة » اما الانصهار والذوبان فهما يفترضان فقدان الجزء لسماته الخاصة . « ولكن لماذا لم يكن هناك اي ذكر للبديل الصهيوني المشهور في هذا الصدد وهو مصطلح Intergation not assimilation اي (التكامل وليس الاندماج) الذي ينصح به الصهيونيون اليهود خارج اسرائيل ؟ بل لماذا لم يشر الى مصطلح هام آخر في هذا

اليساري اليهودي ماكسيم رودنسون المعادي للصهيونية ان التاريخ اليهودي « قل بنزعات الانتحار الجماعي » وهذا الانتحار بالجملة كان لازما لبقاء النوع مثلما تفعل القتران عندما تتكاثر الى حد يهددها بالموت جوعا فلا يكون امامها سوى ان تفرق الاغلبية نفسها كي تعيش الاقلية وتحول بذلك دون انقراض النوع . ويؤكد ذلك ان « الوعي الزائف » الغيبي الذي يتصف به الفكر الصهيوني لا يتعارض مع سمته « الخبوية » النتشوية لانه يستهدف « البقاء للأصلح » . وليس كثيرا على اولئك اليهود الذين يجمدون التاريخ لحساب الجغرافيا والتوسع ان يحثهم تفكيرهم الغيبي ووعيهم الزائف على قياس الامور قياسا خاطئا بمعيارين . وازدواج المعيار سمة معروفة بين الصهيوتيين عامة لانه يستمد جذوره من السمة النفسية المشتركة بين اليهود جميعا وهي تقسيم البشرية الى نوعين : يهود واغيار . وهكذا ينتهي احساسهم دائما بالتميز الى رفض مبدأ احتمال الهزيمة ، ومن هنا تأتي كارثة الانتحار دون وعي او ارادة . يوصلنا هذا الى مسادا وهي تقع في الجزء الاول من الموسوعة الخاصة باليهود واليهودية ، فاستكمل الحديث عما يستحق النقد فيها على سبيل المثال :

(١) في صفحة ١٤١ تقول الموسوعة ان تدوين التلمود بدأ مع بداية العصر المسيحي ولكنها في الصفحة التالية مباشرة تقول ان كتابة المشناه (وهي احد جزئي التلمود) قد بدأت عام ٢٠٠ قبل الميلاد .

(٢) رغم ان الفهرس الموضوعي اشار الى « عيد الفصح او الفصح » الا ان الاكتفاء باستخدام كلمة « الفصح » فقط داخل الموسوعة (ص ٢٤٠) ليس له تفسير فاليهود العرب يشيرون الى هذا العيد باسم « الفصح » للتمييز بينه وبين عيد الفصح المسيحي . فالاول هو الاحتفال

المساحة التي أصبحت عليها بعد ان تجاوزت حدود التقسيم لعام ١٩٤٧ . ومثل عدد السكان وحتى تاريخ انشاء الدولة .

٣ (المستوطنات الجديدة التي اقيمت في الارض المحتلة بعد ٦٧ بحجة ضمها لاسرائيل وهي تتجاوز المائة لم تذكر في باب الاستيطان .

٤ (لم تكن هناك اشارة الى لوائح الدفاع او قانون الطوارئ Defence Regulations صحيح انها صدرت في عهد الانتداب البريطاني ضد الارهاب الصهيوني بالذات ، ولكنها أصبحت بعد قيام اسرائيل الركيزة الرئيسية للسياسة العنصرية للدولة ضد العرب . وهذه اللوائح لعبت دورا كبيرا في اداة الجمعية العامة للأمم المتحدة للصهيونية بانها حركة عنصرية في ١٠ نوفمبر (تشرين الثاني) عام ١٩٧٥ .

٥ (ذكرت الموسوعة ان معدل الهجرة ١٦٦ مع انه بلغ عام ٧٤ حوالي ١٢٢ (صدرت الموسوعة في فبراير ٧٥) وهذه النسبة هي نسبة المهاجرين في ذلك العام . وما دما نتحدث عن الهجرة فقد ذكر الكتاب ان معظم النازحين من اسرائيل (ص ٤١٥) « من الطبقات الدنيا » ولكنه لم يذكر ان الجزء الاكبر منهم من الاكاديميين والمهنيين المتعلمين .

يبقى امامنا الجزء الرابع والاخير وهو حركات الرفض اليهودي الاسرائيلي للصهيونية . واعترف انه كان من الصعب تتبعها بعد تكاثرها في اعقاب حرب اكتوبر (تشرين) ١٩٧٣ ، ولكن جميع الحركات التي ذكرها هذا الجزء ترجع الى ما قبل الحرب الاخيرة (حركة الكنعانيين - سياح (اليسار الجديد) - الفهود السود الماتسيبين - راکاح . الخ) لكنه اغفل اسماء عدة منظمات ظهرت قبل الحرب مثل

الصدد وهو «الاستيعاب» Absorption رغم ان الرؤية النقدية التي هي سمة الموسوعة كانت تقضي بالاشارة الى فشل هذا الاستيعاب في داخل اسرائيل نفسها حتى لدى الصابرا بدليل ان الاغلبية الساحقة من النازحين عنها هم من مواليد اسرائيل نفسها . فكيف يكون اذن حمال اليهود الشرقيين بل السوفيات ايضا ؟

كذلك لم يشر المؤلف في القسم الخاص « بمعاداة السامية » الى القهيلات وانما اشار الى (القهال) في قسم اخر ومع ان الكلمتين تحملان نفس معنى (جماعة او جمعية) في الاصل الا ان كلمة القهيلات بعد قيام اسرائيل أصبحت منظمة سرية قوية داخل المؤتمر اليهودي العالمي . اما عن الجزء الثالث الخاص باسرائيل فاسوق على سبيل المثال كلمة « اسرائيل » نفسها . صحيح ان الموسوعة رؤية نقدية ولكن من الخطأ الجسيم ان نقرر لمصطلح «اسرائيل» نصف عمود فقط ثم نقع في المزالق التالية:

١ (القول ان كلمة اسرائيل « استخدمت للاشارة الى مملكة اسرائيل القديمة » مع انها كانت اشارة الى اليسرائيليين في ارض كنعان (سفر التثنية ١١ - ١٢) بدليل ان « مملكة » اسرائيل القديمة لم تستمر الا من عهد ملكهم الاول شاول حتى وفاة الملك سليمان (اي من عام ١٠٢٥ حتى ٩٣٣ ق.م) اي لمدة ٩٢ عاما فقط . وبعد ذلك انقسمت الى مملكتين : اسرائيل ويهوذا . فما المقصود هنا « بمملكة اسرائيل القديمة » اذن ؟ ؟

٢ (عدم ذكر ان حدود اسرائيل الحالية ليست حدود مملكتي اسرائيل او يهوذا القديمتين (فكلتاها تقعان في الضفة الغربية) . وهو ما لم يذكره المؤلف في هذا الموضوع بالذات (وربما ذكره عرضاً في موضع اخر) . ثم ليست هناك اشارة الى الحقائق الاساسية عن اسرائيل مثل

خصوصا من الفلسطينيين مثل الدكتور الياس شوفاني من مؤسسة الدراسات الفلسطينية . كما قام احد طلبته وهو السيد ناجي عبد المنعم بعملته عشر ساعات يوميا لمدة عشرة شهور تقريبا وكان له الفضل الاكبر في تنفيذ تيوب مواد الموسوعة .

ومع ذلك كله لم يسلم المؤلف من اتهام بعض الباحثين في اليهودية والصهيونية له بالاسامية مع انه افرد بابا خاصا بعنوان « معاداة السامية » وعدد فيه بعض مظاهر عداوة اليهود وانكر صحة بروتوكولات حكماء صهيون . ثم انه زيادة في الحرص لم يدخل بعض المصطلحات مثل مجمع « القهिला » ومجلس « السانهدرين » في هذا الباب وانما تحدث عنها باعتدال وموضوعية بالغة في الوقت الذي يصر فيه المؤمنون بفكرة « المؤامرة اليهودية العالمية » على ان هاتين المنظميتين تسعيان للسيطرة على العالم لتنصيب ملك عليها من نسل داود .

خلاصة القول انه بسبب شمول هذا العمل الذي يتخطى قدرات اي فرد واحد كان لا بد ان يقع المؤلف في عدة اخطاء لعل من اهمها المواد التي تقع خارج تخصص المؤلف (رغم ثقافته الموسوعية العميقة) بحيث لم يوفها حقها . والمواد عن العسكرية الصهيونية والجوانب الاقتصادية مختصرة للغاية بالقياس للمواد التي تعالج مواضع تاريخية او فلسفية ، كما انه كان من المفضل كثيرا لو اضاف ارقام الصفحات امام كل مصطلح فسي الفهرس الانجليزي - العربي في نهايه الكتاب لتسهيل الرجوع اليه . ولا يمكن تفسير هذا الوضع الا على اساس انه جهد فردي يعكس اهتمامات وقدرات المؤلف ككاتب ملتزم كان يبحث عن قضية يتبناها .

الجماعة الاسرائيلية المناهضة للاضطهاد (في اسرائيل) ولجنة تأييد تحرير الشرق الاوسط (في الولايات المتحدة) .

وهناك منظمات اخرى لم ترد في الموسوعة وربما بدأ ظهورها قبل حرب تشرين وان كانت قد برزت بوضوح بعدها ومنها مجموعة « البحث عن العدالة والمساواة في فلسطين » (وتسمى (سيرتش) اختصارا ، ولجنة « تقديم بدائل جديدة في الشرق الاوسط » وكلاهما من المنظمات اليهودية في الولايات المتحدة . هذا عدا الكثير من المنظمات اليهودية المناهضة للصهيونية في امريكا ذات الحجم الصغير والتأثير الكبير مثل جمعية « التحالف الراديكالي العربي - اليهودي » في سياتل غرب امريكا . الخ . واعتقد ان الدكتور المسيري الذي يقيم حاليا في امريكا قادر الان على معرفة المزيد منها داخل اسرائيل وخارجها .

نقطة اخيرة طيبة وهي ان الموسوعة تتميز بقلة الاخطاء المطبعية وحبذا لو تنبه المؤلف الى اخطاء في الترجمة او في الارقام مثل (كاركاو) وصحتها (كراكوف) بالبولندية . ومثل اسم ابن سليمان «جريعام» (ص ٤٦٢) وصحته «يربعام» ومثل القول ان مصر من بين البلدان التي يتراوح عدد اليهود فيها حسب احصاء ١٩٧٢ بين الف وخمسة الاف مع ان الرقم الصحيح هو دون ٣٥٠ فردا . من هنا فان مشكلة التحديد في الحقائق والارقام كانت من بين المشاكل الكبرى التي واجهت مؤلف الموسوعة . والحقيقة ان المؤلف اثناء قيامه بانجازها قد قابل مشاكل ادارية كثيرة اخرى غير ذلك . وكان من اهمها انتقاده للسكرتارية ولجهاز الباحثين ولهذا كثيرا ما كان يلجأ لمن يتطوعون بالعمل دون اجر

يعمل مستشارا ثقافيا لمكتب الجامعة العربية في مقر الامم المتحدة بنيويورك - انه حاول جذب اهتمام هيئة عربية لتؤلف لجنة باحثين تستخدم الموسوعة الحالية كنقطة بدء وكإطار للبحث يمكن طرحهما - بالمناسبة - بعد تخطي المراحل الاولى - وقد سافر الى امريكا متألما لانه لم يجد اهتماما كافيا بهذا المشروع فقد كان يريد توظيف بعض الخبرات التي تراكمت لديه ، كما كانت لديه بعض الاسئلة التي تتطلب الاجابة عليها لجان من الباحثين . ومن هنا قرر في غمرة احساسه بالاحباط ان يقول كل ما عنده في موضوع الصهيونية وان يكف عن الكتابة عنها ويتفرغ لاصدار كتاب « عن موقف العرب من فكرة التقدم » .

ولكن الدكتور المسيري سرعان ما استيقظ من سباته الشتوي بعد الحملة الضارية للصهيونية عقب ادانة الامم المتحدة لها بالعنصرية ، بحيث وجد نفسه غارقا في القضية حتى اذنيه من جديد فأرسل مقالا الى جريدة نيويورك تايمز وفوجيء بأنه لم ينشر فيها وحدها وانما في جريدتين اخريين . وبعد ذلك انتهالت عليه الدعوات من الجامعات ومحطات التليفزيون المحلية الاوروبية للقاء محاضراته او الاشتراك في مناسبات سياسية . وهكذا طساف الولايات المتحدة وبالطبع ساعده على ذلك انه اصلا استاذ في الادب الانجليزي وبالذات في الشعر (وهو ميدان تخصصه) وكان اول منشوراته هو ترجمة مختارات من اشعار المقاومة الفلسطينية في الستينات .

واخيرا فان المؤلف - وهو بالمناسبة يعد الان كتابا بالانجليزية عن الصهيونية والعنصرية - كان قد نيه في مقدمة موسوعته الى ان هذه الموسوعة رغم قصورها كان لا بد ان تكتب وتُنشر بسبب الضرورة التاريخية الملحة . . . والعرفة

وقد عثر عليها بعد فترة شك طويلة خلال دراسته في امريكا واثناء ذلك كانت مناقشاته المحايدة مع الصهيونيين تكشف له شيئا فشيئا عن زيف الوعي الصهيوني بالتاريخ والشعرات الفكرية القائمة في الفكر الصهيوني عامة . . . وهكذا كان لزملائه في الجامعة من الصهاينة الفضل الاول في ابراز طبقة الثلج الهشة التي يقفون عليها دون احساس بتيار التاريخ الجوفي الذي لا ينقطع تدفقه من تحتها . ومنذ ذلك الحين عثر على نفسه واصدر عدة كتب نبي اقل من عامين كان اولها « نهاية لتاريخ - مقدمة في دراسة بنية الفكر الصهيوني » .

اما بين المسائل الفلسطينية فان الدكتور المسيري كان يعترف ايضا بشجاعة انه لا يعرف عنها الكفاية لان اهتمامه الاول كان تجريد الخصم من اسلحته الفكرية والعقائدية وبهذا يفقد مبرر وجوده . ومع ذلك لا بد ان يهتز القارئ حين يرى اول ما في الموسوعة عنوانا كبيرا هو « امام الله والامة والتاريخ » . وهذه كلمة كونية « باسكالية » وردت في قرارات المؤتمر العربي الفلسطيني في اغسطس (آب) ١٩٢٢ . ومع ذلك فالكثير من الفلسطينيين انفسهم لم يسمعوا حتى عن هذا المؤتمر او على الاقل قراراته .

وربما يسعد المؤلف لو علم ان اجتماع مجلس منظمة اليونيسكو العربية الاخير في بغداد في اواخر ابريل (نيسان ١٩٧٦) قد اُنصب على موضوع واحد فقط هو اخراج موسوعة فلسطينية في غضون ثلاث سنوات ورصد المبلغ اللازم لها بعد تأجيل عدة مرات، وبهذا تحققت أمنية المؤلف بطريقة اخرى غير متوقعة . فقد كان في الاصل يتمنى مولد موسوعة عربية شاملة (وقد بدأ ذلك ايضا يتحقق) . واذكر انه قال لي قبل سفره الى الولايات المتحدة حيث

وهدما يشفعان له • ونقط القصور التي
اشرنا اليها لا تقلل بحال من قيمة هذا
الانجاز التاريخي العظيم الذي قام به عالم
شاب لم يكن فلسطينيا بالمولسد وانما
بالاختيار بعد رحلة طويلة مضية من الشك
والحوار والنقد الذاتي •

« محمد احمد رمضان »

في نهاية الامر حوار مع الذات وجدل مع
الواقع •• ولتكن هذه الموسوعة هي
الاطروحة البسيطة والحد الأدنى المعرفي
المبوب • (ص ١٧)
والحق انه رغم اعتراف المؤلف بشعوره
بحدود قدراته الفردية فان وحدة العمل
والبناء التصنيفي الفكري في عمله هذا

للغبار ، لشحمدين ،

للأدوار الفريسة ، وأدوار المسالك

من الوعي ، الا ان ما يجب ملاحظته هو
النتيجة الهوائية التي وصلت اليها عبر
افتعالها لمعارك جزئية غير مجدية في
الواقع •

اما لماذا حدث ذلك ؟ فليس من الصعب
الاستدلال على السبب الرئيسي المتعلق
بالمضمون السياسي - الاجتماعي لمثل هذه
التجارب • لقد استمرت هذه التجارب في
القتال لكسي تصب في صالح برجوازية
تابعة غير مستقلة ، وغير مستقلة ثقافتها ،
وعاجزة بالضرورة عن خلق هذه الثقافة
المستقلة ، وبالتالي توظيف هذه التجارب
في اطار استقلالها الثقافي •

والآن • وقد انتهى هذا كله • فالى اين
نتجه في هذه المهمة ذاتها ؟

كما واننا لا بد ان ننطلق بالضرورة من
التراث النضالي الذي شكلته البرجوازية
في بلادنا ، لصياغة ادواتنا الجديدة
وتعبيراتها السياسية وبرامجنا الجديدة ،
من أجل حسم المعركة ضد القوى المضادة
لصالح الطبقة العاملة العربية • كذلك ،

منشورات فلسطين الثورة •
بيروت ١٩٧٧ •

هناك ضرورة للتأكيد باستمرار على
احدى المهام الرئيسية التي تقع على عاتق
العمل الفني (النثري والشعري) ، وهي
العمل الحثيث والدقيق والمواظب على
تفسير البنية الداخلية للغة ، وذلك
من حيث كونها اداة لاستمرارية قيم
الاضطهاد والقهر والخنوع التي تغطي
حقبة طويلة من تاريخ بلادنا •

نلاحظ في تجارب البرجوازيين المغتربين
في هذا الشأن ، سواء كان اغترابا
باتجاه الغرب البرجوازي ، او باتجاه
الثقافة التراثية التي تختلط بها عناصر
السلفية والتجديد والخنوع للطبقات
الحاكمة والخنوع للقوى الاستعمارية •
ورغم اننا لا نتخذ موقفا مضادا كليا لمثل
هذه التجارب • ورغم اننا لا ننكر تأثيراتها
الاجابية في رجرجة هذه الكتلة المتكلسة

واهمها) . هي ملح محدد وواضح وبارز في خريطة لغة هذا الشاعر . اي خريطة هذه القصيدة تقريبا .

وفي هذه اللغة . وفي هذا الشعر تتحقق نتيجتان :

١ - المساهمة في تحطيم سلطة الماضي القريب والبعيد وتأثيراتها .

٢ - رسم المؤشرات الى طريق المستقبل (ليس الابدسي فقط ، بل السياسي - الاجتماعي - الثقافي) .

شمدين .. رمز الانفجار التاريخي :

في شمدين يكون هذا الشاعر . في صبواته الواضحة ، في اندفاعه افرزتها عوامل وعناصر متعددة ، يأخذ بحرق بلوراته . يضطرم جوفه بحريق الحلم الشاسع ، ويضع نقطة على الحرف :

«هذا اشتعالي في غد ليس اتهداما ، بل غد متجانس ، وتري لحداديه صرخة مترف اذ ينحنون على معاندتهم ، ويحتفلون بين شرارة وشرارة بنظام خلق مترف .. هذا اشتعالي .»

حين أجعل جذر كل مقاتل كبدا يجبر على الرمال

امة ، واهيء الاشياء في احزانها ، واصبح مرتجفا : تعالي « ص ٣٢

ويحدد موقفه السياسي - الاجتماعي بكل الوضوح الممكن (كي لا يتفاجأ الذين يضعون الصحراء بين الشعر وبين الموقف السياسي) :

«اعلن : «لامجالس ، والحكومات انقسام ضمن منظوماتها ، ونقابة العمال غير نقابة العمال ، والاحزاب تستوفي شروط حضورها في جدول الطبقات ، والمتوسطون لدى المدينة يحملون ثساءهم كدريئة ، والبرلمان دعاية ، والحكم اخسر لعبة في المترهات الخاسرة » ص ٣٣ . اين يصب هذا الموقف ؟ هذا ليس مهما

وفي نفس الاتجاه ، لا بد من الانطلاق من تجارب الثقافة البرجوازية العربية المعادية للامبريالية في تدمير البنية السلفية للغة العربية ، وخلق اسس جديدة للثقافة العربية عامة . وذلك لبناء الاساس الثقافي والوجداني لسلطة ديكتاتورية الطبقة العاملة العربية ، من خلال ، وفي ، حماة الصراع الطبقي - القومي السذي

تزداد حدته كل يوم . وهكذا تجيء مهمة المساهمة في تدمير البنية الداخلية للغتنا العربية هي الخطوة الاولى في طريق بناء هذا الاساس .

وفي هذا الاطار يقع سليم بركات ولغته . وما الرهان عليه في هذا المجال الا بسبب التنامي الذي يمكن ان يبرى - ولا بد ان يتم التاكيد عليه دائما ، وتشبيته ودقعه - في الاتجاه السياسي - الاجتماعي الذي يعبر عنه هذا الشاعر ..

ان تكسيير دلالات الحرف ومخرج الصوت فيه ، ونمط التأثير الذي يفعله ، وتكسير المقننات التي تم استخدامها وبليت ، وتهيئة قنوات جديدة لاستقبال لغة الصراع التاريخي القادم ، هي المهمة التاريخية - دون مغالاة - التي يحملها شعر سليم بركات في خصوصيته .

ولانريد ان نقول انها مهمة متفردة يحملها هذا الشعر وحده ، بل ان اسماها اخرى قائمة ، ولا بد ان تقوم وتتأسس ، سوف تحمل هذه المهمة لتحقيقها .

وهناك ضرورة فعلية للبدء باقامة العلاقة واستيعابها بين هذه اللغة وبين اللذة الناتجة من الصرير اليومي لحركة الواقع . بين هذه اللغة وبين زواقات الغبار المنتظرة اناؤها . بينها وبين الفجل الحاذق يجس اناؤه . بينها وبين الجوع العام والشائع والمنتشر والمتعدد الوجوه .

ان هذه العلاقة بين هذه اللغة وبين التثوات اليومية لحياسة الجماهير ، جزئياتهم الدقيقة المغمورة باللهاث وراء السرابيات المتعددة (الخبز احدها

وتساء «بريغا» يحزمن لشمدين جسارتهم
مع البرسيم الاخضر ، او يحزمن العصر
ويتمتمن : «لعصرك ياشمدين سيبتدي
العصر» .

ويرى شمدين خلف قوائم بغلته الشمراء
متاريسا ويتادق تغلو ، ولغات مستعجلة
كصغار البيط ، وحلما يتدحرج من ابواب
الثكنات ، وفلاحين يجرون سلالا مثقلة
بنجوم وباحذية .

ويراهن ان نشيدا كنشيدته يعلو خلف
قوائم بغلة شمدين .
ويراهن ان بويها سيقامر بالانسان
على مائدة الطبقات .

لكنه سيكون المجزرة الاكثر جذرا في
الحليات .
هو الوحشي وقد اشعله الوحشي .

وليس هناك أكثر وضوحا في كل ما هو
قائم في معرفة ماسيجري . ان هذا
الشعر يسبق كل الوسائل الاخرى في
اكتناه حركة المستقبل . انه يتجاوز نفسه
حتى ليرسم خطوطا اقل عمومية في
خريطة المستقبل . انه يعرف الافق ويعرف
الوان الافق ايضا .

ومركز الثقل في هذا كله هو اتساع
الدائرة التي تشكل لشمدين انتماءه
الايدولوجي والسياسي والحضاري . ان
اقانيمه لاتطبق هذه الفسيفساء الراهنة ،
انه في قلب الدائرة كلها، في قلب
الامة كلها .

تتوحد الامة ، وتتجاسر ، وتبيح كل
الدم ، وتنسج الفعل الباهر ، وشمدين
رمزها المتاله المتوحش الجسور الاباحي ،
«حلوا كدم ، وجرينا كالانقاص» وسعدو ،
وهو الوحشي العارم مثل خلاف الاضداد،
جريا في رعد الفاجعة ..

فاتنتظروه .

«هذا شمدين ،

وهذا انشاد المصلصال الحي لشمدين»
سميح سماره

كثيرا ، لانه من السذاجة ربط الشاعر
بحزمة شروحات الموقف السياسي . هذا
ليس مهما . ان المهم هو ان يظل الشاعر
يدفع بالسهول «نحو ميعاد الجنون ،
ووردة الفتح البديل» ٣٥ فهو يتحدث
«باسم الحليات الكبرى» . ان المهم هو ان
يصب الشاعر في عمق الرحابة .
ان الهم من هذا كله هو حدس
الاستباق الذي يشغل هذا الشعر ، بما
يعني اساسا من اعتناق من مشاغل
الالتزام بصيغ الحاضر ومكتسباته
واجفاته . وبما يعني من التحام بأفق
الحلم عبر الحضور الخلاق والمكلف في
ومضاته المتناثرة . وبما يعني ذلك كله من
القبض على المسؤولية التاريخية في
الدائرة العامة .

ان هذا الشاعر يبدأ الان « مستبقا
مايومض او يتوالد من اقدار يلججها
الحلاجون» انه يشهد «مايشهده الحوذي
على مركبة خلف الثدييات او ان تميل
الارض ، ويجتاح مدارجها المحظوظون
باقنعة الفوقس ، او تجتاح مدرجها
القديسات حبالى ينثرن كواكبهن على
النعمة مترا مترا ، وينادين الحي المرئي
«تعال الى طرف لا تملكه» ، وتعال السني
الاقنعة الكبرى لحروب لا تملكها « ٤٥
التوحش . الجسارة . الاباحية ،
انها اقانيم شمدين الثلاثة ، وهي وسائله
وأدواته للوصول الى الشعر والى
التكامل . بغير هذه الاقانيم لا يكون اطلاقا
غير البهوت والبلادة والتخثر
والانسجومات الضيقة الحلق ، المختنقة
في زوايا المصالح الراهنة .

انها الضرورة البالغة ، لان المدن
والقرى لا تبدو الا « كحزمة قش في عريات
الاكرا» . انها الضرورة البالغة كي
يمكن دفع شمدين الذي «يجاهر في نجر
ضد الامر في الثكنات ، وضد الدولة
والميراث المزحوم بروث الحيوان « ونحو
« الابدع في الانشاد الوحشي » .

ويرى شمدين على بغلته الشمراء يغني
اغنية الكردي محاطا بنساء «بريغا»

أولاد إسرائيل

Schifra Strizower : The Children of Israel ; The Bene Israel of
Bombey , Oxford Basil Blackwell , 1971

السبب الباحثة الى محاولة استيقاه المعلومات من المنبع مباشرة وذلك بالسفر والاقامة بين تلك المجموعة فترة من الوقت وتقديم دراسة انثروبولوجية سوسولوجية هامة وفريدة من نوعها .

الكتاب يقع في ١٧٦ صفحة ويحتوي على ثلاثة فصول رئيسية : فبينما تحاول الدارسة في القسم الاول التعريف بتلك المجموعات المختلفة من يهود الهند ، تركز في القسم الثاني على محاولة دراسة الازواج الاجتماعية والاقتصادية لـ « بني اسرائيل » والفروق الاجتماعية بينهم وبين المجموعات الاخرى من يهود الهند وعلاقتهم مع باقي يهود العالم . ومع المجتمع الهندي . اما في القسم الثالث والآخر فتلقي الدراسة الضوء على الجوانب الدينية والثقافية والعادات الاجتماعية داخل المجموعة نفسها .

في محاولتها لتتبع الاصول التاريخية لـ « بني اسرائيل » تذكر الدارسة انهم ينحدرون من مجموعة كانت قد وصلت الى شواطئ الهند الغربية منذ عدة قرون ، الا ان الدراسة لم تتبن نظرية واحدة حول تاريخ وصولهم أو حول مكان وجودهم الاصيلي أو الكيفية التي يمكن ان يكونوا قد وصلوا بها الى شواطئ الهند . فتورد مثلا تلك الرواية الاسطورية التي يرويها « بني اسرائيل » انفسهم عن انحذارهم من احدى القبائل العشرة ، التي تشتتت خارج فلسطين بعد سقوط مملكة ساماريا على

لقد بقي تاريخ تلك المجموعة القليلة من يهود الهند مجهولا . ولم تحظ اوضاعهم في السابق باهتمام اية جهة ، ولولا تلك الضجة التي أثيرت حولهم مؤخرا في اسرائيل لامكن الافتراض ان دراسة اوضاع تلك المجموعة ستظل خارج دائرة الضوء والاهتمام سنوات اخرى طويلة . ففي بداية الستينات ومع هجرة بعض المجموعات من يهود الهند الى اسرائيل علت أصوات داخل اسرائيل تشكك في يهودية هؤلاء الوافدين الجسد وتطالب بالتحقيق في مدى نقاوة يهوديتهم ، وأصدر رئيس الحاخاميين لليهود الشرقيين (السفارديم) قرارا في فبراير ١٩٦٢ بضرورة اعادة النظر والتدقيق في عقود الزواج الخاصة بافراد تلك المجموعة .

تعيش في الهند مجموعة من اليهود قدرت في الاربعينات بحوالي ٢٦ الفا ، هاجر منهم قرابة عشرة الاف الى الخارج ، بصورة خاصة الى اسرائيل وانجلترا ويقدر عددهم الان بـ ١٦ ألفا . تعرف المجموعة الرئيسية منهم باسم «بني اسرائيل» وعددهم ١٣ ألفا يتمركزون في مدينة بومباي وضواحيها وهذه المجموعة هي موضوع البحث في هذه الدراسة .

الدراسة في الاساس اطروحة للدكتورة تقدمت بها الكاتبة الى جامعة لندن ، ولعل ندرة الدراسات حول الموضوع يعط الكتاب هنا أهمية خاصة ، وقد دفع هذا

اليهود البغداديين ويشاركونهم النشاطات الدينية والاجتماعية .

لقد اندمج « بني اسرائيل » وعبر تاريخ طويل في المجتمع الهندي ولم يكن اختلاف الدين مع الفئات الدينية المحيطة بهم كالهندوسية والاسلام والمسيحية عائقا امام ذلك . لم يكونوا حملا للاضطهاد ولم يعرفوا حياة «الجيتوات» او المشاكل التي تواجهها بالعادة الاقليات الطائفية كما حدث بالنسبة لليهود في شرق أوروبا في القرن الماضي وبداية هذا القرن . ان قلة عددهم التي لم تصل الى حد اعتبارهم اقلية طائفية ، قد سهلت عملية اندماجهم . وهم لم يشغلوا مواقع اجتماعية متميزة وسط مجتمعهم وكما قال (Taya Zihkin) في مقالته عنهم « انهم اليهود الاكثر فقرا في العالم » ، معظمهم من صغار الكسبة من موظفين حكوميين : كتبة ومعلمين رجنود ، واختلاف الدين بالنسبة اليهم لا يحمل اية مدلول اجتماعي وطبقي تميزهم عن باقي فئات المجتمع .

ان « المارتي » (Marthi) - اللغة الرئيسية في غرب الهند هي اللغة الام لبني اسرائيل وبعضهم يتكلم الانجليزية أيضا . وقد تبنا الكثير من المفاهيم الليبرالية في الدين التي تميزهم عن يهود الغرب وتخلصوا من بعض الخصائص الكهنوتية في الدين التي يعرفها ارتوذوكس الغرب من اليهود منهم مثلا لا يعرفون نظام الحاخامية او النخبة الدينية المتميزة عن باقي افراد المجموعة بسبب معرفتها وتفريغها لامور الدين ، فالمعلم الديني يقوم بوظيفة اجتماعية انسانية ، والمعابد اقرب الى مراكز النشاطات الاجتماعية من أن تكون عرضة مخصصة فقط لممارسة الطقوس الدينية (ص ١٤٤) .

من جهة اخرى ، فانه على الرغم من قلة عدد اليهود في الهند الا ان الفوارق بينهم ، من جهة ، وكذلك بينهم وبين باقي المجموعات اليهودية في العالم ، عميقة .

يد الاشوريين ، وان سفينة اجدادهم «السبعة» قد تخطت على ساحل الهند الغربي . هذا بينما تورث رواية اخرى عن احتمال قدوم « بني اسرائيل » من الجزيرة العربية . و« بني اسرائيل » ينقسمون الى فئتين : الجورا (Gora) بنسي اسرائيل البيض ، والكالا (Kala) بنسي اسرائيل السود ، وهذا التقسيم بين البيض والسود لايعكس اختلافا في لون البشرة بقدر مايعكس اختلافا في المكانة الاجتماعية المستندة بالاساس الى علاقات اجتماعية شبه عشائرية . وكما لاحظت الباحثة (Strizower) فلون البشرة الابيض كان يعتبر بحد ذاته امتيازاً اجتماعياً خلال فترة السيطرة الكولونيالية على الهند (ص ٤٧) . وضمن هذا السياق أيضا يمكن فهم ادعاء الجورا بان الكالا ليسوا سوى سلالة عبيد اجدادهم الذين وفدوا بالاساس مع قوافل التجارة وحافظوا على نقاوة يهوديتهم (ص ٦٥٥) ! يوجد كذلك في الهند يهود الكوهن (Cohin Jewry) - ٢٥٠٠ - هاجر معظمهم وبقي منهم في الهند - ٢٥٠ - وهم بدورهم ينقسمون الى فئتين : «بيض وسود» وان كان معظمهم من «السود» ويلحق بهم ضمن هذا التصنيف مجموعة اخرى تدعى الماشراريم (Mashuararim) ويلتف بعضهم حول البيض من الكوهن والقسم الاخر حول السود من الكوهن . بالاضافة الى المجموعات السالفة فانه يوجد في الهند حوالي الفين من « اليهود البغداديين » (Baghdadis) الذين وفدوا مؤخرا الى الهند في اواخر القرن الثامن عشر . يقيم ٩٠٠ منهم في بومباي بينما يتوزع الباقون في بونا وكالكوتا ويحظون بمكانة اجتماعية متميزة وبشراء ملحوظ ، بالمقارنة مع باقي يهود الهند . يضاف اليهم بالعادة بضع مئات من اليهود الاوروبيين ، الذين مازالوا يقيمون في الهند ، جاء معظمهم من المانيا والنمسا ، وهم قريبيون اجتماعياً من

ورفضوا على الدوام كل مامن شأنه ان يوجد نوعاً من ازدواجية الولاء عندهم ٠٠ فهم هنود وهنود فقط (ص ٥٢ ، ١٤٤) ان تلك الحجة التي تطرح للتشكيك هي يهودية « بني اسرائيل » بسبب ما قيل أنه « انقطاع او عزلة عن تعاليم اليهودية » لا يغير من حقيقة وجود الصراع الذي هو بالتالي صراع اجتماعي ٠ هذا عدا ان الانسياق وراء تلك الحجة يبدو انه ليس صحيحاً على اطلاقه ، فالدراسة تذكر على سبيل المثال في أكثر من موقع في الكتاب ما ينفي او يضعف من تلك الحجة ، فهي تذكر أنه في القرن الثالث عشر كان لدى « بني اسرائيل » قضاة ومجالس دينية (Sanads) خاصة بهم (ص ٢٦) وانه خلال فترة السيطرة الكولونيالية في القرنين الثامن والتاسع عشر وصل بعض المبشرين الدينيين من خلال الشركات الاستعمارية العاملة في الهند ٠

ان مقس « بني اسرائيل » يعكس بصورة حادة ، تهافت ووهن تلك الحجج والتبريرات الساعية الى محاولة اضعاف صفة التجانس القومي بين مجموعات اثنية وسوسولوجية مختلفة من يهود العالم ٠ وتظلل باشارات استفهام كبيرة - كما تتوصل الباحثة في نهاية دراستها - مسألة تعريف من هو اليهودي وبالتالي تطرح بالحاح ضرورة فك ذلك « اللغز المستعصي » ٠

ان تلك الملاحظة الهامة التي ابدتها أحد افراد « بني اسرائيل » للباحثة (ص ٤٧) ، تلخص المسألة بوضوح كاف عندما يقول : « هل تظنن حقا ان البغداديين ينطلقون حقا في اتهامنا من أننا لسنا يهودا انقياء من دوافع حرصهم على اليهودية ؟ انها محاولة منهم فقط لاثبات ان كل اليهود الانقياء هم اغنياء بالضرورة ٠٠ وهذا غير صحيح » ٠

عباس مراد

لقد استخدم الدين بصورة صارخة في حالة يهود الهند كسلاح في الصراع الاجتماعي لفئات دينية واحدة ولكنها مختلفة اثنياً واجتماعياً ٠ والدراسة تورد الكثير من اوجه التناقض اولا بين البيض والسود من « بني اسرائيل » من جهة ، وبين « بني اسرائيل » ككل وبين « البغداديين » من جهة اخرى ٠ وكان موطن الخلاف في الظاهر يدور حول نقاوة يهودية كل مجموعة فالبيض من « بني اسرائيل » يدعون أنهم العنصر الاكثسر نقاء من السود ، و « البغداديون » يلقون بالشك على مدى جدية ونقاوة يهودية « بني اسرائيل » ، يأخذون عليهم اختلاطهم واندماجهم الكامل في مجتمعهم ٠ ويترك هذا الخلاف بصماته على الحياة الاجتماعية والدينية لكل مجموعة متخذاً مظاهر منها : استقلال في المؤسسات الدينية والاجتماعية والتعلينية لكسل مجموعة ، اختلاف في العادات الاجتماعية وندرة حالات الزواج المختلط ٠ الى غير ذلك ٠ وقد انتقل هذا الخلاف مع هجرة المجموعات الاولى القليلة من « بني اسرائيل » الى اسرائيل التي هاجرت اما لاسباب دينية او اقتصادية ، حيث ان التأثيرات الصهيونية بينهم ضعيفة كما تذكر الدراسة - (ص ١٦٧) ٠ وأدرك الواقدون الجدد الى اسرائيل أنهم ضيوف يصعب قبولهم ، وقرر العديد منهم العودة (ص ٥٦) ٠

ان هذه الفوارق تفسر لنا عدم نجاح تلك المحاولات التي جاءت في معظمها بدفع من مؤسسات خارجية الى تجميع تلك المجموعات المختلفة في الهند من اليهود في اطار مجموعة واحدة متجانسة على مستوى عموم الهند ، فتذكر الدراسة انه عندما تشكلت « رابطة ومؤتمر عموم الهند الاسرائيلية » لبعض الوقت عام ١٩١٧ كان « بنو اسرائيل » يرون حصر دورها في القضايا الاجتماعية للطائفة وعارضوا اعطاءها اي مدلول سياسي ٠



المقاومة الفلسطينية

عقد في ٢١ أيار بعد انقطاع في اجتماعات اللجنة دام شهرا ونصف الشهر ، كان منتظرا منه أن يصل إلى اتفاق نهائي حول تنفيذ اتفاق القاهرة ، خاصة بعد الاتصالات المكثفة التي سبقته بين المقاومة وسوريا ، وبين سوريا والسلطة اللبنانية ، ولكن الذي حصل عمليا كان عكس ذلك تماما ، إذ راوحت مواقف الأطراف في مكانها دون تغيير ذلك .

عقدة الموقف كانت ولا زالت ، قضية حماية المخيمات ، والسلاح الذي يلزمها ، ودور الميليشيا الفلسطينية فيها . الرئيس سركيس عرض حماية المخيمات من قبل قوات الردع العربية ، إلى حين تشكيل الجيش اللبناني ، على أن يجري نزع السلاح من المخيمات . والمقاومة قبلت مبدأ تولي قوات الردع المهمة دون نزع السلاح . وبقيت المواقف عند هذا الحد ، وانتهى اجتماع اللجنة الرباعية مع سؤال جديد : هل تستمر في مهمتها أم لا ؟ باعتبار أن مدة الشهرين اللذين مددت الجامعة العربية عمل اللجنة

شهدت الفترة الممتدة من منتصف أيار إلى منتصف حزيران ، انحسار التركيز اللبناني على تنفيذ ما تبقى من اتفاق القاهرة ، وبروز مسألة الوفاق اللبناني التي المقدمة ، واعتبار أن النجاح فيها يسهل الوصول إلى التطبيق المنشود . وقد تم الوصول إلى هذه النتيجة في جو من التآزم الذي بلغ ذروته بإعلان الجبهة اللبنانية « اعتبارها لاتفاق القاهرة لاغيا ، فيما تمسكت السلطة اللبنانية به ، وعبر هذا التآزم عن نفسه أيضا بانتهاء مدة عمل اللجنة الرباعية دون أن يطلب الرئيس سركيس منها متابعة مهمتها ، وانيطت بذلك عملية الاستمرار بمتابعة قضية التنفيذ بسوريا وحدها ، فمما استغلت إسرائيل الفرصة لدفع الوضع من جديد نحو التآزم ، مستعينة بالاستعداد الانعزالي لاستمرار التعاون معها ، الأمر الذي يبرز خارطة سياسية معقدة ، فيما يلي تفاصيلها :

اللجنة الرباعية واتفاق القاهرة
الاجتماع الأخير للجنة الرباعية ، الذي

ويعلن ان الاشكال هو في الاتفاق على حماية المخيمات ، وان التمديد للجنة الرباعية يعود الى رغبة الرئيس سركيس . ومن جهته كان الامام الصدر يعلن بعد عودته من القاهرة ، ان اتصالات ستجري قريبا بين دول اللجنة الرباعية لحل جذور الازمة ، وعلن انه يشعر بقلق على مصير لبنان ووحدته وعلى وضوح الجنوب بالذات ، وطالب العرب باتخاذ موقف مشترك يتضمن حلا واضحا للعلاقات اللبنانية - الفلسطينية .

وباتساع نطاق المشاورات حول تطبيق اتفاق القاهرة ، فلسطينيا ولبنانيا وعربيا ، كانت المفاجأة ، ان يوم ٢٦ ايار مر دون ان يدعو الرئيس سركيس اللجنة الرباعية للاجتماع ، وبقي بذلك موضوع تنفيذ ما تبقى من اتفاق القاهرة معلقا .

« الجبهة اللبنانية » كانت كما يبدو ، تنتظر ذلك على احر من الجمر فأعلنت في اليوم التالي مباشرة ، وفي بيان رسمي ، انها تعتبر اتفاق القاهرة لاغيا ، والوجود الفلسطيني في لبنان غير شرعي ، وكان لهذا الموقف اصدقاء محلية وعربية . فعلى الفور (٥/٢٨) اعلنت ثلاثة اطراف رفضها لموقف الجبهة : رئيس الحكومة الدكتور سليم الحص اعلن تمسك لبنان باتفاق القاهرة ، وقال ان التفسير اللبناني له عادل وصالح للتنفيذ . ومنظمة التحرير قالت ان الرئيس سركيس هو الجهة الوحيدة المخولة بالحديث عن تنفيذ الاتفاق . وعبد العزيز حسين اعلن باسم حكومة الكويت « نحن نتعاون مع سركيس فقط ، وهو ما زال يعتبر اتفاق القاهرة قائما » .

وتوالت بعد ذلك ردود فعل مختلفة ، فأعلن الرئيس انور السادات (٥/٢٩) ردا على بيان الجبهة ان « مصر لا تقبل

خلالهما ، تنتهي في ٢٦ ايار . وبالرغم من بروز هذا السؤال ، فان الجهود استمرت في محاولة لايجاد حل قبل الموعد المحدد لانتهاج عمل اللجنة ، وعلى امل ان تعقد اللجنة اجتماعا بهيرا لها يكرس هذا الحل .

العقيد محمد الخولي حمل رسالة من الرئيس حافظ الاسد الى الرئيس سركيس تتضمن مساعي سوريا لتطبيق ما تبقى من بنود اتفاق القاهرة . (٥/٢١)

عبد الحليم خدام وزير الخارجية السوري استقبل وقدا من قيادة المقاومة يضم محمود عباس (ابو مازن) وصلاح خلف (ابو اياد) وابو صالح بحضور اللواءين ناجي جميل وحكمت الشهابي (٥/٢١) . وعند انتهاء هذه المباحثات بدمشق اعلن ابو اياد (٥/٢٢) ان الحل حول اتفاق القاهرة سيكون خلال ٤٨ ساعة . وقيل ان سوريا ستنقل للرئيس سركيس نتائج المباحثات مع المقاومة ، فيما قيل ايضا ان الرئيس سركيس سيجري مشاورات مع الفرقاء اللبنانيين للغرض نفسه ، وان اللجنة الرباعية ستجري من قبلها مشاورات معاملة مع الاطراف المعنية .

في هذه الاثناء كان وفد من حركة الناصريين المستقلين (المرابطون) يقابل الرئيس سركيس (٥/٢٣) ويعلن في الاجتماع ان العقدة الاساسية القائمة هي اتفاق القاهرة ، وهي عقدة لا حل لها حاليا ، لان الظروف العربية والدولية تغيرت ، ولان الحركة الوطنية اللبنانية لا تنظر لتطبيق الاتفاق من الزاوية الضيقة ، بل من زاوية الحل العام لازمة الشرق الاوسط . وفي اليوم التالي (٥/٢٤) كان سفير الكويت عبد الحميد البعيجان يلتقي مع التجمع الاسلامي

– معركة « الجبهة اللبنانية » ليست تنفيذ الاتفاق . بل معركة الغاء الاتفاق .

واقد انتهت حركة الجدل هذه بتجميد البحث باتفاق القاهرة ، وبرز موضوع الوفاق اللبناني واعطائه الاولوية في العمل ، واعتبار الوفاق منخلاً يسهل العودة لبحث قضية اتفاق القاهرة وتنفيذه حسب قول فؤاد بطرس وزير الخارجية اللبنانية (٦/٢) بعد اجتماع مع الرئيس سركييس . اما مصير اللجنة الرباعية فقد حدده السفير الكويتي (٨/٩) بقوله : انه لا اجتماع جديد للجنة الرباعية ، وانه بقيت نقطة وحيدة في اتفاق القاهرة ، وبعد ان عجزت اللجنة الرباعية عن حلها احيلت الى سوريا ، وسوريا تسعى ، ونأمل ان تكون قد وصلت الى حل يزيل هذه النقطة البسيطة .

ولم يبرز نشاط سوري خاص بصدد هذه المسألة ، الا حين زار كميل شمعون دمشق واجتمع مع الاسد وخدام (٦/١) ، وعرض عند عودته نتائج الزيارة على « الجبهة اللبنانية » ، وقال مصدر باسمها بعد الاجتماع : ان الاسد طلب من شمعون ان تساعد الجبهة سوريا بعدم وضع العراقيل بالنسبة لتطبيق اتفاق القاهرة ، لافساح المجال امامها بالتحرك . واوضح ان هناك مساع مبذولة بين سوريا والسدول العربية لتذليل بعض التحفظات التي ابدت حول تطبيق اتفاق القاهرة .

وبرز النشاط السوري مرة ثانية حين زار عبد الحليم خدام الرئيس سركييس (٦/٨) واعلن ان سوريا ملتزمة بتطبيق اتفاق القاهرة « ونبذل جهدنا للوصول الى ذلك وفق تفسير اللجنة الرباعية » . وازداد « لسنا لدى اشقائنا الفلسطينيين الاستعداد والرغبة بتنفيذ الاتفاق » .

وحين زار شمعون الرئيس سركييس

المساس بالفلسطينيين ، ونحن مع سيادة لبنان ، ومع ان لا يتدخل الفلسطينيون في اي امور تخصه » . والرئيس رشيد كرامي قال ان اتفاق القاهرة يجب ان لا يعيق الحوار اللبناني ، والمسألة ليست ال ٧ بالالف ، بل الثقة ، والثقة لا تفرض بل يجري تمثينها بالتعاون .

وبدورها ضغدت « الجبهة اللبنانية » حملتها ، فصدر عن « الرابطة المارونية » بيان آخر (٥/٢٩) يطالب بطرح مشكلة الوجود الفلسطيني برمته على ارض لبنان . وصدر على اثر ذلك ردان من المقاومة الفلسطينية والحركة الوطنية ، كانا خاتمة الجدل حول هذه القضية . قالت المقاومة الفلسطينية بعد اجتماع رسمي لقيادتها (٥/٣٠) :

– ان بيانات « الجبهة اللبنانية » لا تغير من التزامنا بتنفيذ اتفاق القاهرة بالتعاون مع السلطة الشرعية .

– هناك اقتراح معروض الآن للبحث يوافق على نسبة ال ٣ بالالف بالنسبة لرجال الكفاح المسلح ، ويطلب تجميد البحث بنسبة ال ٤ بالالف بالنسبة لرجال الميليشيا .

– تم البحث بالاقتراح مع المسؤولين السوريين ومع اعضاء اللجنة الرباعية ، واتفق على القيام بمحاولة مشتركة للوصول الى نقطة لقاء ، ونحن بانتظار الرد .

وقالت الحركة الوطنية اللبنانية في بيان رسمي :

– ان المقاومة الفلسطينية التزمت بتنفيذ اتفاق القاهرة والخطة الامنية .

– الخلل القائم بالتنفيذ ليس مصدره المقاومة ، اذ على ضوء الحل اللبناني – اللبناني يمكن تنظيم العلاقات اللبنانية الفلسطينية .

وتباحثا في القضايا الامنية اللبنانية ومنها قضية الجنوب . وفي بيروت عقدت القيادة الفلسطينية (٦/٢) اجتماعا برئاسة ياسر عرفات ، بحثت فيه تهديدات اسرائيل العسكرية ، وعلم انه تجري اتصالات بهذا الخصوص مع سوريا . وقوات الردع العربية والكثائب اللبنانية . وفي اليوم نفسه التقى هاني الحسن مع السفير الكويتي للتداول بالوضع .

وكانت الاوساط اللبنانية بدورها معنية بالخطر الذي يتهدد الجنوب ، فأعلن مفتي الجمهورية الشيخ حسن خالد بعد زيارة للرئيس سركيس « ان اهتمامنا منصب على عدة نقاط ، الجنوب ، وما يدور حول اتفاق القاهرة » . واعلن كامل الاسعد رئيس البرلمان اللبناني ان « الاهتمام يجب ان يتركز على الحؤول دون استغلال اسرائيل لواقع الجنوب اليوم ، وعلى وجوب ايقاف الاقتتال العسكري ، وهذا الموضوع يزداد خطورة بعد نجاح ليكود . ويجب ان يتوقف اي خلاف لمعالجة هذا الموضوع » ، ثم اجتمع الاسعد مع الشيخ بيار الجميل (٦/١٠) وكان البحث الرئيسي بينهما هو قضية الجنوب .

وفي ظل الاهتمام برز موقف مفاجيء على لسان الرئيس صائب سلام حين دعا (٦/١٢) الى المطالبة بوضع قوات دولية على حدود لبنان الجنوبية . وهذه هي المرة الاولى التي يدعو فيها زعيم لبناني مسلم الى طلب هذه القوات . وعلى اثر ذلك دعا الرئيس كامل الاسعد لجنتي الخارجية والدفاع في البرلمان اللبناني (٦/١٥) الى الاجتماع ، وقالت الاوساط النيابية ان البحث سيركز حول اتفاق القاهرة ، وطلب مسوات دولية لتتمركز على الحدود . وفي خلال ذلك كله كانت الصحف السورية تواصل

(٦/٩) مع وفد من « الجبهة اللبنانية » لمعرفة نتائج زيارة خدام قال ان « الالتزام ميدني بالاستمرار في تنفيذ اتفاق القاهرة ، والافضل ان يتم التنفيذ تلقائيا من قبل المنظمات » .

وفي (٦/١٠) اعلن شمعون اثناء مائدة اقامها كاظم الخليل ان « سوريا تحاول اقناع المنظمات دون ممانعة ، والا فان قوات الردع ستقوم بواجبها » .

وكانت قد سرت شائعات بان الاتفاق قد تم بين سوريا والمقاومة على ان تدخل قوات الردع الى المخيمات ، ولكن مصدرا بعثيا في بيروت نفى ذلك (٦/٨) ، وقبله كان عاصم قانصوه الامين العام لمنظمة البحث في لبنان قد انتقد الذين يدعون سوريا لسحق المخيمات (٦/٥) ، وذكر ان سوريا لن تعترف بأي تفسير لاتفاق القاهرة ، وهي تتمسك بالنص الاصلي .

الجنسوب :

مع نجاح منحيم بيغن في اسرائيل ، وبعد اعلان موقف « الجبهة اللبنانية » من اتفاق القاهرة ، تجددت اجراء التوتر في جنوب لبنان ، على صعيد القصف الاسرائيلي المتواصل للمناطق الاهلة ، وكذلك على صعيد تجديد الانعزاليين للاشتباكات مع المقاومة الفلسطينية ، ورافق ذلك موجة جديدة من هجرة السكان للمناطق الداخلية . وبدأت الصحافة السورية بشكل خاص ، تركز على خطر الوضع في الجنوب وعلى خطر التهديد الاسرائيلي له . وفي (٦/١) ، اي بعد اربعة ايام فقط من انتهاء فترة عمل اللجنة الرباعية ، التقت صحف دمشق مع تصريحات للملك حسين على التحذير من حرب اسرائيلية جديدة تشن من جنوب لبنان . وقد استقبلت هذه المواقف الرئيس كميل شمعون الذي زار دمشق واجتمع مع الرئيس الاسد ،

عن الوطن الفلسطيني « ايجابية تصدر لأول مرة عن مسؤول اميركي » . واهتم الى العلاقات مع سوريا ومصر ووصفها بأنها « استراتيجية وتشكل جبهة المواجهة الاولى » ، ونوه بدور دول النقط فسي دعم الثورة ودول المواجهة (٥/٢٣) . وفي البحرين سجل « امني عضو رئيسي في معادلة الشرق الاوسط » ، وعلن ان اسرائيل قد تحاول القيام بمغامرة عسكرية تستهدف جنوب لبنان ، وأوضح انه ينتظر جوابا من الملك حسين من اجل استئناف الحوار الفلسطيني الاردني (٥/٢٥) .

وفي مصر التقى مع الرئيس السادات ، وتم الاتفاق على انشاء لجنة مصريسة فلسطينية للتنسيق العسكري والسياسي (٥/٢٦) تضم عن الجانب الفلسطيني : فاروق القدومي وعبد المحسن ابو ميزر واحمد صدقي الدجاني وجمال الصوراني وسعيد كمال .

اما جولته الثانية ، فقد اخذت طابع الزيارات الرسمية ، وصدرت عنها بيانات مشتركة تؤكد التعاون والتساند بين منظمة التحرير والدول الافريقية التي زارها . وفي ختام هذه الجولة في السعودية اعلن عرفات (٦/١٠) ، انه اطلع على نتائج مباحثات الامير فهد مع الرئيس الاميركي ، ونفى انباء تحدثت عن احتمال اجتماعه مع سايروس فانس وزير الخارجية الاميركي في زيارته المنتظرة للمنطقة . وعلن في الكويت (٦/١١) ، ان المقاومة عازمة على تنفيذ اتفاق القاهرة في لبنان ، واعرب عن اسفه للخط الدائر حول الاتفاق .

ب . ح

الاعلان يوميا عن خطر « احداث الجنوب التي تتطور بشكل يدعو للقلق » مع ما يحيط بها من تحركات اسرائيلية . وقد تابعت السلطة اللبنانية احداث الجنوب بمحادثات سياسية مع السفير الاميركي الذي زار القصر الجمهوري للبحث في الموضوع (٦/١٣) ، وعلن فـؤاد بطرس على اثر ذلك (٦/١٤) ان « وضع الجنوب يستدعي الانتباه ، الا ان الضمانات الامريكية باقية » .

نشاط عرفات :

الاحداث اللبنانية وتعقيداتهما ، لم تمنع ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير من القيام بنشاط سياسي مكثف شمل عدة بلدان عربية واجنبية في جولتين متواليتين . زار في الجولة الاولى : ابو ظبي ودبي والبحرين ومصر ، وزار في الجولة الثانية : ليبيا والجزائر والسنغال وغينيا بيساو والسعودية والكويت . وعلن عرفات في هذه الجولات جملة من المواقف السياسية الهامة .

في ابو ظبي قال : ان الثورة ماضية في القتال حتى تحرير الارض العربية كاملة ، والمركة مع العدو معركة اجيال . وعن مؤتمر جنيف قال : لن نذهب على اساس القرار ٢٤٢ ، وانما على اساس التوصل الى حـسـل للقضية الفلسطينية والدولة الفلسطينية . وعن الانتخابات الاسرائيلية قال : لا فرق بين رابين او بيغن او بيريز (٥/٢٢) .

وفي دبي اعلن ان منظمة التحرير ترغب في فتح حوار مع السلطات الاميركية ، واعتبر تصريحات كارتر

المناطق المحتلة

البحث عن المقتات السابفة ، يتمثل في حدة تفاعل الحركة الوطنية مع الحدث ، سواء كان الحدث مناسبة وطنية او اجراء يستهدف تكريس الاحتلال . ولعل اللقاء نظرة سريعة على مسلسل الاضرابات والتظاهرات خير دليل على مدى ما وصلت اليه الحركة الوطنية من تفاعل مع الحدث ، ومحاولة توجيهه في مجرى رفض الاحتلال .

١ - انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني : كان لانعقاد المجلس الوطني الفلسطيني الاخير في القاهرة صداه في مدن وقرى ومخيمات الضفة الغربية على شكل تظاهرات تأييه ، اصطدم المتظاهرون خلالها مع قوات الاحتلال . فقد اشارت يديعوت احرونوت (٧٧/٣/١٣) الى ان الطلبة في رام الله وفي مخيم اللاجئين الاموي تظاهروا واقاموا الحواجز ، ورجموا قوات الامن اثناء تفريقها لهم بالحجارة ، وذكرت ان رؤساء بلديات ومجالس محلية في الضفة الغربية بعثوا برسالة الى المجلس الوطني الفلسطيني تضمنت « نداء لمقاومة كل تسوية في المنطقة لا تأخذ بعين الاعتبار الرغبة في اقامة دولة فلسطينية مستقلة ، ومنح م.ت.م حق الظهور في جنييف ، والتصدي لكل تغيير في الميثاق الفلسطيني » .

٢ - اغتيال كمال جنبلاط : ادت عملية الاغتيال الى حدوث تظاهرات ومسيرات جنائزية في الضفة الغربية ، واشارت عل همشار (٧٧/٣/١٨) الى ذلك بقولها ان سكان الضفة واجهوا عملية

سنركز الحديث حول الاحداث الاخيرة التي جرت في المناطق المحتلة حتى بداية نهاية حكم حزب العمل الاسرائيلي في السابع عشر من ايار .

في هذه الفترة شهدت المناطق المحتلة جملة احداث تمثلت في تصاعد موجة الاضرابات والتظاهرات في الضفة الغربية ، واضراب المعتقلين الفلسطينيين في السجون الاسرائيلية بعد انطلاق شرارة الاضراب في سجن عسقلان ، وتصاعد وتيرة الاستيطان في المناطق المحتلة بشكل عام وفي الضفة الغربية بشكل خاص .

موجة الاضرابات والتظاهرات :

تعتبر موجة الاضرابات والتظاهرات الاخيرة ، امتدادا طبيعيا لحالة النهوض الوطني التي اشتد ساعدها في العمام ١٩٧٦ والتي اثبتت نفسها في التصدي المتواصل للأجراءات الاسرائيلية وعلى رأسها ضريبة القيمة المضافة التي كانت سلطات الاحتلال قد فرضتها على المناطق المحتلة . ولعل واقع فرض الضريبة على الشريحة البرجوازية وخاصة التجار واصحاب الحوانيت ، وما ترتب عليه من دفع هذه الشريحة الى الاضرابات والتظاهرات التي توجهها وتقودها الجبهة الوطنية الفلسطينية بواسطة الشرائح الاجتماعية العريضة ، يعتبر من بين العوامل الاساسية التي عززت من قدرة الحركة الوطنية على مواجهة الاحتلال بأشكال وقوالب نضالية مختلفة .

الا ان ما يميز الفترة الاخيرة مسدار

أنهما ضربا يوم الاثنين على يسد ضابط أثناء تظاهرة طلابية حدثت هناك « والقت الاحتساد (٧٧/٣/١١) الضوء على تفاصيل الحادث ، فذكرت بان طلبة مدرسة الهاشمية قاموا بتظاهرة امام مدرستهم تأييدا لمطالب السجناء السياسيين العرب في سجن عسقلان واشتبسك الطلبة المتظاهرون مع قوات اسرائيلية معززة قامت باقتحام المدرسة والقت بقنابل الغاز على الطلاب والمعلمين ، واعتقلت ٧٠ طالبا « واعتدت عليهم بالضرب الوحشي وكسرت اعضاء غالبيتهم « وذكرت ان السيد عزمي الشعبي عضو بلدية البيرة حضر الى ساحة الاشتباك في المدرسة واعرب عن احتجاجه لقائد القوة الاسرائيلية « فما كان منه الا ان صفع عضو البلدية وامر باخراجه من المدرسة ، واخرج بالقوة « وحينما حضر رئيس البلدية نفسه اعتدي عليه ايضا «

الخامس عشر من ايار :
وبمناسبة الخامس عشر من ايار ، اليوم الذي اعلن فيه عن قيام « دولة اسرايل » ، جرت اضرابات وتظاهرات في معظم مدن وقرى الضفة الغربية ، ففي مدينة نابلس (هارتس ١٦-٥-٧٧) جرت تظاهرات طلابية ، واشتبك الطلبة مع القوات الاسرائيلية « وقذفوا الحجارة ، واحرقوا الدواليب ، واستخدموا المقاليع ضد رجال الامن « وفرض حظر التجول على المدينة . كما وحدثت اضرابات وتظاهرات مشابهة في جنين ورام الله ومخيمات اللاجئين .

الحملة الاستيطانية : لا شك في ان الاجراءات الاسرائيلية في المناطق المحتلة وخصوصا الاستيطانية منها تعتبر من اهم العوامل وراء التظاهرات والاضرابات ولعل الحملة الاستيطانية التي يقوم بها غلاة المستوطنين المنضوين تحست لواء جوشى ايمونيم في المناطق المحتلة بغرض خلق وقائع جديدة هناك دون انتظار

الاجتياح « بالحداد والاسى العميق « كما وشارت الى انه قد « جرت في عدد من مدن الضفة مسيرات جنازية انتهى قسم منها باعمال نسف «

٣ - يوم الارض : شارك السكان في الضفة الغربية السكان العرب في فلسطين المحتلة سابقا ، في احياء الذكرى الاولى ليوم الارض ، على شكل تظاهرات واضرابات ، واشهار مراسل هارتس (٧٧/٣/٢١) الى ذلك بقوله انه قد « جرى في جميع المدن الكبيسة في الضفة الغربية باستثناء اريحا وجنين ، اضراب تجاري شامل تعاطفا مع الذكرى السنوية ليوم الارض الضامص بعرب اسرايل ٠٠٠ « وقسال ان قوات الامن الاسرائيلية استخدمت الغاز المسيل للدموع في تفريقها للمتظاهرين في المدن المختلفة ، والقت القبض على البعض منهم .

التعاطف مع المعتقلين الفلسطينيين :

منذ اعلان المعتقلين السياسيين في سجن عسقلان الاضراب عن الطعام ، وانتشار ظاهرة الاضراب وتعميمها في بقية السجون ، ولغاية انتهاء الاضراب بعد اكثر من شهر ، والضفة الغربية تشهد تظاهرات طلابية ونسائية هنا وهناك ، تدعم وتؤيد مطالب المضربين . ومن الجدير بالذكر ان التظاهرات التي كانت تحدث في تلك الفترة لاسباب مختلفة ، كانت ترفع شعارات مطالبة بتحقيق مطالب المعتقلين المضربين .

الرد على الاعتداء بالتظاهر والاضراب:

كثيرا ما تحدث اضرابات ومظاهرات كرد فعل على اعتداء تقوم به قوات الاحتلال ضد شخصيات وزج اعداد كبيرة في السجون ، فقد حدث مثلالا ان اضربت مدينتا البيرة ورام الله اضرابا شاملا في اعقاب ما اسمته يدعسوت اهرنوت (٧٧/٣/٩) « ادعاء رئيس بلدية البيرة واحد اعضاء المجلس البلدي

« نابلس عربية ، فلسطين عربية » ،
 وصباح احد الموظفين العرب
 باتجاه كهانا « لقد اخذت بلادنا ،
 الأيكيفيم » ورد عليه كهانا « ٠٠٠ نابلس
 ستصبح مدينة يهودية » شعب اسرائيل
 حي » . ولم يتمكن كهانسا من دخول
 البلدية ، وتوجه الى شوارع نابلس
 وسط حراسة قوات الامن الاسرائيلية ، ومن
 ثم توجه الى جبل جرزيم ، وهناك حدد
 مكان المستوطنة التي يريد بناءها بواسطة
 نواة استيطانية تحمل اسم « ولاشبر » .
 واجتمع بعد ذلك بالحاكم العسكري
 للمدينة .

ومن الجدير بالذكر ان مدن الضفة
 الغربية كانت مضربة في ذلك اليوم
 بمناسبة « يوم السجن الفلسطيني » وكان
 من نتيجة « زيارة » كهانا لنابلس ان
 تفجرت تظاهرة ضخمة في المدينة حتى
 خرج كهانا منها ، رفعت خلالها الاعلام
 الفلسطينية ، وكالعادة تصدت القوات
 الاسرائيلية للمتظاهرين بالقنابل المسيلة
 للدموع واعتقلت عددا منهم .

ضريبة السدم في قباطيا :

في الثالث من ايار سقط في بلدة قباطيا
 الواقعة بين جنين ونابلس شهيدان وعدد
 من الجرحى ، سقط الشهيد بلال ابو الرب
 البالغ ١٩ عاما اثناء تظاهرة جرت في
 الصباح ، وسقطت الشهيدة فاطمة حمامة
 البالغة من العمر ٥٥ عاما بعد ظهر اليوم
 نفسه اثناء مراسيم تشييع الشهيد بلال !

وقصة سقوطهما تكمن في قصة التصدي
 للاجراءات الاستيطانية « الرسمية »
 الحكومية بشكل عام « وغير الرسمية »
 التي يقودها جيش ايمونيم بشكل خاص .

في اواخر شهر نيسان نشر جيش
 ايمونيم في الصحف الاسرائيلية بياناً
 يدعو فيه انصاره ومؤيديه ان ينظموا
 أنفسهم استعداداً لاقامة واقع جديد في

موافقة سلطات الاحتلال قد دفعت السكان
 للتصدي بمسيرات وتظاهرات مضادة
 وعنيفة . ففي اعقاب المسيرة الضخمة
 لجوش ايمونيم والتي اشترك بها الالاف
 من المستوطنين في المنطقة الواقعة بين
 قلقيلية ونابلس ، والاعلان عن تدشين
 مستوطنة شرقي قلقيلية تحمل اسم « قوني
 شومرون » ، وفي اعقاب المسيرة
 الاستيطانية لمنطقة مسحة شرقي كفر قاسم ،
 جرت مظاهرات في عدد من مدن الضفة
 الغربية وخصوصاً في نابلس استمرت
 اكثر من اسبوع وصفتها الصحافة
 الاسرائيلية « بالعنيفة » حدثت خلالها
 اصطدامات واعتقالات وحظر تجول .

وعادت المظاهرات واتسع نطاقها في
 الجزء الثاني من شهر نيسان نتيجة
 استقراوات الحاخام كهانا الذي ارسل
 مذكرة الى وجهاء منطقتي نابلس والخليل
 يدعوهم فيها الى حضور حفل اقامة
 مستوطنة في مدينة نابلس وجاء في
 رسالته « من المعروف لكم ان شعب
 اسرائيل الذي حصل على ارض اسرائيل
 من الله طرد من هذه البلاد على ايدي
 المحتلين الرومان . وكانت نابلس احدى
 المدن التي دمرها الرومان . وانه لفخر
 كبير لنا وفرصة عظيمة ان نعلن ،
 بمساعدة الله ، ان شعب اسرائيل يعيد
 الان بناء مستوطنة يهودية في شخيم » .
 (الاتحاد ٧٧/٤/٢٩) وفي ١٧/٤/٧٧
 توجه الحاخام كهانا مع مجموعة من
 رجاله ، بعضهم يحمل مدافع رشاشة
 الى نابلس ، وهناك توجه الى مقر البلدية
 « للاجتماع » برئيسها ، وعندما وصل الى
 المبنى ، تصدى له الموظفون هناك كما
 ذكرت معاريف (٧٧/٤/١٨) وحدثت
 تلاسن بين جماعة كهانا والموظفين العرب
 وسط اجواء مشحونة بالتوتر ، ارتفعت
 حدتها عندما رفع خمسة من جماعة
 كهانا مدافع العوزي مهددين المواطنين
 العرب وعند ذلك ، اخذ العرب يهتفون

وتظاهرات في عدد من مدن الضفة . ففي نابلس اضربت الاسواق وتظاهر الطلبة واصطدموا مع قوات الامن التي قامت بدورها بفرض حظر التجول على حي القصبه تسع ساعات . وفي جنين اضربت المدينة استنكارا لمصرع الشهيدين . وفي رام الله تظاهرت طالبات معهد المعلمات، كما وتظاهر شبان مخيم اللاجئين في قلنديه . واعتقلت القوات الاسرائيلية قرابة ٧٠ شخصا من انحاء مختلفه في الضفة .

ولم ينفذ جوش ايمونيم وعده «بزيارة» السهل .

الاضراب في سجن عسقلان :

في الثاني والعشرين من شباط لهذا العام اعلن المعتقلون الفلسطينيون في سجن عسقلان الاضراب عن الطعام احتجاجا على اوضاعهم الصعبة في المعتقل . واستمر هذا الاضراب اكثر من شهر ، وقد حاولت سلطات الاحتلال وضع حد للاضراب الا انها لم تفلح في ذلك ، فانتشرت ظاهرة الاضراب وشملت سائر المعتقلات . وكان لها صدى كبير سواء على الصعيد الداخلي او الخارجي .

لا شك بان الاضراب امتداد لحالة النهوض الوطني ومكمل لها ، كما وانه ليس الاول من نوعه ، ففي الشهر الاخير من العام الماضي حدث اضراب عن الطعام في سجن عسقلان استمر اكثر من اسبوعين ، طوقته وسائل الاعلام الاسرائيلية بالتعظيم . الا ان الهيئات النسائية في الضفة الغربية وقطاع غزة وامهات المعتقلين ، حاولن كسر طوق التعظيم ، باستصراخ الرأي العام العالمي بواسطة المذكرات التي ارسلت الى الامم

سهل دوئان التابع لمجموعة قرى عربية اومن بينها بلدة قباطيا .

وقد زامن نشر البيان الحملات الاستيطانية التي قام بها جوش ايمونيم في انحاء مختلفه من الضفة الغربية ، الامر الذي دفع سكان بلدة قباطيا للدفاع عن السهل قبل غرس الامر الواقع .

وبالفعل تنظم السكان في الثالث من ايار في تظاهرات واضرابات عمت البلدة ، واغلق المتظاهرون الطريق الرئيسي ، وعند مرور سيارة عسكرية اشتبكوا معها بالحجارة ، ورد الجنود بالرصاص ، ووصفت عل همشمار (٧٧/٣/٤) سقوط بلال بقولها « وخلال اطلاق النار اصيب احد الشبان برصاصة في رأسه ، وسقط وسط سواعد رفاقه الذين قاموا بنقله بسرعة داخل البلدة ، وفي مستشفى جنين الذي نقل اليه تقرر موته » .

لم ينته الامر عند هذا الحد ، فقد اراد الحاكم العسكري لمنطقة جنين اجراء مراسيم التشريع وسط تظاهرة كبيرة، فاجأ خشية حدوث تظاهرات اشدد ، الا ان سكان البلدة وذوي الشهيد رفضوا رغبة الحاكم العسكري واصروا على تشييع الجثمان بعد ظهر نفس اليوم ، واثناء مراسيم التشييع وسط تظاهرة كبيرة ، فاجأ الحاكم العسكري سكان البلدة بقدمه على رأس قوة من احدى جهات القرية ، مدعوما بقوة مساندة من جهتها الاخرى .

واصطدم الاهالي مع قوة المساندة ، وأحرقوا سيارة جيب عسكرية ، واطلق قائد المجموعة النار على الاهالي وسقطت حينذاك الشهيده فاطمة حمامة ، كما وسقط عدد من الجرحى بين الطرفين . وقد تم تشييع جثمانها تحت ستار الظلام، اثناء حظر التجول .

وكان من نتيجة ذلك ، حدوث اضرابات

قدمها زعيم المعتقلين محمد بسيسو وهي :

١ - الغاء حالة الاكتظاظ في السجن ،
حيث يتم حشر عشرين معتقلا في غرفة
ضيقة .

٢ - توفير فراش عادي واسرة للنوم
بدل فراش المطاط الذي يبلسغ سمكه
سنتمرا واحدا .

٣ - توفير ملابس تتلاءم وفصول
السنة .

٤ - الحصول على طعام كالمقدم
للسجناء اليهود .

٥ - السماح بالزيارة مرة كل اسبوعين
دون تحديد عدد الزائرين كما هو الحال
بالنسبة للسجناء اليهود .

٦ - السماح بادخال الكتب التي يريد
المعتقلون قراءتها (انظر الاتحاد ٢٥-٢٠-
٧٧)

الا ان مصلحة السجنون رفضت هذه
المطالب ، وحاولت كسب الاضراب
مستخدمة ضغوطات عدة ، ولكنها
اصطدمت هذه المرة بتنظيم قوي لدى
المضربين ، فقد اشارت الصحف الى وجود
لجنة للاضراب تتشكل من اربعة اشخاص
يمثلون التنظيمات الفلسطينية المختلفة ،
وهم : محمد بسيسو ، وجبر عماد ،
ومحمد القاق وعبد الله العجيري . كما
وذكرت ان لديهم « محكمة » تصدر
احكامها بحق اولئك الذين يثبت تعاونهم
مع سلطات الاحتلال .

وعندما فشلت السلطات في اثناء
الاضراب ، قامت في الثامن والعشرين
من شباط بتوزيع عدد كبير من المضربين
على السجنون المختلفة ، كما وزجت بلجنة

المتحدة وجامعة الدول العربية والصليب
الاحمر الدولي ولجنة حقوق الانسان ،
اعرين فيها عن احتجاجهن على «الاضراب
اللا انسانية السائدة في السجنون
الاسرائيلية » كما واشفعن المذكرات
بتظاهرات في القدس وغزة تأييدا لمطالب
المعتقلين المضربين .

وخلال الاضراب الثاني تمكن المعتقلون
بفضل تنظيمهم القوي وارادتهم الصلبة
من اسماع مطالبهم ، ونقل قضيتهم الى
الفتات اليسارية الاسرائيلية المتعاطفة
معهم ، والى الجمهور العربي في فلسطين
المحتلة سابقا ، والمناطق المحتلة ،
وبالتالي اوصول قضيتهم الى الرأي العام
العالمي .

يوجد في سجن عسقلان ، حسب
المصادر الاسرائيلية ، ٤٣٠ معتقلا «امنياء»
صدرت بحقهم احكام بالسجن المؤبد ،
وبعض هؤلاء صدرت بحقهم احكام بالسجن
مدى الحياة مرات عدة ، و٦٧ محكوم
عليهم بالسجن لفترات تزيد على العشرين
عاما ، كما ويخضع حوالي نصف المعتقلين
للاشغال الشاقة . ويعاني هؤلاء من
اوضاع صعبة . وقد افصح مراسل
يديعوت (٧٧/٣/١١) عن ذلك بعد
زيارته للسجن بقوله : « ان انطباع اولئك
الذين زاروا في الاسابيع الاخيرة سجن
عسقلان يفصح عن سلبيات اكثر مما
يفصح عن ايجابيات : ان حالة الاكتظاظ
في السجن لفظيعة ، ففي غرفة الاعتقال
يحشر بضعة عشرات من السجناء ،
يعيشون بداخلها ، ويأكلون فيها ويقضون
حاجاتهم فيها ايضا . كما ان مستوى
النظافة في السجن سيء للغاية ،
ووجبات الطعام قليلة وغير متنوعة . »

ويمكن استشفاف ما يعانيه المعتقلون
من خلال اللقاء نظرة على المطالب التي

المعتقلات قد حظي هذه المرة بتعاطف ودعم فئات اسرائيلية تقدميسة ، مثل حركة النساء الديمقراطيات في اسرائيل التي بعثت بمذكرة الى المسؤولين الاسرائيليين جاء فيها « لا زال مطالب المضربين كما كانت في المرة الاولى : مساواة شروط سجنهم مع الشروط التي تمنح للسجناء اليهود ٠٠٠ » وقالت المذكرة ان « الاضراب المتجدد يعرض حياة المعتقلين للخطر وخاصة اولئك الذين لا يزالون يعانون من نتائج الاضراب السابق . ان بعضهم انخفض وزنه عشرات الكيلوغرامات ، وان حالتهم الصحية تتطلب المعالجة السريعة » (انظر الاتحاد ٧٧/٣/١) .

ونشط عرب المنطقة المحتلة سابقا في اعلان تعاطفهم مع المعتقلين المضربين ، فقد اضرب عن الطعام عند اواخر شهر شباط قرابة خمسين طالبا عربيا في الجامعة العبرية ، ووزعوا منشورا بهذا الخصوص . (انظر عل همشار ٧٧/٢/٢٨) وجرت بعد ذلك تظاهرة تأييد في تل ابيب شارك فيها عرب ويشاريون يهود ، وجرت تظاهرة مماثلة في معهد الهندسة التطبيقية في حيفا .

وتوجهت مجموعة تضم عربا وعناصر يهودية نحو سجن عسقلان ، وهناك اخذ هؤلاء ، كما ذكرت يديعتوت احرونوت (٧٧/٢/١٤) يهتفون من اجل « فلسطين علمانية ديمقراطية » ويرددون الاناشيد الوطنية الفلسطينية .

واثناء الاحتفالات بيوم الارض ، على مدار النصف الثاني من شهر آذار عبر عرب الارض المحتلة سابقا ، عن تعاطفهم مع المعتقلين الفلسطينيين . اما في المناطق المحتلة ، وخصوصا في الضفة الغربية ، فقد نشطت الهيئات النسائية وامهات

الاضراب في سجون اخرى ، ووضعتهم وفق شهادة الحامية فليتسيا لانغر (الاتحاد ٧٧/٣/٨) « في زنازين منفردة حيث ينامون على الارض بدون اي فراش او غطاء ٠٠٠ » ولم يبق في سجن عسقلان حسب شهادة مراسل التلفزيون الاسرائيلي (يديعتوت احرونوت ١٠-٣٠-٧٧) بعد عملية توزيع المعتقلين الا « ٢٥ مضربا عن الطعام يعيشون في غرفة واحدة ويخضعون لمراقبة طبية » .

الا ان الطريقة التي توخست منها السلطات الاسرائيلية وضع حد للاضراب، حملت بين ثناياها تعميم الاضراب على سائر المعتقلات ، فقد اخذ المعتقلون الفلسطينيون في السجون الاخرى يستقبلون معتقلي عسقلان باعلان الاضراب في حال وصولهم ، واخذت ظاهرة الاضراب تنتسح ، ففي سجن جنين اعلن المعتقلون الفلسطينيون الاضراب عن الطعام وطالبوا بتحسين اوضاعهم ، وفي سجن كفار يونا اعلن المعتقلون الاضراب عن الطعام بعد وصول ١٠ معتقلا من سجن عسقلان ، وفي سجن رام الله اعلن مئتا معتقل الاضراب عن الطعام تضامنا مع رفاقهم في عسقلان ، وكذلك في الخليل اعلن حسب قول عل همشار (٧٧/٣/٢١) « عشرات السجناء الامنيين فسي سجن الخليل الاضراب عن الطعام تأييدا للمضربين السجناء الذين اعلنوا الاضراب عن الطعام في سجون مختلفة في البلاد » ، وافادت ان سلطات الحكم العسكري تعتزم « توسيع السجون في الخليل وجنين » وامتد الاضراب الى سجن الدامون ، حين اضرب المعتقلون الفلسطينيون ٣٦ ساعة كما ذكرت الاتحاد (٧٧/٢/٢٢) « احتجاجا على تشكيل سلطات السجن بهم وسوء المعاملة » .

ومن الجدير بالذكر ان اضراب معتقلي عسقلان واتساعه وشموله سائر

تركزت بمعظمها في الضفة الغربية وقطاع غزة . ففي الخامس والعشرين من كانون الثاني من هذا العام جرى احتفال باقامة مستوطنة تحمل اسم « الموج » بالقرب من شاطئ البحر الميت ومن مغارة قمران بحضور وزير الدفاع شمعون بيرس ، وقائد سلاح الناحال ومدير قسم الاستيطان في الوكالة اليهودية (انظر دافار ٧٧/١/٢٦) . وفي اوائل شهر شباط اقيمت مستوطنة ناحال تحمل اسم « ريمونيم » على الطريق ما بين رام الله واريحا ، بالقرب من مستوطنتي كوخاف هشاعر ، ومغوشيل اللتين تعتمدان على الصناعة . (انظر معاريف ٧٧-٢٨) .

وفي قطاع غزة تم الاحتفال بتحويل مستوطنة « نيشر حزاني » الواقعة في جنوب قطاع غزة الى مستوطنة دائمة بحضور عدد كبير من المسؤولين وعلى رأسهم رئيس الحكومة يتسحاق رابين الذي نقلت عنه فتسوفيه (٧٧/٢/١١) قوله « انه ليوم عظيم للدولة وللاستيطان، يوم يرمز الى دعم تمرکزنا في المنطقة التي اصبحت منذ حرب الايام الستة جزءا لا يتجزأ من الدولة وأمنها . »

وتم تعزيز مستوطنة اوفيرا في شرم الشيخ بتدشين خط مياه على امتداد مئة كيلومتر من الطور الى المستوطنة . وقال حسب ما ذكرت دافار (٧٧/٤/١٣) في هذه المناسبة : « انني اؤمن بتواجدنا هنا لمدة طويلة لمتطلبات امن اسرائيل . انني اؤمن بان كل من يعيشون هنا سيستمررون في كونهم مواطني اسرائيل مدى الاجيال » .

وفيما يتعلق بالشاريع الاستيطانية المستقبلية فانها تشمل جميع المناطق العربية المحتلة ، فبالنسبة لهضبة

المعتقلين في التظاهر ، وتقديم مذكرات الى الصليب الاحمر الدولي ، كما ووجه رؤساء البلديات مذكرات مماثلة الى المسؤولين الاسرائيليين . وحدثت تظاهرات شعبية متعددة وفي اوقات متفاوتة في الضفة الغربية تأييدا لمطالب المضربين .

ونجح المعتقلون في ايصال صوتهم الى الرأي العام العالمي ، فقد تعاطف مع الاحزاب اتحاد النقابات الفرنسية ، كما وان رئيس مجلس السلم العالمي ارسل برقية الى رئيس حكومة اسرائيل ، احتج فيها ، كما تقول الاتحاد (٧٧/٣/١١) على « سوء المعاملة التي يلقاها السجناء السياسيون » .

حركة الاستيطان : في السابع عشر من ايار ترك حزب العمل الحكم بعد مضي قرابة عشر سنوات على احتلال المناطق العربية ، بعد ان غرس في ارجاء مختلفة منها قرابة سبعين مستوطنة . وليس هناك شك بان هذا التاريخ هو بمثابة محطة جديدة في تاريخ الاستيطان يمكن ان تتفرع منها خطوط تختلف كثيرا عن الخطوط السابقة اذا ما اخلص قائدس القطار الجديد للخطوط العامة لبيادته !!

لقد اتسمت الفترة الاخيرة من حكم حزب العمل ، على الصعيد الاستيطاني ، بتسايق الاستيطان « الرسمي » الذي توجهه الحكومة ، و « غير الرسمي » الذي يقوده جوش ايمونيم ، وظهور مشاريع مستقبلية ، ومصادرة الاراضي ، وابتداع اسلوب جديد غريب للحصول على الاراضي كالذي جرى في قرية دير ابو مشعل في الضفة الغربية .

ويخصوص المستوطنات التي برزت على الارض والتابعة «للاستيطان الرسمي» فقد

الليكود والمقدال • فقد نشط جوش ايمونيم في القيام بمسيرات وحملات استيطانية في مناطق مختلفة في الضفة • ففي السابع والعشرين من شباط حاول قرابة ٣٠ شخصا من نواة استيطانية تابعة لجوش ايمونيم تحمل اسسم « غرب السامرة » خلق واقع جديد في مسحة الواقعة على بعد ٨ كلم شرقي قرية كفر قاسم • واحتل هؤلاء مركز الشرطة القديم ، الا انهم ارغموا على ترك المكان في نفس اليوم كما ذكرت هارتس (٧٧/٢/٢٨) على يد قوات من الجيش الاسرائيلي هبطت هناك بواسطة طائرات هليكوبتر •

ومن الجدير بالذكر ان اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان كانت قبل شهر من ذلك ، قد صادقت على استيطان مسحة ، الا انها اجلت البدء في اقامة الامر الواقع حتى تنتهي من صفقة بيع الاراضي هناك •

وتلقف حزبا ليكود والمقدال قضية الاستيطان في مسحة وهاجما في الكنيست الحكومة « لعدم تمكنها حتى الان نواة جوش ايمونيم من الاستيطان في غرب السامرة » وذكرت معاريف (٧٧/٣/٢) ان يسرائيل جليلي رد على المنتقدين بقوله ان الحكومة ستعمل كل شيء من اجل تنفيذ الاستيطان في مسحة ، وان الشروع بالاستيطان هناك مرتبط بـ « التغلب على شروط استيطانية عملية ٠٠٠ »

وعاد جوش ايمونيم عند اواخر شهر اذار واخذ يمهّد ارضا بواسطة جرافة في منطقة قليلية بغرض خلق واقع جديد هناك ، وافادت دافار (٧٧/٣/٢٩) ان الحاكم العسكري لطولكرم امسر بوقف نشاط جوش ايمونيم في تلك المنطقة ، وأشارت الى ان المجموعة تركت المكان •

وفي الخامس من نيسان رد جوش ايمونيم بحملة استيطانية ضخمة اشترك

الجولان السورية ، صادقت اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان برئاسة الوزير يسرائيل جليلي على اقامة ثلاث مستوطنات في منطقة واسط • وافادت معاريف (٧٧/٢/١) انه قد تم تحديد اماكن المستوطنات الثلاث التي ستبنى اثنتان منها وفق الاسلوب التعاوني والثالثة كيبوتس •

وبالنسبة للاراضي المصرية ذكرت معاريف (٧٧/٢/١١) انه من المقرر اقامة مستوطنتين جديدتين على شاطئ البحر الاحمر ، الاول الى الجنوب من مستوطنة نفيעות والثانية في نابق بين مستوطنة دي زهاف واوقيرا •

كما واعلن ان وزير الزراعة اهارون اوذن يحمل في جعبته مشروعا لاقامة عشر مستوطنات جديدة هذا العام في مشارف رفح شمالي سيناء • وبمقتضى هذا الاقتراح كما ذكرت معاريف (٧٧/٤/٤) « ستخصص ثلاث للمهاجرين الجدد وثلاث لابناء المستوطنات والباقي لمستوطنين آخرين » •

وفيما يتعلق بالاراضي الفلسطينية ، فقد اعلن عن اعتزام حركة الموشافيم اقامة مستوطنة جديدة في منطقة فصال في غور الاردن ، وافادت معاريف (٧٧/٥/٢) ان عملية اقامة المباني ستتم خلال السنة المالية الحالية ، وان النواة الاستيطانية التي ستشغل المستوطنة تتشكل من مهاجرين يهود من اميركا تتراوح اعمارهم بين ٢٠-٣٠ سنة •

ويبدو ان المستوطنات الجديدة التي برزت على الارض ، وتلك التي لا تزال تنتظر دورها ، لم تشبع النهج الاستيطاني لدى جوش ايمونيم الذي ينضوي تحت لوائه غلاة المستوطنين المدعومين من

الإدارة لاستملاكها من خلال وسطاء ،
 وأشار إلى ان السلطات تعتزم شق
 « طريق أمّني » بين كفر قاسم وبين غور
 الأردن « وستجري محاولات لشراء اراض
 من أجل إقامة الطريق . ولكن يبدو انه
 ستكون هنالك ضرورة بمصادرات واسعة
 للاراضي بغرض استكمال الطريق » .

الإشباح تتحرك وسط الظلام
 في دير ابو مشعل : واذا كانت ادارة
 اراضي اسرائيل تسعى في وضع النهار
 لامتلاك الاراضي العربية بشكل « رسمي » ،
 فان هنالك من يسعى الى ذلك تحت جناح
 الظلام وبوسائل خاصة ! فقد تعرضت
 قرية دير ابو مشعل الواقعة الى الشمال
 المغربي من رام الله ، بالقرب من الخط
 الاخضر ، ، ولا تبعد كثيرا عن مسحة ،
 تعرضت طوال شهر نيسان وحتى العاشر
 من ايار الى « زيارات » ليلية تقوم بها
 جماعة « مجهولة » ترتدي الزي العسكري
 واللباس المدني ، تستهدف تخويف سكان
 القرية وطردهم من قريتهم بغرض اقامة
 مستوطنة فوق اراضيهم ، وتعتبر هذه
 المحاولات فريدة من نوعها ، إذ لم تشهد
 الحركة الاستيطانية خلال العشر سنوات
 الماضية ، محاولات من هذا النوع ، كما
 وان استيطان « سور وبرج » في اواخر
 الثلاثينيات ، والذي يعيد الى الادمان
 الاستيطان الابيض في الغرب الاميركي ،
 يخلو هو الآخر من هذا الاسلوب . وروى
 ابو ماهر المتحدث باسم سكان قرية دير
 ابو مشعل قصة « الزيارات » الليلية
 في مؤتمر صحفي عقده في رام الله على
 اثر تظاهرة قام بها سكان القرية بعد ان
 عيل صبرهم ، ولم تسفر الشكاوى التي
 قدموها للحاكم العسكري عن شيء ، روى
 قصة القرية مع الاشباح ، ونقلتها عنه
 هارتس (٧٧/٥/١٣) ، فمسال « منذ
 اربعين يوما يأتي الى تخوم قريتنا

فيها قرابة ٢٥ ألف شخص ، توجهت الى
 المنطقة الواقعة بين قلقيلية وناپلس ،
 ووضعت حجر الاساس لمستوطنة مبنية
 تحمل اسم « قرتي شومرون » في النقطة
 الواقعة على بعد حوالي ٩٢ كم شرقي
 قلقيلية ، الا ان هارتس (٧٧/٤/٦) نقلت
 عن مصادر حكومية نفيها لخلق واقع
 جديد .

استملاك الاراضي ومصادرتها :
 الى جانب النشاط في اقامة المستوطنات
 يجري العمل بشكل دؤوب للحصول على
 اراض عربية ولا سيما في الضفة الغربية .
 ومن الجدير بالذكر ان صفقات بيع
 الاراضي واستملاكها لا تتم بشكل مباشر
 بين اصحاب الاراضي وادارة اراضي
 اسرائيل ، بل بين اصحاب الاراضي
 وافراد يهود وشركة « هيمنوتا » التابعة
 للصندوق القومي لاسرائيل ، وبعد ذلك
 تقوم ادارة اسرائيل باستملاكها من
 الافراد اليهود او الشركة المذكورة ، ومن
 ثم تعد الارض لمشروع استيطاني .

وفي مقال له (هارتس ١٨-٢٠-٧٧)
 ذكر يهودا ليطاني ان عملية صفقات
 بيع الاراضي قد انتعشت مؤخرا في
 مناطق غور الاردن الشمالي ، في البقيّة
 وقرية عقربة ، وكذلك في مناطق جوش
 هتسيون والقدس ، وجنوب رام الله ،
 والنبي صموئيل والجيب وبيست عورا
 التحتا ، وكذلك في منطقة مسحة الواقعة
 الى الشرق من كفر قاسم . وبخصوص
 منطقة مسحة قال : « ان صفقات الاراضي
 المعروفة بانها حساسة لا تزال غير منتهية
 في منطقة مسحة ، ولذا لم يصدر الضوء
 الاخضر حتى الان لنواة غرب السامرة ،
 ويبدو انه اذا لم تستكمل الصفقات حتى
 الاشهر الاخيرة ، فان الحكم العسكري
 سيصادر جزءا من الاراضي التي تسعى

الاسرائيلية كما هو منتظر ، وبدأت معركة حقيقية بيننا وبينهم . رشقناهم بالحجارة ، ورشقونا هم أيضا ، وعادوا وكسروا سماسك الابواب ، وقطعوا خطوط الكهرباء ، الا انهم اضطروا في النهاية للانصراف ٠٠٠٠

ومن الجدير بالذكر ان مراسل هارتس توجه الى القرية ، بعد تظاهرة السكان في رام الله ومؤتمرهم الصحفي هناك ، واكد ما ذكر عن الاضرار التي لحقت بنوافذ المنازل وابوابها المهشمة ، وتخريب الخط الكهربائي ، وذكر انه عندما وصل الى القرية ، صاح به الاطفال هناك ، لاعتقادهم انه ينتمي الى الاشباح الليلية ، هاتفين فلسطين عربية ،

عبد الحفيظ محارب

مجهولون ٠٠٠ يطرقون ابواب المنازل ويطلبون من السكان قلعيتين كبيرتين من الارض ، وفي الواقع كل اراضي القرية ٠٠٠ وهؤلاء الرجال ، معظمهم يرتدون البسة مدنية ، ويحملون اجهزة اتصال ، واسلحة ومكبرات صوت ، يأتون كل ليلة ببضع سيارات ٠ في البداية كانوا يكتفون بالطرق فقط على الابواب ، وباسماع تهديدات ومسبات ومطالب شفوية بخصوص الاراضي ، وفي الايام الاخيرة بدأوا يتصرفون بمزيد من الشدة والعنف فقد بدأوا برشق نوافذ البيوت بالحجارة وكسروا ابوابا ٠٠٠ وامس ٠٠٠ قررنا جميعا في القرية تنظيم انفسنا ، لنكيل الصاع صاعين ، حتى لو قتلونا ٠٠٠ وخلال الليل عاد وظهر أفراد المجموعة

الاحزاب الرئيسية لسقوط حزب العمل

تعبير حقيقي عن رغبات اغلبية الاسرائيليين ؟ ان الرد على هذا السؤال يكمن في النتائج النهائية للانتخابات ، ومعرفة القطاعات التي صوتت لكثلة « ليكود » ، وهل ان هؤلاء صوتوا لدوافع سياسية مصدرها التعامل مع مواقف اليمين في هذا المجال ، ام لدوافع اخرى اجتماعية واقتصادية ، ضاقت مؤيدي « الليكود » اثناء حكم « المعراخ » ، وادت الى سقوطه ؟

يظهر من النتائج النهائية للانتخابات الاخيرة ، ان « الليكود » حصل على اصواته من ثلاث فئات داخل المجتمع الاسرائيلي : الطوائف الشرقية ، الفئات ذات الدخل المنخفض والشباب (بما في ذلك الجيش) ، « فمئذ عشر سنين تشير استفتاءات. الرأي العام باستمرار الى تزايد الاتجاه اليميني بين هذه الفئات الثلاث .. التي يزداد اتساع رقعتها الجماهيرية تدريجيا بالمقارنة مع الفئات الاخرى ، بحيث يمكن القول ان مستقبل الانتخابات في اسرائيل متعلق بها .

يعتبر سقوط حزب العمل في الانتخابات الاخيرة للكنيست التي جرت في ١٧ ايار الماضي ، وقوز الاحزاب اليمينية المعروفة بكثلة « ليكود » نقطة تحول هامة في حياة اسرائيل ، ليس من الناحية السياسية فقط ، وانما من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ايضا ، نظرا للتطورات المتوقعة على هذه الاصعدة خلال الفترة المقبلة . فعلى الصعيد السياسي ، يعتبر فوز اليمين تصعيدا للمتطرف السياسي كما عبرت عنه مواقف الحكومات السابقة بقيادة المعراخ ، خاصة فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية ومصير المناطق المحتلة . وفضل دليل على ذلك البرنامج المتصلب لحكومة بيغن فيما يتعلق بالمفاوضات المباشرة مع العرب دون شرط او « طرف ثالث » ، وبلاستيغان في المناطق المحتلة وفسق الاهداف الصهيونية وليس الامنية فقط . وهنا يمكن التساؤل : هل قسدت الاسرائيليون الاحتلال ، خلال الانتخابات الاخيرة ، وهل ان سياسة « ليكود » هي

قاصوات « الليكود » داخل الجيش ارتفعت الى ضعف عدد اصوات المعراخ (انظر الجدول الاول) وينطبق الامر نفسه على المستوطنات التي معظم سكانها من

(الجدول الاول)

جدول بعدد المقترعين ونسبتهم للقوائم الفائزة في الانتخابات للكنيست التاسع ، ونسبة المقترعين في الجيش وعدد المقاعد لكل قائمة

القائمة	عدد الاصوات	نسبة المقترعين	نسبة المقترعين في الجيش	عدد المقاعد
ليكود	٥٨٢٠٧٥	٣٢٪	٥٥٪	٤٣
معراخ	٤٣٠٠٢٣	٢٤٪	٢٢٪	٢٢
داس	٢٠٢٢٦٥	١١٪	١٦٪	١٥
المفدال	١٦٠٧٨٧	٩٪	٥٪	١٢
راكح	٧٩٧٢٣	٤٪	٠٪	٠
اغودات يسرائيل	٥٨٦٥٢	٣٪	٠٪	٤
شلوم تسيون	٢٧٢٨١	١٪	٢٪	٢
شلي	٣٣٩٤٧	١٪	٢٪	٢
يوغلي اغودات يسرائيل	٢٣٩٥٦	١٪	٠٪	١
القائمة العربية	٢٤١٨٥	١٪	٢٥٪	١
احرار مشغليين	٢١٢٧٧	١٪	٠٪	١
بلاوتون رون	٣٥٠٤٩	٢٪	١٪	١
حركة حقوق المواطن	٢٠٦٢١	١٪	١٪	١

عدد المقترعين اصحاب حق الانتخاب ٢٢٣٦٢٩٣

الذين صوتوا بالفعل ١٧٧١٧٢٦

الاصوات الصالحة ١٧٤٧٨٢٠

المصدر : معاريف ، ١٩٧٧/٥/٢٥

هارتس ، ١٩٧٧/٥/٢٢

(الجدول الثاني)

نسبة فوز الليكود في المدن الكبيرة ومدن التطوير

١٩٧٣	١٩٧٧	
٣٥ر٣	٣٦٥	المدن الكبيرة
٣٠ر٢	٣٦٠	المدن الصغيرة والقرى الكبيرة
٣٠ر٦	٣٥٠	المستوطنات القديمة
٣٣ر٢	٤١٦	مدن وقرى المهاجرين
٢٩ر٢	٤٠ر٤	قرى التطوير

ملاحظات

- ١ - معظم سكان قرى التطوير والمهاجرين من اصل شرقي ، صوتوا في الماضي بشكل بارز لبني ، ولحزب العمل وللمعراخ .
 - ٢ - بلغ مجموع الاصوات التي حصل عليها الليكود نحو ٥٨٥ الف صوت مقابل ٤٧٣ الف في الانتخابات السابقة .
- المصدر : (دوف عشمون - يديعوت احرونوت ، ٧٧/٦/٣) .

فوز « ليكود » يعود في الاساس الى تأييد هذه الفئات .

٣ - ان الناخبين من الطوائف الغربية ، الذين ايدوا حزب العمل في الماضي ، منحوا اصواتهم هذه المرة لحركة « داش » خاصة بين اصحاب المهن الحرة والاكاديميين .

٤ - التأييد « لليكود » بين الشباب وفي الجيش (انظر الجدول الاول) .

٥ - الانتخابات للكنيست التاسع اكسبت معسكر اليمين ثمانية مقاعد جديدة (٤ « لليكود » ، ٢ شلوم تسيون ، ٢ للحزب الديني القومي) .

الاسباب الاساسية لسقوط المعراخ

ان قوة المعراخ اليوم اقل من نصف القوة التي كانت للاحزاب المكون منها . ليس فقط في الانتخابات الاولى فسي

الطوائف الشرقية (الجدول الثاني) بينما ارتفعت نسبة التصويت « لليكود » في الاحياء الفقيرة في المدن الكبيرة الى نحو ثلاثة اضعاف نسبة التصويت للمعراخ (دائيد شاحام - دافار ، ٢٩/٥/٧٧) . ففي تل ابيب بلغت نسبة التصويت « لليكود » في الاحياء الفقيرة في المدينة ٥٣٪ وللمعراخ ١٧٪ فقط . وفي حيفا بلغت نسبة التصويت في الاحياء الفقيرة ٤١٪ لليكود و ١٩٪ للمعراخ .

ويمكن من خلال مراجعة نتائج الانتخابات الاشارة الى الاستنتاجات الآتية :

- ١ - ان المعراخ خسر مؤيديه في جميع القطاعات باستثناء الكيبوتسات .
- ٢ - ان نسبة التأييد « لليكود » بين الطوائف الشرقية وابناء الاحياء الفقيرة كانت مرتفعة جدا ، بحيث يمكن القول ان

الخصومات والعلاقات الشخصية السيئة داخل الحكومة أصبحت حديث الجمهور ، ومركز اهتمامه . وأقصد ، مثلاً ، العلاقات بين رئيس الحكومة ووزير الدفاع ، وبين سكرتير عام الهستدروت ووزير المالية ، (في حديث له مع معاريف ، ٧٧/٦/٣) .

تختلف آراء المعلقين والخبراء فسي الشؤون السياسية الداخلية في إسرائيل ، حول الفترة التي بدأ بها تفكك حركة العمل ، فمنهم من ينسبها إلى حسب ١٩٧٣ ، حيث اتهم زعماء « المعراخ » بالتقصير في الحرب ، وبدأت شعبيتهم بالتقلص ، خاصة بعد ظهور حركات الاحتجاج التي طالبت علنية باستقلالهم جميعاً من قيادة الدولة . وهناك من يعزو بدء التفكك إلى حرب ١٩٦٧ حيث لم تستطع حكومة إسرائيل استغلال النجاح ، « فالنصر في حرب الأيام الستة كان كبيراً ، وفرصة ترجمته إلى عبارات سياسية ضاعت تماماً » (زئيف شتينهيلم - هارتس ، ٧٧/٥/٢٩) . ويضيف الكاتب وهو رئيس قسم العلوم السياسية في الجامعة العبرية ، قائلاً ، ان حزب العمل كان الضحية الأساسية في مرحلة شد الأزمات ، التي وصلت إلى نهايتها في أيار ١٩٧٧ مع نهاية تكامل مجرى اجتماعي وسياسي يتمثل في أساسه في نقل مركز الثقل السياسي نحو اليمين . ويقول الكاتب ان هذا المجرى لم يتجاوز أحداً من القوى السياسية الهامة ، وله طابع مزدوج : حدث تحرك عام في النظام السياسي نحو اليمين . ومن جهة أخرى برزت راديكالية داخلية لدى كل من الكتلة السياسية الرئيسية . وفي هذا المجرى فقد حزب العمل مضمونه وايدولوجيته ومؤيديه ، والأهم من ذلك المفهوم القومي التقليدي الذي كان تبناه : « فعلى أساس هذا المفهوم ، الذي تمثل في تجسيد سياسة صهيونية

إسرائيل في سنة ١٩٤٩ ، قبل بدايات الهجرة الجماهيرية ، وإنما حتى ، في خوضها الانتخابات منفصلة في انتخابات ١٩٦٥ . وخلال الاثنتي عشر سنة هذه حدث الانجراف ، ولم تنجح جميع الائتلافات - إقامة حزب العمل وبعد ذلك إقامة المعراخ - فالقوة المتحدة انخفضت خلال هذه الفترة حتى النصف ، (دافيد شاحام - دافار ، ٧٧/٥/٢٩) .

ويحلل رئيس « مركز الانتخابات » في المعراخ حاييم بارليف ، الأسباب التي أدت إلى سقوط قوة المعراخ على هذا النحو بقوله : « أنني أرى ان هناك أسباباً رئيسية ، بعضها ناتج عن الوضع الموضوعي ، وبعضها ذاتي » .

«فمنذ حرب يوم الغفران أصبح الوضع الموضوعي صعباً جداً على جميع الأصعدة : السياسية ، الأمنية ، الاقتصادية والاجتماعية . والإسرائيلي العادي يكتشف كل صباح وضعاً مختلفاً عن رغبته . فبعد ٢٩ سنة من الاستقلال ، وبعد خمسة حروب ، كنا نرغب في أن يتروكنا ، في النهاية ، نبنى الدولة بهدوء » .

« ولكن الواقع مختلف : فالسودول العربية لا تتصرف كما كنا نرغب . والولايات المتحدة كذلك لا تتصرف حسب رغبتنا . كذلك فالاقتصاد العالمي لا يدار حسب مشيئتنا . والهجرة تقلصت والنزوح ازداد . والجمهور أصبح أكثر نقداً . فالسلطة لم تعد سلطة ، ولا يمكن الاعتماد على المؤتمنين على القطاعات المختلفة . أما الانضباط الداخلي فقد ضعف ، وطبيعي أن يوجه اللوم إلى القيادة » .

« والسبب الآخر ، الذاتي ، متعلق بالحكم - أو بالمؤسسة - التي لم تستطع التغلب على الخلافات بين أعضائها . ان

براغمية ، تعرف الحدود بين المعقول واللامعقول ، بين المسموح به والمحظور ، بين الامور المرغوب بها والدمسرة . لقد كان مفهوم « قيام دولة اسرائيل » اساس الايديولوجية الصهيونية كما تبلورت منذ مشروع التقسيم الاول للجنة بيل ، وحتى حرب الايام الستة . فخلال ثلاثين سنة كاملة ، حكمت صهيونية التقسيم ، الصهيونية « العاقلة » في الحياة السياسية في اليبشوف وفي اسرائيل ، وقد تهدمت بقوة الهزة التي حدثت في حزيران ١٩٦٧ . وخلال هذه السنتين كانت تمتلك القوة الكافية لانشاء دولة ، واستيعاب هجرة ، وتثبيت نظام حكم ، وبناء انظمتها ، كانت تملك قوة كافية للمصمود في وجه الفقر والبطالة امام ضغوط داخلية كبيرة - ولكنها لم تملك القوة للتغلب على النجاح : فالنصر في حرب الايام الستة كان كبيرا جدا وفرصة ترجمته الى عبارات سياسية ضاعت تماما . اما كيف حدث ذلك ، فبسبب « المواقف المتصلبة لحكومة غولدا مائير ، والخندقة التعيسة في خطوط وقف اطلاق النار ، واثناء حرب الاستنزاف ، واخيرا اثناء حرب يوم الغفران . ان هذه الامور جميعها سهلت المهمة على بيغن ورفاقه ، بينما ازدادت المهرة الايديولوجية بين اليسار واليمين تقلصا ، حتى اصبحت بالتاكل الطبيعي والانهاك ، وبفقسندان الثقة ، وبجميع الظواهر الجانبية لنظام حكم طويل . ولقد ظهرت علامات هذا التفكك بصورة كبيرة في العجز الايديولوجي ، والتنكر للشبيبة ، والطبقة المثقفة ، وفي النهاية في ازمة النخبة السياسية ، اذ كلما مر الوقت اظهرت هذه النخبة عزلتها وتجاهلها لمطالب المجتمع » (المصدر السابق) .

ويذكر دافيد شاحام ، احد الاعضاء البارزين في حزب العمل سابقا ، ان « الايديولوجية قد احتلت مكانا الايديولوجية في حزب العمل - هذا يعني انه يجب التعامل مع كل مشكلة بأسلوب متحرر من الصبغة الايديولوجية وايجاد حل لها قدر الامكان بدون اساس مبدئي ... ان حشزب الاكثرية - مباي ومتفرعاته - قد تخلت عن الحفاظ على المضمون الاشتراكي وطسور بدلا منه . مبادئ اخرى لا ينظر بجدية التي تطبيقها ... » (دافار ، ٧٧/٥/٣٠) . وحسب رأي الكاتب فقد وصلت الامسور الى حد انه في فترات معينة ، كان نضال الاحزاب العمالية موجها ضد رغبة العمال في تحسين وضعهم . « ان معظم الاضرابات كانت اضرابات عنيفة قام بها العمال ضد الدولة ، التي تحكمها حركة العمال ، وضد النقابة المهنية ، التي تعتبر احد اجهزة الحكم في الدولة » . « كل هذا كان لا يزال غير خطير ، لولا ازدياد عمق الهوة الاجتماعية - الاقتصادية في المجتمع الاسرائيلي . فقد ارتفع مستوى معيشة جميع الطبقات ، وبقي لجمهور العمال غير المهنيين فترات

ان التفكك الايديولوجي وفقسندان الواقعية السياسية التي كانت سر قوة حركة العمل في الماضي ، هما السببان

وبين هذه الطبقات والاحياء الفقيرة والطوائف الشرفية .. » ان الهزيمة التي اصيب بها حزب العمل هي نتيجة مباشرة لرفض قرى التطوير الكبيرة والاحياء الفقيرة ، تبني سياسة معتدلة ، براغماتية ، تطمح الى تنظيم علاقاتنا مع جيراننا على اساس التنازلات ، (زئيف شتيرنهيل - هارتس ، ٧٧/٥/٢٩) . اما السبب الرئيسي لهذا الرفض فيعود اساسا الى عوامل داخلية ادت الى التنازل بين حزب العمل وبين هذه الطبقات داخل اسرائيل .

وبين هذه العوامل الوضع الاقتصادي والاجتماعي الذي تعيشه هذه الطبقات منذ قيام اسرائيل . وهناك عامل آخر تحدث عنه دافيد شاحام (دافار ، ٢١/٥/٧٧) ويتعلق بالتعليم الذي يتلقاه ابناء هذه الطوائف في اطار المدارس الدينية التي تخضع لسيطرة الاحزاب الدينية في اسرائيل . ويقول الكاتب ان توجه هذه الطبقات نحو اليمين ناتج عن توجيهها الى نظام التعليم هذا ، ويدعى في اسرائيل « التعليم الديني - الرسمي » .

ويقول الكاتب ان « التعليم الديني الذي تقوم به المدارس الرسمية - الدينية (وبمدى كبير في المدارس العامة ايضا) هو تعليم بروح المغدال . اي بشكل لا يشدد على القيم الاخلاقية الانسانية ، وانما على قيم الدين والتقاليد ، اي ليس على القيم الروحية المتعلقة بمحبة الانسان لكونه انسانا ، ووفقا لقيم العدل والفضيلة ، وانما على قيم قومية متطرفة تتمثل بالانعزالية وبالشعور المزيف بالتفوق على ابناء الشعوب الاخرى ، هذا بالاضافة الى تربية الطلاب على كراهية الغريب ، وحسب الاحتلال والسلب . ان عبارة « الشعب المختار » تفسر لدى خريجي هذه المؤسسات ليس كتعبير عن رغبة الانسان في ان يفعل كل خير من اجل ان يكسب محبة الرب ، وانما تفسر

من الثراء الكبير الذي كان من نصيب الاغنياء الجدد ، وحيانا من خلال تجاهل الحكم ، وحيانا بسبب الامهال ، وحيانا اخرى - عن قصد ، كهديسة مجانية . ويضيف الكاتب قائلاً ان ايديولوجية حزب العمل كانت تروى على لسان اولئك الذين « يملكون الاشياء » ، بينما وجد غيرهم عزاء له في مكان آخر . « فقد تساقطوا كثمار ناضجة الى صفوف ذوي العنف الديماغوجيين بين صفوف الليكود . وهناك ، من خلال رغبتهم في الثورة ضد « اليسار » وجدوا البشرى : اسقاط الحكم الذي يظلمهم ويرفض اشراكهم في حفلة الاثراء السهل . ان اضعاف الشعور القومي المتطرف العنيف ، الذي يطلق سراح الغرائز المكبوتة ، وينشر احلام التفوق التي تبهر كل من اعتاد على العيش بخيبة امل والذل - لم يكن غريبا هنا . فقد حدثت امور مشابهة في اماكن اخرى في العالم » (المصدر نفسه) .

ان مجتمع الثراء الذي اكتسب الشرعية في عهد حكم حزب العمل ، كان جاملا اساسيا في تنكر الطبقات الفقيرة له ، وتأييدها لكتلة ليكود في الانتخابات . « ففي نظام حكم حزب العمل اصبح مستوى المعيشة (وبصورة ادق : مستوى الاستهلاك) من اعلى القيم في المجتمع ، واصبحت القدرة الاستهلاكية الدليل الاساسي ، الذي يحدد مركز ومكانة الفرد بين الجمهور ؟ » (بروفيسور يرمياهو يوفيل - يديعوت احرونوت ، ٧٧/٥/٢٠) .

لقد حدث هذا كله في آن واحد مع تجاهل الطبقات الدنيا ، وهذا يعني ، الطوائف الشرقية بالمفهوم الاجتماعي الحقيقي للكلمة . فرغم ان سياسة الانعاش التي اتبعتها الحكومة قد ادت الى تحسين وضع الطبقات الفقيرة ، فقد حدث في نهاية الامر تنكر بين حزب العمل

بيريس والون حقيقة الامر ، خاصة وان انتخابات المهستدروت على الابواب ، فاتفقوا على تلافسي الخلافات ورض الصفوف من اجل خوض معركة انتخابات المهستدروت التي تعتبر اهم معقل بالنسبة لحزب العمل . وفي هذه الاثناء قام مركز حزب العمل بانتخاب بيريس رئيسا للحزب ، بموافقة جماعة الون ورابين ، وينتظر ان يتم التصويت على هذا الانتخاب في مؤتمر الحزب القادم . ويستعد حزب العمل خلال الفترة المقبلة للقيام بمهام صعبة في مجال اعادة تنظيم نفسه ، وبناء مؤسساته من جديد . وهناك من يقول ان ترميم مؤسسات الحزب امر غير مجد ، وانما المطلوب هو ولادة الحزب من جديد : ايدولوجيا وتنظيميا . وهناك ثلاث احتمالات مطروحة للتطورات داخل الحزب خلال الفترة المقبلة : الامكانية الاولى انقسام المعراج وحزب العمل خلال الفترة المقبلة ، عاجلا ام اجلا . « وفي نهاية الامر يقوم حزبان ، او كتلتان ، قسي الكتلة الاولى مبام ، احدوت هعفوداه ، شلي وجزء من مباي ، وفي الكتلة الثانية معسكر بيريس ، « داش » ، الاحرار المستقلون وقائمة حقوق الانسان . ومن ناحية الخريطة السياسية فان هذا الوضع يعتبر عودة الى الوضع الذي كان قائما في مطلع قيام الدولة : مباي التاريخية ومبام التاريخي مقابل اليمين والمتدينين « (دانييل بلوخ - ملحق دافار ، ٧٧/٦/٣) .

والامكانية الثانية التي يذكرها الكاتب هي احتمال تحالف بين الاحزاب الغمالية على حسب فكرة يعكوف حزان ، اي قيام تحالف بين اجسام سياسية واحزاب مستقلة على اساس برنامج حد ادنى مشترك ، تلتزم بموجبه سلفا بالتعاون بعد الانتخابات في حال خوضها الانتخابات بصورة مستقلة .

بالحقوق الكثيرة التي يجب ان تعطى لابناء هذا الشعب بحكم الوعد الالهي . ان الاسس الدينية - المقبلة في الديانة اليهودية تمثل في مؤسسات هذا التعليم مكانا اكبر واهم من الاسس العلمانية - الروحية » .

ويضيف الكاتب قائلا : ان الخطأ التاريخي كان في ترك ابناء الطوائف الشرقية تحت رحمة شبكة التعليم الديني . ان هذا التعليم الذي دام طسواول عشرات السنين لا يمكن محوه بسرعة . وحركة العمل لا تستطيع احداث تحول في الجيل الحالي . ولكنها اذا كانت ترغب في عدم فقدان الجيل القادم ، فعليها ان تعطي رأيها في مسألة التعليم ايضا ، (المصدر نفسه) .

لقد ادت هذه الاسباب مجتمعة الى هزيمة حزب العمل في انتخابات ١٩٧٧ . وقد كانت هذه الهزيمة نهاية حتمية للتفكك الداخلي في الحزب ، ايدولوجيا وتنظيميا وممارسة . اضع الى ذلك ، الفساد الذي انتشر بين المؤتمنين على تنفيذ مشاريع مختلفة ، وعلى مؤسسات كبرى ، الامر الذي تمثل بالفضائح المالية الكبرى والرشاوى والمخالفات التي ظهرت داخل الادارة ، حيث وصلت الى بيت رئيس الوزراء نفسه ، وادت الى استقالته قبل وقت قصير فقط من الانتخابات ، في وقت كانت قضايا اخرى مثل قضية يدلين وانتحار الوزير عوفر لا زالت تتفاعل .

اعادة تنظيم حزب العمل

بعد تلقي الهزيمة ، وبعد الاتهامات المتبادلة داخل حزب العمل بين الكتل المختلفة خاصة بين اعضاء « احدوت هعفوداه » و « الكيوتس الموحد » من جهة ، وبين مؤيدي بيريس من رافي ومباي سابقا ، ادرك زعماء الحزب وعلى رأسهم

التسوية في المنطقة . حيث ان الرئيس نفسه قد اعلن أكثر من مرة ، ان الولايات المتحدة ستترك الاطراف تجري المفاوضات فيما بينها ، ولكن التصريحات الاخيرة نسفت هذه الوعود .

ويقول وزير الخارجية الاسرائيلي . انه تلقى معلومات من « مصدر موثوق ، في واشنطن ، تقول ان التصريحات التي اطلقت في واشنطن قد جاءت ردا على التصريحات التي اطلقت في تل ابيب (معاريف ٣٠-٥-٧٧) .

وكان السفير الاميركي الجديد في اسرائيل ، قد نفى وجود مشروع اميركي ، لحل النزاع في المنطقة . فلدى لقائه مع رئيس الحكومة رايبين قال لويس : هناك اوراق عمل مختلفة لدى وزارة الخارجية الاميركية ، ولكنه لا يوجد مشروع متفق عليه ولا توجد اية نية اميركية لفرض حل على الاطراف في الشرق الاوسط . ولكن السفير الاميركي ، اشار الى ان روح « مشروع بروكينز » الذي يتحدث عن تحديد الهدف النهائي والتنفيذ على مراحل . مقبول لدى الادارة الاميركية ، ولكنها لم تعد اي مشروع مفصل بهذا الشأن (دافار ٢٦-٥-١٩٧٧) .

ولكن بالرغم من النفي الاميركي لوجود مشروع او خطة اميركية ، فلدى رئاسة الحكومة ووزارتي الدفاع والخارجية الاسرائيلية ، تقرير مفصل حول اساس التسوية الشاملة في الشرق الاوسط والتي تم اعدادها لدى وزارة الخارجية الاميركية . وعلم ان الاسس التي اعلمت بها اسرائيل ، قد تم العمل عليها من قبل المستويات العليا في وزارة الخارجية الاميركية ، ويبدو حسب كافة الدلائل انها حظيت بالموافقة من اعلى المستويات . قبل ان تسلم الى اسرائيل . ويقول المحرر السياسي لصحيفة « هارتس » ، ان

وكان ألون ، قد اجتمع الى السفير الاميركي الجديد في اسرائيل ، حيث عبر له عن قلق حكومة اسرائيل حول الضرر الذي تسببه التصريحات الاميركية الاخيرة لتقدم المفاوضات في الشرق الاوسط (دافار ١-٦-٧٧) . وكذلك اجتمع السفير الاسرائيلي في واشنطن مع نائب الرئيس الاميركي ، ونقل اليه الاستياء المتزايد في اسرائيل من تصريحات الرئيس الاخيرة حول شؤون الشرق الاوسط .

الخوف من وجود مشروع اميركي

يلاحظ من كافة التصريحات والتعليقات الاسرائيلية ، ان هناك خوفا متزايدا من وجود خطة اميركية جاهزة لحل ازمة الشرق الاوسط ، وان هذه الخطة سيتم تنفيذها عن طريق الفرض على كافة اطراف النزاع ، وهذا اشد ما تخشاه السياسة الاسرائيلية .

كان يغال ألون ، وزير الخارجية من بين الذين عبروا عن قلقهم ومخاوفهم من ان تؤدي التصريحات الاخيرة على اعلى المستويات الاميركية ، الى وجود مشروع شامل لحل ازمة الشرق الاوسط ، وهذا ما يعتبره ألون مناقضا للتعهد الاميركي المعلن بهذا الشأن . وكذلك عبر رايبين ، عن قلقه ازاء هذا الموضوع فقال : ان التصريحات الاميركية المفاجئة تنطوي على اعلان مواقف محددة بالنسبة لقضايا مختلف عليها بين اسرائيل والسادول العربية . وان هذه التصريحات ، التي لا تقبلها اسرائيل ، قبل بدء المفاوضات بين الاطراف تشكل صورة لوجود مشروع اميركي محدد لحل مشاكل المنطقة « (دافار ٣٠-٥-٧٧) .

وهنا يضع الاسرائيليون اللوم على واشنطن ويحملونها تجميد الوضع في الشرق الاوسط ، وذلك بسبب الموقف الاحادي الجانب ، الذي تنتهجه الان لاجلال

التصريحات الاخيرة للرئيس كارتر ، قد جاءت متأخرة جدا . وانه على الرغم من اقوال التهدة التي ادلى بها وزير الخارجية الاميركي ، للمسفير الاسرائيلي ، فلا تزال هناك نقاط كثيرة غير واضحة ، وعدم وجود رد رسمي عليها ، من قبل الحكومة يمكن ان يفسر علي انه « موافقة » اسرائيلية (شموئيل سيغف - معاريف ٧٧-٦٠) .

وانتقد سيغف الحكومة الاسرائيلية ، على تصرفاتها منذ الانتخابات الاخيرة للكنيست التاسعة ، وخاصة للشلل الذي اصابها في المجال السياسي . فبالرغم من ان رابين قد قطع اجازته ، فان حكومته لم ترد على مسألة « الانزلاق » الذي طرأ على الموقف الاميركي في مسالتي الحدود والقضية الفلسطينية . ويرى سيغف ان هذا الانزلاق هو حقيقي ، وانه يمكن ان يثقل بصعوبة كبيرة على الحكومة القادمة . وهناك دلائل مقلقة وصلت الى القدس في الايام الاخيرة تشير الى ان الولايات المتحدة قد اقتربت كثيرا من الحسم في الموضوع الفلسطيني . ويضيف الكاتب ، الى ان اسرائيل قد حصلت في هذه الايام على تقييم فعلي فيما يتعلق بالموضوع الفلسطيني ، من قبل وفد من كبار الموظفين الاميركيين الذين يزورون اسرائيل ، وقد قوى هذا التقييم الانطباع بان واشنطن على حافة الحسم فيما يتعلق بالموضوع الفلسطيني . فقد قال اعضاء الوفد ، ان لدى ادارة الرئيس كارتر معلومات موثوقة « تشير الى الاستعداد الفلسطيني للعيش بسلام مع اسرائيل - وليس على انقاصها » . وهذه الاقوال تتماثل مع التصريح العلني الذي ادلى به ياسر عرفات ، والذي اعلن فيه انه مستعد لان « يضمن » لاسرائيل عشرين سنة من الامن والسلام (المصدر نفسه) .

الحقيقة الكامنة وراء عدم رد الفعل الاسرائيلي الملائم حول هذه الاسس يكمن في ان الانتخابات ونتائجها قد تسببت في شل عمل الحكومة . وقال مصدر كبير لصحيفة « هارتس » انه في الاوقات العادية ، كانت مثل هذه الوثيقة تثير رد فعل فوريا وعنيفا من قبل اسرائيل .

ويشير بعض كبار المسؤولين الاسرائيليين الذين اطلعوا على هذه الاسس ، انها تعتمد على الانسحاب الاسرائيلي شبه الكامل وذلك على مرحلتين . ولكن هؤلاء المسؤولين عبروا عن دهشتهم وقلقهم نتيجة للتفصيلات الكثيرة التي وردت ضمن هذا التقرير . فقد صرح احدهم ، انه لم يكن لدى اسرائيل اي فكرة عن ان الادارة الاميركية ، ستهم ليس فقط بالاسس وانما ايضا بالتفاصيل الفنية الصغيرة . كما يعتقد هؤلاء المسؤولون الذين اطلعوا على التقرير ، انه نتيجة للتفصيلات الكثيرة والدقيقة التي ينطوي عليها التقرير ، فانه يتضح وبدون ادنى شك ، ان واشنطن تنوي العمل من اجل تجديد مؤتمر جنيف باسرع وقت . كما يفهم من العمل الجدي الذي استمر في رسم الاسس التي ان الولايات المتحدة تعد نفسها لتقديم الاقتراحات ليس فقط بالنسبة للاسس وانما تقريبا لكل مجال يصل فيه الاطراف الى طريق مسدود . (هارتس ٧٧-٥٢٦) .

وهناك بعض المعلقين الاسرائيليين ، من وجه انتقادا للحكومة وللمسؤولين الاسرائيليين ، نظرا لوقوفهم وقفة المتفرج ازاء التصريحات الاميركية ، وازاء شلل الحكومة في هذا المجال . فقد اعتبر احد المعلقين الرئيسيين في صحيفة معاريف ، شموئيل سيغف ، ان مقابلة يغال ألون ، مع سفير الولايات المتحدة في اسرائيل ، والتعبير امامه عن قلق اسرائيل ازاء

حدود أمنة وتعويضات للفلسطينيين

الآخيرة بقولها : لقد خطأ الرئيس كارتر خطوة إلى الأمام في « مفهومه الفلسطيني » ، ليس فقط بإدخال مصطلح « الوطن القومي الفلسطيني » إلى وثيقة أميركية رسمية ، وإنما أضيف لذلك أمر له دلالات كثيرة : فللمرة الأولى يستعمل المتحدث باسم البيت الأبيض فيما يتعلق « بالوطن الفلسطيني » ، أيضاً التعريف « حدود أمنة معترف بها » ، وقد حاول الناطق باسم الرئيس أن يتحايل على التفسير ، ولكن الصحفية ترى ، أن من تعقب الدبلوماسية الأميركية خلال الأشهر الأخيرة يعرف أن « زلة اللسان » من قبل الرئيس ليست عفوية وليست بالصدفة . وترى الصحفية أن التصريح حول « الحدود الأمنة والمعترف بها للوطن الفلسطيني » ، « لا يمكن أن يكون معناه إلا واحداً ، وهو أن الإدارة الأميركية تتقدم بخطى كبيرة نحو حل اقليمي للمشكلة الفلسطينية ينطوي على ٣ مخاطر كبيرة جداً لدولة إسرائيل » !

تغيير قرار ٢٤٢

يستفاد من التعليقات الإسرائيلية ، أن هناك مشروعاً أميركياً لتغيير قرار مجلس الأمن ٢٤٢ ، الذي ينظر إلى الفلسطينيين على أنهم « لاجئون » ، وهذا القرار لا ينسجم بعد مع الموقف الأميركي الجديد من الفلسطينيين ، ولهذا لا بد من إجراء بعض التعديل عليه . فقد ذكرت بعض الأوساط الإسرائيلية الرسمية أنه يجري في واشنطن الآن دراسة اقتراح يقضي باتخاذ قرار جديد في مجلس الأمن لكي « يتخطى » الثغرات القائمة في قرار مجلس الأمن ٢٤٢ وقرار الجمعية العمومية ٢٣٥٦ بشأن وضع الفلسطينيين . وأنه من أجل حل مسألة التمثيل الفلسطيني في مؤتمر جنيف ، فإنه

كان للتصريح الذي أدلى به الرئيس كارتر ، حول انشاء وطن للفلسطينيين ، ومن ثم ايجاد حدود أمنة لهذا الوطن وكذلك دفع التعويضات لهم ، أثراً سيئاً كبيراً لدى مختلف الأوساط الإسرائيلية . وقد أصيبت كافة تلك الأوساط بالذهول والدهشة ، لأن الرئيس كارتر ، أخذ يطلق هذه التصريحات خطوة خطوة ، كان أولها انشاء وطن للفلسطينيين ، ومن ثم حدود أمنة لهم ، وبعدها دفع التعويضات . وقد هلع الإسرائيليون مؤخراً عندما أعلن كارتر عن تطبيق قرار الجمعية العمومية ١٨١ ، ١٩٤ (قرار التقسيم) . فقد ناقشت الحكومة الإسرائيلية تلك التصريحات ، وخاصة عندما قال - أنه يحق للفلسطينيين وطن - بناء على قرارات الأمم المتحدة . وأشارت الأوساط السياسية في القدس ، إلى أن كارتر قد استعمل في الماضي مصطلح « وطن للفلسطينيين » ولكنه فسر هذا المصطلح « كوطن للفلسطينيين - في إطار الشعب الأردني أو بطريقة أخرى » ، ولكنه من غير الواضح ، إذا كان يقصد ذلك في بيانه الأخير . وأشارت تلك المصادر في القدس إلى أن هذه هي المرة الأولى التي يتحدث فيها الرئيس كارتر عن حقوق الفلسطينيين بالحصول على تعويضات من دولة إسرائيل . وبهذا الصدد قالت تلك المصادر ، أنه إذا طرحت بالفعل مسألة التعويضات للفلسطينيين ، فإن إسرائيل ستطالب بالتعويضات للاجئين اليهود من الدول العربية . وتم تسليم مذكرة بهذا الصدد إلى وزير الخارجية الأميركي سايروس فانس ، أثناء زيارته لإسرائيل (معاريف ٧٧-٥-٢٩) .

وقد علق صحيفية معاريف (٧٧-٥-٢٥) على تصريحات كارتر

الاسرائيليون ، ان كارتر قد نسي فكرة الاطار الاردني وانه يتحدث الان عن اطرار مستقلة . ويخلص التقرير الاسرائيلي اسي « انه طرأ انزلاق فعلي على الموقف الاميركي بالنسبة لموضوع الحدود والمسألة الفلسطينية ، وانه سيتطلب من مناحيم بيغن وموشيه دايان جهد كبير ، من اجل ايقاف هذا الانزلاق ، او من اجل احداث تغير على الموقف الاميركي بالنسبة لما صرح به الرئيس كارتر علنا حتى الان » (معارييف ٢٩-٥-١٩٧٧) .

ويرى بعض المعلقين الاسرائيليين ، التصريحات الاخيرة للرئيس كارتر بأنها « قنابل سياسية » ، وانها لو اطلقت في ايام الادارة السابقة ، لخلقت ازمة في العلاقات الاسرائيلية - الاميركية . ويشير دان مرغليت ، الى انه خلال فترات الرؤساء السابقين لم يحدد اي شيء ، بل تركت الامور مفتوحة الى ان جاء تفسير قرار ٢٤٢ من قبل ادارة الرئيس كارتر بأنه يعني « العودة الى حدود ١٩٦٧ » ، ولقد شدد الاميركيون والاسرائيليون ، على ان قرار مجلس الامن يتحدث عن « اللاجئين » وليس عن الفلسطينيين . وجاءت الادارة الجديدة وقالت انه يجب اقامة وطن للفلسطينيين . و اشار المعلق اسي طرح كارتر لقرار الامم المتحدة لعام ١٩٤٧ فقال : من جهة يعود الى صيغ ، لا يجرى اي زعيم عربي معتدل على ذكرها ، ومن جهة اخرى يتحدث امام الامير فهد . ليؤكد التزام الولايات المتحدة لسلامة وامن اسرائيل . ووجه المعلق انتقادا للماطلة في تشكيل الحكومة ، وقال : « ان اميركا يمكن ان تفرض علينا في تلك الاثناء حدود التقسيم لعام ١٩٤٧ » (هارترس ٣٠-٥-٧٧) .

تجري في واشنطن دراسة امكانية اتخاذ قرار جديد في مجلس الامن ، يأخذ في الحسبان التغييرات التي طرأت على الموقف السياسي للفلسطينيين خلال السنوات العشرة الاخيرة (معارييف ٢٧-٥-١٩٧٧) .

زيارة الامير فهد تبرز التحول في السياسة الاميركية

تعتبر الزيارة التي قام بها مؤخرا ولي العهد السعودي ، الامير فهد لواشنطن ، اهم الزيارات التي قام بها الرؤساء العرب الى هناك . وقد لخص بعض كبار المسؤولين الاسرائيليين نتائج زيارة الامير فهد بالنقاط التالية ، اولاً ، ان الولايات المتحدة بقيت مخلصه لمبدأ التسوية الشاملة ، وانها لا تزال تسعى لعقد مؤتمر جنيف خلال اشهر الخريف ، ومن هذه الناحية فان انضمام موشيه دايان الى الحكومة الاسرائيلية الجديدة ، لا يؤثر على الموقف الاميركي . ثانياً ، انه سترتب على اسرائيل ، في اطار التسوية الشاملة الانسحاب الى حدود ١٩٦٧ ، مع اجراء تعديلات طفيفة . وللمرة الاولى ، اعطت واشنطن تفسيراً جديداً لقرار ٢٤٢ وهو ان هذا القرار يلزم بالفعل اسرائيل الانسحاب الشامل . وبهذا تكون واشنطن ، حسب رأي الاسرائيليين ، قد انضمت الى حليفاتها في اوروبا واليابان ، التي ايدت الموقف العربي منذ حرب يوم الغفران . كما ان الامير فهد هو الذي اقنع الرئيس كارتر بفكرة الترتيبات الدفاعية وراء خطوط الحدود السياسية . ثالثاً ، الموضوع الفلسطيني . فقد اعطى الرئيس كارتر ، وللمرة الاولى ، مفهوم اقليمياً لمصطلح « الوطن للفلسطينيين » . كما انه طالب بحدود امنة لهذا الوطن . ويعتقد الخبراء

كارتر يبدأ تهديده لرابين

يعتقد البعض من الاسرائيليين ، ان المفتاح لكل ما حدث في العلاقات الاميركية - الاسرائيلية والتصريحات الاميركية الاخيرة يكمن في الحادثات الاخيرة التي اجراها كارتر مع رابين في بداية شهر اذار الماضي في واشنطن . فقد ذكر انه في بعض اللحظات ، « لم يتحدث كارتر فقط بجدة ، وإنما بلبغة التهديد » . فعندما تم الحديث حول مؤتمر جنيف واشراك م . ث . ف فيه قال كارتر لرابين ، انه يريد منه ان يفهم ، ان الولايات المتحدة لن تسمح ان تمنع « مشاكل اجرائية » اسرائيل من الذهاب الى جنيف خلال هذه السنة . وقد حذر كارتر من ان « الولايات المتحدة لا تستطيع تحمل مثل هذا الامر » . وقال كارتر لرابين ، « انك اقلت لفانسان لدى زيارته لاسرائيل ، انكم لا تقبلون بمفاوضة م . ت . ف طالما انها لم تغير ميثاقها الوطني ، معنى ذلك انكم ستتفاوضون معها اذا غيرت الميثاق » . ولدى نهاية المحادثة الصعبة قال كارتر لرابين : لقد حان الوقت الذي يجب فيه ان تتحدث اسرائيل بالتفصيل وليس بالتمميم كما فعلت حتى الان ، لانه لا مفر من ذلك . (يوسف حاريف ، معاريف ١٩٧٧-٦٣) .

وكان كارتر ، قد حذر في خطابه السذي القاه في جامعة نورثام في ولاية انديانا ، زعماء « الليكود » من الكوارث التي تنتظر الشرق الاوسط والعالم بأسره اذا لم يتم ايجاد طريقة للتقدم نحو السلام في المنطقة . وقد فسر بعض المعلقين الاسرائيليين هذا الكلام ، بأنه القاء للمسؤولية على عاتق اسرائيل بالنسبة لعدم وجود السلام في المنطقة (دافار ١٩٧٧-٣٠) .

كما ترى بعض الاوساط الاسرائيلية ، ان كارتر لا يزال يتمسك بمشروع روجرز وأنه يريد ان يفرضه على اسرائيل . وهي التي رفضته في حينه . وقد جاءت صحيفة « معاريف » (٢٩-٥-٧٧) على ذكر اهم الامور السلبية التي حدثت في عهد كارتر وكان اهمها ، ان الولايات المتحدة قد تبنت مفهوم « الوطن للفلسطينيين » . كما ظهرت للمرة الاولى تحت حكم كارتر ذكر قرارات الجمعية العمومية من عام ١٩٤٧ . كما يلوح في عهد الرئيس كارتر مبدأ خطير للغاية ، وهو انه ليس هناك نية واضحة لفرض دولة فلسطينية على اسرائيل فقط ، وإنما يفهم ايضا ، انه سيطلب الى اسرائيل ان تدفع لها مبالغ ضخمة لتمويل تسليحها واعادتها من اجل تنفيذ الحلم العربي ، لابعادة دولة اليهود .

الصدام مع الولايات المتحدة

يرى الكثير من الاسرائيليين انه اذا استمرت السياسة الاميركية على هذا المنوال ، فلا محالة من وقوع الصدام مع الولايات المتحدة . ولهذا يطالبون ، بوجود القيام بحملة واسعة لدى الرأي العام الاميركي ، وخاصة لدى اليهود هناك ، ليعبثوا رجال الكونغرس لمنع مزيد من التدهور والانزلاق .

ويرى البعض انه في اعقاب التصريح المعروف الذي ادلى به مناحيم بيغن ، في قرية قدوم ، بشأن استمرار عمليات الاستيطان في الضفة الغربية ، قام الرئيس كارتر بشرح وجهة نظره في كيفية حل النزاع الشرق اوسطي . وكان هدفه واضحا ، هو تحذير رئيسس الحكومة الاسرائيلية المقبل ، « من الاوهام الزائدة من انه يستطيع تغيير مواقف الادارة

الحدود • كما ان التحدث عن الوطن الفلسطيني والحدود الامنية ودفن التعويضات والتحدث عن قرارات منسية، يمكن ان تؤدي الى تطرف لدى الاوساط المعتدلة لدى الجمهور الاسرائيلي ، التي يمكن ان تياأس من الامل في تحقيق حل وسط واقعي ، من خلال التنازلات الاقليمية على كافة الجبهات ومن خلال الاخذ بالحسبان المصالح الحيوية لحماية اسرائيل • وترى الصحيفة ، انه نظرا للوضع الحالي ، فان الجمهور الاسرائيلي يمكن ان يجزم ، انه لا يوجد مناص من المجابهة الضيقة مع الولايات المتحدة ، والخطر من ذلك هو تأثير هذه الامور على الزعماء العرب ، والدليل على ذلك - المطالبة بالتعويضات بمليارات الدولارات من قبل الرئيس السادات •

وهناك شعور في القدس ، ان الرئيس الاميركي يعد الارضية لاحتمال المجابهة الجدية مع اسرائيل • فقد ذكر ، انه في اعقاب تصريحات الرئيس الاخيرة حول الوطن للفلسطينيين والانسحاب الى حدود ١٩٦٧ ، والتعويضات للاجئين وحول تعنت اسرائيل واعتدال العرب ، فان هناك تصريحات مماثلة كذلك في بعض عواصم الدول الغربية • فقد لوحظ مؤخرا ان هناك تصلبا كبيرا في موقف دول اوروبا الغربية تجاه مواقف اسرائيل ، وهناك تحذيرات من ان مثل هذا التصلب يقود الشرق الاوسط الى الحرب •

ويقول الرأي السائد في القدس ، ان التصريحات غير المريحة لاسرائيل ، من الرئيس كارتر ورجال ادارته ، سوف تستمر وان تتوقف ، كما تتوقع بعض المصادر • بالرغم من تحذير الولايات المتحدة من خطورة مثل هذه التصريحات • « وهناك انطباع ان الرئيس كارتر معني بالاكثار من هذا النوع من التصريحات ،

الاميركية » ، ويرى المعلق اريثيل غيناي ، ان موقف الرئيس الاميركي هذا يمكن ان يكون تكتيكيًا ، كرد فعل على التجاهل التام من قبل بيغن لسياسة الولايات المتحدة بالنسبة للاستيطان في الضفة الغربية ، كما هو الحال بالنسبة لقضايا اخرى في النزاع الاسرائيلي - العربي • وتحدث المعلق نفسه حول الانزلاق في السياسة الاميركية فقال : لا يوجد انزلاق حقيقي في موضوع الحدود ، لان الموقف الاميركي كان دائما وابدًا ، يتلخص في وجوب اجراء تعديلات طفيفة فقط على حدود ١٩٦٧ ، في اطار اتفاقية سلام • ولكن الانزلاق الملاحظ هو في موضوع « الترتيبات الامنية » لان ذلك حسب رأي كارتر ، لا يتطلب تواجد قوات اسرائيلية وراء الخط الاخضر • اما الانزلاق الكبير ، حسب رأي المعلق فيمكن في موضوع « الوطن للفلسطينيين » • ويخلص المعلق الى القول : ان هناك امرا واضحا ، وهو ان الاتجاه الذي تسير فيه الولايات المتحدة في سياستها ، سيؤدي بصورة متزايدة الى الصدام مع سياسة اسرائيل ، وبصورة خاصة عندما يحاول الرئيس كارتر ان يجند لصالح سياسته الشرق اوسطية جزءا كبيرا من الجالية اليهودية في الولايات المتحدة واصدقاء اسرائيل في الكونغرس • وان انتصار « الليكود » وسمعة بيغن ، كسياسي متطرف ، ستسهل على كارتر تجنيد هذا التأييد كما كان في الماضي (يديعوت حر ونوت ٢٠-٥-٧٧) •

وعلقت صحيفة « دافار » ، في افتتاحيتها يوم ١-٦-٧٧ ، على هذا الموضوع بقولها : ان اسرائيل لا تستطيع الموافقة على التفسير الاميركي ، الذي يقول بان قرارى مجلس الامن ٢٤٢ و ٣٣٨ يعنيان انسحاب اسرائيل الكامل من كافة المناطق ، ما عدا تعديلات طفيفة على

وقد اطلع يغال ألون ، الحكومة الاسرائيلية ، لدى عودته من لندن على نتائج مقابلاته مع وزير الخارجية الاميركي هناك ، فذكر انه قال لوزير الخارجية الاميركي : اود ان اوضح لوزير الخارجية وللرئيس معارضتنا الجديدة لاقامة دولة ثالثة في قلب ارض اسرائيل ولن نوافق على وجود م . ت . ف في ضواحي القدس . ان هذا لن يكون خطيرا فقط من ناحية اسرائيل ، فهذه ستكون دولة راديكالية ، وموالية للسوفييت في قلب الشرق الاوسط . انها ستكون كويا في قلب ارض اسرائيل . وحذر ألون : « اريد ان تفهموا انه بالرغم من كل جهودنا وخلافا لارادتنا ، يمكن ان ينجح وضع ، نجد فيه انفسنا ، دون ان نكون منفيين مع بعضنا البعض وحتى في حالة مجابهة ٠٠٠ » (يوسف حاريف - معاريف ٧٧-٦٣) .

ودعا المعلق دان مرغلين ، الى انتهاج موقف المرونة من قبل الحكومة الاسرائيلية ازاء التصريحات الاخيرة ، وحذر من انتهاج خط متصلب . وطالب اسرائيل بان توافق بصمت على ما تعده الولايات المتحدة من مقترحات للتسوية . لان اي مراقب في واشنطن يعرف انه سواء كان رئيس الحكومة بيغن او بيرس او ألون او رايبين ، فان الولايات المتحدة تعد مشروعا مفصلا . وهي « تفعل ذلك بالرغم من صراخنا » . ويخلص مرغلين الى القول : انه طالما تمسكت الاحزاب الكبيرة بمواقفها ، فانه من غير الممكن الربط بين مشروع كارتر وبين افكار بيغن ، او خريطة يغال ألون . ولكن الفرق يكمن فقط ، في انه اذا وافق بيغن على مثل هذه التقنية للمفاوضات ، فاننا لن نخسر المعسكر الكبير من اصدقائنا في الولايات المتحدة بوقت قصير قبل ان نحتاج

وذلك من اجل الحصول على تفهم لواقفه لدى الجمهور الاميركي ، وكذلك من اجل تمهيد الارضية استعدادا لاحتمال انتهاج خط متصلب اكثر تجاه اسرائيل في المستقبل ، من خلال المجابهة الجديدة مع حكومة برئاسة « الليكود » (ارييه تسيموكي - يديعوت احرونوت ٦٢-٦٧ - ١٩٧٧) .

وتناول معلق اخر ، موضوع المجابهة مع اميركا والانزلاق في الموقف الاميركي ، وكذلك تعرض الى مراحل التبدل في المواقف الاميركية ، فذكر المعلق يهوشوع تدمور ، انه لا يتحدث كارتر بعد عن ماهية اسلام مطلقا ، وانما يتحدث هو والمتحدث باسمه عن « الحدود الامنة » للدولة الفلسطينية وكذلك نسمع عن « الناحية الجغرافية » لهذا الوطن . ولم يمر سوى يوم واحد وقد جاء كارتر ببشرى جديدة ، وهي ان قرارات الامم المتحدة هي « بمثابة سياسة ملزمة للولايات المتحدة » . واضاف المعلق ، لقد اعادتنا وزارة الخارجية الاميركية ٣٠ سنة الى الوراء ، عندما اظهرت من عالم النسيان قرارات الجمعية العمومية بشأن التقسيم ، ويعتقد ، ان هذه التصريحات هي « أسس موجهه في السياسة الاميركية » . ويعتقد الكاتب ايضا ، ان الرئيس كارتر قد قرر الامر الرئيسي . حيث انه ايد القرار العربي لتفسير قرار ٢٤٢ . وانه في الموضوع الاقليمي وخاصة في كل ما يتعلق بالحدود القابلة للدفاع ، تبني عمليا ، بصورة كاملة التفسير العربي لمصطلح الانسحاب الشامل ، ما عدا تعديلات طفيفة . وخلص الى القول : « انه لا شك ان هذه هي بداية المعركة ٠٠٠ ان يكون بعيدا اليوم الذي نشعر فيه بقوة الضغوط الفعلية والنفسانية على حد سواء » (يهوشوع تدمور - دافار ٣٠-٥-١٩٧٧) .

صغيرة من اصدقاء اسرائيل في الكونغرس بالتوجه الى الحركة الديمقراطية للتغيير، والطلب اليها الانضمام الى الحكومة بهدف جعل سياسة بيغن محتدلة (دافار ٢٢-٥٠-٧٧) * ولكن بعض الاوساط السياسية الاسرائيلية ، تبدي تحفظها ازاء ذلك ، وتعتبر ان التصريحات الاميركية المتطرفة الاخيرة ، ليس مردها تصريحات بيغن حول الاستيطان ، ولكن تعتقد هذه الاوساط، ان بعض الجهات في واشنطن تستغل تصريحات زعيم « الليكود » من اجل اعداد الرأي العام في الولايات المتحدة نحو سياسة متصلبة اكثر تجاه اسرائيل * لان العديد من التصريحات الاميركية المقلقة قد اطلقت قبل الانتخابات (دافار ٢-٦-٧٧) * .

ومن جهة ثانية رد المعلق يوسف حاريف، على تحميل ألون ، مسؤولية التصريحات الاميركية الاخيرة لبيغن ، وادعائه بانّه تلقى معلومات من « مصدر موثوق » بان التصريحات جاءت ردا على تصريحات بيغن فيقول : عندما تحدث كارتر للمرة الاولى عن « وطن للفلسطينيين » لم يكن هناك اي تحد من قبل مناحيم بيغن * واتهم حاريف ، الحكومة الحالية (حكومة رابين) بالتقصير والتهرب وانها جعلت من بيغن « كيش فداء » ، لان هذه التصريحات تهدف فقط الى التملص من مسؤولية التقصير والاطفاء ، التي تميزت بها الحكومة خلال الاشهر الاخيرة * (معاريف ٢٦ - ٥ - ٧٧) * .

يهود الولايات المتحدة قلقون

تجتاح الجالية اليهودية في الولايات المتحدة موجة من الترقب والخوف ، نتيجة للتصريحات الاخيرة التي ادلى بها ، زعيم الليكود ، مناحيم بيغن ، وما تسببت

اليها في المجابهة الكبيرة مع واشنطن * هذه المجابهة التي لا تستطيع كما يبدو لا لليكود ولا المعراخ الحيلولة دون وقوعها ، على اساس سياسة كل منهما المعلنة (دان مرغليست ، هارتسرس ٧٧-٥٠-٧٧) * .

واشار احد المعلقين ، الى الصلابة الهستيرية في وسائل الاعلام الاميركية ضد مناحيم بيغن ، وان اية حملات مضادة لن تجدي ولن تفيد * وان تصريحاته السياسية عقب نجاحه قد صبت الزيت على النار ، حيث سببت ضررا كبيرا لمكانة اسرائيل السياسية لدى الرأي العام الاميركي * ولكن يهوشوع تدمور يعتقد انه لا يمكن تفسير ردود الفعل العدائية هذه ، فقط بمواقف بيغن السياسية هذه ، وانما بمجمل الخلاف في الرأي بين اسرائيل والولايات المتحدة على التسوية الشاملة * ويرى المعلق « انه في المواضيع الرئيسية بالنسبة لحل النزاع هناك قاعدة واسعة للمناورة بين القدس وواشنطن * ولكن وزراء المعراخ يعرفون ايضا ، انه كلما اقترب موعد رسم الخرائط والمطالبة بالانسحاب ، كلما تأزم الموقف * وربما لن يكون هناك مفر من المجابهة * (يهوشوع تدمور - دافار ٢٥-٥-١٩٧٧) * .

تصريحات بيغن تقرب الازمة مع الولايات المتحدة

يسود لدى واشنطن الرأي القائل ، انه في اعقاب نجاح الليكود ، لا يوجد في اسرائيل من يمكن التحدث اليه ، وان بيغن ليس الشريك في المفاوضات الفعلية للتسوية * وان التصريحات التي ادلى بها بيغن حول الاستيطان في الضفة الغربية قد دعمت هذا الموقف * ومن جهة اخرى ادت تصريحات بيغن تلك الى قيام مجموعة

الجمود الرفض الاسرائيلي للانسحاب من الضفة الغربية . وان تصريحات منحيم بيغن ، في قدوم قد اوضحت للمؤسسة اليهودية الاميركية ، الخطر المنتظر في المجابهة مع الادارة الاميركية ، دون ان يكون تأييد الكونغرس مضمونا . وان الخوف من المجابهة الاسرائيلية مع الادارة الاميركية ، والخوف من الخلاف الحاد بين اسرائيل والجالية اليهودية ، هو الذي اسرع بقدوم الكسندر شيندلر ، رئيس مؤتمر الرؤساء اليهود في اميركا . ويقول شموئيل سيفغ ، انه يفهم من زيارة شيندلر ولقائه مع مختلف الاوساط الاسرائيلية ، انه قد اطلعهم على اللقاءات الثلاث التي تمت بين رؤساء الجالية اليهودية وبين كارتر ومستشاره للامن القومي ، برجنسكي ، حيث قال لهم كارتر ، انه يجب على اسرائيل ان تبدي « مرونة » في الجهود لحل النزاع في الشرق الاوسط ، ولح انى انه اذا لم تشكل حكومة قوية في اسرائيل ، فانه لن يكون هناك مفر من فرض حل على الاطراف . ولهذا حث شيندلر الحركة الديمقراطية للتغيير للاشتراك في الحكومة ، وبارك ايضا خطوة ضم دايان الى الحكومة . (معاريف ٧٧-٦٢)

ان احدى المشاكل الرئيسية التي تجابه الجالية اليهودية الاميركية ، هي انها قد امنت الدعم لاسرائيل في الكونغرس ، على اساس تقديم تنازلات اقليمية على كافة الجبهات ، ولهذا فلن تكون مسالسة الحصول على تأييد الكونغرس سهلة ، اذا ما تمسكت حكومة الليكود بمواقفها المتطرفة . وحيث ان مصدر قوة اليهود في اميركا يكمن في الكونغرس ، فانه في حال غياب مثل هذا التأييد من قبل الكونغرس فان ذلك (وهذا ما يخشاه اليهود) سيتركهم لوحدهم ويعرض وضعهم

فيه هذه التصريحات من ردود فعل عنيفة في الاوساط الاميركية . ولم تكن هذه التصريحات هي المصدر الوحيد للقلق زعماء الجالية اليهودية ، وانما مجرد نجاح « الليكود » في الانتخابات الاسرائيلية ، وما يمكن ان يسفر عنه من مجابهة بين اسرائيل والولايات المتحدة ، قد طرح من جديد مسألة الولاء المزدوج لليهود هناك ، وكذلك مسألة التغلب على المجابهة في حال نشوبها .

وكان اول رد فعل من قبل الجالية اليهودية ، هو قيام رئيس مؤتمر الرؤساء اليهود في الولايات المتحدة الكسندر شيندلر وكذلك السكرتير السياسي لمؤتمر الرؤساء يهودا هلمان ، بزيارة اسرائيل بعد اسبوع واحد من الانتخابات الاسرائيلية ، مع العلم بان منحيم بيغن كان مريضا للغاية . وتتركز مهمة المبعوثين في نقل الاتجاهات في الولايات المتحدة لكل من الحكومة الاسرائيلية الحالية والقادمة . وسيترتب عليهما تقديم تقرير للرؤساء اليهود الاثني والثلاثين حول دلالة الانقلاب السياسي الذي حدث في اسرائيل . ويعلق دان مرغلين ، على هدف الزيارة بقوله : لقد كان هدفها ابعاد الكثير مما اعلن عنه بصورة رسمية ، فقد جاء شيندلر ليعطي تحذيرا واضحا . حيث ان التيار اليهودي الاميركي الرئيسي خائف للغاية . وهو يتمنى على اسرائيل ان تبذل جهودا لكي تخلص يهود اميركا من كماشة تأييد اسرائيل والولاء لكارتر . (دان مرغلين ، هارتس ١٩٧٧-٦٢٥)

ومن جهة ثانية ، فان نجاح « الليكود » قد اثار الشكوك للمرة الاولى بالنسبة لمستقبل الضفة الغربية وبالنسبة لقدرة يهود اميركا على تبرير الجمود في الجهود من اجل حل النزاع الاسرائيلي - العربي ، وخاصة اذا كان مصدر هذا

(المصدر نفسه ٦-١٩٧٧) كما ذكر المعلق ناحوم برناع ، أنه يجسري لدى الادارة الاميركية الحديث بصورة جدية ، عن امكانية الاستعانة برؤساء المنظمات اليهودية ، وللمرة الاولى ، للضغط على اسرائيل وليس العكس . والافتراض هو ان يبقى التأييد اليهودي مستمرا لاسرائيل، ولكن في حالات معينة يتصرف بها بيغن بصورة متطرفة ، سيبحث الزعماء اليهود عن مخرج هادئ لتحفظاتهم . « واذا ما تأزمت الامور فانهم سيهددون بالوقوف على الحياد عندما تكون المجابهة مع الادارة » (دافار ٢٢-٥-٧٧) .

جمدان بدر

العام في الولايات المتحدة للضعف . ولهذا دعا سيفف ، الى عدم المجابهة مع الجالية اليهودية ، واعتبرها بمثابة « عميل انتحاري » ، ومن الافضل منذ الان خلق الظروف التي تؤمن استمرارية الاتصالات مع الجالية في الولايات المتحدة واستمرار التفاهم التقليدي ، الذي ميز علاقات اسرائيل - الولايات المتحدة خلال السنوات الثلاثين الاخيرة (المصدر نفسه) .
وذكر الحاخام يوسف شترنشتاين، رئيس المنظمة الصهيونية في الولايات المتحدة ، انه جرت مؤخرا اتصالات مع الرئيس كارتر ، « لاننا كنا قلقين جدا من تصريحه الاخير » وهو اول رئيس اميركي يطلب من الجالية اليهودية ان تتدخل في السياسة الخارجية لدولة اسرائيل

رسالة واجتئطن :

سهول مباحثات الأمير فهد والرئيس كارتر

وذكر المتحدث باسم البيت الابيض بان العمل يجب ان يستمر في سبيل عقد مؤتمر جنيف في النصف الثاني من سنة ١٩٧٧ . وأشار المراقبون الى ان الامير فهد شدد على ضرورة انشاء دولة فلسطينية في الضفة الغربية وغزة ، وان الرئيس كارتر من جهة اخرى أكد التزام امريكا العميق بأمن وبقاء اسرائيل .

وعقد الرئيس كارتر مؤتمرا صحفيا بتاريخ ٢٦-٥-١٩٧٧ تحدث فيه باسهاب عن الشرق الاوسط وقضية فلسطين لأول مرة ، وذكر فيه بان امريكا تتوقع انسحاب اسرائيل من الاراضي المحتلة مع تعديلات بسيطة ، كما دعى كارتر الى تعويض اللاجئين الفلسطينيين « بسبب الخسائر التي الحقت بهم » ، وأوضح المتحدث باسم البيت الابيض فيما بعد بان هذه التصريحات مبنية على التزام امريكا بقرار ١٨١ عام ١٩٤٧ في الامم المتحدة والذي يقضي بانشاء دولة عربية (ويهودية) وقرار ١٩٤ (ديسمبر ١٩٤٨)

ركزت مباحثات الرئيس كارتر والامير فهد على قضية فلسطين وامكانية ايجاد حل سلمي وعادل لها ، وفور وصول الامير فهد الى واشنطن بتاريخ ٢٣-٥-٧٧ صرح بان « لاميركا القوة العمياء والخلفية » لتحقيق حل مشكلة الشرق الاوسط وقضية فلسطين ، وناشد الرئيس كارتر العمل من أجل تحقيق وطن للفلسطينيين . وذكرت مصادر البيت الابيض بان مباحثات كارتر وفهد ركزت على موضوع اقامة وطن للفلسطينيين « بحدود معترف بها » ولكن هذه المصادر اشارت الى ان الوضع السياسي في اسرائيل يعسد الانتخابات الاخيرة جعل الرئيس كارتر والامير فهد يتمهلان في التوصل بنتائج وقناعات لحين تكوين حكومة اسرائيلية جديدة .

واكد الرئيسان على ضرورة الاستمرار في العمل نحو حل لمشكلة الشرق الاوسط ، وحذرا من « حرب مفاجئة » في المنطقة اذا تعذر ايجاد حل سلمي .

وجزء من غزة) كما تشمل اقامة مناطق منزوعة السلاح على الجبهتين وتقام عليها محطات انذار يديرها خبراء اسرائيليون في المناطق العربية وخبراء عرب في المناطق الاسرائيلية . وذكرت الجريدة بان عودة الضفة الى الاردن ترضي اسرائيل وبن تصريحات كارتر بشأن وطن قومي للفلسطينيين ازعجت المسؤولين الاسرائيليين وخلقت مشكلة جديدة بينهم وبين المسؤولين الامريكيين .

ولقد اشتدت حدة الازمة بين اسرائيل وامريكا بسبب تصريحات منحيم بيغن الاخيرة بان الضفة وغزة جزء من اسرائيل وبناتها ارض محررة (على برنامج تلفزيون اي بي سي بتاريخ ٢٢-٥-٧٧) وبنانه لا يمكن ان يسمح بقيام دولة فلسطينية لانها ستكون قاعدة سوفيتية جديدة تهدد امن اسرائيل وانه لا يمكن له لاي زعيم اسرائيلي الموافقة على اشتراك المنظمة في المفاوضات وانه حتى لو اعترفت المنظمة باسرائيل فلن تتعامل معها الحكومة الاسرائيلية .

ويسبب هذه التصريحات اضطراب الرئيس كارتر الى اضافة فقرة الى خطابه بتاريخ ٢٢-٥-٧٧ اشار فيها الى ضرورة التزام اسرائيل بقرار ٢٤٢ وقرار ٢٢٨ الذي يقضي بانسحاب اسرائيل من الاراضي المحتلة . كما انتقد عدد من الصحف الرئيسية بما فيها واشنطن بوست ونيويورك تايمز تصريحات بيغن وأشارت الى ان مواقفه المتصلبة تعرقل المحاولات لاجاد حل للمشكلة .

من الواضح ان الامير فهد ضغط على الحكومة الامريكية لاتخاذ موقف محدد ويجابي من قضية انشاء دولة فلسطينية، ونجح الى حد ما في اقناع الرئيس كارتر بوجهة نظره من ناحية المبدأ . ولكن

الذي يقضي بتعويض الفلسطينيين وهذه قرارات صوتت امريكا معها اذذاك .

ومن جهة اخرى صرح الامير فهد (٢٧-٥-٧٧ واشنطن بوست) بانته متفائل بشأن عقد مؤتمر السلام في جنيف هذا العام بالرغم من عدم وضوح الوضع داخل اسرائيل بسبب الانتخابات الاخيرة .

واشار الى انه من اجل انجاح المؤتمر يجب « في النهاية دعوة منظمة التحرير » بصفتها المستقلة ولكنه لم يقلق الباب في وجه امكانية تمثيل اخر للفلسطينيين . وذكر بانته اخبر الرئيس كارتر « بانته في حالة قيام اسرائيل بتحقيق المطلوب منها يمكن للعرب الاعتراف بها » .

وفي لقائه مع السفراء في واشنطن، ذكر الامير فهد « بتاريخ ٢٦-٥-٧٧ » بان هناك ضغوطا صهيونية كبيرة على الرئيس كارتر واشار الى انه متشائم من ناحية الحل ولا يزال هناك عمل كثير قبل الوصول الى جنيف . ولح الى خطر قيام اسرائيل بحرب خاطفة جديدة ودعا العرب الى الاعتماد على انفسهم والتضامن لمواجهة خطر العدوان الاسرائيلي وذكر بان السعودية ستستخدم البترول في المعركة الى اقصى درجة . كما لح الى امكانية عقد مؤتمر للرؤساء العرب لبحث التطورات الجديدة واتخاذ موقف موحد . كما اشار الامير فهد الى ان الاخبار الصحفية حول تصريحه باستعداد منظمة التحرير للاعتراف باسرائيل قد شوه وبنانه لم يصرح بهذا .

ومن ناحية اخرى ذكرت جريدة كريستيان ساينس (٢٦-٥-٧٧) بان الحكومة الامريكية قدمت للحكومة الاسرائيلية مذكرة تتضمن مقترحات بشأن الحل تشمل انسحاب اسرائيل من الاراضي المحتلة . (الضفة الغربية

الرئيس كارتر وادارته ضغطا شديدا لكي يتراجع عن تصريحاته ومواقفه بشأن الوطن الفلسطيني ، وحقوق الفلسطينيين . وتحاول المنظمات الصهيونية وبعض الوفود الإسرائيلية الجديدة اظهار مناحيم بيغن بصورة الزعيم المعتدل وذلك تمهيدا لزيارته المقبلة لواشنطن ومحاولاته لاقتناع كارتر بوجهة نظره .

نبيل حاتم

كارتر لا يزال حذرا بسبب الضغوط الصهيونية . ولكن القضية التي لم يتم الاتفاق والتفاهم عليها هي موضوع منظمة التحرير وحقها في تمثيل الشعب الفلسطيني اذ لا يزال الامريكيون يأملون ويحاولون ادخال الملك حسين في الصورة وتوسيع التمثيل الفلسطيني وازضافة قيادات جديدة توافق عليها اسرائيل والاردن .

ومن جهة اخرى تضغط المنظمات الصهيونية والحكومة الاسرائيلية على

رسالة باريس :

حقوق الانسان
وحقوق الشعوب

فلسطين وجنوب افريقيا وشعبيهما ، كمثال على حقوق الشعوب ، وشارك فيها عدد من الاخصائيين في العلاقات الدولية ، كالاستاذ ادمون جوف ، من معهد الدراسات السياسية والقضائية للعالم الثالث في جامعة السوربون ، والان فونيه ، استاذ القانون في معهد العلاقات الدولية في جامعة اميان . والاستاذ جيسرار سرلييه مدير معهد العلاقات الدولية اميان ، المعروفة بمدرستها الحديثة في مفهوم العلاقات الدولية ، وحقوق الشعوب في العالم الثالث . كما وحضرها القاضي لويس جوانيه ، مؤسس ، ورئيس نقابة القضاة في فرنسا ، والمعروف بمواقفه

اللجنة الدولية لحقوق الشعوب ، التي تأسست في تموز عام ١٩٧٦ برئاسة السناتور الايطالي والمحامى المعروف ليوليو باسو ، احد مؤسسي محكمة راسل للسلام ، والتي اصدرت وثيقة عالمية جديدة لحقوق الشعوب عام ١٩٧٦ في الجزائر العاصمة، عرفت بوثيقة الجزائر، افتتحت لها فرعا في فرنسا ، برئاسة السيد كلود بورديه ، عضو الحزب الاشتراكي الموحد ، والمعروف بمناصرتة للقضية الفلسطينية .

وقد عقد الفرع الفرنسي ندوته التأسيسية ، في مدينة اميان الفرنسية في ٢٣-٢٤/٤/١٩٧٧ ، كرسها لقضيتي

وحقوق المناضلين السياسيين في ان يعاملوا كأحرى حرب ، طبقا لاتفاقية جنيف . لذلك ، فإنه يعتقد ان القرارات التي تضمنتها وثيقة الجزائر لعام ١٩٧٦ ، حول حقوق الشعوب ، جاءت مكملة للقانون الدولي ، إذ أنها تمنح المجموعة الدولية حق التدخل ، في حال انتهاك الحقوق المشروعة لشعب ما ، وأنها قد ساهمت في إضافة حق الاقليات في الدول الحديثة والقديمة ، في ممارسة بعض حقوقها ، اذا لم يتعارض ذلك مع سيادة الدولة التي تنتمي اليها هذه الاقلية او تلك .

وفي النقاش الذي اثارته مداخلة الاستاذ جوف ، تركز الحديث حول السؤال ، ما اذا كان نضال شعب ما ، هو الذي يفرض حقه كشعب في قضيته التي يناضل من اجلها ، ام ان هذا الحق هو حقيقة قائمة بذاتها ؟ وبغض النظر عن الشكل النضالي الذي يتبناه هذا الشعب . حيث توصل المشاركون في النقاش ، الى ان نضال شعب ما ، يكشف النقاب عن حقه الموجود أصلا ، ولا يخلقه .

ثم دار النقاش حول الحقوق التي يمنحها القانون الدولي للشعوب ، والتي لا تنص على حق تقرير المصير لشعب ما الا من خلال الدولة . وكيف ان بعض دول العالم الثالث التي حازت على استقلالها في الفترة الاخيرة ، قد آلت الى ايدي طبقة مهيمنة ، واخذت يدورها تستغل الطبقات المحرومة ، ودون ان تحقق ايا من استثمار ثروتها الوطنية من اجل شعوبها المناضلة .

وقد اتفق المشاركون في هذا النقاش الختامي للجلسة الاولى ، على اهمية سيادة الشعوب وحقوقها في تقرير مصيرها سياسيا واقتصاديا وثقافيا وقانونيا ، وخاصة في بلدان العالم الثالث التي نالت استقلالها حديثا .

الدفاعية عن المعتدين السياسيين في امريكا اللاتينية ، وعدد اخر من ممثلي حركات التحرر العالمية ، وقد رثس الندوة المحامي المعروف ليو متاراسو ، ويتمثيل كل من الاخ عزالدين قلق عن الشعب الفلسطيني ، والاستاذ غارسيا عن شعب جنوب افريقيا .

وكان اول المتحدثين في الجلسة الاولى ، التي كرست لمبدأ حقوق الشعوب في العلاقات الدولية ، الاستاذ ادمون جوف ، الذي تحدث عن ظهور حقوق الشعوب في العلاقات الدولية ، متطرقا الى المؤتمر الاول لدول عدم الانحياز الذي عقد في بانديونغ عام ١٩٥٥ ، والذي اتخذ ، ولاول مرة ، موقفا واضحا وصريحا لدعم حقوق الشعب العربي الفلسطيني المشروعة ، وكيف ان هذا المفهوم قد تطور فيما بعد ، حتى شمل دول عدم الانحياز بأسرها والتحالف القاري الثلاثي .

ووضح الاستاذ جوف ، ان حقوق الشعوب تشمل فيما تشمل ، حق تقرير مصيرها السياسي والاقتصادي والثقافي والقانوني ، وكيف ان الجمعية العمومية للأمم المتحدة ، قد لعبت دورا مهما بالنسبة للقضية الفلسطينية ، باعتبارها ، ولاول مرة ، عام ١٩٦٩ ، بحق تقرير المصير للشعب الفلسطيني ، والغير قابل للتصرف .

اما بالنسبة لحق الشعوب المناضلة في تقرير مصيرها بنفسها ، فقد اشار الاستاذ جوف ، الى ان القانون الدولي ، ينص على هذا الحق بطريقة متحفظة ، إذ انه لا يمنح الشعوب المناضلة ، امكانية الدخول الى عالم الامم المتحدة ، الا بجدول فقط . ولهذا ، فقد نشأت ثمة تناقضات عديدة في القانون الدولي نفسه ، فيما يتعلق بحقوق الشعوب ، كالكفاح المسلح .

الاخ عز الدين قلق بأن مسألة تعريف الشعب اليهودي ، ليست مشكلة الشعب الفلسطيني ، «أما بالنسبة لمنظمة التحرير الفلسطينية، فإنها قدمت لليهود في العالم، ولليهود العالم العربي بالذات ، حلاً ديمقراطياً يحميهم من العنصرية والاضطهاد» . وأشار الاخ عز الدين قلق، الى تطور الرأي العام اليهودي نفسه ، بالنسبة لهذه المشكلة ، وبالنسبة للمفهوم الصهيوني نفسه ، إذ شهدت اسرائيل ، في الثلاثين سنة الماضية ، تطوراً ملحوظاً نحو هذا الحل الديمقراطي .

أما كلود بورديه، رئيس الفرع الفرنسي للجنة ، والذي شارك في هذا النقاش ، فقد أشار الى تفوق الشعب الفلسطيني ، في طرحه المشكلة الصهيونية ، وقارن مشكلة الاحتلال الصهيوني لفلسطين ، بالاحتلال الألماني لفرنسا وسأل ، ما إذا كان يمكن للفرنسيين الاعتراف بالوجود الألماني في فرنسا ، لو ان هذا الاحتلال دام أكثر من ست سنوات ؟

وفي تدخله في النقاش ، أشاد جيران سوليه ، مدير معهد الحقوق في جامعة أميان ، باستمرارية الموقف الفلسطيني ، الذي فتح أمام يهود العالم ، إمكانية حل ديمقراطي ، يحفظ حقوق الجميع ، كما وتوه بروح التسامح التي يتميز بها الشعب الفلسطيني ، بقبوله فكرة التعايش مع الذين اغتصبوا وطنه ، وادان جيران سوليه موقف الرأي العام العالمي ، الذي يدافع عن حقوق الانسان ، ولكنه عندما يتطرق الى اسرائيل ، يصبح هذا الموقف غير عقلاني البتة .

أما المحامي الجزائري بن طويبي ، فقد أوضح ان المفهوم الاسرائيلي للقومية ، يركز على «حق العودة» ، وأن هذا المفهوم العنصري ، يشكل تناقضاً واضحاً مع وثيقة حقوق الشعوب ، إذ انه لا يعترف بحق الفلسطينيين حتى اذا ولد

وفي الجلسة الثانية مساء اليوم الاول لانعقاد الندوة ، قدم ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في باريس ، الاخ عز الدين قلق ، تقريراً وافياً عن الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ، التي تشكل مثلاً رائعاً لحقوق الشعوب الاخرى ، مشيراً الى ان وثيقة الجزائر تنطبق بمجمل بنودها على الشعب الفلسطيني ، ولا سيما البند الاول فيها الذي ينص على ان « لكل شعب حقه في الوجود » ، ولهذا فان الشعب الفلسطيني الذي لم يعترف بوجوده لعدة سنوات في كل الميادين ، السياسية والاقتصادية والثقافية ، حمل السلاح لكي يبرهن على وجوده ، الامر الذي لم تضطر اليه الكثير من حركات التحرر العالمية ، إذ كان مسلماً بوجودها كشعوب من قبل .

كما وأشار الاخ عز الدين قلق الى ان ميزان القوى في المنطقة قد تغير بعد عام ١٩٧٣ ، إذ اعترفت أكثر من مئة دولة بوجود منظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي للشعب الفلسطيني ، ودعتها الامم المتحدة، حيث القى الاخ ياسر عرفات خطابه الشهير الذي كون سابقة مهمة جداً ، لكل حركة تحرر وطني في العالم ، إذ كانت هذه هي المرة الاولى التي يتكلم فيها رئيس حركة تحرر في الامم المتحدة ، أمام المجموعة الدولية .

وأضاف الاخ عز الدين قلق الى ان هذا الحق قد كلف الشعب الفلسطيني نضالاً سياسياً وعسكرياً ودبلوماسياً طويلاً ، لانتزاع هذا الاعتراف ، ليس للشعب الفلسطيني وحسب ، وإنما لكل الشعوب المضطهدة التي تطمح للحصول على حقوقها الوطنية الشرعية .

وقد أثار احد الحاضرين ، موضوع الاعتراف بحق الشعب اليهودي في تقرير مصيره ، وموقف منظمة التحرير الفلسطينية من هذا الحق ، فأجابته

أكثر من جيل في أفريقيا العودة الى أوروبا ، ولذلك فإن مشكلة التعايش بينهم وبين الأفريقيين يجب أن تدرس بعمق . وقد اختتم الأخ عز الدين قلق هذا النقاش ، بالإشارة الى الضغط الذي يمارس على منظمة التحرير الفلسطينية لتغيير ميثاقها سائلا : « ماذا يكون موقف الفرنسيين لو طلب اليها أن يغيروا دستورهم » ، وأشار الى الحملة المتواترة في الصحافة الغربية ، التي سبقت انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني ، تطالبه بتغيير ميثاقه ، بل وذهب البعض الى حد المطالبة بتغيير قيادة منظمة التحرير الفلسطينية . الا ان المجلس الوطني ، قد برهن على النضوج السياسي للشعب الفلسطيني ، بخروجه بموقف موحد ازاء الاحداث ، اذ حازت مقرراته على اغلبية ١٩٤ صوتا ضد ١٢ صوتا ، اي باغلبية ساحقة ، وكان ذلك انتصارا كبيرا للشعب الفلسطيني .

وفي الجلسة الثالثة قدم الاستاذ الان نونيه ، الذي قدم نقدا حول مفهوم الاقليات القومية في وثيقة الجزائر المنبثقة عن اللجنة الدولية لحقوق الشعوب ، مشيرا الى ان مشكلة الاقليات القومية هي مشكلة كلاسيكية في العلاقات الدولية ، منذ ظهور الدول القومية في أوروبا ، وانها لم تحل حتى الآن . ولذلك فإنه لا يستغرب أن تكرر وثيقة الجزائر ثلاثة من بنودها لموضوع الاقليات ، وأشار الى أن هذه الوثيقة متقدمة تقديما ملحوظا في موقفها من الاقليات على موقف الامم المتحدة ، إذ ان هذه الاخيرة ترفض أن تصيب على الاقليات صفة الشعوب ، وبغض النظر عن اعدادها . وان مفهوم الجمعية العمومية لكلمة « شعب » ، هي مفهوم الشعب في اطار دولة مكونة ، أو شعب تحت سيطرة ، أما استيطانية أو عنصرية أو اجنبية ، ولذلك فإن هذه الاقليات لا تتمتع بحقوق الشعوب وقسا لمفهوم

في فلسطين ، الا كاقلية . وندد المحامي بن طوبي ، بالدول ، التي تقف مع اسرائيل ، وقال : ان ليس ثمة من حل ممكن في الشرق الاوسط دون موافقة الشعب الفلسطيني .

ثم تلاه القاضي لويس جوانيه ، رئيس نقابة القضاة في فرنسا ، مشيرا الى اهمية وثيقة الجزائر ، واللجنة الدولية لحقوق الشعوب بشكل عام ، والى اهمية هذه الوثيقة في عمله الشخصي في بلد كالبرازيل ، مؤكدا على أن هذه الوثيقة تنطبق على وضع الشعب البرازيلي ، أكثر مما تنطبق عليه وثيقة حقوق الانسان ، داعيا جميع القضاة في العالم الى مزيد من الدعم لحركات التحرر في العالم ، ولقضايا الشعوب .

اما الاستاذ غارسيا من جامعة اميان ، فقد تحدث عن سياسة التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا ، والتي تتركز على ثلاثة اسس وهي التمييز الجغرافي للسكان والتمييز العنصري ، والقمع البوليسي . وحيث يستعمل الشعب الافريقي كمخزن لليد العاملة ، مما يسمح للمستوطنين احتكار الثروات الوطنية للبلاد ، مشيرا الى دور الشركات الرأسمالية العالمية في هذا الاحتكار . مما اثار النقاش حول مكانة الاوروبيين المقيمين في جنوب أفريقيا ، ممن يقفون مع الحركة الوطنية ، ضد النظام العنصري ، حيث سأل كلود بورديه ، ما اذا كان لهؤلاء الاوروبيين مكان ما في الدولة الافريقية المستقبلية المحررة . مطالبيا حركة التحرر الوطني في أفريقيا ، ان توضح موقفها لهؤلاء المناضلين مثلما وضحت ياسر عرفات موقفه من المناضلين اليهود في الدولة المحررة .

وجاء تدخل ارماندو اوربيبي سفير التشيلي في الصين في عهد اللندي ، ليدعم موقف كلود بورديه ، حيث اشار الى عدم امكانية بعض المستوطنين الذين مر عليهم

الاقليات ، يختلف في اوروبا بوضعها المعاصر ، عنه في نول العالم الثالث . وكان اول المعترضين على مداخلته فونيه ، المحامي ليو متاراسو احد واضعي وثيقة الجزائر ، مؤكدا على ان الوثيقة واضحة جدا ، بالنسبة لحق الشعوب في تقرير مصيرها ، وحذر من تدخل الامبريالية العالمية ، واستعمالها الاقليات في العالم الثالث كأداة لشق الحركات الوطنية ، كما حصل في جنوب فيتنام مثلا ، ولذلك فان الوثيقة لا تمنح كل الاقليات حق الاستقلال والانفصال ، ولكنها تمنحها في نفس الوقت ، حق التصرف بتراتها ، ولغاتها ، وثقافتها .

واضاف ليو متاراسو ، ان من الانتقادات الموجهة للوثيقة ، انها لم تحدد مفهوم « الشعب » بشكل واضح ، مشيرا الى البند التاسع عشر من الوثيقة والذي ينص على انه « اذا كان الشعب جزء لا يتجزأ من دولة ما او من شعب آخر ، يحق له ممارسة بعض الحقوق ، ولكنه لا يحق له ممارسة حق تقرير المصير » ، واذاف ان اللجنة قد حرصت في هذا البند ، على ان تؤمن للاقليات حقوقها في نظام ديمقراطي ، وتمثيلها من خلال دولها ، في المجالات الدولية ، والهدف من كل ذلك هو حماية الاقليات نفسها ، وقد اورد مثلا على ذلك ، وضع الزوج في الولايات المتحدة ، الذين يتمتعون بحقوقهم ضمن سيادة الولايات المتحدة ، أما بالنسبة للباسكيين والكتالانيين ، فمن الواضح انهم يتمتعون ايضا بحق تقرير مصيرهم .

ووضح المحامي متاراسو ، ان هذه الوثيقة ، هي ليست برنامجا سياسيا ، وإنما هي نص ، خاضع للنقاش وللانتقاد ، ويعرض قائمة من مبادئ القانون المعترف بها دوليا .

وفي تعرضه لاتهام فونيه ، انها تنطلق

الامم المتحدة هذا ، بينما تنص على انه عندما يكون شعب اقلية في اطار دولة مكونة يحق له المتمتع بكل حقوق الشعوب في تقرير مصيرها ، سياسيا واقتصاديا وثقافيا وقانونيا .

ولكن الاستاذ فونيه تحفظ على هذه البنود في الوثيقة ، لانها لا تتطرق الى الاقليات التي لا تكون شعبا في اطار دولة ما ، لذلك فان الوثيقة بموقفها هذا ، صحيح انها تتدخل مفهوما جديدا في قاموس القانون الدولي ، وهو مفهوم الشعب الاقلية ، الذي يتمتع بكرامة ماثلة لكل الشعوب ، ولكن بحقوق غير متكافئة ، وبالتالي لا يحق له تكوين دولة . ولذلك فقد انتقد الاستاذ فونيه وثيقة الجزائر لانها تعترف للاقليات بحقها في هويتها ، وتقاليدها ولغتها وتراثها فقط ، ولا تنص على كيفية تطبيق هذا الحق . وطالب واضعي الوثيقة بان يحددوا مفهومهم لحق الاقلية بهويتها .

وان تدرج الوثيقة « الدين » ، كواحد من حقوق الشعوب ، اذ ان هنالك عدة شعوب تعرف نفسها بدينها .

وينبري الاستاذ فونيه هنا ، الى الدفاع عن حقوق الاقليات التي تنتمي الى دول ترفض الاعتراف بها ، كالباسك في اسبانيا والكيوبيكيين في كندا ، والاسلام في الفلبين ، و . . . محذرا من استعمال هذه الدول ، لوثيقة الجزائر ضد مطامح هذه الاقليات . كما وانتقد في نهاية حديثه ، مفهوم السيادة التي تتكلم عنها الوثيقة عندما تنص على « ان ممارسة حقوق هذه الاقليات ، يجب ان تحترم المصالح المشروعة ، للمجموعة التي ينتمون اليها ، ويتوجب عليها ان لا تشكل خرقاً لسيادة الدولة ووحدةها الجغرافية والسياسية » .

وقد اثار مداخلته الاستاذ فونيه ، مناقشة حادة ، خاصة وان مفهوم

الخطورة ، ليس فقط ، في لبنان وإنما في سائر العالم الثالث ، إذ يفتح المجال لجميع الطوائف ، بادعاء حقها في الانفصال ، وتقرير المصير ، وبالتالي انشاء كيان مستقل .

وأخيرا ، اختتم السيناتور والمحامي الايطالي ليليو باسو ، رئيس اللجنة العالمية لحقوق الشعوب الندوة قائلا ، انه كان يود الحديث عن آفاق العمل بالنسبة للجنة ، الا ان مداخلة الاستاذ فونيه ، وتهجمه على واضعي وثيقة الجزائر ، يجبره على الاجابة . إذ جاء انتقاده مجرد تعليق على الناحية القانونية من الوثيقة ، رافضا موقف واضعيها ، المبدئي والسياسي ، ومتهما ايها المفهوم الهيجلي للدولة . وقال : « اما انا فاعتبر هذا اهانة ، لانني كماركسي اناضل ضد هذا المفهوم الهيجلي ، واضاف ان واضعي هذه الوثيقة يعتبرون الدولة بناء قانونيا ، يمثل الشعب ، ولكن الدولة ليست هي الشعب ، وانهم عندما يتكلمون في الوثيقة ، عن الهيمنة غير المباشرة في البند السادس ، فانهم يضعون الدولة والشعب في تناقض ، وهذا ليس مفهوما هيجليا للدولة مطلقا . وانهم عندما قرروا وضع هذه الوثيقة في اخر جلسة لمحكمة راسل للسلام في روما ، لم يطمحوا الى وضع وثيقة مثالية ، وإنما هم يوضحون ما هو موجود ومعترف به في القانون الدولي ، بالنسبة لحقوق الشعوب ولكنه ليس معروفا لدى حركات التحرر في العالم . ولذلك فان التناقض الموجود في الوثيقة ، ورثته اللجنة الدولية عن التناقض الموجود في القانون الدولي . »

واضاف ليليو باسو قائلا : « كنا نود ان نوعي شعوب العالم ، بحقوقها التي تتمتع بها ، ولكنها لا تعرف شرعيتها . » ولقد وضعت ، أنا شخصا ، الدستور الايطالي عام ١٩٤٦ ، ولكنني لا اضع

من المفاهيم الهيجلية للدولة ، قال : « ونحن لا نؤمن بمفهوم الهيجلية للدولة . نحن نؤمن ان الدولة هي ظاهرة تاريخية ، اننا ماركسيون ، ونؤمن بالتحليل الماركسي ، ولا نستبعد ان تلغى الدولة في يوم ما ، ولكنها ، حتى الآن ، ضرورة لكامل الشعوب ، ، واضاف ان واضعي الوثيقة لم يكتبوا وثيقة عن فلسفة الدولة ، ولكنهم وضعوا وثيقة عن حقوق الشعوب ، وعن المبادئ التي تناضل شعوب العالم من اجلها . ولذلك ، فانه في الوقت الحاضر ، لا يمكن لاية حركة تحرر في العالم ، ان تطمح للتخلي عن مرحلة الدولة في تطور نضالها ، وان الموقف المعادي للدولة ، الذي يشهده العالم اليوم ، ما هو الا « صرعة جديدة ، تدخل في باب المثاليات . »

وفي مجرى النقاش ، تدخل احد ممثلي منظمة التحرير ، ممن شاركوا في الندوة معترضاً على اعتراف الاستاذ فونيه ، بحق الشعوب بتعريف نفسها على اساس الدين ، مشيراً الى ان التاريخ الحديث برهن على خطورة ادعاء شعب ما ، حقه القومي بتكوين حركة قومية على اساس ديني ، كالحركة الصهيونية ، التي تشكل افضل مثل على ذلك ، والتي أدت ، ليس الى اغتصاب الحقوق الكاملة للشعب الفلسطيني وحسب ، بل ومهدت الطريق الى نشوء حركة عنصرية ، تضطهد اليهود انفسهم ، وخاصة اليهود الشرقيين منهم .

واشار عضو منظمة التحرير في سياق رده على فونيه ، انه « اذا ما اعترفنا بهذا الحق مبدئياً ، لشعب ما ، فلا بد وان نعترف به لكل الشعوب ، وعندئذ تكون قد بررنا مثلاً ، حق المسيحيين الموارنة في لبنان ، في انشاء حركة قومية على اسس دينية ، بل وطائفية ، وبالتالي تقرير مصيرهم على هذا الاساس ، وتقسيم لبنان وانشاء دولة مستقلة ، ، واضاف عضو منظمة التحرير ان ذلك يشكل منتهى

فأنا نرى اليوم صعود حركات تبحث عن هوية في أوروبا مثل صقلية في إيطاليا، وبريتاني في فرنسا، وهذا هو رد الشعب الأوروبي على الرأسمالية .

واكد ليليو باسو على أن أي دفاع عن الإنسان كفرد، ما هو الا تسويق، لان هذه الشعوب تدافع عن مجموعيتها وان خبرة اللجنة التي اكتسبتها من خلال محكمة راسل للسلام، علمتها ان ليس هنالك حقوق للإنسان، بعزلة عن حقوق الشعوب، وان حقوق الإنسان تنتهك أولا، اذا ما انتهت حقوقه كشعب . وانها في بحثها عن اضطهاد الشعوب من طرف الامبريالية، انما هو اساس الدفاع عن حقوق الإنسان .

وانتهى السيناتور والمحامي ليليو باسو الى دعوة الحاضرين، للمشاركة في اعمال اللجنة العالمية لحقوق الشعوب، لتتنبذ جميع الانتهاكات التي تمارس ضد حقوق الشعوب، ان خبرة الفيتنام، وامريكا اللاتينية، برهنت على ان تعبئة ضمير شعوب العالم، اوضحت اليوم قوى سياسية يجب ان توضع في خدمة شعوب العالم المناضلة .

ليليو شهيد

الآن دستور العالم ، .

واتهم السيناتور ليليو باسو كل من انتقد وثيقة الجزائر في هذه الندوة، دفاعا عن الاقليات، بأنه تميز بالتعصب الأوروبي، اذ لو ان العالم كان يعترف لكل اقلية افريقيا بحق تقرير مصيرها داخل دولها المستقلة مثلا، لكانت قارة افريقيا قد تفجرت باسرها؟ اذ لكل مجموعة في افريقيا لغة، واذا ما اعتبرت اللغة، كافية لتعريف اقلية ما كشعب، لكان هناك أكثر من مئة شعب في كل دولة افريقية، ولهذا فانه يتوجب علينا ان نناضل من أجل حقوق الاقليات، ولكن يتوجب علينا أيضا، ان نناضل ضد بلقنة العالم الثالث، والبرهان على ذلك، هو ما جاء في الوثيقة نفسها، من نص لانشاء فروع اللجنة العالمية لحقوق الشعوب، في عدة حركات تحررية، وخاصة في حركات اقلية مثل الكيبيك والكتلان واسكتلندا والباسك .

وانتهى السيناتور باسو الى انه، في كل انسان عنصر فردي وعنصر جماعي، واذا لم يتحد هذان العنصران لسدى الانسان لما وجد . واتهم باسو أوروبا الغربية، بانها قد فقدت عنصرها الجماعي، اذ ان الاضطهاد الذي يعيشه كل انسان فيها، يعيشه بمفرده وباغتراب . ولذلك

رسالة صوفيا : كلمة فلسطين إلى أرباب العالم

« ان السلام في نهاية الامر هو الحالة التي تمكن الانسان من تكريس طاقاته وحواسه لتأسيس عملية الجمال الشامل، ومن امكانية ابداع نفسه وعالمه بحرية ، فتكون العلاقة بالفن احد معايير المنافسة على اكتساب الجدارة بالوجود . ولكن هذه العملية التي تتحقق في الذات ، بانجاز السلام مع النفس ، تحتاج الى شروط خارجية ، تحتاج الى صراع اكثر تعددا ليصبح السلام سيّد الكرة الارضية .

« لقد حقق الادب والفن مقدمات جذرية في اقامة هذا البناء الانساني الرطب ، جعل الاحساس بالآخر جزءا أساسيا من مقومات الشخصية . ان الادب يعلمني ان ألف سكني الآخر في ، ويعلمني ان أرى نفسي متحولا في الآخر . انه يعلمني ان اشترط وجودي بقدرتي على استيعاب الآخر في هذا الوجود . انه يوسعني ويحررني . وان قصيدة جميلة من قصائد بابلو نيرودا ، مثلا ، تجعلني - وانا في السجن - اقضي الصيف مع صيادي تشيلي على شاطئه الباسفيك .

« ولكن الادياء لا يحكمون العالم ، ولم يتحول الادب ، حتى الآن ، الى ضرورة الخبز . ان حواجز كثيرة تصد فاعلية الادب عن مجراها ، فلا يكون الادياء قادرين على التحكم بزمام اللحظة التي تدفع العالم الى الجنون ، ولا قادرين على اختراق جدران الكراهية ،

شهدت العاصمة البلغارية ، صوفيا ، واحدا من أكبر المؤتمرات الادبية العالمية التي عقدت في السنوات الاخيرة ، لترك فيه حوالي مائة وخمسين اديبا من أوروبا وأميركا وكندا لمناقشة موضوع « الاديب والسلام » . وقد استمر المؤتمر من السابع من حزيران « يونيو » الماضي حتى العاشر منه ، قدم فيه كبار اديباء العالم مفاهيمهم المختلفة للسلام ، مستلهمين روح هيلسنتكي ، دون ان يصدروا قرارات أو بيانا ختاميا ، مكتفين بالحوار والمناقشة وتبادل الآراء .

وقد دعسي للاشتراك في مناقشات المؤتمر ، بصفة مراقبين ، ممثلون عن الأرجنتين، وكوبا، وتشيلي ، وفلسطين ، والبيرو ، وجنوب افريقيا ، والباكستان، وأورجواي ، وفنزويلا ، وفيتنام ، واليابان ، والهند ، وكولومبيا ، والمكسيك .

وكان ممثل فلسطين في المؤتمر الشاعر محمود درويش الذي دعى لالقاء كلمة في الجلسة الختامية للمؤتمر ، كرس قسما كبيرا منها لمناقشة القضايا الادبية العامة وقدرة الادب على بلورة المشترك في الانسان في كل زمان ومكان، ثم طرح على المؤتمر المفهوم الفلسطيني للسلام .

وفيما يلي اهم الفقرات التي وردت في كلمته :

العريقة ، الى ارض كانت تسمى الارض المقدسة ، وارض السلام . لقد رحل عنها السلام منذ رحل عنها شعبها . وتعرضت رسائل انبيائها ومحاربت فلاحها الى المصادرة . وحلت محلها ، بالعنف والعدوان ، ايدولوجية القهر والاغتصاب في اخطر اشكال تطبيقها وحشية . وشارك الادب المعبر عن هذه الايدولوجية ، مع السلاح ، في عملية الابداء الجماعية التي تعرضت لها الارض الفلسطينية والشعب الفلسطيني وثقافته الوطنية . لقد جعلت الصهيونية الكراهية ناموس العلاقات في منطقة المشرق الاوسط . اربع حروب في ربع قرن . وما زالت اسباب الاعتداء الصهيوني ونتائجه تعد لسلسلة من الحروب لا تبدو لها نهاية . وما زالت قرارات هيئة الامم المتحدة المتتالية والمعبرة عن اعتراف المجتمع الدولي بأسره بحقوق الفلسطينيين حبرا على ورق امام المسؤولين الاسرائيليين . لقد اجمع المجتمع الدولي على ادانة الصهيونية باعتبارها شكلا من اشكال العنصرية . ومن المؤسف ان يستمر خضوع الكثير من الادب الغربي الحديث الى ابتزاز الصهيونية تحت غطاء عقدة الذنب ، فيساهم بوعي او بشكل غير مباشر في ترويج القيم العنصرية التي تشكل ضغطا سلبيا على وجدان الناس في أوروبا الغربية واميركا ، فينحرف مفهوم السلام على مساره السلبي ويتحول ، حين يقترب من حدود فلسطين، الى دعوة ظالمة لعقد المصالحة بين السجين وقيوده . ومن هنا ، لا نستطيع الامتناع عن التمييز بين ادبين . ولا نستطيع ايضا ان نتردد في اعتبار ادب الكفاح من اجل الحرية . حرية الانسان وحرية العلاقة البشرية ، ادبا يساهم ، بجدارة وامتيان ، في معركة السلام العالمية .

والعنصرية وغسيل الدماغ اليومي الذي تمارسه الآن ، اكثر من اي وقت مضى ، وسائل الاعلام الحديثة في بلدان تتحول فيها النقود الى دبابير تلاحق الاطفال . كما كان يقول غارسيا لوركا . الامر الذي يجعل المبادرة الادبية تتقهقر الى حد ما ، لانه من المستحيل ان تتحقق حرية الابدب ، كفرد ، في شروط تحجب الحرية عن شعوب . وهكذا يبحث الابدب عن دور خارج الكتابة ، ليبلبي حاجات سريعة ، وليعطي قاعليته دورا يوميا ، وليتخرط في عملية التغيير الشامل ، في صراع يتحول الالتحام فيه الى شرط من شروط حدود الادب .»

وعن اعمال المؤتمر ، قال محمود درويش :

« على الرغم من ان قضية السلام ، كما يطرحها هذا المؤتمر ، تتناول الجهود المبذولة غرب البحر الابيض المتوسط ، الاننا - سكان شرق المتوسط - نعتقد انه من الصعب تجزئة قضية السلام وحصرها في الامن الاوربي بامتداده عبر المحيط الاطلسي . ومن هنا ، فاننا نطمح الى مساهمة اكبر في عملية النضال مسن اجل ان ينتشر السلام على الارض . ونطمح الى ان يشمل مفهومك للسلام مناطق اوسع من العالم وعناصر اكبر من مكونات السلام الحقيقي تتعلق بالمسالتين الاجتماعيه والقومية . ونطمح الى ان تولى حركات التحرر في افريقيا وآسيا واميركا اللاتينية عناية خاصة فسي البحث عن شروط احلال السلام على الارض ، فان نضال هذه الشعوب يبني قاعدة واقعية للعلاقة الحقيقية بين السلام والحرية والعدل . ان بؤرة الحرب تأخذ ، شرق المتوسط ، احد اشكال الاشكال خطورة لا يستطيع الامن الاوربي، مثلا ، ان يتحصن من آثارها .

« انني انتمي الى ارض الحضارات

والا ، فآين يضع الفلسطيني سلامة ؟ هل في مخيمات الصليح ؟ ام في « الشجون الاسرائيلية ؟ ام في الانتقاض ؟ ان مثل هذا السلام مضطر الى حمل السلاح ليبقى حيا .. ليبقى واقغيا .. لان السلام ، كالأنسان ، يحتاج الى وطن .. الى بيت ليعيش . ويطمح الفلسطيني الى كتابة شعار « نحن نريد السلام » على جدران بيته المستقل ، ولكن طالما لم يبلغ هذا البيت فانه مضطر الى كتابة الشعار على بندقيته الثورية . لذلك ، استطاع الرأي العام العالمي ان يفهم صرخة قائد الشعب الفلسطيني والثورة الفلسطينية ياسر عرفات في هيئة الامم المتحدة : « جنتم بغصن الزيتون في يدي ، وبالبنديقية في اليد الاخرى ، فضلا تسقطوا الغصن الاخضر من يدي » .

« هنالك اجماع على القول ان لا مستقبل للإنسان بدون سلام . هذا صحيح ، وصحيح ايضا ان لا مستقبل للإنسان بدون حرية . ولا حرية للإنسان بدون وطن . ويعرف شعبي من تجربته المرة في مخيمات البؤس والمذابح والمناقي والنجون ان قضية السلام هي قضية الصراع والنضال من اجل الحرية والوطن : ان السلام يتحقق ، ولا يتناقض مع الكفاح من اجل الحرية ، لان السلام ليس تنازل الشعوب عن حقوقها ، بل هو القتال من اجل تحقيق هذه الحقوق . هذا هو مفهومنا للسلام : ان نتحرر نحن والوطن .

« ان الشعب الفلسطيني هو من اشد الشعوب حاجة الى السلام . ولكنه لا يستطيع بناء السلام الا على ارضه .

جدول بالعمليات العسكرية لقوات

السلح المستعمل	نوع العملية	موقعها	تاريخ العملية		الرقم
			الساعة	اليوم	
عبوات ناسفة موقوتة	تفجير	احد الباصات التابعة لشركة ايجد ما بين كريات جات ويثر السبع	٧ر٢٠ صباحا	٧٧-٤-٢٤	١
اسلحة رشاشة	كمين	الطريق الرئيسي ما بين اريحا والقدس	١٧ر١٥	٧٧-٥-٤	٢
عبوات حارقة موقوتة	تفجير	احد المباني السكنية الصهيونية الجديدة - اللد	٢٠ر٥٥	٧٧-٥-٤	٣
عبوات ناسفة موقوتة	تفجير	الطريق ما بين قلقيلية وكفار سابا احد الباصات التابعة لشركة ايجد	٨ر١٥ صباحا	٧٧-٥-٦	٤
قنابل يدوية واسلحة رشاشة	هجوم	وادي التفاح غربي مدينة نابلس	٤ر٠٠ صباحا	٧٧-٥-١٦	٥
عبوات ناسفة مشرقة موقوتة	تفجير	يافا - مركز الشبيبة الصهيوني	٢٢ر٠٠	٧٧-٥-١٦	٦
عبوات ناسفة موقوتة	تفجير	نايلس حاجز تفريش للجيش الصهيوني	٩ر٣٠ صباحا	٧٧-٥-١٧	٧
عبوات ناسفة مشرقة	تفجير	حفرق قرية قوصين طريق نابلس - طولكرم	٨ر١٥ صباحا	٧٧-٥-١٧	٨
عبوات حارقة موقوتة تشديد الانفجار	تفجير	يتاح تكفا - مستودعات البلدية وخزانات الوقود التابعة لها	١٩ر٠٠	٧٧-٥-٢٤	٩
عبوات ناسفة مشرقة	تفجير	القدس احد الباصات الصهيونية التابعة لشركة ايجد والمعامل على رقم ١٢	١٦ر٠٠	٧٧-٥-٢٤	١٠
عبوات ناسفة موقوتة	تفجير	القدس شارع دائيد - احد المحلات التجارية الواقعة فيه	١٣ر٠٥	٧٧-٥-٢٨	١١

الثورة الفلسطينية في ٢٤/٤ - ٢٨/٥/١٩٧٧

المصدر - البلاغ العسكري		خسائر المقاومة			خسائر العدو المادية	خسائر العدو البشرية	
تاريخ	رقم	مفقود	جريح	شهيد		جريح	قتيل
٤-٢٥	٧٧-٤٥	—	—	—	١ - تدمير الباص تدميراً تاماً وتدهوره في الوادي المحاذي للطريق * ٢ - اصابة وقتل جميع الركاب الصهاينة	غير محدد	غير محدد
٥-٥	٧٧-٤٦	—	—	—	١ - مقتل العميد الصهيوني دوف كورتس ٢ - مقتل سائقه ليفي كوف	—	٢
٥-٥	٧٧-٤٧	—	—	—	١ - اندلاع النيران في الطابق الثاني من المبنى ٢ - امتدادها الى الطابقين الثالث والرابع ٣ - عشرات الآلاف من الليرات ٤ - اصابة عدد كبير من المستوطنين الصهاينة	غير محدد	غير محدد
٥-٦	٧٧-٤٨	—	—	—	١ - الحق الانفجار خسائر فادحة بالباص		
٥-١٧	٧٧-٤٩	—	—	—	الاستيلاء على رشاشين من نوع عوزي	٢	٤
٥-١٨	٧٧-٥٠	—	—	—	١ - اصابة عدد من افراد الشبيبة الصهيونية المواجدين داخل المركز * ٢ - اصابة المركز باضرار بالغة وتحطم معظم محتوياته وتساقط معظم زجاجه ٣ - تحطم واجهة المدخل واصابة عدد من السيارات		
٥-١٨	٧٧-٥١	—	—	—	١ - اصابة السيارة باضرار بالغة	٢	—
٥-١٩	٧٧-٥٢	—	—	—	١ - تدمير كشك التفتيش تدميراً تاماً ٢ - اصابة جندي صهيوني بجراح خطيرة	١	
٥-٢٦	٧٧-٥٣	—	—	—	١ - احراق مستودعات البلدية بالكامل ٢ - احراق وتدمير خزانات الوقود ٣ - اصابة عدد من المحلات والمباني المجاورة باضرار بالغة *	غير محدد	غير محدد
٥-٢٦	٧٧-٥٤	—	—	—	١ - احداث اضرار بالغة بداخل الباص	—	—
٥-٢٨	٧٧-٥٥	—	—	—	١ - تدمير المحل التجاري واثلاف معظم محتوياته ٢ - تحطم زجاج معظم المحلات المجاورة	غير محدد	غير محدد

